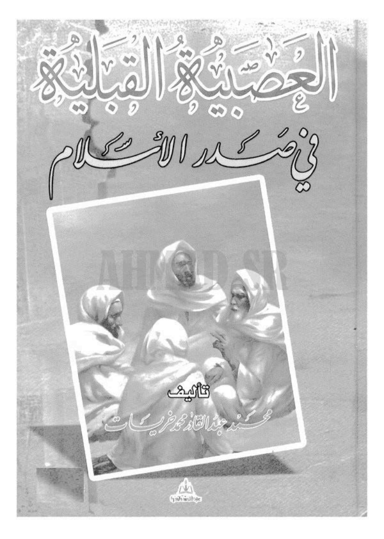

العصبية القبلية
في صدر الإسلام
تأليف
محمد عبد القادر محمد خريسات
AHMED SR







العصبية القبلية في صدر الاسلام



العصبية القبلية في صدر الاسلام

تاليف
محمد عبدالقادر محمد خريسات

٢٠٠٥م

محمد عبدالقادر خريسات

العصبية القبلية في صدر الإسلام

الناشر

مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع

اربد - الاردن

تلفاكس 7270100-2-00962 ص. ب. 1284 اربد 21110.

رقم الاجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (٢٠٠٥/٣/٥٨٣)

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٥/٣/٥٩٤)

٩٥٦،٠٢

خريسات، محمد عبدالقادر

العصبية القبلية في صدر الإسلام / محمد عبدالقادر خريسات

اربد : مؤسسة حماده، ٢٠٠٥

ر. أ.(٢٠٠٥/٣/٥٩٤)

الواصفات : التاريخ الإسلامي/

تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اللهم لك جزيل الحمد، وموفور الشكر على ما حبوتنا به من نعمة التوفيق وما أسبغت علينا من هداية أنارت لنا السبيل وذللت لنا الصعاب، والصلاة والسلام على رسوله وصحبه الأبرار.

وبعد،

فقد عاش العرب في الجزيرة العربية على شكل مجتمعات صغيرة، يتمسك فيها الفرد بتقاليد الآباء والأجداد، وهذه المجتمعات عرفت باسم القبائل والعشائر، لقد كانت هذه القبائل متناثرة فوق ربوع الجزيرة العربية، لا يجمعهم رابط غير رابطة الدم واللغة فلم يكن هناك وحدة سياسية تظلهم ولا وحدة دينية تجمعهم، الفرد في الجزيرة العربية قبيلة والقبيلة فرد. مثلهم الأعلى أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، مصلحة القبيلة فوق كل شيء وفوق كل اعتبار، فكانت الفردية والقبلية تخلق أحداثاً جاهلية تمتد على طول السنة دون توقف.

لقد أثر عرب الجزيرة العربية العنف والغزو على كل شيء، ومن جراء ذلك أصبحت الجزيرة في صراع دائم، الكل بين طارد ومطرود، ومن هنا عشقوا الحرية كما عشقوا الثأر، بل جعلوه فريضة مقدسة يطلبونه ولو بعد عشرات السنين. لقد كانت القبلية مستشرية في كل شيء فللقبيلة أب واحد ينحدرون منه، ولها أرض معينة تسكنها يحرم علي الآخرين دخولها، ولها لهجتها الخاصة بها. أما طقوسها الدينية فهي مميزة عن طقوس القبائل الأخرى.

وفي مطلع القرن السابع الميلادي، ظهر الرسول الكريم ﷺ فدخل في صراع عنيف مع الوثنية، واستطاع عليه السلام أن يطيح بعروش الوثنية وأن يكون نظاماً عالمياً فيه خير الانسانية جميعاً. لقد جعل الاسلام الوحدة والتماسك العنصر الأساس للمجتمع السليم. فأوجد شعوراً واحداً وقلباً واحداً وسبيلاً واحداً وهدفاً واحداً.

لقد حقق الإسلام روح الوحدة الدينية والوحدة الاجتماعية فحمى المجتمع الجديد من آفات الجاهلية، جاء الإسلام يحمل الإيمان واليقين والصدق والعزيمة ويزرع في سلوك الأمة الخير والصلاح، جاء يحذر من الفرقة والاختلاف ويحث على سبل الخير المعروف، ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[1].

لقد فتح الإسلام صفحة في الإنسانية فوحد العرب وجمع كلمتهم وجعلهم أمة من الأمم. فانتقلت العرب من قبائل متفرقة إلى أمة مؤتلفة القلوب ترفع توحيد الله في بلاد الله، وتصنع حضارة وأمجاداً. لقد زرع الإسلام في نفوس الناس نهجاً جديداً وأجرى في عروقهم دماً جديداً.

لكن مع ما جاء به الإسلام لم يستطع أن يستأصل جذور العصبية القبلية، إلا أنه مع ذلك استطاع اخمادها لـوقت من الزمن والتخفيف من ويلاتها. لقد وصفها الرسول ﷺ بأنها منتنه وحث على تركها، وحذر الأمة من أخطارها إلا أنها ظهرت في حياته بين فترة وأخرى. وما أن انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى حتى تحركت بوادر العصبية القبلية من جديد سواء في طلب الخلافة، أو في ظهور حركة الردة. وقد استطاع الاسلام أن يتغلب ثانية لظهور العصبية بين المرتدين ووحدة وتآلف المسلمين.

واستمرت العصبية القبلية مع استمرارية المجتمع العربي، وجاءت النظم الإدارية والعسكرية والمالية لتحافظ على وحدة القبائل فانتقل العرب من الفتوحات يحملون معهم عصبيتهم الجديدة ضد الروم والفرس فأينعت ثمار هذه العصبية، لكنها بعد فترة بسيطة عادت لتمزق المجتمع الاسلامي وتعود من جديد وكأنها انتقلت من عصبية الخيام الى عصبية القصور أو من الصحراء إلى المدن. بل ونشأت عصبيات جديدة وهي عصبيات الأمصار أو العصبية الاقليمية. لقد استمرت العصبية القبلية دون انقطاع فكان لها دورها في مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه وفي النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤-١٠٥.

وفي العهد الأموي برزت العصبية بأوسع مما كانت عليه سابقاً، وكأن جاهلية جديدة قد عادت فالدولة الأموية قامت نتيجة بروز التيارات القبلية وتهاوت عندما تآكلت الاتجاهات القبلية التي قامت عليها.

ولم يقتصر أثر العصبية على الناحية السياسية فحسب بل امتدت آثارها إلى النواحي الاجتماعية والفكرية والدينية. لقد ظهرت عصبيات قبلية انتهجت منهجاً سياسياً وارتدت ثوباً دينياً كحركة الخوارج التي جاءت لتندد بسيطرة قريش على الخلافة ورفعت شعار ديمقراطية الخلافة على أنها حق لكل مسلم وليست قصراً على قبيلة دون أخرى.

وفي مجال النواحي الاجتماعي غرست الحزازات والحقد بين القبائل العربية وقسمت الأمة شيعاً واحزاباً، أما في المجال الفكري فقد ازدهرت الحركة الشعرية نتيجة المهاترات التي ثارت بين الشعراء وخاصة في العهد الأموي.

ولقد حفزني للكتابة بهذا الموضوع هو أن دراسة هذه الظاهرة التاريخية والاجتماعية من شأنها أن تبصر الأمة العربية والاسلامية بخطر العصبية الذميمة التي تمزق البلد الواحد وتشتت المجتمع المتآلف، وتشعل نار الخصومات. وقد تنتقل من الآباء إلى الأبناء.

والعصبية ليست قصراً على البدو والصحراء والخيام، فهي كما تنشأ بين البداوة تظهر في قصور الحضر كما أنها ليست عند العرب وحدهم بل في جميع المجتمعات حتى أرقاها حضارة وديمقراطية. إلا أنها لا تبلغ شدتها كما هي عند العرب. وبالنسبة للعالم العربي لا تزال أقطار كثيرة تعاني منها فالقيسية واليمانية كانت إلى عهد قريب في لبنان وآخر حرب كانت بينهما سنة ١٧١٠ في قرية عين داره في جبل لبنان كما ثارت أيضاً في قرية خربتا في فلسطين[1].

وفي كتابتي لهذا الموضوع واجهت صعوبات جمة أهمها أن المصادر القديمة لم تفرد لهذه الظاهرة بحثاً وإنما كانت ترد ضمن اشارات عابرة وجمل متناثرة وهي في ذاتها لا تؤلف وحدة موضوعية كما أنها تخلو من التسلسل التاريخي.

---

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، الجزء الأول، دمشق ١٩٢٥، ص ٦٧.

ومن هنا كنت مضطراً لدراسة المصادر القديمة علني أظفر بما يشير إلى هذه الظاهرة وإن ظفرت بشيء من هذا فإني كنت لا أجد ما يرشدني إلى ما وراءها من الأسباب والدوافع. كما كنت مجبراً أيضاً على قراءة كل مصدر من الفه الى يائه.

وفي المراجع الحديثة لم يتطرق إلى هذا الموضوع إلا القليل ومنهم الدكتور علي مظهر في كتابه العصبية عند العرب وأثرها على الدولة الأموية وليس في هذا الكتاب ما يسد رمق الباحث.

على أن أفضل من كتب في هذه الظاهرة وهو الدكتور احسان النص في كتابه العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، والواقع أني أفدت من هذا الكتاب كثيراً.

وقد تعرض لدور العصبية القبلية أيضاً الدكتور عبدالعزيز الدوري في كتابه مقدمة في تاريخ صدر الإسلام. ومن المستشرقين فقد كان لفلهوزن فضل لا ينكر في لفت الأنظار الى الدور الذي لعبته العصبية القبلية على الدولة الأموية وذلك في كتابه "الدولة العربية وسقوطها".

وحتى أتمكن من الإلمام بالموضوع تماماً كنت مضطراً إلى دراسة المصادر الدينية والتاريخية والأدبية كي أجمع مواد البحث من أصولها.

فبالنسبة للمصادر الدينية فقد كان القرآن الكريم المصدر الأول والأهم في بحثي فقد استشهدت بالايات التي تنهى عن العصبية القبلية والآيات التي تحث على الألفة وجمع الكلمة.

والاستشهاد بالآيات القرآنية استدعاني إلى الرجوع إلي كتب التفسير ومنها "جامع البيان في تفسير القرآن" للطبري و "تفسير القرآن العظيم لابن كثير" و "الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" للزمخشري كما رجعت إلى كتب الحديث حيث اعتمدت على صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود والفائق في غريب الحديث للزمخشري و "تنزيه الشريعة المرفوعة" لابن عراق.

أما المصادر التاريخية فقد اعتمدت بالدرجة الأولى على المصادرة الأصلية، فاطلعت على كتب التاريخ العام والأنساب والطبقات والفتوحات والبلدان.

أ- **المخطوطات:** أهم المخطوطات التي اعتمدت عليها هي :

١ . أنساب الأشراف للبلاذري (٢٧٩هـ/ ٨٩١م) الجزء الحادي عشر مخطوط مصوره بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩١٧ت ويبدأ المخطوط من خروج مصعب ابن الزبير إلى العراق حتى نهاية ثورة ابن الأشعث .

٢ . قيد الشريد في أخبار يزيد لشمس الدين محمد بن طولون الصالحي المتوفى ٩٥٣هـ والمخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٧٥٨ت وفيه يدافع المؤلف عن الاتهامات التي وجهت إلى يزيد بن معاوية .

٣ . الأعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام ليوسف بن محمد بن ابراهيم الانصاري البياسي المتوفى (٦٥٤هـ) وفيه يبحث المؤلف في الفتن والوقائع التي حدثت في صدر الاسلام . والمخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٤٦٠ت . وقد علمت أن باحثاً اردنياً وآخر عراقياً قد قام كلا منهما بتحقيق جزء منه ولم ينشر بعد .

٤ . الفاصل بين الحق والباطل من مفاخر قحطان لمؤلف مجهول والمخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٣٥٤ت وفيه مادة تتعلق بطبقات العرب ومفاخر القحطانيين وحلف ربيعة وكنده في الجاهلية والاسلام وردة القبائل اليمانية والفتن في العصر الأموي[1] .

٥ . اخبار العباس وولده . والمخطوط مصورة في معهد الدراسات الاسلامية العليا ببغداد وتبحث في أخبار العباس وولده وفيها أخبار مفصلة عن نشأة الدولة العباسية ونهاية الدولة الأموية والأوضاع بخراسان . وقد اعتمد المؤلف وهو مجهول . في رواياته على أبي مخنف المتوفى (١٥٧هـ) ومصعب الزبيري (٢٣٥هـ) وعمر بن شبه (٢٦٢هـ) والبلاذري (٢٧٩هـ) وقد اعتمدت عليه كثيراً لانفراده ببعض الروايات التي تبين حالة خراسان في نهاية الدولة الأموية . وقد حقق المخطوط الدكتور عبدالعزيز الدوري .

(١) سينشر المخطوط قريباً من قبل المؤلف.

٦. الآثار الرفيعة في مآثر ربيعة لرضى الدين محمد بن ابراهيم بن يوسف التأذفي (٨٧٧-٩٧١هـ) والمخطوط مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٢ت وفي المخطوط مفاخر ربيعة على غيرها من القبائل وخاصة مضر.

ب- **كتب التاريخ**، وأولها كتب السير: ومن السير مغازي الواقدي (٢٠٧هـ)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢١٨هـ).

والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبدالبر (٣٦٨-٤٦٣هـ) وانسان العيون في سيرة الأمين المأمون الشهيرة بالسيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي (٩٧٥-١٠٤٤هـ).

وفي التاريخ العام والأنساب والطبقات اعتمدت على أهم المراجع التالية:

ففي الانساب والطبقات: اعتمدت على كتاب حذف من نسب قريش لمؤرج بن عمر السدوسي المتوفى (١٩٥هـ) وكتاب نسب قريش لمصعب الزبيري (١٧٦-٢٣٦هـ) وجمهرة نسب قريش للزبير بن بكار (١٧٢-٢٧٦هـ) وجمهرة أنساب العرب لابن حزم (٣٨٤-٤٥٦هـ) والأنباء على قبائل الرواه لابن عبدالبر (٤٦٣هـ) ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي (٨٢١هـ) وأهم هذه المصادر هي:

١. **الطبقات الكبرى: محمد بن سعد (١٦٨-٢٣٠هـ)**:

يهتم كتاب الطبقات بالشخصيات الدينية أكثر من اهتمامه بالشخصيات السياسية ومع ذلك ففيه أخبار سياسية وخاصة ما كان في زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان.

٢. **تاريخ ابن خياط وطبقاته: خليفة بن خياط (٢٤٠هـ)** حقق كتاب التاريخ حديثاً وقد قام بتحقيقه كل على انفراد أكرم العمري من العراق وسهيل زكار من سوريا. أما كتاب الطبقات فقد حققه أكرم العمري من العراق.

وابن خياط مؤرخ عصري استعمل الأسانيد في رواياته وهي في التاريخ اكثر منها في الطبقات. وقد ركز على الأسانيد خاصة في الأمور التي تحتاج أخبارها إلى تدقيق خوفاً من تأثير الأهواء فيها كالفتنة زمن عثمان وموقعة الجمل وصفين وبيعة أهل الحجاز

ليزيد ووقعة الحرة وثورة ابن الاشعث ونشأة الدعوة العباسية وبيان المصالح القبلية في خراسان. وفي التاريخ ميزة لا تتوفر عند غيره وهي أنه كان يورد قوائم بعد كل خليفة تتضمن أسماء الولاة ورؤساء الشرطة والدواوين وموظفيها وهذه القوائم مفيدة لمن يهتم بالنواحي الإدارية.

ومن أشهر من أخذ منهم ابن خياط ابن اسحق (١٥١هـ) ووهب بن جرير وأبو معشر السندي (١٧٠هـ) وأبو اليقطان سحيم بن حفص (١٩٠هـ) وأبو عبيد بن معمر بن المثنى (٢٠٩هـ) وعلى بن محمد المدائني (٢٢٥هـ) وغيرهم أما كتاب الطبقات فهو يخلو من الاسناد في بعض الأحيان وفيه معلومات لمن يهتم بسلاسل الانساب.

٣. **مؤلفات محمد بن حبيب البغدادي (٢٤٥هـ).**

أ- المنمق في أخبار قريش: طبع الكتاب حديثاً في الهند -دار الدكن. وبه معلومات مفصلة عن قريش ودياناتها واحلافها ومفاخراتها، والكتاب لا غنى عنه لأي باحث يود دراسة المجتمع المكي.

ب- المحبر فيه معلومات قيمة عن العصر الجاهلي وعن رجالات العرب، والمآثر القرشية في الجاهلية والديانات الوثنية والقبائل وأنواعها والاسواق كما تعرض للفتن الاسلامية وإن لم يفصل بها كما يحوي ايضاً معلومات متفرقة عن الدولة الأموية.

جـ- اسماء المغتالين من الاشراف، لقد اعتمدت المخطوطة المصورة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ت ٣٥ وفيه اخبار عن يوم الفجار والردة، فتنة الجمل وفتنة البصرة بعد موت يزيد بن معاوية.

٤. **مؤلفات محمد بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ).**

أ- المعارف: اهتم ابن قتيبة بالناحية الأدبية أكثر من اهتمامه بالناحية التاريخية. ومع ذلك فإن كتاب المعارف يتطرق لبعض الحوادث السياسية والمسائل الإدارية. كما أن أهمية هذا الكتاب تعود إلى أن المؤرخ قد اعتمد على من سبقه أو عاصره من المؤرخين.

ب- الإمامة والسياسة: ينسب هذا الكتاب إليه. ويحوي هذا الكتاب روايات لاترد عنه غيره. كما أن بعض هذه الروايات تخلو من ذكر الاسانيد ويكتفى بالاشارة إلى قوله "قالوا" أو "ذكروا" ولذا على الباحث أن يقف على هذه الروايات ويقارنها بغيرها.

جـ- عيون الأخبار: يهتم الكتاب بالنواحي الأدبية وهو ضروري لكل من يرغب في الكتابة عن العصر الجاهلي، كما أنه مفيد لكل من يرغب في الاطلاع على الخطب وخاصة في الفترة الاسلامية.

٥. **مؤلفات أحمد بن يحيى البلاذري ٢٧٩هـ.**

أ- فتوح البلدان: لقد كان البلاذري يهتم بتحري رواياته ويستخلص منها ما يراه مناسباً. وفي كتابه هذا يهتم بذكر أخبار الفتوحات العربية ومع ذلك لا ينسى البلاذري التعرض للحوادث السياسية وجمع المعلومات عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في المناطق التي فتحها العرب.

ب- أنساب الأشراف: لم يطبع من هذا الكتاب سوى الجزء الأول وقد قام بتحقيقه الاستاذ محمد حميد الله. وهذا الجزء يبحث في نسب بني هاشم. والجزءان الرابع والخامس وقد طبعا في القدس سنة ١٩٣٨ ويبحثان في نسب بني أمية. ومع أن هذا الكتاب يهتم بالانساب إلا أن فيه عرضاً تاريخياً أعطى للبلاذري شهرة حتى أنه اعتبر من أهم المؤرخين العرب في العصور الوسطى[1] كما وثقه مؤرخون جاءوابعده كالجهشياري والصولي والمقريزي والذهبي.

٦. **الأخبار الطوال: أحمد بن داود الدينوري (٢٨٢هـ):**

يحتوي هذا الكتاب على معلومات وأخبار تاريخية لا توجد عند غيره. ولكنه يذكر رواياته بدون اسناد وفي بعضها اضطراب إلا أن الرجوع إليها أمر لا بد منه حتى يتمكن الباحث من مقارنتها مع الروايات الأخرى. وفي الأخبار الطوال ميزة في أنه يتحدث عن دور القبائل والعصبية القبلية في خراسان وخاصة بعد موت الوليد بن يزيد.

---

(١) بلياييف، العرب والإسلام والخلافة العربية. تعريب الدكتور أنيس فريحة، بيروت ١٩٧٣م.

٧. مؤلفات اليعقوبي: احمد بن أبي يعقوب بن جعفر (٢٨٤هـ):

أ- التاريخ: اليعقوبي معاصر للدينوري وكما انفرد الدينوري في بعض الروايات فقد شابهه اليعقوبي أيضاً. كما أنه يذكر رواياته في غالب الأحيان بدون ذكر الأسانيد. وفي مقارنة رواياته بغيره وخاصة الطبري نجد أنه أخذ عن مصادر غير التي اعتمد عليها الطبري. وتظهر في كتاباته تجاهات علوية إلا أنه معتدل.

ب- البلدان: فيه معلومات قيمة عن حركة القبائل واستقرارها وخاصة في بلاد الشام.

٨. تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ).

يعتبر كتاب الطبري من أهم المراجع في التاريخ الاسلامي. وتتسم رواياته بالواقعية التاريخية. يبدأ الطبري تاريخه منذ بدء الخليقة وفي العهد الاسلامي يبدأ بالتسلسل الهجري فيذكر الأعمال الحربية والسياسية. وقد كان يحرص على ذكر مختلف الروايات حول حادثة معينة ومن هنا جاءت بعض رواياته لا انسجام بينها ولاتوافق.

وربما كان حرص الطبري على ذكر جميع المصادر هو السبب في ذلك. واهتم الطبري أيضاً بشرق الدولة الاسلامية أكثر من غربها يرجع ذلك إلى أن غالبية من أخذ عنهم الطبري هم من المؤرخين العراقيين. وربما كان ذلك هو الدافع لابن الأثير والذي اعتمد على الطبري بدرجة كبيرة إلى البحث عن مصادر أخرى وخاصة ما تعلق منها بأخبار الجزيرة الفراتية وغرب الدولة الاسلامية.

٩. كتاب الفتوح لأحمد بن أعثم الكوفي (٣١٤هـ).

لم يعرف هذا الكتاب إلا حديثاً، ومن هنا لم يستعمله إلا قليل من المؤرخين وهذا الكتاب يبدأ من مؤتمر السقيفة حتى عهد الخليفة العباسي المعتصم.

ويمتاز كتاب الفتوح على كتاب الطبري في توضيحه للحالة في خراسان في العهد الأموي. وفي الكتاب معلومات قيمة عن استقرار العرب في خراسان وأرمينيا كما يتعرض للخليفة عثمان بن عفان وثورة المختار ووقعة صفين.

١٠. مؤلفات المسعودي: علي بن الحسين المسعودي (٣٤٥هـ).

أ- مروج الذهب ومعادن الجوهر.

ب- التنبيه والاشراف.

لا يعطي المسعودي روايات تاريخية متسلسلة الحلقات إنما يهتم ببعض الأحداث دون غيرها. وفي كتبه معلومات لا تتوفر عند غيره تتعلق بثقافة الشعوب الخاضعة للدولة الاسلامية وعاداتها ومعتقداتها هذا فضلاً عن ثقافة الأقطار التي كانت لها علاقات اقتصادية وسياسية مع الخلافة.

وهناك ملاحظة وهي أن المسعودي يمدنا بمعلومات طريفة يدخل فيها بعض الأساطير والقصص الشعبية من هنا كان على الباحث أن يحذر الاسلوب الشيق الذي سرد به رواياته وخاصة ما جاء منها بدون اسناد.

١١. العيون والحدائق في أخبار الحقائق:

مؤلف هذا الكتاب مجهول والكتاب موجود منه الجزء الثالث ويبدأ منذ خلافة الوليد بن عبدالملك إلى خلافة المعتصم ٢١٨هـ. وتعود أهمية الكتاب إلى ذكره بعض روايات لا تتوفر عند الطبري إلا أن المؤلف لا يذكر الأسانيد.

١٢. ومن المؤلفات أيضاً وقعة صفين لنصر بن مزاحم (٢١٢هـ).

وفي هذا الكتاب معلومات عن دور القبائل العربية في معركتي الجمل وصفين والنزاع بين علي ومعاوية.

ومن المصادر عن العصبية مقدمة ابن خلدون وهي مرجع هام لدراسة الأنظمة العربية القبلية، وفيها الكثير من التعاميم والاستنتاجات القيمة والمعطيات الممتعة. وقد عنى ابن خلدون في مقدمته بالنظم الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع العربي القبلي. كما تطرق إلى بحث دور العصبية في نشوء الممالك.

ومن كتب التراجم رجعت إلى سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبد الحكم (٢٥٧هـ) والاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبدالبر (٤٦٣هـ) وكتابي سيرة عمر بن الخطاب

وسيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي (٥٩٧هـ) وأسد الغابة لابن الأثير (٦٣٠هـ) ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١هـ) والاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ).

وفي كتب البلدان والفتوح رجعت إلى أخبار مكة للأزرقي، وصفة جزيرة العرب للهمداني (٣٣٤هـ) والاعلاق النفسية لابن رسته وتاريخ الموصل للأزدي، وزبدة الحلب في أخبار حلب لابن العديم، وأسماء جبال تهامة لعرام الاسلمي وفتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم وفتوح الشام للأزدي وشفا الغرام في أخبار البلد الحرام للفاسي.

أما المصادر الأدبية فأهم المراجع التي اعتمدت عليها: "الأغاني للأصفهاني" و "الاشتقاق لابن دريد والعمدة" لابن رشيدق و "خزانة الأدب" للبغدادي و "البيان والتبيين" للجاحظ و "حماسة أبي تمام وحماسة البحتري والمفضليات" للضبي و "العقد الفريد" لابن عبدربه و "بلوغ الأرب" للألوسي و "نهاية الأرب" للنويري و "الكامل في اللغة والأدب" للمبرد و "نقائض جرير والأخطل و "نقائض جرير والفرزدق".

ومن كتب المحدثين اعتمدت على "تاريخ الأمم الاسلامية" للخضري و "تاريخ الاسلام السياسي" لحسن ابراهيم حسن و "تاريخ العرب" لفليب حتي "والنظريات السياسية الاسلامية" لمحمد ضياء الدين الريس و "تاريخ التمدن الاسلامي" لجرجي زيدان، "التاريخ الاسلامي" لأحمد شلبي، "المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام" لجواد علي، "مقدمة في تاريخ صدر الاسلام" لعبد العزيز الدوري، "التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة" لصالح احمد العلي و "الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري" لمحمد حسين الزبيدي و "التاريخ السياسي للدولة العربية" لعبدالمنعم ماجد و "العراق في العهد الأموي" لعلي حسني الخربوطلي و "طبيعة الدعوة العباسية" لفاروق عمر و "صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من آثار" لمحمد بن عبدالله بليهد النجدي.

وفي الكتب الأدبية "تاريخ الشعر السياسي" و "تاريخ النقائض في الشعر الجاهلي" لأحمد الشايب و "مصادر الشعر الجاهلي" لناصر الدين الأسد"، و "شعراء نجد والحجاز والعراق" لشيخو و "أدب السياسة في العصر الأموي" لأحمد محمد الحوفي و "الصعاليك في العصر الجاهلي" ليوسف خليف.

أما بالنسبة للمصادر الأجنبية المعربة فقد رجعت إلى كتاب الدولة العربية وسقوطها لفلهوزن و "حضارة الاسلام" لخودا بخش و "تاريخ الشعوب الاسلامية" لبروكلمان و "السيادة العربية" لفان فلوتن و "الخلافة" لأرنولد و "حضارة العرب" لغوستاف لوبون.

وقد قسمت البحث إلى ثمانية فصول. ففي الفصل الأول تعرضت للعصبية القبلية في العصر الجاهلي من حيث تعريفها وأقسامها والأسس التي قامت عليها ثم مظاهرها ودواعي ظهورها كما تطرقت في لمحة سريعة عن المجتمع المكي قبل البعثة النبوية.

وفي الفصل الثاني تعرضت للعصبية القبلية في عهد الرسول من حيث: موقف الاسلام منها وموقف قريش والقبائل العربية من الدعوة الاسلامية.

أما الفصل الثالث فيبحث في تجدد العصبية القبلية بعد وفاة الرسول ﷺ والتي ظهرت في التنافس على الخلافة وفي حروب الردة. كما تناولت مظاهرها في عهد عمر بن الخطاب من حيث النظام الحربي وبناء المدن ونظام العطاء.

وفي الفصل الرابع تحدثت عن دور العصبية القبلية في الثورة على عثمان وقد مهدت لذلك بالهجرات القبلية ونشوء العصبيات الاقليمية ثم تناولت مجلس الشورى وانتخاب عثمان والحالة في عهده، ثم تطرقت إلى دور العصبية القبلية في الفتنة والثورة عليه.

أما الفصل الخامس فتكلمت فيه عن دور العصبية القبلية في النزاع بين علي ومعاوية وبدأته في التيارات المؤثرة في انتخاب علي وأثر معركة الجمل في موقف علي ثم عن دور القبائل في معركة صفين واثر هذا الصراع في انتقال الخلافة إلى البيت الأموي.

وفي الفصل السادس تكلمت عن العصبية والفتن القبلية في العهد السفياني وأثرها في انتقال الخلافة إلى البيت المرواني.

أما الفصل السابع تعرضت للعصبية في العهد المرواني حتى وفاة عمر بن عبدالعزيز وقد تضمن الصراع بين القيسية واليمانية في الشام وسياسة عبدالملك ثم الفتن في العراق وأخيراً الحالة في عهد الوليد وموقف سليمان وعمر بن عبدالعزيز من هذه العصبية .

أما الفصل الثامن فقد تناولت فيه العصبية في عهد يزيد الثاني وهشام بن عبدالملك والوليد بن يزيد وأخيراً الفتن القبلية في مختلف امصار الدولة الاسلامية وأثر ذلك على سقوط الدولة الأموية .

هذا ولا يفوتني هنا أن أقدم شكري وعظيم امتناني إلى كل من ساعدني في هذه الرسالة وأخص بالذكر فضيلة الاستاذ الدكتور عبدالفتاح علي شحاته المشرف على الرسالة الذي منحني من وقته الشيء الكثير والذي كان لتوجيهاته الأثر الكبير في مساعدتي لإخراج هذه الرسالة . والله تعالى نسأل أولاً وأخيراً - أن يلهمنا التوفيق والسداد

وأن يمدنا بروح من عنده - ويتقبل منا أعمالنا وأقوالنا بقبول حسن ، ومنه الهدى وهو ولي التوفيق

محمد عبدالقادر محمد خريسات

القاهرة ١/٦/١٩٧٥



الفصل الأول
العصبية القبلية في العصر الجاهلي

الأسس التي تقوم عليها العصبية القبلية

أ- وحدة الدم والنسب

ب- مجتمع القبيلة

جـ- الأرض والمياه

د- اللغة

هـ- الدين

مظاهر التقارب والنزاع القبلي

دواعي ظهور العصبية القبلية وأثرها في العصر الجاهلي

المجتمع المكي قبل البعثة النبوية

العصبية القبلية: تعريفها وأقسامها

١. تعريفها:

العصبية مشتقة من : "عصب" وجمعها أعصاب، والعصب هو الطى الشديد. وكل شيء استدار بشيء فقد عصب به. ويقال عصب بالرجل عصبا أي أحاطوا به لقتال أو حمية. وعصب القوم بالنسب أحاطوا به. وعصبة الرجل بنوه الأقربون.

وجاءت عصب بمعنى شد وضم. فعصب رأسه أي شده، وعصب الشجرة يعصبها عصبا. أي ضم ما تفرق منها بحبل. وتعصب بمعنى تشيع والعصبية والتعصب تعنى المحاماة والمدافعة وعصبة الرجل قومه الذين يتعصبون له ويقال للرجل الذي يغضب لعصبته ويحامي عنها ويعينهم ولو على الظلم عصبى.

وبالمعنى الاصطلاحى تعنى العصبية : أن يدعو الرجل الى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أم مظلومين[١].

وتختلف شدة العصبية باختلاف درجات القرابة . فهى تشتد في النسب الخاص لقرب اللحمة[٢] وتضعف كلما بعد النسب . فعصبية الاسرة هي من أشد العصبيات وتخف كلما امتدت الى الفخذ أو البطن . ومن هنا يمكن تقسيم العصبية الى قسمين[٣]

أ- العصبية المركبة أو العصبية الجامعة . فهذه العصبيات بمثابة الوعاء الكبير الذي يحوي بداخله العصبيات الصغرى . وهي عند العرب تتمثل بالفرعين الكبيرين الذي تعارف عليه علماء الأنساب والمؤرخين على تقسيم العرب اليهما، وهما عدنان وقحطان .

ب- العصبية الصغرى أو البسيطة فهى تبدأ من الاسرة وتستمر حسب التقسيم الشائع في البناء الطبقى من فخذ وفصيلة وعمارة وبطن وعشيره .

---

(١) انظر مادة عصب في لسان العرب، القاموس المحيط، تاج العروس، المصباح المنير.

(٢) ابن خلدون، المقدمة شرح على عبد الواحد وافى ، الطبعة الأولى ١٩٥٨ القاهرة ٢٤٨/٢.

(٣) ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ ص ٣٥٢.

والجدير بالملاحظة أن العصبية تتسع وتضيق حسب الحاجات والظروف، ففي حالات كثيره تكون العصبية الكبرى لا تقل شدة عن العصبية الصغرى.

٢. أقسام العصبية:

قسم ابن خلدون[١] العصبية القبلية الى قسمين:

العصبية الممدوحة.

العصبية المذمومة.

والعصبية الممدوة برأيه ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله، وفي الصحيح ما بعث الله نبياً الا في منعة من قومه.

والعصبية الممدوحة: هي التي تحث على الحق، ونصرة المظلوم. وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام "خيركم المدافع عن عشيرته مالم يأثم"[٢].

أما العصبية المذمومة فهى العصبية التي تقوم على الباطل ونصرة الظالمين وقد ذم الاسلام هذه العصبية بآيات وأحاديث عديدة. ومن هذا القبيل قال عليه الصلاة والسلام عن العصبية "أن تعين قومك على الظلم"[٣]. وقد كان لهذه العصبية أثر خطير على حياة القبائل العربية فقد خلفت المنازعات والانقسامات مما جعل انقياد بعضهم الى بعض أمر مستحيلا[٤]. وجعلوا شعارهم الأعلى "انصر أخاك ظالما أو مظلوما".

ومن هنا نرى الفرق الشاسع بين العصبية الممدوحة والعصبية المذمومة فالممدوحة أينعت ثمارها عندما اجتمعت عصبية العرب على الدين فزحفوا نحو الفرس والروم

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، دار احياء التراث العربي، بيروت ص ٢٠٢.

(٢) سنن أبي داود، تصنيف سليمان بن الأشعث بن اسحاق الأزدي، الحلبي القاهرة ط١ ١٩٥٢ ٢/ ٦٢٥.

(٣) سنن أبي داود ٦٢٥/٢.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، شرح وافى ٤٢٨/٢.

فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم[1]. اما العصبية المذمومة فقد وقفت سدا منيعاً أمام تكوين امة موحدة في العصر الجاهلي وامتدت آثارها السلبية فيما بعد وكانت من أهم العوامل التي أدت الى سقوط بني أمية.

الأسس التي تقوم عليها العصبية القبلية:

أ- وحدة الدم والنسب:

وهو الاساس الأول الذي تقوم عليه العصبية القبلية وهذه الرابطة كانت من أقوى الروابط القبلية. ووحدة القبيلة وتماسكها تزداد كلما اعتقد أفراد القبيلة بأنهم ينحدرون من أب واحد، ويجري في عروقهم دم واحد.

وقد اعتبر ابن خلدون عصبية الدم نزعة طبيعية في البشر حيث يقول: " ان صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الأقل". ومن صلتها النعرة على ذوي القربى، وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكه، فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبة أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المصائب والمهالك نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسى بعضها[2].

فثمرة النسب وفائدته أنه يوجد النعره بعصبية وتزداد قوتها كلما كان النسب قريبا بين الأفراد والقبائل. وقد أولع العرب بالأنساب كثيرا وذلك بسبب حبهم للعصبية القبلية، فقد استخفوا بكل شيء الا الاحساب[3] فكانوا يحافظون على صفائها ونقائها، ومن هنا وجد علم الأنساب وهو العلم الذي يهتم بتسلسل نسب القبيلة من آدم حتى آخر فرد في الاسرة ضمن حلقة متواصلة من الآباء والاجداد.

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ١٢٨.

(2) المصدر السابق، ١٢٨.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، المعارف، بيروت والرياض ٢/٢٥٥.

وقد اعتبر هذا العلم من العلوم الشريفة وبه كانوا يفخرون على غيرهم من الأمم فالنعمان بن المنذر يقول لكسرى ' . . . وأما أنسابها وأحسابها، فليست أمة من الأمم، الا وقد جهلت آباءها وأصولها، وكثيرا من أولها، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه ولا أحد من العرب الا ويسمى آباءه أبا فأبا حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب الى غير أبيه[1].

لقد عرفت العرب عن طريق هذه الأنساب جماهيرها وشعبها وقبائلها ورهطها وفصائلها كما عرفت الأفخاذ والبطون والعمائر وهذا لم يكن متوفرا عند غيرهم من الأمم[2].

ولم تقتصر أهمية النسب على أنه وسيلة للتعاضد والتناصر بل لعب دورا في الزواج فبعرف القبائل انه لا يخطب الكفء الا الكفء والهجين الا الهجين[3] والكفء يشترطون فيه صراحة النسب، وصراحة النسب مدعاة للشرف وعلى الابناء اعتبارها قبل الجمال فان المناكح الكريمة مدرجة للشرف[4].

لقد كانت العرب تفتخر بزواجها من ذوات الحسب والنسب، وتعد هذا الزواج مأثرة لابنائها وفضيلة انجزت لهم، فأبو الأسود الدؤلي يقول لبنيه: لقد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا. قالوا: وكيف احسنت الينا قبل أن نولد؟ قال أخذت لكم من الامهات من لا تسبون[5].

لقد انفرد العرب عن غيرهم من الامم بوضع أسس للزواج، فالفرس كانوا يختارون على المال والروم على الجمال أما العرب فعلى الاحساب[6]. بل ان العرب

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الطبعة التجارية ٢٢٩/١ وانظر الالوسي، بلوغ الارب ٤٩/١.
(٢) النويري، نهاية الأرب، طبعة دار الكتب ٢٧٦/٢.
(٣) المصدر السابق، ٢٧٦/٢.
(٤) الماوردي ادب الدين والدنيا، القاهرة ١٩٥٢ ص ١٠٣، ١٠٤.
(٥) المصدر السابق.
(٦) الا بشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة ٩٣٣ ص٧٤/٢.

كانوا يفاضلون بين قصيرة النسب وطويلته. فقصيرة النسب هي التي تعرف اذا ذكر اسم والدها، أما طويلة النسب فهي التي لا يعرف نسبها الا اذا ذكر سلسلة طويلة من الآباء والاجداد[1] وكما اشترط العرب الحسب في المرأة فقد كانوا يكرهون زواج بناتهم من اللئام، بل ان الموت احب وآثر عندهم لبناتهم من أن يتزوجهن من لا حسب له[2].

ومن هنا فرق العرب بين صريح النسب والهجين، فالصريح هو من كان والده من العرب أما الهجين فهو الذي ولدته أمة وأبوه عربي[3]. والصريح على مراتب فكانوا يقولون لأخلصهم نسبا مصاص وللنسب الحسيب الزكي مصامص النسب[4].

وأطلقوا اسم المحض، على من هو ابن عم وابنة عمه[5]. و "مأشوب" أطلق على مخلوط النسب[6]. والهجين أيضا على مراتب فالمكركس[7] هو من ولدته أمتان أو ثلاث، وإذا احدقت به الاماء من كل وجه فهو محبوس[8] واذا لم يعرف للرجل نسب ولا ولاء لأحد أطلقوا عليه "مفرج"[9].

وكانت العرب تعتبر الحاق نسب دعى الى نسبها اكبر منحة تقدمها له. هذا يزيد بن معاوية يقول لزياد بن أبيه: "... لقد نقلناك من ولاء ثقيف الي عز قريش ومن عبيد الى أبي سفيان ومن القلم الى المنبر"[10].

ولم يكن العرب بأسبق الامم الى الاهتمام بعلم الانساب، فقد سبقهم العبرانيون واليونان والرومان، وابرزهم العبرانيون، حيث وجد عندهم جماعة من النسابين

---

(١) المستظرف ٢/٢٢٣، السهيلي، الروفي الأنف ٢/٢٢.
(٢) ادب الدين والدنيا ١٠٣.١٠٤.
(٣) ابن سيد، المخصص. بولاق ١٣١٦هـ. ص ١٤٩.
(٤) الالوسي، بلوغ الارب ٢/٢٧.
(٥) ابن بكار جمهوه نسب قريش ١٧٠.
(٦) ابن سيده، المخصص ٩٧.
(٧) المصدر السابق ١٤٩. ١٥٠.
(٨) المصدر السابق ١٤٩. ١٥٠.
(٩) ابن سيده، المخصص ٩٨.
(١٠) مجهول، تاريخ الخلفاء ١٥١.

اختصوا بجمع الأنساب وحفظها، ومنهم من كان يهتم بجمع أنساب الغرباء عن اسرائيل وربما كان كتبة الاسفار من هؤلاء النسابه[1].

الا ان العرب فاقوا غيرهم من الأمم بالعناية بعلم الانساب حتى "انه لا يعرف امة عاش ماضيها في حاضرها وكان له الآثر في توجيه حياتها الاجتماعية والسياسية والأدبية كالأمة العربية[2]".

لقد اهتم العرب بالأنساب، بل حاولوا أن يعرفوا نسب كل شيء فعندما أخذ الرسول ﷺ يدعو الى عبادة اله واحد تقدمت قريش لتسأل عن نسب هدا الاله وقالوا له: أنسب لنا ربك[3]. فنزل قوله سبحانه وتعالى ﴿قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾[4].

وقد بلغ من اهتمام العرب في المحافظة على الأنساب أن اهتموا بحفظ أنساب الخيل وصنفوا في ذلك الكتب التي تبين تسلسل الخيول وأسماء فحول العرب وجيادها وما عرف في الجاهلية والاسلام وما شهر باسم او نسب من ذكورها واناثها[5].

وقد تمكن احد نسابة الخيل من أن ينسب اكثر من خمس وعشرين فرسا الى جميع آبائه وامهاته[6] كما اهتموا بنسب الحمام أيضاً[7].

وقد استمر اهتمام العرب بالأنساب حتى بعد الاسلام. بل وجاءت بعض التراتيب الادارية والمالية لتزيد من اهتمام العرب بالأنساب. وكما كان الجاهليون يحفظون أنسابهم ويهتمون بصريح النسب، فقد رعاها العرب رعاية دقيقة بعد الاسلام.

---

(١) جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٦٨/١.

(٢) احسان النص، العصبية القبلية واثرها في العصر الاموي ٢٦.

(٣) ابن الاثير الجزري، جامع الاصول في احاديث الرسول ٥١٩/٢.

(٤) سورة الاخلاص.

(٥) انظر انساب الخيل لابن الكلبي في الجاهلية والاسلام طبعة ليدن ١٩٢٨ ومعه أسماء خيل العرب وفرسانها لابي عبد الله بن زياد الاعرابي.

(٦) الجاحظ البيان والتبين ٣٢١/١.

(٧) ابن النديم، الفهرست ٢٢٨.

فالوليد بن عبد الملك يأنف من زواج الحجاج بن يوسف الثقفي من هاشمية وعبد الملك يكتب الى الحجاج يأمره أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها[1]. فقد اعتبر عبد الملك والوليد ان هذا الزواج غير متكافيء القرشية.

وهذا عقيل بن عُلّفه بن الحارث الذبياني يقول لعبد الملك وقد أراد أن يخطب لبعض ولده: ان كان ولا بد فجنبني هجناءك[2].

وصراحة النسب وشرفة كان مدعاة للتقدم حتى في الأمور الدينية فقد تنازغ الحرث بن خالد المخزومي وكان واليا لعبد الملك على مكة مع ابان بن عثمان الذي كان واليا على المدينة على أمرة الحج عندما كان عبد الملك مشغولاً بثورة ابن الاشعث ولم يعين أميرا على الحج فغلب ابان الحرث لنسبه ومال الناس اليه[3].

ولأهمية النسب كانت العرب تفترض بكل فرد أن يعرف نسبه. وعلماء الانساب يأسفون عندما يجدون من لا يعرف هذا العلم ولا يهتم به فابن قتيبة يذكر سبب تصنيفه لكتاب المعارف لأنه رأى كثيراً من الاشراف من يجهل نسبه ومن ذوى الاحساب من لم يعرف سلفه ومن قريش من لا يعلم من اين تمسه القربى من رسول الله ﷺ وأهله . . . ويضيف متابعا في دوافع تأليفه لكتابه . . . ورأيت من ينتمي الى الفصيلة وهو لا يدري من أي العمائر هو، والى البطن، وهو لا يدري من أي القبائل هو، ورأيت من يرغب بنفسه عن نسبه دق فانتمى الى رجل لم يعقب كرجل رأيته ينتمي الى أبي ذر الغفاري ولا عقب لأبي ذر، والى حسان بن ثابت وقد انقرض عقبة. وآخر دخل على المأمون فكلمه بكلام أعجبه فسأله عن نسبه فقال من طيء، من ولد عدى بن حاتم فقال له المأمون ألصلبة؟ قال نعم فقال: هيهات اضللت إن أبا طريف لم يعقب.

فكان سقوطه بجهله حال الرجل الذي اختاره بدعوته اقبح من سقوطه بالنسب الذي رغب فيه[4].

---

(١) المستطرف ٢/٢٢٠، ٢٢١.
(٢) ابن حزم، جمهرة انساب العرب ٢٥٣.
(٣) الاغاني ٢٠٩/٣ طبعة بيروت.
(٤) ابن قتيبة، المعارف ٢.

وقال هشام بن عبد الملك لرجل لم يعرف نسب نزار ولا قريش، وكان من أخواله: ليس من خالنا حشمه[1].

وللحفاظ على تسلسل الأنساب كثر النسابة في العصر الجاهلي حتى لا نكاد نجد قبيلة أو عمارة الا وفيها نسابه. وما رجال الأنساب في العصر الجاهلي والاسلامي الا كضباط الاحوال المدنية أو مأموري النفوس في الوقت الحاضر، وكما يتجه والد الطفل اليوم الى مصلحة قيد النفوس أو الى سجل الاحوال المدنية. كان أفراد القبائل يتجهون الى رجال الأنساب يخبروهم بمولد طفل جديد.

ومن هنا فقد كثر النسابون حتى أنه قلما أن توجد قبيلة تخلو من رجل نسابه يحفظ أنسابها واصولها. وقد بلغ بعض هؤلاء النسابة شهرة فائقة مثل دغفل بن حنظلة الدوسي من بني شيبان وقد أدرك النبي ولم يسمع منه وكان من المقربين الى معاوية، ولما سأله معاوية كيف ضبطت هذه الأنساب؟ أجابه بمفاوضة العلماء[2] أي أخذه عنهم كما حفظها "بقلب عقول ولسان سؤول". ونظرا لمعرفته بالأنساب طلب منه معاوية ان يعلم ابنه يزيدا الأنساب[3].

ومن النسابه: الأقرع بن حابس في بني تميم وأبو جهم بن حذيفة ومخرمة بن نوفل وهم من اعظم النسابه في العصر الجاهلي، وقد أدركوا الاسلام وكان لهم علم بأيام العرب أيضاً.

ومن رجال الانساب رؤبه بن الحجاج البكري وكان نصرانيا وعبيد بن شريه الجرهمي وكان من جلساء معاويه بن أبي سفيان، عارفا بأيام العرب وأحاديثها، وصحار بن العباس في عبد القيس، وصالح الحنفي في بني يشكر، ومجالد بن سعيد، وزهير بن ميمون في همدان.

---

(١) مجهول، العيون والحدائق ١٠٢.

(٢) الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، حققه على محمد البجاوي دار احياء الكتاب العربي ١٩٤٥ ٢/٢١٤.

(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب بهامش الاصابة في تمييز الصحابة ٢/٤٧٨، ٤٧٩.

وفي قبيلة كلب: محمد بن السائب الكلبي وهو مقدم في علم الانساب وعنه أخذه ابنه هشام حيث كان عالما بأنساب العرب واخبارها ومثالبها وأيامها، وعوانه بن الحكم[1].

أما قريش فقد كان أبو بكر أنسبها بقريش، وعنه أخذ الانساب جبير بن مطعم وقد اعتبر بأنه أنسب العرب قاطبة وأنسب قريش، وعن جبير أخذ علم الأنساب سعيد بن جبير[2].

ومن قريش أيضا عقيل بن أبي طالب فقد كان له حلقة في المسجد يتحدث فيها عن الأنساب وأيام العرب وكان اكثر النسابين ذكراً لمثالب الناس وتعداداً لمساوئهم[3]. وظهر النسابه في بطون قريش المختلفة فمن مخزوم كان عتبه بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومن اسد يحيى بن عروه بن الزبير ومصعب الزبيري وقبلهم كان حزام بن خويلد حيث كان من العلماء بأنساب قريش[4]. ومن عدي الخطاب بن نفيل وقد تنافر اليه حرب بن أمية وعبد المطلب[5].

وفي قبيلة تميم كان لكل بطن رجل نسابه منهم: أبو بكر بن الحكم ومن أنمار معلل بن خالد ومن قضاعه نخار بن أوس بن الحارث وعدّه أبو عبيده من أنسب العرب[6]. وهو الذي قال لمعاوية: إن العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها[7].

---

(1) ابن النديم، الفهرست ١٣٧، ١٤٦.
(2) الجاحظ، البيان والتبين ٣١٩/١، الاستيعاب ٢٣٠/١.
(3) الصفدي، نكت البيان طبعة مصر ١٩١١ ص ٢٠٠.
(4) ابن حجر العسقلاني، الاصابه ٣٤٩/١.
(5) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٣/١. ٣٠٤.
(6) السويدي، سبائك الذهب ٦.
(7) ابن ماكولا، الاكمال في رفع الارتياب، حيدر أباد الدكن ١٩٦٢: ١٥/١.

وفي الأنصار، ظهر عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري وهو أعلم الناس بأنساب الأنصار[1] . ومن بني أسد ظهر الأقيشر وهو المغيره بن عبد الله الأسدي أقعد بني أسد نسباً[2]. ومن غطفان كان القاسم بن ربيعه بن جوشن الغطفاني[3] .

والتصنيف المألوف للقبائل هو تقسيمها الى الفرعين الكبيرين: عدنان وقحطان ولم يعرف تدوين للأنساب في العصر الجاهلي. وأول تدوين كان في عهد عمر بن الخطاب عندما احتاج الى أنساب القبائل لتسجيلهم في ديوان العطاء. وهذا التسجيل لم يصل الينا ولا تشير مصادر الأنساب الى أن النسابه قد أخذوا عن السجلات التي تمت في عهد عمر. وما بين ايدينا إنما هو خلاصة وجهة نظر النسابين في أنساب القبائل[4].

وبالرغم من أن العرب قسمت أنسابها الى قسمين الا اننا نشاهد تجمعات ترجع نسبها الى جد قديم ومن هذه التجمعات مضر وربيعة وقضاعة وحمير وكهلان، وكل مجموعة قبائل كبيره ترجع في عصبيتها الى تلك المجموعة[5].

وأول من ألف في علم الأنساب هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ ولم يصلنا كتابه. وتبعه ابو اليقظان سحيم بن حفص الذي الف كتاب النسب الكبير وكتاب نسب خندف واخبارها وقد توفي ابو اليقظان سنة ١٩٠هـ[6]. وجاء بعدهما مؤرج بن عمرو السدوسي المتوفى سنة ١٩٥هـ وقد وصلنا كتابة " حذف من نسب قريش " وبذا يكون هؤلاء النسابه قد سبقوا هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ الذي اعتبره حاجي خليفة[7] أول من كتب في هذا العلم وأيده المستشرق ليفي بروفنسال[8].

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب بهامش الاصابه ٢٠٩/١.

(٢) الاغاني، ١٦٥/١٠ طبعة بيروت.

(٣) البخاري، التاريخ الكبير الجزء الرابع القسم الأول / ١٦١.

(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٠: ٤١٤/٤.

(٥) المصدر السابق ٤١٥/٤.

(٦) ابن النديم، الفهرست ٦٤٤، ياقوت معجم الادباء ١٨٠/١١.

(٧) كشف الظنون طبعة استانبول ١٩٤٤، ١٧٩/١.

(٨) مقدمة جمهرة ابن حزم ٥.

وقد كانت دوافع الأقبال على هذا العلم تتلخص بالأمور التالية[1].

١. معرفة نسب رسول الله ﷺ بأنه عربي وانه من قريش ومن شك في نسبه أهو قرشي أم يماني أم تميمي أم عجمي فهو كافر غير عارف بدينه الا أن يعذر لجهله.

٢. النسب ضروري لمن يشترط في الخلافة طبقا للحديث " الائمة من قريش " وهو أن الخلافة لا تجوز الا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانه.

٣. الأنساب واجبة لمعرفة الأرحام وصلتها، ومحرمات النكاح، والميراث، والوصية والنفقة.

٤. معرفة من يحق له أخذ الخمس من ذوي القربى ومن يحرم عليهم الصدقة من آل محمد ﷺ وممن لا حق له في الخمس ولا تحرم عليه الصدقة.

٥. التفريق في جريان الرق على العجم دون العرب، والتفريق بين حكم نصارى بني تغلب وبين حكم سائر أهل الكتاب في الجزية وإضعاف الصدقة.

٦. الكفاءة الزوجية ففي مذهب الشافعية لا يكافيء الهاشمية والمطلبية غيرها من قريش ولا يكافيء في القرشية غيرها من العرب ممن ليس بقرشي. وفي مذهب الحنفية ان قريشا بعضهم اكفاء بعض وبقية العرب بعضهم اكفاء بعض واستثني قبيلة باهله لخستهم.

٧. حفظ الانساب من الداخل فيها والخارج عنها، والتمييز بين البطون والاحياء والأموات.

٨. معرفة الأنساب تساعد على التعاضد والتناصر ودفاع القبائل لا يصدق الا اذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد.

٩. بمعرفة الأنساب كانت العرب تتوصل الى معرفة الشعوب والقبائل، فاذا عرفوا أنسابهم تعاطفت أرحامهم وحافظوا على أواصر القرابة وبه تتحق الغاية من الآية

---

(١) انظر هذه الدوافع في الماوردي، الاحكام السلطانية ٩٨، أبو يعلي الفراء الاحكام السلطانية ٩١، السويدي، سبائك الذهب: ٥، ابن حزم، جمهرة انساب العرب: ٢، ابن خلدون، العبر ٣/٢ طبعة دار البيان، القلقشندي نهاية الارب٨، السمعاني، الانساب ٢/١.

الكريمة: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[1].

وقد أدت العناية بالأنساب الى خلق عصبية بين الفرعين الكبيرين ومن هنا أخذ نسابة كل فرع يحاول أن يجمع اليه أكبر عدد ممكن من القبائل والأرومات وأبرز مثال على ذلك نسب قضاعة. فنسابة حمير يقولون: قضاعة بن مالك بن عمرو بن مره بن زيد بن حمير[2].

ونسابة مضر يقولون: قضاعة بن معد بن عدنان[3] ويقولون أيضا أن قضاعه لم تزل معديه في الجاهلية الى أن تحولت في العصر الأموي بتدبير من خالد بن يزيد القسري الى اليمن[4]. ويذكر أيضا ان معاوية بن أبي سفيان ومن بعده يزيد كانا يحرضان بعض رؤساء قضاعه على الانتفاء من اليمن والانتساب الى معد غير أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح وهذا يدل على أن قضاعه قد انتمت الى اليمن قبل خالد بن يزيد ويظهر ان ما فعله خالد هو احداث حلف مع القبائل اليمانية وليس الالتحاق بنسبهم.

ولم يكن معاوية وحده الذي حاول ضمهم إلى المضرية فحسب، بل حاول من بعده، عمر بن عبد العزيز حيث قال: ان علي منكم لغضاضة عضتكم حرب قوم، فانتفيتم عن أبيكم وانتميتم الى غيره وكنتم أخوة قوم لأمهم فصيرتم أنفسكم أخوتهم لأبيهم وأمهم[5].

بسبب الاختلاف في نسب قضاعة قال بعض النسابة: إن العرب ثلاث جراثيم: نزار واليمن وقضاعة[6] والبعض الآخر جعل العرب أربعة أركان هي: نزار وربيعة

(١) الحجرات الآية ١٣.
(٢) ابن عبد البر: الانباه على القبائل الرواه، ٥٩.
(٣) ابن عبد البر: الإنباه على القبائل الرواه ٦٠ وانظر حجج الفريقين، نسب قريش: ٥،٦، الاغاني ٧/ ٧٨ طبعة بيروت، الهمداني، الاكليل ١٥٧.
(٤) ابن عبد البر الانباه على القبائل الرواه ٦١.
(٥) أنساب الاشراف ٥/١٥-١٦.
(٦) ابن عبدالبر: الانباه على قبائل الرواة ٦٢.

وقضاعة وحمير[١]، والظاهر أن اختلاط قبائل قضاعة بقبائل قحطان وقبائل عدنان هو الذي أحدث الارتباك بين أهل الأنساب فجعلهم ينسبونها تارةً إلى قحطان وأخرى إلى عدنان[٢]. ومن هنا حاول كل من الحزبين أن يجتذبها إلى جانبه وأخذ النسابه يحاولون اثبات نسبها كل حسبما يريد وخاصة عندما قامت الفتن في الدولة الاسلامية وحاولت الأطراف المتنازعة أن تكسب هذه القبائل إلى جانبها.

ولم تكن قضاعة وحدها التي خضعت في أنسابها للأهواء السياسية، فقدت شاركتها بجيلة فمن كان منهم بالشام والمغرب نسبوا إلى أنمار بن نزار وغيرهم نسبوا إلى اليمن[٣].

وقد استمر الخلط بين الانساب وبين المطامع السياسية القبلية طيلة العهد الأموي. فعندما قدم خالد بن عبدالله القسري أميراً على العراق ومعه جند من الشام من قبائل لخم وجذام قامت بنو أسد بن خزيمة وقالت أنتم قومنا وأحدثوا بذلك شعراً يربط بين نسب أسد وجذام ولخم وعامله[٤].

واختلف أيضاً في نسب خزاعة فالبعض يقول أنها خزاعة بن محي بن قمعه بن الياس بن مضر[٥] غير أن أكثرية النسابة يرون أنها من القبائل اليمانية.

وبسبب الأنساب حاول كل فريق أن يكثر من ذكر مآثره فعندما أخذت القبائل العدنانية تفتخر بالنبوة أخذت القبائل اليمانية تفتخر بأسعد تبع وقالوا: إنه كان نبياً مرسلاً إلى نفسه، وأنه تنبأ بظهور الرسول ﷺ قبل سبع مائة سنة من ظهوره، وأنه قال في ذلك شعراً حفظه الناس، ومن هنا نهى النبي ﷺ عن سبه[٦].

---

(١) السمعاني: الانساب ١/٤٤، ٥٩.
(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤/٤٢٠.
(٣) الزبيري، نسب قريش ٧.
(٤) المصدر السابق ٩.
(٥) ابن عبدالبر: الانباه ٩٢.
(٦) النشوان الحميري: المنتخبات في أخبار اليمن ١٢ وما بعدها.

ويسبب العصبية ادعت بعض القبائل مثل ربيعة أن رسول الله ﷺ قال لا تسبوا ربيعة فإن الله . . . .[1] نبيين، صالحاً وشعيباً وقد وضعوا بذلك شعراً يثبتون به نبوتهما وقالوا:

منا شـعـيب الأنبـيـاء وصـالح   وناهيك فـخـر بـالكـواكب راويـاً[2]

ونسابة العدنانيين يقولون إنما الصريحان مضر وربيعة[3]. بينما يعتبرهم ابن خلدون في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ويفسر ذلك لأنهم كانوا أهل شظف ومواطن غير ذوات زرع ولا ضرع وبعدوا عن أرياف الشام والعراق وهؤلاء كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها الاختلاط ولا عرف فيهم شوب. إن العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيء وقضاعة وإياد فاختلطت انسابهم وتداخلت شعوبهم[4].

وأشار الهمداني إلى أثر العصبية القبلية في وضع الأنساب وخاصة في عهد معاوية ومن جاء بعده ومحاولته ضم كتلة قضاعة وكهلان إلى جانب مضر ثم إلى تقليل نسابة العراق والشام في عدة آباء حمير وكهلان، ليضاهوا بذلك عدة الآباء من ولد اسماعيل وذكر أنه كانت عند أهل اليمن مثل حمير وهمدان وغيرهم زبر مدونة فيها أنسابهم يتناقلها الناس وهي تختلف عن الأنساب التي تداولها أهل النسب في الشام والحجاز والعراق. ويذكر أيضاً أن بعضاً من أنساب عرب الحجاز قد دخل في أنساب أهل اليمن ويعزى ذلك إلى سببين: الأول حملة بختنصر الكلداني على اليمن في عهد اسعد تبع وفي أيام حسان بن أسعد. والثاني ما كانت تفعله الأهواء السياسية وخاصة في محاولات معاوية[5].

---

(1) بياض في الأصل ويستدل من الشعر على أن الله بعث إليهم نبيين...

(2) التانفي، الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة ٥٨ /أ-ب، مخطوطة مصورة، جامعة الدو لالعربية، رقم ت٢.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف، ٥/٢٤.

(4) وافي: شرح مقدمة ابن خلدون ٢/٤٢٥-٤٢٦.

(5) الهمداني، الاكليل ٨/١٠٠-١٠١.

إن بعض الأنساب التي وصلت إلينا وما لفق لها من مثالب ما هي إلا مظهر من مظاهر العصبية القبلية. وخير مثال على ذلك ما لحق بنسب ثقيف من مثالب، وربما كان الحجاج بن يوسف الثقفي وسخط الناس عليه سبباً في وضع القصص والأساطير والحاقها بنسب ثقيف[1]. كما طعن في نسب آل الأشعث بن قيس الكندي وخاصة عندما ثار عبدالرحمن بن الأشعث في عهد الحجاج[2].

لقد جعلت الأنساب والقبائل العربية كتلاً متنافسة وهذا مما أدى إلى ازدياد العصبية القبلية بين القبائل وخاصة في أيام الفتن.

وبالرغم من قوائم الأنساب الطويلة التي يوردها النسابة ضمن حلقات متسلسلة واهتمام العرب بهذا العلم وكثرة المؤلفات فيه واعتباره علماً رفيعاً[3] فاضلاً، وجليل القدر وبه يكون التعارف، الا أن هناك ملاحظات على علم الانساب أهمها.

١. عجز النسابة عن بيان النسب الحقيقي لبعض القبائل العربية كتنوخ والعتق وغسان، هل منحدرون من أب واحد أم هم عبارة عن اجتماع وتحالف بين عدة قبائل، وفي شأنهم يقول ابن حزم بعد أن يذكر أنهم ليسوا من أب واحد: وذكر النسابون قديماً وهذا له دعوى لا يدريها إلا الله عز وجل[4].

٢. اعتبر ابن خلدون أن فائدة النسب هو من أجل النصرة والتناصر وصلة الأرحام وإذا صار من قبيل العلوم ذهبت فائدته[5]. وابن خلدون بهذا يؤكد أن النسب يخلق العصبية.

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥٣٦/٤.

(٢) ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ٢٠٥.

(٣) انظر أوصاف هذا العلم في: ابن حزم جمهرة أنساب العرب ٢، الأنباه على قبائل الرواة ٦٢، ابن القوطي الحوداث الجامعة في المائة السابعة، ١٨، السمعاني، الأنساب ١/١، حاجي خليفة: كشف الظنون ١/١٧٦-١٧٨.

(٤) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ٣-٤، ٤٦٢.

(٥) وافي، شرح مقدمة ابن خلدون، ٤٢٥/٢.

٣. اختلف رجال الأنساب في عدد الآباء بين عدنان واسماعيل[1]، فقد جعلها البعض سبعة والبعض الآخر تسعة واعتبرها فريق خمسة عشر وآخر ثمانية عشراً أباً ورفعها آخرون إلى أربعين أباً[2]. كما أن رجال الأنساب لم يقفوا عند عدنان بالرغم من قول الرسول ﷺ كذب النسابون بعد عدنان[3]. وقول عمر بن الخطاب إنما ننتسب إلى عدنان وفوق ذلك لا ندري ما هو[4]. ومن هنا كانت الأنساب التي جاءت بعد عدنان مثار التساؤل عند المدققين في الأنساب العربية. ويثبت الشعبي أن الأنساب بعد أدد هي غير صحيحة ويقول أنما حفظت العرب من أنسابها إلى أدد[5].

وربما كان للتوراة أثر كبير على أوائل النسابة والأخباريين فوضعوا أسس الأنساب إلى قحطان وعدنان وبناء نسب القبائل على هذين الأساسيين حيث ورد في التوراة أن (يقطان) أي لشباً وحضرموت "ويقطان" هو قحطان كما وجد الاشماعيليون وهم الاسماعيليون ابناء اسماعيل جد العدنانيين[6].

٤. يحوم الشك حول تمكن هؤلاء النسابة ضبط هذه السلسلة الطويلة من الأنساب لا سيما وأنهم اعتمدوا على الذاكرة في حفظها، وأن القبائل والأفراد كانوا دوماً في حركات مستمرة ونسمع عن تنقل بعض البطون من قبيلة إلى أخرى، أو تحالف أفراد مع أفراد من قبائل بعيدة عن نسبهم مما يؤدي إلى دخول أنساب جديدة في القبائل كالحطيئة الذي كان يتنقل في نسبه بين عبس وهذيل وانتقال بنو سامة بن لؤي الى أزد عُمان، والحارث بن لؤي إلى ربيعة[7] وعوف بن لؤي في ذبيان[8].

---

(١) ابن دريد، الاشتقاق ٥.

(٢) اليعقوبي، تاريخ /١٩٣-١١٩٤، الذهبي، تاريخ الاسلام ١٨/١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى ٣٠٧/١.

(٤) السهيلي، الروض الأنف. ٨/١.

(٥) البلاذري، انساب الأشراف ١٢/١.

(٦) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥٣٧/١.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، ١٥٧/٢ بيروت.

(٨) السهيلي، الروض الأنف ٧٤/١.

٥. إن ما وصلنا من الأنساب لم يمثل الأنساب جميعها. وقد اعترف الهمداني[1] بأن بعض الأنساب قد فقدت، كما أن مؤرج بن عمرو السدوسي مؤلف كتاب "حذف من نسب قريش" يقول: «لو كتبت كتاب استئصال لشغلتني سيرة النبي ﷺ وبني العباس دهراً»[2]. وهذا السهيلي يقول: «يستحيل أن يكون الآباء بين عدنان وابراهيم ما بين ٤-٧ كما ذكر ابن اسحاق أو بين ١٠-٢٠ فالمدة اطول من ذلك. أي أن قوائم الانساب لا تتناسب مع الفترة الزمنية التي وردت بها هذه الأسماء

٦. ظهور الوضع في الأنساب وخاصة في أنساب قضاعة[3] وعك وبجيله وأنمار وثقيف وخثعم وتدخل الأهواء السياسية في الأنساب وخاصة في العصر الأموي.

وقد ظهر الوضع عن طريقين: الأول هو انتساب أفراد من قبيله إلى أخرى طلباً للشهرة أو فراراً من عيب لحق قبيلته فقد انتسب أبو مسلم الخراساني إلى العباسيين. كما أن حنيفة تناست اسمها وانتسبت إلى ربيعة دون أن يمروا باسمها لما كان من مسيلمة في حروب الردة.

وانتساب بعض الشعوب غير العربية إلى القبائل العربية كانتساب البربر إلى حمير والحبشة إلى طيء والديلم إلى ضبه[4] والأكراد من ولد كرد بن مرو بن صعصعة والفرس من نزار[5] وأقرب الناس رحماً بالعرب هم القبط[6].

٧. يحتاج علم النسب إلى باحث مبرز فيه وذلك أن الكتابة كانت تخلوا من التنقيط وأن هناك تشابهاً في الأسماء عند العرب فالأزد عند كهلان وهمدان ومخزوم

---

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ١٣.
(٢) الهمداني، الاكليل ٨/ ١٠٠-١٠١.
(٣) الهمداني، الاكليل ٨/ ١٠١.
(٤) ابن عبدالبر، القصد والأمم، ٢٤، ٢٦، ٣٢.
(٥) المسعودي، التنبيه والاشراف، ٨٩، ١٠٩.
(٦) الكندي، فضائل مصر ٣١.

وقريش وعبس وهذيل[1] . فإذا لم يكن النسابة عالما بهذه الأسماء فسوف يختلط عليه الأمر، كما أن هناك من يذكر أن بعض القبائل كانت تطلق إسماً واحداً على اثنين من أبنائها فيقال الحارث الأكبر الحارث الأصغر من أجل التفريق بينهما .

٨ . قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة وبعد مدة طويلة ينسى هذا الحليف ويصبح نسبه أصيلاً في هذه القبيلة وقد أطلق على القبائل التي كانت تنتقل في أنسابها النواقل[2] .

٩ . رد ابن حزم جميع القبائل إلى أب واحد باستثناء تنوخ والعتق وغسان ومع ذلك نجد أن بعض القبائل لم يطلق عليها اسم الأب الذي انحدرت منه وإنما اطلق عليها اسم الأم كخندف وبجيلة والبعض بسبب حادث معين كغسان نسبة إلى الماء الذي نزت عليه هذه القبيلة . وهذا مما أدى إلى اعتقاد المستشرقين بوجود الطوطمية وفكرة الأمومة عند العرب[3] .

وإزاء ما تقدم من ملاحظات فإننا لا يمكن أن نهمل قوائم الانساب التي وصلت إلينا، لأن هذه الأنساب لعبت دوراً مهماً في حياة العرب، وقد كانت وسيلة للتناصر والتعاضد في وقت كانت السلطة للقوي وشريعة الغاب هي السائدة . كما ساعدت على حفظ الأمن وحماية الأفراد في وقت انعدمت فيه الحكومات .

(١) ابن الأثير، اللباب في تهذيب الانساب ١٧٩/٣ وانظر ابن بهرام، الايناس بعلم الأنساب مخطوط مصور ص ٢.

(٢) تاج العروس، مادة نقل ١٤٣/٨.

(٣) الطموطية: الأنتساب إلى اباء من الحيوانات والنباتات كانوا يعبدونها، الامومة الانتساب الى الام دون الاب، انظر الرد على الأمومة والطموطمية عند كل من عبدالوهاب حمودة: نظرية الانساب في الميزان، مجلة كلية الاداب، مجلد ١٤ أب، ١٩٥٢، جامعة فؤاد الأول، الدكتور علي عبدالواحد وافي في سلسلة اقرأ عدد ١٩٤ سنة ١٩٥٩ والدكتور جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بندلي الجوزي: الأمومة عند العرب، الدكتور محمد جمعة: النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب الامم السامية، الدكتور عبدالفتاح شحاته: تاريخ الأمة العربية الجزء الأول، الإمام الشنقيطي، له كتاب يرد فيه على فكرة الامومة وهو مطبوع بالحجر نسخة واحدة عند الدكتور ظافر القاسمي الجامعة اللبنانية بيروت، والدكتور احسان النص: العصبية القبلية واثرها في الشعر الأموي.

ومع الغلو والمبالغة في بعض هذه الأنساب إلا أن بعضها يكاد أن يكون صحيحاً إلى حد كبير وخاصة ما كان بعد عدنان وما تعلق بنسب قريش مثلاً.

والدليل على ذلك أن الأنساب هذه لم تتعرض إلى نقد عام من الشعوبية، كما أن الاهتمام بالأنساب كان مفخرة العرب على غيرهم من الأمم التي كانت تجاورهم، وعلى هذه الأنساب بنى العرب عصبياتهم فلو كانت في جملتها غير صحيحة لتعرضت الأنساب إلى هجوم عنيف وخاصة من الشعوبية، بل نجد على العكس أن الأمم غير العربية كانت ترتبط بالولاء مع القبائل العربية، وبعضها الآخر حاول أن ينتسب إلى بعض الأورمات العربية.

وليس العرب هم الذين اهتموا بالأنساب فحسب بل سبقهم العبرانيون واليونان، وفي العصور الحديثة حاولت بعض الدول الأوروبية أن تبني قومياتها بعيداً عن رابطة الدم إلا أنها فشلت وقد حدث ذلك في فرنسا. وحاولت ألمانيا أن تقيمها على أساس من رابطة اللغة فنجحت إلى حد ما أكثر من فرنسا، إلا أنها عادت في مطلع القرن العشرين لتتخذ من مبدأ صفاء الدم الآرى نظرية تفاضل بها على غيرها من الأمم[1].

إن العرب لم ينفردوا بحفظ انسابهم، فقد كان الرومان أكثر من العرب حفاظاً على أنسابها، كما أن الأمة الصينية من أشد الأمم قياماً على حفظ أنسابهم حتى أنهم يكتبون اسماء الأباء والأجداد في هياكلهم[2].

لقد كانت طبيعة الجزيرة العربية وانتشار القبائل على ربوعها مدعاة لحفظ الأنساب وصونها ومن هنا نشأت تكتلات قبلية اختلفت عن بعضها البعض تبعاً للاعتبارات النسبية، وبين هذه الكتل نشأت العصبيات مثل مضر وربيعة واليمن. ومن هنا نجد أن العصبية تستدعي الاهتمام بالأنساب كما أن الأنساب تبعث العصبية.

إن كل من يريد أن يفهم تاريخ العرب ومعارفهم وآدابهم لا بد وأن يطلع على أنسابهم، وهذه الأنساب ترشدنا إلى سر اختلاف العرب في بعض لهجاتهم واخلاقهم

---

(١) ساطع الحصري، آراء وأحاديث في القومية العربية، ٤٥-٤٨.

(٢) عبدالوهاب حموده، نظرية الأنساب في الميزان، ١٤٥.

وطباعهم وذكائهم وخستهم وشرفهم وكفرهم وإيمانهم[1]. وإزاء ذلك لا نستطيع أن نرفض هذه الأنساب كما أننا لا نستطيع أن نجزم أن هذه الأنساب كانت معروفة حسب هذا التقسيم قبل الإسلام، وأن العرب كانت تتناقلها، كما أننا لا نستطيع أن نزعم أنها تمثل أنساب القبائل على النحو الذي دونت فيه في ديوان العطاء بأمر عمر بن الخطاب[2]. وما على الباحث إلا أن يحاول تحقيق هذه الأنساب ومقارنتها حتى يمكن استخراج قوائم أنساب تكون أقرب إلى الواقع.

ب- المجتمع القبلي:

القبيلة هي مجموعة من الأفراد اعتقدوا أنهم انحدروا من أب واحد وقد قال ابن حزم أن جميع القبائل العربية انحدرت من أب واحد باستثناء قبائل تنوخ وغسان والعتق[3].

ونتيجة هذا الاعتقاد فقد شكلت القبيلة مجتمعاً قائماً بذاته، وخلق فيهم ذلك عصبية يتناصرون بها ويتعاضدون وقد تكون المجتمع القبلي من العناصر التالية:

أ- طبقة الصرحاء[4]:

وهم الذين يجري في دمائهم دم القبيلة الاصيل، هم الأفراد الصريحون[5] الذي يقع عليهم العبء الأكبر في خدمة القبيلة، وطبقتهم مبنية على نقاوة الدم لا على مبدأ الثروة.

---

(١) المصدر السابق، ١٤٦.

(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤/٥٣٥.

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ٤٦٢.

(٤) قال عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

جزى الله قومي بالكلاب ملامة   صريحهم والآخرين المواليا

وقال ربيع بن مقروم:

وساقت لنا مذحج بالكلاب   مواليها كلها والصميما

الضبي: المفضليات شرح الداغستاني ٦٦، ٧٩.

(٥) *المصدر السابق.*

لقد كان النسب هو الرابطة الذي يجمع هؤلاء الصرحاء، وهذا النسب هو القومية ورمز المجتمع السياسي عندهم، والقبيلة هي الحكومة التي يعرفها الاعرابي، وما تقرره هذه القبيلة من قرارات يجب عليها أن يطيعها وينفذها[1]. لقد فهم العربي أن حكومته ودولته هي دولة العظم واللحم، ودولة اللحم والدم. وهو دين الدولة عندهم وقانونها المعترف به[2] ومن هنا فرضت على هذه الطبقة من القبيلة واجبات أهمها.

١. على الصريح أن يكون سريع النجدة، وخاصة في النائبات، لا يناقش إذا دعى داعي القتال[3] فهو مكلف بنصرة أخيه سواء كان ظالماً أو مظلوماً.

٢. طبقة الصرحاء مكلفة بحماية أفراد القبيلة وهم لا يعرفون القرابة إلا عن طريق هذه الحماية[4].

٣. حماية العرض وقد كانت القبائل تضعه في اعتبارها الأهم. والعرض والشرف عندهم لا يقدر بثمن[5].

٤. أخذ الثأر ومع أنه عمل تشترك فيه جميع القبيلة إلا أن الطبقة الصريحة يقع عليها المسؤولية الأولى في أخذه، ومسؤولية الثأر قسمت على الطرفين الفرد والقبيلة فحماية القبيلة للفرد كانت تستعدي منه أن يثأر لشرف قبيلته وكرامتها. ولا

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب ٣١٤/٤.

(٢) المصدر السابق ٣١٥.

(٣) لا يسألون أخاهم حين يندبهم … للنائبات على ما قال برهانا

حماسة أبي تمام ٥/١.

(٤) قال مسافر بن أبي عمرو بن أمية:

وإن ابن عم المرء يحمي ذماره … ويمنعه حين الفرائص ترعد

حذف من نسب قريش ٣٧. وقال آخر:

وأنت امرؤ منا خلقت لغيرنا … حياتك لا ترجى وموتك فاجع

(حماسة البحتري ١١٦).

(٥) قال سعيد بن ناشد:

وأذهل عن داري واجعل هدمها … لعرض من باقي المذمة حاجبا

حماسة أبي تمام ٣٢/١ وانظر أخبار النساء لابن قيم الجوزية ١٧١.

يقتصر دفاع الصريح عن القبيلة عن قبيلته بالسيف وحده بل عليه أن يدفع عنها كل ما يمس شرفها سواء بالقول أو الفعل[1].

ب- طبقة المستجيرين:

الإجارة والاستجارة هي طلب الحماية من شخص قادر عليها. فقد كانت الظروف القبلية تستدعي أن يلجأ الشخص الذي ارتكب آثاماً بحق قبيلته أن يغادرها إلى قبيلة أخرى ويطلب الإجارة والحماية من القبيلة الجديدة وللجوار علاقة كبيرة بالنسب وبالعصبية عند العرب فقد يمتد الجوار طويلاً ويدخل المستجير في قائمة نسب القبيلة ويعتبر كأنه صريح فيها.

والجوار من السنن التي حافظ عليها الجاهليون، واعتبروها قوانين لا يجوز خرقها، فإذا حصلت استجارة قبيلة لأخرى أو فرد لآخر، أصبح على المجير أن يحافظ على هذا الجوار وإلا أصبح موضع ازدراء الناس. وعلى المجير أن يقتص من أقرب الناس إليه إذا اعتدى أحد على مجيره.

ولخطر هذه المهمة لم يكن باستطاعة كل انسان أن يقبل الاجارة. فالناس كانوا يعرفون مكانتهم ولم يتورطوا فيما لا قبل لهم به لأنهم كانوا يرون في ذمة الجوار وعصبيته أمراً خطيراً على كرامتهم بل وحياتهم[2]. وقد حدثت عدة حوادث عجز المجير فيها عن مساعدة المستجير. فعبدالله بن جدعان لم يستطع مواجهة بني سهم عندما نحرت إبل مستجير أبي الطمحان القيني[3].

وكانت الاجارة تزداد بازدياد قوة القبيلة وسيدها، فالسيد لا تخفر ذمته، والقبيلة القوية كانت تخشاها القبائل الأخرى. ومن هنا تعدت الإجارة من حماية الأشخاص، الى اجارة الوحوش والجراد والقوافل التجارية. فكليب كان يقول: «وحشي كذا وكذا

(١) انظر: الأبشيهي، المستطرف، ٧٩/٢، الضبي، المفضليات شرح الداغستاني، ٦٧/١، الأغاني، ٣/ ١٠٥، قال هديم بن خشرم:

سأهجو من هجاهم من سواهم ... وأعرف منهم من هجاني

(حذف من نسب قريش ٣٧).

(٢) دروزه، الجنس العربي ٢٤١/٥.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ١٦/١٩، بيروت.

في جواري فلا يهاج[1] ومدلج بن سويد الطائي أجار الجراد حتى ضرب به المثل «أحمى من جرادة»[2] وربيعة بن مكدم الكناني كان يجير كل ضاعنة تمر من أرض قبيلته[3].

وكما كانت القبائل تفتخر بقوتها ومآثرها فقد كانت تفخر بجوارها فجعيل بن علقمه الثعالبي يعلل سبب عزهم في الجاهلية «لم يطمع فيهم ولم ينل منهم وكانوا يدافعون عمن استجار بهم كدفاعهم عن أنفسهم» كما أن العرب اطلقت على المنيع الجار اسم حامي الذمار[4].

وهناك من اشتهر باجارته بعد موته مثل عامر بن الطفيل عندما نصبت قبيلته على قبره أنصاباً مساحة ميل في ميل ولم يسمحوا لأحد دخولها دلالة على محافظته على الجوار في حياته[5].

ولخطر هذه الإجارة فقد كانت تتم علنياً حتى يعرف الناس المستجير والمجير فقد أجار الوليد بن المغيرة عثمان بن مظعون علناً وورد عثمان الجوار علناً[6].

وقد كانت العرب تقول للمستجير: «قد لزمني ذمامك وأنا مانعك مما أمنع منه نفسي وأهلي وولدي وما بقي من عشيرتي الادنين رجل»[7]، وقد بالغ العرب في حق هذه الإجارة ونوعيتها فالأعشى طلب إجارته من الموت من علقمه بن علاثة فرفض علقمه اجارته. وتوجه إلى عامر بن الطفيل فأجاره عن الأنس والجن والموت فقال الأعشى وكيف تجيرني من الموت، فأجابه عامر، إذا مت وأنت جاري بعثت إلى أهلك الديه. فقال الأعشى الآن علمت أنك تجيرني[8].

---

(١) التاذفي، الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة، مخطوط ١٠٠/أ.
(٢) الميداني، مجمع الأمثال، ٢٠٢/١.
(٣) الألوسي، بلوغ الأرب، ٤/١.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٩٥/١ ، ٩٦.
(٥) الأغاني، ١٣٩/١٥ (طبعة دار الكتب).
(٦) ابن هشام ٢٣١/١ بهامش الروض الأنف ١٣٣٢.
(٧) الأغاني ١٢٦/٢ بيروت.
(٨) المصدر السابق ٨٣/٨ (دار الكتب).

وكما كانت هناك واجبات على المجير أن يقدمها لمستجيره، فعلى المستجير حقوق وواجبات أيضاً، عليه أن يحترم هذا الجوار وإلا تعرض للخلع كما حدث للبراض الذي خلعه قومه فلجأ إلى بني الديلم فخلعوه ثم جاء إلى حرب بن أميه وكاد أن يخلعه وبسببه كانت حرب الفجار بين كنانه وقيس[1].

أما مراسم الإجارة فقد تعددت في العصر الجاهلي، ومنها أن يطلب المستجير "الحرمة" وهي تقديم الطعام[2]. أو دخول البيت أو الحضور إلى قبة المعاذه أو لقاء في طريق[3]. وقد توسعوا في ذلك حتى اعتبروا ملامسة الخيمة ومجاورتها أو علوق الدلو بالدلو في البشر كان يلزم حق الجوار والذمة[4]. كما أن تنكيس الرمح كان يستدعي الإجارة[5]. وفي بعض القبائل كان المستجير يلجأ إلى بعض الأمكنة[6].

والإجارة كانت تتم بين رجل ورجل أو بين قبيلة وقبيلة، غير أنه في بعض الأحيان كان المستجير إذا لم يجد الرجل يكفي أن يعقد طرف ثوبه إلى جانب طنب البيت وإن فعل ذلك صار جاراً ووجب على من عقد طنب بيته، أن يطلب له بظلامته[7].

وفي بعض الأحيان كانت الإجارة تتم بين رجل وامرأة وممن اشتهرت بالإجارة خماعة بنت عوف بن محلم الشيباني، ونكيهه بنت قتادة من ضبيعة التي أجارت السليك بن السلكة، وأم جميل الدوسية التي أجارت ضرار بن الخطاب الفهري وقد أطلق على هؤلاء النساء اسم "الوافيات"[8]. ولم تقتصر الإجارة على الرجال والنساء بل امتدت إلى الطيور أيضاً[9].

(١) الاغاني ٧٥/١٩ بولاق.
(٢) ابن حبيب البغدادي، المحبر ٢٠٨.
(٣) ابن دريد، الاشتقاق ٣٥٠.
(٤) الأغاني، ١٢٦/٢ بيروت.
(٥) البلاذري، انساب الأشراف ٤٢/١.
(٦) تاج العروس مادة "قوقل".
(٧) الأغاني، ١٨٤/٢ بيروت.
(٨) ابن حبيب البغدادي، المحبر ٤٣٢.
(٩) المصدر السابق.

هذا وتختلف الإجارة في بعض مراسمها عن الحلف ومن هذه الاختلافات ما يلي:

١. إن الإجارة من حق الصريح وليست من حق الحليف فقد قال الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة للرسول ﷺ عندما بعث إليه يطلب إجارته بعد عودته من الطائف: ان الحليف لا يجير على الصريح(١). بينما يحق للحليف أو المولى أن يربط نفسه مع حليف ومولى آخر فكان يقال مولى المولى(٢).

٢. تختلف مراسيم الحلف عن مراسيم الجوار فالحلف يتطلب ذبح جزور، أو ايقاد النار، أو الطواف حول الكعبة.

٣. أن الإجارة كانت في أوقات كثيرة مؤقتة وقصيرة تزول بزوال السبب كإجارة ابن الدغنة اخي بني الحارث بن عبد مناة سيد الأحابيش لأبي بكر، وإجارة الوليد بن المغيرة لعثمان بن مظعون(٣).

٤. لا يرث المجير المستجير بينما يرث الحليف الحليف. ففي الحلف يتم الاتفاق على الارث بينما الاجارة تتم على الحماية والمنع، ودية الحليف نصف دية الصريح. أما المستجير فديته كاملة فقد رفض عبدالمطلب إلا أن يأخذ دية جاره اليهودي كاملة وهي مائة ناقة من حرب بن أمية(٤).

٥. كانت العرب تقول تميم النسب خزاعي الولاء زهري الحلف ولم يسمع عنها قول جار فلان.

٦. تتم الإجارة بين الأقرباء بل وبين أبناء العم، ولم يحدث أن كان بينهما حلفاً لدواعي العصبية القبلية، ومن هذا القبيل أجار سعيد بن العاص يوم الحديبية عثمان بن عفان(٥).

---

(١) ابن هشام ٣٨٤/١.
(٢) النسبي مشاهير علماء الأمصار، ٧٢.
(٣) ابن هشام، السيرة ٣٨٠/١.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف ٧٢/١-٧١.
(٥) ابن حجر العسقلاني، الاصابة ١٣/٢-١٤.

٧. في بعض الأحيان يدفع المستجير أتاوة بدل إجارته كما دفع السليك بن السلكة لعبد ملك بن مويلك الخثعمي بينما لا يحدث ذلك في الحلف[١].

وكما تجير القبيلة فإنها تخلع ايضاً. والخلع هو نقض العهد أو الحلف أو الطرد. وبالاصطلاح تبرأ القبيلة من أحد أفرادها إذا ارتكب سلوكاً شائناً أو قتل أحد أفراد قبيلته أو عدم الاعتراف بنسبه. وقد أطلق على هؤلاء الخلعاء اسم الطريد واللعين[٢]. كما أطلقت كلمة الخليع على رافضي الطاعة للملوك مثل رباح بن عمرو بن ربيعة من عقل[٣].

والخلع يشمل الصريح والدخيل، فقد أرادت قريش أن تخلع عبدالله بن جدعان خوفاً من أن يجني عليهم الجرائر[٤].

وقد كان الخلع يتم علانية كالإجارة ويعلن ذلك في مواسم الحج والاسواق حيث كان ينادي المنادي وهو يطوف بالأحياء بأعلى صوته عن خلع الخليع وربما كتبوا كتاباً يعلقونه في محل عام حتى يقف عليه الناس[٥].

وقد شكل هؤلاء الخلعاء في العصر الجاهلي طبقة أطلق عليها اسم الصعاليك، وكان هؤلاء ينتشرون في ربوع الجزيرة ينهبون ويقتلون من يجدونه في طريقهم. ولم يكن الخلع هو السبب الوحيد في تكوينهم بل لجأ بعضهم إلى هذه المهنة بسبب الظروف الاقتصادية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية.

وبالرغم من حرمان هؤلاء الصعاليك من الجنسية القبلية فإنهم لم يتخلوا عن عصبياتهم القبلية، فقد نظروا للقبائل المجيرة لهم كنقطة حماية تحميهم من الأخطار الخارجية. ومن هذا المركز كانوا يغيرون على القبائل البعيدة النسب عنهم. فالسليك بن السلكة كان يأنف أن يغار على القبائل العدنانية وإذا لم يجد فرصته عند القبائل اليمانية

---

(١) المصدر السابق، الاصابة ٧٣/١.

(٢) جواد علي، المفصل ٤١٠/٥.

(٣) الأغاني، ٢٨٦/٣ بيروت.

(٤) الفاسي، شفا الغرام، ١٠٤/٢-١٠٥.

(٥) لسان العرب، مادة صعلك.

يغير على ربيعة ويبتعد عن مضر[1]، كما أن هؤلاء الصعاليك لم يبخلوا بالنصح على قبائلهم وكانوا بمثابة عيون لهم فإذا ما أحسوا بهجوم القبائل الأخرى عليهم، بعثوا إلى قبائلهم بالأمر[2].

جـ- الموالي والعبيد:

كانت الكثرة في الجاهلية مدعاة للفخر والعزة والمنعة، ومن هنا أخذت القبائل تتسابق في اكثار هذه الطبقة حتى تكون لها عوناً في حروبها القبلية.

وكلمة مولى تعطي مدلولات عدة، فجاءت في اللغة بمعنى الولي والعصبة والحليف وابن العم والعم والأخ وابن الأخت والجار والشريك كما أطلقت على المعتق والمالك والصاحب[3].

أما مدلولها الاصطلاحي فهم طبقة من الدخلاء أخذوا بسبي أو شراء ومن أعتق منهم أطلق عليه اسم مولى وتسمى باسم معتقه والمولى ينادي سيده بمولاي.

وحالة هؤلاء الموالي كانت تختلف من قبيلة إلى أخرى، فقريش كادت أن تلحق مواليها بالصرحاء منهم[4]. وذلك لحاجتها إلى هؤلاء الموالي سواء في التجارة أو القتال. ولا غرابة إذا تحمل موالي قريش خسارة في معركة بدر تقدر بحوالي ٤٠٪ من عدد القتلى[5].

وهناك عدة أنواع من الولاء هي:

١. **مولى العصبية ويشمل ابن العم والابن وباقي العصبات**[6].

٢. **مولى الحلف:** وهو عربي انضم إلى قبيلة عزيعزها وامتنع بحماها. ومن موالي الحلف الأخنس بن شريق الثقفي وكان حليفاً في بني زهرة وتسلم قيادتها في معركة بدر وهو الذي أشار عليهم بالرجوع بعد أن نجت القافلة[7].

---

(١) الاغاني، ١٧/٣١٣، بيروت.

(٢) الاغاني، ١٧/٣١٥، بيروت وانظر يوسف خليف الشعراء الصعاليك ١١٨.

(٣) لسان العرب مادة مولى، المصباح المنير ٣٢٧.

(٤) المبرد، الكامل في اللغة والأدب ٣/٢١١، ٢٣٧.

(٥) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ٢٢٧.

(٦) انظر مؤرج بن عمر حذف من نسب قريش ١٥ وشرح حماسة ابي تمام للرزوقي ٦٥.

(٧) ابن قتيبه، المعارف ١٥٣.

ومن موالي الحلف عرفجه بن هرثمه الأزدي وكان حليفاً في بجيله ولما أراد عمر تجهيز بجيله إلى العراق احتجت بجيله على رئاسته، وقالوا والله ما الرجل منا إنما هو لصيق. فسأل عمر عرفجه عن ذلك فصدقه فعزله وعين بدلاً منه عبدالله بن جرير البجلي[1].

كما دخل قسم من اليهود مع الأوس والخزرج واعتبروا موالي حلف إلى أن جاء الإسلام ونهى عن تولي أهل الكتاب بقوله تعالى الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[2].

٣. **مولى الرحم:** وهو انتساب الفرد إلى قبيلة أمه ويجمعه مع هذه القبيلة عصبية الخؤوله.

٤. **مولى الموالاة والنصر:** وهو أن يتخذ رجل رجلاً آخر ناصراً وعاضداً له ويأخذ بثأره أن قتل ويرث كل منها الآخر.

٥. **مولى الاصطناع والخدمة:** هو تعاقد الضعيف مع القوى على شروط يحددها الطرفان وينسب المولى في هذه الحالة إلى سيده

٦. **مولى العتاقة:** وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبته.

٧. **مولى الكتابة:** إذا كاتب الرجل عبده على مال يؤديه فإن هذا العبد يصبح حراً وولاءه عن كاتبه.

ومع وجود هذه المعاني لكلمة مولى إلا أنها كانت توحي دوماً إلى هذه الطبقة التي لا يجرى فيها دم القبيلة الصريح، ومن هنا فقد اعتبرت القبائل العربية هذه الطبقة مواطنين من الدرجة الثانية، فالعرب كانت تأنف من تزويجهم، والابن الذي تلده أمه يعتبروه هجيناً. ولما تسلم عمر بن الخطاب الخلافة أبطل الولاء بين العرب، وأجاز بقاءه بين العجم والعرب.[3].

(١) اليعقوبي، تاريخ ٢/١٣٢.

(٢) سورة المائدة، ٥١.

(٣) العبادي: الاسلام والمشكلة العنصرية، ٧٤، جواد علي المفصل ٥/ ٣٧٠.

د- الأدعياء:

اطلق اسم التبني أو الدعى أو الاستلحاق على كل إنسان الحق نسبه بنسب غيره. والتبني أوثق من الولاء من ناحية الأرث والزواج فقد كان لا يحق للمتبني أن يتزوج زوجة متبناه، كما أن المتبنى كان يرث المتبني ويدعى ابنه بعكس المولى الذي كان يطلق عليه مولى فلان. ومع ذلك فقد كان اللفظان المولى والابن يطلقان على المتبنى فزيد بن الحارثة مولى محمد وابن محمد[1] وسالم مولى ابي حذيفه وابنه[2].

وبالرغم من أن الاستلحاق كان يرفع من مكانة الموالي ألا أن بعضهم أنف عملية الاستلحاق فنصيب المغني قال: لئن أكون مولى لائقاً أحب إلي من أن أكون دعياً لأحد.

أما طبقات النسب فكانت على النحو التالي: الجذم: قالوا إن العرب يجمعها جذمان: عدنان وقحطان[3]، وهناك من استبدل بالجذم، جمهور أو جماهير وهي التجمع والكثرة ومنها اخذت جماهير العرب ومن هنا جاءت جمهرة ابن حزم وجمهرة نسب قريش[4]. والبعض يجعل في مقدمة البناء القبلي "الشعب" وكلمة شعب وردت في القرآن الكريم قبل القبائل بقوله تعالى الآية: ﴿يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[5] وقالوا: إن الشعب هو النسب الأبعد الذي تنسب إليه القبائل كعدنان وقحطان وسمى شعباً لتشعب القبائل منه. وهناك من أطلقه على غير العرب واعتبر القبائل خاصة بالعرب. ويأتي بعد الشعب في اصطلاح أهل النسب القبيلة. وقد سميت بذلك لتقابل الأنساب فيها وتجمع على قبائل وربما سميت القبائل جماجم وجماجم العرب هي القبائل التي تجمع البطون والعمائر وقيل

---

(١) انظر سورة الأحزاب، الآيات: ٣٦-٤٠.

(٢) ابن حجر، الاصابة ١/٥٦٣، الزمخشري، الكشاف ٢/٢٠٥-٢٠٦.

(٣) ابن هشام، السيرة، ٢٠/٩٣ وبهامشة الروض الأنف ٢/٩٣.

(٤) التاذفي، الاثار الرفيعة في ماثر بني ربيعة مخطوط ١٥٨أ.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ٢/٢٨٤ وما بعدها.

سميت بذلك لأن العمائر تقابلت عليها، وقد وردت "القبيلة"[1] في القرآن الكريم[2] والأشعار الجاهلية[3].

ثم العمارة وهي تجمع البطون وتقابل الصدر من الجسم واعتبر بعض النسابة خندفاً وكنانة من العمائر وبعد العمارة البطن ويجمع الأفخاذ ومنه عبد مناف ومخزوم وبعد البطون تأتي الأفخاذ كبني هاشم وبني أمية ثم الفصيلة وهي أقرب الناس.

فالشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة هي التقسيمات التي ذكرها قدامى النسابين[4] وقد جعل ابن الكلبي بعد الفخذ "العشيرة"[5] وكلمة العشيرة وردت في الأشعار الجاهلية وأقوالهم[6]، كما وردت في القرآن الكريم ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ وعرفها النويري بأنها تضم أربعة آباء يتعاقلون في الديه واستشهد بدعوة الرسول ﷺ لأربعة آباء من عبد مناف مجتمعون في الجد الرابع مع قصي[7].

وقد قسم النويري البناء القبلي عند العرب إلى عشر طبقات وبدأها بالجذم كعدنان وقحطان ثم الجماهير وهي الطبقة الثانية وتليها الشعوب والطبقة الرابعة القبيلة ثم العمائر، البطون، الفخذ وهي تجمع العشائر، العشيرة فالفصيلة والرهط وهم الرجل وأسرته[8].

كما جعلها الألوسي ست عشر طبقة مرتبة كالآتي: الجذم، الجمهور الشعب، القبيلة، العمارة، البطن، الفخذ، العشيرة الفصيلة، الرهط، الاسرة، عتره، ذريه، بيت، حي، جماع، وربما عبر عن هذه الطبقات بحي فلان أو بني فلان[9].

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٣) انظر حماسة أبي تمام ١/٤٩٠، ٢/٢٥٢.

(٤) ابن رشيق، العمده ٢/١٩١، الألوسي، بلوغ الأرب، ٣/١٧٨ وما بعدها.

(٥) النويري، نهاية الأرب ٢/٢٦٤.

(٦) وهب ابن منه، التيجان ١٨٤، ابن سعد، الطبقات ١/٣٠٢. البخاري التاريخ الكبير قسم ١ جز ٤/٣١١.

(٧) النويري، نهاية الأرب، ٣/٢٨٤.

(٨) المصدر السابق.

(٩) الالوسي، بلوغ الأرب ٣/١٨٧ وما بعدها.

وقد اختلف النسابة في هذه الطبقات كما اختلفوا في تحديد ما تضم هذه الطبقة ومن هنا يمكن القول أن هذا التقسيم هو تقسيم نسبي وغير ثابت ويختلف من قبيلة الى أخرى ويرجع ذلك إلى تزايد القبائل وتحول الرهط الى الفصيله والفصيله الى العشيرة وهكذا. ويذكر الدكتور جواد على بأن هذا التقسيم لم يكن في الجاهلية وهي اسماء أخذها العلماء من مصادر محتلفة مما أدى الى اختلافهم ولو كان عند الجاهليين تقسيم واحد لاجزاء القبيلة لما اختلف علماء النسب واللغة في هذه الطبقات[1].

أما في الوقت الحاضر فالبدو يطلقون تعابير مختلفة، تختلف بين قبيلة وأخرى إلا أنهم يحافظون على التقسيمات الكبرى. وتبدأ الطبقات عندهم العشيرة وهي تضم مجموعة الفرق أو الافخاذ مثل عشيرة الرولة وبعد العشيرة تأتي الفرقة أو الفندة وهي مجموعة الأفخاذ والأفخاذ تتكون من البيوت والأسر ثم البيت والعائلة.

وأحياناً يطلقون كلمة "ضنا" مثل ضناً مسلم وبشر في قبيلة عنزه وضناً بعرفهم تعني أبناء، كما يطلقون لفظ بني على العشيرة وقد يتساهلون فيسمون العشيرة قبيلة والفخذ فصيلة والفندة فرقه[2].

أما من ناحية العصبية فتقسم القبائل الى ثلاثة أقسام:

١. قبائل ذات عصبية وهي التي تعادل في الكفاءة والمجد والنسب.

٢. قبائل ذات عصبية ولكنها لا تستطيع رد أصولها إلى أرومات عربية معروفة.

٣. القبائل التي لا يعترف لها العرب بالأصل فلا يصاهرونها[3].

---

(١) المفصل في تاريخ العرب ٤/٣٢٠ وانظر الاختلاف في تقسيم هذه الطبقات في: الأيناس بعلم الأنساب، مخطوط: ٧، الاشتقاق لابن دريد ١٥،١٤ العمده لابن رشيق ٢/١٩٠ الاحكام السلطانية للماوردي ٢٠٥. الانباه على القبائل الرواه ٤٤ وما بعدها النويري، نهاية الأرب ٢/٢٨٤ وما بعدها، القلقشندي صبح الاعشى ١/٣٠٩ ونهاية الأرب ١٤، البداية والنهاية لابن كثير ٢/١٥٧، وبلوغ الأرب: للألوسي ٣/١٨٩.

(٢) شفيق الكمالي، الشعر عند البدو، ٣٥.

(٣) فؤاد حمزه، قلب الجزيرة العربية، ١٢٦-١٢٧.

ومن أجل المحافظة على وحدة القبيلة وتماسكها وجدت السيادة، والسيادة ركن هام من أركان وحدة القبيلة فبدونها لا تتم هذه الوحدة وقد قال عمر بن شبّه:

لكل قبيلة هاد ورأس ... وأنت الرأس تقدم كل هادي[١]

وقال الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوض لاسراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وقد أطلق على سيد القبيلة ألقاب شتى كلها تعطي مدلولاً واحداً بأن هناك شخصاً مقدماً على القبيلة إليه مرجع الأمور ومن هذه الألقاب: الرئيس الأول: قال الفرزدق:

زيد الفوارس وابن زيد ... وأبو قبيصة والرئيس الأول[٢]

السيد: قال أبو الطمحان القيني:

واني من القوم الذين هم هم ... اذا مات منهم سيد قام صاحبه[٣]

القرم: سمي بذلك تشبهاً بالفحل من الأبل الذي لم يتذل ولم يركب[٤].

جرار: اطلق هذا على عينيه بن حصن الفزاري لأنه قاد جيشاً تعداده أكثر من ألف[٥].

الرب: قالت العرب أسد بن كريز رب بجيلة، وحذيفه بن بدر رب معد[٦].

الشيخ: كان عتبه بن ربيعة شيخ عبد مناف وشيخ قريش[٧].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ٦/٨، بيروت.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢/٢٧٦.
(٣) المبرد، الكامل في اللغة ١/٣٩.
(٤) ابن دريد، الاشتقاق، ١٩٦.
(٥) السهيلي، الروض الأنف، ٢/١٨٧.
(٦) الأصفهاني، الأغاني، ١٩/١٠٨ ابن رسته الأعلاق النفيسة، ٢٢٩.
(٧) ابن حبيب البغدادي، المنمق في أخبار قريش ١٨٦.

الشريف: ذكر مؤرج بن عمر أن العاص بن وائل وخلف بن وهب وأمية بن خلف وأبو طالب كانوا شرفاء في قريش[١].

سيد معمم وسيد مفوض: وهو أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه[٢].

ومن الألقاب أيضاً كاهل القوم وذروة القوم وسراة القوم[٣].

أما صفات السيد فقد جاءت مبعثرة في أشعار العرب، وهي في جملتها تجعل من السيد رجلاً مثالياً كاملاً. غير أن هذه الشروط ليست حتمية لتقديم صاحبها للسيادة، فالظروف وحاجة القبيلة كانت ترفع بعض أفرادها إلى سدة الرئاسة بالرغم من عدم توفر بعض الصفات القيادية فيهم.

ومن الصفات التي طلبها العرب. أن يكون السيد صاحب همة يتحلى بالكرم فلا سيادة لبخيل حسب قول الهذلي:

وإن سيادة الأقوام فاعلم ... لها صعداء مطلبها طويل

أترجو أن تسود ولا تغنى ... وكيف يسود ذو الدعة البخيل[٤]

التمتع بسداد الرأي والتلحي بالقوة والشجاعة:

يلقى السيوف بوجهه وبنحره ... ويقيم هامته مقام المغفر[٥]

التفرغ لشؤون القبيلة لا يشغله عنها شاغل. قال لقيط الأيادي

وليس يشغله مال يثمره ... عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا[٦]

---

(١) مؤرج، حذف من نسب قريش ٤٠ وما بعدها.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار (١/٢٢٦.

(٣) السهيلي، الروض الأنف ٢/١١٦.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/٢٩٢.

(٥) القالي، الأمالي، ١/٤٣.

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ٢/١١٥، الماوردي، الاحكام السلطانية: ١٦.

أن يكون متغابياً لا غبياً وحليماً لا حقوداً وأن يتحلى بالصدق هدفه دوماً اصلاح العشيرة وتقديم المساعدة لها كما يتطلب منه أن يكون بليغ القول ذكي الؤاد[١] .

ومع وجود هذه الشروط فقد ساد البخيل كأبي سفيان والعاهر كعامر بن الطفيل والظالم ككليب والأحمق كعيينه بن حصن الغزاري[٢] .

أما حقوق السيد على القبيلة فيأتي في مقدمتها الطاعة : قيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال : نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأننا ألف حازم[٣] .

والطاعة عند البدوي واجبه ومقدسه ويكفي أن يوقد سيد القبيلة ناراً في مكان مرتفع أو أن يرفع قبة حمراء حتى يقبل أفراد القبيلة من كل حدب وصوب دون أن يعرفوا أسباب هذه الدعوة[٤] .

وإذا احس السيد بأن كلمته لم تعد مسموعة بين قبيلته فقد يفضل الانتحار على العيش كأبي براء عامر بن مالك الذي اتكأ على سيفه حتى مات وقال لا خير في العيش وقد عصتني عامر[٥] . وإذا بلغ السيد مكانة من القوة فإنه ينفرد بالحمى كما فعل كليب الذي كان لايوقد نار مع ناره ولا يسبقه أحد إلى الماء ولا يتكلم أحد في مجلسه حتى أن ربيعه جعلت له قسم الملك وتاجه وطاعته[٦] .

والسيد مميز عن القبيلة في الغنيمة وقد جمع بسطام بن قيس الشيباني هذه الأمور بقوله :

---

(١) انظر هذه الصفات في: تاريخ ابن خياط ١٤١، الجاحظ: البيان والتبيين ٢/١١٥، الأحكام السلطانية للماوردي ١٦ ، عيون الأخبار لابن قتيبة، ٣/٢٢٥، العقد الفريد ٢/١٣١، الالوسي، بلوغ الأرب ٣/٣٦٠، ديوان زهير بن أبي سلمى، ٨٣ ، ١٠٥، حماسة ابي تمام ١/٤٦٠، ٢/٦١ ، ٢/٨.

(٢) الالوسي، بلوغ الأرب، ٢/١٨٨.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين ٢/٢٤٢.

(٤) البكري، معجم ما استعجم ١٠٤٢.

(٥) ابن حبيب البغدادي، المحبر ٤٧٢-٤٧٣.

(٦) الآثار الرفيعة ١٦٠أ، الألوسي، بلوغ الأرب، ٢/١٨٨ .

أما سن السيد فلم يتقيد العرب به فقد قاد مالك بن عوف هوازن وثقيف وهو ابن ثلاثين سنة وساد أبو جهل وماطرّ وشاربه ودخل دار الندوة وما استوت لحيته[2].

ولم تكن العاهات لتقف حائلاً أمام السيادة، فقد ساد كثير من أصحاب العاهات فزهره كان أعمى، وأبو طالب أعرجاً، وأبو جهل أحولاً، والأحنف بن قيس متراكب الأسنان، اصلع الرأس، مائل الذقن، والربيع بن زياد كان أبرصاً[3]

وقد لعبت العصبية القبيلة دورها حتى في شروط تعيين السيد فمضر اعتزت بذي الرأي، أما ربيعة فقدمت الكريم، واليمن اعتمدت على النسب. غير أن هذه الأمور ليست عامة أيضاً ولا يمكن اتخاذها كقاعدة تنطبق على تعيين الرؤساء.

ولا تعطينا الروايات التاريخية اخباراً واضحة عن تعيين هؤلاء السادة. فبعض الأشعار تذكر أن هناك سادة رفعوا الى سلم القيادة نتيجة الكفاءة الشخصية التي أظهروها كعامر بن الطفيل الذي يقول:

فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن اسمو بأم ولا أب[4]

وبالمقابل نجد أن بعض الروايات تذكر أن سيد القبيلة كان يعين تعييناً مثل ما حدث مع حصين بن حذيفة بن بدر عندما حضرته الوفاة فجمع فزارة وقال لابنه: أنت خليفتي ورئيس قومك من بعدي وقال لقومه بني بدر: لوائي ورياستي لعيينه ثم أوصاهم بما يجب أن يفعلوه على عادة السادات عند دنو أجلهم[5].

وهناك أربعة من آل جعفر بن كلاب سادوا قبيلة هوازن، ولم تجتمع هوازن كلها في الجاهلية إلا عليهم وهم: خالد بن جعفر بن كلاب، وعروة الرحال بن عتيبة بن جعفر والاحوص بن جعفر، وعامر بن مالك بن جعفر[6].

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٩٠/١.
(٢) ابن سعد، الطبقات ١٥١/٢، الالوسي، بلوغ الأرب ١٨٨/٢
(٣) المبرد، الكامل في اللغة ١١١/١.
(٤) امالي المرتضى، ٥٣١/١، جواد على المفصل ٣٤٩/٥.
(٥) ابن حبيب، المحبر ٢٥٢ ومابعدها.
(٦) ابن حبيب، المنمق في اخبار قريش ١٦٤.

وبالمقابل نرى أن الحكومة والرئاسة قد انتقلت بين قبائل ربيعة وبطونها فقد كانت في بني ضبيعة، ثم انتقلت إلى عنزه، فإلى عبد القيس، فالنمر بن قاسط ثم إلى بني يشكر واستقرت في بني شيبان.

وقد نال بعض السادة شهرة فائقة ككليب الذي اجتمعت عليه ربيعة كلها، وحذيفة بن بدر الذي قاد فزارة ومره يوم النسار ويوم الجفار وفي داحس وعرف برب معد[1]. وحرب بن أمية وعبدالله بن جدعان. وقد بلغ من سطوة بعض السادة أنهم كانوا إذا اعتموا بشيء منعوه عن غيرهم كأبي أحيحه سعيد بن العاص[2].

وقد وقفت السيادة والرئاسة حاجزاً أمام تكوين مجتمع متآلف، فكانت القبائل ترى في انقيادها إلى رجل بعيد عنها مسبة واذلالاً لها حتى في أدق المواقف حرجاً. ففي حرب الفجار كاد التنافس على السيادة أن يمزق صفوف القبائل القيسية عندما أخذت البطون تدعي أنها صاحبة الحق في هذه القيادة[3].

ولم تكن القبائل العربية على مستوى واحد من القوة، فقد كانت هناك القبائل الضعيفة التي لا تستطيع مواجهة الأمور بنفسها وتسعى دوماً إلى عقد الاحلاف مع القبائل الأخرى.

وقد لعبت الكثرة دوراً بارزاً في قوة القبائل فهوازن لا خير فيها إلا بعد أن كثرت، وعامر بن صعصعة كانت أذل من يد في رحم، ومثل رغاء الشاة بالجبل حتى كثرت فصار يحسب لها الف حساب[4].

وتميم كانت قاعدة من أكبر قواعد العرب بسبب كثرتها. وقد افتخرت بهذه الكثرة وقالوا: لنا العز الأقعس والعدد الهيضل ونحن في الجاهلية القدام ونحن الذروة والسنام[5]. وقبيلة بكر بن وائل كانت لها سطوة في الجاهلية بسبب كثرتها[6].

(1) ابن حبيب، المحبر ٢٤٩.

(2) ابن الكلبي، النسب الكبير مخطوط ص٤، الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ٤٧.

(3) أبو هلال العسكري، الأوائل ١١٩-١٢٠.

(4) البياتي، شعر الأيام في الجاهلية بجامعة القاهرة رقم ١١٤٣، ص٩٨/٢.

(5) السهيلي، الروض الأنف، ١١٦/١.

(6) الزمخشري، الفائق، ٢٠٢/١.

وبسبب كثرة القبائل وشدة قتالها فإنها كانت تكتفي بنفسها ولا تطلب حلف غيرها فالحطيئة يقول لعمر بن الخطاب عندما سأله عن سبب انتصارهم قال « كنا الف فارس كأننا ذهبة حمراء لا نستجمر ولا نحالف»[1].

وقد أطلق العرب على القبائل التي كانت تكتفي بأفرادها اسم "جمرات العرب" والجمرة تعني اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل[2]. ومن جمرات العرب ضبة بن أد، وعبس بن بغيض، والحارث بن كعب، ويربوع بن حنظلة وأضاف البعض عامر بن صعصعة[3].

كما أطلق على أربع قبائل هي شيبان وتغلب وبهراء وإياد اسم رضفات العرب نتيجة لشدة بأسها وقوتها[4]. وأطلق على كلب بن وبره من قضاعة وطيء وحنظلة بن مالك من تميم، وعامر بن صعصعة اسم جماجم العرب وسميت بذلك لأنها من القبائل الرئيسة عند الجاهليين وتفرغ منها قبائل اكتفت باسمائها دون الانتساب إليها فصارت كأنها جسداً قائماً بذاته[5].

كما أطلق لقب أثافي العرب على سليم وهوازن، وغطفان، وأعصر ومحارب بن خصفه[6] والأثفية تعني العدد الكثير والجماعة من الناس[7].

وقد لعبت العصبية والعواطف القبلية دوراً في هذه التسميات فمن النسابين من تعصب لقبيلة فجعلها من البيوتات، بسبب صلته بها، ومنهم من غضب عليها فأخرجها[8].

---

(١) لسان العرب، مادة جمر، ابن حبيب، المحبر ٢٣٤..

(٢) ابن حبيب، المحبر ٢٣٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، تاج العروس مادة رضف.

(٥) المحبر ٢٣٤، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥٦/٣.

(٦) ابن حبيب، المحبر ٢٣٤.

(٧) تاج العروس، مادة "أثف".

(٨) البيوتات: كانت تسمى عند الفرس البيوت المشرفة وهي تعني أصحاب السيادة. المسعودي، التنبيه والأشراف ١٠٨، دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٩١/٣، وعند العرب تطلق على من كانت له ثلاثة آباء متوالية كلهم رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع وقد كانت في آل حذيفة بن بدر، وآل حاجب بن زرارة وآل ذي الجدين وآل الأشعث بن قيس الكندي (المبرد ٤٤/١، العمدة ١٩٢/٢ صبح الأعشى، ٣٧٧/١).

ولم يقتصر فخر القبائل على بعضها البعض فقد كانت البطون في القبيلة الواحدة تفخر بالرئاسة والكثرة على أخوتها من البطون الأخرى. وقد كانت البطون تبلغ قمة السيادة إذا جمعت بين العدد والرئاسة وهو ما أطلق عليه اسم البيوتات ففي تميم كان العدد في بني سعد والبيت في بني دارم والفرسان في بني يربوع والعدد في قيس في بني عامر والبيت في غطفان ثم في بني فزارة والفرسان في سليم أما ربيعة فقد كان عددها في بكر وبيتها وفرسانها في شيبان[1].

ومن أشهر البطون التي جمعت بين البيت والعدد بني همام بن مرة من شيبان ومالك بن زيد مناة من تميم وحنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم أيضاً[2].

وهكذا فقد ربط العرب بني العزة والعدد وقالوا: «إن العز في العدد حيث كان ولا عز لمن لا عدد له ولا عدد لمن لا عشيرة له، وكلما كثرت الأيادي كلما كانت النجدة قوية متينة»[3].

وبالرغم من حبهم للكثرة واعتبارها رمزاً للعزة فقد كانت سبباً في حروب دامية دامت سنوات طويلة وتسببت في عملية انقسام دائمة. وكانت المصالح الذاتية للبطون والقبائل تباعد من وشائج القربى فيشهرون السلاح في وجه بعضهم البعض كما حدث بين عبس وذبيان مما جعل من الصعب تكوين وحدات مجتمعة ودائمة بل كانت تنمو وتنقسم نتيجة الاختلاف في المصالح القبلية التي كانت في بعض الأحيان لا تعترف بأخوة النسب[4].

---

(١) ابن رشيق، العمدة /١٩٢.
(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ٣٢٢-٣٢٥.
(٣) الاصمعي، العرب قبل الاسلام، ٢١.
(٤) وات، محمد في مكة ٤٢.

جـ - أرض القبيلة ومياهها:

الركن الثالث الذي كانت تقوم عليه العصبية القبلية والنزعة هي الأرض، والمياه فللقبيلة أرضها المخصصة، وكان يحرم على غيرها أن يدخلها.

لقد كانت القبائل العربية تنتشر فوق ربوع الجزيرة العربية ذات المساحة الشاسعة وتتنقل ضمن حدود معينة لايمكن تجاوزها.

وقد اتخذت القبائل العربية قبل الاسلام مراكز ثابتة بحيث يمكن للباحث أن يحدد أماكن هذه القبائل فوق أرض الجزيرة العربية.

ولم تكن القبيلة تترك موطنها إلا في حالتين: الأولى هو اجلاؤها عنها بالقوة. والثاني جدب المنطقة والانتقال إلى موطن جديد. وقد كانت حركة التنقل والترحال تخلق حروباً طويلة بين القبائل إلى أن يتمكن أحد الطرفين من طرد الآخر.

وكما أثرت العصبية في الأنساب وقسمت العرب إلى قسمين: العدنانيون والقحطانيون، فقد قسمت أرض الجزيرة سكانها إلى قسمين: القبائل العدنانية ومركزها نجد والحجاز وهي بجملتها قبائل رحل باستثناء قريش وثقيف[1]، والقبائل اليمانية وتسكن في اليمن ثم تفرقت بعد حادثة سيل العرم.

أما القبائل العدنانية فقد سكنت في بادئ الأمر في نجد وأول من خرج مهاجراً منها هو إياد وهناك روايتان الأولى تذكر أنهم اتجهوا إلى اليمن وانتسبوا في ذي الكلاع من حمير. والثانية أنها خرجت مهاجرة إلى العراق فنزل بعضهم بعين أباغ فاضطهدتهم ربيعة فتفرقوا ولحقت أكثريتهم في غسان، وآخرون دخلوا في خثعم وتنوخ والنخع وفريق لحق ببلاد الروم[2]. وربما كانت هذه الرواية من وضع النسابة اليمانية لأننا نسمع برجل من إياد وهو قس بن ساعده يقف في سوق عكاظ ويخطب بالناس وهذا يدل على عدم تمزق هذه القبيلة. وأنها لا زالت باقية عند بدء الدعوة.

---

(١) ابن خلدون، العبر ج٢، قسم ٢٣٩/١، بولاق.

(٢) الاصفهاني، الاغاني، ٢٢/٢٠ بيروت، البكري، معجم ما استعجم ٦٧/١.

أما نزار فقد أقامت في الشمال الغربي من الجزيرة وربيعة في الشمال الشرقي منها. وأبرز قبائل مضر كانت تميم، وقد تمكنت من دفع قبيلتي بكر وتغلب من مكانيهما والاستيلاء على أراضيهما. وقد حالفوا عبد القيس في البحرين وانتقلت طائفة إلى عُمان وباقي القبيلة في رمل يبرين[1].

وتوزعت قبائل قيس عيلان في أماكن مختلفة من نجد فقد سكنت نمير بن عامر وهلال بن عامر وباهلة في عالية نجد الجنوبية ومن جبالها يذبل ويسمى اليوم صبحا[2].

وأقامت غطفان شمالي خيبر من القصيم إلى المدينة يحدها بنو أسد من الشمال وبلاد عامر بن صعصعة من الجنوب[3].

وسكنت عبس وفرازه وسليم شرق المدينة بعالية نجد وخيبر. أما هوازن فقد أقامت شرق الطائف ولا تزال بقاياهم إلى اليوم ويطلق عليهم عتبة[4].

وكانت مواطن الرباب في الدهناء بجوار تميم، وضبه بالناحية الشمالية التهامية من نجد ثم انتقلوا في الاسلام إلى العراق بجهة النعمانية[5].

وسكنت هذيل بالحجاز واتصلت بلادهم بالطائف، ولهم أماكن مياه في جهات نجد والتهامة بين مكة والمدينة[6]. أما أسد فقد كانت بلادها مما يلي الكرخ من أرض نجد وقد شاركتها في هذه المنطقة قبيلة طيء التي هاجرت إليها بعد سيل العرم. وسكن تهامة من القبائل القيسية بنوفهم وعدوان وكانت مساكنهم قبل ذلك بالطائف فغلبتهم ثقيف وأجلتهم عنها[7]. وسكنت أشجع في منطقة يثرب[8] وقريش في مكة وأجيادها.

---

(1) البكري، معجم ما استعجم ٩٠/١.

(2) ابن خلدون، العبر، ج، قسم ٣٢٠/١، البكري، معجم ما استعجم، ٩٠/١، بليهد النجدي، صحيح الأخبار، ٤٣/٢، ٨٩.

(3) بليهد النجدي، صحيح الاخبار، ٧/١-٩.

(4) المصدر السابق.

(5) ابن خلدون العبر ج٢، قسم ٣١٩/١.

(6) البكري، معجم ما استعجم، ٩٠/١.

(7) ابن خلدون، العبر ج٢ قسم ٣١٩/١.

(8) البكري، معجم ما استعجم ٩٠/١.

أما ربيعة فقد سكنت في شرق الجزيرة العربية واختلف في المواضع الحقيقية لسكناها فيذكر أنها سكنت اليمامة في بادئ الأمر[1] وبعد أن كثرت توزعت في مناطق متعددة فسكنت عنزه بعين التمر على ثلاث مراحل من الأنبار ثم انتقلت منها إلى جهات خيبر[2].

وأقامت قبائل عبد القيس في بادئ الأمر بتهامة ثم خرجوا إلى البحرين وزاحموا بكر بن وائل وتميم وانتقل فريق منهم إلى عُمان وشاركوا الأزد في بلادهم. وكانت قرية الظهران والقطيف من مراكزهم[3]. وسكنت تغلب في الجزيرة الفراتية بجهات سنجار - ونصيبين وقد عرفت هذه المنطقة باسم ديار ربيعة[4]، وأقامت حنيفة في اليمامة ثم اتخذوا بلاد هجر[5].

ونتيجة الحروب التي حدثت بين تغلب وبكر فقد كانت حركة قبائل ربيعة مستمرة وما جاء الاسلام حتى كانت أماكن بكر وعنزه وضبيعة منتشرة في اليمامة وبين البحرين حتى أطراف سواد العراق وناحية الأبلة إلى هيت وما والاها[6].

أما القبائل القحطانية فقد كانت كهلان تسكن في اليمن. وبعد حادثة سيل العرم تفرقت القبائل اليمانية واتخذت مواطن جديدة ومن أشهر بطون كهلان قبيلة الأزد وقد سكنت ما بين زبيد إلى رمع ثم افترقت قبائلها وسكنت مواطن مختلفة. فقد نزل بنو نصر من الأزد بالسراة وعُمان، وأقاموا حكما فيها[7]. وأقام بنو ثعلبة في يثرب وبنو حارثة بن عمر بمر الظهران بمكة وهم خزاعة. أما غسان فقد اتجهت إلى أطراف الشام وسكنت سهول حوران وكونوا إمارة الغساسنة.

---

(١) ابن الفقيه الهمداني: مختصر البلدان، ٢٨.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٧٧/١.

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ٢٩٥، صبح الأعشى، ٣٢٧/١، بلهيد، النجدي، صحيح الأخبار، ٧٨/٣، ١١٢.

(٤) البكري، معجم ٨٦/١، ابن خلدون، العبر ج٢، قسم ٣٠١/١.

(٥) المصدران السابقان، ٨٥/١، ج٢ قسم ٣٠٢/١.

(٦) البكري، معجم ٨٦/١.

(٧) العبر ج٢، قسم ٣٢٥/١ بولاق.

ومن كهلان لخم وقد سكنت المناطق الشمالية من الجزيرة العربية . ووصلت إلى غرب العراق وكونت هناك إمارة الحيرة التي دخلت في صراع مع الغساسنة ردحاً طويلاً من الزمن .

وقبيلة طيء كانت تسكن في منطقة الجرف باليمن وبعد سيل العرم خرجوا إلى نجد وسكنوا بجوار بني أسد بعد أن غلبوهم على جبلى أجاو سلمى وعرفا فيما بعد بجبلى طي[1] وكانت هذه القبيلة من أشهر القبائل العربية حتى أن السريان والفرس كانوا يسمون كل العرب طيئاً[2]. وتسكن مناطق طيء اليوم قبائل شمر[3].

وأقام الأشعريون في شمال زبيد وتهامة اليمن إلى جوارعك . أما مذحج فقد كانت بنجران[4]، وفي شرق اليمن نزلت خولان كما نزلها المعافر[5].

وسكنت جذام وعامله بالقرب من أيله (العقبة) من أول أعمال الحجاز إلى ينبع إلى أطراف يثرب وكانت لهم رياسة في معان وما حولها من أرض الشام[6].

وسكنت قبيلة كنده بجبال اليمن مما يلي حضرموت وقد سيطروا على بعض القبائل النزارية من غير كنانة وثقيف[7]. وسكن الحجاز من القبائل اليمانية كهلان وبجيلة وخثعم[8]. وتفرقت همدان في أماكن متعددة إلا أن غالبيتهم كانت تقيم في شرق اليمن[9].

---

(١) ابن الوردي، ٩٢/١، صبح الأعشى، ٣١٩-٣٢٤.

(٢) احمد أمين، فجر الاسلام، ٧.

(٣) بليهد النجدي، صحيح الأخبار ٧٠/١.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة أشعر، صبح الأعشى ٣٣٥/١.

(٥) صبح الأعشى، ٣٢٧/١.

(٦) ابن خلدون، العبر ج٢ قسم ٢٥٦/٢، بولاق، صبح الأعشى، ١/ ٣٣٠.

(٧) العبر، ج٢، قسم ٢٥٧/٢، صبح الأعشى، ٣٢٨/١.

(٨) البكري، معجم ٩٠/١.

(٩) العبر ج٢ قسم ٢٥٢/٢، صبح الأعشى ٣٢٨/١.

أما حمير فقد سكنت اليمن من صنعاء إلى عدن ومن قبائل حمير، بنو مرة وهم في حضرموت، وحوشب ذو ظليم وكانوا بصنعاء[1].

وسكنت قضاعة أول الأمر في تهامة ما بين مكة والطائف[2]. واعتبرهم النسابة العدنانيون أول من خرج من معد يطلبون المتسع والريف وتفرقوا في بلاد اليمن ومشارف الشام والبحرين ثم اتجهوا إلى العراق[3]. ويذكر ابن خلدون أن بلاد مهرة أخذت اسمها من مهرة بن حيدان القضاعي[4].

وقبل ظهور الاسلام كان لقضاعة ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق فأيله وجبال الكرك إلى مشارف الشام وبعبارة أخرى ما بين تدمر والبلقاء إلى أطراف الحجاز والعراق[5].

ومن قضاعة بهراء وكانت بأطراف الحجاز من جهة جدة. وسكنت بلي شمال الحجاز إلى عقبة أيلة على العدوة الشرقية من بحر القلزم (البحر الأحمر) واجتاز قسم من بهراء وبليّ البحر الأحمر وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة[6]. أما جهينة فقد أقامت بالحجاز ما بين ينبع ويثرب في متسع من برية الحجاز وبنو سليح ومنهم الضجاعمة فقد سكنوا الشام قبل غسان[7].

ومن أشهر قبائل قضاعة قبيلة كلب التي كانت مضاربها تمتد من دومة الجندل وتبوك إلى ناحية بلاد طيء وأطراف الشام ويذكر أن قسماً منهم هاجر إلى خليج القسطنطينية[8].

---

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ٤٣٢.
(٢) ابن خلدون، العبر ج٢ قسم ٢٤٠/١.
(٣) المصدر السابق، ٢٣٨.
(٤) المصدر السابق ٢٤٧.
(٥) البكري، معجم ١٧/١، ١٩-٢٥، صبح الأعشى، ٣١٦/١.
(٦) ابن خلدون، العبر ج٢، قسم ٢٤٧/١.
(٧) المصدر السابق،
(٨) ابن الوردي ٨٨/١، البكري، معجم ٩٠/١، صبح الأعشى، ٣١٦/١.

والحدود بين القبائل كانت تعين بالظواهر الطبيعية البارزة مثل التلال والجبال والأودية والرمال، ونظرا لعدم تثبيت هذه الحدود برسم معالم بارزة فقد كانت دوماً سبباً في حدوث نزاعات قبلية[1]. وقد كان حب القبائل للأرض وحاجاتهم إليها أن الجبل الواحد كان يقسم بينهما فالجهة الشمالية فيه لقبيلة والجهة الجنوبية لقبيلة أخرى[2].

وكما كان لكل بطن أو قبيلة أرضها الخاصة بها فقد كان لكل بطن أو قبيلة في المدينة خطتها وشعبها فمكة قسمت أرباعاً وكان لكل بطن من بطون قريش خطة وشعباً خاصا بها ومن هذا القبيل شعب أبي طالب الذي اجتمع فيه بنو هاشم والمطلب في المقاطعة القرشية لهم، وفي المدينة أيضاً لكل بطن من الأوس والخزرج خطته الخاصة به[3].

وقد كانت هناك بعض المناطق التي تلتقي فيها القبائل في بعض فصول السنة وأهمها منطقة الخرج قرب الإحساء اليوم فكانت هذه جامعة للناس أيام الربيع[4].

وكان لكل قبيلة عيونها الخاصة بها لا سيما وأن الماء كان يشكل مشكلة كبيرة لبعض القبائل وقد كانت هذه القبائل تفتخر بموارد مياهها ونظرة إلى معجم ما استعجم نرى مدى افتخار بطون قريش بعيونها[5].

ولم يقتصر تمايز القبائل بالمياه فقدكانت المنافسة في كل شيء حتى في عملية الاستسقاء فإذا أرادت قريش أن تطلب الماء كانت تجمع فرداً من كل بطن ويصعدون إلى جبل أبي قبيس ويطلبون الغيث[6].

---

(١) جواد علي، المفصل ٣٤٨/٥.

(٢) انظر أسماء جبال تهامة لعرام الاسلمي الجز الأول ٧، ٨، ٢٩، ٣٠، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٧ ومعجم ما استعجم ٩١٣/٣، وابن الوردي ٩٢/١.

(٣) الأزرقي، اخبار مكة ١٨٧/٢-١٨٦، السمهودي، وفاء الوفاء ١٣٤-١٥٢.

(٤) عرام الأسلمي، جبال تهامة ٥٨ .

(٥) انظر البلاذري، فتوح البلدان ٦٠، ٦٢، البكري، معجم ما استعجم ٧٢٥/٣ وما بعدها.

(٦) ابن حبيب، المنمق في اخبار قريش ١٦٨.

د- اللهجة:

وكما انفردت القبائل بأب واحد وبأرض محدده فقد كان لها أيضاً لهجتها المحلية الخاصة بها، واختلاف اللهجات جاء في أن أبا هريرة رضي الله عنه لم يعرف كلمة السكين وإنما كان يعرفها بالمدية[1].

وعمرُ بن الخطاب يقول لكتبة الوحي «إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر فإن القرآن نزل على رجل من مضر. وقال أيضاً لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وغلمان ثقيف»[2].

وعندما قرأ عبدالله بن مسعود "عتى حين" يريد" حتى حين"، أي قلب الحاء عيناً، قال عمر: "ان القرآن لم ينزل بلغة هذيل فأقرأ الناس بلغة قريش[3].

واختلاف اللهجات كان موجوداً حتى في القبائل التي تجمعها لحمة النسب والدم ومرد ذلك الى اختلاف اماكن سكنى القبائل. فكهلان تتكلم بلهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم أما بطون حمير فقد كانت تتكلم بلغة ركيكة ورديئه وغير فصيحة[4]، كما أن هنال مميزات لغوية لطيء لا تتوفر عند جارتها أسد[5]. وعلماء اللغة يقولون إن اللغة العربية لم تؤخذ عن جميع القبائل بل أخذت عن قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانه وبعض الطائيين ولم تؤخذ عن غيرهم من سائر القبائل. وقال ابو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم[6].

وسأل معاوية عن أفصح الناس فقيل له قوم ارتفعوا عن خلخانية الفرات (لهجة اهل العراق) ويتامنوا عن عنعنة تميم (إبدال الهمزة عينا) وتياسروا عن كسكسة بكر (اكرمتك يلفظوها- أكرميتكس) ليست لهم غمغمة قضاعة (كلام لا يفهم) ولا

---

(١) احمد امين، فجر الاسلام ٥٢.

(٢) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ٨٦.

(٣) الزمخشري، الفائق ٨٣/٣.

(٤) جواد علي، المفصل ٤١٦/٥.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ١١٧/١.

(٦) المزهر في اللغة ١٠٤/١، ١٠٥، احمد أمين، ضحى الاسلام ٢٤٦ ط لجنة التأليف والنشر.

طمطمانية حمير (طاب امهواء بدلا من طاب الهواء) فقال لهم من هم فقال قريش[1].
وقيل أيضا أن لغة قريش قد سلمت من عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجع قيس وعجرفية ضبّة وتلتلة بهراء[2].

وإذا اختلفت القبائل في لهجاتها فقد اختلفت في فصاحتها فقبائل الشحر ليسوا فصحاء، والأشعريون لا بأس بلغتهم، وهمدان قسم منها فصيح واهل تهامة فصحاء وصنعاء مختلفة اللغات واللهجات لكل بقعة منها لغة[3].

هـ- الدين:

لقد كان لكل قبيلة صنمها الخاص الذي تقدسه وتتضرع اليه مع وجود أصنام عامة تشترك في تقديسها وعبادتها أهل منطقة معينة أو أكثر من قبيلة واحدة. الا أن وحدة اللقاء حول عبادة هذا الصنم ليست نابعة من الوحدة في المعتقد وإنما نابعة من المصالح الخاصة للقبيلة. واذا نظرنا الى القبائل التي أشتركت في عبادة صنم واحد نجد أن الدافع لذلك إما نسب بعيد، أو مجاورة في السكن كقريش وكنانه ومن قاربهم من بطون العرب التي اتحدث في عباده العزى وأساف ونائله وفي اتحاد بجيله وخثعم وأزد السراة في عبادة ذي الخلصة[4].

وفي بعض الاحيان كانت بعض القبائل تتفق على عبادة صنم القبيلة الأخرى فقريش عبدت صنم هبل وهو لبنى كنانه وكنانه عبدت صاحب قريش[5].

وهذه العبادة المتحده ما هي الا تمثيل للرابطه الدمويه التي تجمع بين قريش وكنانه. من الجدير بالملاحظة انه بالرغم من الالتقاء حول بعض الأصنام الا أن القبلية كانت ضاربة جذورها في صميم العبادة الوثنية فلكل قبيلة صنمها الخاص بها، وبل ربما وجد لكل أسره تمثال تقدسه ونظرة الى عدد الأصنام تعطينا فكرة عن القبلية الدينية عند العرب.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ٣/٢٠٥.
(٢) مجالس الثعالبي ١٠٠-١٠١.
(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب ١٢٤ وما بعدها.
(٤) ابن الكلبي، الاصنام ٦٣،٤٥،٣٦.
(٥) ابن حزم، جمهرة انساب العرب ٤٩٢.

ولم تظهر القبلية في عبادة الاصنام فحسب بل امتدت الى صميم العبادة الوثنية نفسها ففي الحج لكل قبيلة مكانها الخاص بها، ولها تلبيتها الخاصة لا تشاركها بها القبائل الاخرى. وفي هذه التلبيه تنطلق صيحة الفخر بالقبيلة[1].

وفي عبادة النجوم فقد اختصت بعض القبائل بعبادة لجم معين لا يشاركها فيه قبيلة أخرى فعطارد كان لقبيلة أسد والشعرى لعبد القيس وسهيل لطيء[2].

ونظرا للمكانة الدينية التي كانت تتمتع بها قريش لوجود البيت فيها فقد أكلت الغيرة قلب بعض هذه القبائل وحاولت أن تبني بيتاً تستغني بها عن زيارة مكة لتتحرر من سلطة قريش الدينية. وقد ظهرت هذه النزعة بمحاولة من إياد لنقل الركن (الحجر الاسود)، ومحاولة تميم الاستيلاء على البيت[3]، كما حاول ذلك احد التابعة في عهد خزاعه ففشل[4]. فقررت القبائل بناء بيوت لها، ومن هذه القبائل جهينة فقد اقترح عبد الدار بن حديب بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها حوراء يضاهون بها الكعبة[5]، ومحاولة بني بغيض من غطفان اتخاذ مثل هذا الحرم[6].

ولكل قبيلة أيضا كاهنها الذي يستقرأ غيبها ويقرأ حظوظها، ومن هؤلاء الكهنة طليحة الأسدي والاسود العنسي وسجاح بنت الحارث وغيرهم. كما كان للقبيلة عيد خاص بها[7].

(١) ابن الكلبي، الاصنام ٧ وما بعدها.
(٢) خودا بخش، حضارة الاسلام ٧.
(٣) دائرة المعارف الاسلامية المجلد ١٦٧/٣.
(٤) الفاشي، شفا الغرام ٤٨/٢.
(٥) ابن الكلبي، الاصنام ٤٥.
(٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ٢٩٩/١.
(٧) الجاحظ، الحيوان ٢٨٠/١ طبعة مصر ١٩٠٦.

مظاهر التقارب والنزاع القبلي:

أ- مظاهر التقارب:

لم تكن القبائل العربية تعيش بمعزل عن بعضها البعض فقد كانت العصبية القبلية ومتطلبات الدفاع والعوامل الاقتصادية تفرض على القبائل أن تقيم مع بعضها البعض علاقات حلف وجوار وأن تلجأ الى الطرق السلمية بدلا من سل السيوف. وقد تمثلت مظاهر التقارب القبلي بالنواحي الآتية:

التحكيم:

لما كانت الحياة القبلية قائمة على حب الذات والفخر بالآباء والأجداد، فقد كان العربي يجد لذة في نفسه لينافر (يفاخر) شخصاً آخر، ويتفوق عليه.

وكانت هذه المنافرات في غالب الأحيان بين أفراد القبيلة الواحدة، وللوصول إلى نتيجة لا بد من التوجه إلى الحكام وهم كهان بالدرجة الأولى.

ومع أن المنافرات كانت في بعض الاحيان تؤدي الى حروب ووقائع قبلية، الا أنها في الغالب كانت تحل بطرق سلميه بأن يلجأ المتنافران الى حكم يستمعان لحكمة وقراراته ملزمه للطرفين وغير قابله للاستئناف. ولدواعي العصبية أهتمت القبائل بالمنافرات لأنها تؤثر تأثيرا مباشرا على المكانة الاجتماعية والسياسية للفرد والقبيلة معا، بل هي ضرب من الفخر أوجدها حب السيادة والمآثر القبلية.

وقد كثرت المنافرات بين الأفراد والقبائل في العصر الجاهلي ولذا سوف اقتصر على ذكر أمثلة منها.

منافرة هاشم وأمية:

تذكر الروايات أن هذه المنافرة وقعت بين هاشم وأمية وسببها أن هاشماً قدم من الشام ومعه غرائر محمله خبزاً وكانت سنة شديدة قد جاع فيها الناس وهلكت أموالهم وأنفسهم فعمد هاشم إلى الإبل التي كانت تحمل الغرائر فنحرها وطبخ وأطعم الناس فحسد أمية هاشماً على ذلك. فتكلف أن يصنع ما صنع هاشم فعجز عنه وقصر، فشمت به ناس من قريش وسخروا منه وعابوه بما صنع ثم قصر فهاج ذلك بينه وبين

هاشم شرا ومفاخرة ومخاصمة حتى دعاه إلى المنافرة. وكره ذلك هاشم لسنه حتى أكثرت قريش في ذلك وذموه فقال له هاشم أنافرك على خمسين ناقة تنحر بمكة والجلاء عنها عشر سنين فرضياً بذلك وذهباً إلى كاهن خزاعي فنفر الخزاعي هاشماً عليه[1]. وتذكر هذه الروايات أن هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية[2].

وقد اتخذ بعض المؤرخين من هذه المنافرة سبباً للعداء بين أمية وبني هاشم[3] وأن جذور هذه العداوة قد امتدت إلى ما بعد العصر الجاهلي. وأنا ستبعد أن تكون هذه المنافرة هي سبب العداوة بينهما لأنها لم تكن المنافرة الوحيدة في العصر الجاهلي. وأن كانت المنافرات تسبب العداء بين القبائل فالأولى ان تحدث العداوة بين بني أمية ومخزوم عندما تنافروا على العزة والمنعة، لكننا نجد أن مخزوم وأمية تتحد معاً بوجه دعوة الرسول[4].

كما يستبعد أن تكون هذه المنافرة بين هاشم وأمية وذلك لأن الطبري يذكر أن عبد شمس وهاشماً توأمان. وفي رواية ثانية أن ترتيب هاشم بين أخوته الثالث وهاشم لم يعمر سوى خمسة وعشرين سنة[5] بينما يذكر ابن حبيب في روايته أن هاشماً كره أن ينافر أمية لسنه ولذا فإنني أرجح أن ما حدث بين هاشم وأمية هو بين عبدالمطلب وحرب بن أمية وأن سوء التفاهم الذي حدث بينهما كان بسبب جار يهودي لعبد المطلب يقال له أذينة كان يتسوق في أسواق تهامة بماله فغاظ ذلك حرب بن أمية فألب عليه فتياناً من قريش فقتله عامر بن عبدمناف وصخر بن عمرو بن كعب. فلما علم عبدالمطلب الخبر أنب حرب بن أمية على صنيعه وطلب بدم جاره فأجار حرب قاتليه ولم يسلمهما ولم يفارق عبدالمطلب حرباً حتى أخذ منه مائة ناقة ودفعها إلى ابن عم اليهودي وترك منادمة حرب بن أمية ونادم عبدالله بن جدعان[6].

(1) الجاحظ، الحيوان ١/٢٨٠ طبعة مصر ١٩٠٦.
(2) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ١٠٣-١٠٥.
(3) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ٩٤-١٢٠.
(4) انظر البلاذري، أنساب الأشراف، ١/٦٠-٦١، الطبري، تاريخ ٢/٢٥٢-٢٥٣، المقريزي النزاع والتخاصم.
(5) ابن هشام وبهامش الروض ١/١٥٨، نشر الكليات الأزهرية، الفاسي، شفا الغرام ١/٨٥.
(6) البلاذري، انساب الأشراف، ١/٧٣-٧٤.

أما الرواية الأولى فلا يستبعد أن تكون قد وضعت فيما بعد وغرضها ذكر جذور التنازع بين الهاشميين والأمويين وحتى يبرز أصحاب الميول الهاشمية من المؤرخين كفاءة ومنزلة بني هاشم في الجاهلية وتفوقهم على بني أمية وأن الاسلام قد زادهم قوة على قوة.

والوضع في الروايات اعترف به الطبري فيذكر أن موسى بن عيسى قال لمحمد بن أبي بكر عندما ذكر قصة استنجاد عبدالمطلب بأخواله من الأنصار بسبب نزاعه مع عمه نوفل: «هذا شيء ترويه الأنصار تقرباً إلينا، إذ صير الله الدولة فينا، عبدالمطلب كان أعز في قومه من أن تركب إليه بنو النجار لتساعده في أخذ حقه»[1].

منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة:

تنافرا على أيهما أحق بالزعامة في قومه واشتراطا مائة من الإبل فذهبوا إلى أبي سفيان بن حرب فرفض التحكيم بينهما وذلك خوفاً من تنازع عشيرتيهما فاتجها إلى أبي جهل فرفض أيضاً. ولما امتنعت قريش عن المنافرة بينهما ذهبا إلى فزارة وأتيا عيينه بن حصن فأبى أن يقول شيئاً. ثم ذهبا إلى ثقيف وطلبا حكم غيلان بن سلمه بن متعب الثقفي فردهما إلى حرقله بن الأشعري المري الذي ردهما بدوره إلى هرمه بن قطنه بن سنان الفزاري ولم ينفر أحد من الحكام أحدهما على الآخر خوفاً من قتال عشيرتيهما[2].

ومن المنافرات بين البطون ما حدث بين أمية ومخزوم[3] وبين قبيلة كلب وبجيلة[4] ومن هنا نشأ عند العرب طبقة من الحكام من أبرزهم أفعى نجران (القس بن عمرو الجرهمي) الذي حكم بين أبناء نزار[5] وقس بن ساعده الأيادي[6] وعقيل بن أبي

(١) الطبري، تاريخ ٢٤٩/٢.
(٢) الأغاني، ٢٨٧/١٦، دار الكتب.
(٣) ابن حبيب، المنمق، ١٠٩، وانظر المنافرات من ١٠٣-١٠٨.
(٤) البغدادي، خزانة الأدب ٢٩٨/٣، طبعة بولاق.
(٥) التيجان في ملوك حمير ٢١٨.
(٦) ابن قتيبة: المعارف ٦١.

طالب[1] وأكثم بن صيفي وعامر بن الضرب العدواني[2] الذي نال لقب حكم فكان يقضي بما يعجز عنه الحكام الآخرون[3].

كما ظهر بعض المحكمات ومنهن جمعه بنت حابس الأيادي وصخرة بنت لقمان وخصيلة بنت عامر بن الظرب العدواني[4] وإلى هؤلاء الحكام كانت العرب ترجع في منافراتها ومواريثها حيث لم يكن هناك حكومة تقضي بين الناس.

وقد احتلت قبيلة تميم مكانة مرموقة بين القبائل بكثرة حكامها ففي سوق عكاظ كانت لها الحكومة والقضاء ومن حكامها أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وربيعة بن مجاشن وضمره بن ضمره[5].

المصاهرة والخؤولة:

المصاهرة مظهر من مظاهر الوفاق القبلي ووسيلة من وسائل التقارب والتناصر فبالمصاهرة كانت العرب تجتذب قلوب البعداء وتتألف الأعداء.

وبالمصاهرة نشأ عند العرب عصبية الخؤولة وهي القبيلة لأبناء بناتها إذا ما ألم بهم حدث. وكان للخؤوله مكانة كبيرة في العصبية وقد كانت في حالات كثيرة أقوى من عصبية العمومة[6].

فتذكر الروايات أن عصبية الخؤولة قد لعبت دوراً كبيراً في فك حصار المقاطعة عن بني هاشم. جاء ذلك من قبل هشام بن عمرو بن ربيعة الذي قال لزهير بن أبي أمية المخزومي وكانت أم زهير عاتكه بنت عبدالمطلب: يا زهير أرضيت أن تأكل وتشرب وتلبس الثياب وتنكح النساء آمناً وأخوالك كيف علمت على الجهد والصبر أما أني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبداً[7].

---

(1) ابن طباطبا، الأصيلي في الأنساب مخطوط ٢٤٩.

(2) اليعقوبي، تاريخ ١/٢٣٠.

(3) ابن هشام، السيرة، ١/١٢٢.

(4) الألوسي، بلوغ الأرب ١/٣٣٩-٣٤٣.

(5) جواد علي، المفصل ٤/٣٥٥.

(6) المصدر السابق.

(7) البلاذري، انساب الأشراف، ١/٢٣٥، ابن الأثير، الكامل ٢/٦٠.

وفي معركة بدر دفعت عصبية الخؤولة بني زهرة للرجوع عن قتال الرسول ﷺ[1]، كما أن أول من نصر رسول الله في مكة هو طليب بن عمير بن وهب السهمي لأن أمه أروى بنت عبدالمطلب[2].

وسجاح بنت الحارث ترعرت ردتها في قبيلة تغلب لأنهم أخوالها[3]. وقد كانت العرب تفتخر بالأخوال والأعمام ولذا قالوا: أنه والله المعمم المخول. ولأهمية الخؤولة ألّف ابن الكلبي كتاباً في من فخر بأخواله من قريش[4].

ولأهمية المصاهرة فقد حاولت قريش جاهدة أن ترتبط مع أكبر عدد ممكن من القبائل بأسباب المصاهرة فقد صاهرت إلى بني هلال وخزاعة ويثرب وبكر بن وائل وغيرهم[5].

الأحلاف:

الحلف هو المعاقدة، والمعاهدة بين قبيلتين لدفع الأذى والتعاضد والتناصر وكما يكون الحلف بين قبيلتين فقد يكون بين بطنين أو شخصين.

والأحلاف هي عصبيات صناعية ربطت القبائل بعضها بعضاً نتيجة ظروف معينة وهي في أساسها مبنية على الحمية والمنعة[6].

أما دوافع هذه الأحلاف فيذكر الدكتور جواد علي «أن الفكرة التي حملت العرب على عقد الأحلاف، هي نفس الفكرة التي تدفعهم اليوم على عقد الأحلاف بينهم أو مع غيرهم. وهي الضرورة والدفاع عن مصالح خاصة أو عامة، أي نفس الفكرة التي تدفع لدول على التكتل والتحزب وعقد الأحلاف الدولية اليوم»[7].

---

(١) الواقدي، مغازي ٤٤/١.
(٢) المنمق في اخبار قريش ٢٦٩.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ١٠٨ (التجارية مصر).
(٤) ابن النديم، الفهرست ١٤٨.
(٥) السدوسي، حذف من نسب قريش ٣١، ٣٣ وابن هشام، السيرة ١٠٩/١، ٢٤٨.
(٦) اليعقوبي، تاريخ ١٣/٢-١٤.
(٧) جواد علي، المفصل ٣٧٢/٤.

ولذا فقد كانت الدواعي الحربية من أبرز العوامل التي كانت تدفع قبائل الجزيرة العربية إلى عقد الأحلاف، فظروف الحياة الصحراوية وشريعة القوة كانت تجبر القبائل الضعيفة على طلب الحماية من قبيلة أخرى تحت ستار الحلف. وإذا دققنا في دواعي الأحلاف نجد أن معظمها لا يخرج عن هذا السبب باستثناء حلف الفضول الذي دعا إلى النواحي الانسانية ونصرة المظلوم.

ويقول البكري أن القبائل لجأت إلى الاحلاف عندما بدأ التنافس يظهر بين القبائل وخاصة بسبب الماء والكلأ[1].

وبالإضافة إلى الأحلاف التي قامت من أجل التناصر فقد أقامت قريش سلسلة من الأحلاف لتأمين طرق القوافل التجارية[2].

ولم تكن الأحلاف تقام حسب خطة مرسومة ومدروسة وإنما تنشأ بسبب ظروف آنية ومصالح شخصية فقبيلة عبس تحالفت مع شيبان ثم انتقلت إلى كنده فإلى بني حنيفة ثم عادوا إلى ذبيان قائلين «الموت مع أخواننا خير من البقاء مع غيرهم»[3].

وقد كان للأحلاف قدسية بين المتحالفين ومن هنا كانت تقام وفق طقوس وعادات معينة كلها تظهر احترام وتقديس هذا الحلف والويل كل الويل لمن يغدر وينكث، ومع هذه القدسية فقد كانت بعض القبائل تتحلل من هذه الاحلاف إذا ما رأت أنها ضد مصالحها الشخصية

ومن مظاهر إقامة الأحلاف: قسم اليمين وبهذا المعنى قال زهير بن أبي سلمى:

فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل اقسمتم كل مقسم

والبعض الآخر يقسم بالبيت كقول زهير أيضاً:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم[4]

---

(١) البكري، معجم ما استعجم ٤١، ٥٣-٥٤.

(٢) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ٢٨٣-٢٩٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل ١/٣٥٢-٣٥٥.

(٤) زهير بن أبي سلمى، الديوان ٢٥، ١٤، والأحلاف عبس وذبيان.

وفي حالات أخرى كان المتحالفون يجمعون الأقداح ويضعون فيها قطعة من الأدم كما فعلت الرباب ومنها أخذت اسمها والتي يطلقون عيها الربة[1].

وإيقاد النار من مراسم عقد الأحلاف فكانوا يدعون بالحرمان والمنع من خيرها لمن ينقض العهد ويحل العقد كما يطرحون فيها الكبريت وسموها نار المهول[2].

ومن المراسم أيضاً القاء السوط أو القوس أو النعل[3] أو شرب ماء معين كشرب المتعاقدين في حلف الفضول من ماء زمزم[4]، وغمس الأيدي بالطيب أو الدم[5]، أو التعاقد على الملح، أو ذبح الجزور والخوض بدمائه[6].

وفي بعض الحالات كان يكتفي بالتصافح بالأيدي والقول: الهدم الهدم والدم الدم ما بل بحر صوفه وتذكر كل قبيلة الجبال التي تعرفها[7].

أما موعد عقد الأحلاف فكان في العاشر من ذي الحجة[8]. وأعتقد أن ذلك ليس شرطاً عاماً إنما كان ذلك يخضع للظروف وحاجات القبائل إلى إقامة هذه الأحلاف.

أنواع الأحلاف:

تقسم الأحلاف إلى ثلاثة أنوع:

الأول- الأحلاف الفردية:

وهي تعاقد رجل صريح النسب مع آخر صريح مثله. وكان المتحالفان يقولان دمي دمك وثأري ثأرك وحربي حربك وسلمي سلمك ترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣/٢٦٣ وقيل سميت بذلك لأنها اجتمعت كالربابا (٢٥٩/٢).
(2) الألوسي، بلوغ الأرب ١٦٢/٢.
(3) جامع الأصول ٤٦/٤.
(4) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٥٠/٨.
(5) البلاذري، انساب الاشراف ٥٥/١-٥٦.
(6) علي الجارم، أديان العرب في الجاهلية ١٨٣.
(7) أبو هلال العسكري، الأوائل ٨١٣.
(8) الواقدي، المغازي ٨٤٠/٢-٨٤١.

بك وتعقل عني وأعقل عنك[1] «والحليف يؤخذ بجريرة حليفه وقد أفدى العباس بن عبدالمطلب حليفه عتبه بن عمرو عندما أسر في بدر من ماله الخاص[2].

وقد تعددت الأحلاف الفردية وكثرت وخاصة في قريش لأنها كانت تعز الحليف وتزوجه[3].

وكانت التقاليد القبلية تسمح للحليف أن يرجع عن حلفه إذا ما رأى أن مصلحته تتعارض مع هذا الحلف كما فعل ابن الحضرمي الذي نقل حلفه من بني أميه إلى بني مخزوم عندما هم عتبه بن ربيعة الرجوع من بدر وعدم قتال المسلمين. فقال ابن الحضرمي: فسخت عقدي من عبد شمس وعقدي اليوم إلى بني مخزوم[4].

الثاني- الأحلاف الأسرية:

وهي الأحلاف التي تمت بين بطون القبيلة الواحدة وغالباً ما تحدث عند انقسام هذه البطون على بعضها البعض.

ومن الأحلاف التي تمت بين البطون نفسها حلف المطيبين والأحلاف في قريش، وحلف الرباب.

أما حلف المطيبين والأحلاف فقد كان سببه مطالبة هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ما بأيدي عبدالدار من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوه لأحقيتهم بها بسبب شرفهم عليهم وفضلهم. وقد قام بأمر المطالبة هذه هاشم فرفضت عبدالدار تسليم مقاليد هذه الأمور فانقسمت قريش إلى قسمين، فصار مع عبد مناف اسد وزهره وتيم والحارث بن فهر. ومع عبدالدار مخزوم وسهم وجمح وعدي ولم تشترك بنو عامر بن لؤي، ومحارب بن فهر مع أي من الطرفين.

وقد تعاقد الفريقان على الا يتخاذلوا فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ووضعوها حول الكعبة وغمسوا أيديهم فيها، كما أحضر بنو عبد الدار جفنة دم وتهيؤا

(١) الطبري، جامع البيان ٨/ ٢٧٥-٢٧٦.
(٢) ابن سعد، الطبقات ٤/ ١٣.
(٣) ابن سعد، الطبقات ٨/ ١٤.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٢٧١.

للقتال وعبئت كل قبيلة للأخرى. إلا أنهم تداعوا للصلح فأخذت عبدمناف السقاية والرفادة وبقيت الحجابة واللواء والندوة لعبد الدار[1].

حلف الفضول:

يعتبر هذا الحلف مزيداً من نوعه وهو يقضي بنصرة المظلوم وأخذ الحق له. ولذا اعتبر من أكرم الأحلاف وأشرفها. والسبب في إقامته أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان ذا قدر فحبس عنه حقه. فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف فلم يجبه أحد. فصعد على أبي قبيس واستنجد بقريش فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة وبنو المطلب واسد بن عبدالعزى في دار ابن جدعان وتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدو بمكة مظلوماً من أهلها وممن دخلها من غيرهم من سائر الناس إلا أقاموا معه حتى يأخذوا له حقه[2].

أما تاريخ هذا الحلف فتذكر الروايات أنه كان بعد حرب الفجار وقبل البعثة النبوية بعشرين سنة[3]. وقد قال عنه الرسول لقد شهدت في دار ابن جدعان حلفاً ما أحب أن إلى به حمر النعم ولو ادعى به في الاسلام لأجبت[4].

وإذا كانت المنافسة بين البطون القرشية وعصبية الأفخاذ دفعتهم إلى تكوين أحلاف داخلية فقد كانت المصالح القبلية عند غيرهم تدفع بطون القبائل إذا وقع الانشقاق بينها أن تطلب حلف القبائل البعيدة النسب عنها فحين وقع النزاع بين بطني ثقيف الأحلاف ومالك ذهبت الأحلاف تطلب محالفة الأوس والخزرج، وحالفت بنو مالك دوس وخثعم[5]. وحين تنازع نهد وجرم وهما من قضاعة حالفت نهد بني الحارث بن كعب وحالفت جرم بني زبيد[6].

---

(1) ابن سعد، الطبقات، ١/٧٧، البلاذري، أنساب الأشراف، ١/٥٥، ابن هشام، السيرة، ١/١٣١-١٣٠.

(2) ابن هشام، السيرة بهامش من الروض الأنف ١/١٥٥-١٥٦.

(3) المصدر السابق.

(4) ابن الأثير، الكامل، ١/٤٢٠ المنيرية.

(5) المصدر السابق.

(6) شرح حماسة أبي تمام ١/١٥٩.

وقد استطاع دعاة الفضول أن يخلصوا ابنة الخثعمي من نبيه بن الحجاج[1]. واستمر اثر هذا الحلف إلى ما بعد الاسلام حتى أن الحسين بن علي بن أبي طالب قد هدد الوليد بن عتبة بن أبي سفيان به واستجاب للحسين عبدالله بن الزبير والمسور بن مخرمه بن نوفل الزهري وعبدالرحمن بن عثمان بن عبدالله التيمي وقالوا للوليد: لنقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جيمعاً[2].

حلف الرباب:

ومن الأحلاف الأسرية حلف الرباب وهو يضم خمسة بطون من ولد عبد مناة وهم تيم وعدي وعوف وثور وأشيب تحالفوا مع بني عمهم ضبّة على بني عمهم تيم بن مر ثم خرجت عنهم ضبة واكتفت بعددها وبقي سائرهم[3].

الثالث- الأحلاف القبلية الواسعة:

كان الدافع لهذه القبائل هو اتحاد المصالح القبلية للمتحالفين ومن هذه الأحلاف ما كان مؤقتاً كحلف مذحج وهمدان وكنده ضد بني تميم بعد أن أوقع بهم كسرى في يوم الصفقة[4] وحلف تميم وظبيان وأسد وطوائف من كنده ضد بني عامر[5].

والأحلاف الدائمة وهي التي امتد أثرها إلى ما بعد الاسلام وأشهرها حلف ربيعة وكنده. وعاد بصورة واضحة في العصر الأموي في العراق وكان لهذا الحلف القبلي أثره في توسيع دائرة العصبية اليمانية. كما لعب هذا الحلف دوراً في أحداث البصرة وخراسان. وكان السبب المباشر لتجديده هو مواجهة عصبية مضر كما سنرى. ومن خلال مراسم هذا الحلف نرى أن القبائل اليمانية صورت ربيعة بصورة القبيلة المستضعفة التي جاءت تطلب النجدة قبائل كنده وبعد الحلف قويت شوكتها فتقدمت من حلفائها لمنع مضر من أن تمصر ثيابها وتصفر لحاها[6].

(١) أبو هلال العسكري، الأوائل مخطوط ١٣٦.
(٢) ابن هشام، السيرة بهامش الروض الأنف ١/١٥٥.
(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ١٩٨.
(٤) الأصفهاني، الأغاني ١٥/٦٩ (ساسي).
(٥) ابن الأثير، الكامل ١/٣٥٥، المنيرية.
(٦) مجهول، الفاصل بين الحق والباطل، ١/١٨٣.

وتذكر الروايات أيضاً أن هذا الحلف عقد في عهد معاوية بن الحرث الكندي الذي جمع أربعة عشر رجلاً من كنده من ذوي الأسنان، ومثلهم من ربيعة، ولما حضروا بين يديه دعا بطشت من ذهب فقطر من دمه ثم أمر مشايخ كنده وربيعة ففعلوا مثله. ثم أمر بجميعه وجعله في قصبة من ذهب، وطلب من الجميع أن يمصوا منه حتى يأتوا خليجا من البحر فيدفنوا تلك القصبة. ثم كتبوا بينهم كتاباً جاء فيه: هذا ما احتلف عليه كنده وربيعه من التناصر والاخاء بما احتذى رجل حذاء، وراح موج أو غدا حلفا محفوظاً يرثه الأبناء على الآباء، لا غنى بينهم ولا خذلان، ولا هواده لاحد عندهم من كان، خلطوا العيال، بالعيال والأموال بالأموال، ما اختلفت الأيام والليالي[1].

وقد تركت الأحلاف أثرها على المجتمع الجاهلي فكانت بعثاً للحروب مع أنها كانت حماية للضعيف ولذا فقد نهى الاسلام عن اقامة احلاف جديدة مع ترك الأحلاف القديمة.

ومع وجود هذه الأحلاف فإن العصبية القبلية كانت تقف أمام خضوع القبائل المتحالفة لقيادة رجل بعيد في نسبها عنها وكانت القبائل تقاتل متساندة والمساندة مظهر من مظاهر العصبية القبلية. ولم يذكر عن رجل تسلم زعامة القبائل المتحالفة إلا حصن بن حذيفه الذي أصبح زعيماً للحليفين أسد وغطفان[2].

الحج والأسواق:

كانت هدنة الأشهر الحرم في الجزيرة العربية تسقط سيوف المقاتلين، فتلتقي القبائل أما حاجة واما قاصدة الأسواق التي كانت تقام في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية. ومع أن هذه القبائل كانت تعتبر هذه الأشهر شيئاً مقدساً لا يجوز خرقها إلا أن بعضا منها لم يعتبر هذه الهدنة فرضاً واجباً وكثيراً ما اخترقت هذه الهدنة وخاصة إذا تعارضت مع مصالح هذه القبائل وأكبر اختراق لحرمة الأشهر الحرم هو حرب الفجار التي أخذت اسمها من انتهاك حرمة الشهر الحرام.

---

(١) انظر هذا الحلف في المصدر السابق ١٨٣/١-١٨٦.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ٩١٣، طبعة القاهرة، تحقيق عبدالسلام هارون ١٩٥٠.

ومع أن هذه الأشهر كانت تضفي على الجزيرة العربية جواً من الأمن والطمأنينة إلا أن بعض القبائل التي كانت تعتبر القتال سجية وخصيلة لا ينالها الجميع ووسيلة ارتزاق. وقد تذمر البعض من هذه الأشهر فأخذوا يفكرون في طريقة يتحللون بها منها. ومن هنا وجد النسيء وهو تأخير المحرم إلى صفر يستحلون الأشهر الحرم ويحرمون الأشهر الحلال[1].

وربما أن النسيء قد أخذ عن اليهود فالناسيء عندهم هو الرئيس الديني الذي كان يؤخر ويقدم الشهور ويعين مواعيد الأعياد والأصيام ويعلن ما قرره بارسال الوفود إلى الطوائف اليهودية المختلفة، كما أطلق الناسيء أيضاً على رئيس القبيلة عندهم[2].

أما بالنسبة للحج فتظهر لنا الروايات أن القبائل العدنانية هي التي سيطرت على مقاليد الأمور فيه وكان لمضر الإجازة ولعدوان الافاضة ولكنانه النسيء[3].

كما أن القبائل لم تكن متحدة في شعائرها الدينية بالنسبة للحج فقد انقسمت القبائل إلى ثلاث فئات وربما كان للعصبية القبلية أثرها في هذا التقسيم فالقبائل العدنانية معظمها من فئة الحمس والقبائل المحلة هي القبائل اليمانية التي كانت تجاور العدنانية. كما أن معظم القبائل الطلس هي قبائل يمانيه.

أما قبائل الحمس فهي قريش وكنانه ومن ولدته قريش من سائر العرب، أو حليف لقريش، وكل من نزل مكه من قبائل العرب. وكذلك كلاب وكعب وعامر بن صعصعة والحارث بن عبد مناة ومدلج بن مرة وعامر بن عبد مناة وكنانه وثقيف وعدوان ويربوع بن حنظلة ومازن بن مالك بن تميم ولم تدخله بكر بن عبد مناة[4].

والحمس هو التشدد بالدين والظاهر أن قريشاً هي التي ابتدعت هذا الأمر فقد كانوا يعتبرون أنفسهم بأنهم أهل الله وبنو ابراهيم وولاة البيت وأهل الحرم وسكان مكة ولا يفضلهم أحد من العرب فأرادوا أن تكون لهم ميزة على القبائل الأخرى فأسقطوا عن أنفسهم الوقوف في عرفه والافاضة منها بينما هي واجبة على سائر القبائل[5].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢/٣٥٦.

(٢) سفر الخروج، فصل ٣٤/٣١ وسفر عدد فصل ٧/٣ ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب ٨١.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن ٢/٢٧-٢٨.

(٤) ابن حبيب، المحبر: ١٧٨، المنمق في أخبار قريش ١٤٣-١٤٤.

(٥) ابن هشام، السيرة، ١/١٩٩، المحبر، المنمق ١٤٣-١٤٤ ابن الأثير، الكامل، ١/٢٦٦، الم...

وقد كانت الجنسية القرشية تبيح لكل من تلده قريشية أن يتبع جنسية أمه من حيث عادات الحمس وقد وضع الحمس. شروطاً يجب القيام بها وهي أنهم كانوا لا يدخلون في بيت من شعر، ولا يستظلون إلا في بيوت من الأدم، ولا يسألون السمن ولا يجزوا الشعر والأظافر، ولا يحيلون بين المرضعة وطفلها، ولا يدهنوا ولا يتطيبوا ولا يلمسوا النساء، ولا يأكلوا لحماً ولا يلبسوا في حجهم الوبر أو الصوف أو الشعر. وإذا طافوا بالبيت لبسوا أثواباً جديدة ولا يطأوون أرض المسجد بنعالهم تعظيماً له ولا يدخلون البيوت من أبوابها.

الحلة:

وتقسم إلى قسمين الأول القبائل التي كانت لا تتقيد بالأشهر الحرم بل تستغل وجود هذه الأشهر حتى تغير على القبائل المحرمة. ومن هذه القبائل طيء وخثعم كما ساعدهم بعض القبائل العدنانية مثل أسد وربما لحلفهم معهم، وبكر بن عبد مناة التي لم تدخل مع القبائل الحمس، وقوم من بني عامر بن صعصعة. وقد قام ضد هذه القبائل من نصب نفسه لنصرة المظلوم، والمنع من سفك الدماء، وارتكاب المنكر. وقد اطلق على هؤلاء اسم "الذادة" المحرمون وهم من العدنانيين من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة بن زيد مناة وقوم من هذيل وبني شيبان فكانوا يلبسون سلاحهم في الأشهر الحرم لمقاومة الحلة[1].

والثاني: وهم عكس الحمس وقد كان لا يسمح لهم للطواف إلا إذا ارتدوا ثوب أحمس وإن طافوا بثيابهم لا يحل لهم لبسها، وإن لم يجدوا ثوب أحمس طافوا بالبيت عراة[2]، وكانت العرب تطلق على هذه الثياب اسم "اللقى" كما حرم على هذه الفئة البيع والشراء في حجهم[3].

ومن قبائل الحلة بعض تميم وضبه وخزاعة ومزينه والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها عدا ثقيف وعدوان وربيعه كلها، وقضاعة وقبائل الأزد والأنصار وبجيلة وبارق.

---

(1) اليعقوبي، تاريخ ١/ ٢٤٠، الفاسي، شفا الغرام، ٢/ ٤٠.
(2) ابن سعد، الطبقات ١/ ٧٢.
(3) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ١٤٦.

الطلس:

وهم أهل اليمن من حضرموت وعك وتجيب ومعهم إياد وكانوا يطوفون بالبيت على صفة خاصة بهم ومن صفاتهم: أنهم وسط بين الحلة والحمس يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة ويطوفون بثيابهم ويدخلون البيوت من أبوابها[1].

وهكذا نرى أن القبائل العربية بالرغم من أن الحج كان يجمع بين هذه القبائل ويوطد من التعارف بينها إلا أن العصبية القبلية كانت تملي أن تتبع كل كتلة أو مجموعة من القبائل أنظمة ومراسم لها تتقيد بها دون غيرها من القبائل وقد بقيت هذه الفئات والمعتقدات حتى جاء الاسلام وأبطل هذه العادات.

الأسواق:

هي من مظاهر التقارب القبلي وقد كانت ترتبط بالحج ارتباطاً وثيقاً وخاصة سوق عكاظ وقد كانت هذه الأسواق بمثابة مؤتمرات عامة ومعارض تجارية تتبادل فيها القبائل الأشعار والأفكار والسلع التجارية، وبالرغم من هذه المؤتمرات إلا أنها لم تكن لتفسح المجال إلى الاختلاط الواسع، فقد وقفت القبلية حاجزاً أمام هذا الاختلاط فكل قبيلة من القبائل المشتركة في سوق عكاظ كانت تقف على مراعيها وراياتها منحازة في المنازل يضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها[2]. وقد كان لكل سوق موسم معين يقام فيه كما أنه له قبائله التي ترتاده وقد كان سوق عكاظ بمثابة المعرض القبلي العام الذي تلتقي فيه معظم القبائل العربية.

وقد كانت الأشهر الحرم عاملاً مساعداً في إقامة هذه الأسواق لا سيما وأن معظم هذه الأسواق كانت تقام في هذه الأشهر فالأمن كان يشجع القبائل على حركة الانتقال للاشتراك في هذه الأسواق.

والناحية الثانية أن هذه الأسواق كانت مصدراً من مصادر الرزق والربح الوفير ونلمس ذلك من تخوف قريش من عدم إقامة سوق عكاظ عندما سمعت بما قام به البراض والذي أدى في النهاية إلى حرب الفجار، فقد جاءت قريش إلى أبي براء عامر

(١) ابن حبيب، المحبر ١٧٩، ١٨١.

(٢) الأزرقي، اخبار مكة ١/١٢١-١٢٢.

بن مالك كي يمنع الشريين قيس وكنانة حتى يقام السوق إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح.

كما أن القوافل التجارية كانت تتنقل تحت حماية القبائل وكانت هذه الحماية والغفارة تتنقل من قبيلة الى أخرى إما بالحلف أو دفع الأتاوة. وقد تنبهت قريش لهذا الأمر فحاولت أن ترتبط مع أكبر عدد ممكن من القبائل العربية برباط الحلف. ومن القبائل التي حالفتها قريش تميم فكان بنو يربوع حلفاء لعبد شمس وحلف تميم مع قريش ربطهم بقبيلة كلب[1] لأن حليف الحليف حليف. وارتبطت مع أسد وطيء ومع بني عمرو بن مرثد بن قيس ثعلبه بحلف وكان يجيرون لهم على ربيعة كلها.

ونظراً لأهمية الأسواق فقد كان الرسول ﷺ يحضرها داعياً القبائل الى الاسلام[2].

كما أن الأسواق هذه كانت بمثابة إذاعة رسمية للقبائل تعلن فيها مفاخرها، وتسعى لطلب ثأرها، وهو الملتقى الأدبي لتبادل الخطب والأشعار وهناك من يذكر بأن القصائد الجاهلية قد علقت في سوق عكاظ. كما أنهم إذا خلعوا فرداً أعلنوا ذلك في المواسم وإذا غدر أحد بأحد رفعوا له راية بعكاظ[3].

وتقسم الأسواق إلى ثلاثة أقسام[4]:

الأسواق التي كانت تخضع للنفوذ الأجنبي وتتضاءل فيها الصبغة العربية كما في الحيرة وهجر والبحرين وعمان.

الأسواق التي أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة إليها فصارت مع الزمن تمثلهم أحسن تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام والزواج والدين والحقوق وكان القائمون بأمر هذه الأسواق هم من القبائل العربية أنفسهم ومن هذه الأسواق سوق عكاظ ومجنه وذي المجاز.

---

(١) ابن النديم، الفهرست ١٥١.
(٢) ابن بكار، جمهرة نسب قريش ٣٦٨.
(٣) الألوسي، بلوغ الأرب، ٢٦٨/١
(٤) الافغاني، اسواق العرب، ٢١٢-٢١٣.

والنوع الثالث من الأسواق ذات الصبغة العالمية نظراً لموقعها الجغرافي ومنها عدن وصحار وربى وفي هذه الأسواق كان يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس بالإضافة إلى القبائل العربية التي كانت تقيم في هذه المناطق.

وقد بلغت الأسواق العربية اثناعشر سوقاً موزعة على مدار السنة إلا أن أهم هذه الأسواق هو سوق عكاظ الذي بقي قائماً حتى سنة ١٩٧هـ[1].

وكان هذا السوق يقام في أوائل ذي القعدة ويستمر إلى العشرين منه[2]. وكانت حكومة السوق وقضاؤه بيد قبيلة تميم. وعكاظ السوق الوحيد الذي كان يحرص رؤساء القبائل وأشراف الناس على حضوره.

وهكذا كانت الأسواق عاملاً في تقريب اللهجات العربية، وفي توحيد العادات والتقاليد القبلية كما أنها كانت عاملاً مهماً في ازدهار الحركة التجارية بين القبائل. إلا أنها كانت من ناحية أخرى تبعث الأحقاد والحزازات بين القبائل وتبقى عوامل الفخر والأنفة والاعتزاز بين هذه القبائل. مما كان يؤجج من نار العصبية القبلية.

ب- مظاهر النزاع القبلي:

كانت الأيام أبرز مظاهر النزاع القبلي حتى جعلت قبائل الجزيرة العربية في صراع مستمر. وهذه الأيام تشكل سلسلة طويلة من الاثار الدموية حتى أصبحت رياضة محببة للعرب بل وهناك من رفض الدعوة الاسلامية كبكر مثلاً لأن الدين الجديد يحرم الغزو والحروب القبلية ويمنع المسلم من أن يقتل مسلماً آخر. وقد طلبت هذه القبيلة من الرسول ﷺ أن يسمح لها بالإغارة على تميم ثم تعلن اسلامها فيما بعد[3].

---

(١) الأزرقي، اخبار مكة، ١/١٢٣، وفي رواية ثانية إلى سنة ١٢٩هـ.
(٢) ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ٣٦٧-٣٦٨.
(٣) خوادبخش، حضارة الاسلام ١٤.

وقد اختلفت المصادر في عدد هذه الأيام فقد ذكر الميداني[1] أن عددها ١٣٢٠ يوماً وذكر ابو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه الكبير أنها ١٢٠٠ يوماً. وألف أبو الفرج الأصفهاني كتاباً جمع فيه ١٧٠٠ يوماً أما جاد المولى ورفاقه فقد جمعوا ٥٢ يوماً[2].

أما أسباب هذه الأيام فهي في إطارها العام العصبية القبلية والأنفة والحمية والمصالح القبلية.

والأيام بمجموعها تمثل العصبية القبلية في أحسن مظاهرها سواء كانت هذه الأيام بين قبائل متباعدة النسب، أو بين بطون القبيلة الواحدة.

ويمكن إجمال اسباب هذه الأيام فيما يلي:

إن العرب كانت تعتبر الغزو من وسائل العيش كما اعتبرته من مقومات العزة والمنعة ولهذا فقد صعب على بعض القبائل أن تمكث أربعة أشهر من السنة دون قتال فأوجدوا مبدأ النسيء حتى يفرقوا هذه المدة على بعض شهور السنة ليتاح لهم الغزو[3].

والناحية الثانية أن القبائل العربية كانت تعتبر الحرب والغزو والقتال مظهر من مظاهر القوة القبلية ومن هنا كانوا يقولون لا مجد أسرع من مجد السيف[4].

كما أن النواحي الاقتصادية كانت تثير القبائل بعضها على البعض فالتعرض لقافلة تجارية أو انتجاع أرض قبيلة أخرى كانت تدفع القبائل الى الاقتتال. ومن الأيام التي لعبت بها النواحي الاقتصادية دوراً، يوم الزويرية بين بكر وتميم فقد رحلت بكر من مواطنها وسكنت في أرض تميم نتيجة قحط أرضها فكان لا يلقى تميمي بكري إلا قتله والعكس[5]. ويوم ذات نكيف بين قريش وكنانة[6] وحرب البسوس بين بكر وتغلب.

---

(١) الميداني، مجمع الأمثال، ٢/٥١٧-٥٣٧.

(٢) عبدالرؤوف عون، فن الحرب ونظمها رسالة بجامعة القاهرة رقم ١٨٩.

(٣) ابن حبيب، المحبر ١٥٦-١٥٧.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار ١/١٣٠.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ١/٣٦٨.

(٦) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ١٢٤-١٢٨.

ويأتي الثأر كما في حرب الفجار[1] والهجاء من الشعراء من الأسباب التي كانت تؤدي إلى هذه الأيام. ومن الأسباب أيضاً التحريض الأجنبي فقد كان الفرس يحاولون دوماً أن يثيروا القبائل العربية بعضها على بعض، وظهر أثر النفوذ الفارسي في يوم أباغ ويوم حليمه. وأثر الروم والفرس أيضاً في النزاع بين عرب المناذرة وعرب الغساسنة. وأثر اليهود في النزاع بين الأوس والخزرج. حيث كانوا يصنعون لهم السيوف مما أدى إلى حدة الصراع بينهم[2]. ونتيجة الأهوال والمآسي والأحقاد والحزازات التي كانت تبعثها هذه الأيام فقد ظهرت بعض الأصوات التي نادت بوقف القتال والدعوة إلى السلم وخاصة بعد قتال عبس وذبيان. ومن هؤلاء الدعاة زهير بن أبي سلمى الذي وصف هذه الحروب بقوله: [3]

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم

والربيع الفزاري الذي قام بسوق عكاظ وحث الطرفين المتنازعين على الصلح وقال[4]: «يا بني ذبيان داروا الحروب فإنها تذل، يا بني ذبيان طلب الثأر ضالة الأشرار، ومزالق الأعمار، وهلاك الأخيار، أخوكم عبس عدوكم أمس فطلاب أمس الذاهب هلاك غد المقبل، هلا سألتم عن الأحقاد طسم وجديس وعاد.

واعلموا أن كل ذاكر لناس، وكل مقيم ظاعن، وكل ثابت زائل، وبين الأموات، موت الأحياء. والسرعة إلى الأجل ذهاب العاجل، والذل غنيمة الظالم ... واستشهد بأبيات تحث على صلة القربى وقال:

أخاك أخاك من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناح[5]

---

(1) المصدر السابق، ١٨٧.
(2) الخربوطلي، العلاقات السياسية بين العرب واليهود، ٥٥.
(3) لويس شيخو، شعراء نجد والحجاز قسم ٤/٥٧٠.
(4) التيجان، ١٢٤-١٢٥.
(5) المصدر السابق.

أما عدد المشتركين في القتال فقد اختلفت من يوم إلى اخر فيوم الكلاب الثاني الذي كان لمذحج وحلفائها بلغ عددهم اثنا عشر ألفا. ولا يعلم في الجاهلية جيش كان أكبر منه ومن جيش كسرى يوم ذي قار ويوم شعب جبلة[1]. وبلغ جيش مالك بن عوف في غزوة حنين عشرة آلاف. وسمي عيينه بن حصن جرارا[2] لقيادته أكثر من ألف. وسأل عمر قبيلة عبس عن عددهم يوم الهباءة قالوا كنا مائة كالذهب لم نكثر ولم نقل وقيل لعنترة كم كنتم يوم الفروق (بين عبس وذبيان) قال: مائة[3].

ويعزو ابن خلدون اسباب النصر في هذه الأيام إلى العصبية وليس لغيرها ويقول: «إن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة هي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال ومنها الخداع ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة.

وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية، أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم، وفي الجانب الآخر عصائب متقدمة لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبته واحدة»[4].

وإذا استعرضنا الأيام نجدها لا تتعدى أربع صور.

الصورة الأولى: هي تنازع العصبيات العربية مع القوى الخارجية ويمكن أن نطلق عليها العصبيات المركبة أو العصبية الجنسية وقد تمثلت هذه العصبية في معركة ذي قار وفيها تجلت مظاهر العصبية العربية ضد الفرس فعندما شب النزاع بين بكر والفرس قال أسرى تميم الذين كانوا بحوزة بكر: خلوا عنا نقاتل معكم فإنما نذب عن أنفسنا فقالت

---

(١) البياتي، أيام العرب، ٧٠-٧٣، رسالة بجامعة القاهرة رقم ١١٤٣.
(٢) الهيلي، الروض الأنف، ١/١٨٣.
(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١/١٢٥.
(٤) ابن خلدون، المقدمة ٢٧٧-٢٧٨.

بكر إنا نخاف أن لا تناصحونا قالوا: فدعونا حتى تروا مكاننا وغناءنا، كما اشتركت اللهازم مع تميم بالرغم من العداوة بينهم وبين بكر[1].

وضربت اياد مثلاً رائعاً في العصبية فقد كانت مع صفوف الفرس وتحت قيادة إياس بن قبيصة الطائي فجاءت إلى بكر سراً وقالوا لهم أي الأمرين أعجب إليكم؟ أن نطير تحت ليلتنا فنذهب؟ أو نقيم متفرجين تلاقوا القوم قالوا: بل تقيمون فإذا التقى القوم انهزمتم[2].

ومن هنا كانت العصبية العربية من أهم الأسباب التي جاءت بالنصر إلى القبائل العربية وغيرت نظرة المجاورين للعرب فأخذوا يحسبون لهم الحساب بعد أن اعتبروهم كميات مهملة[3].

والصورة الثانية هي صراع بين جذمي العرب العدنانيين والقحطانيين ومن هذه الأيام يوم البيضاء "البيداء" وسببه هجرة مذحج وهي قبيلة قحطانية الى أراضي معد بتهامه فوقع النزاع بين قبيلتي عدوان وعليها عامربن الظرب العدواني فغلبت مذحجاً في البيضاء. وتذكر الروايات أن هذا هو أول يوم اجتمعت فيه مضر تحت راية واحدة هي راية عامربن الظرب العدواني[4]. ويوم خزاز بين القبائل العدنانية ربيعة ومعد والقبائل اليمانية وفيه انهزمت مذحج[5] واعتبر يوم خزاز من أعظم أيام العرب في الجاهلية[6].

أما الصورة الثالثة فهي تصادم العصبيات الوسطى بين القبائل المنحدرة من أصل واحد كما حدث في حروب الفجار بين قيس وكنانة.

وبالرغم من حالة العداء بين القبائل المتقاربة في الدم في بعض الأوقات، إلا أن عصبيتهم كانت تدفعهم إلى تقديم العون والمساعدة لاخوتهم في الدم. وتزداد هذه

(١) الطبري، تاريخ ٢/٢١١-٢١٢.
(٢) الطبري تاريخ ٢/٢٠٥.
(٣) خودا بخش، حضارة الاسلام، ٣١.
(٤) المحبر، ٢٤٦، ابن الأثير، الكامل ١/٢٩٥، المنيرية.
(٥) ابن الأثير، الكامل ١/٣١٠، المنيرية.
(٦) الاشتقاق ٢٠٣، المحبر ٣٠٠.

المساعدة إذا آزرتها المصالح الشخصية والأهواء القبلية. فقبل حرب الفجار عزم النعمان بن المنذر على غزو بني عامر بنواحي السلان مستخدماً السرية ومدعيا أنه خرج لحماية لطيمة (قافلة) الملك، فلما فرغ الناس من سوق عكاظ علمت قريش بما يخطط له النعمان فأرسل عبدالله بن جدعان إلى بني عامر يعلمهم الخبر فحذروا واستعدوا لحرب المهاجمين[1].

وعندما تغيرت المصالح القبلية، ورأت القبائل القيسية أن كرامتها وحرمتها قد اخترقت قامت تقاتل قريشاً في حرب الفجار وقد كانت أهوال هذه الحرب عظيمة على الطرفين ولم توقفها إلا أواصر القربى ولحمة الدم والنسب حيث قال عتبة بن ربيعة. يا قيس هلموا إلى صلة الأرحام. فقالت قيس وما صلحكم هنا فإنا موتورون. فقال: عتبة على أن ندى قتلاكم ونتصدق عليكم بقتلانا فرضوا بذلك[2]

وصلة الدم والقربى كانت تجمع كثيراً بين القبائل بالرغم من ظهور حركة الانشقاق بينهم فهذا قيس بن زهير العبسي يقول نرجع إلى أخواننا من ذبيان فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم[3].

والصورة الرابعة هي صورة تصارع البطون كما حدث بين الأوس والخزرج وبين الاحلاف وبين مالك وثقيف.

وهكذا نجد أن النزاع القبلي قد طوق جميع القبائل العربية وجعلها تتصارع بين عصبيات قبلية ضيقة حتى أنها حولت الجميع لحرب الجميع باستثناءمن قام بينهم رابطة الحلف الذي كانت العرب تحترمه وتقدسه.

---

(1) البياتي، الأيام، رسالة بجامعة القاهرة ١١٤٣، ١/٢٦-٢٧.
(2) ابن حبيب، المنمق، ٢٠٨.
(3) ابن الأثير، الكامل، ٢/٢٤٥-٢٥٥ المنيرية.

دواعي ظهور العصبية القبلية وأثرها:

إن الأساس الذي يقوم عليه النظام القبلي هو روح العصبية القبلية التي كانت متغلغلة في الجسم العربي الجاهلي وفي كل ما يحيط به فهو يتعصب لأسرته وفخذه وعشيرته وبطنه وعمارته وقبيلته كما تعصب لأرضه ولغته ودينه وحليفه وجاره.

والعصبية في أبسط صورها هي مسؤولة جماعية موزعة بين الفرد والقبيلة، فالفرد من حيث هو عنصر من عناصر هذه القبيلة عليها أن تحميه وتقدم العون له والفرد يجب عليه أن يدفع عن قبيلته إذا ما لحقها أذى. والعصبية القبلية لا تفرق بين صريح ومولى وبين عبد وحر فمجتمع القبيلة وحده واحدة يجمع بينها لحمة الدم والنسب والحلف والجوار وعليهم جميعاً مسؤولية الدفاع عن القبيلة.

وقد كان لظروف الحياة الصحراوية وانعدام حالة الأمن في الجزيرة ما يبرر نشوء العصبية القبلية وشدتها فهي وسيلة للدفاع والتناصر والتعاضد ومن هنا كانت وحدة الدم تدفع القبائل لمساعدة بعضها البعض بل أن فائدة النسب هي هذه العصبية[1].

ولولا العصبية القبلية لهلك الضعيف وسيطر القوي، إلا أن العصبية كانت تدفع القبائل وخاصة الضعيفة منها إلى طلب حلف الأقوى للمحافظة على كيانها ووجودها.

لقد كانت العصبية القبلية كالدولة للرجل الحديث وصارت الوطنية العربية وطنية قبلية لا جنسية[2]. ومنها حفظت هذه العصبية وكان لها آثار سلبية على المجتمع الجاهلي فقد وقفت حاجزاً منيعاً أمام اقامة مجتمع متماسك تحكمه رابطة الأخوة العربية، كما أنها تطورت حتى أصبحت مظهراً من المظاهر القبلية المغالية. وأبرز مثال على ذلك ما حدث بين وائل بن حجر الكندي ومعاوية بن أبي سفيان. فقد أمر الرسول ﷺ معاوية أن يذهب مع وائل إلى الحره وينزله هناك فمشى معاوية معه ووائل راكب فقال له معاوية الق إليّ نعلك قال: لا إني لم أكن البسها وقد لبستها، قال فأردفني، قال: لست من أرداف الملوك، قال أن الرمضاء قد احرقت قدمي، قال: لا يبلغ أهل

---

(١) وافي، شرح مقدمة ابن خلدون، ٢/٤٢٥.

(٢) أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ٢٤.

اليمن أن سوقه لبس نعل ملك. ولكن ان شئت قصرت عليك ناقتي فسرت بظلها. فأتى معاوية النبي فأنبأه فقال «إن فيه لعبية من عبية الجاهلية»[1].

ومن مظاهر العصبية القبلية الحمية وهي الأنفة والغيرة والغضب[2] ويكفي أن ينادي فرد بشعار قبيلته حتى يقبلوا عليه من كل حدب وصوب.

وقد لعبت العصبية القبلية دوراً خطيراً في الثأر، حتى أن القبائل اعتبرته فريضة مقدسة لا يعلوها شيء ويعلق شوقي ضيف على ذلك بقوله: «لقد قدسوا العصبية تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية، تلك الشعائر التي كانت تشاركهم فيها قبائل أخرى، أما الشعائر العصبية القبلية فإنها خاصة بالقبيلة الواحدة وابنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد وربما تسامح الواحد في دينه. إذ لم يكن يهمه في كثير من الأحوال، أما في العصبية فإنه لا يتسامح في أي واجب من واجباتها»[3].

فكان الثأر هو الواجب الأول الذي لا يتساهلون فيه فكانوا يطلبونه في الأسواق والحج والصحراء وفي كل مكان ومن هنا تحولت القبائل العربية وتوزعت ما بين طارد ومطرود وغاز ومغزي كل يسعى إلى أخذ غيره بسلطان قوته وخاصة إذا لمس في الخصم ضعفاً.

ومن هنا اعتبرت القبائل التي لا تؤمن بنوازع الشر بأنها قبائل ضعيفة لا تصلح للحياة أما القبائل التي تحب الشر وتسعى إليه فهي من القبائل القوية، لقد كانوا مؤمنون بأن الشر سياج أهله.

وقوة العصبية كانت تستدعي الإذعان لقرارات القبيلة، فالقرارات كانت تتبع قوة السيد وكفاءته وهي في جملتها ديمقراطية وهذه القرارات واجبة التنفيذ ومن هنا قال دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد[4]

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ٣٤٩/١، وما بعدها جواد علي المفصل ٢٩٢/٤٢.
(٢) اللسان مادة حمى.
(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ٦١.
(٤) لويس شيخو، شعراء نجد والحجاز قسم ٥/٧٥٧.

وبالرغم من صدق العصبية في الدفاع عن أمجاد القبلة إلا أنه لم يكن لها أثر في النواحي الاقتصادية فالشعر العربي يصور لنا حالات فقر مدقع وخير مثال لذلك فئة الصعاليك التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية.

وقوة العصبية من الناحية الاقتصادية لم تظهر حتى في مكة وهي من أكثر القبائل العربية تماسكاً ونلمس مدى التفاوت الاقتصادي بين المجتمع المكي مما أشار به القرآن الكريم في آيات متعددة[1].

فصورة التفاوت الطبقي لم تكن العصبية القبلية لتحلها من الناحية الاقتصادية، فالعصبية وإن تحملت درء المخاطر الخارجية، فإن المشاكل الداخلية متروكة لكل فرد يحلها بالصورة التي يراها مناسبة.

لقد كانت القبائل تنظر إلى القريب نظرة تقديس واحترام فهو عدتهم للمستقبل وعليه يقع عبء القتال ومن هنا قالوا: لا تعدم من ابن عمك نصراً وكفك منك ولو شلاء[2].

وأشد ما كان يخشاه العربي هو أن يكون غريباً عن قبيلته وعشيرته والغريب هو الذي شطت عنه عشيرته أي بعدت[3] وبهذا المعنى يقول امية بن أبي الصلت:

قومي ثقيف ان شالت وأسرتي   وبهم أدافع ركن من عاداني[4]

وقد لعب الشعر دوراً كبيراً في اشتداد العصبية القبلية، ولذا فقد كثر الشعر في العصر الجاهلي، فالشاعر هو الناطق الرسمي للقبيلة، المتحدث بلسانها الحافظ لأمجادها ومفاخرها، المدافع عنها أمام القبائل الأخرى.

وقد صور هؤلاء الشعراء العصبية القبلية ومنهم دعبل الخزاعي حيث يقول:

---

(١) انظر سورة البقرة، الآيات ١٦٦، ٢١٢، سبأ ٣١-٣٣، غافر ٤٧، المؤمنون ١١٠.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال، ٢/١٧٠.

(٣) مجهول، الفاصل بين الحق والباطل، مخطوط ١/١٥٣.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ٢/٣٥٧، بيروت.

أحببت قومي ولم أعدل بحبهم قالوا تعصب جهلاً قول ذي بهت[1]

والشعر هو وسيلة الأعلام الوحيدة التي كانت موجودة في العصر الجاهلي فالشاعر يقوم مقام الصحيفة والإذاعة والتلفاز (التلفزيون)، فهو معلق ومدافع ومذيع وناشر لأخبار قبيلته.

وقد كانت معظم أغراض الشعر الجاهلي استجابة للنظام القبلي ونداء للعصبية فالفخر يصور أمجاد القبيلة، والمدح يضفي عليها ثوباً تتميز به عن القبائل الأخرى وحتى في الرثاء والغزل والهجاء نرى المسحة القبلية والاعتزاز القبلي، ولأهمية الشعراء كانت العرب لا تقيم الاحتفالات الضخمة إلا في ثلاثة أمور منها ميلاد شاعر. وإذا تعدد شعراء القبيلة الواحدة قدّم عليهم شاعراً وتسميه شاعر القبيلة. ومن هنا قالوا قائدها فلان وفارسها فلان وشاعرها فلان[2]. وإذا اجتمع في الشخص الرئاسة والشجاعة والشعر سموه الكامل كسويد بن الصامت الأوسي[3].

وكان الشاعر يقدم على الخطيب وذلك لحب العرب إلى الشعر الذي يقيد مآثرهم ويعظم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم[4].

وقد كان يكفي من الشاعر أن يقول بيتاً من الشعر يمدح به أناساً فيرفعهم أو يقول نبياً يهجو فيه آخرين فيزلهم إلى الحضيض ومثال ذلك هجاء جرير لقبيلة نمير التي كانت جمرة من جمرات العرب[5].

وكما اعتزت القبيلة بشاعرها فإن على القبيلة أن تحفظ آثار الشاعر وتتداولها وهذا ما تفرضه مبادئ العصبية القبلية واستمر ذلك حتى في العصر الأموي. فالحجاج

(١) المبرد، الكامل في اللغة، ٢/٧.

(٢) الأغاني، ٤/١٤٦، جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١/٩٠.

(٣) الأغاني، ٢/١٣٦، بيروت.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/٢٦٣.

(٥) انظر: ابن رشيق، العمدة ٥٠-٥١، البيان والتبيين، ٣/ ٣٦٠-٣٦١، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥/ ١٥٣-١٥٥.

يوسف الثقفي يأسف لعدم وجود من يحفظ أشعار أمية بن الصلت ويرويها علماً بأنه كان من أشد المناوئين للدعوة الإسلامية[1].

وللدلالة على أهمية الشاعر ما كان يعامل به عند وقوعه في الأسر، حيث يربط لسانه بنسعة. وفي المقابل فقد كانت العرب تمتدح الشاعر المدافع عن قبيلته وتطلق عليه اسم الشاعر العذوم[2]

ومع أن العصبية القبلية كانت سبباً في ازدهار الحركة الشعرية إلا أنها كانت من طريق آخر سبباً في الوضع والانتحال وخاصة في المثالب والمناقب والأنساب.

ولم تقف العصبية القبلية عند العصر الجاهلي بل امتدت آثارها إلى التنظيم السياسي للمجتمع الاسلامي وإلى الآثار الفكرية وخاصة في كتابة تاريخنا، ومع التسليم أنه قلما أن يوجد تاريخ خال من التعصب[3] لكن العصبية المفرطة بلغت شأناً في روايات تاريخية ظاهرة للعيان. وما روايات الأيام إلا مظهر من مظاهر العصبية التي تمثل جانباً واحداً[4]. وفي روايات عبيد بن شرية نلمس أثر العصبية القبلية فهو يمجد عرب الجنوب ليثبت أنهم سبقوا عرب الشمال في الأمجاد أو أنهم لا يقلون عنهم منزلة[5] وقد كان للعصبية والتنافس بين العدنانيين والقحطانيين هي المسؤولة مثل هذه الأخبار وهي من جهة ثانية كانت سبباً في رد النسابة العدنانية على القحطانيين وازدياد حدة العصبية بينهما.

وإخباري يماني آخر هو وهب بن منبه حيث يقدم أسطورة يمانية مجيدة هدفها أن تظهر للقحطانيين من أمجاد قبل الاسلام لمواجهة التفوق العدناني. وهذه الروايات في صورة التفاخر بين الجذمين. فكتاب التيجان يظهر حمير كالسراج المضيء في الليلة الظلماء، وعرب الجنوب عرفوا التوحيد قبل الناس، وأن الصعب ذا القرنين يدعو في

---

(١) الأغاني، ٤/١٣٣، بيروت.

(٢) قال عبد يغوث القحطاني أقول وقد شدوا لساني بنسعة، الألوسي، بلوغ الأرب ٣/١٧.

(٣) الالوسي، بلوغ الأرب ٣/١٧.

(٤) السبكي، طبقات الشافعية ١٩٧.

(٥) الدوري، علم التاريخ عند العرب ١٧، انظر التيجان في بلوك حمير ٣٥، ٤٧-٤٨، ٥٢، ٥٣، ٧٤، ٧٦، ٨٧، الدوري، علم التاريخ عند العرب، ١٥.

حروبه إلى السيف والإيمان، وتقديس اليمانية للكعبة، وحج بعض ملوكهم وقيام بعض ملوكهم بفتوحات عظيمة في أرجاء الأرض. وينسب إلى أهل اليمن السبق في استعمال الخط العربي، وهم نظموا الشعر العربي وعنهم أخذ العدنانيون. وتفوق اليمانية بعلم الصناعات وعنهم أخذها الناس(١).

ومن هذا يتضح تمجيد الكتاب اليمانيين للقبائل اليمانية واظهارها بمظهر يليق في التوحيد والفتوحات واللغة والآداب والحكمة والصنعة(٢).

ومثله ما قام به هشام بن محمد الكلبي في كتابه مثالب العرب(٣).

لم يقتصر التنافس بين العدنانيين والقطحانيين فحسب بل امتد إلى التفاخر بين مضر وربيعة، فقامت ربيعة تعلن أن منها أنبياء كصالح وشعيب، واستدعى ذلك وضع ما يؤيد قولهم كما وضعوا لأحاديث لتدعيم رأيهم في ذلك. ومنها قولهم أن الرسول ﷺ قال: «لا تسبوا ربيعة فإنه الله . . (٤) صالحاً وشعيباً(٥)».

فقد كان العدنانيون يؤرخون بالأحداث الخاصة بهم مثل نزول اسماعيل مكة، وعام تفرق ولد معد، وعام رياسة عمرو بن لحي، وموت كعب بن لؤي، وعام الغدر(٦)، وعام الفيل، وحرب الفجار، وموت هشام المخزومي، وبنيان الكعبة(٧).

---

(١) التيجان في ملوك حمير: انظر ص ١٦، ٣٥، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٧٤، ١٠١، ١٦٢.

(٢) الدوري، علم التاريخ عند العرب ١١٠-١١١.

(٣) مخطوط مصور بجامعة الدول العربية تحت رقم ٤٠٤ت.

(٤) بياض في أصل المخطوط ويستدل من الأشعار أنه: بعث منهم. انظر الآثار الرفيعة في مآثر ربيعة مخطوط ٥٢ ب.

(٥) بياض في أصل المخطوط ويستدل من الأشعار أنه: بعث منهم. انظر الآثار الرفيعة في مآثر ربيعة مخطوط ٥٢ب.

(٦) عام الغدر: عام اغارة قوم من بني يربوع على كسوة الكعبة التي ارسلها ملوك اليمن (الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض ١٨-١٩.

(٧) الأصفهاني. تاريخ سني ملوك الأرض ١١٨.

وأرخت ربيعة بعام التحالف[1] وفزره وعبس بيوم جبلة، وبنو عامر بن صعصعة بيـوم شـعب جبلة وكـان ذلك قـبل الاسـلام بنيف وأربعين سنة وانظر تاريخ تميم، والأوس، والخزرج، وطي، وقريش[2].

أما في الحروب فقد كان لكل قبيلة شعارها الخاص بها ولها صيحتها تنادي بها في حروبها. ومن أشهرها فشعار اليمن "يا منصور" وهكذا نلاحظ أن القبيلة كـانت متغلغلة في كل شيء.

المجتمع المكي قبل البعثة النبوية:

لقد حمل أهل مكة لواء معارضة الدولة الاسلامية، وما أن انهار هذا المركز حتى تداعت المراكز القبلية الأخرى تتهاوى أما بالسيف أو بإرسال الوفود إلى المدينة.

وعندما أقول المجتمع المكي فإنني أعني قبيلة قريش التي كانت تسكن في مدينة مستطيلة الشكل تحيط بها الجبال من جميع الجهات مما أضفى عليها ميزة دفاعية حصينة. لكن هذه الجبال كانت نقمة من حيث الموارد الزراعية فالمنطقة صخرية وقاحلة مجدبة، وقد جاء ذلك على لسان ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[3].

واشتهرت مكة وقريش على يد قصي الذي جعل لمكة شأناً عند القبائل المجاورة وذلك بتجميعه لقريش أولاً وبإتيانه بأصنام نحتت نحتاً جيداً بأيدي فنية مهرة وعلى رأسها هبل فأصبح للبيت شهرة فأخذت قبائل الجزيرة تقبل عليه[4].

وقد أطلق على قصي لقب مجمع قريش، حيث جمعهم من رؤوس الجبال وشعابها كما نسبت اليه عدة أعمال منها أنه أول من جدد بناء الكعبة وسقفها بخشب

(١) التحالف: من أيام البسوس.

(٢) انظر: المسعودي، التنبيه والاشراف ٢٠٤ وما بعدها.

(٣) سورة ابراهيم الآية ٣٧.

(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب ١٤/٤.

الدوم وجريد النخل[1] وهو أول من قطع شجر الحرم بعد أن هابت قريش قطعة، وهو الذي تولى تقسيم مكة أرباعاً بين قريش وأول من أحدث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي بها الحجاج. ثم هو المشير على قريش بالسقاية والرفادة وقد بلغ في مكة شأناً كبيراً حتى أصبح أمره كالدين المتبع[2].

وبعد أن جمع قصي قريش دخل في صراع مع القبائل التي كانت مسئولة عن مناسك الحج وهي قبائل صوفه وخزاعة وكنانه. فأخذ الافاضة من صوفه، ودخل في صراع مع خزاعة فرأى أن قوته لا تكافئهم فاستنجد بقضاعة وبمساعدتهم تمكن من طرد خزاعة من مكة وتسلم ولاية البيت.

وصراع قريش مع خزاعة يصور في خطوطه البسيطة أول صراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب حول المناصب الدينية وقد تمادت قريش في سخريتها من خزاعة حتى أنها أعلنت أنها قد اشترت ولاية البيت بزق من خمر من أبي غبشان فضرب المثل بصفقته وقيل أخسر من أبي غبشان[3]. واعتقد أن الوضع ظاهر بهذه الرواية فإذا كان الأمر كذلك فلا داعي لحرب قصي وخزاعة.

وبعد أن أجلى قصي خزاعة عن مكة أصبح رجل مكة الأول بل زعيم الحجاز دون منازع[4]. واستمرت قريش متحدة في عهد قصي وبعد موته كاد هذا العقد أن يفرط مرة ثانية بسبب التنافس بين بطون قريش على أمور الكعبة، فقد عهد قصي لابنه عبدالدار امور الكعبة جميعها فأخذ الحسد يدب في قلوب عبد مناف فأخذوا يزاحمون بني عبد الدار على المناصب في مكة وانقسمت قريش ازاء ذلك إلى قسمين: قسم يؤيد بني عبد مناف وقسم آخر يؤيد بني عبدالدار ونتج عنهما الحلفان الشهيران وهما حلف المطيبين والاحلاف وكادت أن تقع بينهما حرب لكنهما تداعيا الى الصلح فأصبحت السقاية والرفادة لبني عبد مناف والحجابة واللواء والندوه لبني عبد الدار[5].

---

(١) الفاسي، شفا الغرام، ٩٤/١.

(٢) ابن هشام، السيرة ١٢٣/١-١٢٤.

(٣) ابن هشام، السيرة ١٢٣/١-١٢٤، أبو هلال العسكري الأوائل ٤ب- ٥أ.

(٤) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب ٥.

(٥) ابن هشام، السيرة هامش الروض ١٥٣/١، ١٥٤ وانظر عن الاحلاف ص ٤٧ وما بعدها.

وقد جاءت شهرة ابناء عبد مناف لأنهم استطاعوا تأمين الحركة التجارية مع القبائل والدول المجاورة فقد اتفق هاشم مع الروم وغسان، وعبد شمس مع الحبشة ونوفل مع الفرس والمطلب مع قبائل حمير[1].

ونتيجة الاتفاقات التجارية وجدب منطقة مكه ازدهرت الحركة التجارية في مكة كما أصبح اهلها من امهر التجار في العالم حتى أن العرب قالت " قريش التجار وحمير الأخيار "[2] ويستدل على عظمة تجارة قريش من رأسمالها الضخم حيث قدر قبل الاسلام بنحو (٢٤٠) الفا من الجنيهات[3].

وقد أثرت الناحية التجارية على سلوك قريش، فجعلتهم يسلكون سبيل الموادعة حتى تغلب حلمهم على جهل الجاهلين، فجاءت نجدتهم في نصرة الغريب والدفاع عن المظلوم وحماية المستجير بأحسن النتائج لهم[4] وما حلف الفضول الا رمزا لهذه الأعمال.

لقد كانت قريش تبتعد عن القتال لأنها تخشى أن يفسد عليها طريقها التجاري فهي لم تكن راغبة في حرب الفجار. وقد دفعت اليه دفعا ورأت أن مصالحها التجارية كانت أهم من الغزو والنهب والقتال. وهي تأمر بخلع عبد الله بن جدعان اليه دفعا لئلا يجني عليهم الجرائر فيطلبون بسببي وهم تجار لا يستغنون عن بلد[5].

ومن أجل تأمين الحركة التجارية حاولت قريش أن ترتبط مع القبائل المجاورة اما برباط الحلف أو المصاهرة. فبالحلف ربطت نفسها مع ثقيف ودوس[6] ومع الأحابيش وحلف أميه بن عبد شمس مع حارثه بن الأوقص السلمي. وحلف هاشم مع خزاعة وحلف بني أميه مع جحش بن رئاب من خزيمه، وحلف نوفل بن عبد مناف مع آل سويد التميمي[7].

---

(١) الطبري، تاريخ ٢٥٢/٢.
(٢) ابن هشام، السيرة ٧٠/١.
(٣) هامرتن، تاريخ العالم ٤٠٦/٤، مكتبة النهضة المصرية.
(٤) جواد علي المفصل ٢٠/٤.
(٥) الهمداني، الاكليل ١٣٦/٨.
(٦) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ٢٨٠.
(٧) انظر احلاف قريش في المنمق من ٢٨٥، ٢٩٤.

أما المصاهرة فقد اصهرت قريش الى قبائل عديدة منها أسلم وخزاعة وبني النجار[1] كما أن قريش كانت لا تتورع عن ربط نسبها مع بعض القبائل اذا رأت أن مصلحتها تتطلب ذلك كما كان يفعل العباس وأبو سفيان مع قبيلة كنده ويقولون لهم " ان بني آكل المرار منا " وقد نفي الرسول ﷺ " هذا النسب للأشعث بن قيس الكندي عندما جاءه وافداً ليسلم وقال له : انما نحن بنو النضر بن كنانه لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا[2].

وإذا كسبت قريش الحركة التجارية وأصبحت مقدمة فيها، فإنها عظمت عند العرب كثيرا لوجود البيت في مكه الذي كان فخرها الأول حتى أن القبائل العربية كانت تقول لقريش: نحو كعبتكم وحرمكم وهاتوا ما شئتم[3].

ولم تكن القبائل العربية وحدها التي تقدم قريشا فقد كانت الامم المجاورة تنظر بالتقدير والاحترام اليها، فسيف بن ذي يزن يفضل قريشا في الجائزة على الوفود العربية التي قدمت لتهنئته[4].

ويذكر ابن حبيب أن قريشا كانت اذا حالفت قبيلة رفعت من شأنها عند القبائل العربية فبنو آكل المرار سادوا بفضل قريش، لأن قريشا كانت تتخفر بهم وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق من كنده، ومن هنا جاءت زعامتهم[5]. لقد نالت قريش زعامتها على القبائل العربية بأمرين الأول هو ازدهار الحركة التجارية. والثاني وجود البيت فيها، والدليل على اطاعة القبائل لقريش ذلك النظام الديني الذي ابتدعته وهو نظام الحمس.

وبالرغم من اقامة قريش واستقرارها بمكه منذ وقت طويل فما جاء الاسلام الا وكانت المظاهر القبلية بارزة للعيان فيها. فالمدينة خططت أرباعا لكل بطن قسم منفصل

(1) الطبري تاريخ ٢٥٢/٢، وانظر ابن حزم، جهرة أنساب العرب ٧٢.
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب ١/ ١١٠ بهامش الاصابه.
(٣) ابن الأثير، الكامل ١/ ٣٤٥.
(٤) الأزرقي، أخبار مكه ٩٢/١.
(٥) ابن حبيب، المحبر ٢٦١.

عن البطون الأخرى[1]. وفي الرئاسة فبعد أن كانت عامة لقريش اصبحت خاصة فلكل بطن من بطون قريش رئيس منهم، ومع ذلك فقد كانت الرئاسة العامة تظهر في الأزمات كقيادة عبد الله بن جدعان لقريش في حرب الفجار، وأنا استبعد ما تذكره بعض الروايات[2] أن قريشا كادت أن تتوج الوليد بن المغيرة عليها قبل مجيء الاسلام وذلك لأن العصبية والمنافسة كانت على أشدها بين البطون القرشية وخاصة ما بين عبد مناف ومخزوم.

ومع هذا فقد كانت قريش تقدر بعض زعمائها حتى أنها أرخت بموت بعضهم مثل كعب بن لؤي، وهشام بن المغيره المخزومي[3].

قريش البطاح: وهم الذين جمعهم قصي واسكنهم الشعب بين أخشبي مكه وهم أكرم قريش، ونظرا لجدب منطقتهم فقد انصرفوا الى الأعمال التجارية حتى اصبحوا من ذوي رؤوس الأموال فامتلكوا الأراضي والمستعمرات خارج مكه وخاصة في الطائف.

ومن هذه البطون: بنو عبد مناف، عبد الدار، عبد العزى، زهره بن كلاب، عبد بن قصي بن كلاب، تميم بن مره، مخزوم بن يقظه، سهم، جمح، عدي بن كعب، حسل بن عامر بن لؤي، هلال بن أهيب، هلال بن مالك، عتيك بن عامر بن لؤي[4].

قريش الظواهر: وقد نزلوا خارج الشعب، في اطراف مكه، والظاهر أنهم كانوا أعرابا، فقد افتخروا على قريش البطاح بأنهم اصحاب قتال[5].

وتتكون من معيص بن عامر بن لؤي، تميم الأدرم بن غالب بن فهر، الحارث بن فهر، ومعظمهم من بني عامر بن لؤي. ونزل رهط أبي عبيده بن الجراح الى الأبطح فهم

---

(١) الأزرقي، اخبار مكه ٢/١٨٧،١٩٦.
(٢) ابو هلال العسكري، الأوائل ١٥١.
(٣) المسعودي، التنبيه الاشراف ٢١١.
(٤) ابن رشيق، العمده ٢/١٩٣، ابن حبيب، المحبر ١٦٧.
(٥) الفاسي، شفا الغرام ٢/٦٣.

من المطيبين[1] وذكر البعض هلال بن أهيب وهلال بن مالك[2] من قريش الظواهر واعتقد أنه الاصح حيث لا نسمع بهؤلاء في قريش البطاح.

قريش العاربه: وهم ولد سامه بن لؤي بن غالب بن فهر سموا بذلك لأنهم تعربوا عن قومهم فنسبوا الى بني ناجيه[3].

قريش العائذه: وهم بنو خزيمه بن لؤي بن غالب بن فهر وسبب التسمية أن أبا عبيده بن خزيمه تزوج امرأة اسمها عائذة فولدت له مللكاً وتيما فسموا عائذة باسم امهم. وقيل لأن عدادهم في بني ربيعة بي ذهل من بني شيبان في الجاهلية والاسلام فقيل عائذة قريش لئلا يضلوا[4].

وقد جاؤا في عهد عمر وطلبوا الحاقهم بقريش فرفض عمر. ولما تسلم عثمان الخلافة ألبثهم في قريش فكانوا في البادية مع بني شيبان وكتابتهم في قريش[5].

ويهمنا هنا من هذه الانساب قريش البطاح التي كانت لها الزعامة وما جاء الاسلام حتى كانت بنو عبد مناف وبنو مخزوم من أقوى البطون القرشية وبنو عبد مناف متقدمة على بني مخزوم في عهد حرب بن أميه.

ومع قوة هذين البطنين الا أن العصبية كانت على أشدها بين قريش ونظرة الى المآثر التي كان يعتز بها القرشيون وتوزيعها حسب البطون تعطينا فكرة عن التنافس بين هذه البطون. فقد جاءت هذه المآثر مقسمة على الشكل التالي[6]:

السقاية والعماره: السقاية هي اسقاء الحجيج أما العماره فهي الا يتكلم احد في المسجد ولا يهجر ولا يرفث في صوته. وقد كانت هذه لبني هاشم وبيد العباس بن عبد المطلب.

---

(1) ابن سعد، الطبقات ٧١/١، جواد على المفصل ٢٧/٤.
(2) البلاذري، أنساب الاشراف ٣٩/١، ابن حبيب، المحبر ١٦٨.
(3) الفاسي، شفا الغرام ٦٣،٦٢/٢.
(4) المصدر السابق.
(5) البلاذري، أنساب الاشراف ٤٥/١.
(6) انظر هذه المآثر في العقد الفريد ٣٦/٣، الالوسي، بلوغ الارب ٢٤٩/١.

العقاب: العقاب راية قريش، وكانوا يخرجونه اذا حميت الحرب واذا اجتمعوا على أحد أعطوه له، وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه[1] وقد كان العقاب لبني أميه وعند أبي سفيان.

الرفادة: وهي ما كانت تخرجه قريش من أموالها وترفد به منقطع الحاج. وكانت في بني نوفل وللحارث بن عامر.

واللواء والسدانه والحجابه ودار الندوة: كانت هذه المآثر في بني عبد الدار وقد جاء الاسلام وهي بيد عثمان بن طلحة. واللواء هو شعار قريش في الحرب، ولأهمية اللواء قدمت عبد الدار تضحيات جسيمه في معركة أحد. أما السدانه والحجابة فهي رعاية البيت.

أما دار الندوة فهي برلمان ملأ قريش وفيها تتخذ القرارات الحاسمة التي تهم قريش كما كانت قريش لاتحدث نكاحاً أو يعذر غلام أو تبلغ جارية أو تخرج قافلة تجارية إلا وجاؤا إلى دار الندوة. ولأهمة دار الندوة كان لا يدخلها إلا من بلغ الأربعين وقد استثنى من هذه القاعدة حكيم بن حزام فقد دخلها وهو ابن خمس عشر سنة وأبو جهل الذي دخلها ولم يطر شاربه[2].

ومع وجود دار الندوة الجامعة لقريش إلا أنه كان لكل بطن من بطون قريش منتدى خاص بهم حول الكعبة يجلسون فيه[3].

المشورة: كان رؤساء قريش لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب المشورة فإن وافقهم مضوا فيه وإلا تخيروا وكانوا له أعواناً وكانت المشورة لبني أسد وفي يد يزيد بن زمعة بن الأسود.

الاشناق: وهي الديات والمغرم وكانت في بني تيّم وبيد أبي بكر، فإذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه.

---

(1) ابن عبد البر، الاستيعاب ٩٢/٣ بهامش الاصابه.

(2) ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ٣٥٤، الأزرقي، اخبار مكة، ٦١/١.

(3) ابن عبد البر، الاستيعاب، ٢٩١/٢ بهامش الاصابة، الألوسي، بلوغ الأرب ٢٧٢/١.

القبة والأعنة: القبة يضربونها قبل الخروج الى القتال ثم يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش. أما الأعنة فهو القائد على خيل قريش في الحرب وقد كانت هذه لبني مخزوم وبيد خالد بن الوليد.

السفارة: كانت في بني عدي وكانت لعمر بن الخطاب إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً وأن نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به.

الأيسار: وهي الأزلام وكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي يتسرون على يديه وكانت في بني جمح ولصفوان بن أميه.

الحكومة والأموال المحجرة: وهي الأموال التي سموها للآلهه وكانت لسهم وبيد الحارث بن قيس.

وإن اقتسمت قريش هذه المآثر فقد كان التنافس على أشده بين البطون القرشية وخاصة عند بناء الكعبة، فعند بناء الكعبة كانت بطون قريش تجمع الحجارة منفصلة عن بعضها[1]، كما اقتسمت الجدران بين بطونها فقد كان شق الباب لبني عبد مناف وزهره وما كان بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وتيم وظهر الكعبة لبني جمح وسهم وكان شق الحجر لبني عبدالدار وأسد وعدي[2].

كما كان التنافس على الرئاسة والسيادة على أشده بين البطون فعندما أراد عثمان بن الحويرث التتويج على قريش قام الرؤساء والأشراف فمنعوا هذا المشروع وصاح لأسود بن أسد بن عبدالعزى: «ألا أن مكة حي لقاح لا تدين لملك» فلم يتم لعثمان ما أراده[3].

وهكذا نرى أن مكة لم تكن حضرية بالمعنى التام، والحياة فيها كانت مبنية على أساس العصبية القبلية، فالمدينة مقسمة إلى شعاب، والشعاب وحدات اجتماعية مستقلة، تحكمها الأسر والبطون، وبين البطون نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ وهذا النزاع وإن لم يقلق الأمن ويعبث بسلام المدينة إلا أنه أثر في حياتها الاجتماعية أثراً خطيراً، انتقلت عدواه إلى أيام الاسلام[4].

(١) ابن حجر، الاصابة ١٨٧/٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٣/٢.

(٣) السهيلي، الروض الأنف، ٢٥٥/١، القاهرة ١٩٧١.

(٤) جواد علي، المفصل ٩١/٤-٩٢.

الفصل الثاني
العصبية القبلية في عهد الرسول ﷺ

موقف الاسلام من العصبية

موقف قريش من الدعوة الاسلامية

موقف القبائل العربية من الدعوة الاسلامية حتى الهجرة إلى المدينة.

الدعوة الاسلامية في العهد النبوي وموقف القبائل منها.

المنافقون

اليهود

الصراع بين المدينة ومكة والقبائل العربية الأخرى.

موقف الاسلام من العصبية:

لقد أحل الاسلام رابطة العقيدة مكان رابطة اللحم والدم، ومن هنا كانت الدعوة الاسلامية دعوة انسانية ليست مقصورة على فئة دون فئة أو قبيلة دون أخرى.

وقد جاءت آيات عديدة تشير إلى انسانية هذه الدعوة قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾[1].

إن دعوة الاسلام دعوة شاملة، بدأها الرسول من قبيلة قريش لتكون له عوناً في نشر هذه الرسالة ثم انطلق منها إلى بقية القبائل العربية في الجزيرة لتكون هذه المرحلة الثانية من مراحل الدعوة. قال تعالى ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾[2] وبعد جمع هذه القبائل تحت راية الاسلام تكون المرحلة الثالثة وهي ابلاغ الاسلام إلى العالم أجمع ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[3] وأمام عالمية الرسالة وإنسانية الدعوة لا بد وأن يلتفت الاسلام إلى كل ما من شأنه أن يعيق الدعوة العالمية، ويمزق الامة الا وهي العصبية القبلية.

جاءت العصبية بالقرآن بمعنيين: الأول بمعنى الفتنة قال تعالى ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا﴾[4] أي لو سئلوا الكفر والعصبية لأسرعوا إليها[5].

والثاني بمعنى الحمية: والحمية مظهر من مظاهر العصبية القبلية قال تعالى ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٠.
(٢) سورة الشورى، الآية ٧.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.
(٤) سورة الأحزاب، الآية ١٤.
(٥) ابن كثير، تفسير القرآن ٣/٤٧٢.
(٦) سورة الفتح الآية ٢٦.

وقد ميز القرآن الكريم بين العصبية الممدوحة[1] والعصبية المذمومة[2] فالأولى تحث على صلة القربى وذوي الأرحام وبها يكون التناصر والتعاضد على أمر الحق. والثانية تحث على نصرة القريب وزرع الداء الذي يمزق الأمة ويشتت أهواءها.

جاء الاسلام بمفاهيم جديدة تجعل الولاء لله وحده وللرسول وللمؤمنين، والولاء هذا يسمو فوق جميع الروابط القبلية، وكان هذا التغيير نعمة من نعم الله على الأمة العربية خاصة والعالم عامة.

استطاع الاسلام أن يؤلف بين قلوب القبائل العربية، بعد أن كانت الأحقاد الجاهلية تقف حائلاً أمام هذه الوحدة، ولم يقف أمر الاسلام عند الوحدة بل طلب المحافظة عليها وصونها من كل ما يهددها. قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[3].

لقد كان جمع القبائل العربية من أكبر المعجزات التي شهدتها المجتمعات القديمة والحديثة قال تعالى: ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾[4].

بهذا التأليف أصبح الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين بعد أن كان للقبيلة ولرابطة الدم والنسب، ومن هنا نقل عرب الجزيرة من ولاء قبلي ضيق إلى ولاء يقوم على عقيدة دينية واسعة، تضم مجتمعاً من قبائل شتى قال تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[5].

---

(١) انظر النساء الآيات: ١، ٨، ٣٣، ٣٦، محمد ٢٢، الشعراء ٢١٤، ٢١٦، النور ٢٢، الأحزاب، ٦.

(٢) انظر التوبة: الآيات ٢٣-٢٤، الأنعام ١٥٢، الممتحنة ٣، الحجرات ١١.

(٣) سورة ال عمران، الآية ١٠٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٦٢.

(٥) سورة المائدة الآية ٥٥-٥٧، وانظر الأنفال الآية ٧٢، ٧٥.

وحتى يبقى المجتمع الاسلامي مجتمعاً تظله روح الأخوة والمحبة ولا تشوبه شوائب الحقد، حرم الاسلام موالاة الكفار قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾[1].

وباحلال رابطة العقيدة مكان الرابطة القبلية أصبح المؤمنون إخوة، فالاسلام لا يعترف الا بالمسلم والابن المسلم لا يعترف بالأب المشرك، فالإيمان بالله ومصلحة المسلمين فوق جميع الاعتبارات قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنه ورضوا عنهم أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[2].

فالأخوة الاسلامية هي الجامعة الثانية بعد العقيدة قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾[3].

وحارب الاسلام عصبية العظمة والجنس والطبقية واعتبر الكل أمام العقيدة سواء قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين، وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾[4].

وقد جاء في سبب نزول هاتين الآيتين أن الأقرع بن حابس وعيينه بن حصن الفزاري قدما على الرسول ﷺ فوجدوا معه صهيباً وبلالا وعمارا وخبابا وناس آخرين

(١) سورة الممتحنة الآية ١.
(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢ وانظر التوبة الآية ١١٣.
(٣) سورة الحجرات الآية ١٠.
(٤) سورة الأنعام الآية ٥٢-٥٣.

من الضعفاء المؤمنين الذين لا عشائر لهم، فلما رأوهم حول النبي ﷺ جاءوا وخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هذه الأعبدة، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا فرغنا فاقعد فيهم إن شئت. فقال الرسول صى الله عليه وسلم نعم فطلبوا منه أن يكتب على نفسه كتاباً بذلك فنزل قوله تعالى ولا تطرد . . . [1].

لقد جاءت العقيدة بمبدأ المفاضلة في السبق إلى الإسلام لا بشرف القبيلة وكرم المحتد والنسب قال تعالى: ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم أولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم[2]﴾.

والاسلام لم يحارب العصبية القبلية فحسب بل هاجم عصبية التقاليد، والتي لعبت هي الأخرى دوراً في مقاومة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾[3].

وقد كان لزواج النبي ﷺ من مطلقة متبناه صورة قوية لقوة عصبية التقاليد وأثرها في بيئة النبي وعصره[4]، فكان هذا الزواج ضربه لهذه التقاليد. ومن التقاليد التي اخترقها الاسلام القتال في الأشهر الحرم، فعندما قتلت سرية عبدالله بن جحش ابن الحضرمي قال المشركون إن محمداً قد اخترق حرمة الأشهر الحرم، ولقوة هذه التقاليد تأثر عبدالله ومن خرج معه من ذلك حتى نزل قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عندالله والفتنة أكبر من القتل﴾[5].

وبعد أن حارب الاسلام العصبية القبلية المبنية على التناصر بغير حق، وعصبية التقاليد، جاء ليقيم مجتمعاً تحكمه علاقات انسانية عامة فقضى على كل ما من شأنه أن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن ١٣٤/٢-١٣٥.
(2) سورة الأنفال، الآية ٧٥.
(3) سورة الأعراف، الآية ٢٨، وانظر البقرة ١٣ ، ١٧٠، لقمان، ٢١.
(4) محمد عزة دروزه، عصر النبي وبيئته قبل البعثة، دار اليقظة بيروت ٣٠٢/١٩٦٢.
(5) سورة البقرة الآية ٢١٧.

يثير الاحقاد ويعكر صفو العلاقات، لقد أراد الاسلام لوحدة المجتمع الاسلامي أن تكون شاملة فاتجه إلى العبادات، فوجههم نحو عبادة اله واحد، ودين واحد وشعائر واحدة، فالصلاة واحدة والحج واحد فلا وجود لحمس ولا لطلس ولا لحله والكل أما الله سواء لا فرق بين أسود ولا أبيض.

كما أبطل الاسلام عملية الثأر، تلك المسألة التي كانت عند العرب فريضة مقدسة تسمو على غيرها من الأمور، جاء الإسلام ليبطل الثأر، ويضع العقاب لمرتكب الجريمة فنقل العقاب من الثأر الفردي إلى عقاب الدولة. الدولة هي التي تعاقب وليس الفرد قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾[1].

وجاء في سبب نزول هذه الآية أن قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا عمية فقالوا: نقتل بعبدنا فلان بن فلان وبفلان بن فلان، وكان أهل الجاهلية فيهم بغى وطاعة للشيطان فالعبد لا يقابله إلا حر تعززا لفضلهم على غيرهم[2] فنزلت هذه الآية لتجعل الحر بالحر والعبد بالعبد.

لقد وضع الاسلام ضوابط وقواعد لاقامة الحدود، فهو لا يفرق بين شريف ووضيع وغني وفقير، امرأة تسرق على عهد الرسول ﷺ فيأتي قومها ليفدوها بخمسماية دينار، فلا يلتفت إليهم، ولما سرقت امرأة من مخزوم بعثت مخزوم اسامة بن زيد حتى يتشفع لها عند رسول الله فأجابه الرسول: أتشفع في حد من حدود الله ثم خطب في الناس وقال: أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[3].

وفي مجال صون الأنساب وحماية الأعراض قال تعالى: الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منها مائة جلده ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين[4].

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨.
(٢) الطبري، جامع البيان، ٣/٣٥٩.
(٣) جامع الأصول، ٣١٤/٤، ابن كثير، تفسير القرآن ٥٧/٢.
(٤) سورة النور الآية ٢ وانظر النور ٢٣-٢٥.

وفي تحريم الخمر كانت العصبية القبلية أحد الأسباب في تحريمه فيذكر أن عتبان بن مالك الأنصاري دعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر فسكروا، ثم افتخروا بعد ذلك، وانتسبوا وتناشدوا الأشعار. فقام سعد وأنشد قصيدة هجا فيها الأنصار وفخر بقريش، فأخذ رجل من الأنصار لحى بعير فضرب سعد على رأسه فشجه، فانطلق سعد الى رسول الله ﷺ وشكا اليه الأنصاري فقال عمر اللهم بين لنا رأيك في الخمر بياناً شافيا[1].

فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[2].

وتناول الاسلام أسس المعاملات الانسانية وأبقى على المآثر منها قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾[3]. وقال تعالى: ﴿سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[4].

لقد بدأ الرسول ﷺ بمهاجمة الأساس الذي بنيت عليه العصبية القبلية وهو النسب، فدعا إلى تعلم الانساب لا من أجل المفاخرة والمباهاة، وإنما من أجل صلة الأرحام فقال: « من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً أو كرما فهو عاشرهم في النار[5]. وقال أيضاً: لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم فأقول للناس هكذا ولكم هكذا»[6].

(1) الديار بكري، الخميس في احوال أنفس نفيس ٣٠/٢.
(2) سورة المائدة، الآية ٩٠-٩١.
(3) سورة المؤمنون، الآية ٩٦.
(4) سورة آل عمران الآية ١٣٣-١٣٤.
(5) البخاري، التاريخ الكبير، جـ١ قسم ٢/ ٣٥٥.
(6) اليعقوبي، تاريخ ١٠٠/٢.

أما العصبية ذاتها فقد اعتبرها الرسول ﷺ من دعوى الجاهلية وعرف المذموم منها بأن تعين قومك على الظلم[١] كما وصفها بأنها "منتنه"[٢] وقال أيضاً: «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل عصبية وليس منا من مات على عصبية خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية»[٤]، «ومن نصر قومه على غير حق فهو كالبعير الذي ردى في مهواه فهو ينزع بذنبه»[٥] وقال كذلك: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن الرجل فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»[٦].

وفي حجة الوداع أعلن أن أمور الجاهلية قد ذهبت إلى غير رجعة مثل طلب الثأر والربا[٧] فبدأ بإبطال دم ابن ربيعة بن الحارث وربا العباس بن عبدالمطلب.

ولتأكيد الرسول ﷺ على إبطال عادة الثأر قال: «إن أعتى الناس على الله ثلاثة: من قتل في حرم الله، أو قتل غير قاتله، أو قتل لذحل الجاهلية» وفي حديث آخر، «أعتى الناس من قتل غير قاتله، أو طلب بدم في الجاهلية من أهل الاسلام أو بقصر عينه ما لم تبصر»[٨].

ولقرب عهد الناس بالجاهلية كان الرسول يسعى إلى إبعاد كل ما من شأنه أن يثير النفوس، فقد مر على قوم وهم في مجلس لهم يسلون سيفاً بينهم ويتعاطونه غير مغمود

(١) جامع الأصول ٤٢٢/١٠.
(٢) الروض الأنف ٩٣/١.
(٣) سنن أبي داود ٦٢٥/٢.
(٤) جامع الأصول ٤٢١/١٠.
(٥) سنن أبي داود، ٦٢٢/٢، جامع الأصول ٤٢١/١٠.
(٦) سنن أبي داود ٦٢٤/٢.
(٧) ابن حزم، حجة الوداع ١٠٠.
(٨) سبل السلام، ٢٤٨/٣.

فقال لعن الله من يفعل هذا، أو لم أزجركم عن هذا إذا سللتم السيف فليغمده الرجل ثم ليعطه ذلك[1].

ولخطورة العصبية وأثرها السيء على المجتمع فقد أباح الرسول ﷺ دم من ينادي بها. كتب إلى بني الحارث بن كعب ينهاهم إذا كان بين الناس هيج من الدعاء إلى القبائل والعشائر، وقال: «ليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له فمن لم يدع الى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى تكون الدعوة خالصة لله وحده[2]».

وسمع الرسول ﷺ رجلاً ينشد:

اني امرؤ من حمير حين تنسبني ... لا من ربيعة آبائي ولا مضر

فقال له: ذلك أبعد لك من الله ورسوله[3].

والولاء في الاسلام هو الحب في الله والبغض في الله: فأفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله، وقال أيضاً: وإن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله. قالوا يا رسول الله ألا تخبرنا من هم قال: قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها. فوالله إن وجوههم لنور وانهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»[4].

فالحب في الله يخلق مجتمعاً متماسكاً يتعاطف فيه الأفراد ويتكاتفون وعندها يكون المسلم أخ المسلم قال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه. وإن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى فليمطه عنه[5]». وقال أيضاً

---

(1) ابن عبد البر، الاستيعاب، ١٧٩/١.
(2) ابن هشام، السيره ٥٩٥/٢.
(3) ابن عبد البر، الانباه، ٦٥.
(4) جامع الأصول ٣٥٤/٧.
(5) جامع الأصول ٣٦٠/١.

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[1]. وهاجم الرسول ﷺ المنهجية القبلية والاعتزاز بالنفس كما أمر بالتواضع وقال: تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[2] وطلب أيضاً بقاء روح المودة والألفة بين المسلمين وقال: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً. لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»[3].

لقد نقل الاسلام العرب من حياة الى حياة ومن مجتمع قبلي متناحر إلى مجتمع متآخي، فيه القود بدل الثأر والمسجد بدل دار الندوة، وأبدل تحية الجاهلية بتحية الاسلام ومن صيحة القبلية في الحرب إلى شعار الاسلام الموحد[4].

لقد كان للاسلام قوة فائقة في نقل المجتمع من قبضة القوة القبلية الى نطاق القانون تحكمه مبادئ الاسلام الآمرة الناهية. وبقيادة الرسول ﷺ (النساء ٦٥) ونقلهم من الثأر والغزو إلى نطاق القصاص (البقرة ١٧٨، ١٧٩، المائدة ٤٥). وأن يكون الايمان بالله ولكلمته هي العليا وبها يتناصر المؤمنون (التوبة ٢٣، الانفال ٧٢). وأن يكون حب الله ورسوله والمؤمنين في المرتبة العليا (التوبة ٢٤). ومن الاسلام انطلقت فكرة الإخاء والمساواة لأول مرة في تاريخ العرب (الحجرات ١٣، آلعمران ١٠٣) ونقلتهم من الفخر بالقبيلة إلى الاعتزاز بالسبق إلى الاسلام[5].

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هل تمكن الاسلام من القضاء على العصبية القبلية؟ والجواب على ذلك هو ما سنراه بعد اخضاع الجزيرة العربية لراية الاسلام.

---

(١) صحيح مسلم ١٩٩٩/٤ مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٥٥.

(٢) رياض الصالحين ٢٨٩.

(٣) الماوردي، أدب الدين والدنيا ٩٦.

(٤) البلاذري، انساب الأشراف ٣٣١/١-٣٢، المبرد، الكامل في اللغة ١١٨/١، جامع الأصول ٧/ ٣٨٨.

(٥) دلائل النبوة ٢/ ٤٢٠-٤٢١.

موقف قريش من الدعوة الاسلامية:

جاء الاسلام وأشراف قريش هم: عتبة وشيبه ابنا ربيعة وأبو البختري العاص بن هشام والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج والنضر بن الحارث من عبدالدار والأسود بن عبد يغوث الزهري وأمية بن خلف الجمحي[1].

بدأ الصراع بين الرسول ﷺ وبين هؤلاء الزعماء عندما انتقل الرسول إلى المرتبة الثانية من دعوته عندما توجه لقريش استجابة للآية الكريمة ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾[2] وذلك حتى تكون قريش عوناً له في دعوته للقبائل الأخرى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾[3] فبعد أن مكث الرسول مدة تقرب من ثلاث سنوات وهو يدعو الناس سراً انتقل إلى مرحلة الجهر بالدعوة، والواقع أن قريشاً كانت تعلم بدعوة الرسول، وأنه كان يخرج إلى الشعاب خارج مكة فيصلي بمن معه صلاة كانت قريش تنكرها. ومع هذا الانكار لهذه الصلاة إلا أنها لم تخش خطره في بادئ الأمر، فربما اعتقدوا أن هذه الدعوة كمثيلاتها من الدعوات السابقة التي ظهرت في مكة والتي سرعان ما تلاشت بعد أن قوبل أصحابها بالرفض والاستهزاء.

غير أن قريشاً بعد أن رأت أن اتباع الرسول يزدادون يوماً بعد يوم قام نفر منهم يتقصون أخبار المسلمين، ويتتبعونهم. فكان عملهم هذا الشرارة التي أضرمت نيران الصراع بين المسلمين وقريش.

لقد جاء أن كليب بن عمير وحاطب بن عمرو كانا يصليان في شعب بأجياد الأصغر إذ هجم عليهم ابن الأصداء وابن الغيطله وكانا فاحشين فباطشوهما ورموهما بالحجارة ساعة حتى خرجا فانصرفا[4]. وفي رواية ثانية أن جماعة من المسلمين منهم سعد بن أبي وقاص خرجوا للصلاة فظهر عليهم نفر من المشركين، وكانوا يرصدونهم

---

(١) ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير ٤٥-٤٦.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

(٣) سورة الشورى، الآية ٧.

(٤) البلاذري، انساب الأشراف ١/١١٧، جواد علي تاريخ العرب في الاسلام ١٦٤.

ويتبعون آثارهم وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى بطشوا بهم. فأخذ سعد لحي بعير فضرب به رجلاً من المشركين، فشجه شجة أوضحت، وانكسر المشركون وقوى اصحاب سعد فطردوهم حتى خرجوا من الشعب، فكان هذا الدم أول دم أهريق في الاسلام[1].

وملاحقة قريش هذه جعلت الرسول ينصح أصحابه أن يتلزموا البيوت مدة من الزمن حتى تهدأ نفوس قريش، ودخل هو وجماعته دار الأرقم بن الأرقم المخزومي، وقد كان لحماية الأرقم هذه، أثر كبير في حماية المسلمين لا سيما وأن بطن مخزوم كان من أشد المعارضين للدعوة الاسلامية، وبفضل مكانة الأرقم في بيته وبحكم العنعنات الاجتماعية وعصبية الدم تمكن المسلمون من التحصن في هذه الدار بأمان وسلام[2].

وبعد مرحلة الدعوة السرية، بدأ الرسول عهداً جديداً عند البدء بدعوته عشيرته قريش. فبدأ ببني هاشم فلم يستجب منهم غير علي وكان صبياً، ثم انتقل إلى دعوة قريش، وصعد الصفا وأخذ ينادي على بطونهم بطناً حتى اجتمعوا حوله فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني؟ قالوا نعم. أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذباً قط - قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وأخذ يدعو بطونهم ويقول: «إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأني لا أملك من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا ن تقولوا: لا إله إلا الله، غير أن دعوته هذه لم تجد أذناً صاغية عند قريش، بل هاجمه أقرب الناس إليه لحماً وهو عمه أبو لهب حيث صاح قائلاً: تبا لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا[3]».

وبعد الصفا أخذ الرسول يدعو كل من يقابله من قريش إلى الاسلام، أما أهل مكة فقد أخذوا يتهكمون من الدعوة الجديدة ويطلبون المعجزات من الرسول. وبقي الأمر على هذه الحال حتى انتقل الرسول إلى مهاجمة عبادة الأوثان وشتم آلهة قريش، وهنا أدركت قريش خطورة الدعوة الجديدة، وبأنها ليست كمن سبقها من دعوات، ففكرت في أمر يوقف استمرارية هذه الدعوة، فلم تجد أمامها وحسب التقاليد القبلية إلا

(١) البلاذري، ١/١١٦.

(٢) جواد علي، تاريخ العرب في الاسلام، ١٦١.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ١/٢٠٠.

أن تأتي إلى سيد بطنه وهو عمه «أبو طالب» وفي المقابلة خيروه بين أمرين إما أن يكف ابن أخيه وإما أن يتركه لقريش، فردهم أبو طالب ردأ جميلاً.

ولما استمر الرسول في دعوته اجتمع الملأ مرة ثانية وهددوا بني هاشم فأصبح أبو طالب بين نارين: عداوة قومه، أو تركه لابن أخيه وهذا مما لا تسمح به التقاليد القبلية.

حاول أبو طالب بعد مقابلة قريش له أن يقنع ابن أخيه بالعدول عن هذه الدعوة فأجابه: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» وبكى اعتقاداً منه أن عمه سيتخلى عن حمايته، إلا أن أواصر القربى والتقاليد القبلية دفعت أبا طالب أن يقول: يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

ومضى الرسول في دعوته ومضت قريش بمناهضته وهي لا تجرؤ على الايقاع به خوفاً من بني هاشم وعبد مناف، وهنا فكروا في أمر جديد فجاءوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان أنهد فتى في قريش وقدموه لبني هاشم ليكون بديلاً عن الرسول ﷺ، فقال لهم أبو طالب: لبئس ما تسومونني، أتعطون ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله مالا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب قد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدالك، والمطعم هذا من عبد مناف[1].

وشعر أبو طالب أنه يقف وحيداً في قريش، فقال قصيدة يعرض فيها للمطعم ولمن خذله من عبد مناف ومن بطون قريش الأخرى[2] غير أن دعوة أبي طالب لتذكير بني عبد مناف وقريش بأواصر القربى لم تلق آذاناً صاغية.

وبعد أن أعجزت قريش وسائل المقاومة لجأت إلى خطة جديدة وهي أن تقوم كل قبيلة بتعذيب من فيها من المسلمين حتى يرجعوا عن الاسلام، أما الرسول فقد منع بعمه أبي طالب وخاصة بعد أن دعا بني هاشم وبني المطلب إلى حماية الرسول فأجابوه إلا أبا لهب.

---

(١) ابن هشام، السيرة ٥/٢، بهامش الروض، والسيرة الحلبية ٤٦٢/١.

(٢) ابن هشام، السيرة ٩/٢، بهامش الروض.

وكان أشد ما يقلق قريش أن تنتشر دعوته بين القبائل العربية خارج مكة ومن هنا اتفقوا على وضع خطة موحده، ينشرونها بين القبائل القادمة إلى مكة مؤداها أن محمداً ساحراً يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته وكرد فعل من أبي طالب، ولخوفه على ابن أخيه من دهماء العرب أن يتفقوا في عداوتهم على الرسول مع قريش، أخذ يتودد إلى أشراف قومه ويخبرهم بأنه عائذ بالبيت وغير مسلم رسول الله.

ولما أسلم حمزه، رأت قريش في اسلامه نصراً جديداً للرسول، فأرسلوا عتبة بن أبي ربيعة لمفاوضته فعرض عليه المال والسيادة والملك والعلاج[1]. غير أن الرسول ﷺ لم يجد بأفضل مما يرد به عليه من أن يقرأ آيات من القرآن الحكيم فتلا عليه: ﴿حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعون إليه﴾[2].

وعندما سمع عتبة ذلك حاول أن يقنع قريش بترك شأن الرسول للقبائل فإن اصابته العرب كان ذلك، وإن ظهر على العرب فملكه ملك لقريش وعزه عزّها، إلا أن مشيخة قريش ردوا عليه «لقد سحرك يا أبا الوليد»[3].

وعادت قريش تعرض هذه الاغراءات على الرسول ﷺ مرة ثانية، إلا أن ردة فعله بأنه بشير ونذير لهم، وبعد ذلك لجأت قريش إلى طلب المعجزات، منها أن يجعل مكة مثل بلاد الشام والعراق، وأن يبعث لهم من مات من آبائهم وخاصة قصي فأجابهم: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله به بيني وبينكم[4].

وبعد ذلك انتقلت قريش إلى تعذيب المستضعفين من المسلمين وهم الذين لا عشائر لهم تحميهم. ومن هؤلاء بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، والظاهر أن قريشاً قد

(١) المصدر السابق، ٣٥/٢ بهامش الروض.
(٢) سورة فصلت الآية ١-٥.
(٣) ابن هشام، السيرة ٣٥/٢ بهامش الروض.
(٤) المصدر السابق ٣٦/٢.

زادت من تعذيبها لهذه الطبقة بعد أن قام عبدالله بن مسعود وجهر بالقرآن على مرأى ومسمع من قريش.

والواقع أن المسلمين نصحوا ابن مسعود بعدم الجهر بالقرآن لأنه لا عشيرة له تحميه إلا أنه أصر على ذلك، فانهالت عليه قريش بالضرب، إلا أن ذلك لم يزده إلا إيماناً وقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، فقال له المسلمون: لا قد أسمعتهم ما يكرهون[1].

وازدادت قريش في مقاومتها للدعوة الجديدة، وكان على رأس هؤلاء أبي جهل، فكان إذا سمع بالرجل قد أسلم وله شرف أنبّه، وإن كان تاجراً هدده بكساد تجارته، وإن كان ضعيفاً أغرى به[2]. غير أن هذه المقاومة لم تزد المسلمين إلا صلابة وشدة، والاسلام إلا انتشاراً، ويستدل على ذلك بأن الاسلام بدأ ينتشر بين القبائل العربية ويؤيد ذلك قائمة اسماء المهاجرين الى الحبشة فكان منهم من هذيل وبهراء وتميم[3].

وقد حاولت قريش أن تقنع النجاشي برد من هاجر إليه من المسلمين إلا أنها فشلت، وهنا عادة قريش مرة ثانية لتتخذ خطوة جماعية ضد بني هاشم فكانت المقاطعة.

دور العصبية في نقض صحيفة المقاطعة:

بعد هجرة بعض المسلمين الى الحبشة، وبعد اسلام عمر بن الخطاب تحولت قريش من العقاب الفردي إلى العقاب الجماعي، وخاصة عندما أيقنت أن بني هاشم سوف لا يخذلون الرسول ولا يسلمونه، وأن الاسلام أخذ ينتشر بين القبائل العربية فقررت مشيخة قريش مقاطعة بني هاشم وقالوا: لا صلح بيننا وبين بني المطلب ولا رحم ولا آل ولا حرمة إلا على قتل هذا الرجل الكذاب السفيه[4].

---

(١) ابن هشام، السيرة ٢/٤٧ بهامش الروض.
(٢) المصدر السابق ١/١٢٠.
(٣) انظر القائمة في المصدر السابق ٢/٧٠-٧٥ بهامش الروض.
(٤) البلاذري، انساب الأشراف، ١/١٣٠.

والمقاطعة هذه حصار اجتماعي واقتصادي من قريش وحلفائها من كنانة ضد بني هاشم وبني المطلب، ومع أن جميع بطون قريش قد اشتركت في هذه المقاطعة إلا أن بعضها لم يكن راضياً عنها. ومنهم أبو زمعه بن الأسود حيث قال: والله ما رضينا كتابتها حين كتبت، وأبو البختري العاص بن هشام الأسدي الذي صدّق زمعه وقال: لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرّ به[1].

ودام الحصار مدة ثلاث سنوات ذاق فيها بنو هاشم وبنو المطلب مرارة الجوع والحرمان، وزاد من الأمر سوءاً أن أبا لهب كان يغري التجار بأن يغلوا في أسعارهم على قومه.

وكما كانت عصبية المنافسة بين بطون قريش سبباً في إحكام المقاطعة فقد كانت العصبية نفسها سبباً في نقضها. فبنو هاشم وبنو المطلب دخلوا مع الرسول في شعب مكة المسلم منهم لاسلامه ودينه، والكافر حمية أن يضام قومه[2]. وهكذا كانت حماية بني هاشم والمطلب للرسول سبباً في حمايته من أذى قريش.

وقد بدأت مظاهر العصبية منذ بداية المقاطعة، فحكيم بن حزام الأسدي كان يوجه العير المحملة بالحنطة ويقبلها شعب أبي طالب، ثم يضرب أعجازها فتدخل عليهم فيأخذون ما عليها من الحنطة[3]. وقد حاول أبو جهل النيل من حكيم ألا أن أبا البختري، وهو من أسد، ضرب أبا جهل وشج رأسه[4]. وقد حمل بنو أسد على ذلك، قرابة حكيم من خديجة بنت خويلد زوجة الرسول ﷺ.

ومن الذين قدموا المساعدة للمحاصرين، هشام بن عمرو بن الحارث لأنه كان أخا لنضله بن هاشم بن عبد مناف لأمه[5]. ولم يقف عمل هشام هذا عند المساعدة فحسب، بل كان من أشد المتحمسين في نقض الصحيفة، فقد جاء إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب فقال له: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام

(١) الأصفهاني، دلائل النبوة ١/٢٢٩-٢٣٢.

(٢) البلاذري، انساب الأشراف، ١/٢٣٠.

(٣) ابن بكار، جمهرة نسب قريش ٣٥٥.

(٤) ابن هشام ٢/١٠٣، بهامش الروض طبعة ١٩٧١.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ٢/٦٠.

وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما أني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم. ما أجابك إليه أبداً. فقال زهير ماذا أصنع إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها.

ثم مشى هشام إلى المطعم بن عدي وأخذ يضرب أمامه على أوتار العصبية وقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش، أما والله لئن امكنتموهم من هذا لتجدنهم إليها منكم سراعا. فأخذته عصبية القرابة ووافق علي نقض الصحيفة.

ثم ذهب هشام إلى أبي البختري العاص بن هشام، وإلى أبي زمعة بن الأسود الأسديان فوافقا على نقض الصحيفة بعد أن ذكرا بالقرابة التي تربطهم مع بني هاشم.

ولما اتفق هؤلاء اتجهوا إلى أندية قريش فتكلم زهير المخزومي وبين حالة بني هاشم والمطلب في الشعب، وطلب من قريش نقض الصحيفة. فانبرى له أبو جهل يعارض ذلك بشدة، إلا أنه خذل أمام اجتماع بطون أسد ونوفل وحتى مخزوم رهط أبي جهل[1].

ويذكر البلاذري أن القائم بأمر النقض هو المطعم بن عدي، فقد شرب يوماً وانتشى فقال له عدي بن قيس السهمي، ويقال عتبه بن ربيعة: إن كنت كما تقول فما بال بني عمك جوعى وهلكى مظلومين؟ فلما صحا لبس سلاحه وأتى إلى أبي البختري وهشام بن عمرو وأبي زمعه بن الأسود وأخرجوا بني هاشم وبني المطلب من الشعب، فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم وعلموا أنهم لا يسلمونهم وأن عشائرهم تمنعهم[2].

وان اختلفت المصادر في أمر القائم بالنقض إلا أن عصبية القرابة واللحم والدم والصهر والخؤوله هي التي دفعت بعض بطون قريش إلى نقض الصحيفة.

---

(١) ابن هشام، السيرة ١٢٢/٢-١٢٣ بهامش الروض.

(٢) البلاذري، انساب الأشراف ٢٣٦/١.

قريش بعد نقض الصحيفة:

بعد أن فشلت قريش في مقاطعتها لبني هاشم، وبعد أن أعجزتها الوسيلة في مقاومة المسلمين تقدمت بمشروع ازدواجية العبادة وقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر فنزلت سورة "الكافرون" تندد بما عرضته قريش.

وأمام هذا الرفض من الرسول ﷺ عادت قريش إلى النغم السابق وهو أن محمداً ساحراً وأخذت تشيع بذلك بين القبائل، كما حاولت أن تمنع كل قادم لمكة من أن يستمع إلى الرسول، غير أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح، بل جعلت القادمين ويدافع من حب الاستطلاع أن يأتوا إلى الرسول ويسألوه عن أمر هذا الدين الذي يدعو إليه.

ومن هؤلاء الطفيل بن عمر والسدوسي، وكانت قريش قد حذرته من الاستماع إلى محمد إلا أنه حدث نفسه وقال: واثكل امي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته فذهب إلى الرسول واستمع منه فزين قلبه بالإيمان[1].

وأعشى بن قيس بن ثعلبه جاء إلى مكة واستمع إلى الرسول فقالت له قريش: إنه يحرم الزنا فقال: مالي فيه من أرب، وقالوا إنه يحرم الخمر، فقال: إن في النفس منها لعلالات، فانصرف عائداً يفكر في الأمر بعد مجيئه في السنة التالية إلا أن المنية عاجلته ومات مشركاً[2].

وبقي الرسول في حماية عمه وبني هاشم، ولم تنل منه قريش إلا بعد وفاة أبي طالب، وقد قال عليه الصلاة والسلام: وما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب[3].

---

(١) ابن هشام، السيرة ٢/ ١٣٠-١٣١ بهامش الروض.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن هشام، السيرة ٢/ ١٦٦ بهامش الروض (طبعة ١٩٧١).

وأمام استكبار قريش وأعراضها عن دعوته، وازدياد الأذى، أخذ الرسول يتجه إلى القبائل الأخرى كي يجد عندها نصرة حتى يبلغ رسالة ربه.

وبعد هذا العرض لموقف قريش من الدعوة الاسلامية لا بد من ذكر الأسباب التي دفعت أشرافهم لمناهضته. لقد تسلحت قريش بأسباب عديدة لمناهضة الدعوة ومن بين هذه الأسباب عصبية البطون وعصبية التقاليد.

أما عصبية البطون القرشية فقد كانت المنافسة بين هذه البطون على أشدها في قريش، ومن هنا كان الحسد من الأسباب التي دفعت الزعماء عدم الاستجابة لهذه الدعوة ومن هؤلاء الزعماء:

أبو جهل (عمرو بن هشام): كان يدرك تماماً أن الرسول لا يكذب إلا أنه اصر على عدواته لا لشيء إلا بغياً وحسداً، فقد قال له الأخنس بن شريق أترى محمداً يكذب! فقال له ما كذب قط، كنا نسميه الأمين، لكن إذا كانت في بني عبد المطلب السقاية والرفادة والمشورة، ثم تكون فيهم النبوة فأي شيء يكون لنا[1].

وفي رؤيا عاتكة يقول أبو جهل: أنا استبقنا المجد وأنتم (عبد مناف) قلتم فينا الساقية فقلنا لا نبالي، تسقون الحاج، ثم قلتم فينا الحجابة، فقلنا لا نبالي، تحجبون البيت، ثم قلتم فينا الندوة فقلنا لا نبالي، ثم قلتم فينا الرفادة فقلنا: لا نبالي تجمعون عندكم ما ترفدون به الضعيف، فلما أطعمنا الناس وأطعمتم وازدحمت الركب واستبقنا المجد فكنا كفرس رهان قلتم منا نبي ثم قلتم منا نبيه فلا واللات والعزى لا كان هذا أبداً[2].

ومن مظاهر حسد أبي جهل للرسول ﷺ أنه كان يكره أن يجلس محمداً فوق مجلسه[3].

---

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٣٩٠.

(٢) الواقدي، المغازي ١/ ٢٣٠، الذهبي، تاريخ الاسلام، ١/ ٩٣.

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٤٤.

وقد حاول أبو جهل أن يخفف على قريش بما كان يحذرهم إياه الرسول من العذاب أن استمروا على كفرهم، فقال لهم بأن "الزقوم" هو عجوة يثرب في الزبد[1]، وقال لقومه أنتم أكثر الناس عدداً وكثرة أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم فجنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر جندياً[2]. فنزل قوله تعالى ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾[3]. واعتز أبو جهل بقومه وقال: أيهددني محمد وقد علم أن ما بها رجل أكثر ناديا مني[4] فنزل قوله تعالى: ﴿فليدع ناديه سندع الزبانية﴾[5]. وهذا الحسد والبغي من أبي جهل هو الذي دفعه إلى إحكام الحصار على بني هاشم ومعاداة الرسول ﷺ.

الوليد بن المغيرة: لم يكن أبو جهل هو الوحيد من مخزوم الذي أعمته مطامع الزعامة، فكان منهم الوليد بن المغيرة وكان هذا يسمى في قومه "العدل" لأنه يعدل قريش كلها، وقد بدأت معارضته للرسول عندما أشار على قريش أن يشيعوا عنه بين القبائل بأنه ساحر، وعندما سب الرسول آلهة قريش قال الوليد: لئن لم ينته محمد عن سب آلهتنا لنسبن إلهه، وهو صاحب ازدواجية العبادة.

وسبب معارضة الوليد هو تعجبه كيف ينزل القرآن على محمد ويترك هو ومسعود بن عمرو الثقفي. فالقرآن بعرفهم يجب أن ينزل على رجل من أشراف مكة أو من أهل الطائف فنزل قوله تعالى: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾[6].

ويذكر ابن هشام أن الوليد كان يقول أينزل القرآن على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود الثقفي ونحن عظيما القريتين[7].

---

(١) ابن هشام، السيرة ٣٦٢/١.
(٢) ابن هشام، السيرة ٣٦١/١.
(٣) سورة المدثر الاية ٣١.
(٤) ابن عبد البر، الدرر ٤٨.
(٥) سورة العلق الآية ١٨.
(٦) سورة الزخرف، الآية ٣١.
(٧) ابن هشام، السيرة ٣٦١/١، وانظر البلاذري، أنساب الأشراف ١٣٢/١-١٣٤.

أمية وأبي ابنا خلف: كانا من شر ما يكون عليه أحد من أذى النبي وتكذيبه فقد جاء أبي يوماً بعظم نخر ففته في يده، ثم قال: زعمت يا محمد أن ربك يحيي العظم ثم نفخه[1] فنزل قوله تعالى: ﴿قال من يحي العظام وهي رميم﴾[2].

بنو أمية: قاوم عتبة وشيبه دعوة الرسول إلا أنهما لم يتوليا ذلك بأيديهما ويستدل على أن موقف بني أمية كان نابعاً من الحسد لبني هاشم والخوف من تفردهم بالزعامة وهو ما قاله الرسول ﷺ لأبي سفيان بعد فتح مكة: لقد قاتلتني وأنت تعلم أني رسول الله فقال علمت أنك صدوق لا تكذب، وإنما قاتلناك لأنك تعلم حالي في قريش، وجئت بأمر لايبقى معه شرف فقاتلناك حمية وكراهة[3].

نبيه ومنبه ابنا الحجاج: كان يلقيان الرسول ويقولون: أما وجد الله من يبعثه غيرك؟ إن ها هنا من هو أسن منك وأيسر فإن كنت صادقاً فائت بملك يشهد لك ويكون معك. وقالوا عنه معلم مجنون يعلمه أهل الكتاب ما يأتي به[4].

لقد اعتقد هؤلاء الزعماء أن دعوته هذه ستفقدهم الزعامة وفي ذلك ضياع لمكانتهم ولذا رفعوا لواء المعارضة ضد الدعوة الاسلامية فكانت العصبية والتنافس على الزعامة من العوامل التي دفعتهم لهذه المعارضة.

فبنو مخزوم لا يرون لبني عبد مناف أن تكون بيدهم الزعامة وحدهم، وبنو أمية لا يرونها في يد بني هاشم. ومن هنا أخذت البطون القرشية تتحد لمقاومة دعوة الرسول.

أما عصبية التقاليد فقد لعبت هي الأخرى دوراً في صد الدعوة الإسلامية، فأبو أحيحه سعيد بن العاص كان يقول لبني أمية: دعو محمداً ولا تعرضوا له. فإن كان ما يقول حقاً كان نبينا دون غيرنا من قريش، وإن كان كاذباً قامت قريش به دونكم حتى أتاه النضر بن الحارث وأخبره أن محمداً يسب آلهتهم وأن آباءهم في النار ومحمد يتوعد من لم يتبعه بالعذاب، فأظهر العداوة للرسول.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ١٣٧/١.
(٢) سورة يس، الآية ٧٨.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف جـ ٤، قسم ٩/١.
(٤) المصدر السابق ١٤٤/١.

وقد كان لموقف أبي احيحه المعادي أثر في تمادي قريش بالعداوة للرسول، لا سيما وأن أبا احيحه كان ذا شرف في مكة حتى أن أحد لم يكن يعتم بعمته وكان يسمى ذا التاج[1].

لقد كان قانون الملأ ودستورهم هو الاعتزاز بما فعله الآباء، فهم محافظون على تقاليدهم، حريصون كل الحرص على عدم مخالفتها، والدين الجديد سوف يغير ويبدل من هذه التقاليد، وقد وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[3].

لقد استمع رجالات قريش إلى قراءة القرآن وتعاهدوا على أن لا يعودوا مرة ثانية إلا أن حلاوته جذبتهم للعودة مرة ثانية، ومع ذلك تمادوا في غيهم ومقاومتهم للدعوة الاسلامية.

إن مشيخة قريش كانت تأنف من اتباع رجل لم يكن سيداً ولم يكن ثرياً والرسالة في عرفهم يجب أن تكون في العظماء من رجالات مكة أو الطائف.

لقد كان هؤلاء السادة هم أصحاب الأمر والنهي، وهم عقلاء القوم ولسانهم ولذا تابعهم أفراد عشائرهم، قال تعالى: ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا﴾[4] وقال تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾[5] وقال تعالى: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾[6].

(1) المصدر السابق، ١/١٤١.
(2) سورة الزخرف، الآية ٢٢.
(3) سورة البقرة ١٧٠ وانظر الأعراف، ٢٨، لقمان ٢١، ص ٦-٨، الزخرف، ٣١-٣٢.
(4) سورة الاحزاب ٦٧-٦٨.
(5) سورة غافر، الآية ٤٧.
(6) سورة سبأ ٣٣.

لقد كان من أعراف هؤلاء الزعماء أن يهتموا بالحسب والنسب والجاه والمال والفخر بالآباء لأنها عنوان عزتهم وشرفهم وسؤددهم، وحب التفاخر لازمهم في مأكلهم ومجلسهم وفي كل مكان يتنقلون إليه. فكانوا إذا تقدم عليهم أحد أقل مرتبة اعتبروا ذلك إهانة للأعراف الموروثة المقدسة التي يجب ألا تمس بسوء[1].

وجاء أثر هؤلاء السادة في منع أتباعهم من اعتناق الاسلامي من قول عمرو بن العاص عندما سئل عن سبب تأخره في اسلامه قال: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن توازي حلومهم الجبال، ما سلكوا فجاً فتبتعناهم إلا وجدناه سهلاً. فلما أنكروا على النبي ﷺ انكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا، وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمره فإذا هو الأمر فوقع في قلبي الاسلام[2].

لقد كان اعتزاز ملأ قريش بتقاليد الآباء وعبادة الأوثان عظيماً فأنفوا من التخلي عن هذه التقاليد حتى في أشد الحالات حرجاً، فأبو احيحه سعيد بن العاص وهو على فراش الموت أفاق من غيبوته ورأى الرسول عنده فقال: أنت الذي تعيب آلهتنا وتسفه أحلامنا؟ والله لئن رفع الله سعيداً ليجلينك عن مكة[3].

وعندما شارف أبو احيحه على الموت بكى أمام أبي جهل، ولما سأله أبو جهل عن ذلك قال: والله ما أبكي جزعاً من الموت، ولكن أخاف أن يعبد إله ابن أبي كبشه بعدي، أبكي على العزى ومفارقتها، . . . والله لقد غاظني أمر محمد وإنه لأوسطنا نسبا، وقد نشأ صادق الحديث، مؤديا للأمانة ولقد جاء بدين محدث فرق به جماعتنا، وشتت أمرنا، وأذهب بهاءنا، ولئن صدقني ظني فيه لبخرجن الى قوم يقوي بهم علينا[4].

والتمسك بتقاليد الآباء لم يتقصر على الأعداء فحسب بل كان أبو طالب من أشد المتمسكين بدين الأشياخ، فعندما طلب منه الرسول ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله، قال أبو طالب: لولا أن تعييكم بها العرب، فيقولون جزع من الموت لأعطيتكما، ولكن على ملة الأشياخ[5].

---

(١) جواد علي، تاريخ العرب في الاسلام ٦٨.
(٢) مصعب الزبيري، نسب قريش ٤١٠.
(٣) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ٣٥٩.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، قسم ٢/١٢٤-١٢٩.
(٥) الطبري، تاريخ ٣٢٥/٢.

ولم يكن التمسك بالتقاليد مقصوراً على الرجل فحسب، بل شاركتهم النساء في ذل، فعندما جاء مصعب بن عمير إلى أمه يحاول إقناعها بالإسلام رفضت وقالت: والشواقب لا أدخل في دينك فيزري برأيي ويضعف عقلي، ولكن أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني[1].

ومما زاد في حقد قريش أن الدعوة الجديدة، أخذت تضم عدداً من المستضعفين الذين لا عشائر لهم، فصبوا جام غضبهم عليهم، فمنهم من ارتد ومنهم من أقام على الاسلام ومنهم من أعطى ما أريد منه من غير اعتقاد منه للكفر كما فعل عمار بن ياسر عندما عذبته قريش وأبت اطلاقه إلا بعد أن يسب الرسول، ويذكر آلهة قريش بخير[2]، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[3] وحاولت قريش أن تبعد هؤلاء المستضعفين من صفوف الرسول. فجاء وفد منهم إلى أبي طالب وقالوا له: لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له.

لقد اعتبر زعماء قريش أن هذه الفئة من المسلمين ما هم إلا من السفهاء، وحسب تقاليدهم يربأوون بأنفسهم أن يكونوا متساويين مع هذه الطبقة قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾[4].

كيف للزعماء أن يسلموا وهم يسمون أتباع الرسول "بالأرذال"[5] والسفهاء والعبيد والخلعاء. وبالرغم من موقف الزعماء المعادي للدعوة فقد كان يتمنى لو أن يسلم هؤلاء الزعماء، فقد قال عن عمرو بن هشام: أنه سرى ابن سرى وددت أنه لو أسلم.

---

(1) ابن سعد، الطبقات ٢/١١٩.

(2) البلاذري، انساب الاشراف، ١/١٩٥-١٩٧.

(3) سورة النحل، ١٠٦.

(4) سورة البقرة، الآية ١٣.

(5) البلاذري، انساب الأشراف، ١/١٨١-١٨٢.

وقد عاتب القرآن الكريم الرسول في سعيه وراء الزعماء في سورة "عبس" وذلك عندما أظهر الضجر من ابن ام مكتوم الأعمى، وانصرف إلى الوليد بن المغيرة وكان قد طمع باسلامه[1].

دور العصبية في حماية الرسول ﷺ:

قبل الحديث عن دور العصبية القبية في حماية الرسول لا بد من القول بأن مشيئة الله ورعايته كانت هي العامل المباشر والمهم في حماية الرسول ونشر دعوته.

ومع العناية الالهية وقفت العصبية تحمي الرسول ﷺ من الأعداء لا سيما وأن النوازع الانسانية تدفع الانسان إلى مساعدة قريبة وحمايته.

لقد امتنع الرسول ﷺ ببني هاشم وبني المطلب. وقد رأينا أن قريشاً لم تجرؤ على الإيقاع بالرسول طيلة حياة عمه أبي طالب. وبسبب هذه الحماية اعترف رجالات قريش أنفسهم وراء استمرارية دعوته.

جاء رجل من هذيل إلى مكة فلقيه الرسول ودعاه إلى الإسلام فشاهده أبو جهل فجاء إلى الهذلي وقال له: إياك أن تركن إلى قوله أو أن تسمع منه شيئاً وما أعجب ما يأتي به. فقال الهذلي اما تخرجونه من أرضكم؟ قال أبو جهل لئن خرج من بين أظهرنا فيسمع كلامه وحلاوة لسانه قوم أحداث ليتبعنه ثم لا نأمن من أن يكر علينا بهم. فقال الهذلي أين أسرته عنه؟ فقال أبو جهل إنما امتنع من اسرته[2].

وقد همت قريش أكثر من مرة للإيقاع بالرسول، إلا أنها كانت تخشى عبد مناف ومن هؤلاء عمر بن الخطاب عندما تطوع لقتل الرسول فقال له رجل من قومه وهو نعيم بن عبدالله النحام: أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً[3].

---

(١) الطبري، تاريخ ٣٣٨/٢.
(٢) البلاذري، انساب الأشراف ١٢٨/١.
(٣) ابن هشام، السيرة ٣٤٤/١.

لقد كانت التقاليد القبلية لا تسمح بأن تتخلى القبيلة عن أفرادها، ومن هنا وقفت بنو هاشم تحمي وتدافع عن الرسول ﷺ . بل وكانت العصبيّة القبلية والحمية سبباً في إسلام حمزة، فما أن علم أن أبا جهل قد شتم ابن أخيه وآذاه حتى أخذ ثأره منه وأعلن اسلامه، وكاد الشر أن يقع بين بني هاشم وبني مخزوم غير أن أبا جهل هدأ من قومه وقال: إني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً[1].

والعصبية القبلية هي التي دفعت أبا طالب أن يقف إلى جانب ابن أخيه وهو وإن لم يسلم، ومع تمسكه بملة الأشياخ إلا أنه كان يرضى عن ابنائه إذا ما وقفوا إلى جانب ابن عمهم، فعندما قالت له زوجته أن علياً يصلي مع محمد في شعب بأجياد قال لها: اسكتي ودعي عنك هذا هو أحق من آزر ابن عمه، ولولا أن نفسي لا تطاوعني على ترك دين عبدالمطلب لاتبعت محمداً. ولما بلغ ذلك قريش راعهم وكبر عليهم[2].

وعندما رأى أبو طالب أن قريشاً قد أخذت تعذب من أسلم منها أمر بني هاشم وبني المطلب بحماية الرسول، وافتقد ابن أخيه يوماً فأوعز إلى فتيانه بقتل أشراف قريش إن حدث للرسول حادث. وحتى يحذر قريشاً من الغدر بالرسول ﷺ لم يجد حرجاً من اخبار زعمائهم بما كان قد نوى عمله[3].

ولم يكن أبوطالب هو الوحيد الذي اجتذبته العصبية فقد رأينا أن بني هاشم وبني المطلب دخلوا الشعب إما إيماناً وإما حمية ونصرة للرسول.

وامتدت العصبية إلى أبي لهب، فقد أخذته الحمية عندما جاءت بنو مخزوم تطلب أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكان أبو طالب قد منعه، فقام أبو لهب، وقال: يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذاالشيخ، ما تزالون توثبون عليه في جواره بين قومه، والله لتنتهن منه أو لنقومن معه في كل مقام فيه حتى يبلغ ما أراد. فقالوا: بل ننصرف يا أبا عتبة. ولما رأى أبو طالب هذا الموقف منه طمع به وأخذ يحثه على نصرة الرسول ﷺ[4].

(١) المصدر السابق، ٣٤/٢ بهامش (طبعة ١٩٧١).
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف ١١٣/١.
(٣) ابن سعد، الطبقات ٢٠٢/١-٢٠٣، مجهول، الفاصل بين الحق والباطل ٢١١/١.
(٤) ابن هشام، السيرة ٣٧١/١.

وبعد موت أبي طالب، أخذت قريش تنال من الرسول ما لم تكن تناله وتطمع به. ولما بلغ ذلك أبو لهب جاء إليه وقال: يا محمد أمض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حيا فاصنعه لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت[1].

وسر التحول في موقف أبي لهب نابع من التقاليد القبلية، فبعد موت أبي طالب أصبح أبو لهب سيد قومه، والسيادة بالعرف القبلي تستلزم حماية الأتباع والدفاع عنهم. ولم يقف أبو لهب عند حد تشجيع الرسول للاستمرار في دعوته بل أخذ يقاوم كل من يتعرض له بسوء، ولما تعرض ابن العيطلة للرسول ونال منه. جاء أبو لهب ونال منه فذهب ابن العيطله يصيح في قريش لقد صبأ أبو عتبة فهال الأمر قريشاً، فأقبلت لترى الموقف. فقال لهم أبو لهب: ما فارقت دين عبدالمطلب ولكن أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد[2].

لكن هذا الموقف من أبي لهب لم يستمر طويلاً، فقد تغلبت عصبية التقاليد على عصبية الرحم وعاد ليعادي الرسول من جديد.

كان موقف أبي لهب متذبذباً فهو يظهر العداوة في وقت ويظهر النعرة في وقت آخر وكأنه قد أراد أن يكسب الطرفين. وظهر ذلك من قوله للوليد بن المغيرة: أن تظهر العزى كنت قد اتخذت يدا عندها بقيامي عليها، وان يظهر محمد على العزى ولا أراه يظهر فابن أخي[3].

وعلى أية حال فقد تغلبت عداوته على نصرته، بل وكان من أشد المناهضين للرسول سواء في مكة أو في سوق عكاظ. وأسباب هذه العداوة ترجع إلى ما يلي:

- تغلب سلطان عصبية التقاليد عنده على سلطان عصبية الرحم، فانضم إلى المناوئين استجابة لداعي عصبية التقاليد الموروثة[4].

---

(١) ابن سعد، الطبقات ٢١١/١.
(٢) ابن سعد، الطبقات ٢١١/١.
(٣) الواقدي، المغازي، ٨٤٧/٢.
(٤) أحمد الشريف، مكة والمدينة ٦٣.

- وقوعه تحت تأثير زوجته الأموية أم جميل حيث كانت من ألد أعداء الرسول ﷺ[1].

- كان أبو لهب من أثرياء مكة فخشي على ثروته من قريش ومن القبائل الأخرى وهو بهذا الشأن يقول: «ما نحن عندهم إلا أكلة رأس»[2].

هذه الأسباب هي التي جعلت موقفه يشبه موقف أبي جهل من حيث الغلظة والقسوة والجفاء[3].

وكما تدخلت عصبية بني هاشم لحماية الرسول فقد كانت عصبية عبد مناف تتدخل في بعض الأحيان. فعندما لطم أبو جهل فاطمة بنت الرسول جاءت إلى أبي سفيان واشتكت إليه من أبي جهل. فرجع أبو سفيان إلى أبي جهل، وأمر فاطمة أن تلطمه فقال أبو جهل: لقد أدركتكم المنافية يا أبا سفيان[4].

ولم يكن الرسول وحده هو الذي حمته العصبية القبلية فهشام بن الوليد بن المغيرة رفض تسليم أخيه الوليد بن الوليد -وكان قد أسلم- إلى بني مخزوم. ولم يكتف بذلك بل قال: احذروا على نفسه فأقسم الله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا[5].

وانقذت العصبية أيضاً عمر بن الخطاب، فقد ائتمرت قريش بقتله. فقال بعضهم أترون بني عدي يسلمون صاحبهم[6] فعدلت قريش عن ذلك.

وعندما ضرب عتبة بن ربيعة أبا بكر، قالت تيم: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن به عتبة[7].

---

(1) الخضري، تاريخ الأمم الاسلامية ٧٣/١، ارفنج حياة محمد ٦٢، انظر عن موقف أم جميل في تفسير ابن كثير ٥٦٤/٤-٥٦٥.

(2) أنساب الأشراف ١١٩/١.

(3) الجاحظ، العثمانية ١٠٢.

(4) البلاذري، أنساب الأشراف ج٤، قسم ٧/١.

(5) ابن هشام، السيرة ٣٢١/١.

(6) السيرة الحلبية ٤٧٥/١.

(7) ابن هشام، السيرة ٣٤٤/١.

ومما تقدم نرى أن الرسول ﷺ كان في منعة من قومه وأن مقاومة قريش كانت تصطدم بالخوف من قومه خاصة وهم يعرفون أن التقاليد والأعراف القبلية كانت توجب على البطون ذات اللحم والدم أن تتناصر في وقت ضيق.

وهكذا كانت عصبية البطون القرشية وشدة التنافس والتحاسد فيما بينها سببا في نجاح دعوة الرسول. فقريش كانت متفقة على مقاومة الدعوة إلا أنها كانت مختلفة في أساليب هذه المقاومة.

موقف القبائل العربية الأخرى من الدعوة الاسلامية حتى الهجرة إلى المدينة

قبل الحديث عن بيان موقف هذه القبائل لا بد من القول أن القبائل العربية كانت تنظر إلى الرسول نظرة الرجل الذي خرج على قبيلته ولم تهتم بأمره، ولذا وقفت هذه القبائل معارضة للدعوة الاسلامية. لقد كانت هذه القبائل، وكلما جاء إليها الرسول تقول «قوم الرجل أعلم به» فمقاومة قريش كانت سبباً في عدم استجابة هذه القبائل للدعوة الاسلامية.

لقد كان الرسول لا يترك مناسبة يأمل فيها استجابة فرد أو قبيلة إلا واغتنمها بدعوة الناس إليه. وكان لا يجد حرجاً من أن يأتي إلى القبائل في أسواقها ومضاربها يدعوهم عدة مرات إلى الاسلام. ومن القبائل الهامة التي دعاها الرسول ﷺ هي:

ثقيف:

بعد موت أبي طالب واشتداد أذى قريش على الرسول ﷺ، اتجه الرسول نحو الطائف علّه يجد منعة عند أهلها. اتجه إلى الطائف لقربها من مكة ثم للصلات الوثيقة بينها وبين قريش، وعندما وصلها اتجه إلي سادتهم وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب ابناء عمرو بن عمير. فقال له أحدهم: مارد يمرط ثياب الكعبة إن أحد أرسلك، وقال الثاني أما وجد الله من يرسله غيرك، أما الثالث فقال والله لا أكلمك أبداً، فإن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك[1].

(1) الطبري، تاريخ ٢/٣٤٤-٣٤٥، ابن الأثير، الكامل ٢/٦٣-٦٤.

لقد مكث الرسول عشرة أيام[1] يدعو أهلها إلى الإسلام، وكان رد أهلها عليه: كرهك أهل بلدك وقومك ولم يقبلوا منك فجئتنا فنحن والله أشد لك إباء وعليك رداً ومنك وحشة[2].

وبعد ذلك تمادوا في مقاومته وقعدوا صفين على الطريق وأخذوا يضربونه بالحجارة ويقولون اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض[3]. وعندما اشتد أذاهم عليه التجأ إلى حائط عتبه وشيبه ابنا ربيعة فتحركت عندهما أواصر الرحم والقرابة، فدعيا غلاما نصرانياً يقال له عداس وحملاه قطفا من العنب. ورغم حرج الموقف الذي كان به الرسول ﷺ إلا أنه أقنع عداساً بالاسلام.

لقد كان موقف قبيلة ثقيف من أشد المواقف على الرسول ﷺ فجلس يناجي ربه قائلاً: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[4].

وترجع معارضة ثقيف لسببين:

الأول: أن للطائف علاقات تجارية مع مكة، وهي لا تريد إفساد هذه العلاقة بمتابعة محمد، والطائف لا يمكن أن تستجيب وهي ترى قريشاً وهي أقرب الناس به رحماً تعارضه، والعرف القبلي أن يأتي النصر أولاً من قبيلته.

الثاني: أن قبيلة ثقيف كانت تمني نفسها بالزعامة، كما اعتقد رجالات قريش وجاء في تفسير الآية: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾[5] أن القريتين هما مكة والطائف، والرجلان هما الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو

---

(١) ابن سعد، الطبقات ١/٢١٢.

(٢) دلائل النبوة، ٢٥١٢-٢٥٢.

(٣) السيرة الحلبية، ٢/٥٧.

(٤) السيرة، ابن هشام ١/٤٢٠-٤٢١.

(٥) سورة الزخرف، الآية ٣١.

الثقفي[1]. فثقيف توازي قريشاً في عظمتها وهي قد قرنت بها، ومن هنا رفضت هذا الداعي الذي لم يكن له زعامة قبلية كما كان لغيره من رجالات مكة والطائف.

ولم يكن عروة هو الذي تساءل عن نزول الوحي عن رجل مثل محمد بل نجد شاعر ثقيف أمية بن أبي الصلت يقول: «أنا أعلم الحنفية ولكن الشك يداخلني في محمد»[2] وفي قول آخر: «لولا الاستحياء من صبيات ثقيف اني كنت أحدثهم أني هو ثم يريني تابعاً لغلام من عبد مناف»[3]. بل وتشتد عصبية أمية فيقول: «ما كنت لأؤمن برسول من غير ثقيف»[4].

ولما كان أمية شاعر ثقيف الأول فهو من هذه الناحية يعبر عن رأي قبيلته صراحة، فثقيف تريد أن يكون الرسول منها، لأنها تجد إهانة عظمى في متابعتها لرجل من قريش لم يكن له نفوذ قبلي حتى في قبيلته.

فهل كان الحسد من أميه هو العامل الذي صده عن الاسلام بالرغم من معرفته بالحنفية؟ حيث يقول:

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنفية زور[5]

وهكذا لم يجد الرسول استجابة من ثقيف بسبب عصبيتها وعاد أدراجه إلى مكة غير أن الصعوبة كانت في كيفية دخوله مكة، والتقاليد تقضي أن لا يدخلها إلا باستجارة أحد زعماء قريش، فبعث الرسول ﷺ إلى الأخنس بن شريق حليف بني زهرة، لكن الأخنس قال: إن الحليف لا يجير على الصريح. ثم أرسل إلى سهيل بن عمرو فبعث إليه أن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب. وبعد ذلك بعث إلى المطعم بن عدي فقبل إجارته. فجمع المطعم قومه ودخل المسجد فخشي أبو جهل أن يكون قد أسلم فقال له أمجير أم متابع؟ فقال المطعم: بل مجير فقال: قد أجرنا من أجرت[6].

---

(1) ورد في قول عروة بن مسعود، انظر: البلاذري، انساب الأشراف ١/١٣٧، وابن كثير، تفسير القرآن ٤/١٢٦-١٢٧.

(2) الأصفهاني، الأغاني، ٣/٢٣٦ (بيروت).

(3) ابن عبد البر، الاستيعاب ١/١٣٠ بهامش الاصابة.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/٢٢٣.

(5) ابن عبد البر، الاستيعاب، ١/١٣٠ بهامش الاصابة.

(6) الطبري، تاريخ ٢/٣٤٧-٣٤٨.

أما القبائل الأخرى فقد كان يأتيها الرسول في سوق عكاظ؟ ويدعوها إلى منعته ونصرته ويقول: الارجل يعرض علي قومه، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي[1]. فكانت ترد عليه، قوم الرجل أعلم به أفترى رجلاً يصلحنا قد أفسد قومه[2]، وخاصة أن أبا لهب كان يسير وراءه ويقول: أن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم فلا تطيعوه ولا تسمعوا إليه[3].

وقد مكث عليه الصلاة والسلام سبع سنين وهو يطوف على القبائل في أسواقها، ومن كثرة ما عرض نفسه عليها قال بعضهم: أما آن لك أن تيأس منا[4]. ومن القبائل التي جاء إليها:

كندة:

أتاهم الرسول ﷺ ودعاهم إلى عبادة الله ونصرة رسوله فقالوا له: ما أحسن كلامك ولكن نعبد ما عبد آباؤنا. وفي المرة الثانية حاول أحد أفرادها أن يحث قومه على نصرته غير أن كندياً آخر قال: أخرجته عشيرته وتؤونه، وحذر كندة من القبائل العربية اذا قبلوا الرسول، فانصرف عليه السلام حزيناً[5].

وفي المرة الثالثة، طلبت كندة الولاية بعد الرسول إلا أن الرسول رفض شرطهم، فقالوا: جئت تصدنا عن آلهتنا وتنابذ بك العرب، الحق قومك[6].

ومما تقدم نرى عصبية التقاليد والعصبية القبلية قد وقفت حائلاً أمام استجابة كندة للرسول.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ٢٣٧/١، الطبري، تاريخ ٢١٨/٢، السيرة الحلبية ١٥٣/٢.

(٢) دلائل النبوة ٢٥٠/٢.

(٣) الطبري، تاريخ ٣٤٩/٢.

(٤) دلائل النبوة ٢٥٧/٢.

(٥) ابن هشام، السيرة ٤٢٤/١، البلاذري، أنساب الأشراف، ٢٣٧/١-٢٣٨، دلائل النبوة ٢/-٢٥٦ ٢٥٥.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤٠/٢.

حنيفة:

جاء إليهم الرسول ﷺ عدة مرات، ولكنهم أعرضوا عن دعوته وكانوا من أقبح العرب رداً عليه[1].

كلب:

دعا الرسول بطناً منهم يقال لهم "بنو عبدالله" فلم يقبلوا منه بالرغم من أن شيخاً منهم قال: ما أحسن ما يدعو إليه هذا الفتى، إلا أن قومه باعدوه، ولو صالح قومه لاتبعته العرب[2]. وعلقت كلب دخولها الاسلام على استجابة قريش لدعوته.

عامر بن صعصعة:

تباين موقف هذه القبيلة من الدعوة الاسلامية بين القبول والرفض، فبعضهم لقي الرسول بتجهم وقالوا والله لا يؤوب بك قوم إلى دارهم إلا آبوا بشر ما آب به أهل الموسم.[3].

والبعض الآخر شارف على قبول الدعوة كبحير بن فراس "الذي قال: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. فتدخل رجل من قريش وقال: بئس ما صنعتم عمدتم إلى دحيق[4] قوم فأجرتموه لترمينكم العرب عن قوس واحدة، فتغير موقفهم وقالوا: يا محمد أعمل لطيتك[5] وأصلح قومك فلا حاجة لنا فيك[6].

ويذكر الطبري[7] أن عامر طلبت السيادة من بعده فقال لهم الرسول: ان الأمر الى الله يضعه حيث يشاء فقالوا له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فاذا ظهرت كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك[8].

---

(1) ابن هشام، ١/٤٢٤، أنساب الأشراف ١/٢٣٧-٢٣٨، الطبري، تاريخ ٢/٣٤٩، ابن الأثير، الكامل ٢/٦٥.

(2) أنساب الأشراف، ١/٢٣٧-٢٣٨.

(3) المصدر السابق.

(4) دحيق: طريد.

(5) لطيتك: لوجهك.

(6) الزمخشري، الفائق ١/٣٨٩.

(7) الطبري، تاريخ ٢/٣٥٠، ابن الأثير، الكامل، ٢/٦٢، السيرة الحلبية، ٢/١٥٤.

(8) مجهول، الفاصل بين الحق والباطل ١/٣٤٥.

شيبان:

قابل الرسول أربعة من سادتها وهم معروف بن هانيء، وشريك بن عمرو، وهانيء بن قبيصه، والمثنى بن أبي حارثه فدعاهم الى نصرته ومنعته فاعتذر أحدهم عن قبول هذا الدين لأنه يخالف معتقدات الفرس وهم في طاعتهم ولا طاقة لهم بقتالهم، وخيروه اذا أراد أن يمنعوه من العرب دون فارس فعلوا[1].

وأنا استبعد أن تكون شيبان قد وافقت على منع الرسول من العرب، والأرجح أن السادة لم يعطو رأياً قاطعاً في هذا الطلب وقالوا: إن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً ولكن ترجع ونرجع تنظر وننظر[2].

عبس:

ذهب إليهم الرسول ومعه زيد بن ثابت ولم يستجيبوا له بالرغم من محاولة ميسرة بن مسروق العبسي اقناع قومه بحماية الرسول. وقد ردت عبس على ميسرة بقولها: دعنا منك لا تعرضنا لما لا قبل لنا به. فطمع الرسول بميسرة فكلمه بأمر الاسلام فقال ميسرة: وما أحسن كلامك وأنوره ولكن قومي يخالفوني وإنما الرجل بقومه، فإن لم يعضدوه فالعداء أبعد[3].

ومن القبائل التي دعاها الرسول سليم وفزارة وبنو نصر من هوازن ومره وعذره، والحضارمه وغيرهم وكانت ردودهم متماثلة ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك[4].

إن موقف القبائل الرافضة للدعوة نبع من الأمور التالية:

- تمسك العرب بعصبيتهم القبلية، وظهر ذلك في مواقف قبائل متعددة منها ثقيف وعامر بن صعصعة.
- تمسك البعض بعصبية التقاليد لا سيما المخالفة لعبادة الآباء والأجداد، فكانت هذه القبائل تكره التجديد وتعتبر الماضي أمراً مقدساً لا يجوز التلاعب أو المساس به.

---

(١) دلائل النبوة: ١/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) دلائل النبوة: ٢/ ٢٤٨-٢٤٩

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ١٧٥.

(٤) ابن هشام، السيرة ٢/ ١٧٥ بهامش الروض (طبعة ١٩٧١).

- كان لموقف قريش المعادي للدعوة أثره على رفض هذه القبائل الدعوة الاسلامية فمن هذه القبائل من خشي اجتماع القبائل الأخرى عليها، ومنها من خشي النفوذ الأجنبي كشيبان.

الأوس والخزرج:

تذكر الروايات أن أول من قابل الرسول من أهل يثرب هو سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف، وكان هذا يسمى الكامل في قومه فدعاه الرسول وتلا عليه القرآن فعاد الى المدينة ومات يوم بعاث مسلما على حد قول بعض الروايات[1].

وقبل بعاث قدم أبو الحيسر أنس بن رافع ومعه فتية من بني عبد الأشهل يطلبون حلف قريش على الخزرج، فجاء اليهم الرسول وتلا عليهم القرآن فقال أياس بن معاذ - وكان غلاما حدثا -:

أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ ابو الحيسر حفنة من البطحاء وضرب به وجه إياس وقال له: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا[2].

لكن حلف أبي الحيسر لم يتم لمعارضة أبي جهل الذي قال: ما أصبتم حين حالفتم بنو الأشهل فانهم أهل غدر وجلب ولقلما دخل قوم على قوم الا أخرجوهم من بلدهم وغلبوهم على ديارهم[3]. وبعد بعاث قابل الرسول رهطاً من الخزرج مكون من ستة أنفار فدعاهم الى الاسلام فاستجابوا.

وفي العام التالي قابل الرسول منهم اثني عشر رجلا وسرعان ما استجابوا لهذه الدعوة فبايعهم الرسول فكانت بيعة العقبة الأولى، وأرسل معهم مصعب بن عمير يعلمهم الاسلام،

ولما قدم مصعب المدينة نزل على أبي امامه أسعد بن زراره من بني النجار وهناك أخذ يتنقل بين بطون أهل المدينة يدعوهم الى الاسلام.

---

(١) ابن هشام، السيرة ٢/١٧٥، بهامش الروض (طبعة ١٩٧١).

(٢) المصدر السابق، ٢/١٧٥، ١٧٦.

(٣) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ٣٢٩.

وعندما علم سعد بن معاذ بأمر مصعب وأسعد بن زرارة بعث إليهم أسيد بن حضير وقال له: انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفائنا فازجرهم وانههما أن يأتيا دارنا، فانه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما[1]. فذهب أسيد غير أنه عاد إلى سعد بن معاذ مسلما، وحتى يجد طريقة يدفع بها سعداً للذهاب الى مصعب ويستمع منه، قال له: ان بني حارثة خرجوا الى أسعد ليقتلوه، لأنهم عرفوا انه ابن خالتك ليخفروك. فقام سعد مغضبا وجاء الى أسعد وقال له: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا تغشيانا في دارنا بما نكره[2]. وكما أسلم أسيد، أسلم سعد بن معاذ بعد أن استمع الى تلاوة من القرآن، وكان لا سلامه أثر كبير في انتشار الاسلام في المدينة وخاصة عند بني عبد الأشهل،

ويفضل مصعب وأسعد لم تبق دار في المدينة الا ودخلها الاسلام، الا ما كان من بني أميه بن زيد وخطمه بن وائل بسبب موقف سيدهم وشاعرهم قيس بن الأسلت المناوئ للاسلام[3].

وفي العام الثالث لقي الرسول ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين، وكان يرافقه هذه المرة عمه العباس الذي كان أول المتكلمين وقال: ان محمداً حيث هو في عز من قومه ومنعة في بلده، وانه قد أبى الا الانقطاع اليكم واللحوق بكم. فان كنتم ترون أنكم مسلموه خاذلوه بعد الخروج اليكم فمن الآن فدعوه، فانه في عز ومنعة من قومه وبلده ونحن عشيرته ولسنا بمسلميه[4]. فقبلوا وبايعهم الرسول ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون به نساءهم وابناءهم[5]. وبعد ذلك قام البراء بن معرور وأخذ بيد الرسول وقال: لنمنعك مما تمنع منه أزرنا (نساءنا) وفي رواية ثانية أنهم بايعوا على قتال الأحمر

---

(1) ابن هشام، السيرة ١٧٥/٢، ١٧٦ بهامش الروض (طبعة ١٩٧١).
(2) المصدر السابق ١٨٦/٢.
(3) المصدر السابق ١٨٧/٢، الطبري، تاريخ ٣٩٥/٢.
(4) ابن هشام، السيرة ٤١١/١، البلاذري، أنساب الاشراف ٢٥٧/١.
(5) ابن هشام، السيرة ٤٤١/١.

والأسود، وعلى السمع والطاعة، واليسر . . . وعدم منازعة الأمر أهله والقول بالحق ولا تأخذهم في الله لومة لائم[1] .

وقام أبو الهيثم بن تيهان وقال: يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها - اليهود - فهل عسيت إن نحن قمنا معك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا! فتبسم رسول الله وقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[2] .

ووصل اسماع قريش عن حلف الرسول وأهل المدينة فأقبلوا الى الأوس والخزرج يسألونهم عن أمر هذه البيعة فحلف لهم مشركوا الأوس والخزرج كذب ذلك، ولم تكتف قريش بذلك بل جاءت الى ابن أبي واخبرته بالأمر فقال ابن أبي: ان هذا لأمر جسيم وما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا ما علمته كان[3] .

ولما تثبتت قريش من أمر البيعة أحست بالخطر خاصة وأن لأهل المدينة وجل في قلوب العرب حتى أنهم هابوا أمرهم فامتنعت حوزتهم وعز جارهم[4] . فسارعت الى الاقتصاص من المعاهدين فلم تجد غير سعد بن عباده فردوه الى مكه، ولم ينقذه الا أجارة جبير بن مطعم والحارث بن أميه لأنه كان يجير لهما[5] .

ولما أصبح للرسول قوة يستند عليها أمر اصحابه بالهجرة الى يثرب متفرقين خوف بطش قريش بهم، الا أن قريشا فطنت للأمر وحاولت أن تفتن من أسلم وترد من تستطيع رده، فأخذت تحول بين الزوج والزوجة، لا سيما اذا كانت المرأة من قريش وزوجها من غيرها. ولم تستطع قريش أن تتخذ تدابير أشد من ذلك خوفا من قيام حرب أهلية بين بطون قريش اذا هي همت بقتل واحد من هذه البطون[6] .

---

(١) البلاذري، انساب الاشراف ٢٥٣/١.
(٢) ابن هشام، السيرة ٤٤٢،٤٤١/١.
(٣) المصدر السابق ٢٤٩/١.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان ٣٠.
(٥) ابن هشام، السيرة ٤٤٩/١.
(٦) محمد حسين هيكل، حياة محمد، دار المعارف (١٩٧٤): ٢٢٠؛

وبعد ازدياد هجرة المسلمين نحو يثرب، واستناد الرسول صلى الله عليه وسلم الى قوم عرفوا بشدة وطأتهم وقوة بأسهم أخذتهم الحيرة وقالوا: هذا شر شاغل لا يطاق[1]. فأخذوا يخططون لوضع خطة للقضاء على صاحب هذه الدعوة.

اجتمع ملأ قريش للبحث في أمر صاحب الدعوة، الا انهم اختلفوا في بادئ الأمر حول الاجراء الذي سيتخذونه، فمن قائل باخراجه، ومن قائل بتقييده حتى يهلك. وأنهى أبو جهل هذا الاختلاف وأقترح أن تقدم كل قبيلة رجلا حتى يضربوا محمداً ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل فلا تستطيع بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا[2].

لقد كان خوف قريش من العصبية القبلية وإثارة بطون عبد مناف عليها، وبالتالي انقسام قريش والعودة الى حلف المطيبين والاحلاف السبب في اتخاذ هذا القرار.

إلا أن مخططهم هذا فشل بفضل العناية الالهية التي سلمت الرسول "ﷺ" فخرج مهاجرا الى المدينة ليبدأ من هناك تاريخ جديد وعهد جديد.

واستجابة الأنصار للدعوة الاسلامية ترجع الى العوامل التالية:

- حالة الفوضى والصراع التي كانت تحياها المدينة، فكانت هذه الحالة تستدعي وجود رجل محايد لا يميل الى أحد من الجانبين. واستدعاء رئيس من خارج القبيلة ليس جديدا على القبائل العربية، فقبيلة ربيعة وبعد أن سادها جو من الفوضى والتناحر بين رؤسائها بعثت الى والد الشاعر (امروء القيس) ليكون ملكاً عليها غير أن الأمن لم يستتب طويلا بين القبائل المتنازعة فقرر الرحيل عنها وعاد الخصام داء ربيعة الى وطنه[3].

- جاءت الأوس الى قريش قبل بعاث تطلب حلفها معهم على الخزرج، الا أن أبا جهل أنكر هذا الحلف، ووصف الأوس بأنهم أهل غدر وجلب، ثم جاءت هزيمة الخزرج يوم بعاث لتدفع الخزرج الى طلب حليف يشد من أزرهم، أما الأوس

(١) ابن عبد البر، الدرر ٨٥.

(٢) ابن هشام، السيرة ١٨٢/١، البلاذري، أنساب الأشراف ٢٥٩/١.

(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٤٦/٤.

فرأت في قبوله تحديا لقريش التي رفضت محالفتها، والتقت وجهات نظر الطرفين حول قبول دعوة الاسلام.

- ربما أن الأوس والخزرج قد رأوا في نصرة الرسول تحديا للقبائل العدنانية التي رفضت أن تؤويه وتحميه، فأرادت القبائل اليمانية أن تجرب حظها في قبول الرسول.
- تأثر أهل المدينة باليهود، وما كانوا يحدثون به من ظهور نبي، فأصبح أهلها مستعدين للتطور الروحي أكثر من غيرهم من القبائل الأخرى.

الدعوة الاسلامية في العهد المدني وموقف القبائل منها:

بدأ تاريخ جديد ببدء الهجرة، وحدث أمر لم تألفه الجزيرة العربية من قبل وهو خلق مجتمع مبني على الألفة والتناصر والاخوة والوفاء، يلتقون بطون شتى وقبائل عدة حول رباط الاسلام.

ان أول ما قام به الرسول "ﷺ" هو اطلاق اسماء جديدة على جماعات المسلمين، فلم يعد هناك آوس ولا خزرج ولا قريش، فالأوس والخزرج انضموا تحت اسم جديد هو "الأنصار" وكان لهذا الاسم أثره في النفوس، فما عاد الأوسي يفتخر أنه من الأوس، بل أصبح يفتخر أنه من السابقين الى الاسلام.

أما اسم "المهاجرين" فقد اطلق على كل من خرج من بلده مهاجرا الى المدينة وبهذا الاسم ما عاد الفرد الذي هاجر من بطن عظيم أو قبيلة فذه يعتز ببطنه أو قبيلته انما اصبح اليوم مهاجرا من اجل نشر عقيدته والدفاع عنها.

والخطوة الثانية كانت المؤاخاة "بين المهاجرين والانصار"، والمؤاخاة وان كانت شبيهة بالاحلاف الجاهلية الا أن لفظها كان أسمى وجوهرها أعمق. ان المؤاخاة الجديدة لم تقم على مصالح ذاتية تنتهي بنهاية هذه المصالح، انما كانت قائمة على رابطة روحية تزداد التحاماً في المحن والشدائد.

لقد كان في هذه المؤاخاة بدء لاذهاب الوحشة عن اولئك الذين خرجوا من بلدهم وتركوا الأهل والعشيرة فكان لا بد لهم من مؤنس يذهب الوحشة ويقرب بين النفوس[1].

لم تنتظر الأنصار من المهاجرين ثناء، بل أملوا ثواب الله، ومن هنا هبوا لتقديم المساعدة للمهاجرين بعد أن قال الرسول: إخوانكم ليس لهم مال، ولا عشيرة فليضم أحدكم اليه الرجلين أو الثلاثة[2]. فقام الانصار يقدمون كل مساعدة ويقولون: هذه منازلنا ان شئت فخذها[3].

وليعمق هذه الأخوة جعلها الرسول ﷺ مقدمة على ذوي الأرحام بالتوارث. وبقيت حتى اشتد امر المسلمين وقويت شوكتهم فنزل قوله تعالى ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾[4].

لقد استطاع الرسول بالاخوة الدينية أن يوطد الأمن في المدينة أولا وأن يجمع أهلها ثانيا في اطار يتنافى مع الاطر القبلية السابقة.

وبعد أن استقر الرسول في المدينة وضع دستورا ينظم العلاقات بين جميع الاطراف في المدينة وقد جاء في مطلع هذا الكتاب[5]: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي "ﷺ" بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس . . .

والأمة الواحدة تعبير يطلق لأول مرة في الجزيرة العربية، فكان للعقيدة الفضل في أمر هذه الوحده بعد أن عجزت رابطة النسب عن ذلك.

---

(١) الروض الأنف ١٨/٢.
(٢) ابن الأثير، جامع الأصول ١٦/٦.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان ٢٠.
(٤) سورة الانفال الاية ٧٥.
(٥) انظر نص هذا الكتاب في ابن هشام ٢/ ٢٤٠،٢٤٢ (بهامش الروض، طبعة ١٩٧١).

ومع أن الدستور كان فتحا جديدا في الحياة السياسية والدينية في الجزيرة[1] العربية إلا أن بعض المظاهر القبلية قد ظهرت في أمر هذا الدستور، فالفرد في هذه الأمة لا ينتمي اليها الا عن طريق العشيرة أو القبيلة[2] فالمهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، وبنو جشم . . . والصحيفة بالرغم من إطلاقها كلمة الأمة الواحدة، الا ان هذه كانت بمثابة الحلف الذي يجمع بين أهل المدينة ومن رغب من العرب الدخول معهم.

ومع وجود بعض المظاهر القبلية الا أن هذا الدستور كان اللبنة الأولى في صرح الأمة العربية، والنهج الجديد الذي اختط في تعاملهم. لقد أصبحت المدينة مركز دولة جمعت العقيدة سكانها بعد أن فشلت رابطة النسب. ان جامعة اليوم هي رابطة العقيدة، فالمؤمن لا يحالف مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، وأن لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس[3]. وبين الدستور أن لا مهادنة بين الاسلام الشرك، وأول من طلب الرسول عدم اجارتهم هم قبيلة قريش، وهذا مما جعل الرابطة الجديدة تسمو فوق جميع الروابط التي كانت سائدة من قبل.

وأروع ما في الصحيفة، أنها وضعت حدا لعادة انتشرت في الجاهلية، وكان يحسب لها الف حساب الا وهي الثأر، فقد حرم الدستور الثأر وبين أن القتل بالقود الا اذا رضي أهل المقتول. وبذلك اصبح الثأر لا يتحول الى ثأر، بل وضع الاسلام حدا لأخطاره وانتقل حق القصاص من الفرد الى الدولة[4].

وفي الدستور الجديد اصبحت الأمة تخضع لقائد واحد يأتمر الجميع بأمره الا وهو الرسول "ﷺ" هذا مع الاحتفاظ بالزعامات الأسرية.

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد ٢٣٩.

(٢) فلهوزن، الدولة العربية وسقوطها ١٢.

(٣) ابن هشام، السيرة ٢٤١/٢ بهامش الروض (طبعة ١٩٧١).

(٤) فلهوزن: الدولة العربية وسقوطها ١٣، ١٤.

لقد تكللت المهمة الضخمة بالنجاح وأصبح النظام القبلي شيئاً ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية[1] ومع هذا النجاح، الا أن ايدي المنافقين والجاحدين كانت تحاول أن تفسد أمر هذه الوحدة ومن هنا كان أمام الرسول "ﷺ" أربعة مواقف عليه مواجهتها وهي:

المنافقون في المدينة، اليهود، قريش، القبائل العربية الأخرى.

المنافقون:

كان زعيم هذه الفئة عبد الله بن أبي بن السلول، وتذكر الروايات أنه كان سيد المدينة لا يختلف عليه إثنان، وأن الأوس والخزرج لم يجتمعوا على قبله وبعده وأن قومه قد أعدوا له قبل الاسلام خرزا لتتويجه[2].

لقد أظهر ابن أبي استياءه من أمر الدعوة الاسلامية منذ أن سمع بالبيعة التي تمت بين الرسول والأوس والخزرج وقال: ما كان ليتفوتوا على بمثل هذا ما علمته كان[3].

وبعد أن هاجر الرسول "ﷺ" ورأى ابن أبي حسن الاستقبال الذي لقيه الرسول ﷺ أخذته الغيرة والحسد، فأخذ يعد الخطط لمقاومة الدعوة الاسلامية.

جاءت عداوته عندما استنجدت به قريش لاخراج محمد من المدينة، وبسرعة فائقة جمع حوله كل من لم يسلم من أهل المدينة، واستعد لمحاربة الرسول "ﷺ" غير أن الرسول "ﷺ" قال لأهل المدينة: لقد بلغ وعيد قريش المبالغ منكم، ماكانت قريش تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا ابناءكم وإخوانكم[4]. بهذه الكلمات تفرق الأوس والخزرج ولم يرغبوا في قتال بعضهم بعضا لعدم إيمانهم بما أراده ابن أبي.

---

(١) أرنولد: الدعوة الى الاسلام ٥٣.

(٢) ابن هشام، السيرة ١/٥٨٤،٥٨٧.

(٣) المصدر السابق: ١/٤٤٩.

(٤) ابن الاثير، جامع الاصول ٩/١٦٤،١٦٥.

وبعد أن رأى خذلان قومه له جاء الى الرسول وقال له: اجلس في بيتك لتقرأ القرآن على من يأتيك. وفي هذه المرة جوبه برد عنيف من رجل من الانصار وهو ابن رواحه الذي قال: أئتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو أحب[1].

وكان فشل ابن أبي في مناهضة الرسول ﷺ سببا لسلوك طريق النفاق، بأن يظهر الايمان ويبطن الكفر حتى يصل الى اهدافه، الا أنه فشل في جميع مخططاته.

وابن أبي رجل انتهازي، يسعى ويلهث وراء العظمة، فقد كانت السيادة والزعامة دائه العظيم حتى مع أقرب الناس إليه لحما ودما، فيوم بعاث وقف ليشاهد سيوف الأوس وهي تأخذ من رقاب قومه الخزرج، ولم يشترك معهم في القتال. ولما قتل عمرو بن النعمان زعيم الخزرج تنفس الصعداء وقال لقومه: ذوقوا وبال البغي[2]. ورجل يترك قبيلته في ساحة القتال يوم أن كانت الحمية القبلية تحرك أبعد الناس رحما، ويوم كان التناصر على الظلم والعدوان واجباً، هل ينتظر منه غير ذلك.

وازداد ابن أبي حقدا على المسلمين بعد انتصارهم في بدر، وتوجه الرسول الى بني قينقاع وهم حلفاء الخزرج في السنة الثانية من الهجرة، عندها شعر ابن أبي بأنه قد اصبح فاقدا لكل شيء فتحركت عنده عصبية الحلف وجاء الى الرسول "ﷺ" وقال: يا محمد احسن في موالي، فأعرض عنه الرسول، وبعدها أدخل ابن أبي يده في جيب الرسول حتى رأى في وجهه ظلالا - تلونا - فقال له الرسول: ويحك ارسلني فقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن الى موالي، اربعمائة حاسر، وثلاثمائة دراع، قد منعوني من الأسود والأحمر، تحصدهم في غداة واحد وإني لا آمن وأخشى الدوائر. فقال الرسول هم لك[3].

وهدف الرسول من وراء ذلك الى ناحيتين:

الأولى: تألف ابن أبي وجماعته، الا أن الحسد والحقد اعمى قلوبهم، فلم يستشعروا طعم الاحسان بل ازدادوا غياً وحقدا على المسلمين.

---

(١) ابن هشام، السيرة ٥٨٧/١.

(٢) ابن الأثير، الكامل ٢٥١/١ بهامشه مروج الذهب.

(٣) ابن هشام، السيرة ٤٨/٢.

الثانية : خوف الفتنة في المدينة ، فالناس قريبو عهد من الجاهلية ، وعصبية الاحلاف لا تزال آثارها باقية في النفوس .

وفي السنة الرابعة للهجرة نشط ابن ابي عندما أمر الرسول بني النضير بالخروج وأمهلهم عشرة أيام لذلك ، هناك أخذ يأتي الى بني النضير ويزين لهم عدم الخروج ويعدهم بأنه سيقف الى جانبهم ومعه بنو قريظة وغطفان .

وبنو النضير ليسوا حلفاءه وانما هم حلفاء للأوس ، وكأنه أراد أن يحرك مشاعر بعض الأوس اتجاه حلفائهم ، إلا أنه فشل أيضاً .

أما بنو النضير فقد خدعوا بوعوده ولم يسمعوا من ابن مشكم الذي حذرهم من وعود ابن أبي ، وأنه لم ينصر حلفاءه من بني قينقاع فكيف سينصر من هم ليسوا بحلفائه إلا أن اليهود اغتروا بوعوده ابن أبي وبعثوا للرسول اصنع ما بدا لك[1] .

ولا أستبعد أن يكون ابن أبي هو الذي دفع نعيم بن مسعود الأشجعي ليذهب إلى الأوس يذكرهم بعصبية الأحلاف ويقول لهم : ما هذا جزاؤهم منكم ، لقد استنصرتموه فنصروكم على الخزرج ولقد استنصرتم سائر العرب فأبوا ذلك عليكم .

غير أن الأوس لم يلتفتوا إلى ذلك بل قالوا : قطع الاسلام العهود[2] .

ولما كانت المنافسة بين بطني الأوس والخزرج على أشدها فقد جاءت الأوس إلى الرسول تتشفع في حلفائها وقالوا : يا رسول الله موالينا وحلفاءنا وقد فعلت في موالي اخواننا بالأمس ما قد فعلت يعنون (بنو قينقاع) ، فاستجاب الرسول لطلبهم ، وفوض الأمر إلى رجل منهم وهو سعد بن معاذ ، فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم وقسمة أموالهم وقال لمن كان ينادي عليه أن يحسن إلى مواليه : قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم[3] .

والفرق واضح بين سعد بن معاذ المسلم المؤمن وبين ابن أبي المنافق ، فالأول هدفه اعزاز الاسلام وأهله والثاني هدفه تحقيق مطامع شخصية .

---

(١) السيرة الحلبية ٢/٥٦١.

(٢) الواقدي، المغازي ١/٣٧٥.

(٣) الطبري، تاريخ ٢/٥٨٧.

ومع أن الحكم على بني النضير جاء من قبل الأوس أنفسهم، إلا أن أنفسهم لم تطب عندما رأوا الخزرج يتولون قتل بني النضير، وعرف الرسول ذلك، فأمر بمن بقي من اليهود أن يدفعوا إلى الأوس ليضربوا أعناقهم[1].

وبقي ابن أبي يتربص الفرص للإيقاع بالمسلمين وجاءت غزوة أحد، فرجع من نصف الطريق محتجاً أن الرسول لم يسمع منه، وسمع من الصبيان. وحجة ابن أبي واهية وضعيفة، فهو لا يريد القتال مع المسلمين وقد قال ذلك بوضوح: علام نقتل ها هنا أيها الناس[2]. أما بالنسبة لإشارته فقد كان هو نفسه من المشيرين بالخروج وقال للنبي: أخرج بنا إلى هذه إلا كلب[3].

ويظهر كذب ابن أبي ايضاً أن جماعته بعد القتال اخذوا يبررون موقفهم من العودة ويقولون: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال[4]. وهذا الادعاء يناقض قول زعيمهم، فالزعيم لا يريد القتال، واتباعه لا يعلمون بأنه سيحدث قتال، علماً أن قريش أمضت فترة طويلة في الاستعداد لقتال المسلمين. والسؤال المهم هل كان رجوع ابن أبي باتفاق سري مع قريش؟ هذا ما لم تسعفنا المصادر بالإجابة عليه.

عاد ابن أبي آملاً أن يستعيد زعامته، إذا ما تحققت هزيمة المسلمين إلا أن ظنه كان مخطئاً فلم تزد معركة أحدالمسلمين إلا التحاماً، ولئن خذل ابن أبي قومه، فقد ظهر من قاتل حمية وعصبية لقومه. فقزمان بن الحارث كان مشركاً ولما سمع بخروج قومه خرج وقاتل معهم وهو ينادي: يا معشر الأوس قاتلوا عن أحسابكم فالموت خير من العار والفرار[5]. ولما أصيب في المعركة جاءه المسلمون وقالوا: والله لقد أبليت يا قزمان فأبشر، فأجابهم بماذا أبشر فوالله ما قاتلت إلا عن احساب قومي ولولا ذلك ما فعلت[6].

---

(١) ابن هشام، السيرة ٥٩/٢.

(٢) ابن هشام، السيرة ٦٤/٢، ابن قتيبة، المعارف ١٥٩.

(٣) الطبري، تاريخ ٥٠٢/٢.

(٤) المصدر السابق ٥٢٠/٢.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف ٢٨١/١، ابن حزم، جوامع السير ١٦٦.

(٦) السيرة الحلبية ٥٢٢/٢.

والأصيرم من بني عبد الاشهل كان يأبى الاسلام، فلما كان يوم أحد سأل عن قومه فقيل له: خرجوا للقتال فأخذ سيفه ولحق بهم فقاتل حتى أثخنته الجراح فسقط بين القتلى[1].

جاءت معركة أحد بنتيجة سلبية على المنافقين لم ينتظرها ابن أبي إلا وهي التحام المسلمين أكثر فأكثر: وظهر ذلك بعد أن عاد المسلمون من أحد فقد كان من عادة ابن أبي إذا جلس الرسول يوم الجمعة على المنبر قام وقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله تعالى وأعزكم، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا. ثم يجلس فلما قام هذه المرة، قامت الأنصار وأخذوا بثوبه وقالوا له: اجلس عدو الله، والله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت. فخرج وهو يقول: كأنما قلت هجراً[2].

وحاول ابن أبي أن يثير الفتنة فكان يقول لمن يصادفه بطريقه: لقد وثب على رجال من أصحاب محمد يجذبونني ويعنفونني، ولم يخصص ابن أبي هؤلاء الأصحاب بل اتهم الجميع، علماً بأنه لم يتدخل أحد من المهاجرين[3].

استمر ابن أبي في نفاقه، وجاءت غزوة بني المصطلق في السنة السادسة للهجرة لينادي المنافقون بالعصبية جهاراً، وذلك عندما اختلف أحد المهاجرين وهو جهجاه بن سعيد الغفاري أجير عمر بن الخطاب، وسنان الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء، ونادى كل واحد قومه، هناك استغل ابن أبي هذه الحادثة، ووجدها مرتعاً خصباً لإثارة الخلاف. فقال ابن أبي لما سمع بما حدث: أوقد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا وجلابيب قريش[4] إلا كما قال الأول: «سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم احللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم[5].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق، ٥٣٩/٢.
(٣) الواقدي، المغازي، ٢٩٧/١.
(٤) جلابيب قريش، لقب اطلقه المشركن على من أسلم من قريش.
(٥) ابن هشام، السيرة ٢٩١/٢، الطبري، تاريخ ٦٥٥/٢.

شعر الرسول بخطر العصبية القبلية، وليقطع دابر الجاهلية ويشغل الناس أمرهم بالمسير ليلاً ونهاراً حتى آذت الشمس المسلمين. فأخذوا يتساءلون عن سبب المسير هذا، فعلموا بالخبر فجاء أسيد بن حضير وقال: أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً[1].

أما عمر بن الخطاب فقد كان من رأيه أن يقتل ابن أبي، وعرض أن يقوم بذلك بنفسه، أو أحد الأنصار ان كره أن يقتله مهاجري واقترح اسم محمد بن مسلمة الأنصاري. فقال له الرسول: كيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتله أصحابه[2].

ترك الرسول أمر ابن أبي خوفاً من أن يثير عليه فتنة هو في غنى عنها وترك لابن أبي يفعل ما يريد، وكان لهذه الخطة أثرها في نفوس الأنصار، فما أن علموا بما قاله ابن أبي حتى أخذوا يعنفون صاحبهم ويعاتبونه. ثم جاء ابنه عبدالله إلى الرسول وقال له: بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجلاً أبر بوالده، مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار[3]. فأجابه الرسول بل تحسن صحبته، وهنا تقدم ابن أبي إلى أبيه وأخذ بجلابيبه وقال له: لا أفارقك حتى تزعم أنك الذليل ومحمد العزيز. ولما رأى الرسول ذلك قال لعبدالله دعه فلعمري لنحسن صحبته ما دام بين أظهرنا[4].

كان في الإبقاء على حياته نصراً لموقف المسلمين وحفاظاً على وحدتهم، فقد جاءت النقمة على ابن أبي من الأنصار أنفسهم ولذا قال الرسول لعمر: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري[5].

(١) الطبري، تاريخ ٢/٦٠٦.
(٢) السيرة الحلبية ٢/٥٩٧
(٣) الطبري، تاريخ ٢/٦٠٨.
(٤) ابن سعد، الطبقات، ٢/٦٥.
(٥) ابن هشام، السيرة ٢/٢٩٣.

ولما فشلت جهود المنافقين في إثارة العصبية استغلوا حادثة الإفك، فكان ابن أبي من المروجين لهذه الإشاعة وبدأ لسانه يطلق عبارات التجريح كقوله: فجربها ورب الكعبة، ما برئت ولا برئ منها، إلى غير ذلك من الإشاعات وتمادى في ذلك حتى قال جماعته: هذه امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت[1].

كثر أذى المنافقين فضاق الرسول بهم ذرعاً فصعد المنبر وقال: ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، وفي رواية ثانية من يعذرني من رجل قد بلغني آذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي[2].

ولما سمع الأنصار ذلك قام أسيد بن حضير الأوسي وقال: يا رسول الله إن كان من الأوس نكفكهم وإن يكون من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم. فأخذت الحمية -وقيل اجتهلته الحمية- سعد بن عبادة وقال لأسيد: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم ولا تقدر على ذلك، ولو كانوا من الأوس ما قلت ذلك، ولكنك تأخذنا بذحول كانت بيننا في الجاهلية وقد محا الله ذلك[3].

وتطور النزاع بين الطرفين وتذاكروا يوم بعاث، ونادت الأوس بشعارها والخزرج بشعارها، وكاد الشر أن يقع بينهما لولا أن الرسول أخذ يهدأ من الموقف، فعاد القوم إلى رشدهم، وبعد أيام وحتى يذهب الرسول ما كان في نفس القوم أخذ سعد بن معاذ إلى منزل سعد بن عبادة وابن عباده إلى منزل ابن معاذ[4].

وكادت حادثة الافك أن توقع بين المسلمين المضريين وبين الأنصار، فقد ضرب صفوان بن المعطل حسان بن ثابت لأنه عرض له ولمن أسلم من مضر، فوثب ثابت بن قيس الخزرجي وأخذ صفوان وانطلق به إلى دار بني الحارث من الخزرج، إلا أن عبدالله بن رواحة عنف ثابت وقال له اجترأت، وفعل سعد بن معاذ كذلك وكأنه قد ندم على ما حصل منه واطلق سراح صفوان[5].

---

(١) السيرة الحلبية ٢/٦٠٧.

(٢) ابن هشام، ٢/٢٩٢، الواقدي، المغازي، ٢/٤٣١.

(٣) ابن هشام، ٢/٢٩٢، الواقدي، مغازي، ٢/٤٣١، ذحول: عداوة.

(٤) الواقدي، مغازي ١/٣٧٥.

(٥) الطبري، تاريخ، ٢/٣١٨-٣١٩.

ولم يعاقب الرسول ابن أبي، لأنه كان يدرك مكانته في قومه، فكان الرسول يغض البصر عنه علّه يترك نفاقه إلا أنه أصر على ذلك ومات منافقاً.

حقق الرسول بصبره على تصرفاته نصراً جديداً في المدينة فيوم أن أعطى ثوبه لابن أبي يستشفي به أسلم ألف رجل من جماعته على حد قول الديار بكري[1].

اليهود واستغلال العصبية القبلية:

بالرغم من كتاب الموادعة الذي وضعه الرسول بين أهل المدينة والذي نظم العلاقة بين المسلمين واليهود، إلا أن هؤلاء لم ينظروا إلى الاسلام بارتياح وخاصة بعد انتصار المسلمين في معركة بدر، فأظهر اليهود الحسد والبغي، وذهب نفر منهم إلى مكة يبكون ويندبون قتلى قريش وكان في مقدمة الباكين كعب بن الأشرف.

صعق كعب لما علم بانتصار المسلمين في بدر وفقد صوابه حتى أنه قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها[2]. ولما تيقن من حقيقة النصر أخذ يخزي نفسه ويقول: لم يلق محمد من يحسن القتال، ولو لقينا لاقى عندنا قتال لا يشبهه أحد[3].

بدأت عداوة اليهود عندما تعرض رجل منهم إلى امرأة مسلمة، فقتله الأنصار، وكانت النتيجة لذلك أن طهرت المدينة من أحد جيوب النفاق وهم يهود بني قينقاع.

ولما رأى اليهود أن قوة المسلمين أخذت تزداد لجأوا إلى سلاح العصبية القبلية علهم ينجحون في إثارة النزاع بين الأوس والخزرج. وجاء ذلك عندما مر شماس بن قيس وكان شيخاً قدعسا[4] عظيم الكفر، شديد الضغن والحسد للمسلمين. على قوم من الأنصار ورآهم متحابين متآلفين فهاله ذلك وقال: لقد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد والله ما لنا إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى يهودياً أن يجلس مع الأنصار

(١) الديار بكري، الخميس، ١٥٦/٢.
(٢) الطبري، تاريخ ٢/ ٤٤٨.
(٣) المصدر السابق ٤٧٩/٢.
(٤) عسا: أسن وولى.

ويذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأن ينشدهم بعض ما كانوا تغالوا فيه من الشعر ففعل ذلك، وتكلم القوم وتنازعوا وتواعدوا بالخروج إلى الحره فبلغ ذلك الرسول فجاء إليهم ومعه بعض المهاجرين وقال: الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الاسلام، وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم. فعرف الأنصار أنها نزعة من الشيطان وكيد من العدو فبكوا وتعانقوا[1] فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم[2]﴾.

فشل اليهود في إثارة النزاع من الداخل، فاتجهوا إلى القوى القبلية التي كانت خارج المدينة علهم يستثيرهم ضد المسلمين. وقام بهذه الدعوة سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، وذهبوا إلى قريش وزينوا لهم قتال محمد، ومنحوهم شهادة تفضيل مؤداها أن دينهم أفضل من دين محمد. وبعد قريش اتجهوا إلى غطفان وحرضوها على قتال المسلمين فعلقت غطفان اشتراكها في الحرب على اشتراك قريش.

استطاع اليهود أن يجمعوا الأحزاب فجاءت قريش وعليها أبو سفيان، وغطفان تحت قيادة عيينه بن حصن الفزاري، ومره تحت قيادة الحارث بن عوف، واشجع وعليها مسعود بن رخيله، وسليم وأسد، وكان هذا الجيش من أضخم الجيوش التي شهدتها الجزيرة العربية.

وما أن علم الرسول بذلك حتى ضرب خندقاً حول المدينة، وفوجئت الأحزاب بذلك، ولم يتمكنوا من اجتياز الخندق، فسعى اليهود إلى بني قريظة حتى ينقضوا حلفهم مع المسلمين وتمكنوا مع ذلك. وما أن سمع ضعاف النفوس ذلك حتى أظهروا النفاق وقالوا: يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط[3]. وقالوا ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. فنزل قوله تعالى: ﴿إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله

(١) ابن هشام، السيرة ١/٥٥٥-٥٥٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٠-١٠١.
(٣) ابن هشام، السيرة ٢/٢٢٢.

الظنونا﴾[1] وفي آية أخرى: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾[2].

وشعر الرسول بأن العرب قد رمت المسلمين عن قوس واحد، فأراد أن يفرط عقد تألفهم فبعث إلى عيينه بن حصن والحارث بن عوف يعدهما ثلث ثمار المدينة إن هم رجعوا عن قتالهم فقبل عيينه وحصن إلا أن زعيمي الأوس والخزرج لم يقبلوا بذلك وقالا والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم[3].

واستمرت المدينة بالمقاومة واستمر الأحزاب بتشديد الحصار وزاد من الخطر موقف بني قريظة، إلا أن نعيم بن مسعود الاشجعي انقذ الموقف وتمكن من الايقاع بين الأحزاب وبين بني قريظة، فقد جاء إلى اليهود وأشار عليهم أن يأخذوا رهائن من الأحزاب، حتى لا يتركوهم وحيدين أمام المسلمين بعد رجوع الأحزاب، وانتقل إلى الأحزاب وأخبرهم أن اليهود ندمت على ما جرى منها وتريد أخذ رهائن منهم لتسلمهم إلى محمد يقتلهم، وجاء يوم السبت فبعث الأحزاب إلى بني قريظة ليخرجوا للقتال إلا أن اليهود رفضوا ذلك واحتجوا بأن اليوم يوم سبت، كما طلبوا الرهائن من الأحزاب وهنا اعتقد المهاجرون أن ما قاله ابن مسعود صحيحاً ففكروا بالعودة من حيث جاءوا.

لقد كانت المصالح الذاتية للقبائل هي السبب في تجمعهم وكانت العصبية القبلية أحد الأسباب التي أدت إلى تفرقهم، وفي الأحزاب ظهرت عصبيتان: الأولى عصبية العرب ضد اليهود والثانية عصبية غطفان ضد قريش.

أما الأولى فقد قالت غطفان وسليم: محمد أحب إلينا وأولى من يهود، وقالوا ما بالنا نؤذيه بأنفسنا[4]. وقال الحارث بن عوف المري: بعداً وسحقا لبني قريظة محمد أحب إلينا من اليهود[5]. وهذا العداء وإن كان عدم استجابة بني قريظة سبباً من أسبابه إلا أن الشعور ضد اليهود قد ظهر عند هذه القبائل فمحمد عربياً وهو أقرب لحما ودما من اليهود.

---

(١) سورة الأحزاب، اية ١٠.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ١٢.
(٣) ابن هشام، السيرة ٢٢٣/١.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٤٥/١.
(٥) الواقدي، المغازي، ٤٧٩/٢-٤٨٠.

والعصبية ضد قريش ظهرت عند الأحزاب واضحة أيضاً فقد تصورت القبائل أن انتصارها على محمد والمدينة سيكون انتصار قريش، فتصبح قريش من جراء ذلك زعيمة للقبائل العربية. وقد عبر الحارث بن عوف المري عن ذلك بقوله: أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد، والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب، مع أني أرى أمر محمد ظاهراً[1].

وقال عيينه بن حصن: إنا والله ما جئنا ننصر قريش، ولو استنصرنا قريشا ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها، ولكني كنت أطمع أن نأخذ ثمر المدينة فيكون لنا ذكر مع ما لنا من منفعة الغنيمة[2].

جاءت الأحزاب متحدة لقتال المسلمين إلا أن غاياتهم وأهدافهم كانت مختلفة، ومن هنا انفرط عقدهم عند أول اختبار، ففشل مخططهم، وعادوا أدراجهم إلى أماكنهم.

الصراع بين المدينة ومكة والقبائل العربية الأخرى:

بعد أن وطد الرسول أمره في المدينة بدأ بمحاربة قريش، فاتخذ من السلاح الاقتصادي وسيلة لمواجهة قريش، فامتدت انظاره الى الطريق التجاري الذي كانت تسلكه قريش إلى الشام حتى يحرم قريش من أكبر مواردها الاقتصادية.

ولتحقيق هذه الغاية قام الرسول بسلسلة من السرايا والغزوات أثارت مخاوف قريش ومن هذه الغزوات، غزوة ذات العشيرة سنة ٢ هـ وسرية عبدالله بن جحش.

وأحست قريش بالخطر الذي أخذ يتهددها عندما علمت أن محمداً قد خرج ليعترض أكبر قوافلها التجارية، فأراد زعماؤها أن يضعوا حدا لاعتداءات لمحمد. وأن يظهروا للعرب أن قريشاً تملك قوة تردع كل من يعترض لقوافلها التجارية. ومن هنا صمموا على الخروج بالرغم من أن القافلة قد نجت من خطر المسلمين، وقد كانت مواقف البطون القرشية متباينة في الخروج.

(١) المصدر السابق، ٢/٤٧٩.

(٢) المصدر السابق، ٢/٤٨٠.

بنو هاشم: لم يخرج زعيم المعارضة من بني هاشم وهو «أبو لهب» فجاءت إليه قريش فطلبت منه أن يخرج أو يبعث أحداً مكانه حتى لا يشجع بتصرفه أحداً من قومه، إلا أن أبا لهب رفض كلا الأمرين.

وبعد ذلك جاءه أبي جهل وقال له: والله ما خرجنا إلا غضباً لدينك ودين آبائك فلم يتكلم أبو لهب بشيء، وخشيت قريش أن يسلم أبو لهب[1]. وتذكر الروايات أن أبا لهب أخرج مكانه العاص بن هشام، والظاهر أن ذلك قد تم أمام ضغط قريش عليه ومطالبته بالخروج.

وامتناع أبو لهب يمكن رده إلى عاملين: الأول حمية لابن أخيه حيث لا يرغب مواجهته بالسيف. والثاني وكما تذكره بعض الروايات من أنه كان مريضاً وهذا هو الأرجح.

أما بقية بني هاشم فيظهر أنهم لم يكونوا راغبين في الخروج، ومن خرج منهم أظهر التباطؤ حتى أن قريشاً قالت: أن هواكم مع محمد[2]. وهذا الموقف من بني هاشم دفع بعض قريش إلى عدم اصطحابهم إلى ساحة القتال، إلا أن أبا جهل قال: ألا تباً لرأيكم ماذا صنعتم، خلفتم بني هاشم وراءكم فإن ظفر بكم محمد كانوا في ذلك بنجوه، وإن ظفرتم بمحمد أخذوا ثأرهم منكم من قريب أولادكم وأهليكم فلا تذروهم في بيضتكم وفنائكم ولكن أخرجوهم معكم وإن لم يكن عندهم غناء. فعادت قريش وطالبتهم بالخروج مرة ثانية[3]. ويذكر ابن سعد[4] أن بني هاشم كانوا في قبة تحت حراسة حكيم بن حزام في معركة بدر، وبهذا الموقف أثبتت رابطة النسب أنها ما تزال قويه عند المشركين.

بنو أمية:

كان زعيما بني أمية هما عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ومن هنا لابد من القول أن زمام الزعامة قد خرجت من يد بني عبد مناف بمكة، ففي الجاهلية كان لا يسقط لعتبة وشيبة

---

(1) الواقدي، المغازي ٣٣/١.

(2) الطبري، تاريخ ٤٣٦/٢.

(3) ابن سعد، الطبقات، ٩/٤-١٠.

(4) المصدر السابق، ١١/٤.

رأى، فلما جاء الاسلام وعادوا الرسول لم يعد لهم رأى في مكة[1] والسبب في ذلك أن عبد مناف قد انقسموا على أنفسهم فكانت نوفلاً وأمية ضد هاشم والمطلب.

أما موقف بني أمية من الخروج إلى بدر، فيظهر أنهم لم يكونوا راغبين في القتال ظهر ذلك من قول عتبة لأخيه: أن ابن الحنظلية (أبو جهل) رجل مشؤوم، وليس يمسه من قرابة محمد ما يمسنا، غير أن شيبة خشي عار قريش[2]. فأخذته العزة بالإثم، وحث أخاه على الخروج.

وكان رأي عتبة أن يترك محمد يقارع العرب، فإن كان كاذباً كفتهم العرب شأنه وإن كان صادقاً فهو منهم وإليهم[3].

وإزاء ذلك قام بعدة محاولات لاقناع قريش بالعدول عن قتال محمد ومنها:

ارسل حكيم بن حزام ليقنع أبا جهل بالعودة وأنه سيتحمل دم ابن الحضرمي الذي قتل في سرية عبدالله بن جحش، إلا أن أبا جهل رفض ذلك. وأخذ يحث ابن الحضرمي حتى يفسخ عقده من بني عبد شمس ويحالف مخزوم، واتهم أبو جهل عتبة بالعصبية وبأنه لا يريد محاربة محمد لأن ابنه مع محمد ومحمد ابن عمه وهو يكره قتالهما[4].

ولما فشلت وساطة حكيم أظهر عتبة أن الأنصار لا يكافؤهم، وحثهم على العودة وقال لا تقتلوا وجوه أبناءكم التي تضيء ضياء المصابيح، وأن تجعلوهم أنداداً لهذه الوجوه التي كأنها عيون الحيات[5].

وقد دخل عتبة وشيبه الحرب حمية خوفاً من أن يتهموا بالجبن، ومع دخولهم الحرب إلا أنهم لم ينسوا عصبيتهم لبني هاشم، وذلك عندما هدد أبو جهل بأن ينتقم منهم بعد عودته فقال له عتبة:

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب ٢/١٩١ بهامش الإصابة.
(٢) البلاذري، انساب الأشراف، ٢٩١/١.
(٣) الواقدي، المغازي ٤٣/١.
(٤) الديار بكري، الخميس ٢٢٣/٢.
(٥) السيرة الحلبية، ٣٩٧/٢.

إن لهم أرحاماً وقرابة قريبة[1].

مخزوم:

كان أبو جهل من أشد المتحمسين للخروج، اعتقد أن هذا الخروج نزهة عسكرية يرتاد فيها الأسواق وينحر الجزر، ويعزف القيان وتسمع به العرب فتهاب قريش إلى الأبد[2].

وقد دفع أبو جهل حياته ثمن بطره هذا، وزاد من ألمه لما رأى عبدالله بن مسعود يقبل ليجهز عليه ويطأ على رقبته فقال والحسرة تعصر قلبه، لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبا وقال أيضاً: ما أنت أول عبد قتل سيده، لقد رافقت العصبية أبا جهل حتى آخر لحظات حياته، فقد أنف أن يقتله عبد، وتمنى لو كان قتله على يد رجل من المطيبين أو الأحلاف[3].

زهره:

لم تشترك في القتال، وجاءت عودتهم بسبب الأخنس بن الشريق الذي بين لهم أن القافلة قد نجت، وأن محمداً رجل منهم وابن اختهم[4]. فكانت عصبية الخؤولة والمصلحة الذاتية لبني زهره هي السبب في عودتهم.

عدي: لم يشتركوا في القتال، ولم تشر المصادر إلى سبب عدم اشتراكهم.

جمح:

لم تكن راغبة في القتال، بل خرجت حمية وخوفاً من عار قريش، فقد جاء أبو جهل إلى أمية بن خلف وقال له: "أنت امرأة" وقال له عقبة بن أبي معيط: إنما أنت جاريه في أريكه[5]. ولما سمع ذلك من رجالات قريش خرج للقتال.

---

(١) الواقدي، المغازي، ٤١/١.

(٢) الطبري، تاريخ ٤٨١/٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٨٨/٢.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف ٩١/١.

(٥) الواقدي، المغازي، ٨٦/١.

ومما تقدم نرى أن هاشماً، خرجت وهي كارهة للقتال، وأمية غير راغبة فيه، وخاصة عندما نجت القافلة، أما مخزوم فقد كانت من أشد البطون تحمساً في القتال، إلا أن هذا البطن ترك ساحة القتال ليلتف حول أبي جهل ليمنعوه من القتل، بل وفكر بعضهم أن يلبسوه لأمة رجل منهم حتى لا يعرف[1]، إلا أن سيوف المسلمين تناولته فسقط صريعاً في ساحة الوغى.

أما المسلمون فقد خرجوا يطلبون أحد الحسنيين إما الشهادة أو النصر ولا يفكرون بأمر غيرهما. وكعادة الجاهليين بدأ القتال بالمبارزة، فخرج نفر من قريش، وخرج ليقابلهم نفر من الأنصار، إلا أن قريشاً، لم تر فيهم كفؤاً لها فأرادوا بني قومهم، فلما سمع الرسول ذلك، ورأى أن الخارجين من قريش هم من بني أمية بعث إلى بني هاشم وقال لهم: قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم فخرج حمزه وعلي وعبيده بن الحارث، وأراد الرسول من ذلك أن تكون الشوكة لبني عمه وقومه[2]. وليدفع إلى ساحة القتال أقرب الناس إليه رحماً.

ومن المرجح أن الرسول ﷺ بعد اشتداد المعركة لم يكن راغباً في قتل عمه العباس لأنه خرج للقتال مكرهاً، ثم أن الرسول أراد أن يكافئ كل من قدم له المساعدة وهو في قريش من أمثال هؤلاء الذي قاموا بنقض الصحيفة فلما سمع أبو حذيفة بن عتبة قال: أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وعشائرنا وتترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه بالسيف، ولما عوتب أبو حذيفة في ذلك قال أن سببه ما كان من رؤيته لأبيه وعمه وأخيه وقد قتلوا جميعاً[3].

وفي بدر ظهر تباين في الموقف بين قوى الكفر وقوى الإيمان، فقوى الكفر كانت مختلفة في الهدف والغاية، وقوى الإيمان كانت مؤتلفه متحدة فكان أن تغلبت العقيدة على العصبية.

---

(1) المصدر السابق، ٦٨/١.
(2) ابن سعد، الطبقات، ١٠/٤-١١.
(3) المصدر السابق ١٠/٤-١١.

في بدر انكسرت شوكة المشركين، فكانت هذه المعركة مقدمة وحدة شبه الجزيرة العربية تحت راية الاسلام، ومقدمة لا نشأ امبراطورية اسلامية مترامية الأطراف[1].

تجلت روح العقيدة في بدر، فالمسلم لا يقاتل حمية لقومه، ولا لكي يسمع الناس ببطولته، انما يقاتل ليرفع كلمة الله، ويحقق نصر الاسلام، في بدر حدث لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية أن يقتل الابن أباه، أو أن يهم الأب بقتل ابنه.

لقد قتل أبو عبيدة أباه، والزبير بن العوام قتل عمه نوفل بن خويلد أسد المطيبين[2]. وبذلك لم يعد لرابطة النسب ما كان لها في الجاهلية، وأصبح المسلم يحامي عن أخيه المسلم دون أن يجمعهم نسب واحد، انه يدافع عنه لرابطة العقيدة والإيمان التي تجمع بينهم.

إن الإسلام لا يعترف إلا بالمسلم، والمسلم لا يرهب في الله شيئاً ولاتؤخذه في الحق قرابة ولا قبيلة: قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو أخوانهم أو عشيرتهم﴾[3].

بهذا العمل الرائع تحقق النصر للمسلمين، فكانت معركة بدر أول تحرر للإنسان العربي من قيود العصبية القبلية الضيقة.

ومع قوة التضامن بين المسلمين إلا أن بعض الاختلافات في وجهات النظر قد ظهرت في مواقف المهاجرين والأنصار في قضية الأسرى.

فالأنصار وفي مقدمتهم سعد بن معاذ أظهروا الكراهية عندما قال الرسول من قتل مشركاً سلبه ومن أخذ أسيراً فهو له. ولما سأل الرسول سعداً عن ذلك أجاب: إنها أول وقعة أوقعها الله بالمشركين فكان الأثخان في القتل أعجب من استبقاء الرجال[4].

أما ابن رواحة فكان رأيه في الأسرى إضرام النار بهم[5].

---

(١) محمد حسنين هيكل، حياة محمد، ٢٧٩.

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ١٢٠.

(٣) سورة المجادلة، الآية ٢٢.

(٤) الطبري، تاريخ ٢/٤٤٩.

(٥) الروض الأنف، ٢/٩٢.

وانقسم المهاجرون إلى قسمين: الأول يرى قتل الأسرى، وأن يقوم كل رجل بضرب عنق قريبه ومثل هذا الرأي عمر بن الخطاب[1].

الثاني يرى أن الأسرى هم بنو العم والعشيرة والاخوان فالإبقاء على حياتهم أفضل من قتلهم، ومثل هذا الرأي أبو بكر وقد أخذ به الرسول ﷺ[2].

ولم يكن أبو بكر الوحيد الذي أظهر العطف على الأسرى، فهذه سودة بنت زمعة عندما رأت القيد في يد سهل بن عمرو لم تتمالك نفسها وقالت: أبأبي يزيد يفعل هذا؟ أي أبا يزيد: أهلا متم كراما. فلما سمعها الرسول قال لها: أعلى الله ورسوله يا سوده أجابت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيته على هذه الحال[3]

وظهرت عاطفة القرابة كذلك عند أم سلمة، عندما استأذنت الرسول ﷺ أن يسمح لها باستقبال أبناء عمومتها من مخزوم، فوافق الرسول على ذلك، فدهنت رؤوسهم ولمت شعثهم[4]. وأعرب الرسول عليه الصلاة والسلام لما سمع أنين العباس فلم يعرف النوم. ولما علم أن أحد المسلمين قد فك رباطه أمر بفك رباط جميع الأسرى.

كانت معركة بدر شديدة الوطأة على قريش، إلا أنها من ناحية أخرى جعلت من أبي سفيان زعيم قريش دون منازع، بعد أن قتل معظم الزعماء في بدر.

لقد أعلن أبو سفيان بأنه لن يقرب النساء ولن يغتسل حتى يأخذ بثأره من الأوس والخزرج. وجبير بن مطعم لا يجد كفؤا لعمه طعيمه الذي قتل ببدر غير حمزه.

وكانت الدوافع الاقتصادية من أهم العوامل التي حركت قريش للثأر فقد قالت قريش أن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري ما نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل. وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه. وقالوا أيضاً أن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا، وهنا التقت الدوافع الثأرية والاقتصادية بتجهيز حملة جديدة فخرجوا إلى أحد.

---

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب، ٢٧-٢٨.

(٢) السيرة الحلبية، ٤٤٦/٢.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٠٣/١.

(٤) الواقدي، المغازي، ١١٨/١-١١٩.

ولما علم العباس بأمر قريش أدركته العصبية فأرسل إلى ابن أخيه يعلمه بما اعتزمت عليه قريش، فاستعد الرسول لذلك وخرج إلى أحد بعد أن استشار أصحابه في أمر هذا الخروج.

وفي أحد كانت معركة ثأرية أكثر منها صراعاً بين خصمين، فقريش تريد الثأر لقتلاها غير أننا نلمح شيئاً جديداً فيها وهو أن قريشاً اعتبرت انتصارها هو انتصار لوثنيتها ولذا كان أبو سفيان ينادي أعل هبل.

وكما اعتبرت الأنصار أن الانتصار في بدر هو انتصار للأوس والخزرج، فقد اعتبر رجال قريش أن انتصارهم في أحد هو انتصار على أهل المدينة من الأوس الخزرج[1]

لقد انتصرت قريش في أحد، ومثلت ببعض المسلمين فلما رأى الرسول ﷺ عمه حمزه وقد مثل به قال: لئن ظفرني الله بقريش، في موطن من المواطن لأمثلن بسبعين منهم فنزل قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾[2].

وتحركت أواصر القرابة عند أبي سفيان. فقد تأسف لأنه مُثّل بحمزة ثم أخذته الحمية الجاهلية وعاد ليقول أما إذا كان ذلك لم نكرهه[3]. وعندما رآه زعيم الأحابيش وهو يعبث بفم حمزه برمحه قال له: اكتمها علي فانها زلة[4].

والرسول ﷺ في تعامله مع قريش اتبع خطتين، الأولى وهي القوة، والثانية اظهار الرفق معهم لعل الله يهديهم إلى الاسلام.

فعندما قطع ثمامة بن أثال الحنفي الحنطة عن قريش، كتبت قريش إلى الرسول إنك تأمر بصلة الرحم وأنك قد قطعت أرحامنا. فكتب الرسول إلى ثمامه يطلب أن

---

(١) ابن هشام، السيرة ٢/١٣٦-١٣٧.
(٢) سورة النحل ١٢٦-١٢٧.
(٣) الواقدي، المغازي، ١/٢٩٧.
(٤) الأصفهاني، الأغاني، ١٦/١٤ (بيروت).

يخلي بين قريش وبين ميرتهم[1] وفي السنة الخامسة للهجرة أصيبت قريش بقحط فأرسل إلى بعض زعمائهم نوى من ذهب فقبلها أبو سفيان، ورفضها سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية[2].

كان الرسول يسعى ما وسعه الجهد إلى فك عقد تآلف قريش المجتمع على حربه ومناهضة الاسلام، فما أن قتل هشام بن الوليد المخزومي أبي أزيهر الدوسي، وكان هذا في جوار أبي سفيان، حتى أمر حسان بن ثابت أن يحرض بني عبد شمس على أخذ ثأرهم من مخزوم، فحرك شعره حمية يزيد بن أبي سفيان فنادى بحلف المطيبيين، وعقد لواء وسار إلى بني مخزوم، فلما علم أبو سفيان أسرع إلى ابنه محذراً إياه من ضرب قريش بعضها بعضاً من أجل رجل من الأزد، وقال له: أن في فرقتنا قوة لمحمد، ونادى بأعلى صوته: أيها الناس إن خلفنا عدو شامت (محمد) وحتى نفرغ ما بيننا ننظر فيما بيننا وبينكم فلينصرف كل انسان إلى منزله فتفرقوا[3].

ومع انتصار قريش في أحد، فقد ظهر لها أن المسلمين قد أصبحوا قوة لها شأنها وأنه لم يعد في استطاعتها مواجهة المسلمين وحدها، وقد ثبت ذلك عندما أخلفت قريش وعدها بالخروج إلى المدينة في العام التالي لأحد، وبررت عدم الخروج بسبب الجدب ولا يصلح لهم إلا عام عشب[4].

وجدت قريش متنفساً لها بالحركة التجمعية التي قام بها اليهود، فساروا مع الأحزاب، إلا أن محاولتهم هذه لم يكتب لها النجاح، وكانت النتيجة أن زاد المسلمون قوة بعد أن طهروا جيباً من جيوب اليهود، وعندها شعر المسلمون بأنهم قد انتقلوا من الدفاع إلى الهجوم، وأعلن ذلك الرسول عندما قال: الآن نغزوهم ولا يغزونا.

حاول الرسول أن يكون احتكاكه بقريش سلمياً بعد الأحزاب، فخرج قاصداً زيارة البيت الحرام، وما أن علمت قريش بذلك حتى أخذت تستعد لمنع المسلمين من دخول مكة، وحاول الرسول أن يتجنب القتال، وخرج من طريق غير طريقهم وقال: لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم إياه[5].

---

(١) الديار بكري، الخميس ٢/٤٣.

(٢) الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف ٦.

(٣) الزبيري، نسب قريش ٣٢٣، ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ٢٤٠-٢٤١.

(٤) السيرة الحلبية، ٢/٥٨١.

(٥) ابن هشام، السيرة ١/٣١٠.

وعندما وصل المسلمون إلى الحديبية أراد الرسول أن يرسل عمر إلى مكة ليتفاوض مع أهلها، إلا أن عمر خشي قريشاً، وأشار بعثمان لأنه أعز منه عشيرة. فبعثه الرسول فكان له حمى ومنعة من بني أمية[1]. وما أن أشيع أن عثمان قد قتل حتى بايع المسلمون الرسول بيعة الرضوان. أما قريش فقد أرسلت عروة بن مسعود الثقفي ليفاوض المسلمون، فجاء عروة وأخذ يضرب على أنغام القرابة والقربى وقال: لقد جمعت أوباش الناس ثم سرت بهم إلى عترتك وبيضتك التي تفلقت عنك لتبيد خضراءهم[2] وفي موضع آخر قال: أرأيت أن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصلاً قبلك . . . فوالله إني لأرى وجوهاً وأوشاباً خلقاً أن يفروا ويدعوك[3].

ولما أصر المسلمون على موقفهم انتقل عروة إلى التهديد وقال: لقد جئت من عند كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد لبسوا جلود النمر عند العود المطافيل يقسمون بالله لا تعرض لهم خطة إلا عرضوا لك أمر منها[4].

تراجعت قريش عن موقفها المتصلب بعد أن رأت حسن تنظيم المسلمين وطاعتهم، فرأت أن من الخير لها أن تعقد اتفاقاً مع المسلمين على أن لا يدخل عليهم الرسول عنوة هذا العام، فوافق المسلمون على ذلك وكان صلح الحديبية.

وحقق الرسول الأهداف التالية من هذا الصلح:

- استطاع أن ينزع قريشاً من القبائل التي كانت تتعاطف معها، وأول هذه القبائل الأحابيش، حيث غضب قائدهم على صد المسلمين عن زيارة البيت الحرام وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، والذي نفس الحليس بيده لتحلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن الأحابيش نفرة رجل واحد، وظهرت قوة الأحابيش عندما منعوا قريشا من عقر الجمل الذي

---

(١) الديار بكري، الخميس ٢/٢٢، دائرة المعارف الإسلامية المجلد، ٣/٣٥٨.
(٢) أبو يوسف، الخراج، ٢٣٠.
(٣) الطبري، تاريخ ٢/٦٢٦.
(٤) أبو يوسف الخراج، ١٣٠.

جاء عليه عثمان وكان هذا الجمل لجواس بن أمية الخزاعي[1].

- اعترفت قريش بقوة المسلمين، وبأنهم أصبحوا متساويين عرفاً وشرعاً.
- أيقنت قريش بعد الحديبية أنه لم يعد بإمكانها مواجهة المسلمين علنا فأخذت تعمل من وراء ستار، فساعدت بعد هذا الصلح قبيلة بكر حليفتها على خزاعة حليفة المسلمين.
- تغيرت نظرة القرشيين للمسلمين بعد الحديبية، وحصل انقسام فيما بينهم ونلمس ذلك عندما قام الرسول بغزو أقوى مراكز المقاومة في الحجاز وهي خيبر فقسم منهم وعلى رأسه صفوان بن أمية كان يقول: لا يفلت محمد من خيبر. وأيده في ذلك عباس بن مرداس السلمي. وقسم منهم أكد نصر محمد وتزعم هذا الجانب حويطب بن عبدالعزى، وتراهن القوم على مائة بعير، فأظهر أبو سفيان خوفه من عدم انتصار محمد، فقال له صفوان بن أمية: أدركتكم المنافية فأخفى أبو سفيان مشاعره[2].

ولما دخل المسلمون مكة في عام العمرة كاد الشر أن يقع بين قريش وسعد بن عباده، فقد أراد الرسول أن يتقرب إلى قريش ويدعوهم إلى طعام عنده إلا أن قريشاً قالت اخرج عنا من أرضنا، فغضب سعد بن عباده وقال: كذبتم ليست بأرضكم ولا أرض آبائكم والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً، فخشي الرسول حدوث فتنة وتبسم وقال: لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا ثم أمر بالرحيل[3].

لقد خشي الرسول ﷺ من حدوث نزاع بين المسلمين وقريش وخاصة ما بين الأنصار وقريش، فقد كان عبدالله بن رواحة يطوف حول الكعبة ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلو فكل الخير مع رسوله

نحن ضربناكم على تأويله ... كما ضربناكم على تنزيله

---

(١) الديار بكري، الخميس ٢/٢١.

(٢) الواقدي، المغازي، ٢/٧١-٧٢.

(٣) السيرة الحلبي، ٢/٧٨٣.

فقال عمر: أيهاً يا بن رواحة، فسمع الرسول ذلك وقال يا عمر إني اسمع. وقال لابن رواحه أيها يا ابن رواحة قل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده[1].

فتح مكة:

بعد أن خرقت قريش بنود صلح الحديبية، تجهز الرسول لفتح مكة، فخرج ومعه عشرة آلاف من قبائل سليم ومزينه وغفار وأشجع وجهينه والمهاجرين والأنصار، وقد اتبع الرسول السرية التامة في أمر خروجه والجهة التي ينوي الذهاب إليها.

وعندما وصل الرسول مر الظهران لقيه العباس، ولما تحقق أنه ذاهب إلى مكة أخذته الحمية وقال: والله ولئن بغتها رسول الله في بلادها فدخل مكة عنوة إنه لهلاك قريش حتى آخر الدهر[2]. فأخذ يبحث عن رجل يوصل الخبر إلى قريش فصادف أن ظهر أبو سفيان، فأخبره العباس بقوة المسلمين، وفي لحظة اليأس لم يدر أبو سفيان ما سيفعل، فتدخل لدى العباس حتى يأخذ له الأمان من الرسول وفي طريقه إليه لقيه عمر بن الخطاب فقال: الحمدلله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، وأراد أن يضرب عنقه، فقال العباس والله لو كان من رجال بني عدي ما قلت هذا! ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف[3].

إن مفاهيم الجاهلية والعصبية كانت ملازمة للعباس وهو لم يعلم بعد أن عمر بن الخطاب قد أصبح في حال يغاير حال الجاهلية، وأنه لا تؤخذه في الله لومة لائم ولذا قال للعباس: فوالله لأسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب[4].

أما أبو سفيان، زعيم قريش فقد استهجن أن يصدر هذا القول من عمر فقال: والله لقد أمّر أمر بني عدي بعدي، والله قلة ذله[5].

(1) ابن سعد، الطبقات ٢/١٢١-١٢٢.
(2) ابن حزم، جوامع السير، ٢٢٩.
(3) الفاسي، شفا الغرام، ٢/ ١١٥.
(4) ابن حزم، جوامع السير، ٢٢٩.
(5) الواقدي، المغازي، ٢/٨٢١.

واتبع الرسول ﷺ مع أبي سفيان الحرب النفيسة، فأمر القبائل تمر من امامه، فدهش أبو سفيان من ذلك لا سيما بعد أن رأى قبيلة أشجع وقد دخلت الاسلام وكانت قبل ذلك من أشد المناوئين للمسلمين [1]. فأسرع إلى مكة ليعلن لقريش أن لا طاقة لهم بقتال المسلمين.

ولما دخل المسلمون مكة سمع أبو سفيان أن سعد بن عباده يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الرحمة، اليوم أذل الله قريشاً. ففزع من ذلك وأسرع إلى الرسول وقال له: هل أمرت بقتل قومك، إن سعداً وقومه حين مروا بنا زعموا أنهم قاتلينا، أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم فطمأنه الرسول وقال له: اليوم يوم الرحمة أعز الله فيه قريشا. وأرسل الى سعد فأخذ الراية منه ودفعها لابنه قيس، الا أن سعدا خشي أن ينكر الرسول من ابنه شيئاً واعتذر عن حمل الرايه. فأجابه الرسول الى طلبه.

ولعل أخذ الراية هو الذي حرك مشاعر بعض الأنصار، وقالوا: أما الرجل فأدركته رغبة في قومه ورأفة في عشيرته [2]. وما أن سمع الرسول ذلك حتى جمع الأنصار وقال لهم: قلتم كذا وكذا، كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت الى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم [3].

وما كان عمل الرسول هذا تعصبا لقومه، وانما أراد أن يحقن الدماء، وان يخفف من الحقد الذي كان في قلوب قريش والأنصار وقد صور هذا الحقد ضرار بن الخطاب بقوله:

خزرجي لو يستطيع من الغيض   رمانا بالنسر والعواء [4]

وبالرغم من المعاملة الحسنة التي لقيتها قريش من الرسول، الا أن عصبية التقاليد والحسد بقيت ملازمة لبعضهم.

---

(١) السيرة الحلبية، ٣/٢١.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ٤٥.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان ٤٥.

(٤) الروض الأنف، ٢/١٧١.

لقد هال قريش أن ترى بلالا يؤذن على ظهر الكعبة، وشعرت بأن تقاليد الآباء والأجداد قد اخترقت فقالت: يا عباد الله ألهذا العبد الأسود أن يؤذن على ظهر الكعبة، وقالت جويريه بنت ابي جهل: قد لعمري رفع لك ذكرك، أما الصلاة فسنصلي، ووالله ما نحب من قتل الأحبه.

وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع بهذا اليوم. وكان أسيد قد مات قبل الفتح بيوم أحد.

وقال الحارث بن هشام: واثكلاه ليتني مت قبل أن اسمع بلالا ينهق فوق الكعبة. وقال الحكم بن العاص: هذا والله الحدث الجلل أن يصيح عبد بني جمح ينهق على بيت أبي طلحه. أما سهيل بن عمرو فقال: ان كان هذا سخطا فسيغيره الله. أما أبو سفيان فقد التزم الصمت وقال: لو قلت لأخبرته هذه العصا[1].

وعلى أية حال فقد اعتبرت قريش انتصار الرسول هو انتصار لهم، وعزته عزة لهم، فعندما هرب عبد الله بن الزبعري الى نجران فكر بالأمر وقال: على أي شيء أقيم مع بني الحارث بن كعب، وأترك ابن عمي، وخير الناس وأبرهم، ومع قومي وداري، فرجع الى مكة وأعلن اسلامه[2]. وأتى عمير بن وهب صفوان بن أميه وقال له: عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، فسمع صفوان منه، وعاد الى مكه وأسلم بعد مرور فترة قصيرة[3].

لقد ظهر تعاطف قريش مع المسلمين عندما خرج مسلمهم وكافرهم للقتال مع الرسول ﷺ في حنين، بل بعضهم قدّم أدرعة الى للمسلمين على أن تكون عارية مضمونه[4].

وفي حنين ظهرت عصبية قريش للرسول، وذلك عندما جاء كندة بن أمية وهو أخو صفوان بن أميه لأمه، وبشره بهزيمة المسلمين فقال له صفوان: أتبشرني بظهور الأعراب[5].

---

(١) انظر هذه الأقوال في: أنساب الاشراف ٣٥٦/١، أخبار مكة ١٨٤/١، شفا الغرام ١٥٨/٢.
(٢) الواقدي، المغازي ٨٤٨/٢.
(٣) الطبري، تاريخ ٦٣/٣.
(٤) المصدر السابق ٧٤/٣.
(٥) السيرة الحلبية ٧٠/٣.

وفي رواية أخرى: ان ربا من قريش، أحب الى من رب من هوازن، ولئن يربيني رجل من قريش أحب الى من أن يربيني رجل من هوازن[1].

ونظراً لقرب الناس بالجاهلية فقد أراد الناس أن يألف قلوب بعض الزعماء من الغنائم، وكاد هذا الأمر يفسد بعض القلوب، لقد أراد الرسول أن يجتذب قلوب من أسلم حديثا، أو من لم يسلم بعد، لأن في هذا العطاء استجلاب لقلوب[2] الرؤساء الذين اذا غضبوا غضبت لهم عشائرهم واذا رضوا رضوا لرضاهم وان أسلم هؤلاء لم يتخلف عنهم أحد[3]. وإزاء ذلك شعر الأنصار بأن الرسول قد أخذ يحابي قومه فقال شباب الأنصار: ان هذا لعجب يعطي قريشا وسيوفنا تقطر من دمائهم، وقالوا أيضا: اذا كانت الشدة ندعى اليها، ويعطي الغنيمة غيرنا[4].

وقالت أيضا آثر قومه علينا، وقسم قسما لم يقسمه لنا، وما نراه فعل هذا الا وهو يريد الاقامة بين اظهرهم[5].

هذه الأقوال دفعت شيوخ الأنصار ان يفاتحوا الرسول بالأمر، فجاء اليه سعد بن عباده وقال له: ان هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الانصار منها شيء. فطلب منه أن يجمع الأنصار فجمعهم سعد فأتاهم الرسول فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها على في أنفسكم؟ وأخذ الرسول يبين فضل الاسلام على الأنصار، وما قدمه الأنصار من أجل الاسلام، ويبن أن ما أعطاه لغيرهم هو من أجل تأليفهم للاسلام، وقال في آخر حديثه: فوالذي نفسي بيده، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس شعبا، وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، بل اللهم ارحم الأنصار وأبناء الانصار، وابناء ابناء الأنصار فبكى القوم[6].

---

(١) الواقدي، مغازي، ٣/٨٩٥.
(٢) المصدر السابق ٣/٨٩٥.
(٣) زاد الميعاد ٢/١٩٢، ١٩٣.
(٤) جامع الأصول ٩/٢٧.
(٥) الأصفهاني، الاغاني ١٣/٢٢٦.
(٦) ابن هشام، السيرة ٢/١٥٦ بهامش الروض (طبعة ١٩٧١).

ولم تكن الانصار وحدها التي احتجت على غنائم حنين، بل قام ذو الخويصر التميمي وقال: لم أرك قد عدلت؟ فغضب الرسول منه وقال: ويحك اذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون[1].

وهكذا نرى أن البعض قد اعتقد في توزيع غنائم حنين محاباة لقريش ولم يدركوا الهدف الأبعد الذي كان يريده الرسول ﷺ من وراء ذلك إلا بعد حين.

أما القبائل العربية الأخرى فبعد أن هاجر الرسول الى المدينة، أراد أن يرتبط مع القبائل المجاورة منها برباط الموادعة لا سيما الواقعة على الطريق التجاري المؤدي الى الشام. ومن هذه القبائل خزاعة وبني ضمره وبني مدلج. أما القبائل التي اتخذت جانب العداء فقد كان عامل السرعة والمفاجأة والرد عليها بالمثل هو الطابع المميز لحركات الرسول في غزواته وسراياه.

قام الرسول بعد بدر بتوجيه ضربات سريعه الى قبائل سليم وغطفان بعد أن علم بمحاولتيها غزو المسلمين فأثار ذلك الفزع في نفوسهم.

ولما عجزت بعض القبائل عن مواجهة الرسول الفعلية لجأت الى دروب الحيل والغدر فقد جاءت عضل والقارة وطلبت من الرسول ان يبعث معهم نفرا يعلمهم الاسلام. فبعث معهم ستة أنفار. وما أن وصلوا ماء الرجيع وهو ماء لهذيل حتى غدروا بهم واستصرخوا عليهم بني لحيان من هذيل فقتل بعضهم وأرسل أحدهم الى مكه ليقتص منه أهلها[2].

وتكررت هذه الحادثة عندما قدم أبو براء عامر بن مالك ملاعب الاسنه، وطلب رجالا الى أهل نجد يعلمونهم الاسلام، فوافق الرسول بعد أن تعهد أبو براء بجوارهم، ولما وصلوا بئر معونه خفرت بنو عامر جوار أبي براء. وجاءت سليم حتى تأخذ بثأرها من المسلمين وفي هذه الوقعة لم ينج الا عمرو بن أميه الضمري الذي أطلق سراحه عامر بن الطفيل لأنه مضري[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري، تاريخ ٥٤٢/٢.

(٣) المصدر السابق ٥٤٦/٢، ٥٤٧.

وأمام حوادث الغدر هذه أراد الرسول أن يضع حدا لها، لا سيما وان التقاليد القبلية لا زالت تسمح بأخذ الثأر فقام بغزو بن لحيان[1]، ثم اتجه الى نجد يريد بني محارب بن ثعلبه من غطفان وذلك في غزوة ذات الرقاع[2].

لقد كان موقف القبائل يخضع لعامل المصالح الذاتية فاذا رأت القبيلة أن في محاربتها للمسلمين مصلحة تحققها لم تتوان عن ذلك. وكما حدث في غزوة الأحزاب عندما أقبلت غطفان وسليم وأسد وغيرها الى المدينة. وكما أبطأت البوادي والأعراب[3] عن الرسول عندما خرج الى مكه في أول مرة. بل وشك بعضهم في قدرة المسلمين وقالوا: ما محمد وأصحابه إلا اكلة جزور، لن يرجع من سفره هذا أبدا[4].

ومن أشد القبائل عداوة للمسلمين كانت غطفان التي اشتركت مع الأحزاب وحاولت مساعدة يهود خيبر، ومن القبائل التي أظهرت عداوتها قبيلة ثقيف وذلك بعد فتح مكه فتآزرت هوازن وثقيف على مهاجمة الرسول قبل أن يبدأ بمهاجمتهم غير أن حلفهم قد هزم في حنين، فأسلمت هوازن وامتنعت ثقيف داخل حصون الطائف ثم عادت وأعلنت اسلامها بعد أن رأت أن لا طاقة لها بقتال العرب.

لقد كان انتصار الرسول على قريش هوانتصار على القبائل الأخرى، لقد وقفت قوة قريش حاجزا ماديا أمام انتشار الاسلام فما أن تهاوت حتى غلب سائر العرب[5].

بعث الرسول بعد فتح مكه حملات الى قضاعة وبلي وعذره وجهينه واحبط محاولة رفاعه بن قيس لتجميع القبائل القيسية لمحاربته، كما بعث بكتب الى القبائل الأخرى يدعوها الى الاسلام أو الحرب.

وكما كانت العصبية القبلية وعصبية التقاليد سببا في عدم قبول القبائل لدعوة الرسول، فقد كانت هذه سببا لمواصلتهم لمقاومة الدعوة الاسلامية. وقد ظهر ذلك على لسان بعض زعمائهم ومنهم.

---

(١) ابن هشام، السيرة ٢/٢٩٠.
(٢) الطبري، تاريخ ٢/٥٥٥.
(٣) ابن هشام، السيرة ٢/٣٠٨.
(٤) الواقدي، المغازي ٢/٥٧٤، ٥٧٥.
(٥) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ٩.

الاقرع بن حابس التميمي: جاء الى الرسول يوما وقال له: إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينه، ولما أخبره الرسول بأنهم أفضل من تميم قال خابوا وخسروا، وفضّل أن يكون في النار مع قومه على أن يكون مع هؤلاء في الجنة[1].

وقد كان الرسول " ﷺ " يداري الأقرع خوفا من أن يفسد عليه خلقا كثيرا[2].

عامر بن الطفيل: لما قيل له أسلم فان الناس قد أسلموا أجاب: والله لقد كنت ألا انتهى حتى تبلغ العرب عقبي، فأتبع أنا عقب هذا الفتي من قريش[3]. وتقدم بطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون له الوبر وللرسول المدر فلما رفض الرسول ذلك هدده قائلاً: لأملأنها عليك خيلا ورجالاً[4].

عيينه بن حصن الفزاري: لم تطعه نفسه للاسلام لأنه لا يرى أن يكون تابعاً لغيره، كما أن المسلمين - وحسب رأيه- يزرون بمن جاء بعدهم، ولا مكانة إلا لمن شهد بدرا وغيرها من الوقائع الأولى[5]. وحسده هذا دفعه للتحالف مع كل مناوئ للمسلمين فقد اشترك في الاحزاب لأجل تمر المدينة، واشترك في حصار ثقيف من أجل الحصول على جارية علّها تلد له رجلاً لأن ثقيفا قوم مناكير[6].

ولعبت عصبية التقاليد دورا في صد البعض عن الاسلام، فقد جاء قيس بن شراحيل الجعفي ومعه مسلمه بن يزيد الى الرسول حتى يسلما فسألا عن أمهما التي وأدت بنتا في الجاهلية فقال الرسول هي في النار، فقاما مغضبين. فناداهم الرسول ﷺ وقال لهما أمي مع امكما، فأبيا ومضيا وهما يقولان: والله إن رجلا اطعمنا القلب (وكانوا يحرمون القلب في الجاهلية) وزعم أن امنا في النار لأهل ان لا يتبع[7].

---

(١) جامع الأصول ١٣٥/١٠.
(٢) الروض الأنف ١٨٧/٢، ١٨٨.
(٣) الأصفهاني، الاغاني ٣٠٤/١٥ (بيروت).
(٤) ابن هشام، السيرة ٥٦٨/٢.
(٥) الواقدي، المغازي، ٧٢٩/٢، ٧٣٠.
(٦) ابن الأثير، الكامل ١١١/٢.
(٧) ابن سعد، الطبقات ٣٢٤/١، ٣٢٥.

استطاع الرسول بحسن معاملته لهؤلاء الزعماء ان يكسب إسلامهم وإسلام قبائلهم معهم، فمالك بن عوف يقول قبل حنين: ان محمدا لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وانما كان يلقى أقواما أعجازا لا علم لهم بالحرب، لكن هذا الموقف تغير بعد أن أعطاه الرسول مائة ناقة، فقال الرسول ﷺ: ما إن رأيت ولا سمعت بما أرى في الناس كلهم مثل محمد[1].

وكانت معاملته لأخت عدى بن حاتم الطائي سببا في عودة عدي واعلان اسلامه ورافق حسن المعاملة أن الرسول اصبح يملك من القوة العسكرية ما جعلها تحطم اكبر التجمعات القبلية التي شهدتها الجزيرة العربية فأصبح كل مخالف له أوخارج عليه ضعيفا عديم التأثر[2].

وارتبط الرسول ايضا مع عدد من القبائل برابط المصاهرة مثل خزاعة وكلاب وسليم وكندة وكلب[3].

وبحسن المعاملة وخوف القبائل اقبلت هذه القبائل تعلن اسلامها حتى أن السنة التاسعة من الهجرة سميت بعام الوفود.

والواقع أن وفود القبائل قد بدأت منذ السنة الخامسة للهجرة، فكان أول من وفد منها وفد نصر من مزينه فجعل الرسول الهجرة لهم في دارهم، ثم وفد سعد بن بكر برئاسة ضمام بن ثعلبه[4] ووفد سليم الذي اشترط الا يكون لواؤهم احمرا ومقدما وقد شهدوا فتح مكه وحنينا وهم في مقدمة القبائل[5].

ومن القبائل التي قدمت سنة ٩هـ رهط من بني أسد، وقد أخذ هؤلاء يمنون باسلامهم على الرسول وقالوا: أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث لنا بعثا فنزل قوله تعالى «يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم»[6] وكان مع بني

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب ٣/ ٢٨٠ بهامش الاصابة.
(٢) أرنولد، الدعوة الى الاسلام ٥٩.
(٣) ابن حبيب، المحبر ٨٠، ٩٨.
(٤) ابن هشام، السيرة ٥٧٣/١.
(٥) ابن سعد، الطبقات ٣٠٨/١.
(٦) سورة الحجرات الآية ١٧.

أسد قوم من بني الزانيه فغير اسمهم إلى بني الرشيدة، إلا أنهم رفضوا وقالوا: لا نكون مثل بني محوله يعنون بنو عبد الله من غطفان الذين قبلوا بتغيير اسمهم[1].

وجاء وفد تميم وهو يحمل تقاليده الجاهلية فطلب اجراء مفاخرة بين شاعرهم وخطيبهم وشاعر الأنصار وخطيبهم فأسلموا بعد أن تفوق عليهم شاعر المسلمين وخطيبهم[2]. وقدم وفد من بني فزاره عليهم خارجه بن حصن فشكو جدب بلادهم فدعا لهم الرسول بالمطر فأمطرت السماء وقدم بنو مره وعليهم الحارث بن عوف[3].

وجاء وفد بني عامر وفاوض رئيسه عامر بن الطفيل أن يكون له الوبر وللرسول المدر، فقال له الرسول بل اجعل لك أعنة الخيل، فرفض عامر ذلك وهدد الرسول بأنه سيملأها عليه خيلا ورجالا، ثم عاد الوفد مرة ثانية وأعلن اسلامهم[4]. وتتابعت وفود ثقيف، وبكر بن وائل، وتغلب، وحنيفة، واليمن، والازد، وطيء، وكلب، ومذحج، وكنده وكان وفد النخع هو آخر الوفود وذلك سنة ١١هـ.

وحتى تكمل وحدة الجزيرة العربية بعث الى القبائل التي لم ترسل وفودا عنها يخيرهم بين الاسلام أو الحرب، فبعث هذه القبائل منذ وبين عنها كجذام وأهل جُرش.

وبعد هذا الاستعراض لمراحل الدعوة الاسلامية هل استطاع الاسلام ان يقضي على العصبية القبلية؟

من خلال الحوادث التاريخية، نرى أن الاسلام وبالرغم من نزول آيات تنهى عن العصبية، وأحاديث عدة تندد بها، إلا أنه لم يستطع القضاء عليها، أو أن يستأصلها من نفوس العرب، وكل ما فعله الاسلام هو التخفيف من شدة وطأتها والى حين.

وكانت العصبية تظهر بين فترة وأخرى في حياة الرسول، فظهرت بين الأوس والخزرج. وظهرت بين المهاجرين والانصار - عدة مرات، فيوم فتح مكه، ظن بعض الانصار ان الرسول سيعود الى قومه، ويوم حنين، اعتبروا عطاء المؤلفة قلوبهم بأنه

---

(١) ابن سعد، الطبقات ٢٩٢/١.
(٢) الاستيعاب ٣٤٢/١ = ٣٤٣، بهامش الاصابة.
(٣) ابن سعد، الطبقات ٢٩٧/١، ٢٩٨.
(٤) المصدر السابق ٣١٠/١.

عصبية لقومه، وعندما بعث علي بن أبي طالب مالا من اليمن وقسمه الرسول بين عيينه بن حصن وعلقمه بن علاثة والأقرع بن حابس، وزيد الخيل الطائي، غضبت الأنصار، وغضبت معهم قريش وقالوا: يعطى صناديد أهل نجد ويدعنا[1].

لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى بعدم محاباة بني هاشم فلم يؤثرهم على من هو أفضل منهم ولم يول احدا منهم إلا بما هو أهل له[2].

ونشأ بجانب العصبية القبلية عصبية السبق الى الاسلام فالمسلمون الأوائل كانوا في بداية الأمر لا يقاعدون أبا سفيان، فطلب أبو سفيان من الرسول أن يؤمره على قتال الكفار حتى يكون له أثر في الاسلام[3].

ومر أبو سفيان يوما على مجلس فيه بلال وصهيب وسلمان فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله فأخذها بعد، فسمعها أبو بكر فقال لهم: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها. وانطلق ابو بكر وأخبر النبي بذلك فقال له: لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك، فعاد أبو بكر مسرعا اليهم يعتذر عما حصل منه[4].

وعكرمه بن أبي جهل كان كلما مر على مجلس من مجالس الأنصار قالوا: هذا ابن أبي جهل فيسبوه، فجاء الى النبي وشكاله ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات[5].

وعصبية السبق في الاسلام لم تبلغ في شدتها حدود العصبية القبلية التي أخذت تظهر في أواخر حياة الرسول "ﷺ" وقد ظهرت هذه العصبية على صورة متنبئين ومن هؤلاء:

مسيلمة الكذاب في بني حنيفة، الذي أرسل الى الرسول "ﷺ" يعلن أنه قد أشرك في الأمر معه، ويذكر أن نصف الأرض لقريش، والنصف الآخر لحنيفة، فبعث

---

(١) الذهبي، تاريخ الاسلام ٢٣٣/١.
(٢) انظر: ابن حزم جوامع السير ١٧، ١٨، ٤٣.
(٣) جامع الأصول ٧٠/١٠.
(٤) البلاذري، أنساب الاشراف ٣٦٧/١، ٣٦٨.
(٥) الزبيري، نسب قريش ٣١١.

اليه الرسول " ص: بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله الى مسيلمه الكذاب، السلام على من اتبع الهدى أما بعد: فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[1].

والأسود العنسي الذي تسلح بعصبيتين الأولى ضد الأبناء وهم من الفرس الذين وجههم كسرى الى اليمن.

والثانية ضد قريش أولا وضد المسلمين ثانيا، فطالب باخراجهم من اليمن مع رد ما أخذوه من أموال القبائل اليمانية.

واستطاع الأسود العنسي أن يجمع حوله قبائل اليمن وان تستمر حركته مدة أربعة أشهر الى أن اغتاله فيروز الديلمي قبل وفاة النبي بخمسة أيام[2].

لقد عمل الاسلام جاهدا للقضاء على العصبية القبلية الا أنه لم يتمكن من ذلك، فبقيت هذه العصبية داء العرب الذي لا داء له. وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام أربعة في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الاحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة[3].

(١) الطبري، تاريخ ١٤٦/٣.
(٢) الطبري، تاريخ ٢٢٩/٣.
(٣) جامع الأصول ٢٤١/١٢.

الفصل الثالث
العصبية القبلية في عهد الخليفتين: أبو بكر وعمر

أ- في عهد أبي بكر .

التنافس على الخلافة .

القبلية وحروب الردة.

ب- المظاهر القبلية في عهد عمر بن الخطاب .

القبلية والنظام الحربي.

القبلية وتخطيط المدن.

القبلية وديوان العطاء.

موقف عمر من العصبية.



أ- في عهد أبي بكر:

التنافس على الخلافة:

رأينا في الفصل الثاني أن الاسلام لم يستطع أن يستأصل روح العصبية القبلية من نفوس القبائل، وكل ما فعله الاسلام أنه استطاع أن يخفف من ويلاتها وشرورها،

وما أن انتقل الرسول ﷺ الى جوار ربه حتى ظهرت العصبية القبلية من جديد، بعد أن انحدرت الى العقل الباطن في عهده[1] وتمثلت هذه العصبية بأمرين: التنافس على الخلافة وردة القبائل العربية.

أما التنافس على الخلافة فقد ظهر بين المهاجرين والأنصار، بل وتعدى ذلك إلى التنافس بين البطون.

كان العباس هو أول من نبه الى شأن الخلافة حيث جاء الى علي وأشار عليه أن يسأل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، أهو في بني هاشم أم في غيرهم؟ لكن عليا قال: "والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا" ورفض أن يسأل رسول الله عنها[2].

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يعين خليفة بعده، ونستنتج من ذلك انه لم يكن يرغب في تقييد المسلمين بقوانين قد تثبت مع الأيام انها لا تتناسب والاوضاع المتطوره، ومن هنا حرص المشرع على أن تبقى القوانين الاسلاميه متطورة ملائمة لكل الظروف وصالحة لكل زمان ومكان[3].

ويؤكد هذا الرأي أن رسول الله لم يمت فجأة، بل كان يأتيه بلال في كل يوم وهو في مرضه يؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس[4].

---

(١) الطيب النجار، الموالى في العصر الاموي ١٨.
(٢) الطبري، تاريخ ١٩٣/٣، ١٩٤.
(٣) انساب الاشراف ٥٨٣/١.
(٤) محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية، لجنة البيان العربي ١٩٥٢: ٢١.

وبعد وفاة رسول الله حاول العباس مرة ثانية ان يأخذ البيعة لابن أخيه الا أن عليا رد عليه هذه المره قائلا: أو منهم من ينكر حقنا ويستبد علينا[1]. وموقفه هذا يختلف عن الموقف السابق ففي المرة الأولى، رأى أن الأمر في هذا الشأن هو للأمه، أما الآن فهو يتصور بأنه أحق الناس في هذا الشأن.

وبينما كان المهاجرون مشغولين في تجهيز رسول الله، ﷺ اذ نبأ اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعده يصل الى أسماعهم، فنهض أبو بكر وعمر وتوجها اليهم، وفي الطريق التقيا بأبي عبيده، واتجه الثلاثة الى سقيفة بني ساعده.

مؤتمر السقيفة:

اجتمع الأنصار بعد وفاة الرسول ﷺ في سقيفتهم للبحث في أمر الخلافة، ويعتقد أنه لهذا الأمر جذوراً سابقة، وفكر فيه من قبل، ولعل طموح سعد بن عباده، سيد الخزرج هو الذي أوحى الى الأنصار لهذا الاجتماع حتى يظفر بالخلافة قبل ان يظهر من يزاحمه[2].

وفي اجتماع الأنصار نهض خزيمه بن ثابت وبين فضل الأنصار وتضحياتهم للاسلام وحث قومه على اجتماع كلمتهم لاختيار رجل تهابه قريش، وتأمنه الأنصار. واتفقت كلمتهم على ترشيح سعد بن عباده[3].

واختيار سعد هذا هو نابع من الأعراف والتقاليد القبلية، فهو المقدم في الخزرج، والعادة القبلية ان يكون المقدم هو السيد المطاع.

وبعد أن رشح سعد، خطب في قومه، وبيّن الحجج التي تؤهل الأنصار لطلب الخلافة[4]، ومنها سابقة الانصار في نصرة الدين، وهذه لا تتوفر لأي قبيلة أخرى، يضاف اليها أن الرسول أمضى في قومه ثلاث عشر سنة فلم يجد عندهم النصرة الا من عدد قليل منهم، وما كان باستطاعة هؤلاء أن يمنعوه، وان يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عنه الضيم.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/٩.

(٢) محمد ضياء الدين، الريس، النظريات السياسية ٢١، ٢٢.

(٣) ابن اعثم، الفتوح ٣/١.

(٤) ابن قتيبة، الامامه والسياسة ١٣/١.

وبين الأنصار أيضاً أنهم أهل الدار، والمهاجرون طارؤون عليهم، واذا كان المهاجرون يدلون بالسابقة فهم يعترفون بأن الرسول ﷺ قد مات وهو عنهم راض.

وحجج الأنصار هذه فيها مسحة قبلية. فمن الناحية الاسلامية ما ذكره سعد بن عباده أما من الناحية القبلية فهم لا يرون ان يكون صاحب الأمر عليهم من غير أنفسهم.

وبعد اجتماع الأنصار جاء أبو بكر الى السقيفه وقد ظهر عليه الفزع الشديد[1] فدخل السقيفه ومعه صاحباه وهناك أخذ كل من الطرفين يدلي بحججه لينال الخلافة.

قام أبو بكر فبين أسباب مطالبة المهاجرين بالخلافة وهي: ان المهاجرين هم أول الناس اسلاما، والناس لهم تبع، وهم عشيرة الرسول، وأوسط العرب أنسابا ليست قبيلة من قبائل العرب الا ولقريش فيها ولاده، وبين في كلمته أيضا فضائل الأنصار ونصرتهم للاسلام[2].

وفي حجج أبي بكر أيضا مزج بين التقاليد القبلية والنواحي الاسلامية، فمن الناحية الأولى أن قريشاً هم عشيرة الرسول، وهم أقرب الناس رحما اليه، ولما كانت النبوة فيهم، فالخلافة يجب ان تكون لهم أيضا.

ومن الناحية الاسلامية، هم أقدم الناس سابقة في الاسلام، وعلى اكتافهم انتشر الاسلام ومن أجله ذاقوا صنوف الأذى والعذاب. وقد قدم هذا على التقاليد القبلية.

وبعد أبي بكر قام الحباب بن المنذر، فذكر بأن الأنصار أهل العز والثروة وأولوا العدد والمنعة وهم أهل الدار، وبسيوفهم خضعت العرب للاسلام، واقترح أن يكون الأمر بين الأنصار والمهاجرين، وحجته في ذلك إن عمل المهاجري شيئا في الانصار رد عليه الانصاري وان عمل الانصاري بالمهاجرين شيئا رد عليه المهاجرين[3]. والأمر الثاني خوف الانصار من أن يلي الأمر من قريش ممن قتل الانصار آباءهم أو إخوانهم[4].

(١) ابن قتيبة، الامامه والسياسة ١٣/١.
(٢) المصدر السابق ١٤/١.
(٣) البلاذري، أنساب الاشراف ٥٨١/١.
(٤) ابن سعد، الطبقات ١٨٢/٢.

وفي قول الحباب هذا مسحة قبلية شامله، وكأنه قد تصور ان أمر الخلافة سيأخذ بالقوة، وقام عمر بن الخطاب بعد الحباب، وعرض بأن العرب لا تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، وأولوا الأمر منهم، وذكر أن قريشا هم أولياء الرسول وعشيرته[1]. وموقفه هذا أيضا فيه أمور وتقاليد قبلية وهي أن قريشا هم أمس الناس رحما برسول الله، وهم أولى بهذا الأمر من غيرهم، وأن العرب لا تقبل بخليفة من الأنصار، انما تقبل به اذا كان من قريش لأن النبوة كانت فيهم.

وبعد هذه المقاله اخذت الحمية الحباب بن المنذر وقال: يامعشر الانصار املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم الأمر فأنتم أحق بهذا الأمر منهم[2] وقال أيضا: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، ان شئتم فرددناها جذعة من ينازعني[3].

وهنا كثر اللغط بين الناس، وكادت الفتنة أن تقع بين الأنصار والمهاجرين فقام أحد الخزرج وهو بشير بن سعد فأيد مطالب المهاجرين، وحذر قومه من تبديل النعمة بالكفر، وذكر ان قريشا هم أحق الناس وأولى بالأمر، ولا يجوز منازعتهم في هذا الأمر[4].

وذكر ابن قتيبة أن بشيرا قال بذلك حسدا لسعد، لأن بشيرا كان من سادات الخزرج، فلما رأى ان الأمر سيصير إلى سعد قام وانحاز الى جانب المهاجرين. ولما رأى الحباب ذلك تقدم الى بشير وقال له: عقك عقاق، ما اضطرك الى ما صنعت؟ حسدت ابن عمك على الأماره، فأجابه بشير لا والله ولكني كرهت ان أنازع قوما حقا لهم[5].

وأمام انشقاق جبهة الأنصار، تقدم المهاجرون ليبايعوا رجلا منهم، فوقع الاختيار على أبي بكر، وكان اختياره لأسباب اسلاميه بحته وهي سابقته في الاسلام وأمامته للمسلمين بالصلاة، فالرسول ارتضاه للدين والمسلمون ارتضوه للدنيا.

(1) ابن قتيبة، الإمامه والسياسة ١/١٥.
(2) الطبري، تاريخ ٣/٢٢٠، ٢٢١ ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/١٠.
(3) البلاذري، أنساب الاشراف ١/٥٨١.
(4) الطبري تاريخ ٣/٢٢١، ابن اعثم، الفتوح ١/١٣.
(5) ابن قتيبة، الامامه والسياسة ١/١٦.

ولما رأى الحباب أن الأمر افلت من يد الأنصار، أخذ سيفه، إلا أن الأنصار منعته فقال: فعلمتوها يا معشر الانصار، أما والله لكأني بأبنائكم على أبواب ابنائهم وقد وقفوا يسألونهم بأكفهم لا يسقون الماء، فقال له أبو بكر، أمنا تخاف يا حباب؟ قال ليس منك اخاف ولكن من يجيء بعدك[1].

ولما رأى سعد بن عباده أن البيعة قد تمت لأبي بكر قال: أما والله لو أن لي ما أقدر به على النهوض، لسمعتم مني في أقطارها زئيرا يخرجك أنت (أبو بكر) وأصحابك ولألحقنك بقوم كنت بينهم، تابعاً غير متبوع خاملا غير عزيز[2]. وكادت أن تحدث مشادة بينه وبين عمر بن الخطاب، الا أن أبا بكر قال مهلا يا عمر، الرفق ها هنا أبلغ فأعرض عنه عمر.

وقد اختلف في أمر بيعته فبعض الروايات تذكر انه لم يبايع، وقال والله لا أبايع لقريش أبداً[3]. والأخرى تذكر أنه بايع تحت ضغط الأنصار والمهاجرين وهذا هو الأرجح اذا أخذنا بنص في الطبري مؤداه أنه لم يتخلف عن البيعة الا مرتد ومن قد كاد أن يرتد[4].

لعبت العصبية في موقف الأنصار من طلب الخلافة دورا بارزا، فعندما سمعت الأوس- ان الخزرج تطلب الخلافة لنفسها قام أسيد بن حضير وقال: يا معشر الأنصار، إنه قد عظمت نعم الله عليكم اذ سماكم الانصار وجعل اليكم الهجرة وفيكم قبض الرسول .... فان هذا الأمر في قريش دونكم فمن قدموه فقدموه، ومن أخروه فأخروه[5]. فقام نفر من الأنصار وأغلظوا له في القول وأسكتوه، وربما كان ذلك هو السبب الذي دعى اسيد ومعه قومه ان ينحاز الى جانب المهاجرين[6].

---

(١) ابن قتيبة، الامامه والسياسة ١/١٧.
(٢) المصدر السابق ١/١٧.
(٣) البلاذري، انساب الاشراف ١/٥٨٩.
(٤) الطبري، تاريخ ٣/٢٠٧.
(٥) ابن اعثم، الفتوح ١/٣.
(٦) ابن هشام، السيرة ٢/٦٥٦.

وتبنت الأوس ذلك خوفا من أن يفوز بها الخزرج دونهم، وجاء ذلك على لسان أسيد بقوله: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً[1].

وزاد من انقسام جبهة الانصار أن انشق بشير بن سعد على سعد بن عباده وطالب بأحقية المهاجرين بالخلافة، وهكذا جاءت جبهة الأنصار غير متحده في طلبها للخلافة، وقد شعر سعد بذلك عندما اقترح بعض ألانصار أن يكون الأمر مناصفة بين المهاجرين والأنصار فقال سعد: هذا أول الوهن[2].

أما قريش فلم تظهر فيها الانقسامات وجاءت متحدة تطلب الخلافة لنفسها، وفي دعوتها هذه جمعت بين المعيارين الاسلامي والقبلي، فالاسلامي هم أول الناس اسلاما، واكثرهم تضحية من اجله.

والقبلي، أن النبوة في قريش، والعرب لا تعترف بخليفة الا اذا كان منهم كما تسلحوا بالحديث "الأئمة من قريش".

والحديث هذا صحيح رواه نحو من أربعين صحابيا وثمانيه من التابعين واثنين من تابعي التابعين[3]. كما ورد أيضا في الفاظ مختلفة، أو جميعها تؤكد احقية قريش بالخلافة[4]. لكن اذا نظرنا الى هذا الحديث من زاوية أخرى لجد أنه يخالف الايات والاحاديث التي تحث على المساواه، وتطلب عدم التفرقة بين المسلمين. فهل هذا الحديث جاء يخالف لهذه الآيات أم أنه جاء بمعنى آخر.

ان رسول الله وكما رأينا في الفصل الثاني لم يخص قوما دون قوم، ولا قرب قبيلة دون قبيلة أخرى، ولم يؤثر عنه أنه فضل قريشا على غيرها من القبائل، ومن هنا يمكن القول ان الحديث ما جاء ليخصص الأمر في قريش دون غيرهم من الناس، وانما جاء ليخبر بأن الأمر سيكون في المهاجرين الأولين من قريش ويستدل على ذلك من:

---

(١) نهج البلاغة ٦/٢.
(٢) الطبري، تاريخ ٢١٩/٣.
(٣) السيرة الحلبية ٤٨٠/٢.
(٤) انظر كنز العمال ١٧/٣. طقبات الشافعية ١٠٣/١.

وصية الرسول الى المهاجرين وحدهم دون قريش كلها، ويؤيد ذلك ما جاء على لسان ابي بكر في السقيفه مثل: نحن الامراء وانتم الوزراء (فنحن) الضمير انما يعبر عن المهاجرين دون غيرهم وأنتم يعبر عن الأنصار[1] - وفي الآية الكريمة «والسابقون السابقون اولئك المقربون»[2] فالسبق هو الذي قدم قريشا، ولم يقدمها شيء آخر.

أما ابن خلدون فقد اعتبر علل اشتراط النسب لأن الحماية والمطالبة لا تكون الا به، وقريش كانت عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر بالعزة والكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك[3]. وهذا القول لا ينطبق تماما على بيعة أبي بكر وذلك لأننا نسمع رجلا من غير قريش أو الأنصار هو معن بن عدي العجلاني من قضاعة يقول: . . . . فوالله ما مات رسول الله ﷺ حتى صلى بنا أبو بكر فعلمنا أنه قد رضيه لنا، لأن الصلاة عماد الدين[4].

ومما يضعف من رأى ابن خلدون أن القبائل العربية جميعها قد هبت دفعة واحدة غير معترفة لقريش بهذا الأمر وقد جاء ذلك من القبائل المضرية واليمانية ونحن اذا نظرنا الى قريش في الجاهلية نرى أنها لم تعز بسبب كثرتها وقوتها، بل عزت بوجود البيت بها، فبالبيت كانت تفتخر على القبائل الأخرى، وبه كانت تحتمي. ثم ان قريشا كانت من أمهر القبائل التجارية في الجزيرة، فارتبطت مع عدد من القبائل برباط الحلف والموادعة والمصاهرة فأحترمتها القبائل العربية.

وكما قام المهاجرون الأولون يطالبون بالخلافة، فقد آزرهم مسلمة الفتح من قريش عصبية لقومهم ومن هؤلاء المنادين بالخلافة الى قريش هم:

الحارث بن النضر السهمي[5]: قال شعرا يطالب فيه بالخلافة لقريش. وقال أيضا اتقوا الله يا معشر الأوس والخزرج واخشوا عواقب الأيام.

(١) الريس، النظريات السياسية ١٩٤-١٩٦
(٢) سورة الواقعة الآية ١٠، ١١.
(٣) ابن خلدون، المقدمة ١٩٥.
(٤) ابن اعثم، الفتوح ٥/١.
(٥) ابن حجر العسقلاني: الاصابة ٢٩١/١.

سهيل بن عمرو[1]: قال لقريش: ادعوهم الى صاحبكم (أبو بكر) والى تجديد بيعته فان أجابوكم وإلا قاتلوهم.

الحارث بن هشام[2]: ليس بيننا وبينهم إلا السيف.

عكرمه بن أبي جهل[3]: لو لم يبق من قريش كلها إلا رجل واحد لصير الله هذا الامر إليه.

أبو سفيان[4]: ليس للأنصار - ان يفضلوا على الناس حتى يقروا بفضلنا عليهم.

المنافسة بين بطون قريش:

لما علمت قريش بأمر السقيفه، انقسمت بطون قريش فكان بنو هاشم ومعهم الزبير منشغلين بتجهيز الرسول ﷺ، أما بنو أميه فقد انحازت الى عثمان، وزهره الى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. أما أبو بكر وعمر وأبو عبيده فقد ذهبوا الى السقيفه، ويرجح عدم ذهاب قريش معهم الى السقيفه خوف حدوث فتنة بين قريش والأنصار، ولذلك اكتفت بالثلاثة الذين ذهبوا الى السقيفة.

وبعد بيعة أبي بكر جاء عمر الى قريش وقال لهم بايعوا لأبي بكر فقد بايع له الناس وبايعه الأنصار فقامت بطون قريش تبايع لأبي بكر.

وقد أظهر بنو عبد مناف نوعا من عدم الرضا عن هذه البيعة وجاء ذلك على لسان عدد منهم:

أبو سفيان: يذكر أنه يوم وفاة رسول الله لم يكن في المدينة، ولم يعلم بموته الا وهو في طريقه الى المدينة، وعندما علم ببيعة الناس لأبي بكر قال: ما فعل المستضعفان علي والعباس؟ أما والله لئن بقيت لهما لأرفعن من أعقابها. وقال أيضا أرى غبرة لا يطفئها الا الدم. وعندما وصل المدينة اخذ يطوف في أزقتها يردد أشعارا يحرض بها بني هاشم على القيام للمطالبة بالخلافة. فقال عمر لأبي بكر: ان هذا قد قدم وهو فاعل شر

(١) نهج البلاغة ١٤/٢.
(٢) المصدر السابق ٤/٢.
(٣) المصدر السابق ٤/٢.
(٤) المصدر السابق.

وقد كان النبي يتألف على الاسلام، فترك له أبو بكر ما بيده من الصدقة فرضى أبو سفيان وبايع لأبي بكر[1].

ومطالبة أبي سفيان بالخلافة لعبد مناف استندت إلى تقاليد جاهلية، فتيم كانت اقل البطون القرشية مكانة[2] والزعامة كانت لعبد مناف فاستغرب أبو سفيان أن تذهب اليهم.

لقد جاء أبو سفيان الى علي وحاول أن يقنعه للقيام بطلب الخلافة، الا أن عليا رد عليه " إنك والله ما أردت بهذا إلا فتنة وإنك والله طالما بغيت بالاسلام شرا ولا حاجة لنا في نصيحتك"[3]. ولما وجد أن لا حركة منه اتجه الى العباس، وكان جواب العباس يدفعها علي وأقبلها أنا، وهكذا فشل أبو سفيان في مسعاه لطلب الخلافة لبني عبد مناف.

خالد بن سعيد بن العاص: قدم من اليمن بعد وفاة الرسول فجاء الى علي وعثمان وقال لهما: انتما الشعار دون الدثار، أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي امركم عليكم غيركم. فقال علي أو غلبة تراها! انما هو امر الله يضعه حيث يشاء. ولم يبايع خالد الا بعد مرور عدة أشهر[4]. ويذكر أيضاً أن أولاد سعيد بن العاص وهم عمرو وخالد وابان قد رجعوا من ولاياتهم وقالوا نحن بنو أبي احيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله[5].

وتظهر أهمية موافقة بني عبد مناف من قول أبي قحافة، فما أن سمع بأن ابنه انتخب خليفة حتى قال: افرضي بذلك بنو عبد مناف وبنو مخزوم فقالوا نعم. قال: فأنه لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع[6].

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/١٠.
(٢) البلاذري، انساب الاشراف ١/٥٨٨.
(٣) الطبري: تاريخ ٣/٢٠٩، وانظر الأصفهاني، الاغاني ٦/٢٠١، ونصرة المذاهب الزيدية، مخطوط مصور بجامعة الدولة العربية تحت رقم ١٩٧ ملل.
(٤) ابن سعد، الطبقات ٤/٩٧، البلاذري، انساب الاشراف ١/٥٨٨.
(٥) المقريزي، النزاع والتخاصم، ٣٠.
(٦) ابن سعد، الطبقات ٣/١٨٣، البلاذري، انساب الاشراف ١/٥٩٠.

واذا قام بنو عبد مناف وخاصة بنو أميه يطلبون الخلافة لبطنهم فقد رأى رجال من بني هاشم أن تكون الخلافة لهم، وظهر ذلك من تطلعات العباس للخلافة قبل وبعد وفاة رسول الله " صلى الله عليه وسلم " وعندما بويع لأبي بكر جاء الى علي وقال له: ما قدمتك الى شيء الا تأخرت عنه[1].

ولما بويع أبو بكر قام عتبه بن أبي لهب وقال: ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن[2]. والفضل بن العباس قال لتيم: انما اخذتم الخلافة بالنهوة، وبنو هاشم أولى الناس بها[3].

أما علي فقد اختلفت الروايات في موقفه من بيعة أبي بكر فبعضها ذكر انه بايع بعد بيعة أبي بكر مباشرة والبعض الآخر بعد مرور ستة أشهر على خلافته.

أما الرأي الأول فأورده الطبري عن سيف بن عمر وقال: يوم مات رسول الله كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة . . . ولم يتخلف عليه احد الا مرتد أوكاد أن يرتد . . . وتتابع المهاجرون على بيعته، فخرج (علي) في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلا، كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث الى ثوبه فأتاه فجلله ولزم مجلسه[4].

الرأي الثاني: أنه لم يبايع الا بعد موت فاطمة وبعد مرور ستة أشهر بالتحديد وفي هذا مبالغة أيضاً، فعلى رفض اقتراح العباس، كما هاجم مشروع أبي سفيان بل ونسمع أنه لما سئل عن بيعته لأبي بكر قوله " رضي المسلمون لدنياهم من رضيه الرسول لدينهم فبايعوه وبايعته[5].

ومن القرائن الدالة على بيعته قبل هذه المدة أن أبا بكر جعل عليا ومعه بعض الصحابة والأنصار أمر حراسة المدينة خوفا من غزو المرتدين، فاذا كان علي لم يبايع له فكيف أمن أبو بكر جانبه ووضعه على الأنصار.

(١) البلاذري، انساب الاشراف ٥٨٣/١.
(٢) اليعقوبي، تاريخ ١١٤/٢.
(٣) نهج البلاغة ١٣/٢.
(٤) الطبري، تاريخ ٢٠٧/٣.
(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٩/٥، أبو هلال العسكري، الأوائل ١٧٤ .

ومما تقدم أرى أن عليا لم يبايع في البيعة الخاصة والتي كانت في اليوم الأول، وانما بايع في اليوم الثاني وهي التي سميت بالبيعة العامة. ويذكر المسعودي أن عليا قال لأبي بكر يوم جددت البيعة على العامة: أفسدت أمورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقا، فقال أبو بكر بلى ولكن خشيت الفتنة[1].

ومما يؤيد ذلك ما ذكره العشاري[2] من أن عليا قال: والله لو عهد إلي رسول عهدا لجاهدت عليه، ولم أترك ابن أبي قحافة يرقى درجة على منبر رسول الله. وموقف علي هذا يدحض ما ذكره ابن أبي حديد من أن عليا قال: اما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى[3]. وما ذكره أيضاً من أن عليا أمر زوجته بالطواف على الأنصار تسألهم نصرة على، وأن الانصار كانت تقول قد مضت بيعتنا لهذا الرجل[4].

مما تقدم نستنتج أن انتخاب أبي بكر قد خضع لاتجاهات اسلامية بحته فهو من السابقين الأولين، ونائب الرسول على الصلاة ورفيقه في الهجرة. وبانتخاب أبي بكر حلت المسألة الأولى التي واجهت المسلمين، كما أنهم باتحاد كلمتهم استطاعوا ان يعيدوا القبائل المتمرده الى سلطان المدينة.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ٢/ ٣٠١.
(٢) فضائل أبي بكر، مخطوط مصور بجامعة الدولة العربية تحت رقم ٣٦٥ت.
(٣) نهج البلاغة ١/ ٧٣.
(٤) المصدر السابق ١/ ٧٣.

القبلية وحروب الردة:

كانت ردة القبائل ردة سياسة، حركتها نزوات قبلية قبل ان تكون ردة دينية فالقبائل رأت خلافة أبي بكر وزعامة قريش ضربا من الاستعباد تأباه الأنفة العربية. ويضاف الى ذلك أن القبائل العربية وحسب عرفها- قد خضعت لشخص الرسول ولم تخضع لأبي بكر، وما الوعود التي قطعتها هذه القبائل للرسول، الا وعودا شخصية انتهت بوفاة الرسول" صلى الله عليه وسلم" ولم يعد هناك ما يربطها مع أبي بكر من شيء.

أما الخليفة فقد اعتبر خروج القبائل عليه هو خروج عن الدين، والاسلام يقضي إعادتهم الى حظيرة الاسلام مهما كان التضحيات. وقد كان هذا الحزم من قبل الخليفة هو السبب المباشر في إعادتهم الى حظيرة الاسلام.

وأحست قريش أن الردة موجهة اليها والى سلطانها بالدرجة الأولى وقد جاء ذلك على لسان عمر لبعض الصحابة: ... إنكم قلتم ما أخوفنا على قريش من العرب، وأخلفهم ألا يقروا بهذا الأمر، قالوا صدقت. قال فلا تخافوهم، أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لا تدخلون معاشر قريش جحرا لدخلته العرب في آثاركم، فاتقوا الله فيهم[1].

وإذا استعرضنا أسباب الرده لجد أنها ترجع الى عوامل عديدة منها: عدم تمكن الاسلام عند القبائل المرتده. لقد سميت السنة التاسعة من الهجرة بعام الوفود وذلك لكثرة من وفد من هذه القبائل على المدينة لتعلن اسلامها، وتقديم الولاء للرسول ﷺ. ونظرا لقصر الفترة الزمنية التي قضاها الرسول بعد عام الوفود فقد أبقى التنظيمات القبلية على حالها، كما ترك لهذه القبائل الحرية التامة في اختيار رؤسائها وجاء ذلك من قوله لبني سليم: اجعلوا رأسكم على ما كانت في الجاهلية، وقودوا عليكم من كان يقودكم في الجاهلية[2].

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٤/٩١.

(٢) ابن حبيب، المحبر: ٥٠.

لقد ترك الرسول * صلى الله عليه وسلم * القبائل على شأنها، ولم ينشىء ادارة مركزية تجمع هذه القبائل، وكل ما قام به أنه أرسل ممثلا عنه الى هذه القبائل حتى ينشر الاسلام ويعلمه للقبائل. وفي مرات اخرى حتى يجمع الصدقات، بل وفي حالات كثيرة كان جامع الصدقات من القبيلة نفسها.

وعلى أية حال كان ارسال هؤلاء المبعوثين، ما هو إلا خطوة أولية نحو الحد من القبلية شيئا فشيئا، كما أنه بحملته التهذيبية الكبرى لتعليم مبادئ الاسلام كانت خطوة ايجابية نحو الحد من الأوضاع السابقة[1]. غير أن الفترة الزمنية وكما قلت كانت قصيرة فلم تدخل الدعوة الى أعماق القلوب.

لم يكن اسلام كثير من القبائل اسلام المؤمن بتعاليم الاسلام، بل كان اسلام من وجد نفسه غريبا في محيط أخذت القبائل فيه، تعلن ولائها للرسول * صلى الله عليه وسلم *. جاءت بعض القبائل الى المدينة، وعادت الى مواطنها وهي لا تزال تحمل معها عصبياتها الجاهلية.

وقد رأينا كيف أن بعض القبائل كانت تمن في اسلامها على الرسول، وكيف ان الاعراب كانت تبطوء على الرسول اذا دعاها الى الجهاد، والقرآن الكريم أشار لذلك بقوله تعالى: ﴿قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم﴾[2].

فالفرق واضح بين من أسلم ظاهراً، وبين من كان اسلامه عن ايمان واعتقاد. وضآلة الاسلام قد وجدت عند بعض القبائل بسبب الظروف التي رافقت اسلام هذه القبائل، فهمدان مثلا أسلمت في يوم واحد، وضمام بن ثعلبه عاد الى قومه من بني سعد، فلم يأت آخر النهار الا وقد أسلموا جميعا[3].

---

(١) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ٤٢.
(٢) سورة الحجرات الآية ١٤.
(٣) ابن هشام، السيرة ١/٥٧٣-٥٧٤.

وصور عيينه بن حصن هوية المرتدين أحسن تصوير، فعندما أحضر الى المدينة يرسف في قيده أخذ صبيان المدينة يقولون له: أكفرت بعد إيمانك، فرد عليهم والله ما آمنت بالله طرفة عين[1].

وهكذا كان اسلام القبائل هو من باب الاذعان للرسول، وليس من باب الإيمان العميق بأمر هذه الدعوة.

وسبب آخر من أسباب الرده وهو نظرة القبائل الى قريش، فقد كان حب القبائل في حكم نفسها بنفسها من الأسباب الرئيسة لهذه الرده. تطلعت القبائل الى قريش فرأت فيها قبيلة ستحكمهم، وإليها تذهب أموالهم، فاعتبرت خضوعها لها ضربا من الذله والهوان، فأعلنت القبائل ردتها.

انفرط العقد الذي قضى رسول الله في تجميعه سنوات عديدة وكانت العصبية القبلية من أقوى البواعث على انقسامه. لقد آزرت العصبية القبلية هؤلاء المرتدين واقادتهم النصرة القبلية فلم يجدوا ما يعبرون به عن ردتهم الا ظهور المتنبئين المهووسين بالزعامة.

إن هؤلاء المتنبئين هالهم وصرع لبهم ما حققه الرسول من نصر في الجزيرة العربية، فأرادوا ان يجربوا حظهم في هذا الشأن، ومن هنا قاموا بدعوة قبائلهم لمؤازرتهم، ولما كانت العصبية القبلية لا تزال تحكم النفوس، فقد أقبلت هذه القبائل من كل فج عميق حتى تقف وراء أنبيائها.

وظهر أثر الاسلام في الردة من أن المتنبئين لم يجدوا غير النبوة حتى يحققوا بها مآربهم.

فكانت الثورة على قريش، ورغبة القبائل في حكم نفسها بنفسها والعصبية القبلية من البواعث القوية على الرده، فكانت الرده ردة سياسية اكثر منها دينية.

كان موت الرسول "صلى الله عليه وسلم" ايذانا بانطلاق القبائل الى وضعها السابق فكانت بواعث روح القبلية العنيفة التي لا تؤمن بالقيادة الجماعية سببا في خروجها على سلطان المدينة.

---

(1) ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٣٥.

لقد اظهرت القبائل حسدها لقريش منذ غزوة حنين، فقد أيقنت هذه القبائل ان الزعامة قد اصبحت بيد قريش لا محاله، وعبر عن ذلك ابو ثواب زيد بن صحار أحد بني سعد بقوله:

فأصبحنا تسوقنا قريش ... سياق العير يحدوها النبيط

وأعلنت القبائل حسدها وعصبيتها ضد قريش صراحة بعد وفاة رسول الله، وجاء ذلك بصورة واضحة على لسان الشاعر الحطيئة:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكرا اذا مات بعده ... وتلك لعمري قاصمة الظهر[1]

وزاد من غضب هذه القبائل أولئك العمال الذين كانوا في خدمة المدينة فاعتبرتهم القبائل مصدرا من مصادر الازعاج وحدا من سلطة القبائل التي كانت تتمتع من قبل بكامل حريتها واستقلالها[2]. ومما يؤيد أن الردة كانت سياسة من أن عمر بن الخطاب أشار في بداية الأمر بأنه لا يجوز للدولة ان تجرد السيف على القبائل العربية، على اعتبار أن بعض المرتدين كانوا مقيمين على اسلامهم وان حركتهم كانت ذات أهداف سياسية وهناك من القبائل من اعلن وقال: والله ما كفرنا بعد ايماننا ولكن شححنا بأموالنا[3].

كانت الردة صدام بين التيار الاسلامي الذي مثلته المدينة وبين التيار القبلي المتعدد الجوانب والاهداف والذي صورته القبائل العربية المختلفة.

بدأت الردة بظهور حركة المتنبئين قبل وفاة رسول الله، ففي اليمن ظهر الاسود العنسي، وفي قبيلة حنيفة مسيلمة الكذاب. وكانت نبوة هؤلاء فتحا جديداً في عالم القبائل التي أخذت تتسابق في أظهار المتنبئين منها.

---

(١) الطبري ٣/٢٦٦، الاغاني ٢/١٥٧ (دار الكتب).

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية: ٨.

(٣) الماوردي، الاحكام السلطانية ٥٧-٥٨.

وظهرت قوة العصبية عند المرتدين أن لكل قبيلة أنبياءها الخاصين بها سواء كانوا من مضراً واليمن، واذا سارت بعض القبائل حول متنبىء بعيد عن نسبها فمرد ذلك الى المصالح الذاتية التي كانت تحكم بعض هذه القبائل أو عصبية للأحلاف كما حدث من توجه طيء إلى نبي من أسد.

القبائل المرتدة:

ارتدت معظم القبائل العربية إما ردة عامه وإما ردة خاصة، وقد امتدت هذه العدوى حتى الى مكه والطائف، أما مكه فقد قام بها سهيل بن عمرو وحذر الناس من الرده، وفي الطائف قال عثمان بن أبي العاص: يا معشر ثقيف لا تكونوا آخرالعرب اسلاما وأولهم ردة[1].

لقد ارتدت جميع القبائل ولم يبق على الاسلام الا المدينة ومكه والطائف.

جاء الصحابة إلى إبي بكر وقالوا له: ان العرب قد انتفضت عليك وأنك لا تصنع بتفريق الناس عنك شيئا، فأجابهم* والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت ان السباع أكلتني بهذه القرية لنفذ هذا البعث الذي أمر رسول الله بانفاذه[2]. ويقصد بذلك إرسال أسامة بن زيد إلى الشام.

وامتد الاحتجاج على قيادة هذا الجيش، حيث رأى بعض الأنصار تسليم القيادة الى رجل اكبر سناً من أسامه، فذهب عمر الى أبي بكر وأخبره بذلك، فاستشاط أبو بكر غضبا وقال: ثلكتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله وتأمرني أن أنزعه[3]. فخرج عمر الى الناس يحدثهم ما جرى له.

وكان حزم أبي بكر في مكانه وأثبت أنه بعيد النظر في ذلك، لقد كان بعث أسامه بمثابة حرب نفسية أكثر منها حرب فعلية، فقد أوحت للقبائل المرتدة أن المدينة لا زالت تتمتع بقوة لها شأنها، وأنها مستعدة للقتال على جميع الجبهات.

---

(١) مصعب الزبيري، نسب قريش ٤١٨.
(٢) ابن خياط، تاريخ ٦٥/١.
(٣) الطبري، تاريخ ٢٦٦/٣.

أما قتال المرتدين، فقد كان حزمه في قتالهم أشد وأعنف مما كان في بعث أسامه، فعندما جاءه بعضهم يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة قال عمر: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم. فقال له أبو بكر: جبار في الجاهلية خوار في الاسلام بماذا أتألفهم بشعر مفتعل أم بقول مفترى. هيهات، هيهات، مضى النبي وانقطع الوحي، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالا[1].

وكما كان بعيد النظر في قتال المرتدين، كان بعيد النظر في عدم الترخيص لهذه القبائل بشيء من مبادئ الاسلام، وقال عن هذا الشأن: إن تميما اذا أذن لها من الاسلام في نقض عروة لم ترض عنه بكر بن وائل، ولو أعطيت كنانه وألفافها وأحابيشها أمرا لم ترض قيس حتى تزداد، ولئن سمعت قولكم لأنفضن الاسلام عروة عروة[2].

وهنا استعد أبو بكر للقتال، وكان أكثر ما يشغله ردة القبائل الحجازية التي كانت حول المدينة وهي قبائل أسد وغطفان ومرة وعبس وهوازن وسليم وبني عامر بن صعصعة وليث والديل ومدلج من كنانه.

وقبل بداية القتال جاءت وفود بعض القبائل تطلب الترخيص لها بعدم دفع الزكاة الا أن أبا بكر قد رفض ذلك كما رأينا، وجاء بعد ذلك بعض أقطاب تميم يطلبون خراج البحرين على أن يضمنوا عدم ردة قومهم، فوافق أبو بكر على ذلك، الا أن عمر بن الخطاب عارض ذلك ولم ينل رجال تميم ما جاؤا من اجله[3].

قتال المرتدين:

بنو أسد ومن لف لفيفها وهذه القبائل من القيسية باستثناء طئ التي كانت من اليمانية، وآزرت أسدا لحلف بينهما.

والتفت هذه القبائل حول طليحة بن خويلد الأسدي، وكان اجتماع هذه القبائل عليه نابع من الدرجة الأولى من اعتبارات شخصية. ويظهر ذلك من مواقف هذه القبائل، فطئ وقفت عند حدودها ولم تتجاوزها عند بداية النزاع.

---

(١) الذهبي، تاريخ الاسلام ١/١٩٢، السيوطي، تاريخ الخلفاء ٧٢-٧٣.

(٢) الجاحظ، العثمانية ٨٣.

(٣) الطبري، تاريخ ٣/٢٤٤.

أما غطفان فكانت العصبية القبلية هي التي أدت الى ردتها، فعند قائدها عيينه بن حصن: نبي من الحليفين (أسد وغطفان) أحب اليه من نبي من قريش. ومحمد مات أما طليحه فهو لا يزال على قيد الحياة[1]، ومن هنا آزر بني أسد عصبية للحلف الذي كان يربطهما في الجاهلية. سارع عيينة عند ظهور طليحة إلى تجديد الحلف مع أسد، وهذا الحلف كان يضم أسداً وطيئاً وغطفان، وقبل البعثة النبوية اجتمعت غطفان على طيء وأزاحوا بعض بطونها عن مساكنها. ولما اجتمعت طيء على ذي الخمار بن عوف الجذامي، أرسل إلى البطون التي هاجرت من مساكنها، وأعادهم إليها. فاشتد ذلك على غطفان، فما أن مات رسول الله حتى قام عيينه وقال: ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين أسد، وأني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طلحه[2].

ومع أن عيينه قد ارتد عصبية لأسد، إلا أنه لم يكن مخلصاً لحلفائه فقد جاء إلى أبي بكر ومعه بعض رجالات غطفان يطلبون جعلا ويكفون من وراءهم[3]، كما ظهر عدم اخلاصه عندما ترك بني أسد في الميدان وحدهم وقال لقومه هذا كذاب فولى من عسكره[4]. وما كان هذا الأحمق المطاع أن يخفي حقيقة أطماعه حتى أمام أبي بكر، فقال له عندما أراد ضرب عنقه: يا خليفة رسول الله أن الجميل أجمل وقد كان رسول الله أعرف بي منك ولم يخف عليه شيء من أمري، ولقد خرج من الدنيا وإني لمقيم على النفاق غير أني تائب إلى الله وإليك في يومي هذا، فاعف عني عفا الله عنك[5].

أما طيء فلم تشترك إلا في بدء حركة الردة، واستطاع عدي بن حاتم أن ينتزعها من حلفائها. إلا أن عصبية طيء قد ظهرت يوم بزاخة، عندما رفضت أن تقاتل بني أسد. ورغبت في قتال قيس، وحاول عدي أن يقنعهم بقتال أسد إلا أنهم أصروا على ذلك، بل إن خيلهم كانت تلقى خيل أسد وفزارة فلا يقتتلون وهنا قال لهم خالد بن الوليد: اصمدوا إلى أي القبيلتين أحببتم فقاتلوا قيساً[6].

(١) ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٣١.
(٢) الطبري، تاريخ ٣/ ٢٥٧.
(٣) الديار بكري، الخميس ٢/ ٢٢٤–٢٢٥.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان ١٠٥.
(٥) ابن أعثم، الفتوح ١/ ١٧.
(٦) الطبري، تاريخ ٣/ ٢٥٣.

عامر بن صعصعة: كانت تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، في الاشتراك بحروب المسلمين أما ردتها فقد كانت احتجاجاً على أخذ الزكاة منها ودفعها لقريش.

وجاء ذلك على لسان قره بن هبيرة لعمرو بن العاص: إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وأن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم[1].

ولما رأت عامر أن الدائرة قد دارت على طليحة الاسدي في بزاخه جاءت إلى علي وقالت: ندخل فيما خرجنا منه، فبايعهم علي على ما بايع عليه أهل بزاخه[2].

سليم: جاءت إلى أبي بكر تطلب منه أن يمدها بالسلاح لمحاربة المرتدين فأمر أبو بكر لها بذلك، إلا أنها قلبت سيوف المدينة على أهل المدينة فبعث إليهم أبو بكر خالد بن الوليد فجعلهم في حظائر وأضرم عليهم النيران[3].

أسد: لعبت دوراً كبيراً في الردة، ويذكر أن طليحة قد أظهر بوادر ردته في أواخر حياة الرسول، إلا أن طلحه أخفى أمره عندما جاء ضرار بن الأزور مبعوثاً من النبي إلى بني أسد وبعد وفاته اشتدت حركة طليحة وسارت وراءه عدة قبائل.

ولعظم جيشه قسمه إلى قسمين الأول كان بالأبرق، والثاني في ذي الخلصه ولما علم أبو بكر ذلك أحكم نظام الحراسة على المدينة وألزم الناس بحضور المسجد[4]. وبعد اغارة المرتدين على المدينة، سارع أبو بكر وخرج بنفسه إلى قتال المرتدين غير أن الصحابة نصحوه بالعودة، فعاد أبو بكر بعد أن عقد لخالد بن الوليد وأمره أن يصمد لطليحه. وحتى يوهن أبو بكر من عزيمة المرتدين، قال لخالد إني موافيك بمكان كذا وكذا، وكان ذلك خدعة للمرتدين[5].

---

(١) الطبري، تاريخ ٣/٢٥٩.
(٢) المصدر السابق ٣/٢٦١-٢٦٢.
(٣) ابن خياط، تاريخ ١/٦٨.
(٤) ابن الأثير، الكامل ٢/١٤٣.
(٥) ابن خياط، تاريخ ١/٦٧.

وتقدم خالد إلى ذي الخلصة والتقى بحبال بن خويلد الأسدي وكان معه قبائل أسد وليث والديل ومدلج واستطاع خالد أن يحقق انتصاراً سريعاً على حبال، فكان انتصاره أول فتح على المسلمين. كما كان من أكبر العون على نصرة الإسلام وأهله فقد عز المسلمون في كل قبيلة وذل الكفار في كل قبيلة[1].

ونتيجة انتصار خالد قامت القبائل المرتدة، وانتقمتم من مسلميها، فحلف أبو بكر ليقتلن المشركين كل قتله[2].

أما طليحة فقد اجتمعت إليه فلول القبائل من ذي الخلصة، وهناك بدأ تحالف جديد ضم قبائل عبس وذبيان وأسد وغطفان وقسم من بني عامر، وتمكن خالد أيضاً من هزيمتهم في بزاخة وبقي يطاردهم حتى أنهى شوكتهم[3].

لقد قامت ردة أسد على العصبية. فكانوا يوم بزاخه ينادون: إننا لا نعطي الدنية في ديننا أبداً، ونحن أحق بالخلافة من ابن أبي قحافة[4]. لقد آمنت أسد بطليحة "عصبية وحسداً" مع علمهم أنه كان كذاباً، لقد كان هذا المتنبئ لا يصدق نفسه، بل يعتبر أن ما قام به هو ضرب من السحر، فيوم بزاخه سئل: هل أتاك جبريل منذ نزلت هذا المنزل؟ قال لا. فقيل له: هل ترجو أن يأتيك. قال: نعم. وعندما استفسر طليحه عن سبب هذه الأسئلة فقال له سائله: اني سمعت هذه الأمة السوداء تزعم أنها سمعت من هذا الغدير كذا وكذا. فضحك طليحه وقال: نرى أن سحر قريش وصل إلينا من المدينة[5].

ولما كانت العصبية القبلية هي السبب في التقاء أسد وحلفائها حول طليحه فقد كانت العصبية نفسها سبباً في القضاء عليه. لقد كانت مصالح القبائل، رغم الحلف الذي يجمعها متباينة، ثم إن القيادة الموحدة اختفت عند هذه القبائل، فكانت القبائل تقاتل متساندة، لكل منها قائد وراية. وهذا مما سهل على جيش المدينة أن يحطم هذا التحالف القبلي بسرعة فائقة.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/٣٤٢.
(٢) الطبري، تاريخ ٣/٢٤٦.
(٣) ابن خياط، تاريخ ١/٦٧-٦٨.
(٤) ابن أعثم، الفتوح ١/١٠.
(٥) المصدر السابق.

وحتى يكسر خالد من شوكة هذه القبائل ويزيدها اذلالاً رفض أن يقبل أحداً من أسد وغطفان وهوازن وسليم وطيء إلا بعد أن يأتوا بالذين مثّلوا بالمسلمين فاضطرت القبائل أن تأتي بهم وهي صاغرة، فاحرق خالد بعضهم، ورضخ البعض الأخر بالحجارة أما الفريق الثالث فرمى بعضهم في أعالي الجبال والبعض الآخر في أعماق الآبار[1].

تميم:

ظهرت من قبيلة تميم متنبئة وليس متنبئاً، وهي سجاج بنت الحارث بن سويد وكانت تمارس الكهانه في الجاهلية.

ولما مات رسول الله، وانتشرت موجة التنبؤات، أظهرت سجاج ردتها عند أخوالها من تغلب وهناك التف حولها قبائل النمر بن قاسط وإياد وشيبان وأخوالها من تغلب بالطبع. وبهذه الجموع أقبلت تتهادى نحو قبيلتها تميم.

لقد كان من حسن حظ الاسلام والمسلمين أن هذه القبيلة كانت العصبية على أشدها بين بطونها المختلفة، كما كان على كل بطن زعيم يناظر زعماء البطون الأخرى وينافسهم. ونتيجة المنافسة بين البطون اختلفت مواقفهم من الردة.

نادت بعض البطون التميمية بعدم دفع الزكاة، ومن هؤلاء مالك بن نويره الذي كان يأتي إلى أشراف قومه ويقول: يا بني تميم إنكم قد علمتم بأن محمد بن عبدالله قد كان جعلني على صدقاتكم قبل موته، وقد هلك محمد ومضى لسبيله، ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به فلا تطمعون أحداً في مالكم، فأنتم أحق بها من غيركم[2].

ومنع الصدقة أيضاً قيس بن عاصم الذي كان على بطون: مقاعس والبطون.

وإن كان مالك قام بمنع الزكاة فقد سارع بعض هذه البطون إلى إرسالها إلى المدينة ومن هؤلاء الزبرقان بن بدر وكان على بطون الرباب وعوف والأبناء[3].

---

(١) الطبري، تاريخ ٢٦٢/٢، ٢٦٤.

(٢) ابن اعثم، الفتوح ٢٠/١-٢١.

(٣) الطبري، تاريخ ١٧٨/٣.

وعندما وصلت سجاح إلى تميم، أرادت أن تثير حمية العصبية عندهم فأرسلت إلى مالك بن نويره ودعته إلى الموادعه، فأجابها مالك على شرط أن لا تهاجم أحياء تميم، فقبلت سجاح ذلك وقالت: إني إمرأة من بني يربوع، فإن كان ملك فالملك لتميم(1). وهكذا تجد أن سجاح وبالرغم من أن غالبية جيشها من ربيعة إلا أنها لا ترى الملك إلا لقبيلتها تميم.

وبعد أن وصلت إلى مضارب تميم، هاجمت بطون تميم التي بعثت بصدقاتها إلى المدينة، إلا أن قبيلة الرباب ومعها بطون أخرى تمكنت من هزيمة اتباع سجاح. ولما رأت ذلك منهم أدركت أن لا نصر لها من تميم فاتجهت نحو اليمامة.

ومع اخفاقها في جمع تميم حولها، إلا أنها استمرت على ولائها لقبيلتها وعلى أن الملك هو لمضر دون ربيعه، وقالت لقومها: إن الله لم يجعل هذا الأمر في ربيعة وإنما جعله في مضر، ومع اعترافها بأن النبوة في مضر، إلا أنها لا ترى لقريش فيها نصيب، فكان مخططها مهاجمة مسيلمة أولاً ثم غزو المدينة ثانياً(2).

وما أن اقتربت من اليمامة، حتى خشي مسيلمة أمرها، وخاف أن يقع بين فكي كماشه جيش شراحبيل بن حسنة، وجيش سجاح فرأى أن أسهل الأمرين إليه مهادنة شريكته في الكذب، فبعث إلى سجاح يعدها بنصف الأرض التي تبرع بها سابقاً لقريش(3) فوافقت سجاح بعد محادثات طويلة، والتقت وجهات نظرهم حول الزعامة فطلب مسيلمة الزواج منها حتى يأكل قومه وقومها العرب، فوافقت سجاح بعد محادثات مطوله، إلا أن لهفة الزواج أنساها أهم عامل من عوامل التقاليد القبلية إلا وهو المهر فعادت مسرعة إلى مسيلمة بعد أن خرجت من عنده تطلب مهرها، فلم يجده مسيلمة ما يعطيها إلا أن يسقط عن قومها صلاة العشاء والفجر على حد قول بعض الروايات التي أكثرت من التهكم عليها.

---

(1) المصدر السابق.

(2) الأغاني، ١٨/٢٨٥ (بيروت).

(3) الطبري، تاريخ ٣/٢٧٢.

وظهر الامتعاض على وجوه سادة تميم وربيعة من تصرف سجاح فقال عطارد بن حاجب:

أمست نبيتنا انثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وقال حكيم بن عياش يعير مضر:

أتوكم يدين قائم وأنيتم بمنتسخ الآيات في مصحف طب[1]

ويمكن تفسير وحدة سجاح ومسيلمة بأن معظم القبائل التي كانت تؤازر سجاح هي من ربيعة، ولم يتبعها من تميم إلا عدداً قليلاً، وبما أن مسيلمة من حنيفة وحنيفة من ربيعة، فقد رغبت قبائل ربيعة في الالتفاف حول نبيها مسيلمة الكذاب.

وبعد أن فرغ خالد من أمر طليحة الأسدي اتجه إلى تميم، فقتل مالك بن نويره في رهط من قومه، وحجة خالد في ذلك أنه لم يسمع لهم آذاناً، وأن القوم لا قوه بسلاحهم[2].

أما سجاح فما أن سمعت بظهور خالد في الجزيرة حتى تفرقت جمعوها، وبقيت سجاح مع بعض أتباعها في تغلب حتى نقلهم معاوية إلى الكوفة[3].

حنيفة: ظهر فيها مسيلمة الكذاب وبدأ نبوّته قبل وفاة الرسول، إلا أنها تعاظمت بعد وفاته.

وسبب ظهور مسيلمة أن النبوة بنظرة ليست مقصورة على قريش وحدها، بل يجب أن يشاركها في هذا الأمر عدد آخر من القبائل على حد قوله، وبعد أن اشتهر أمره، أخذ يتعجب كيف صارت قريش أحق بالنبوة والإمامة من حنيفة، وخاصة أن قريشاً لا تتمتع بالصفات التي تتمتع بها حنيفة، فحنيفة حسب رأيه أكثر عدداً وأشد شكيمة، وبلادها أكثر اتساعاً وأموالها أكثر من قريش وحتى يجمع حوله الاتباع ذكر أن جبريل يأتيه كل يوم بالذي يريده من الأمور وينزل عليه كما كان ينزل على محمد بن عبدالله من قبله[4].

(١) المصدر السابق.
(٢) ابن خياط، تاريخ ١/٦٩-٧٠.
(٣) الطبري، تاريخ ٣/٢٧٥.
(٤) ابن أعثم، الفتوح ١/٢٣-٢٤.

وكما دفعت العصبية القبلية قبائل أسد وتميم أن تلتف حول متنبئها، فقد دفعت العصبية حنيفة كي تؤازر نبيها ومن هنا قالوا: كبشان انتطحا فأحبهما الينا كبشنا (مسيلمة)[1]. واشتعل أمر مسيلمة بسرعة فائقة ويرجع ذلك إلى أنه كان من الدهاة الذين يصانعون ويتألفون الناس ولا ينالون أن يطلع الناس منهم على أمر قبيح. وزاد من موقفه شهادة الرجال (الرحال) بن عنفوه مبعوث النبي صلى الله عليه وسلم لأهل اليمامة الذي اعترف بنبوة مسيلمة وأنه قد اشترك مع الرسول صلي الله عليه وسلم في الأمر فكانت فتنة أعظم على بني حنيفة من مسيلمة[2].

وتشبه مسيلمة بقريش كثيراً، فوحيه مشابه لوحي قريش، والنبوة حسب رأيه جائزة في حنيفه كما ظهرت في قريش، ولم يبق عليه إلا أن يتخذ حرما مشابهاً لحرم قريش. فوضع يده على قطعة من أرض اليمامة واتخذها حرماً، غير أن حرمه هذا اصبحا ملجئاً للصوص الذين يغيرون على ثمار اليمامة ويعودون إليه[3].

وبعد ذلك قام باستمالة القبائل، فمنح تميم نزاهة مسيلمية جاء فيها إن بني تميم قوم طهر لقاح، لا مكروه عليهم ولا أتاوة، نجاورهم ما حيينا باحسان فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن[4].

لقد كانت حنيفة تعرف كذب مسيلمة إلا أنها سارت وراء عصبيتها بعيداً وقالت لقريش: منا نبي ومنك نبي[5].

ومع ذلك ظهر من شكلك في نبوته مثل مؤذنه شبث بن ربعي: أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله. وهذا اعتراف ضمني بكذبه، إلا أن كذاب ربيعه أحب إليهم من صادق مضر.

---

(١) ابن حجر، الاصابة، ١/٥٣٩.
(٢) الطبري، تاريخ ٣/٢٨٣.
(٣) المصدر السابق، ٣/٢٨٣.
(٤) الطبري، تاريخ ٢٨٣-٢٨٤.
(٥) ابن خياط، تاريخ ١/٧٣.

ومسيلمة نفسه لم يجد يوم عقرباء ما يحث به قومه على القتال إلا أن يقول لهم: اليوم يوم الغيرة، إن هزمتم سترون النساء سبيات وينكحن غير حظيات فقاتلوا عن أنسابكم[١].

ومع التفاف ربيعة حول مسيلمة، إلا أن هذه القبيلة كانت تضع مصالحها الشخصية في مقدمة أهدافها، صحيح أنها حاربت إلى جانب مسيلمة عصبية وحمية، إلا أن أمورها الخاصة كان يحسب لها الف حساب. فمجاعة بن مرارة لم يخرج مع مسيلمة إلا ليطلب ثأره بني عامر وبني تميم مستغلاً الفوضى في الجزيرة العربية[٢].

وأبو مسيكه الايادي قاتل جيش المدينة لأن الاسلام يحرم الخمر، وهو لا يستطيع الصبر عنها، بينما يحل مسيلمة شربها[٣].

لقد كانت حنيفة من أكثر العرب عدداً وأشدها شكيمة، وبسرعة فائقة استطاع مسيلمة أن يجمع حوله من المرتدين أربعين ألفاً[٤]. ومن هنا كان القتال مريراً بينهم وبين المسلمين. ولشدة المقاومة وافق قائد جيش المسلمين أن يمتاز القوم في القتال حتى يعلم أكثر الناس بلاء. والسبب في ذلك ما حدث بين المهاجرين والأنصار من جهة وأهل البوادي من جهة أخرى، فقد اعتبر كل منهما بأنه أقوى شكيمة من الآخر. فقسم خالد جيشه حسب الرايات القبلية، فما رئي أحد ولا أعظم من ذلك اليوم ولم يدر أي الفريقين كان أشد شكيمة، إلا أن المصيبة كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية[٥]. وأمام تماسك المسلمين وقوة دفاعهم حاقت الهزيمة بمسيلمة، ولما رأى أنه مشارف على الموت أخذ ينادي قومه: أما الدين فلا دين لكم ولكن قاتلوا عن احسابكم[٦] وهكذا نسي مسيلمة نبوءته في حديقة الموت.

---

(١) الذهبي، تاريخ الاسلام ١/٣٥٢.

(٢) الطبري، تاريخ ٣/٢٨٣.

(٣) ابن هشام، السيرة ٢/٥٧١، ابن منقذ، الاعتبار ٣٨، نسخة مصورة عن مخطوطة الاسكوريال، اسبانيا.

(٤) الذهبي، تاريخ الاسلام، ١/٣٥٢.

(٥) الطبري، تاريخ ٣/٢٩٢-٢٩.

(٦) ابن أعثم، الفتوح ١/٨٣.

لقد آمّن خالد حنيفة بخدعة من مجاعة بن مرارة الذي أمر النساء والأطفال أن يلبسوا السلاح وأن يقفوا على السطوح، ثم جاء إلى خالد وقال له: ما جاءك إلا سرعان الناس وإنما جماهير الناس لفي الحصون، ولشدة الهول الذي لقيه المسلمون في حديقة الموت أمّن خالد بني حنيفة، ولما اكتشف خالد خدعة مجاعة، قال مجاعة: لم أجد بداً مما فعلت فهم قومي وعشيرتي[1].

وهكذا انتصر شعار "يا أهل الدين والإسلام" وهزم التيار القبلي الذي كان ينادي "ويلكم يا معشر بني حنيفة قاتلوا عن الاحساب". لم ينفع حنيفة أحسابهم ولا نبوءة مسيلمة فعادوا إلى الإسلام بعد أن ذاقوا ويلات خروجهم. لقد انتصر التيار الاسلامي ولكن بعد أن دفع خمسة وثلاثين شهيداً من حملة القرآن بالإضافة إلى عدد كبير من المسلمين. ولما علم أبو بكر بذلك كتب إلى خالد يأمره أن لا يستبقي من بني حنيفة رجلاً أنبت[2] إلا أن الكتاب وصله بعد أن فرغ من الصلح.

عبد القيس:

احتجت عبد القيس على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت لو كان محمد نبياً لما مات وكأنها قد نسيت الآية ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسول أفأن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم﴾[3] وعبثاً حاول الجارود بن المعلى إقناعهم أن ما جرى على الأنبياء من قبله جرى عليه، إلا أنهم اصروا على عنادهم وردتهم[4] ولحق عبد القيس في ردتها بعض قبائل ربيعة ومنها بكر بن وائل وأمروا عليهم المنذر بن النعمان لأنه أحق بالأمر من ابن قحافة[5].

وأرسل إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي الذي استغل لحظات انشغالهم بشرب الخمر فبيتهم وأعمل السيف بهم[6].

(١) ابن أعثم، الفتوح ٤٢/١.
(٢) ابن خياط، تاريخ ٧٦/١-٧٧.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٤.
(٤) الطبري، تاريخ ٢٠٣/٣.
(٥) ابن أعثم، الفتوح ٤٥/١.
(٦) الطبري، تاريخ ٣٠٣/٣.

الأزد:

جاء في أسباب ردتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم آخر الافاضة من عرفة من أجل اسامة بن زيد، فلما قدم قال أهل اليمن حبسنا من أجل هذا الغلام الأفطس الأسود. فلما مات رسول الله ادعى النبوءة "ذو التاج" لقيط بن مالك الأزدي غير أن ردتهم لم يكن لها ذا شأن فقد تمكن جيش المدينة من قتل لقيط وسبي أهل دبا[1].

وفي مهرة انقسم المرتدون إلى فرقتين، فرقة يقودها شخص يدعى "شخريت" وأخرى يقودها "المصبح" وكان التنافس على الرئاسة بينهم على أشده، فسهل هذا على عكرمه أن يقضي على حركتهم، فعندما قدم مع مهره دفع الحسد "المصبح" فوقف إلى جانب عكرمه، فبقي شخريت وحيداً فقتله عكرمه وسبى أتباعه[2].

كنده:

بدأت ردة كنده عندما أخذ عامل الصدقات زياد بن لبيد قلوصاً من أهل حضرموت ووسمها لأبل الصدقة. فتدخل حارثة بن سراقة وقال لزياد أطلقها وأنت كريم وإلا أطلقتها وأنت لئيم. فغضب زياد من ذلك ورفض إطلاقها وتدخل زعيم كنده: الأشعث بن قيس لدى زياد حتى يطلقها فرفض وساطته.

وجاء حارثة إلى صاحب القلوص وقال له: خذ ناقتك، فإن كلمك أحد فاحطم أنفه بالسيف، نحن إنما أطعمنا رسول الله إذ كان حياً، ولو قام رجل من أهل بيته لأطعناه وأما ابن أبي قحافه فلا والله ماله في رقابنا طاعة ولا بيعة.

وهنا انتفضت بعض بطون كندة على زياد، وتمكن زياد من قتل مائتين وسبي خمسين رجلاً منهم، ولما مر زياد بالأسرى على الأشعث أخذت النساء تنادي يا أشعث يا أشعث خالاتك، خالاتك. فحمى الأشعث وخرج مع قومه وقال: لا كرامة لزياد أن يقتل قومي وبني عمي ويسبي النساء والذراري ويحوي الأموال وأقعد عنه. فنادى الأشعث في كنده وسار يريد زياداً ومعه ألف رجل من فرسان قومه.

---

(١) ابن سعد، الطبقات ١٦٣/٤، البلاذري، فتوح البلدان ٩٣، البخاري التاريخ الكبير ج١، قسم ٢/ ٢٠.

(٢) الطبري، تاريخ ٣١٧/٣.

ولما وصلت أنباء ردة كندة إلى المدينة بعث أبو بكر إليهم أن لا ينقضوا العهد وأن لا يرجعوا عن الإسلام، كما عرض عليهم أن يعزل زياد بن لبيد وتولية من تحبه كندة[1].

إلا أن الأشعث رفض ذلك، وقال أن أبا بكر يلزمنا الكفر بمخالفتنا ولا يلزم صاحبه الكفر بقتل قومي وبني عمي، ولم يكتف بذلك بل بارك الأشعث قاتل رسول أبي بكر إليه[2].

لقد استهوت الزعامة الأشعث كما استهوت غيره من المرتدين، فوقف في قومه يقول: خبروني عنكم يا معشر كنده إذا كنتم بايعتم على منع الزكاة وحرب أبي بكر فهلا قتلتم زياد بن لبيد فكان يكون الأمر في ذلك واحداً كائناً ما كان ولكنكم أمسكتم عنه حتى أخذ زكاة أموالكم ثم رحل عنكم لصاحبه وكتب إليكم يهددكم بالقتل.

فقام رجل من أصحابه وقال: صدقت يا أشعث والله ما نحن إلا كعبيد لقريش مرة يوجهون إلينا أمية فيأخذون من أموالنا ما يريدون ومرة يولون علينا مثل زياد: فيأخذون أموالنا ويهددونا بالقتل والله لا طمعت قريش في أموالنا أبداً[3].

ومما تقدم نرى أن أسباب ردة كندة لم تكن من تصرفات زياد فحسب، بل إنهم تصوروا أمر دفعهم للزكاة وكأنها ضريبة تأخذها قريش من القبائل لنفسها، إضافة لذلك أن الأشعث وهو ابن قيس بن معدي كرب صاحب مرباع حضرموت، وخير ملك ظهر فيها، وصيته ملأ الجزيرة كلها، كيف يخضع لأبي بكر ومن هنا قال: إني أعلم أن العرب لا تقر بطاعة بني تيّم بن مرة وتدع سادات البطحاء من بني هاشم إلى غيره فإنها لنا أجود ونحن لها أحرى، وأصلح من غيرنا لأنا ملوك قبل أن يكون على وجه الأرض قرشي ولا أبطحي[4].

---

(١) ابن أعثم١/٦٥-٦٦.
(٢) المصدر السابق، ٦٨/١..
(٣) ابن أعثم ٦٥/١-٦٦.
(٤) ابن اعثم ٥٩/١-٦٠.

وقام رجل آخر وبين أن أمر الأمة ليس بيد المهاجرين والأنصار وإنما للعرب جميعاً وقال: أخرجوا هذا الرجل عنكم "زياد بن لبيد" فما صاحبه بأهل للخلافة ولا يستحقها بوجه من الوجوه وما المهاجرون والأنصار بأنظر لهذه الأمة من نبيها محمد[1].

ومما تقدم نرى في حجيج كندة اتجاهات لم تظهر عند القبائل الأخرى منها دعوة العرب جميعاً في تقرير أمر الخلافة، وسوف يتطور ذلك في خلافة عثمان بن عفان. والناحية الثانية أن هناك من أخذ يدعو لآل البيت من خارج المدينة[2].

وبعد أن أخرج زياد من حضرموت كتب أبو بكر إلى عكرمه بن أبي جهل يخبره بحال المسلمين المحاصرين في "تريم" وطلب منه أن يتجهز في من يجيبه من أهل مكة ومن احياء العرب ويتوجه إلى كنده وغيرهم من قبائل اليمن[3].

وما أن وصلت طلائع عكرمة حتى أحس الأشعث بالخطر فأرسل إلى عكرمه يقول له: إنا لم نرتد عن الإسلام ولكن لا طاعة علينا لأحد حتى نأتي المدينة وننظر أمر الناس إلى ما صار، فإن كان رسول الله أوصى لأحد وشهد بذلك شهود أطعناه، وإن لم يوص وكان أمر الناس إلى أنفسهم وكان لهم الرضى وكان لنا مثل ذلك ولعلنا نكون من أول من يرضى بأبي بكر إذا طلب ذلك منا فما نعرفه إلا مقدماً عند الرسول ومن رضي به أهل بيت الرسول والمهاجرين والأنصار فحقيق أن نرضى به[4]. ولم يكن كتاب الأشعث هذا إلا محاولة لكسب الوقت، وجمع بطون كنده لمواجهة عكرمه بن أبي جهل. كما أنه يناقض نفسه بنفسه فهو تارة يريد التحقق هل أوصى النبي لأحد بالخلافة؟ ثم يذكر بأنه سيقبل بمن قبله المهاجرون والأنصار، وقبل فترة لا يرضى ببيعه أبي بكر.

لقد خشي الأشعث أن يقع بين نارين، نار عكرمه ونار قبيلة مذحج ويستدل على ذلك من قول أحد رؤساء كندة وهو عفيف بن معدي كرب: يا معشر كنده إنكم قد

(١) ابن اعثم، ٦١/١.
(٢) ابن اعثم ٧٣/١.
(٣) ابن اعثم، الفتوح ٧٣/١.
(٤) مجهول، الفاصل بين الحق والباطل ١٩٦/١-١٩٧.

علمتم الذي بينكم وبين مذحج من العداوة والشحناء، وهذه خيل أبي بكر قد سارت إلى مقابلتكم فخبروني الآن أي الخيلين تدفعون عنكم، خيل أبي بكر أم خيل مذحج[1].

وتقدم عكرمه إلى كندة وتمكن من حصرها في حصن النجير، وهنا تحركت العصبية عند بطون كندة التي لم تشترك في القتال وقالوا: إن بني عمنا قد حصروا وهذا عار علينا، فجزوا نواصيهم وتعاقدوا على الموت[2]، غير أن شدة الحصار على الأشعث جعلته يطلب الأمان. فاستغل عكرمه طلبه حتى يوهن من عزيمة كندة التي كانت خارج الحصن، فنادى عليهم على ماذا تقاتلون وصاحبكم قد طلب الأمان فأنصرف القوم وهم يسبون الأشعث ويلعنونه[3].

وأرسل الأشعث إلى المدينة مكرما، ولم يقتل من كنده أحد[4]. ولما مثل الأشعث أمام أبي بكر قال: قد رأسك قومك وخذلني قومي وقد كنا نقول في ملكنا إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يقاتل به، والمال عند من لا ينفعه، ضاعت الأمور. وطلب من أبي بكر أن يعفو عنه وأن يطلق له سراح كل أسير باليمن من معد كما طلب أيضاً مصاهرته من أخته أم فروه. ر فقبل أبو بكر: وقال: أيها الناس، أن الناس حديث عهد بالجاهلية وإن دينكم هذا لم يبدل، وقد رأيت تأليف هذا الرجل وحياته خير من قتله، أما عمر فقد كان من رأيه أن يقتله حتى تستقيم الأمور في اليمن[5] وقد ندم أبو بكر في آخر حياته على عدم قتله وقال: أنه يخيل إلي أنه لا يرى شراً إلا سعى فيه[6].

---

(1) ابن اعثم، الفتوح ٦٣/١.
(2) الطبري، تاريخ ٣٣٦/٣.
(3) ابن اعثم، الفتوح ٨٢/١-٨٣.
(4) المصدر السابق، ٨٥/١.
(5) مجهول، الفاصل بين الحق والباطل، ١٩٦/١-١٩٧.
(6) البلاذري، فتوح البلدان ١١٢.

اليمن:

لم تتوقف ردة أهل اليمن باغتيال الأسود العنسي، بل قامت ردة ثانية عند قبائل اليمن. وبعث أبو بكر إلى من ثبت منهم على إسلامه أن يعينوا الأبناء وأن يسمعوا من فيروز الديلمي.

أما القبائل اليمانية فقد عادت وتعصبت ضد الأبناء، وكتب قيس بن المكشوح إلى رؤساء اليمن: أن الأبناء نزاع في بلادكم، وثقلاء فيكم، وان تتركوهم لن يزالوا عليكم وفي آخر كتابه طالب بإخراجهم من اليمن[1].

والظاهر أن حركة قيس هذه لم تضم رؤساء القبائل، إنما كانت تحوي عوام القبائل ولم يؤازره من القادة إلا عمرو بن معدي كرب الزبيدي. وقد استطاع المهاجر بن أبي أمية وبمساعدة الأبناء من هزيمة المرتدين وأسر قيس بن المكشوح وعمرو الزبيدي. وأرسلهما إلى أبي بكر، وقد خلى أبو بكر عنهما وردهما إلى عشائرهما.

وهكذا اسدل الستار على هذه الفتن القبلية التي صورها سيد أمير علي[2] بنهر طفحت مياهه وطفحت على سهوله في بادئ الأمر فهاج وماج وخرب ودمر ولكن ما طال الزمن حتى هبط منسوبه وعاد إلى مستواه فخصبت الأرض وأينع الزرع.

أسباب فشل المرتدين:

لقد جاءت عوامل عديده أدت إلى فشل المرتدين ومنها الحزم الذي تسلح به أبو بكر منذ اللحظات الأولى للردة، فهو لم يقبل من القبائل المرتدة إلا "الخطة المخزية أو الحرب المجلية"[3] والخطة المخزية أن يقروا بأن قتلاهم في النار وما أخذ من أموال المسلمين مردود عليهم، أما الحرب المجلية، الخروج من ديارهم. وفسره لوفد بزاخه أن ينزع منهم الحلقة والكراع ويغنم ما أصاب منهم ويردوا ما أصابوه من المسلمين وأن يدو

(١) انظر ردة اليمن في الطبري، تاريخ ٣/٣٢٤-٣٢٦، ٣٣٠.

(٢) مختصر تاريخ العرب ٤٩.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ١١٣.

(دفع الدية) قتلى المسلمين[1]. ووافق حزم أبي بكر، حرية التصرف للقادة وخاصة ما كان لخالد بن الوليد. ولما احتج بعض المسلمين لما فعله خالد بالمرتدين من أسد وغطفان رد عليهم: إني لا أشيم سيفاً سله الله على الكفار[2].

لقد أذاق المسلمون المرتدين ويلات العذاب والآلام، وقد كتب أبو بكر إلى خالد: لا تظفر بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله[3].

ومع الحزم والشدة هذه لم ينس الصديق حسن المعاملة مع رؤساء القبائل فقد تألف بعضهم، ورد البعض الآخر حتى يكسب عشائرهم، بل عندما سمع شعر متمم بن نويره في رثاء أخيه مالك أمر برد سبي بني يربوع[4]. واتبع أبو بكر سياسة الترحيل والاستيلاء على أراضي بعض القبائل التي اشتركت في الردة، فقد حمى منطقة الابرق، وأرعى سائر بلاد الربذه للمسلمين، ولما احتج بنو ثعلبه على أنها أرضهم قال لهم: كذبتم ليست لكم ببلاد ولكنها موهبي ونقذي[5]. وبعث إلى المهاجر بن أبي أمية أن اخرج المرتدين من ديارهم فإن أكره أن أقرّ أقواماً فعلوا فعلهم في منازلهم ليعلموا أن قد أساءوا ليذوقوا وبال بعض الذي أتوا[6].

ومن الأسباب التي عجلت في القضاء على حركة الردة العصبية القبلية، فكما كانت هذه العصبية سبباً في تجمعهم كانت سبباً في القضاء عليهم. لقد وقفت العصبية سداً منيعاً أمام اتحاد هذه القبائل فلم يظهر هناك اتحاد فعلي، وكل ما حدث هو حلف أو عقد كان ينفرط عند اختلاف الصالح.

لقد دخلت القبائل تحارب متساندة، على كل قبيلة رئيس. ولها راية منفصلة وزاد من ذلك المنافسة بين بطون القبائل كما حدث في تميم والأزد وكنده.

(1) المصدر السابق.
(2) المصدر السابق.
(3) الطبري، تاريخ ٣/٢٦٣.
(4) المصدر السابق، ٣/٢٧٩.
(5) المصدر السابق، ٣/٢٨٤، نقذي، ما استنقذ من العدو.
(6) المصدر السابق، ٣/٣٣٧.

وقابل هذا التمزق القبلي وحدة جيش المسلمين الذي خضع لقيادة موحدة وأدرك أبو بكر أهمية وحدة جيشه وتطهيره من آثار العصبية القبلية عندما احتج الانصار على عدم تولية قائد منهم، فسارع أبو بكر وعين ثابت بن قيس على الأنصار وخالد بن الوليد على المهاجرين والقيادة العامة إليه[1].

ظهرت وحدة المسلمين عندما رجع الأنصار بعد قتال طليحه وتوجه خالد إلى مسيلمه، وقالوا أن هذا القرار لم يأمر به أبو بكر . فدفعتهم رابطة العقيدة الإسلامية باللحاق بخالد وقالوا إذا ظهر أصحابنا لقد خسسنا بهم ولئن هربوا لقد خذلناهم[2] .

واستغل أبو بكر روساء القبائل حتى يردعوا قبائلهم عن الرده، فأرسل عدي بن حاتم إلى طئ وعرفجه البارقي الأزدي إلى الأزد، والعلاء بن الحضرمي الى كنده وجرير بن عبدالله إلى بجيله وأن يقاتل خثعم التي ارتدت غضباً لصنمها ذي الخلصة[3] .

ويضاف إلى ذلك فساد المبادئ التي قامت عليها حركة الردة، فكان المرتد يقاتل حمية وعصبية والمسلم يقاتل لرفع كلمة الله بل كان أحدهم لا يجد حرجاً في قتل أقرب الناس إليه، فأمرؤ القيس بن عايش الكندي قتل عمه وقال له : أنت عمي والله ربي[4] .

نتائج الردة:

كان انتصار ابي بكر على المرتدين هو انتصار للتيار الاسلامي على التيار القبلي وبالتالي تسليم القبائل العربية للزعامة القرشية .

جاءت الردة بنتيجة إيجابية، وهي خلق مجتمع جديد، أصبحت قبائله مفتوحة على بعضها البعض بعد أن كانت القبلية تحيطها بسور منيع لا يجوز اختراقه إلا بحلف أو جوار، أما اليوم فقد جاءت الجيوش الى اليمن والبحرين وعمان كما توجهت إلى

(١) البلاذري، فتوح البلدان ٩٩.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان ٩٩.
(٣) الطبري، تاريخ ٣/٣٢٢.
(٤) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ٤٢٨.

مساكن قضاعه وبلي وتغلب، هذا الاختلاط أدى إلى دمج بعض الجيوش مع السكان الأصليين لاسيما بعد أن سمح أبو بكر بالإقامة لمن يرغب في ذلك[١].

ورافق عملية الاختلاط هذه حدوث مصاهرات بين القبائل، فخالد بن الوليد تزوج من زوجة مالك بن نويره من تميم[٢] ومن بنت مجاعة بن مراره، من حنيفة[٣]، وأصهر معاذ بن جبل إلى بني بكره -السكون- وكان لهم أثر في حمايته من الأسود العنسي[٤]، وتزوج الأشعث بن قيس من أخت أبي بكر[٥].

وبعد أن فرغ أبو بكر من ردة الجزيرة العربية أراد توجيه الجيوش إلى خارج الجزيرة العربية فكانت الفتوحات الإسلامية. إلا أنه لم يستخدم المرتدين عقاباً لهم على ردتهم.

وكما حارب أبو بكر المرتدين فقد حارب العصبية القبلية الذميمة، فقد عزل خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة أحد الجيوش المتوجه إلى الشام لما علم أنه يحمل أمره على المغالبة والتعصب[٦] وقال ليزيد بن أبي سفيان: إياك وعبية الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها[٧].

وأوصى أبا عبيدة بأن يحسن صحبة من صحبه وليكن الناس عنده في الحق سواء[٨]. والسؤال الذي يطرح نفسه هل كان اختيار أبي بكر لقواده من قريش عصبية لقبيلته؟ الواقع أن أبا بكر قد سار على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في محاربة العصبية ورأينا تحذيره القواد من العصبية القبلية فلا يمكن والحالة هذه أن يأتي هذا التعيين عصبية لقومه وإنما كان للعوامل التالية:

(١) الطبري، تاريخ ٣/٣١٢.
(٢) المصدر السابق،٣/ ٢٧٨.
(٣) ابن أعثم، الفتوح ١/٤٣.
(٤) الطبري، تاريخ ٣/٢٣٠.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان ١١٢.
(٦) البلاذري، فتوح البلدان ١١٦.
(٧) ابن الأثير، الكامل ٢/٢٧٢.
(٨) الأزدي، فتوح الشام ١٠.

- إن بعض هؤلاء القادة قد تمرس في حروب سابقة وخاصة حروب الردة، وأظهروا كفاءة نادرة فأراد استغلال هذه الكفاءة في حرب الروم والفرس.
- لم يشأ أبو بكر أن يفتح باب المنافسة بين القبائل وتسابقها على الرئاسة ولذا ترك أمر القيادات لقريش.
- ربما أن أبا بكر قد خشي من حدوث تمرد قبلي جديد، فرغب في بقاء الزعامة بيد قريش حتى تعيد الأمر إلى نصابه أن حدث حادث.

وأثبت أبو بكر باختياره لعمر بن الخطاب خليفة للمسلمين أنه يعيد عن العصبية وأهلها كما أن ولاة أبي بكر كانوا من مختلف القبائل فالعلاء بن الحضرمي كان على البحرين والمهاجرين بن أمية على صنعاء ويعلي بن منيه[1] على خولان وعتاب بن أسيد على مكه، وعثمان بن أبي العاص على الطائف وسليط بن قيس على اليمامة[2].

ب- المظاهر القبلية في عهد عمر بن الخطاب:

بويع عمر بالخلافة سنة ١٣هـ بعد عهد من أبي بكر إليه. وقد خضع اختياره خليفة للمسلمين لأمور اسلامية منها أنه من السابقين إلى الإسلام إلا أنه لم يكن من بطن بارز من بطون قريش وإنما وقع عليه الاختيار لمؤهلاته.

ومن الناحية الأخرى أن عمر كان من أكثر الصحابة نفوذاً في خلافة أبي بكر، وأبو بكر لم يرشحه إلا للكفاءة التي كان يتمتع بها. واستشار أبو بكر أيضاً بعض الصحابة في هذا الشأن فجاءت موافقتهم على هذا الاختيار. وهذان الأمران لايتمشيان والتقاليد السياسية التي كانت سائدة قبل الإسلام[3]. وفي عهد عمر تأتي ثلاث عوامل وعن غير قصد لتبقى على الفواصل القبلية داخل المجتمع الإسلامي وهذه الأمور هي:

---

(١) ابن خياط، تاريخ: يعلي بن أمية ٩١/١.
(٢) المصدر السابق، تاريخ ٩١/١.
(٣) قارن: الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ٤٨.

١- القبلية والنظام الحربي:

جاء عمر ليسير على النهج الذي سار عليه أبو بكر من استمرار في الفتوحات فأخذ يحث الناس على الجهاد لأمرين: هو فريضة مقدسة يجب على كل مسلم القيام به، ثم أن موارد الحجاز ما عادت لتكفي سكان الجزيرة العربية وقال: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهل إلا بذلك[١]. وقال أيضاً: إنكم قد أصبحتم في دار مقام بالحجاز وقد وعدكم النبي صلى الله عليه وسلم فتح بلاد كسرى وقيصر فسيروا إلى أرض فارس[٢].

ويضاف إلى العوامل الدينية والاقتصادية العوامل الاجتماعية فأبو بكر وعمر من بعده أرادوا استغلال الطاقات القبلية وتوجيهها إلى قتال الأعداء بدلاً من قتال بعضها بعضاً، وبهذا القتال يمكن اشغال هذه القبائل التي كانت أسداً يأكل بعضها البعض[٣].

بدأ عمر همه بتوجيه الجيوش نحو العراق، ومكث أربعة أيام حتى استطاع أن يجمع جيشاً يرسله إلى العراق. وقد عين على هذا الجيش أبا عبيدة بن مسعود الثقفي ولم يكن هذا من السابقين. وعينه عمر لأنه كان أسرع الناس إلى القتال فقال عمر: أولى بالرياسة من سبق إلى الدفاع وأجاب إلى الدعاء[٤].

واتجه أبو عبيدة إلى العراق، وعلى العادة الجاهلية كان لا يمر على قبيلة أو حي من قبائل العرب إلا دعاهم إلى نجدته والسير معه[٥]. وفي أول لقاء له مع الفرس دخل الحرب حمية وبدون تخطيط سبق. عندما عيره الفرس بالجبن والخوف فعبر الجسر، ولم يستمع إلى نصيحة سليط بن قيس الأنصاري، الذي أشار بعدم العبور وكان عمر طلب من أبي عبيده أن يسمع له ويطيع. وكانت النتيجة أن هزم المسلمون هزيمة منكرة.

---

(١) أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة ١٠٣/٢.
(٢) المسعودي، مروج الذهب ٣١٥/٢.
(٣) أبو حيان، الامتاع والمؤانسة ١٠٣/٢.
(٤) الطبري، تاريخ ٤٤٥/٣.
(٥) ابن خلدون، المقدمة ١٣٢.

ونظراً لحاجة عمر إلى المقاتلة أسقط الحظر الذي كان مفروضاً على القبائل التي ارتدت وسمح لها أن تنخرط في الجيوش وتساهم في الفتوحات. فكتب إلى القبائل يستمدها وأجابه منهم الأزد في سبعمائة منهم وكان عليهم مخنف بن سليم الأزدي، وجاء الحصين بن معبد بن زراره في جمع من بني تميم يقدر بألف رجل وجاءت طيء وعليها عدي بن حاتم، والمنذر بن حسان في جمع من ضبة.

وكتب عمر إلى عماله حتى يخرجوا كل من ينتسب إلى بجيله ويوافوا جمعهم في مكان بين مكة والمدينة والعراق. وبعد أن تجمعت بجيلة أرسلها إلى العراق بعد أن وعدها بربع الغنيمة[1].

وقبل خروج بجيلة حدث بين جرير وعرفجه الأزدي نزاع حول رئاسة القبيلة، لقد احتجت بجيله على رئاسة عرفجه، وشكوا ذلك إلى عمر بن الخطاب وطلبوا عزله عنها فرفض عمر في بادئ الأمر لأنه أقدمهم هجرة واسلاماً وأعظمهم بلاء، ولما رأوا إصرار عمر على ابقائه قالوا له: استعمل علينا رجلاً منا ولا تستعمل علينا نزيعاً فينا. فظن عمر أنهم ينفون نسبه فبعث إلى عرفجة فصدق قولهم وقال إني من الأزد وكنت حليفاً فيهم فاعتزل عرفجة قيادتهم وتسلم جرير قيادتها[2]. وهكذا نجد أن القبائل لا زالت تؤمن أن الرياسة عندهم لا تكون في غير نسبهم[3].

وخروج الجيوش حسب تشكيلاتهم القبلية كان يثير التنافس بين القبائل، وخاصة عند الرؤساء وثبت ذلك لما خرج جرير بن عبدالله نحو العراق بعث إلى المثنى بن حارثة الشيباني ليقبل إليه على اعتباره أنه مدد له، غير أن جريراً رفض ذلك وقال أنت أمير وأنا أمير[4].

وفي إرسال القوات إلى العراق لاحظ عمر أن القبائل اليمانية كانت ترغب في الذهاب إلى الشام بينما كانت القبائل المضرية تتجه نحو العراق فقال عمر لليمانية أرحامكم أرسخ من أرحامنا، ما بال مضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام[5].

(١) البلاذري، فتوح البلدان ٣١٠.
(٢) الطبري، تاريخ ٣/٤٦٢-٤٦٣.
(٣) ابن خلدون، المقدمة ١٣٢.
(٤) الطبري، تاريخ ٣/٤٧١.
(٥) الطبري، تاريخ ٣/٤٨٧.

وتفسير اتجاه القبائل اليمانية نحو الشام، أن إخوتها قد استقروا هناك قبل البعثة النبوية بزمن طويل هذا بالإضافة إلى السمعة التي كانت تتحدث عن قوة الفرس وشدة مقاومتهم.

أما القبائل المضرية فكان قربها من حدود الفرس، واحتكاكها بهذه الدولة قبل الفتوحات، ومعرفة طبائع الفرس دفعها إلى الاتجاه نحو العراق. ولذا كانت أكثر القبائل إقبالاً على العراق ربيعة وتميم. وعندما تجهز سعد لخروجه إلى العراق رافقته قبائل بارق ولع وغامد وحضرموت ومذحج والسكون وكنده وبجيله وطيء وهذه جميعها قبائل يمانية. ورافقه من القبائل العدنانية غطفان وتيم الرباب وأسد وربيعة كما خرج معه عدد غير كبير من قضاعة[1].

ولما كان خروج الجيش قد خضع للتشكيلات القبلية أراد عمر أن يخفف من حدة هذه التكتلات، فبعث إلى سعد بن أبي وقاص يأمره بتنظيم الجيش في القتال وقد جاء هذا التنظيم على النحو التالي:[2]

القائد العام: وهو الذي يعينه للخليفة، وكان في العراق سعد بن أبي وقاص.

امراء التعبية: وهم أمراء المقدمة والميمنة والميسرة والطلائع والرجالة.

أمراء الأعشار: عشر سعد الناس (أي قسم إلى عشرات) وعين على كل عشرة عريف وكل عشرة عرفاء عليهم أمير وقد سمي أمير الأعشار.

أصحاب الرايات: وهم حملة رايات القبائل.

القواد ورؤساء القبائل:

أما القيادة فقد جعلها عمر لأهل السابقة، ولم يسمح لمرتد أن يتولى من أمر المسلمين شيئاً، لأنهم حديثوا عهد بالجاهلية وفيهم عنجهية[3].

---

(١) المصدر السابق، ٣/٤٨٧.

(٢) المصدر السابق ٣/٤٨٨-٤٨٩.

(٣) مجهول، الفاصل بين الحق والباطل ١/٢٥٠-٢٥١.

لكننا نرى أن هذه التقسيمات لا وجود لها في ساحة القتال، وكل ما زودتنا به المصادر أنها كانت تقاتل متسانده، وظهر ذلك في القادسية حيث كانت بجيلة تقاتل منفردة فكادت الهزيمة أن تحيق بها فأرسل سعد إلى بني أسد لمساعدتها[١].

كما أن هذه القبائل كانت تنادي بشعاراتها الخاصة فأسد تنادي واأسداه وبجيله وابجيلاه[٢]. ورؤساء القبائل هم الذين كانوا يتولون تشجيع الناس وبث الحماس فيهم. ومن هؤلاء الرؤساء جرير بن عبدالله الذي كان يقول لقومه: لا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو منكم فإن لكم في هذه البلاد حظوة ليست لأحد من العرب[٣]. والأشعث بن قيس يقول لكنده: يا معاشر كندة لله در بني أسد أي فرى يفرون، وأي هذ يهذون عن موقفهم منذ اليوم. أغنى كل قوم ما يليهم وأنتم تنظرون من يكفيكم البأس أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم العرب منذ اليوم. وأنهم ليقتلون ويقاتلون وأنتم جفاء على الركب تنتظرون[٤]، وعاصم بن عمرو التميمي يحث قومه على ضرب خ راطيم الفيله في يوم ارماث[٥].

وعمرو بن الطفيل يقول للأزد: لا يؤتين المسلمون من قبلكم، وجندب بن عمرو الأزدي يقول لهم أيضاً: يا معشر الأزد إنه لا يبقى منكم ولا ينجو من الاثم والعار إلا من قاتل، إلا وأن المقتول شهيد والخائب من هرب اليوم[٦].

وأبو الأعور السلمي يقول: يا معشر قيس خذوا بحقكم من الصبر والأجر، فإن الصبر في الدنيا عز ومكرمة، وفي الآخرة رحمةوفضيلة فاصبروا وصابروا[٧].

وظهر التنافس القبلي وخاصة في القادسية، فالقبائل اليمانية اجتمعت للتباحث حول أفضل الوسائل لكسب النصر في القادسية حتى يكون لهم شرف ذلك الانتصار،

(١) المسعودي، مروج الذهب ٢/٣٢١.
(٢) الطبري، تاريخ ٣/٥٦٢.
(٣) الدينوري، الأخبار الطوال ١١٤.
(٤) الطبري، تاريخ ٣/٥٣٩، الفر: الأمر السريع، الهذ: القطع السريع.
(٥) الطبري، تاريخ ٣/٥٤٠.
(٦) الأزدي، فتوح الشام ٢٤٤.
(٧) المصدر السابق، ٢٢٨.

ولما رأت قبائل ربيعة ما فعلته اليمانية عقدوا اجتماعاً مماثلاً وأخذ الرؤساء يحثون أتباعهم على مواجهة الفرس ببأس وأقدام[1].

وإذا تنافست القبائل على حسن البلاء، فقد تنافس الأفراد على السيادة، وهذا عمرو بن معدي كرب لا يعترف لقيس بن هبيرة بالرئاسة عليه ويقول: يا قيس إن زماناً تكون على ما فيه أمير لزمان سوء، لئن ارجع عن دينكم هذا إلى ديني الذي كنت عليه وأقاتل حتى أموت أحب إلي من أن تتأمر علي ثانية، وهدد إذا عين عليه قائداً مرة ثانية ليفارقن سعد بن أبي وقاص[2].

إن التنافس على الرئاسة كاد أن يوهن شوكة المسلمين في القادسية وذلك عندما أصيب سعد بعرق النساء. ففوض القيادة إلى خالد بن عرفطه، وهنا ثارت ثائرة رؤساء القبائل، وأحجم بعضها عن القتال، فاضطر سعد أن يدير سير المعركة وهو منكب على وجهه[3].

ولم يختلف الوضع في الشام عنه في العراق، فخالد بن الوليد استعرض جيشه قبل اليرموك قبيلة قبيلة، وسمح لرؤساء القبائل والشعراء أن يحرضوا قبائلهم على حسن البلاء، إلا أن التنافس على السيادة لم يظهر بين قبائل الشام كما ظهر بين قبائل العراق.

والواقع أن هذا الترتيب قد جاء بنتائج إيجابية وسلبية، فمن ناحية إيجابية وحد من عصبيات العرب نحو عدو مشترك، فأرادت كل قبيلة أن تظهر تفوقها على القبائل الأخرى حتى يكون لها شرف الفخر في هذا المجال.

ومن الناحية السلبية فقد عزز الانقسامات القبلية وزاد من اتساعها، فالقبائل الصغيرة العدد اضطرت إن تتبع القبائل الأكثر عدداً والتي ترتبط معها برابطة النسب، ولأول مرة نسمع اجتماع قبائل يمانية وقبائل ربعية كما حدث في القادسية.

---

(١) الطبري، تاريخ ٣/٥٦٣.
(٢) المصدر السابق، ٣/٥١١.
(٣) الطبري، تاريخ ٣/٥٣١.

وعمر بن الخطاب كان معذوراً في هذا التنظيم، فلم يكن هناك من وسيلة تجمع بها الجيوش غير طريق القبائل، والناس حديثو عهد بالجاهلية فلم يكن بالإمكان تكوين الجيوش المنظمة التي لا تخضع للهيكل القبلي، ورأينا مثال ذلك قبيلة بجيلة التي رفضت أن يقودها حليفها واعتبرته نزيعاً لا يحق له قيادة أهل العصبية البعيدين عنه في النسب.

ولم يكن أمام عمر إلا إخراج جيشه على شكل وحدات قبلية، فالنجدات كانت تأتي متباعدة، وعلى شكل قبائل فكان يرسلها إلى ساحات القتل حسب ما جاءت إليه.

وإذا أراد أن يسأل عن جيشه لم يكن أمامه غير السؤال عن كل قبيلة وكيف بلاؤها في القتال[1]، بل عندما زار الشام تقدم الجيش السلام عليه على شكل قبائل يتقدم كل قبيلة سيدها[2].

لم يغب عن بال عمر اخطار هذه التشكيلات القبلية، فبعث أولاً إلى سعد يطلب منه تشكيل جيشه على أسس تتنافى مع التنظيم القبلي. وثانياً رأى في الشعارات القبلية عودة للجاهلية فكتب إلى أبي موسى الأشعري يطلب إليه أن يمنع مناداة القبائل بشعاراتها وقال له: .... وإذا كانت بين القبائل ثائرة فتنادوا يا فلان يا فلان فإنما تلك نجوى من الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله وتكون دعواتهم إلى الله والإسلام ... وبلغني أن ضبّة تنادي يالضبه، والله ما علمت أن ضبّة ساق الله بها خيراً قط ولا صرف بها شراً فإذا جاءك كتابي هذا فأنهكهم عقوبة حتى يفرقوا إن لم يفقهوا[3].

هذا وقد لعبت العصبية العربية دوراً بارزاً في الفتوحات، فعندما اتحدت العصبيات القبلية نحو غاية واحده وهدف واحد حققت أهدافها وعادت على الأمة بالخير العميم. لقد اندفعت هذه القبائل تقاتل العدو وتبذل الغالي والرخيص من أجل رفع كلمة الله بعد أن كانت تتقاتل في الجاهلية حمية وعصبية.

(1) مروج الذهب، ٢/ ٣٢٣-٣٣٤.
(2) ابن أعثم، الفتوح ١/ ١٩٤.
(3) الأزرقي، اخبار مكة ٢/ ١٨٧-١٨٨.

وإذا كانت عصبية الإسلام هي التي وحدت هذه القبائل، فقد كانت العصبية العربية هي التي دفعت القبائل العراقية النصرانية أن تخوض مع اخوانها العرب ساحات القتال جنباً إلي جنب. وبدأ ذلك عندما بعث المثنى إلى قبائل ربيعة التي تسكن العراق بقوله: أنتم عرب وإن كنتم على غير ديننا، فجاءه منهم أنس بن هلال النمري في قومه من بني النمر بن قاسط وابن مردى الفهري في قومه من تغلب[١] كما عمل بعض أهل الحيرة عيوناً للمسلمين على الفرس[٢].

وفي الشام وقفت قبائل لخم وجذام[٣] وغسان إلى جانب العرب بعد أن حاربت إلى جانب الروم في بدء النزاع، بل شدت العصبية جبلة بن الأيهم كي يحارب مع الأنصار لأنهم اخوانه وبنو أبيه[٤].

القبلية وتخطيط المدن:

لم يسمح عمر في بادئ الأمر بإقامة مدن للجيوش الفاتحة، وإنما رغب في إبقائها على شكل حاميات عسكرية يسهل نقلها من مكان إلى آخر وكلما استدعت الظروف ذلك وهدف عمر من ذلك عدم إشغال المسلمين بأمور المدن.

غير أن معارضة عمر لم تدم طويلاً أمام الحاح قائد العراق الذي بين له أن هذه المدن أو المراكز ستكون قواعد عسكرية تنطلق منها الجيوش بعد أن تكون قد نالت قسطاً من الراحة. فوافق عمر على إقامة مدن للجيوش.

اتبع في تخطيط المدن الطريقة التي اختطت بها مكة والمدينة من قبل، وهذا التخطيط قام على أساس تقسيم المدينة إلى خطط تتناسب مع عدد القبائل والبطون التي تسكنها. فمكة خططت أرباعاً ثم قسمت هذه الأرباع بين بطون قريش وأفخاذها[٥].

(١) المصدر السابق، ٣/٤٦٥-٤٦٧.

(٢) المصدر السابق، ٣/٥٠٨-٥٠٩.

(٣) المصدر السابق، ٢/٥٧٠-٥٧١.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان ١٤١.

(٥) ابن هشام، السيرة، ١/١٣٠، الأزرقي، أخبار مكة ٢/١٨٧-١٨٨.

والمدينة قسمت إلى خطتين رئيستين إحداهما للأوس والثانية للخزرج، ثم قسمت كل خطة حسب البطون والأفخاذ. ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل المهاجرين بخطط خاصة بهم ومن هذه الخطط خطة لبني غفار وبني ضمره، ليث، أسلم، مخزوم، مزينه، أشجع وغيرها[1].

وبعد أن وافق عمر على بناء المدن لم يجد مخططوا المدن إلا أن يتعقبوا الطريقة التي كانت معروفة عندهم وهي تقسيم هذه المدن حسب القبائل.

وأول مدينة اختطت هي البصرة وذلك سنة ١٤هـ، حيث بعث عتبة بن غزوان إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه نزل البصرة، واتخذها مقراً لعسكره، فوافق الخليفة على إقامتهم فيها، وبنوا بيوتهم من القصب حتى لا تتخذ مكان إقامة دائم، لكن حريق البصرة أثبت عدم جدوى بناء البصرة من القصب، فعاد عمر ووافق على بنائها من الأجر بشرط أن لا يتطاول الناس بالبنيان.

لقد اختلف في مخطط البصرة فمن قائل هو محجر بن الأورع السلمي، أو نافع بن الحارث بن كنده، أو الأسود بن سريع التميمي[2]، والأسماء الثلاثة تعطي مدلولاً عن القبائل أو الكتل القبلية الثلاث التي سكنت البصرة وهي قيس وكنده وتميم وليس يهمنا هنا من قام بالتخطيط بقدر ما يهمنا شكل هذا التخطيط ونوعه.

لقد قام تخطيط البصرة على خمسة خطط، وقد حفظت لنا المصادر التاريخية هذه الخطط على النحو التالي:

- **خطة أهل العالية**: وهذه الخطة تضم قبائل متعددة لا يجمع بينها رابطة النسب وإنما رابطة المكان أي القبائل التي كانت تقيم في منطقة الحجاز وهذه القبائل هي: سليم وضبه ومزينه وباهله وثقيف وليث وخزاعة وهذيل وغنى وقشير ونهد ونمير، وكثرة هذه القبائل تدل على أن أعدادها كانت قليلة في البصرة.
- **خطة تميم**: كانت تميم من أكثر القبائل التي سكنت البصرة، ومن هنا كان لها خطة خاصة بها تضم بطونها المختلفة ومن هذه البطون: سعد وصريم وقريع وجشم، ومجاشع، نهشل، يربوع وغيرها.

(١) السمهودي، وفا الوفاء ٥٤٧-٥٤٩.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ٣٤١.

- **خطة بكر بن وائل،** والقبيلة التي كان لها كثرة في البصرة هي ربيعة وكان لها من بين خطط البصرة، خطتان احداهما لبكر بن وائل والثانية لعبد القيس، وضمت خطة بكر بن وائل بطونها المختلفة مثل عجل وقيس بن ثعلبه وسدوس وضبيعة، ويشكر وذهل، وحنيفة، وتيم بن ثعلبه، وعنزه.
- **خطة عبد القيس،** وتضم ثمانية بطون منها: محارب، ظفر، عصر، عامر بن الحارث، صباح.
- **خطة الأزد،** وتضم القبائل التي تنتمي إلى أرومات يمانية ومن هذه القبائل عتيك، الحدان، الزهران، قردوس، وبلغ عدد البطون التي سكنت في هذه الخطة أربعة وعشرين بطناً[1].

ومن هذه الخطط نرى أن أكثر القبائل التي سكنت البصرة هي من القبائل التي كانت تقيم في شرق الجزيرة العربية، أي مناطق الخليج العربي اليوم.

أما المدينة الثانية التي أقيمت في العراق هي الكوفة وقد أنشأت سنة ١٧هـ ويذكر السبب في بنائها أن الخليفة عمر استقبل وفداً من أهل العراق فرأى تغيراً في وجوههم، فسأل عن ذلك فقيل له من وخومة البلاد. فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص ليتأكد من حقيقة الأمر، فصدق سعد ما سمعه عمر، فكتب إليه أن يبعث رائدي الجيش سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان ليرتادا مكاناً يلائم الجند واشترط أن لا يكون بينه وبينهم بحراً[2].

ووقع اختيار رائدي الجيش على أرض الكوفة، وكأختها البصرة أقيمت أول الأمر من القصب، إلا أن الحريق الذي شب بها وأتى على ثمانين عريشاً منها دعا المسلمين إلى إعادة بناء الكوفة من الآجر كما بنيت البصرة.

اختلف تخطيط الكوفة عن تخطيط البصرة ومرد ذلك إلى كثرة القبائل التي سكنت الكوفة، فالبصرة قسمت أخماساً، أما الكوفة فقد قسمت أسباعاً.

---

(١) صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية في البصرة ٣١٧-٣٢٦.

(٢) ابن خياط، تاريخ ١/١٠٩، الطبري، تاريخ ٣/٤٠-٤٣.

وتظهر العصبية عندما قسمت المدينة إلى قسمين في بادئ الأمر أحدهما لليمانية والثاني للنزارية، وكان اختيار الطرفين لخطته حسب نظام القرعة، فخرج السهم الشرقي للقبائل اليمانية والسهم الغربي للقبائل النزارية[1].

جاءت خطط الكوفة على النحو الثاني:

- الخطة الأولى: وتضم كنانه وحلفائها من الأحابيش.
- الخطة الثانية: وتضم اياد وعك وعبدالقيس وأهل هجر والحمراء (الموالي).
- الخطة الثالثة: وتضم قضاعة ومعها غسان بن شبام، وبجيله وخثعم وكنده وحضرموت.

وهذا يدل على قلة اعداد القبائل التي كانت هناك.

- الخطة الرابعة: خطة الأزد.
- الخطة الخامسة: وتضم مذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم.
- الخطة السادسة: وتضم تميم وبطونها ومعهم هوازن.
- الخطة السابعة: وتضم أسداً وغطفان ومحارب وضبيعة وتغلب[2].

وقسمت المدينة أيضاً إلى خمسة عشر نهجاً، والنهج هو مسكن القبيلة حيث لا يشاركها فيه أية قبيلة أخرى. وهذه المناهج كانت على الشكل التالي[3]:

١- في ودعة الصحن (أي في شماله) كان فيه خمسة مناهج، وبين كل منهج طريق وهذه المناهج هي: (سليم)، (ثقيف)، (همدان)، (بجيله)، (تميم اللات).

٢- قبلة الصحن (أي في جنوبه) فيه أربعة مناهج وهي: (أسد)، (بين أسد والنخع)، (كنده والنخع)، (كنده والأزد).

٣- شرق الصحن: فيه ثلاثة مناهج: (الأنصار ومزينة)، (تميم)، (أسد وعامر).

(١) البلاذري، فتوح البلدان ٣١٠.
(٢) اليعقوبي، البلدان ٣١٠-٣١١.
(٣) الطبري، تاريخ ٤/٤٥.

٤- غرب الصحن: فيه ثلاثة مناهج: (بجاله وغطفان وبجله بن قيس)، (جديله) (جهينه).

هذا وقد استعان سعد بعدد من النسابة العرب منهم سعيد بن نمران ومشعلة بن نعيم حتى يتم عن طريقهم توزيع القبائل حسب الخطط التي خصصت لهم.

وبقي هذا التقسيم محافظاً على طبعه حتى خلافة علي حيث أجرى تغييراً على خطط الكوفة فكان هذا التغيير الأول وأصبحت خطط الكوفة على النحو التالي:

الأول: همدان وحمير.

الثانية: مذحج وأشعر وطيء.

الثالثة: قيس وتضم عبس وذبيان ومعهم عبدالقيس.

الرابعة: كنده وحضرموت وقضاعة ومهره.

الخامسة: الأزد وبجيله وخثعم والأنصار.

السادسة: بكر وتغلب وبقية بطون ربيعة عدا عبد القيس.

السابعة: قريش وكنانة وأسد وتميم وضبّه والرباب[١].

والتقسيم الجديد يجمع القبائل ذات النسب الواحد أكثر مما كان في التخطيط السابق. والملاحظة الثانية أن معظم قبائل الكوفة هي من القبائل اليمانية، بينما كانت غالبية قبائل البصرة من المضرية والربعية.

ورغم أن خطط الكوفة قد جمعت قبائل متباعدة في نسبها إلا أن هذا الجمع ما كان يعني الاختلاط بالمعنى الدقيق، فقد كان لكل بطن أو قبيلة منطقة سكنية يفصلها عن البطن أو القبيلة الأخرى زقاق.

كان نظام الأخماس والأسباع نقطة البدء في إحداث تشكيلات قبلية واسعة لم تكن معروفة من قبل. لقد حتمت الظروف الجديدة على القبائل الصغيرة العدد أن تنظم إلى القبائل الأكثر منها والتي تمت إليها بصلة النسب والقرابة، هذا بالإضافة إلى إعادة الأحلاف التي كانت معروفة في الجاهلية.

(١) ماسنيون، خطط الكوفة ١٠.

جاءت الخطط لتساعد على المظاهر القبلية، وتقيم النظام الاجتماعي على أساس قبلي، فقد كان لكل قبيلة خطتها ومسجدها، وحتى جبانتها الخاصة بها[1]. لقد أعاد التوزيع القبلي الجديد الحياة القبلية الى ما كانت عليه في العصر الجاهلي بل وبشكل أوسع مما كانت عليه.

وكان عدد سكان الكوفة عند تخطيطها ما يقرب من أربعين ألفاً[2] وتضاعف العدد بسبب الهجرات المتواصلة حتى بلغ عدد سكان الكوفة في وقعة صفين حوالي ٧٥ ألفاً ومن الموالي ثمانية آلاف[3].

وفي البصرة كان هناك ثمانية الآف نسمة عند انشائها، لكن الهجرات ضاعفت من سكانها مما اكسب المدينة مركزاً هاماً من النواحي الاقتصادية[4].

وتخطيط المدن استدعى قيام وظائف إدارية لم تكن معروفة من قبل. وهذه الوظائف هي رؤساء الأسباع والأخماس، فقد كان لكل سبع أو خمس رئيس يتمتع بصفات قيادية، تدعمه قبيلة لها في المصر شأن. وقد لعب هؤلاء الرؤساء أدواراً بارزة في أوقات الأزمات والحروب التي ظهرت في البصرة والكوفة. وكان الولاة يعتمدون كثيراً على هؤلاء الرؤساء وخاصة في الأزمات، كما كان لهم دور في ضبط أقسامهم وتوزيع العطاء.

ويأتي بعد الرؤساء طبقة العرفاء، وكان هؤلاء مخصصون لتوزيع العطاء على المجموعات التي ينتمون إليها، وتجاوز أمر العرفاء توزيع العطاء، فكانوا يندبون الناس للقتال في أيام الحروب. وبعد العرفاء تأتي طبقة الحراس، حيث كان لكل خطة حارس يحافظ على الأمن فيها وبهذه التنظيمات يمكن القول أن القبيلة كانت تشكل دولة داخل المصر الذي تسكنه.

وفي الشام كانت المدن مبنية قبل قدوم العرب إليها على أن التوزيع القبلي على هذه المدن شابه ما كان في العراق، واتبع في إقامة القبائل ناحيتين: الأولى توزيع بعض

(١) اليعقوبي، البلدان ٣١١.
(٢) ياقوت، معجم البلدان، مدة كوفه.
(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١٤٨/١.
(٤)

القبائل على قرى زراعية، فأصبحت هناك قرى لعبس، والسكون وغيرها. والثانية تقسيم القبائل حسب الخطط، ففي حمص مثلاً كان المتولي لخططها السموأل بن الأسود الكندي فقسم القبائل ومعظمها من اليمانية على الخطط التي اختطها هناك.

وخططت المدن في غرب الدولة الاسلامية على أساس قبلي، كما اختطت في شرقها ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا مدينة القيروان، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن هذه المدينة كانت قاعدة عسكرية في بداية إنشائها، يضاف إلى ذلك قلة عدد الأفراد المشتركين من كل قبيلة وانتمائهم إلى قبائل كثيرة، مما صعب معه توزيعهم حسب خطط خاصة.

والفسطاط خططت حسب النهج الذي اتبع في الكوفة والبصرة. وكان المتولي لتخطيطها معاوية بن حديج وشريك بن الغطيفي، وعمرو بن مخزوم الخولاني وحيويل بن ناشره المعافري، وفي خطط الفسطاط نشاهد تفصيلاً أدق للقبائل التي سكنت فيها، وقد ذكر ابن دقماق أكثر من عشرين خطة وجدت هناك. ومن هذه الخطط[1].

أهل الراية:

وتضم القبائل الحجازية من قريش والأنصار وغفار ومزينه وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس وليث. وسموا بذلك لقلة أعدادهم، فلم يفرد لهم عمرو بن العاص في الديوان بابا خاصاً بهم فكرهوا أن يدعو باسم قبيلة غير قبائلهم فجعل عمرو لهم راية فسموا بها.

اللفيف:

وعامتهم من قبائل الأزد وغسان وجذام ولخم وتنوخ. وسموا بذلك لالتفاف بعضهم ببعض، وكانوا جمعاً كثيراً فسألوا عمراً أن يفرد لهم دعوة بالديوان فامتنعت عشائرهم فقال لعمرو أنا نجتمع في المنزل حيث كنا نوافق على ذلك فكانوا مجتمعين في المنزل متفرقين في الديوان.

---

(١) ابن دقماق، الانتصار، طبعة بولاق ١٩٠٣: ٣/٤ وما بعدها.

أهل الظاهر:

وهم العتقاء الذين اعتقهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا يغيرون على أهل المدينة وسموا بذلك لأن بعضهم نزل الاسكندرية ثم عادوا بعد رجوع عمرو، وكان الناس قد سكنوا في خططهم فقال لهم معاوية بن حديج أرى لكم أن تظهروا على أهل هذه القبائل وتتخذوا منزلاً فسمي الظاهر.

ومن الخطط أيضاً: مهرة، تجيب، خولان، مذحج، يحصب من اليمن، المعافر ورعين من حمير، الكلاع، سبأ، بلي، قضاعة، حضرموت، لخم، هذيل، وخطط للروم.

وانفردت قبيلة همدان في خطتها وأقامت في الجيزة، ولما علم عمر بن الخطاب بذلك طلب من عمرو ان ينقلهم، وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً، وعندما رفضت همدان الارتحال أمر عمر ببناء سور حولهم من بيت المال[1].

بهذا الخطط التي وجدت في العراق والشام ومصر، وخراسان فيما بعد نجد أن العرب قد انتقلوا من قبلية الصحراء إلى قبلية المدن[2]، وكل ما جد على العربي أنه استبدل الخيمة بالبيت. فالقبيلة تسكن في خطة معينة، وجميع مرافق الحياة تظهر فيها المظاهر القبلية، ومما زاد من ذلك أن الخليفة نفسه كان يأمر كل قبيلة أن تتخذ لها مسجداً معيناً، وفي يوم الجمعة وعند الضرورة يلتقون في المسجد الجامع.

ويعلق الدكتور شكري فيصل على هذا التخطيط بقوله[3]: .... والواقع أن مخططي هذا المدن لو اتبعوا تخطيطاً يوزع على أفراد من حيث هم من جسم الدولة وأعضاء في هذا الجيش، لا حسب تكتلاتهم القبلية ربما خففت من حدة غلواء القبلية وانطباعها في النفس.

وسوف نرى أنه ما أن خمدت حركة الفتوحات الاسلامية مضافاً إليها عوامل أخرى حتى أخذت هذه الكيانات القبلية تتوسع تدريجياً بل عادت تمد يدها إلى أحلاف لتنصرها وتؤازرها ضد قبائل أخرى.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٢٨-٢٩.

(٢) شكري فيصل، المجتمعات الاسلامية ١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ١٠٥.

ومع أن ما توصل إليه الدكتور شكري فيصل صحيحاً إلا أنه لم ينظر إلى الواقع الذي كانت عليه حالة الدولة الإسلامية آنذاك، بحيث لم يكن أمام المخططين من وسيلة غير هذه الوسيلة، فالتعبئة كانت تستدعي أن تكون القبائل مجتمعة في مكان واحد وتوزيع العطاء كان يستدعي أن يكون أفراد القبيلة في مكان معين، ثم أن المخططين لم يخطر ببالهم أن يتبعوا تخطيطات جديدة، فاتبعوا التخطيطات التي كانت معروفة إليهم.

القبلية وديوان العطاء:

وجاء تنظيم ثالث في عهد عمر بن الخطاب ليعزز المظاهر القبلية، وهو ديوان العطاء.

قام هذا الديوان على قاعدة النسب، فكتبت القبائل حسب أروماتها ومنفصلة عن بعضها البعض، ومن أجل هذا الديوان أهتم الناس بعلم الأنساب، وكان على رأس هؤلاء عمر بن الخطاب الذي قال: تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم من أنت قال من قرية كذا، إنه يكون بين الرجل وبين أخيه الشيء لو يعلم الذي بينه وبينه من دخلة الرحم لردعه عن ذلك من انتهاكه[1]، كما اعتبر الشعر وسيلة ومن وسائل معرفة الأنساب وحث على تعلمه[2].

لقد أقبل العرب على تعلم الأنساب معنيين بدراسته حيث كانت العصبية القبلية تحمل كثيراً منهم على أن يتخذ من عمله هذا وسيلة للطعن في أنساب الغير. ولذا قام عمر يحذر من تعلم الأنساب من أجل الطعن بها[3].

وعندما أراد عمرو وفي سنة ١٥ تدوين الديوان وجد نفسه محتاجاً إلى بعض رجال الأنساب، فاستدعى عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم

(١) ابن عبد البر، الأنباه ٤٢.
(٢) ابن رشيق، العمدة ٢٨.
(٣) الزمخشري، الفائق ٣٨/٢، ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي. ٢١٩.

وكان هؤلاء من علماء النسب في قريش[1]. والظاهر أنه اعتمد في أنساب كل قبيلة على بعض نسابيها.

أما سبب تدوين الديوان فكانت كثرة الأموال التي أخذت تتدفق على الدولة فأشير على عمر بتنظيم ديوان يضم أسماء الجند والقبائل، وبه تتمكن الدولة معرفة من أخذ عطاءه ممن لم يأخذه.

إن التطورات الجديدة للدولة استدعت إيجاد نظام مالي دقيق، وما كان عمر بن الخطاب ليعجز عن هذا النظام لا سيما وأنه يقول: .... من أراد أن يسأل عن المال فليأتني فإن الله جعلني خازناً وقاسماً[2].

وقبل البدء بالتدوين استشار عمر كبار الصحابة في هذا الشأن. فأشار بعضهم بالتدوين، ورأى هؤلاء فيه وسيلة لإحصاء الناس حتى يعرف ممن أخذ عطاءه ممن لم يأخذه[3]. وعارض فريق آخر، وكان من رأيهم قسمة الأموال كل سنة ولا حاجة لإنشاء هذا الديوان. ومن المعارضين من نظر فيه مغايراً لمصلحة قبيلته كحكيم بن حزام الذي قال: أن قريشاً أهل تجارة ومتى فرض لهم العطاء اتكلوا عليه فيدعوا التجارة، فيأتي من يحبس عنهم العطاء وقد خرجت منهم التجارة[4].

وكان رأي عمر مع الموافقين على التدوين وأوعز إلى رجال الأنساب أن يقوموا بهذه المهمة، إلا أنه اصطدم بمشكلة ترتيب الديوان، فجاء إلى عبدالرحمن بن عوف وسأله عن ذلك فأجاب ابن عوف أن يبدأ بنفسه، فقال عمر أني حضرت رسول الله وهو يبدأ ببني هاشم وبني المطلب[5].

---

(١) ابن سعد، الطبقات ٣/٢٦٢.

(٢) ابن سلام، الأموال ٣١٩، ابن منقذ، المنازل والديار ٦٢.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية ٢٠٠، القلقشندي، صبح الأعشى ١٣/١٠٧.

(٤) ابن بكار، جمهرة نسب قريش ٣٧١.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان ٤٣٥، القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣-١٠٨.

أما رجال الأنساب فقد اقترحوا تنظيم الديوان بتقديم النبوة ثم على الخلافة أي بنو هاشم، بنو تيّم، بنو عدي، إلا أن عمر لم يقبل ذلك وقال ابدأوا بقرابة رسول الله الأقرب فالأقرب حيث تضعوا عمر حيث وضعه الله[1].

وفي شأن الديوان نلمح أمرين: تنظيم الديوان وكتابته، وكمية العطاء.

أما بالنسبة لتنظيم الديوان وكتابته فقد أقيم حسب القبائل، وأصبح لكل قبيلة ديوان خاص بها[2]. وحتى يتمكن عمر من احصاء دقيق لهذه القبائل كان يستعين بنسابة منها، فنسابة قريش كتبوا ديوانهم والأنصار تولى أمر ديوانهم زيد بن ثابت[3]. فنشأ عن ذلك سجل منفرد لكل قبيلة، وكان عمر يحمل سجلات هذه القبائل إلى منازلها ويوزع عليها أعطياتها[4].

وضم إلى القبيلة مواليها ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا ديوان الحبشة حيث رغب بلال في بقائه مع خثعم لأن أبي رويحه عبدالله بن عبدالرحمن الخثعمي كان ممن آخى الرسول بينه وبين بلال[5]. ومع أن عمر توخى العدل وقرابة الرسول في ترتيب وتنظيم الديوان إلا أن قبيلته عدي جاءت إليه وطلبت أن ينضم الديوان حسب الخلافة فقال لهم: بخ بخ بني عدي أردتم الأكل على ظهري، وأن أهب حسناتي لكم، لا والله حتى يأتيكم الدعوة وأن يطبق عليكم الدفتر (يعني ولو كتبوا آخر الناس)[6].

أما من حيث كمية العطاء فقد راعى عدة أمور هي:

القرابة القريبة من رسول الله، فإذا استوى الناس بالقرابة قدم أهل السابقة وقد خالف عمر بذلك سلفه أبا بكر بذلك، فأبو بكر اتبع السوية فكانت نظرته نظرة انسانية من هذه الناحية وقال فضائلهم عندالله وأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير من الأثرة[7].

(١) المصادر السابقة ٤٣٦، ١٣/٣، ١٠٧.
(٢) ابن سعد، الطبقات ٢٩٩/٣.
(٣) أبو يوسف، الخراج ٤٩.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان ٤٣٨.
(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٩٢/١-١٩٣.
(٦) ابن سعد، الطبقات ٢٩٥/٣.
(٧) ابن سلام، الأموال ٣١٩.

ونظرة عمر كانت واقعية ومن هنا اعتمد على القرابة والسابقة، والواقع أنه نادى بهذه الفكر منذ عهد أبي بكر وقال للخليفة: أتساوي بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبيلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف. فأجابه أبو بكر: إنما عملوا لله وإنما أجورهم على الله، وإنما الدنيا دار بلاغ للراكب. وعندما تسلم عمر الخلافة قال لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه.

ونظام السبق قام على طبقات منها: من أسرعت فيه الهجرة أسرع به العطاء، ومن أبطأ في ذلك أبطأ به العطاء، ولا يلومن رجل إلا مناخ راحلته[1]. وبهذا نرى أن مفاضلة عمر ليست قائمة على قرابة أو تحزبات أو قبلية وإنما قامت على أساس ما قدمه المسلم للإسلام، وحتى يحقق عمر العدالة على الجميع اعتبر نفسه كرجل من المسلمين يصيبه ما يصيبهم[2].

كما راعى عمر أيضاً الجهد والمشقة والبعد. ففضل أهل الشام على الكوفيين، ولما احتجوا على ذلك قال: يا أهل لكوفة أجزعتم أن فضلت أهل الشام عليكم لبعد شقتهم[3] وفرض لأهل اليمن في ٧٠٠-١٠٠٠ درهم لبعد دراهم عن المهاجر[4].

وساوى عمر بين الموالي والعرب في كميات العطاء فالمولى البدري أخذ كالعربي البدري أما موالي الأمصار وهم الذي دخلوا الإسلام بعد الفتوحات فقد حث عمر على مساواتهم من الناحية المالية والاجتماعية حيث كتب إلى أحد عماله: أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم[5]. وبعث إلى أمراء الأجناد: أن من اعتقتم من الحمراء فأسلموا فالحقوهم بمواليهم لهم مالهم، وعليهم ما عليهم، وأن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم اسوتهم في العطاء، ولم يقف عمر عند هذا الحد بل فضل من أظهر من الموالي بلاء في الإسلام "في العطاء" وساواهم من هذه الناحية بالعرب[6].

---

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ١٩.

(٢) ابن سلام، الأموال ٣٤٨، ٣٨٠، وانظر الجاحظ، العثمانية ٢١٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات ٦/٩.

(٤) الجاحظ، العثمانية ٢١٢.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان ٤٤٣.

(٦) الطبري، تاريخ ٩١/٤، انظر الجاحظ، العثمانية ٢١٢.

ومما تقدم نرى أن الجنسية القبلية لم تكن هي التي تحدد كمية العطاء وإنما كان يحدده بلاء الرجل وقدمه وسابقته وغناءه في الإسلام. ومن هنا جاء الديوان مقسماً إلى أربع عشر طبقة[1].

(الأولى) طبقة العباس، (الثانية) أزواج النبي صلى الله عليه وسلم (الثالثة) البدريين، (الرابعة) الخليفة والحق به الحسن والحسين لقربهما من الرسول صلى الله عليه وسلم، (الخامسة) أهل الحديبية والحق بهم اسامة بن زيد وعمر بن أبي مسلمة، (السادسة) من أسلم بعد الحديبية والحق بهم عبدالله بن عمر، (السابعة) ذوي الأيام في القادسية (الثامنة) أهل القادسية وأهل الشام، (التاسعة) ما بعد القادسية واليرموك، (العاشرة)، الروادف وهي التي هاجرت بعد الفتوحات وكانت هذه ثلاث طبقات، (الرابعة عشر) طبقة النساء والصبيان.

الاحتجاج على كمية العطاء:

اختلف المسلمون في نظرتهم لديوان العطاء، فالعباس قال لعمر وصلتك رحم وهذا يدل على رضائه من هذا الديوان[2].

أما عبدالله بن عمر فقد أظهر احتجاجاً على العطاء الذي أخذه أسامه بن زيد وذكر أنه شهد وقائع في الإسلام لم يشهدها أسامة وقد برر عمر عمله هذا بأن أسامة كان أحب إلى رسول الله من عبدالله، وأبوه أحب إليه من أبيه فسكت عبدالله[3]. واحتج محمد بن عبدالله بن جحش على فريضة عمر بن أبي سلمه. فقال عمر فليأت الذي يستغيث بأم مثل أم سلمه وكانت أمه زوجاً للرسول صلى الله عليه وسلم[4].

واحتج أبو سفيان وقال، أديوان مثل ديوان بني الأصفر، إنك إن فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة، فقال عمر لابد من هذا فقد كثر الناس[5]. والذي

(١) انظر كمية عطاء كل طبقة في: أنساب الأشراف ٤٤١/١، فتوح البلدان ٤٣٧. الطبري ٦١٤/٣ وما بعدها.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ٤٤٤.

(٣) المصدر السابق، ٤٣٨.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان ٥٥١.

(٥) المصدر السابق ٤٤٤.

يظهر أن احتجاج أبي سفيان إنما لوجود من يأخذ فريضة أكثر منه ويستدل على ذلك من امتناع صفوان بن أميه، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو أن يأخذ فرائضهم وقالوا: لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا، واتهموا عمر بأنه يعرف حق قريش إلا أنه يقصر بهم[1]. وعبثاً حاول عمر إقناعهم بأنه أعطى الناس على السابقة لا على الاحساب[2].

ولم تكن قريش وحدها هي التي احتجت على الديوان، فقد شاركها بعض القبائل فعندما كان عمر في الشام تحدث عن توزيع العطاء، وبين للناس الأسس التي قام عليها هذا التوزيع فنهض رجل من جذام وقال: يا ابن الخطاب أنشدك الله في العدل والتسوية. فرد عليه ما يريد ابن الخطاب بهذا إلا العدل والتسوية، والله إني لأعلم أن الهجرة لو كانت بصنعاء ما خرج إليها من لخم وجذام إلا قليل، أفأجعل من تكلف السفر وابتاع الظهر بمنزلة قوم إنما قاتلوا بديارهم[3].

لقد كانت السابقة في الإسلام والغناء فيه هي الأمور التي استند إليها عمر في تحديده لكميات العطاء، إلا أنه كان في بعض الأحيان يتراجع عن ذلك أمام ضغط القبائل. لقد كتب إلى سعد بن أبي وقاص بأن يعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن، فطلب سعد عمرو بن معدي كرب الزبيدي وقال له: ما معك من القرآن فقال ما معي شيء. فقال سعد: أن أمير المؤمنين كتب إلي أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن فقال عمرو:

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد ... قالت قريش ألا تلك المقادير

نعطي السوية من طعن له نفذ ... ولا سوية إذ نعطي الدنانير

فكتب سعد إلى عمر بذلك فتراجع عمر عن شرطه الأول، وأمر سعداً أن يعطي الناس على مقاماتهم في الحروب[4].

---

(1) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ٧٨.
(2) الطبري، تاريخ ٦١٣/٣.
(3) ابن سلام، الأموال ٣٧٥.
(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٦٧/١.

والاحتجاجات التي ظهرت على الديوان ربما كانت هي الأسباب التي جعلت عمر يفكر في تعديل نظامه وقد قال بهذا الشأن: لئن عشت إلى قابل لألحقن آخر الناس بأولهم حتى يكونوا بياناً أي ضرباً واحداً في العطاء[1] لكن المنية عاجلته وبقي نظام العطاء على حاله.

وكما نظم عمر العطاء فقد نظم الفيء أيضاً فجعله لأهل الأمصار وهي البصرة، والكوفة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر، والغاية من ذلك استمرارية الهجرة إلى هذه الأمصار[2].

الديوان والعصبية القبلية:

رأينا في الفصل الأول أن الأنساب هي جرثومة العصبية، وهي الأساس الذي تقوم عليه الرابطة القبلية، ولما كان ديوان العطاء قد قام على الأنساب، فلا بد والحالة هذه من أن يقبل الناس بحماس على تعلم أنسابهم. ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تحددت معالم الرابطتين العدنانية والقحطانية نتيجة ديوان العطاء. لقد قدمت القبائل العدنانية على القحطانية لأن النبوة كانت فيهم، وقدمت مضر على القبائل العدنانية للنبوة أيضاً واستمر في هذا الترتيب حتى استقر في بني هاشم فالديوان هنا أوثق من الروابط القبلية وتآزر مع تخطيط المدن ليحافظ على التشكيلات القبلية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي.

والواقع أنه لم يكن أمام عمر من وسيلة يجمع ويحصي بها أفراد القبائل إلا هذه الطريقة. لقد كان احصاء الناس في ذلك العهد عمل شاق وصعب، فكان لا بد من الالتجاء إلى القبائل والعشائر لتكون منهجاً له في ترتيب الديوان. وبهذا العمل ثبت الناس في قبائلهم وهو تثبيت لم يتعمده عمر وإنما جاء عفواً.

---

(١) ابن سلام، الأموال ٣٧٥، الزمخشري، الفائق ٥٦/١.

(٢) الطبري، تاريخ ٦١٥/٢.

عمر وموقفه من العصبية:

حارب عمر العصبية القبلية بأمرين: عدالته وشدته، وهيبته في غير عنف ولين في غير ضعف.

أما بالنسبة للأمر الأول فقد بدأ عمر بنفسه وقبيلته، فلم يميز أحداً منهم في العطاء، بل أعطى كلا منهم ما يستحقه، ورأينا كيف عارض قبيلته عدي عندما احتجت على ترتيب الديوان، وكيف اقنع ابنه عبدالله بأن أسامه بن زيد يستحق أكثر منه عطاء.

وعمر لم يول أحداً من أقاربه شيئاً إلا بمقدار ما يستحقون، وفي هذا الشأن قال ما أحببت من أهلي إلا النعمان بن عدي وقدامه بن مظعون فما بورك لي فيهما. فقدامه حد بالخمر والنعمان ولاه ميسان ثم عزله بعد أن سمع قوله:

فمن بلغ الحسناء أن حبيبها ميسان يسقى في زجاج وحنتم[1]

وعدل عمر هو الذي أوحى إليه أن لا يرشح سعيد بن زيد وهو من العشرة المبشرين بالجنة للخلافة، كما أنه لا يرغب بالعهد بها لابنه حتى لا يليها رجلان من عدي[2].

وعلاقة عمر بقريش كانت تتأرجح بين الشدة والعطف عليهم. فقد أدرك عمر مقدار حب قريش لتملك الأرض وجمع الأموال، وأدرك أيضاً تطلع القبائل الأخرى إليها فأمر بالحجر على اعلام قريش ولمدد محدوده ولم يسمح لهم حتى بالجهاد[3].

كان عمر لا يهاب أحداً في الله، فهو مع تكريمه للعباس وتفضيله في العطاء إلا أنه قال له: لقد بلغني أنك تقول إنما حرفوها عنك (الخلافة) حسداً وبغياً وظلماً اختارت قريش لنفسها فأصابت[4]. وضرب سعد بن أبي وقاص لأنه كان يزاحم الناس وقال له أنك لا تهاب سلطان الله في الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله

(1) ابن حزم جمهرة أنساب العرب ١٥٧-١٥٨، البكري، معجم ما استعجم ١٢٨٣/٣.
(2) النجوم الزاهرة، ١٤١/١-١٤٢.
(3) اليعقوبي، تاريخ ١٤٨/٢.
(4) ابن الأثير، الكامل، ٣٤/٢.

لا يهابك[1]. وخفق أبا سفيان بالدره، عندما نادى يا آل قصي وقال له أتدعو بدعوى الجاهلية[2]. كما وضع القيد في رجله لأنه أخفى بعض المال الذي أرسله معاوية إلى عمر بن الخطاب[3].

كانت عين عمر ساهرة على قريش في الحجاز وفي خارجه لقد كتب إلى أبي عبيدة يسأله عن القواد القرشيين المتواجدين في الشام وخاصة عن خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص[4].

واقتص من أبن الأكرمين (محمد بن عمرو بن العاص) لضربه رجلاً مصرياً وقال: لا والله يا معشر قريش ما تظنون إلا أن الناس عبيد لكم[5].

وظهرت درجة العدل عند عمر عندما أقام الحد على ابنه وباشره بنفسه فقال له ابنه يا أبتاه قتلتني، فرد عليه يا بني إذا لقيت ربك فاعلمه أن أباك يقيم الحدود[6].

ولم يكن عمر في عقابه يعاقب عقاب المنتقم إنما كان يعاقب عقاب المصلح فعندما حد بعض أفراد من قريش بشرب الخمر، أخذ بعضهم يستحي من الخروج فكتب إلى أحدهم: أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فتب وارفع رأسك وابرز ولا تقنط من رحمة الله، ووجه إلى عامة الناس كتاباً حذرهم فيه من عيب الذين أقيم عليهم الحد[7].

لقد تنبه عمر إلى قريش حتى في مجالسها، فقال لهم يوماً: بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان؟ حتى تحوميت المجالس. وأيم والله إن هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم، ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول: هذا رأي فلان، قد قسموا الإسلام أقساماً أفيضوا في مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً لألفتكم وأهيب لكم في الناس[8].

(1) مجهول، تاريخ الخلفاء ٧.
(2) أنساب الأشراف، ج٤، قسم ٨/١.
(3) المصدر السابق ١٨/١.
(4) الأزدي، فتوح الشام، ٩٩.
(5) ابن أعثم، الفتوح ٨٢/٢.
(6) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ٤٩٧.
(7) الطبري، تاريخ ٩٧/٤.
(8) المصدر السابق، ٢١٤/٤.

لقد أدرك عمر مدى مراقبة القبائل لقريش، وحسدهم لها، وسنرى أن هذا الحسد كان أحد العوامل التي أدت إلى الثورة على عثمان. وحتى في عهد عمر نسمع أن حبيب بن مسلم وهو صحابي يقول لمن حوله: أصبح والله أميركم: (يزيد بن أبي سفيان) يحسن الثناء على عمر بعد أن جعله والياً على الشام[١].

اشتد عمر على قرش كما أحبها في غير اثم، ففي السقيفة كان يرى أن الأمر لا يصلح إلا لرجل من قريش ولن ترضى العرب إلا به[٢]. وقريش عنده هم رؤوس الناس[٣] واحتج على نافع بن عبدالحارث الخزاعي لأنه عين مولى على أهل مكة، لكنه تراجع عن ذلك عندما علم بأنه أقرأ الناس لكتاب الله[٤].

واشتكى عتبة بن غزوان من سعد بن أبي وقاص فقا له: أما عليك أن تقر بالأمارة لرجل من قريش له صحبة وشرف[٥]. وعندما رأى أفرادا من قريش صغرت أجسامهم أمرهم أن يغتربوا في الزواج من البعداء[٦].

عمر والعرب:

بعد أن تسلم عمر الخلافة رفع الحظر الذي كان مفروضاً على أهل الردة، فسمح لهم أن يكونوا جنداً لا قادة، ورد أيضاً سبايا أهل الردة إلى عشائرهم وقال أني كرهت أن يصير السبي سنة عند العرب[٧].

وفي معاملة عمر للقبائل كان لا يجد مفراً من تقديم سادة العشائر على غيرهم[٨]. ومع هذا الاحترام لرؤساء القبائل إلا أن عينه كانت ساهرة لكل شيء وإذا ما أحس بخطر كان لا يتوانى عن تطبيق العقوبة الرادعة. لقد سجن عبدالله بن مسعود وجماعته لأنهم أكثروا من رواية الحديث عن رسول الله ولم يخرجوا من السجن إلا

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، ٢٧٧.
(٢) الديار بكري، الخميس ١٨٧/٢.
(٣) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ١٦٠.
(٤) أخبار مكة ١٢٢/١.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان ٣٣٦.
(٦) أحمد أمين، ضحى الإسلام ١٨/١-١٩.
(٧) اليعقوبي، تاريخ ١٢٩/٢.
(٨) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ٦٤.

بعد مقتله[1]. وسجن الأحنف بن قيس سيد تميم سنة كاملة حتى رأى منه صلاحاً فأطلقه[2].

ودخل عليه عيينه بن حصن الفزاري وقال أنا ابن الأخيار. فقال له عمر بل أنت ابن الأشرار[3]. وخفق الجارود بن المعلى سيد ربيعة حتى لا تحدثه نفسه بالغرور عندما سمع من أحد الناس بأنه سيد لربيعة[4].

وكما أحب عمر قريشاً فقد أحب العرب، وكان يحوطهم برعايته، ويقول لهم إياي واخلاق العجم، لقد أراد أن يحافظ على وحدة القبائل العربية، وسعى من أجل ذلك كثيراً فعندما رحل جبله بن الأيهم إلى الروم أرسل إليه عمير بن سعيد يستعطفه بالقرابة ويدعوه إلى الرجوع إلى بلاد الاسلام[5].

وقبل من تغلب الجزية ضعفين لما علم أنهم صمموا على الرحيل إلى الروم[6]. والحرص على وحدة الجزيرة دفعة إلى أن يطهرها من غير المسلمين فأخرج اليهود والنصارى منها مستنداً إلى الحديث الشريف: «لئن عشت إلى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب»[7] ولم يتمكن أبو بكر من إخراجهم بسبب انشغاله بحروب الردة، فلما تولى عمر اجلاهم إلى أطراف الشام وسواد الكوفة[8].

أما ولاته فقد كان لا يستعمل أكثر من عامل واحد من قبيلة واحدة[9] كما كان لا يعين من طلب الولاية[10]. وكان لا يجد حرجاً أن يعين ولاته من الموالي كما عين عمار بن ياسر على بيوتات العرب ورؤوسهم في الكوفة. وفي الأمصار كانت أجهزة مخابراته منتشرة في كل مكان، تصله الأخبار قبل أن يسمع بها أهل المصر نفسه كما

---

(١) ابن العربي، العواصم من القواصم ٧٦.
(٢) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ٨٣.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/١٧٤.
(٤) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ١٤٢.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان ١٤٢.
(٦) المصدر السابق ١٨٥-١٨٦.
(٧) التنبيه على ما وجب من اخراج اليهود من جزيرة العرب مخطوط ١٢.
(٨) المصدر السابق ١٥
(٩) اليعقوبي، تاريخ ٢/١٥١.
(١٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/١٥.

حرص أن يكون ولاته ممن يتمتعون بالقدرة الإدارية، وإذا ما أحس بضعف من أحدهم سارع إلى عزله كما فعل مع شرحبيل بن حسنه[1] والوليد بن عتبة[2]. وأوجد عمر نظام التفتيش والمقاسمة، فالأول عين له محمد بن مسلمة الأنصاري وكانت وظيفته التفتيش على ولاة الأمصار، وقد فتش هذا على سعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص وعياض بن غنم[3]. والمقاسمة هي احصاء أموال الولاة عند التعيين والعزل وأخذه للمال غير المشروع.

ومع عدل عمرو وهيبته إلا أن مدينة الكوفة أخذت تتململ على عهده، فاحتج أهلها على سعد بن أبي وقاص مدعين بأنه لا يحسن الصلاة ولا يقسم بالتسوية، وعلى عمار بن ياسر بأنه غير كاف ولا عالم بالسياسة ولا يدري على ما استعمل. واشتكو من أبي موسى بأنه يتاجر بغلات الشعب ويبيع العلف[4].

فقال عمر: من عذيري من أهل الكوفة أن استعملت عليهم القوى فجروه وان وليت عليهم الضعيف حقروه[5].

وفطن عمر إلى العصبية القبلية فحارب كل ما من شأنه أن يثيرها، فنهى عن انشاء شيء من مناقضات الأنصار ومشركي قريش، وقال شتم الحي بالميت تجديد للضغائن وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام[6].

وكتب إلى المغيرة بن شعبة أن يستنشد من قبله من الشعراء ما قيل في الإسلام[7]. ولما أكثر الحطيئة من شتم أعراض الناس سجنه، وبقي في سجنه حتى أرسل إليه يستعطفه ويعده بعدم العودة الى ما كان فيه[8]. كان عمر يحث الناس على تعلم الشعر لأنه يدل على معالي الاخلاق وصواب الرأي ومعرفة الانساب[9] لا على أنه صورة من صور مفاخر الجاهلية.

---

(١) الطبري، تاريخ ٦٥/٤.

(٢) مجهول، تاريخ الخلفاء ٣٣.

(٣) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ٢٥٧، ٣٤١، ٣٤٢، أبو يوسف الخراج ١٢٦

(٤) ابن الأثير، الكامل ١٦/٣.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ٣٤٣.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ٩١٢، الهيئة المصرية.

(٧) ابن حجر، الإصابة ٥٦/١.

(٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٤٥/٦.

(٩) ابن رشيق، العمدة٢٨.

ومع كل ما تقدم لم يستطع عمر أن يقطع دابر العصبية القبلية، فالتنظيمات التي حدثت في عهده قد ثبتت الفرد في قبيلته سواء في النظام الحربي أو في بناء المدن أو في كتابة الديوان. وفي عهده ظهرت العصبية الاقليمية وخاصة ما بين البصرة والكوفة وبدأ ذلك عندما أراد أهل البصرة أن يأخذوا الماهين ويضموه اليهم لزيادة عدد سكان البصرة وقلة خراجها، فرفض أهل الكوفة ذلك وطلبوا من عمار بن ياسر أن يتدخل بهذا الامر لدى الخليفة فرفض عمار فقال له عطارد بن حاجب: عما تدع فيئنا أيها العبد الاجدع[1].

وتنازع أهل البصرة في فتح اصبهان مع أهل الكوفه وادعى كل منهما ان الفتح له[2] واختلفوا على أرض تستر الى أن بعث اليهم عمر بأن الفتح لاهل البصرة وأهل الكوفه شركاؤهم في الأجر والغنيمة وحذرهم من نزعات الشيطان[3].

وظهرت دعوى الجاهلية كما رأينا في نداء ضبّة في الكوفه، وفي نداء أبي سفيان على آل قصي. كما رفض الزبير بن العوام أن يقاد منه لشراحيل بن حجية المرادي لأنه أهانه وقال: لعمرو بن العاص: أمن نغفة من نغف اليمن استقيد يابن النابغة[4].

لقد حذر عمر المسلمين من أمر العصبية وهو في آخر لحظات الحياة فقال لعلي اذا وليت من امر المسلمين شيئا فلا تحملن بني عبد المطلب على رقاب الناس وقال لعثمان مثل ذلك[5].

لقد مات عمر بعد أن طعنه علج غير مسلم في ٢٦ذي الحجة وقيل ٢١منه سنة ٢٣هـ[6].

---

(١) الطبري، تاريخ ٤/١٦١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن اعثم، الفتوح ٢/٢٧.

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ٢٦٤، البري، القبائل العربية في مصر ٢٣٦ النغف، دود في انف الابل والغنم..

(٥) ابن سعد ، الطبقات ١/٣٤٢-٣٤٤.

(٦) ابن خياط، تاريخ ١/١٢٦.

الفصل الرابع
العصبية القبلية والثورة على عثمان

الهجرات ونشوء العصبيات الاقليمية
مجلس الشورى وانتخاب عثمان
حالة الأمصار في عهد عثمان
الفتنة:
- أسبابها
- مجرياتها
- ونتائجها

الهجرات ونشوء العصبيات الاقليمية:

ازدادت حركة هجرة القبائل العربية إلى الأمصار الجديدة في أواخر عهد عمر بن الخطاب ومطلع عهد عثمان بن عفان، وقد اطلق على هذه القبائل المهاجرة اسم " اللواحق والروادف "[1] تمييزاً لها عن القبائل التي خرجت للمشاركة في الفتوحات الاسلامية الأولى.

وقد توزعت القبائل على الأمصار بناء على رغبة منها فكان ان اتجهت لقبائل التي كانت تسكن في شرق الجزيرة العربية نحو العراق، ومعظم هذه القبائل من تميم وربيعة والأزد، واتجهت القبائل اليمانية نحو بلاد الشام.

الهجرة الى العراق:

لقد سكنت اطراف العراق ومنذ العصر الجاهلي قبائل ربيعة وأهمها بكر بن وائل وتغلب والنمر بن قاسط كما سكنها أيضا بعض قضاعة ولخم. وقد رأينا في الفتوحات كيف أن العصبية العربية قد دفعت هذه القبائل لتقاتل مع أخوتها في الدم بل أن بعضها جاء في بداية الفتوحات الى المثنى يطلب تأميره على أهله حتى يحارب الفرس من ناحية[2]. كما عمل أهل الحيره عيونا على الفرس[3].

ونتيجة ما عادت به الفتوحات من غنائم، اندفعت القبائل النزارية واليمانية باتجاه العراق وكان من هذه القبائل الرباب وخثعم وحضرموت والصدف ومذحج والسكون وغطفان وقيس وأسد وطئ وقضاعة. وقد كانت هذه القبائل نواة أهل الكوفة ومن يطلع على خطط الكوفه والقبائل التي سكنتها يرى أن غالبية سكانها هم من القبائل اليمانية.

أما البصر فقد سكنتها قبائل همدان وحمير ومذحج والأشعريين وطئ وقريش وكنانه وأسد وتميم والرباب ومزينه وقيس وعبد القيس وكنده وقضاعة ومهره والأزد وبجيلة وخثعم وخزاعة والأنصار وبكر وتغلب. وكانت هذه القبائل هي نواة أهل البصرة ومع كثرة القبائل اليمانية فيها الا أن الغالبية كانت للقبائل العدنانية وخاصة قبائل تميم وبطونها وربيعة وبطونها.

(١) الطبري تاريخ ٢٧٩/٤.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ٢٩٥.

(٣) الطبري تاريخ ٤٤٦/٣ وانظر ٣٦١/٣-٣٦٢، ٣٧٥، ٣٧٦.

وفي خارج البصره والكوفه اتخذت القبائل المضرية مواطن لها في الجزيرة الفراتية وكانت قصبتها الرقه، أما القبائل الربعية فكانت الموصل لقبيلة تغلب، ومنطقة آمد لبكر بن وائل[1]. ومن هنا أخذت هذه المناطق اسماءها من القبائل التي سكنتها فأصبحنا نسمع ديار مضر، وديار ربيعة، وديار بكر بن وائل[2].

استمرت الهجرات إلى العراق في عهد عثمان بن عفان فكانت هذه القبائل تبعث بشبابها القادرين على القتال وتبقى بقية القبيلة في مواطنها. ويستدل على استمرار عملية الهجرة من ازدياد عدد سكان الكوفة وحدها فقد بلغ عدد مقاتليها يوم صفين حوالى (٥٧) الفا من العرب، ومعهم ثمانية آلاف من الموالى.

وبالاختصار فان أكثر القبائل هجرة الى العراق كانت هي عبد القيس وتميم والأزد[3] وستلعب هذه القبائل الثلاث أدوارا عديدة في الفتن التي حدثت في القرن الأول الهجرة.

الهجرة الى الشام:

منذ حادثة سيل العرم خرجت بعض القبائل اليمانية من الجزيرة العربية واتجهت نحو بلاد الشام واستقرت هناك منذ الألف الأول قبل الاسلام. ولما جاء الاسلام كانت أشهر القبائل اليمانية في الشام هي: قبائل غسان وتنوخ ولخم وجذام وعامله وبطون أخرى من قضاعة مثل بنو سليح وبهراء وكلب[4]. وكانت تسكن هذه القبائل في الجهة الشمالية الغربية والجهة الجنوبية الغربية لبادية الشام.

لقد أقامت قبائل غسان في منطقة دمشق وحوران وحمص. وسكنت قضاعة في منطقة البلقاء من شرق الأردن حاليا. وبعضها أقام في جنوب شرق الأردن، كما سكن بنو سليح في حلب، وقد بقي معظمهم على نصرانيته. أما تنوخ فقد سكنت في منطقة قنسرين وحلب وخاصة في منطقة الحاضر[5]. وقد اعتذرت هذه القبيلة لخالد بن الوليد

(١) المقدسي، احسن التقاسيم ١٣٧.
(٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب ١٣٢.
(٣) ابن خلدون، المقدمة ٢١٦.
(٤) الدوري، مؤتمر بلاد الشام، الجامعة الأردنية ١٩٧٤.
(٥) الحاضر: مكان قرب حلب (ابن العديم، زبدة الحلب ٢٦/١).

لقتالها اياه فأسلم بعضهم وبقي البعض الآخر على نصرانيته[١].

وسكنت جذام في مناطق متفرقة من بلاد الشام فقسم منها أقام في الأردن وقسم آخر أقام في فلسطين، الا أن معظم مضاربها كانت تمتد ما بين مدين وتبوك الى اذرح وبطن آخر سكن مما يلي طبريه من أرض الأردن وامتدت الى ناحية عكا[٢].

وتفرقت قبيلة لخم أيضا في مناطق متعددها في الجولان وحوران وأطراف جبال الشراه[٣] وعلى الحدود العراقية.

أما قبيلة كلب وهي أشهر قبائل قضاعة فقد كانت منطقتها تقع في بادية السماوة لا يخالطهم فيها أحد، وهناك بطون حضرية منها سكنت في غوطة دمشق وتدمر والسلمية والعاصمية في غرب الفرات.

مما سبق نرى أن القبائل التي كانت سكنت الشام قبل الفتوحات الاسلامية هي من قضاعة واليمن وقد انتشرت في سوريا والأردن وفلسطين.

وما ان بدأت حركة الفتوحات الاسلامية حتى وجد إقبال كبير من قبائل اليمن للتوجه الى بلاد الشام وهذا مما دفع عمر بن الخطاب أن يرغب الناس في الذهاب الى العراق، كما أنه أعطى قبيلة بجيله ربع أو ثلث سواد العراق من أجل ذهابهم اليها.

ولماسيرت الجيوش الى بلاد الشام بلغ عددها ما يقارب الثلاثين الفا[٤]، ومعظم هذا الجيش من حمير ومذحج وهمدان وطي والأزد، وقيس[٥] الا أن الكثرة الغالبة في بلاد الشام هي للقبائل اليمانية وكانت هذه القبائل أيضا نواة للجيش الذي توجه الى مصر.

وبعد فتح سوريا واستقرار الادارة الاسلامية ازدادت حركة هجرة الاعراب الى الشام، وكانت هجرة هذه القبائل هي هجرات استيطانية. أي أن القبائل كانت تتخذ

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ٣٦/١.
(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب ١٢٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الطبري، تاريخ ٥٩١٤/٢، مطبعة الاستقامه.
(٥) ابن اعثم الفتوح ١٠٤/١، الأزدي، فتوح الشام١٦- ٢٤، ٣٨-٤٠.

مواقع لها في الأمصار الجديدة وتنسى ارتباطها بماضيها السابق من حيث اماكن الاقامة ونرى أن عثمان في بداية عهده قد شجع على الهجرة أيضا فقد كتب الى معاوية أن ينزل العرب بمواضع نائيه من المدن والقرى وأن يأذن لهم في اعتمال الأرضين التي لاحق فيها لأحد فأنزل بني تميم ومعها قيس في ديار مضر غرب الفرات ورتب ربيعة في ديارها[1].

وهكذا كان تشجيع الخلافة للقبائل بالهجرة والتحاقها بالأمصار من أجل الفتوحات سببا في ازدياد هذه القبائل. وما إن جاء عهد معاويه حتى كانت القبائل في بلاد الشام موزعة على الشكل التالي:

ففي شمال سوريا وفي منطقة (حمص) أقامت قبائل طيء وكنده وحمير وهمدان وكلب[2] ومعهم أقلية من قيس حتى أنه ضرب بهم مثلا فقيل: ذلة القيسي في حمص[3] وفي (حماه) أقامت قبائل بهراء وتنوخ، (صور) فيها قوم من إياد، (تدمر) فيها كلب كما كان قبل الفتح الاسلامي. وسكن في (اللاذقيه) قبائل تنوخ سليح وزبيد ويحصب وهمدان. (جبله) سكنت همدان، ومعهم قوم من قيس وإياد وقد شكل هؤلاء فيما بعد جند أهل حمص[4].

أما جند دمشق[5] فقد ضم: (دمشق) وبها بطون من غسان وقيس وربيعه (حوران) سكنها قوم من قيس من بني مره باستثناء (السويداء) التي كان بها قوم من كلب. (أذرعات) سكنها قوم من قيس، ومعهم جماعة من قريش. (غرندل)[6] قبائل غسان وفي مآب وزغر (غور الصافي) سكن اخلاط من الناس.

وفي الجولان سكن قوم من قيس أكثرهم من بني مره، كما سكنها بعض اليمانية وخاصة من غسان وهم سكانها قبل الفتح. وفي (بصرى) أقامت كلب ومعهم بعض اليمانية، أما منطقة الشراة فسكنها قسم من ضبّة وكلب.

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان ١٨٢.

(٢) اليعقوبي، البلدان ٣٢٤.

(٣) الميداني، مجمع الامثال ١/ ٢٩٤.

(٤) اليعقوبي، البلدان ٣٢٤ وما بعدها.

(٥) المصدر السابق ٣٢٦-٣٢٧.

(٦) غرندل قرية تقع في جنوب الأردن.

أما (بعلبك) فقد سكن في أطرافها قوم من اليمن، وأقام قسم من عامله في جبال الجليل، وسكن قسم من قريش واليمن في لبنان وصيدا وعلى الساحل سكنت حنيفه، كما سكن في هذه المناطق قوم من الفرس نقلهم معاويه من العراق اليها.

وتوزع جند الأردن على طبريه وبها قوم من الاشعريين وهم الغالبون عليها. وسكن صور أخلاط من الناس، وفي عكا وبيسان وفحل وجرش أقام اخلاط من الناس من العرب والعجم وبالاجمال كانت قضاعة هي الغالبة في الاردن والبلقاء[1].

جند قنسرين: كانت تنوخ حاضر قنسرين وبحاضر حلب، وامتدت مضاربها الى جهة بالس على الفرات. كما سكن قنسرين أيضا قبيلة تغلب، أما الأكثرية في هذه المنطقة وخاصة بعد أن أسكن معاويه المهاجرين الجدد من هذه المنطقة فقد كانت للقبائل القيسية وخاصة في مدينة قرقيسياء[2].

كما سكن هذه المناطق بعض قبائل طئ وسليح[3].

وعلى ضوء هذا التقسيم نرى أن القبائل الشاميه كانت مجزأة اكثر مما كانت عليه حال القبائل العراقيه، وربما كان هذا هو السبب الذي أضعف العصبية البسيطة في الشام عنها في العراق. الا أنه من ناحية ثانية أدى الى تكتل قبلي عظيم ضم جميع القبائل اليمانية والقضاعية. ووقفت كتلة واحدة وسيفا تشهره الدولة الاموية فيما بعد ضد كل من يرفع لواء العصيان، ومن ناحية ثانية نرى أن القبائل القيسية قد اتخذت من الجزيرة مركزها الأول، واصبحت القبائل اليمانية ومعها قضاعة في دمشق وسنرى عند انقسام عصبية أهل الشام أن الدولة الأموية ستفقد قوتها ووجودها.

الهجرة الى مصر:

كانت معظم القبائل التي توجهت مع عمرو بن العاص الى مصر هي قبائل يمانية، ومن هذه القبائل عك حيث شكل عدد أفرادها أكبر كتلة مع عمرو بن العاص فقد

(١) أنساب الاشراف جـ٤ قسم ١٢٨/٢.
(٢) المصدر السابق ١٤١/٥، ٣٠٠-٣٠٢.
(٣) ابن العديم، زبدة الحلب ٨٩/١، ٩٣.

اشترك منها ما بين ٣٥٠-٤٠٠ مقاتل[1] وبعد عك جاءت غافق والصديف (بطن من كنده) وبلي وهمدان ومرة[2] وقدم عمرو بن العاص قبيلة بلي لحسن بلائها في القتال وكان بينه وبينها خؤولته[3].

ويؤخذ من خطط الفسطاط أن القبائل التي سكنت مصر هي من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينه واشجع وثقيف وجهينة ودوس وعبس وكنانه وليث وتجيب والأزد وغسان ولخم وتنوخ وخولان وحضرموت ومذحج والكلاب وسبأ[4].

وكانت الغالبية للقبائل اليمانية حيث سكن منهم في مصر ما يقارب الستين قبيلة بينما بلغت القبائل العدنانية ثلاثين قبيلة، وكانت قبيلة مراد من أكثر القبائل القحطانية بينما كانت قريش من أكثر القبائل العدنانية عدداً[5]. ولما كانت حركة الفتوح في غرب أفريقيا تجري على قدم وساق فقد توالت الهجرات الى مصر، الا أن هذه الهجرات كانت من القبائل اليمانية أكثر منها من القبائل القيسية.

ومع اسكان القبائل المهاجرة الى مصر ضمن مدن جديدة لمحاولة نقلهم من الاعرابية الا أن عمرو بن العاص أوجد فيهم نظام المرتبع[6]. وهذا النظام كان يقضي بأن تخرج القبائل في الربيع الى مناطق ريفيه ثم تعود الى مواقعها بعد انتهاء موسم الربيع. وقد كانت هذه القبائل تتخذ أماكن معينه لها كما كان ذلك في العصر الجاهلي.

ومع استقرار القبائل المهاجره في أماكنها الجديدة واحتكاكها مع القبائل المجاورة أما عن طريق الجوار، أو عن طريق المصاهرة، الا أن القبائل لم تنس عصبيتها التي حملتها معها، الى المواطن الجديدة. بل زاد الأمر خطورة ظهور عصبيات جديدة تمثلت بالعصبية الاقليمية أو عصبية الأمصار فأصبح أهل الشام يتعصبون لمصرهم، وأهل العراق كذلك. وسنرى أن الصراع في الاقطار الاسلامية هو صراع الأمصار طيلة العصر الأموي.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٥٦.
(٢) المصدر السابق ٦٣.
(٣) ابن هشام ٤/٢٢٩ بهامش الروض.
(٤) ابن دقماق، الانتصار ٤/٣-٤.
(٥) البري، القبائل العربية في مصر ٢٢٣-٢٢٤.
(٦) اليعقوبي، البلدان ٢٣٦.

لقد جاءت القبائل الى الأمصار الجديدة وهي تحمل معها منافراتها الجاهلية وبدلا من أن تحدث هذه المنافرات بين القبائل أصبحت تجري بين الأمصار، وقد طبعت هذه المنافرات المدينيه طابع التاريخ الاسلامي بلون من التعصب انعكست آثاره على النواحي التاريخية والدينية والثقافية.

لقد بدأكل مصر يتعصب لمصره، ورأينا أن بداية هذه العصبية قد ظهرت في عهد عمر بن الخطاب، وازدادت حدة التعصب في عهد عثمان، واستمرت الى مابعد القرن الثالث الهجري حتى أن هذه العصبية قد حلت مكان العصبية القبلية في يوم من الأيام.

بدأت المنافرات المدنيه في العراق قبل غيرها من الأمصار والسبب في ذلك أن معظم القبائل التي هاجرت الى هذه المناطق هي قبائل بدويه، فلم تستطع أن تتخلى دفعة واحد عن مآثرها ومفاخرها، ولما كان الاسلام يحرم ذلك فاتجهت منافراتها الى المدن.

لقد افتخر أهل العراق بعراقهم لأنه حسب قولهم يقع في بقعة متوسطة من العالم كما يتميز بهوائه النقي الذي يختلف من هواء الشام السيء. ومنازله أوسع من منازل الشام كما أنه يخلوا من الطواعين. ويختلف العراق من مصر، فهواء مصر يجلب الوباء ويفسد الغذاء، هذا بالاضافة الى جدب مصر، ويتميز عن افريقيا لقربه من جزيرة الاسلام وبيت الله الحرام، ثم إن افريقيا جافية لأهلها، كثيرة العدو، والعراق أفضل من خراسان التي يحيط بها الاعداء من كل جانب، وأفضل من الحجاز النكد المعاش الضيق المكاسب والذي قوت أهله من الخارج.

وامتدت حمى المنافره بين الأمصار الى داخل مدن المصر الواحد، فاشتعلت بين الكوفه والبصرة، فأهل الكوفه يقولون عن مدينتهم بأنها جارية جميلة ولكن لامال لها فهي تخطب لجمالها بعكس البصرة التي هي عجوز شمطاء، غير أنها ذات مال فهي تخطب لهذه الغاية[1].

وافتخر أهل الكوفه بنهر الفرات وفضلوه على نهر النيل ودجله لعذوبة مائة وهو قد أخذ اسمه من ذلك[2].

---

(١) الجاحظ، البلدان، نشره مع مقدمة وتعليقات الدكتور صالح أحمد العلي في مجلة كلية الآداب، مطبعة الحكومة بغداد سنة ١٩٧٤ ص ٤٩٦.

(٢) المصدر السابق ٤٩٦.

وافتخرت الكوفة أيضا بكثرة فتوحاتها سواء كانت في العراق، أو في خراسان فقد شاركت في فتوحات الحيرة وبانقياء، وتستر وعين التمر ودومة الجندل والأنبار، كما افتخروا على أهل الشام بأنهم شاركوا خالد بن الوليد في فتح بصرى، ودمشق، وافتخروا أيضا بأيام الجسر والقادسية والمدائن وجلولاء وأذربيجان والموصل.

وفي الكوفه نزل الخلفاء وبها عمال العراق والدعوة لهم في العطاء قبل أهل البصرة وأن عدتهم ثمانون الفا ومقاتليهم أربعون الفا[1].

كما افتخروا بمن نزلها من البدريين، وأن أمير المؤمنين عمر قال قبة الاسلام الكوفه. وبأنها مدينة العراق الكبرى والمصر الأعظم، وقبة الاسلام، ودار هجرة المسلمين وهي أول مدينة اختطها المسلمون بالعراق سنة ١٤هـ، وبها خطط العرب، وهي على معظم الفرات ومن شرب أهلها: وهي من أطيب البلدان وأفسحها وأعذاها وأوسعها[2].

وقالوا عن البصرة: إن أهل البصرة أسرع الأرض خرابا، وأخبثها ترابا، وأبعدها من السماء، وأسرعها غرقا[3]. كما سموها بالرعناء لأن هواءها يتغير في اليوم مرتين، ووصفوا أهلها بأنهم من بقايا ثمود[4] وهم من قاتل عليا يوم الجمل وشقوا عصا الطاعة عليه[5].

أما البصرة فقد افتخرت بنسائها وهن خير نساء على وجه الأرض، الا ما ذكر النبي من نساء قريش[6]. وهم أطوع الناس للسلطان وأعرفهم برسوم الاسلام، وهم أكثر الناس أموالا، ولا فخر للكوفه عليهم بشيء، الا أنهم أعلم منهم بالفتوحات[7].

وافتخرت البصره بمن نزلها من البيوتات العربية وكما افتخرت الكوفه بذلك

---

(١) ابن الفقيه، مختصر البلدان ١٦٥، طبعة ليدن.
(٢) الجاحظ، البلدان ٤٩٦.
(٣) الجاحظ البلدان ٤٩٨.
(٤) ياقوت، معجم البلدان مادة بصره.
(٥) ابن الفقيه، مختصر البلدان ١٦٧.
(٦) ياقوت، معجم البلدان، مسادة بصره.
(٧) ابن الفقيه، مختصر البلدان ١٧٠.

قبلها[1] كما افتخروا بمن ظهر فيهم من البيوتات العربية الأخرى كبيت بني المهلب وبني مسلم بن عمرو الباهلي. وبيت آل الجارود[2].

وافتخرت البصرة بكثرة خراجها فخراج العراق بلغ مائة الف الف واثني عشر الف الف، وبلغ خراج البصرة منه ستون الف الف، بينما لم يزد خراج الكوفة عن خمسين الف الف[3].

وامتدت حلقة التفاخر الى بلاد الشام فظهر من يقول: بأن الشام عروس بين نسوة جلوس، تجلب اليها الاموال كما أن أهلها يتميزون بالشجاعة[4]، وهم اطوع الناس لمرشدهم[5]. وافتخروا أيضا بأنهم موطن الأنبياء، وموضع الزهاد والعباد وعندهم التفاح الذي يضرب به المثل في الحسن والطيب، وفيه أيضا الزيت الصافي النظيف، والزجاج وفيما بعد مسجد دمشق الذي اعتبره أهل الشام من عجائب الدنيا كما افتخروا أيضا بأن من خصائص الشام الطائين: الطاعة والطاعون[6].

أما الخصوم فقد اعتبروا بأنهم أطوع الناس لمخلوق في معصية الخالق[7].

أما الحجاز فقد افتخروا بالبيت الحرام وبمسجد الرسول في المدينة، كما أن المدينة افتخرت بهوائها وترابها، وأن الرسول ﷺ سماها طيبة، وهي لهذا لم يحدث بها طاعون ولا جذام[8]. واتهم أهل مكه بأنهم أهل جفاء الا أن من سجيتهم الوفاء[9].

وانتقلت المفاخرات الى مصر فقال أهلها: إن هواءها طيب وحرها ضعيف وبردها خفيف وقد سلم أهلها من شأنى الاهواز، وطواعين الشام، وصواعق تهامة،

---

(1) المصدر السابق ١٩٠.
(2) الجاحظ، البلدان ٤٩٧-٥٠٥.
(3) المصدر السابق، البلدان ٤٩٧-٥٠٥.
(4) الدينوري، الأخبار الطوال ٣٢٢.
(5) ابن الاثير، الكامل ٣/٧٢.
(6) من لطائف المعارف للثعالبي، بحاشية البلدان للجاحظ ٤٨٧-٤٨٨.
(7) البلاذري، أنساب الاشراف ١١/٤١ب مخطوط.
(8) الجاحظ، البلدان ٤٨٦.
(9) الدينوري، الاخبار الطوال ٣٢٢.

ودمامل الجزيرة وجرب اليمن وبرسام العراق، وطحال البحرين، وحمى خيبر[1].

وشبّه أهل مصر بلدهم بالفردوس في خضرة زرعها وتنور ثمرها، كما افتخر أهلها بأن اسمها ورد في القرآن الكريم في الآيات ٨٧يونس، ٢١، ٣٠، ٩٩ يوسف، ٦١ البقرة، ٥٠ المؤمنون.

كما افتخروا بأنها أطيب الأرضين ترابا، وعجمها أكرم العجم أنسابا، ومصر خزانة الأرض كلها وسلطانها سلطان الأرض كله، وهي أم البلاد وغوث العباد، وولايتها جامعة تعدل الخلافة كما قال عمرو بن العاص[2].

ولم تقف منافرات الأمصار على بيان المزايا الجغرافيا والاقتصادية للمصر فحسب بل امتد ذلك الى النواحي الثقافية والدينية، وأبرز ما كان في الناحية الثقافية هوظهور مدرستي الكوفه والبصرة والمنافسة الشديدة التي حدثت بين هذين المصرين.

وقد امتدت حركة التعصب الى كتابة التاريخ فأخذ كل مؤرخ يهتم بالمصر الذي يقيم فيه- فأبو مخنف اهتم بأمر العراق وأخبارها وفتوحها أكثر من غيره، والمدائني اهتم بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي أهتم بأمر الحجاز والسيره واشتركوا جميعا في كتابة فتوح الشام[3].

وحتى الروايات التاريخية كانت مطبوعة بطابع التعصب الاقليمي. فأبو مخنف المتوفى سنة ١٥٧هـ ٧٧٤م هو أخباري من أهل الكوفه، وفي رواياته تعصب لأهلها، بالإضافة في رواياته على قبيلته الأزد اكثر من غيرها.

وعوانه بن الحكم ت ١٤٧هـ-٧٦٤م اخباري كوفي تناول سيرة معاوية وبني أميه وتدل رواياته على معرفة داخليه بشئون الامويين. ولعله أخذ معلوماته هذه من قبيلة كلب المواليه للأمويين- لاسيما وأنه يفخر بعملها وهو يقدم وراياته الاموية للحوادث على الأكثر مقابلة للروايات العراقية.

أما سيف بن عمر فهو كوفي أيضا ت ١٨٠هـ- ٧٩٦م وهو يقوم في الاساس على النظرة العراقية، ويعتمد على رواة من قبيلة تميم وأخباره عن الفتوحات وخاصة فتح

---

(١) المقريزي، الخطط ١/٤٠.

(٢) الكندي، فضائل مصر ٢٣-٢٨، ٣١، ٤٤-٤٥ وما بعدها.

(٣) ابن النديم، الفهرست ١٣٧.

العراق، تميمية الميول وتتجه لئن تكون في اخبارها كأسلوب الأيام في الجاهلية[١].

وهكذا نرى أن الاتجاه القبلي قد أخذ طريقه في دراسة التاريخ الاسلامي نتيجة الاهتمام بالشئون القبلية، كما لعبت عصبية الامصار أيضا في ظهور الاحاديث سواء ما كان منها عصبية للجنس أو الموطن. لقد أدت العصبية الى الموطن الى وضع أحاديث كثيرها تدل جميعها على فضل الأمصار، ومن هنا نشط رجال الحديث في الجرح والتعديل لبيان الاحاديث الصحيحة من الاحاديث الموضوعه.

ففي البصرة قال الكديمي: إني لأعرف أرضا يقال لها البصرة أقومها قبلة وأكثرها مساجد ومؤذنين، يدفع عنها البلاء مالا يدفع عن سائر البلاد[٢].

ووضع عبد الرحمن السليماني حديثاً: يأتي على الناس زمان يكون فضل الرباط رباط جده[٣]. ووضع ميسره بن عبد ربه أربعون حديثا في فضائل قزوين[٤]. كما وضع أحمد بن كنانه الشامي حديثاً: اذا ذهب الايمان من الأرض وجد ببطن الأردن[٥].

وفي مقابل الاحاديث التي تفخر بالمدن وضعت أحاديث أخرى لذمها وخاصة من القبائل المنافسة ومن هذه الاحاديث ما وضعه ابان بن أبي عياش: الجفاء والبغي في الشام، ووضع عمار بن زربى في ذم البصره أنه سيكون بها خسف ومسخ. وحديث: بابان مفتوحان في الدنيا للجنة: عبادان وقزوين[٦].

وأما العصبية للجنس فظهرت في بعض الاحاديث الموضوعة مثل: دعوني من السودان إنما السواد لبطنه وفرجه وحديث: الزنجي اذا شبع زنى، واذا جاع سرق، وان فيهم لسماحة ونجده[٧]. ولعل هذه الاحاديث في ذم الزنج تظهر كراهة اهل البصرة لهؤلاء.

---

(١) انظر: الدوري، علم التاريخ ٣٥ وما بعدها.

(٢) ابن عراق، أبو الحسن علي بن محمد الكناني ت ٩٦٣هـ تنزيه الشريعة طبعة القاهرة ٥٨/٢، بحوث في السنة المشرفه، اكرم ضياء العمري ط٢ الارشاد بغداد سنة ١٩٧٢: ٣٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن الجوازي، الاحاديث الموضوعه ١/١٥أ مخطوطة.

(٥) ابن عراق، تنزيه الشريعه ٥٧/٢، بحوث في السنة المشرفه ٣٩.

(٦) ابن عراق، تنزيه الشريعه ٥٠/٢ وانظر ٤٧، ٤٨، ٥٩.

(٧) المصدر السابق.

كما أن العصبية استدعت أيضا أن ترتب بعض المسانيد حسب القبائل[1].

كما امتدت المفاخرات بين الأمصار الى النواحي الدينية فسفيان بن عيينه يقول: خـذوا المناسك عن اهل مكه والقـراءة عن أهل المدينة والحـلال والحـرام عن أهل الكوفة[2].

وفي مجال القراءات اخذ أهل حمص يفتخرون بأن قراءتهم هي أفضل القراءات واحتجت الكوفه وتبعتها البصرة ودمشق وقالوا إن قراءتهم هي الافضل. ونلمس شدة العصبية عند أهل الكوفه لما أمر عثمان بتوحيد المصحف فكل الناس عرف فضل ذلك إلاّ أهل الكوفه[3] تعصبا منهم لقراءة ابن مسعود.

وبالمقابل فان العصبية الاقليمية لعبت دورا بارزا في الحركة العلمية والأدبية وخاصة ما كان بتواريخ المدن، وتراجم الطبقات، وتراجم وتواريخ الرجال المحلية.

ونلمس ذلك التنافس من أن عباس بن ابراهيم المراكشي ألف كتاب " الاعلام عمن حل مراكش واغمات من الاعلام"[4]. لأنه لم تبق أي مدينة الا وقد اختصت بكتاب كامل مثل تاريخ المدينة ومكه والطائف واليمن والشام والقدس وحمص والبصرة والكوفة والجزيرة إلاّ مراكش فقام بعمله هذا.

والعصبية الاقليمية وان لم تأخذ دورها في عهد عثمان كثيرا الا أن بعض مظاهرها قد بدأت في عهده وخاصة ما بين الشام والعراق. لقد أمر عثمان حبيب بن مسلمة الفهري ان يتوجه لفتح أرمينيا، وأرسل الى سعيد بن العاص يطلب منه ان يبعث مددا الحبيب بن مسلمه، وما أن علم حبيب ذلك حتى قال لأهل الشام: ويحكم لقد جاءكم مدد أهل الكوفه فأخشى أن يظفروا بالعدو فيكون الذكر لهم والاسم لهم من دونكم، وحشهم على مواقعة العدو قبل قدوم أهل العراق، وتحقق له النصر على العدو، ولما أقبل جيش العراق طلب قائده سليمان بن ربيعة الباهلي أن يشركوا بالغنيمه فرفض أهل الشام وكاد الشر أن يقع بينهما لولا أنهما اتفقا على تحكيم الخليفة في الأمر

(1) ابن السيوطي، تدريب الرواي، شرح تقريب النوادي، طبعة مصر ٣٥٤ ١٩٥٩، ٣٥٥-٣٥٥.
(2) ياقوت، معجم البلدان ٤/٤٩٣ طبعة دار صادر.
(3) ابن الاثير، الكامل ٣/٥٥.
(4) الكتاب طبعة فاس ١٩٣٦. انظر ٢/١.

فأرسلوا الى عثمان فقال الغنيمة بارده لأهل الشام فكانت هذه أول عداوة وقعت بين أهل الشام والعراق[1].

وهكذا رافقت العصبية القبلية عصبية جديدة وهي العصبية الأقليمية واصبحنا نرى أزد الكوفه ويمن الشام، وتميم العراق الى غير ذلك من التسميات وهذا مما سيطبع التاريخ الاسلامي بلون جديد من الوان الصراع وخاصة في العهد الأموي.

ومما تقدم نرى أن الأمصار في عهد عثمان قد اصبحت تضم مهاجرين جدد أبرز ما فيهم انهم من أهل الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الايمان[2]. وسيكون لهذه القبائل شأن في الثورة عليه.

مجلس الشورى وانتخاب عثمان:

عهد عمر رضي الله عنه الى ستة من الصحابه وسماهم رجال الشورى حتى ينتخبوا من بين أنفسهم خليفة للمسلمين. وقد كان هؤلاء الصحابة موزعين على خمسة من بطون قريش هم: علي المقدم في بني هاشم، وعثمان شيخ بني أميه، والزبير رئيس بني أسد، وطلحه بن عبيد الله سيد بني تميم، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص سيدا بني زهره. ولم يدخل معهم سعيد بن زيد لأنه من بني عدي.

وقد استند عمر في ترشيحه لهؤلاء على مبدأين: الأول: أنهم رؤساء الناس وقادتهم[3]، والثاني أنهما من أهل الجنة أي من العشرة المبشرين بها.

وبالنظر الى هذين المبدأين نرى أن عمر قد جمع بين التيار القبلي الذي تمثل بأن المرشحين هم زعماء الناس، وقادتهم وبالاتجاه الاسلامي لسابقتهم في الاسلام وقد مات الرسول وهو عنهم راض.

ويذكر البلاذري أن عمرو بن العاص حاول أن يكون له من الأمر شيء الا أن عمر قال: والله لا اجعل فيها احدا حمل السلاح على نبي الله[4].

---

(١) ابن اعثم، الفتوح ٢/١٠٨- ١١٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة ٢١٥.

(٣) الطبري، تاريخ ٤/٢٢٨.

(٤) البلاذري، أنساب الاشراف ٥/١٧.

وتذكر الروايات أن عمر كان محتارا في اختيار أحد منهم حتى انه قال: لا أدري بماذا أصنع بأمة محمد[1]. ثم أخذ يعدد المآخذ على هؤلاء المرشحين. فقد خشي عمر إن وليها عثمان بن عفان ان يحمل آل ابي معيط على رقاب الناس. وقال عن علي: لو ولي الأمر لحمل الناس على طريقة من الحق ولكنه رجل به دعابة وهو حريص على هذا الأمر ولا يصلح هذا الأمر لمن حرص عليه. أما ابن عوف فهو رجل مسلم غير أنه ضعيف وأمره بيد امرأته، ولا يصلح لهذا الأمر الا القوي في غير عنف واللين في غير ضعف المسك في غير بخل والجواد في غير سَوف. أما طلحه ففيه تيه وزهو وأعجاب بنفسه والزبير بطل ومعه ضيق وجشع أما سعد فهو صاحب حرب وأما والي أمر فلا[2].

ونتيجة ذلك أراد عمر أن لا يتحمل مسئولية أحد من هؤلاء، بل ترك أمر اختيار الخليفة الى الامة نفسها والتي يمثلها هؤلاء الرهط.

وقد شعر عمر بالتنافس بين المرشحين ومن هنا قال لهم: اني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف أن تنقسموا فيما بينكم فيختلف الناس[3]. ولتصور عمر لهذه المنافسة أوعز لأبي طلحه الأنصاري أن يختار خمسين رجلا من الانصار، كي يحث أعضاء الشورى على سرعة اختيار خليفة للأمة قبل انقضاء الوقت المعطى لهم وهو ثلاثة ايام[4]. كما حذر من الفرقه وقال ليتبع الأقل الأكثر ومن يخالف فليضرب عنقه[5]. وفي عملية ترجيح الاصوات جعل ابنه عبد الله مشيرا اذا تساوت الاصوات على أن لا يكون له حق الترشيح، فان لم يرض به المرشحون فالجانب الذي به عبد الرحمن بن عوف وقال نعم ذو الرأي عبد الرحمن فاسمعوا واطيعوا[6]. وبذلك يكون ابن عوف هو رئيس مجلس الشورى، وصوته هو الذي يحدد هوية الخليفة.

ولما علم علي بذلك خشي من معاضدة سعد لابنه عمه ومن معاضدتهما معا لعثمان بن عفان حيث رابطة المصاهرة بين عبد الرحمن وبين عثمان. والواقع أن ما

(١) المصدر السابق ١٦/٥.
(٢) اليعقوبي، تاريخ ١٤٨/٢، ابن اعثم، الفتوح ٨٥/٢– ٨٦.
(٣) ابن الأثير، الكامل ٢٧/٣ بولاق.
(٤) المصدر السابق ٢٨/٣ بولاق.
(٥) البلاذري، أنساب الاشراف ١٨/٥.
(٦) ابن الاثير، الكامل ٢٨/٣ بولاق.

توقعه علي لم يحدث ففي بداية الاجتماع طرح كل مرشح نفسه للخلافة. ومن هنا تقدم عبد الرحمن بن عوف بمشروع مؤداه أن يخرج نفسه وابن عمه سعد من الترشيح وأن يتولى اختيار خليفة من باقي المرشحين[1]، فوافق عثمان في الحال، أما علي فقد طلب من ابن عوف العهود والمواثيق، أن يؤثر الحق ولا يتبع الهوى ولا يخص ذارحم ولا يألوا الأمة نصحا- فوافق ابن عوف على ذلك وأخذ العهود والمواثيق أن يرضوا ممن يختار لهم[2].

وبدأ ابن عوف مشاوراته فجاء الى ابن الزبير وقال له خلي ابني عبد مناف وهذا الامر فقال الزبير: نصيبي لعلي[3].

وهكذا انحصر التنافس بين بني هاشم وبني أميه، فبدأ ابن عوف يسأل المهاجرين وأهل السابقة والأنصار وامراء الاجناد ومشيخة قريش فوجد أن الجميع يطالبون بعثمان. وكادت الأيام الثلاثة أن تنقضي دون التوصل الى نتيجة معينة، وأراد أهل الامصار العودة إلى أمصارهم، وهنا خرج ابن عوف على الناس ورأى بوادر الفتن قد أقبلت فأراد أن يضع حداً لذلك، وقبل أن يعلن اسم الخليفة نهض سعيد بن زيد وقال إنا نراك لها أهلاً، كما قام سعد بن أبي وقاص وقال: بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا، فقال ابن عوف: إني قد خلعت نفسي منها على أن أختار، ولو لم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها[4].

ولما رأى عمار بن ياسر أن بني زهرة تطالب بأن تكون الخلافة لها نهض وقال: إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا. وقام المقداد بن الأسود وأيد عماراً في رأيه وقال-: إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا[5].

وهنا وقف بنو أمية فقام عبدالله بن سعد بن أبي السرح وقال: إن أردت ألا تختلف قريش فبايع لعثمان، ونهض بطن آخر من قريش توارى عن المسرح السياسي منذ معركة بدر الا وهم بنو مخزوم فأيد بني أمية وقال عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي:

(١) البلاذري، أنساب الاشراف ٢١/٥.
(٢) ابن الاثير، الكامل ٢٩/٣ بولاق.
(٣) المصدر السابق ٢٩/٣، بولاق.
(٤) الطبري، تاريخ ٢٣٢/٤، ابن عبد ربه،العقد الفريد ٢٨/٥.
(٥) نهج البلاغة ٩٥/١.

هنا تفجعوا على عزله ومعهم عامة الناس[١].

لقد اعتبرت قبائل الكوفة أن تعيين الوليد بن عقبة عليها ماهو إلا ضرب من التعصب من الخليفة إلى أخيه الوليد، وهذا ما عبر عنه يزيد بن قيس الأرحبي لقد أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد[٢].

والواقع أن عثمان قد استعتب في أمر تعيين الوليد فرد على من عاتبه أنه لم يعينه لقرابته منه وإنما لقرابته من الرسول ﷺ حيث أن ابن ام حكيم البيضاء عمة رسول الله وتوأمة أبيه[٣].

ومما تقدم نرى أن العصبية ضد قريش كانت هي الدافع الذي أدى إلى عزل الوليد بن عقبه عن الكوفة.

وبعد عزل الوليد لم يستطع عثمان أن يصل إلى الداء الذي أدى إلى عزل الوليد واقتنع أن شارب الخمر يجب أن يحد ويعزل مكتفياً بهذا الاجراء وعين والياً أموياً قرشياً جديداً على الكوفة مما أدى إلى حدوث الصراع مرة ثانية.

والوالي الجديد هو سعيد بن العاص، وهو شاب مترف ليست له سابقة[٤]، وقد كان عمومته من ذوي البلاء والسابقة في الاسلام[٥].

وفي سنة ٣٠هـ قدم سعيد الكوفة ومعه بعض اليمانية الذين ذهبوا ليشهدوا على الوليد بن عقبه، وما أن دخل الكوفة الا وصمم أن يسير بأهلها سيرة تخالف ما كان على عهد الوليد، فبادر إلى المنبر فغسله بالرغم من نهي رجال قريش له بألا يفعل وقالوا له: إن هذا قبيح والله لو أراد هذا غيرك لكان حقاً أن تذب عنه، يلزمه عار هذا أبداً فأبى إلا أن يغسله[٦].

وقد أظهر الوالي الجديد اعتداده بقرشيته وبأمويته منذ اللحظة الأولى لصعوده

---

(١) المصدر السابق، ٤٤-٤٥.
(٢) البلاذري أنساب الأشراف ٥/٣٢، ٣٥. الطبري تاريخ ٤/٢٧٧.
(٣) العواصم من القواصم، ٨٥.
(٤) المصدر السابق ٨٥.
(٥) الطبري، تاريخ ٤/٢٧٨.
(٦) المصدر السابق، تاريخ ٤/٣٢٢.

على منبر الكوفة حيث خطب أهلها وقال: والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره ولكني لم أجد بدا إذ أمرت أن أئتمر، إلا إن الفتنة قد اطلعت خطمها وعينيها، ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعييني وإني لرائد نفسي اليوم[1].

وانتهج سعيد سياسة مخالفة للوليد عندما بدأ يقرب إليه وجوه الكوفة وأشرافها، فكان مجلسه يضم وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية ووجوه اللواحق والروادف والقراء.

إلا أن مرحلة الوفاق الودي لم تدم طويلاً في الكوفة فسارع سعيد بالكتابة إلى عثمان يبين له حقيقة أمر الكوفة وفيه كشف عن عاملين[2]:

الأول: أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشر فيهم على أهل الشرف، والبيوتات والسابقة والقدم في الإسلام.

الثاني: أن غلبة أهل الشرآتية من ازدياد هجرة اللواحق والروادف من الأعراب أي من المهاجرين الجدد وكان أهل السابقة يتناقصون وهؤلاء يزدادون حتى غلب أهل الشر على أهل الكوفة.

والحقيقة أن ما ذكره سعيد هو أصل الداء في الكوفة، ومما يثبت ذلك أن أهلها أخذوا يتنافسون في مجال استضافة الضيوف فكانوا يقولون: من أتى الكوفة فليتزل على دار فلان وفلان. وقد تنبه الوليد بن عقبة لهذا الأمر، وأرسل يخبر عثمان بذلك فوافق عثمان على اتخاذ دور للضيافة تكون تابعة لدار الأمارة. ومن الدور التي اتخذت لهذا الغرض دار عبدالله بن مسعود وكانت في هذيل[3].

ولما وصل الكتاب إلى عثمان رد عليه بأن يفضل أهل السابقة والقدمه وأن يجعل المهاجرين الجدد تبعاً لهم، إلا أن يكون أهل السابقة قد تثاقلوا عن الحق وقام به الجدد، ثم طلب منه أن يحفظ لكل منزلته وأن يعطيهم بالحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل[4].

---

(١) الطبري، تاريخ ٢٧٩/٤، أبو بكر الأندلسي، التمهيد والبيان ٤٧.

(٢) الطبري، تاريخ ٢٧٩/٤، ابن الأثير، الكامل ٥٤/٣، أبو بكر الأندلسي، التمهيد والبيان ٤٧.

(٣) الطبري، تاريخ ٢٧٣/٤.

(٤) المصدر السابق ٢٧٩/٤.

وبعد هذا الكتاب جمع عثمان أهل المدينة وأخبرهم بما بعث به سعيد وبما رد عليه فاستحسنوا رأيه ووافقوه وقالوا له: لا تطمع هؤلاء الأعراب فيما ليسوا له بأهل.

ولكن هل كان هذا الحل شافياً لما تتذمر منه الكوفة؟ الواقع لا، إن هناك نقطة جوهرية وردت في كتاب الخليفة وهي تقديم أهل السابقة والقدمة في الإسلام، فهل ستقبل الاعراب من الخليفة ذلك وهي ترى أن رأس الدولة وخليفة المسلمين لم يتقيد بذلك؟ فلو كان الخليفة يطبق هذا الأمر والوالي من أهل السابقة لربما خفف من حدة التذمر ولما أدى إلى تعقيد الأمور.

استمرت الكوفة في تململها حتى سنة ٣٣هـ وهنا انفجر الموقف العدائي بين أهل الكوفة وسعيد بن العاص وقد جاءاعتداد الوالي بقرشيته سبباً في ذلك. وفي هذه الحادثة روايتان.

الأولى: تقول أن مجلس سعيد بن العاص كان يضم وجوه أهل الكوفة من مختلف القبائل بما فيها اللواحق والروادف فقال خنيس الأسدي ما أجود طلحة بن عبيد الله فقال سعيد أن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً، والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغيداً. فقام عبدالرحمن بن خنيس وتمنى ملطاط كسرى المقابل للفرات لو كان لسعيد بن العاص. وهنا غضب أهل الكوفة واعتبروا ذلك تحدياً لهم فقام. رجال من اليمانية وربيعة وضربوا خنيساً وابنه حتى غشي عليهما، ولما علمت قبيلة أسد قام طليحة فحاصر القصر مما أدى إلى استعداد القبائل للقتال إلا أن سعيداً هدأ الموقف ووعد بحرمان أصحاب الشغب من حضور مجلسه[1].

الثانية: أن سعيد بن العاص هو القائل: إنما هذا السواد بستان قريش. فقال الاشتر أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك، والله ما يزيد أدناكم فيه نصيباً إلا أن يكون لأحدنا. وتكلم القوم فقام عبدالرحمن الأسدي وكان على شرطة سعيد فأغلظ للقوم مما أدى إلى ضربه حتى غشي عليه[2].

---

(١) الطبري، تاريخ ٤/٣١٧-٣١٨، أبو بكر الأندلسي، التمهيد والبيان ٥٦.

(٢) الطبري، تاريخ ٤/٣٢٤-٣٢٢.

وفي الروايتين نجد أن قبائل الكوفة قد غضبت من سعيد بن العاص ومن صاحب شرطته لقولهم أن السواد بستان قريش، فقد رأت في هذا القول إهانة لها وخاصة إن ما بأيديها هو فيئها قاتلت عليه وضحت من أجله، فكيف سيسمحوا لهذا الأمير القرشي أن يتمنى أو يدعي بأن السواد لقريش، ويعرفهم يكفي قريش، تملك الإدارة والمال وبه تستعلي على العرب، أما وأن تأخذ ما في أيدي القبائل فهذا شيء لا تحتمله قريش.

ولهذا سارعت القبائل بتأييد الأشتر وقالوا: وفقك الله فيما صنعت وقلت فوالله لئن رجعنا لهؤلاء قليلاً لزعموا أن دورنا ومواريثنا التي ورثناها عن آبائنا في بلادنا لهم من دوننا[1].

وأدى العلاج الذي اتخذه سعيد بحق أشراف الكوفة الأمر اشتعالاً، فقد أصبح هؤلاء يطعنون بالوالي والخليفة معاً. واجتمع إليهم الناس حتى كثروا. فكتب سعيد ومعه أشراف من أهل الكوفة إلى عثمان يخبروه بحال أهل الكوفة، فكتب اليه عثمان يأمره باخراجهم الى الشام. وقد كان المبعدون[2] من القبائل اليمانية وربيعة وتميم الا أن الغالبية منهم من اليمانية وهذا يدل على أن القبائل اليمانية هي التي كانت على رأس القبائل الناقمة.

وبادر سعيد باخراجهم من الكوفه الى الشام وهناك تلقاهم معاويه فرحب بهم في بادئ الأمر وأنزلهم كنيسة مريم وأجرى عليهم ما كان يجري عليهم بالعراق ثم بدأ بعد ذلك يناظرهم ويكاشفهم عن أسباب نقمتهم على قريش. وبين لهم أن قريشا لو لم تكن لكانت القبائل العربية ذليلة، وهنا ثارة ثائرة المبعدين فقام صعصعة بن صوحان فبين ان لافضل لقريش على العرب. فهي لم تكن من أكثر العرب وأمنعها في الجاهلية[3]، ثم ان الاسلام لا يفرق بين قبيلة وأخرى ولا يعتبر لقبيلة فضلا على أخرى. الا أن معاوية رد عليهم فبين مآثر وفضائل قريش وبأنهم اكرم العرب أحسابا وأمحضهم أنسابا وأعظمهم أخطارا وأكملهم مروءة وقد امتنعوا في الجاهلية بالله بينما كان الناس يأكل بعضهم بعضا[4].

(1) ابن أعثم، الفتوح، ١٧٢/٢.
(2) انظر اسماء المبعدين: ابن اعثم، الفتوح ١٧٦/٢.
(3) المصدر السابق، تاريخ ٣٢٣/٤.
(4) الطبري تاريخ ٣٢٣/٤.

ويستدل على اعتزاز القبائل بكبريائها لما هدد معاويه الأشتر بالسجن، فقال له عمرو بن زراه: لئن حبسته لتعلمن أن له عشيرة كثيرة عددها لا يضام، شدها شديد على من خالفها ونبزها(١).

وهذه المناظرة تشير بوضوح الى نقمة القبائل على قريش، فالقبائل اعتادت أن ترى ولاتها من أصاب السابقة، ومن سبق عثمان لم يخص ذا رحم ولم يوي ذا قرابه، وعثمان لم يتقيد بذلك مما جعل صعصعه بن صوحان الطلب من معاوية أت يعتزل الأمر ليتولاه من هو احسن سابقه وقدما في الاسلام منه ومن أبيه، لكن معاويه أجابهم بأن تعيينه كان من عمر وليس من عثمان(٢).

لما عجز معاويه عن اصلاحهم، خشي على الشام ان يفسد وخاصة أن بعض أهل الشام اخذوا يجالسون المبعدين فأراد أن يتخلص منهم فلم يجد من وسيلة الا أن يخفف من شأنهم وقال: إنهم ليسوا إلا أهل شغب ونكير(٣). وكتب إلى عثمان بردهم. وفي هذا الشأن روايتان(٤): الأولى تقول إنهم اتجهوا الى الكوفه واستمر شغبهم فعاد وأخرجهم سعيد الى حمص. والثانية تقول أنهم اتجهوا نحو حمص بناء على رغبتهم الخاصة. ولكن الأرجح أن عثمان سيرهم الى حمص(٥) بعد أن خرجوا من دمشق. وفي حمص قابلهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بمنتهى الشدة، وحط من شأنهم، وكان كلما ركب أمشاهم(٦). وازاء هذه الشده أعلنوا توبتهم فأرسلوا الأشتر ليعلن هذه التوبة أمام الخليفة في المدينة، فأذن عثمان للاشتر بالإقامة في أي مكان إلا أنه آثر الرجوع الى أصحابه. وربما ان عودة الاشتر الى حمص ليكون مع جماعته جاءت نتيجة عدم موافقة الخليفة على رجوعه الى الكوفة.

أما الحالة في الكوفه فلم تهدأ بنفي أهل الشغب منها، بل زادت اشتعالا وخاصة ان لهؤلاء المبعدين قبائل تغضب لنفيهم، ومن هنا استغلوا خروج سعيد بن العاص الى

(١) ابن اعثم، الفتوح ١٧٦/٢.
(٢) الطبري تاريخ ٣٢١/٤.
(٣) ابن الاثير، الكامل ٥٩/٣ بولاق.
(٤) المصدر السابق ٥٩/٣ - ٦٠.
(٥) البلاذري، أنساب الاشراف ٤٣/٥.
(٦) ابن الاثير، الكامل ٥٩/٣ بولاق.

المدينة فعقدوا اجتماعا موسعا ضم رؤساء قبائل يمانية ربيعة وتميمية وفي نهاية الاجتماع كتبوا الى عثمان : اتق الله والزم سنة الصالحين من قبلك وانزع عن ضرب رقابنا ونفي صلحائنا وقسم فيئنا بين اشرارنا ، والا ستبدال عنا واتخاذك بطانة من الطلقاء وأبناء الطلقاء دوننا[1] .

وهذا الكتاب يعطينا صورة واضحة عن الاسباب التي كان يشكو منها أهل الكوفة وهي : نفي الصلحاء ، وولاية والطلقاء وتقسيم فيئهم في غير اصحاب رسول الله الاوائل وهم الشيوخ حسب قولهم وتقريبه لهذه البطانة من بني أميه دون القبائل الأخرى . ويستدل على ذلك من قول كعب بن عبيدة النهدي لعثمان : لقد حملت بني أبيك على رقاب الناس حتى أوغرت صدورهم ، واخترت عدواتهم[2] . فالعداوة ليست لأن عثمان خالف من سبقه في الأمور الدينية إنما هي أمور دنيوية أهمها تقريبه لبني أميه .

لم يحرك عثمان لهذا الأمر ساكنا ولم يتخذ خطوة فعلية لدراسة ما جاء في كتاب أهل الكوفه ، بل أبقى الوضع على ما كان ، وهنا لا بد لأهل الكوفة من أن ينقلوا معارضتهم من الخطوة الكلامية الى الخطوة العملية .

وبعد أن رأوا أن الخليفة لم يغير شيئاً كتب أهل الكوفة إلى المبعدين للحضور إلى الكوفه حيث لا طاعة لعثمان مع إقامته على ما ينكر منه[3] . ويذكر الطبري[4] ان يزيد بن قيس الارحبي أراد أن يخلع عثمان لولا تدخل القعقاع بن عمرو التميمي فبعد أن حيل بينه وبين الخلع كتب الى المسيرين كي يعودوا الى الكوفة . وهكذا نرى أن الثورة قد بدأت تتجه نحو الخليفة نفسه بعد أن كانت موجهة نحو الولاه . كما نلاحظ في موقف القعقاع تصادم الاتجاه الاسلامي والاتجاه القبلي ، فالمهاجرون الجدد يمثلون الاتجاه القبلي بأجلى صوره ، اما القدامى فهم يمثلون الاتجاه الاسلامي ولا يريدون من الشغب ان يتطور الى التعرض لمنصب الخلافة والخليفة .

وبينما كانت الكوفه كالمرجل اذ قدم علباء بن الهيثم السدوسي وكان هذا من

(١) المصدر السابق ١٧٩/٢ - ١٨٠.
(٢) ابن اعثم، الفتوح ١٨١/٢.
(٣) البلاذري، انساب الاشراف ٤٣/٥.
(٤) الطبري، تاريخ ٣٣١/٤.

المقربين الى سعيد وقد خرج معه الى المدينة، فأخبر أهل الكوفه أن سعيداً قد أقبل عليهم[1]. ورافق قدوم علياء وصول الاشتر وجماعته إلى الكوفه فبادر الاشتر الى قصر الاماره واخرج ثابت بن قيس الأنصاري[2] نائب سعيد على الكوفه ثم اتجه الى منبر الكوفه وأعلن للناس أن الخليفة قد أعاد عليهم سعيد بن العاص، ولم يكتف بذلك بل إن هذا الوالى حاول اقناع الخليفة لأنقاص عطاء النساء مائة درهم، وورد أهل البلاء الى الفين ويزعم ان فيئهم بستان لقريش[3]. فأخذت أقواله هذ طريقها الى الغوغائية فصمموا على منع سعيد من دخول المدينة وعبثا حاول أهل الرأي صدهم عن ذلك.

وقد حاول قبيصه بن جابر الاسدي التعرض للأشتر وحذره الفرقة والفتنة الا أن الأشتر قال له: وما أنت وهذا فوالله ما أسلم قومك إلا كرها ولاهاجروا الا فقرا. فوثب الناس على قبيصه وضربوه وجرحوه فوق حاجبه[4]. وربما كان الدافع لجابر هو أن أسداً كانت من المقربين الى الوالى ثم إن هذه القبيلة لم تنس بعد لما حدث لصاحب شرطتها، وسنرى فيما بعد وقوفها الى جانب المطالبين بدم عثمان هذا بالاضافة الى كون هذه القبيلة من مضر.

واجتمع الى الاشتر عشرة آلاف كلهم بايع له على ألا يدخل سعيد الكوفه[5]، واتجهوا نحو الجرعة[6]، وهناك أجبروا الوالي أن يعود أدراجه الى المدينة.

وفي هذا الصراع نلاحظ تيارين، التيار القبلي وهو الذي تمثل بخروج الأشتر ومن معه والذين قدروا بعشرة آلاف، والتيار الاسلامي وهم الذين كانوا ينهون الناس عن ذلك الا أنهم عجزوا لأنه لا يسكن الغوغائية الا المشرفيه[7] لا طاقة لهم بهم.

وبعد منع الوالي من دخول الكوفه كتبوا الى عثمان يخبرونه بأنهم ولوا على أنفسهم عبد الله بن قيس (أبو موسى الاشعري) للصلاة حذيفه بن اليمان على الخراج

---

(١) البلاذري، انساب الاشراف ٥/٤٢.

(٢) ابن الاثير، عمرو بن حريث ٣/٦١ بولاق.

(٣) المصدر السابق، الكامل ٣/٦١.

(٤) البلاذري، انساب الاشراف ٥/٤٥.

(٥) المسعودي، مروج الذهب ٢/٣٤٧.

(٦) ابن الاثير، الكامل ٣/٦١.

(٧) البلاذري، أنساب الاشراف ٥٠/٤٦، ابن عبد البر، الاستيعاب ٢/١٠.

وقالوا له احبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك اليه من أهل بيتك[1] .

رضي عثمان بذلك حتى لا يبقى للثوار حجة عليه . وهكذا حقق أهل الكوفة ما قاموا من أجله فأبعدوا الاستقراطية القرشية ، وولوا مصرهم رجل يماني منهم ثم هو من صحابة رسول الله ﷺ. ولكن هل ستقف الكوفة عند هذا الحد وهل ستميل إلى الهدوء والسكينة ، أم أنها ستعود بعد فترة قصيرة لسابق عهدها؟ ان استقرار الكوفة ما هو الاستقرار مؤقت لا يلبث أن يثور مرة أخرى وبأعنف مما كان عليه .

ومما تقدم نرى أن العصبية ضد قريش وضد الأمويين كانت العامل المباشر في نقمة أهل الكوفه على ولاة عثمان ، فهم أقرباء الخليفة أولا ، وهم ليسوا من أهل السابقة ثانيا فأستغلوا هذين الامرين وطردوا سعيداً وعينوا أبا موسى الأشعري عليهم .

وكما لعبت العصبية القبلية دورها في الكوفه ، فقد أثرت أيضا على الأوضاع في البصرة . فالتركيب السكاني فيها جعل للقبائل العدنانية كثرة هناك ، وكان والي المدينة في عهد عمر بن الخطاب أبو موسى الأشعري وهو يماني ، ورأينا أن من سياسة عمر في العراق كانت المخالفة بين عصبية الولاة وعصبية الرعية ، فالكثرة في البصره هي العدنانية فالوالي من اليمانية وعكس الامر كان في الكوفة .

وتذكر الروايات أن البصرة كانت هادئة في زمن أبي موسى ، الا أن العصبية القبلية كانت سببا في عزله عنها ، وربما أن بني أميه قد نظروا حولهم فرأوا أن ولايات الدولة الاسلامية قد أصبحت بأيديهم فلم تبق الا البصرة ، وهنا بدأت الأنظار تتجه إليها وما من شك أن المضرية قد نبهت الى هذا الامر أولا وبني أميه ثانيا .

ويذكر الطبري أن المضرية جاءت الى عثمان واشتكت من أبي موسى الأشعري وذلك عندما خرج للقتال وأخرج أثقاله على أربعين بغلا ورفضه ان يحمل أهل البصرة عليها فقال أهل البصرة لعثمان : ما كل نعلم نحب أن نقوله ، فأبدلنا به فقال لهم : من تحبون فقال غيلان بن حرشة الضبي : في كل أحد عوض من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا[2] . فعزله عثمان وعين بدلا منه عبد الله بن عامر وهو أموي أيضاً .

---

(١) أنساب الاشراف ٥/٤٦ ، الاستيعاب ٢/١٠ .

(٢) الطبري، تاريخ ٤/٢٦٥، ابن عبدالبر، الاستيعاب ٢/١٥٤ .

ومما تقدم نرى أن عزل أبي موسى لم يكن نابعا عن عجز وخيانه[1] وانما كان بدافع العصبية القبلية المضرية ضد اليمانية . والظاهر ان أبا موسى قد احس بهذا العزل لذا قال لأهل البصرة عندما علم بعزله : يأتيكم غلام خراج ولاج ، كريم الجدات والخالات والعمات ، يجمع له الجندين[2] .

وبعد مرور ثلاثة أعوام على ولاية عبد الله بن عامر حدثت بعض الحوادث الفردية في البصرة ومنها ما كان من رجل من عبد القيس يجتمع الى اللص حكيم بن جبلة فأمر عثمان بسجنه فنفذ ابن عامر الأمر[3] .

وأبعد ابن عامر أيضا عامر بن قيس عن البصرة لوشاية جاءت عليه بأنه لا يرى الزواج، ولا يأكل اللحم، ولا يشهد الجمعة فألحقه ابن عامر بمعاوية فتبين لمعاوية انه مكذوب عليه فخيره في الرجوع الى البصرة. الا أنه رفض وقال لا أرجع الى بلد استحل أهله مني ما استحلوا[4] .

وهكذا نرى أن البصرة لم تكن جميعها راضية عن سياسة عثمان وواليه ، وسنرى أن هذه المدينة ستتجه الى المدينة تحت قيادة اللص حكيم بن جبلة العبدي .

وفي الشام جمع عثمان لمعاويه جندي حمص وفلسطين واصبحت ولايات الشام جميعها تحت ادارة معاوية منذ سنة ٢٥هـ . وقد كانت الحالة هادئة هناك بسبب ما تمتع به معاويه من كفاءة اداريه ، هذا بالاضافة الى اختلاف التركيب السكاني في الشام عنه في العراق .

ومع هدوء الحال فقد قام ابو ذر يندد بالاغنياء ، طلب مواساة الفقراء فاستعذب الفقراء هذه الدعوه واجتمعوا حوله . فشكا الأغنياء مما فعله أبو ذر ، فضاق معاويه به ذرعا . وكتب الى عثمان يعلمه بأمره فطلب عثمان تسييره الى المدينة إلا أن أبا ذر فضل الاقامة في الريذه[5] .

(١) ابن سعد، الطبقات ٥/٤٥ .
(٢) ابن الاثير، الكامل ٤١/٣ بولاق.
(٣) الطبري، تاريخ ٣٢٦/٤.
(٤) المصدر السابق ٣٢٧/٤ – ٣٢٨.
(٥) ابن الاثير، الكامل ٤٧/٣.

وفي جمع عثمان أجناد الشام لمعاوية حرمان لأبناء المهاجرين والأنصار من تولي مناصب ادارية في الدولة . وهذا مما زاد من حدة السخط عليه . فالشباب النابهين نظروا حولهم فوجدوا لا مكانة لنباهتهم في الدولة وإنما ذلك مقصور على بني أميه وحدهم[1].

أما مصر فقد كان عليها عمرو بن العاص، الا أن عثمان عزله سنة ٢٥هـ وعين عليها عبد الله بن سعد بن أبي السرح وقد اعتمد عثمان في عزله على حدوث مشادة بين عمرو وعبد الله .

تذكر بعض الروايات ان عبد الله كان محمود السيرة في ولايته، وأنه كان يتمتع بمواهب عسكرية، ويدل ذلك غزواته في البر والبحر[2]، الا أن عدم سابقته في الاسلام، ثم هو من الذين أهدر الرسول دمهم يوم الفتح ولم يشفع له سوى عثمان لا بد وان يثير مشاعر الصحابة وأبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار .

هذا بالاضافة الى أن معظم القبائل التي سكنت مصر هي قبائل يمانية وهي وإن رضيت بعمرو بن العاص لا لشيء إلا لأنه من ولاة عمر أولا ولأنه يمت بصلة الخؤوله الى احدى القبائل الكبيرة التي سكنت مصر وهي بلي، أما ابن السرح فهو ليس من أهل السابقة في الاسلام .

ومن هنا احتجت مصر على سياسة ابن أبي السرح وكتبوا الى الخليفة بسوء معاملته . الا أن عثمان لم يحرك ساكناً، بل يخبرنا البلاذري أن ابن أبي السرح عاقب الذين تقدموا بالشكوى وقتل واحداً منهم[3] . وهذا مما أدى الى غضب أهل مصر أكثر فأكثر .

ومن هنا كانت تولية عثمان لهذا الرجل على مصر شؤما على المسلمين، فمن مصر خرجت أول فئة ثائرة ثم آزرتها الكوفه والبصرة واتجهوا معا الى دار الخلافة[4] .

---

(١) طه حسين، الفتنة الكبرى ١/ ١٢٠.

(٢) ابن حجر، الاصابة ٢/٣١٧ وانظر فتوحاته: ابن خياط، تاريخ ١/١٣٤ – ١٣٥، الكندي، الولاة ٣١.

(٣) طه حسين، الفتنة الكبرى ١/ ١٢٥.

(٤) المصدر السابق، ١/٨٤ – ٨٥.

أما الحالة في المدينة حيث مقر الخلافة هناك، فلم يظهر ما يشير الى الفتنة الا أنه من الواضح أن شباب الأنصار ضاقوا من الارستقراطيه القرشية عامة والأموية خاصة. لقد رأوا أنفسهم خارج الادارة فلا بد وأن يحرك ذلك نفوسهم على الخليفة الذي آثر قومه راضيا أو كارها، وإن إيثاره لقريش كان له وقع على نفوس الأنصار مما كان له الأثر الخطير في الفتنة[1].

وفي مكه عزل عثمان عنها خالد بن العاص المخزومي وعين بدلا منه علي بن عدي من عبد شمس ثم عزله، وعين بدلا منه خالد بن العاص[2]. ومع أن الحالة هادئة هناك الا أن ظواهر الأمور تدل على أن أهل مكه لم يرضوا عن سياسة عثمان تجاه تولية بني أمية والدليل على ذلك أن مكه لم تنهض للدفاع عن عثمان لما كان في الحصار.

الفتنة، أسبابها ومجرياتها ونتائجها:

أسبابها:

بعد استعراض حالة الأمصار لا بد وأن نرى ما هي المآخذ التي تسلح بها الثوار للثورة على عثمان. وقبل أن استعرض هذه الأسباب لا بد من القول أن الثوار البسوا حركتهم ثوبا دينيا حتى يضفوا عليها لونا شرعياً.

وهذه المآخذ هي[3]:

تعطيله حدود الله، عزل صحابة رسول الله، اسرافه في بيت المال واعطاؤه بني أميه، حمى بقيع المدينة، حبس ابن مسعود وأبي ذر، اقطع لأصحابه اقطاعات كثيره، نفي بعض الرعية، ضرب لعمار بن ياسر، وانتهاكه لحرمة كعب بن عبيده، احراقه لمصحف عبد الله بن مسعود، أتمام الصلاة بمنى.

واذا نظرنا الى هذه المآخذ نجد أن الأمور الدينية منها قد ناظره فيها بعض الصحابة ووافقوه عليها وأهمها اتمام الصلاة بمنى، أما احراق مصحف ابن مسعود فقد قام عثمان

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن طباطبا، تاريخ ١/١٥٦.

(٣) الخميس في احوال أنفس نفيس ٢/٢٩٦ – ٣٠٣.

بجمع المصاحف على ملأ ومرآى من الصحابة. ولو كان في عمله خرقا لقواعد الاسلام لما سكت عنه أحد، وأولهم علي بن أبي طالب. وعملية الجمع لم تأت فكرتها من عثمان انما جاءت من صحابي جليل هو حذيفة بن اليمان الذي رأى ان الأمة اصبحت تقول حرف عبد الله بن مسعود وحرف أبي موسى الأشعري[1]، وكتب الى عثمان ادرك هذه الأمه قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى[2]. هذا بالاضافة الى ظهور عصبية الامصار في القراءات فأهل الكوفة يتعصبون لقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل الشام لقرائهم ولكل مصر قارئ مما جعل الأمصار تتفاضل في قرائها[3].

سارع عثمان الى جمع المصحف فأخذ ما كان عند حفصة بنت عمر حيث أودعه أبو بكر أيام حروب الرده، وعهد الى زيد بن ثابت وابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام لينسقوا القرآن وقال: اذا اختلفتم في حرف فاكتبوه بلغة قريش أي لهجة قريش.

وبعد الانتهاء من كتابة المصحف أرسل الى كل مصر مصحفا وحرق ما سوى ذلك فشكر الناس هذا العمل إلا أصحاب عبد الله بن مسعود ومن رافقهم[4] وقد حدثت مشادة بين حذيفة بن اليمان وبين جماعة ابن مسعود فقال لهم حذيفة: اسكتوا انما انتم اعراب وإنكم على خطأ[5].

والتفسير الوحيد لهذه الضجة انما جاءت من العصبية للكوفة أولا ولابن مسعود ثانيا، فابن مسعود نفسه ما كان يتصور ان يكون زيد بن ثابت من كتبة القرآن ولا يشرك هو في الأمر، هذا مع مقدار حفظه وما سمعه عن الرسول ﷺ. فكان ذلك وسيلة للاعتراض والاحتجاج. وعثمان لم يجمع المصحف الا بعد أن استشار كبار المهاجرين والانصار، وعلي بن أبي طالب أكد ذلك وقال: لقد جمع المصاحف على ملأ منا ولو

---

(١) أبو هلال العسكري، الاوائل ٧٤.
(٢) العواصم من القواصم ٦٨.
(٣) ابن الأثير، الكامل ٥٦/٣.
(٤) أبو بكر الأندلسي، التمهيد والبيان ٥٠.
(٥) ابن الاثير، الكامل ٤٥/٣ بولاق.

توليت ما ولي عثمان لسلكت سبيله[1]. وبما أن كبار الصحابة قد وافقوا على هذا الإجراء فإن عمل عثمان كان صحيحاً.

وعثمان لم يفعل في المصحف شيئا الا أنه وحد الأحرف وجعلها بلهجة قريش لأن القرآن نزل بلغتهم وذلك خوفا من الاختلاف في قراءات الحروف نظراً لاختلاف اللهجات العربية. وقد رأينا كيف ان عمر أخذ على عبد الله ابن مسعود قراءته حتى حين: حتى عين فقال له: إنما نزل القرآن بلغة قريش لا بلغة هذيل.

وإذا رخص لابن مسعود وهو من هذيل أن ينطق حرف الحاء عينا وهو من أوائل الصحابة وممن سمع عن الرسول الشيء الكثير فكيف سيكون الحال لبقية القبائل العربية.

لقد كان جمع القرآن وتوحيده خطوة دينية وسياسية كبيره اقتضاها حفظ الأمن وتحقيق الوحده. وما رافق هذا الجمع من ضجيج ما هو الا مثال للصدام بين الاتجاه القبلي والاتجاه الاسلامي في سياسة الخليفة[2].

واذا تدخلت العصبية الاقليمية والعصبية القبلية في أمور المصاحف فلا بد وأن تتدخل هذه الامور في الثورة على عثمان وآزرها عوامل أخرى لا داعي لذكرها أما العصبية القبلية فقد جاءت على ثلاث محاور:

المحور الأول: تصادم العصبية بين بني أميه.

المحور الثاني: تصادم العصبية القرشية والعصبية الاموية.

المحور الثالث: تصادم العصبية العربية والعصبية القرشية.

ولنبدأ بالمحور الأول **وهو تصادم العصبية بين بني أميه**، لقد استبشرت بنو أميه بتولي عثمان الخلافة، ورأينا ان أبا سفيان قد أوصاه أن يجعلهم أوتاد الأرض. وهذا ما تم فعلا فما أن تسلم عثمان الأمر وبعد مرور سنة على خلافته حتى بدأ يعزل ولاة عمر ويعين بدلا منهم ولاة من بني أميه. وهنا تطلعت نفس شاب أموي الى منصب من هذه المناصب الادارية التي وزعها الخليفة على بني أميه الا وهو محمد بن أبي حذيفه.

(١) أبو بكر الأندلسي، التمهيد والبيان ٥١.

(٢) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ٥٣ – ٥٤.

لقد رأى محمد أن عثمان قد ولى الوليد بن عقبه وفيه ما فيه، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي أهدر الرسول دمه، وابن عامر فتى ابن ست وعشرين سنه واليا على البصرة وهناك سعيد بن العاص على العراق، وهو لم يوله منصبا بالرغم من طلبه ذلك، فأثار ذلك في نفسه بواعث الحقد، فهو حفيد لعتبة بن ربيعة سيد بني أميه ورائد جبهة المقاومة للرسول هو ابن أبي حذيفه صاحب الهجرتين الى الحبشه والمدينة فلماذا لا يوله الخليفة منصبا اداريا. ومن هنا خرج الى مصر وهناك أظهر معارضة لعثمان، والطعن على عبد الله بن سعد بن أبي السرح وآزره بحملته هذه محمد بن أبي بكر فتمكنا من جمع كل ناقم حولهم.

المحور الثاني: العصبية القرشية والعصبية الأموية:

لقد أثار تعيين عثمان لأقربائه احتجاج قريش وأول من أظهر الاحتجاج عبد الرحمن بن عوف وحلف ألا يكلم عثمان لأنه ترك سنة عمر[1]. وأرجح أن خروج عثمان على سنة عمر هو من باب توليته لأقربائه أكثر من الناحية الدينية فالصحابة لم يخالفوا عثمان في أمر الصلاة بمنى بل وافقوه على ذلك خشية الفرقه. فالخروج اذا على سنة عمر هو موقف الخليفة من بني أميه ومخالفته لوصية عمر بأن لا يحمل رقاب آل أبي معيط على رقاب الناس.

واحتج علي وطلحة والزبير على تولية سعيد بن العاص وجاءوا الى عثمان وقالوا: ألم يوصك عمر ألا تحمل آل معيط وبني أميه على رقاب الناس فلم يجبهم بشيء[2].

وهكذا نرى أن رجال الشورى ومعهم سعد بن أبي وقاص الذي عزل عن الكوفة لم يرضوا عن سياسة عثمان تجاه اقربائه، وهذا مما أدى الى الأنقسام بين بطون قريش فقد رأت هذه القبيلة أن بطناً منها هو صاحب الولاية دون غيرهم وهذا مما أثار حفيظة البطون الأخرى واحتجاجها عليه.

ويكن القول ان انقسام قريش كان عاملا مهما في دفع المعارضة القبلية لسياسة عثمان الى الأمام. ولو وقفت قريش متحدة وآزرت عثمان، لربما أن الأمر لم يتطور الى ما وصل اليه.

(١) البلاذري أنساب الاشراف ٥/٥٧، ابو بكر الأندلسي التمهيد والبيان ١٥٩.
(٢) البلاذري أنساب الاشراف ٥/٣٠.

لقد أدت سياسة عثمان الى حدوث انشقاق بين بطون قريش وقد ظهر ذلك بين بني زهره وبني أميه. فقد أمر سعيد بن العاص بعض أهل الكوفة أن يراقبوا شهر شوال، فجاء هشام بن عتبه بن أبي وقاص، وشهد بأنه قد رأى الهلال. فقال له سعيد كيف رأيته بعينك العوراء. فقال هشام: أتعيرني بعيني العوراء وقد فقئت في سبيل الله يوم اليرموك. وأفطر هشام باليوم التالي، ولم يعلن الوالي بدء شهد شوال. فأخذه سعيد وضربه واحرق داره. ولما علم سعد بن أبي وقاص بذلك جاء الى عثمان ومعه وجوه المهاجرين واحتج على ضرب ابن أخيه فقال له عثمان: اصنع ما بدا لك يا سعد فوالله انك لتعلم أنه مالي في ذلك من ذنب. فوثب عمر بن سعد وأشعل النار في دار سعيد بن العاص[1].

وأحتجت مخزوم عند ضرب حليفهم عمار بن ياسر ووقعه مغشياً عليه فأقبل هشام بن الوليد بن المغيره في نفر من بني مخزوم وقال: والله لئن مات لنقتلن به شيخا عظيما من بني أميه[2]. ولما أراد عثمان نفيه من المدينة تدخلوا لدى علي بن أبي طالب حتى يقنع عثمان بعدم نفيه خوفا من حدوث أمر بين بني أميه وبني مخزوم[3].

كما احتجت بنو تيم على تولية عثمان لأقربائه وعلى رأس هؤلاء طلحة بن عبيد الله الذي قال لعثمان: لقد اهلكك بنو أميه، وأطمعك فينا آل أبي معيط، وعند غب الصدور يحمد الورد أو يذم، وأنا لك كما كنت لنا، فاذا لم تكن كنا عليك[4].

وظهر من تيم محمد بن أبي بكر الذي تآزر مع محمد بن أبي حذيفه، فقد فكر هذا فرأى أنه ابن الصديق أول خليفة للمسلمين، وأخته زوج الرسول الكريم، ومع ذلك لم يعرف له عثمان حقا فهو يولي شباب بني أميه ولا يلتفت الى غيرهم فكأن الدولة أصبحت لهم دون الناس. كما أنه نظر الى من سبق عثمان فوجد أنهم لم يولوا ذا قرابة ولم يخصوا ذا رحم. ومن هنا أخذ ينتقد سياسة عثمان وولاته في مصر.

كما ظهر الانقسام بين بني أميه وبني هاشم. فقد جاء علي إلى عثمان وبين له العدول عن سياسة تولية بني أميه، وان يلتزم جانب الحزم مع الولاة وضرب له كيف

(١) المصدر السابق، ١٦٩/٢ - ١٧٠.
(٢) المصدر السابق، ١٥٤/٢ - ١٥٥.
(٣) المصدر السابق، ١٥٤/٢ - ١٥٥.
(٤) ابن أعثم، الفتوح ١٨٧/٢.

كان عمر يطأ على سماخ ولاته إن بلغة عنهم حرف جلبهم وأوقع بهم أقصى العقوبة لكن عثمان رد عليه وهم اقرباؤك فقال علي: أجل ان رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم[1].

ونتيجة نصح علي لعثمان اعتقد الخليفة ان عليا يؤلب الناس عليه فشكا ذلك الى العباس وقال له: ان عليا قطع رحمي وألب الناس علي، والله لئن كنتم يا بني عبد المطلب أقررتم هذا الأمر في أيدي بني تيمّ وعدي، وبني عبد مناف أحق أن لا تنازعوهم فيه ولا تحسدهم عليه[2].

ولم يقتصر الأمر على تذمر عثمان من علي بل امتد ذلك الى بني أميه فأعتقدوا أن عليا هو الذي يثير عليهم الناس وهو الذي كدر عليهم العيش وأفسد أمورهم وبلغ بهم الأمر الى تهديد علي أن حدث حادث لعثمان، لكن عليا رد عليهم بشده ووصفهم بالسفهاء والطلقاء وبين أن لا ناقة له ولا جمل في الأمر[3].

والظاهر أن الصحابة قد أكثروا من لوم عثمان على سياسته تجاه بني أميه، الا أنه أصر على موقفه. ويذكر أنه قال: لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أميه حتى يدخلوا من عند آخرهم[4].

كما خطب عثمان في الناس مهددا وموعدا كل من يخرج على سلطان الخليفة وقال: أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأحرى إن قلت هلم: أتي إلي. وكأن عثمان قد شعر بالندم فتراجع بعد ذلك، وقال: لقد أخرجتم مني خلقا لم أكن أحسنه ومنطقاً لم انطقه، فكفوا عني ألسنتكم وعيكم وطعنكم على ولاتكم فإني كففت عنكم[5].

مما تقدم نرى أن تولية بني أميه والانحياز الى جانبهم هي التي أفسدت الأمور بين رجال الشورى وعثمان. ومع ذلك لم يصل الأمر بينهم الى حمل السلاح ضد

---

(١) ابن الاثير، الكامل ٦٣/٣ بولاق.

(٢) البلاذري أنساب الاشراف ١٣/٥.

(٣) ابن اعثم، الفتوح ٢١٤/٢.

(٤) ابو بكر الاندلسي، التمهيد والبيان ١٦٣.

(٥) ابن الاثير، الكامل ٦٢/٣ بولاق.

الخلافة، الا أن انقسام قريش كان له أثر بالغ في الجرأة على الخلافة عند القبائل العربية الأخرى.

وهكذا كان لتصادم العصبية القرشية والعصبية الاموية نقطة الارتكاز للأمصار والقبائل كي تقبل على الخليفة في المدينة.

المحور الثالث: تصادم العصبية العربية والعصبية القرشية:

ان حوادث صدر الاسلام خضعت لعاملين اثنين الأول عامل العطاء الذي فرضه الرسول ﷺ ونظمه عمر بن الخطاب. والثاني عامل السبق الى الاسلام وصحبة الرسول ﷺ ويمكن القول أنه ما من حادثة أو فتنة على مدار السنين الأولى الا وكانت أثراً مباشرا أو غير مباشر لهما[1].

وقد لعبت الناحية المالية وعامل السبق دوراً كبيراً في الفتنة الأولى مما أدى في النهاية الى قتل عثمان بن عفان.

لقد قامت السياسة المالية لعمر بن الخطاب على عامل القرابة من الرسول في الترتيب والسبق الى الاسلام في الكمية. وقد حاول أن يعطي على مقدار ما مع الأعراب من القرآن الا أنه وجد في ذلك إجحافا لأهل البلاء منهم فعدل على ذلك وأمر بتفضيل أهل البلاء. وعندما استلم عثمان منصب الخلافة أراد أن يتقرب الى الناس في العطاء فزاد الناس، ووفد أهل الأمصار فكان أول من فعل ذلك من الخلفاء[2]. ولم تكن هذه الزيادة الوحيدة بل زاد ربيعة خمسمائة درهم[3]. وقد كان هذا التوسع في العطاء سببا لفتح الانظار على الخليفة بطلب الزيادة في العطاء والقسمة بالسوية بينهم.

لقد قامت النقمة على أسس فروض العطاء وخاصة بعد أن توقفت الفتوحات، فقد رأت القبائل التي هاجرت الى الامصار الجديدة أن قريشاً ومعها الأنصار هم الذين استولوا على الغنائم والأموال، بل أصبحوا تحت سيطرة الارستقراطية القرشية[4].

لقد جاءت القبائل الى الامصار واندفعت تقاتل وتضحي ثم وجدوا انفسهم لا

(1) شكري فيصل، المجتمعات الاسلامية ٥١.
(2) الطبري تاريخ ٢٤٢/٤.
(3) ابن خياط، تاريخ ١٤٩/١.
(4) طه حسين، الفتنة الكبرى ٣٨/١.

جاء اعتراضهم لانه حمل رقاب بني اميه على رقاب الناس، ثم ان عثمان كان من أغنياء قريش ومن أكثرهم سخاء فهو وان كان كريم في ماله الا أنه لا يمكن ان يكون كرمه في مال الدوله فثروته التي قدرت يوم وفاته بـ(١٥٠) الف دينار و(١٠٠) الف الف درهم وقيمة الضياع بوادي القرى وحنين وغيرها بـ(٢٠٠) الف دينار كانت تسمح له ان يهب وأن يعطي أقربائه. ورأينا ان عطاء عثمان امتد الى قريش والأنصار ورؤساء القبائل. اما الاعراب فلم يصدقوا ان ما يعطيه عثمان من ماله الخاص بل اعتقدوا انه من فيئهم. واحتجت الامصار على ابناء الصحابة الذين يأخذون العطاء ولا يغزون وباعتقاد القبائل ان العطاء هو لمن يغزو في سبيل الله وللشيوخ من اصحاب محمد[١]. وربما كان هذا الاحتجاج هو الدافع لمشاركة أبناء الصحابة في فتوحات افريقيا والعراق[٢]. لقد تصورت القبائل أن العداله منتفاة في توزيع الغنائم والاموال فقريش يزداد ثراؤها يومابعد يوم، والقبائل يتناقص عطائها بتناقص الفتوحات وهي التي ضحت وبذلت، قريش لم تبذل ولم تضحي. وأبسط ما يصور ذلك تلك الحملة التي رفع لواءها الاشتر النخعي على سعيد بن العاص لما قال إنما السواد بستان وقريش مما أجج من حدة الشكوى من ثراء قريش، وتلك الحمله التي نادى بها أبو ذر الغفاري- ولقيت قبولا عند القبائل. فأبو ذر أخذ بظاهر القرآن الكريم وطالب بعدم جمع الثروات واستطاع بحملته هذه ان يؤلب الفقراء على الاغنياء حتى شكو منه الى معاويه. ومع الثراء المالي لقريش وتعيين الولاة جميعهم منهم أدركت القبائل انها اصبحت تحت سيطرة قريش من جميع الوجوه فقد رأينا كيف عاملوا الوليد بن عقبه، وكيف طردوا سعيد بن العاص وشكوى أهل مصر من ابن أبي السرح. كل هذه الامور ما هي الا محاولة للخروج من قبضة قريش. ولم يفطن عثمان الى مصدر وحقيقة هذه الشكوى وكل ما رآه ما هو الا نوع من النزوات القبلية لا تلبث ان تمر بسلام كما انه لم يفطن الى حساب التغيرات الاجتماعية في تبدل الاحوال والامم التي لا يستطيع الانسان اكتشافها الا بعد استفحال الامر[٣]. كما ان الخليفة سمح لرجال قريش بالخروج من الحجاز وهذا مما لم يسمح به عمر الا بأذن خاص منه اما عثمان فقد اطلق لهم العنان.

فانساحوا في البلاد وجمعوا الثروات والتف حولهم كل طامع ويعلق الطبري

(١) ابن قتيبه الامامه والسياسة ٣٦/١.

(٢) ابن خياط، تاريخ ١٣٤/١، ابن الأثير الكامل ٨٠/٣ بولاق

(٣) ابن خلدون مقدمه ٢٨٠.

على ذلك بقوله: لما تسلم عثمان الخلافه سمح لقريش بالخروج من المدينة فانساقوا في البلاد ولما رؤوها ورأو الدنيا ورآهم الناس انقطع اليهم من لم يكن له طول ولا تجربه ولا مزيه في الاسلام فكان مغموما في الناس، وصاروا أوزاعا إليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم، فكان ذلك اول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامه ليس الا ذلك[1].

واذا اضفنا الى خروج رجال قريش وانسياحهم مع ما كانوا يتمتعون به من معرفة بأصول التجارة عرفنا كيف استفاد هؤلاء من أرباحهم من الفتوحات في حين أن عامه القبائل قد انفقوا ما اجتمع لديهم ومن هنا حصل تباين اقتصادي بين قريش والقبائل الاخرى.

لقد نظرت القبائل العربية فوجدت ان عثمان ولي الناس اثنى عشر حجه فلم يعين واليا من غير قريش وفي ذلك مخالفه لمن سبقه فعمر كان لا يولي أكثر من رجل من قبيله واحدة. اما عثمان فجميع ولاته من قريش ومما يمكن القول ان العصبية ضد قريش كانت من العوامل الهامة التي دفعت القبائل للثورة على عثمان وممن يؤيد ذلك من المحدثين:

١- **فون كريمر**[2]: أن الارستقراطيه العربية وسكناها العراق كان مركزا لتجميع كل الاضطرابات والثورات.

٢- **ميور**[3]: ان الصراع كان بين قريش ونبلاء المسلمين من ناحية وبين القبائل من ناحية أخرى ولم يستطع عثمان التوازن بينهما.

٣- **سايكس**[4]: صراع بني أميه وبني هاشم قام في نفس الوقت الذي قام به بدو الكوفه والبصرة ضد قريش.

---

(١) الطبري تاريخ ٣٩٧/٤.

(٢) الحضارة الاسلامية ترجمه طه بدر ٤٣، الخربوطلي، العراق في ظل الحكم الاموي ١٨.

(٣) Muir, The Calihate P.228 الخربوطلي، العراق في ظل الحكم الاموي ١٨.

(٤) Sykes, History of persia VOL. p. g. 32. الخربوطلي، العراق في الحكم الاموي ١٨.

٤- **خودابخش**[١]: ان البدو والعرب الذين اشتركوا في حروب الفرس ثم استقروا في العراق لم يهتموا بأن تكون الخلافة في قريش كما أنهم أشاعوا أنه من الجائز الثورة على أي خليفة يعمل ضد رعاياه.

٥- **الدوري**[٢]: إن الثورة على عثمان تمثل في الدرجة الأولى الثورة على قريش وهي انتصار للتيار القبلي على التيار الاسلامي.

٦- **طه حسين**[٣]: لقد آثر عثمان قريشاً من دون العرب ولم يستطع أن يوازن بينهم وبين القبائل الأخرى.

٧- **يوسف العش**[٤]: إن ما دعا إلى الثورة هو حدث جديد في تاريخ المسلمين وهو آت من طبقة الأعراب التي احتجت على سيطرة قريش.

مجريات الثورة:

ما إن جاءت سنة ٣٤ هـ حتى ازدادت حركة التذمر بين الامصار فدعى عثمان إلى اجتماع عام حضره ولاته الأربعة وهم سعيد بن العاص (الكوفة) معاوية بن أبي سفيان (الشام) عبدالله بن عامر (البصرة) عبدالله بن سعد بن أبي السرح (مصر) وفي هذا الاجتماع طلب عثمان من ولاته أن يشيروا عليه الرأي، كما بين أن الناس طالبوه أن يعزل عماله وبعد ذلك استمع الى آراء هؤلاء الولاة فقال: عبد الله بن عامر: ان سبب النقمة هو المال واقترح ان يعطي عثمان المال لهم حتى يرضوا عنه ولا يشكوه.

ابن أبي السرح، ان لك على الناس حقا في كتاب الله ولهم عليك مثل ذلك فادفع اليهم حقوقهم واستوف منهم حقك. وأشار أيضا بأن يتبع سنة أبي بكر وعمر ولن يشكوه احد بعدها.

---

(١) Kudabukish, Contribitions to the history of Istamic civilization Vol. Ip. 139. الخربوطلي، العراق في ظل الحكم الاموي ١٨.

(٢) مقدمه في تاريخ صدر الاسلام ٥٧.

(٣) الفتنه الكبرى ١/٨٧.

(٤) مذكرات في التاريخ الاسلامي، القيت على طلبة كلية الشريعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٣: ١٦.

سعيد بن العاص: بين أن النقمة هي نابعة من فراغ العرب، وأشار باشغال الناس بالحروب حتى لا يكون لديهم متسع من الوقت لعيب الامراء.

معاويه: انك جمعتنا وذكرت انه قد كثرت الشكايات منا وأنت قد ملكتنا رقاب الناس وجعلتنا أوتادا في الأرض فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى نكفيك ما قبله ولا يكون ههنا شكاية احد.

وقد وافق الخليفة على رأي معاوية بعد أن وجده أفضل الاراء ورد الولاة الى امصارهم[1].

وفي هذا الاجتماع نجد ان الخليفة قد بين أن الناس طلبوه بعزل عماله ولكن لم يتعرض أحد الى الموضوع ولم يتطرقوا اليه، وكأنهم قد رأوا في بقائهم بولاياتهم نصرا لعثمان ولسياسية عثمان، وكان عدم الاهتداء الى اصل الداء ان عاد سعيد بن العاص أدراجه الى المدينة لرفض الكوفه إياه ومناداتهم بأبي موسى الاشعري واليا عليهم. وعاد سعيد ليحث الخليفة عن قتال أهل الكوفه الا أن عثمان آثر العافية ووافق على مطلبهم.

وما حدث في الكوفه كان يجب ان يبصر الخليفة الى ان الشكوى هي من عماله الا انه لم يحرك ساكنا أيضا. ومن هنا زادت حركة التذمر وكأن الامصار الأخرى أرادت ان تحذو حذو الكوفه حتى يعزل عنها هؤلاء القرشيين. الا ان قوة الولاة في المناطق الاخرى حالت دون ذلك. وسارع عثمان بارسال مفتشين الى الامصار وعاد هؤلاء باستثناء عمار بن ياسر ليرفعوا تقريرا للخليفة يفيد بأن الأمور تسير سيرا عاديا. أما عمار فقد استماله عبد الله بن سبأ وخالد بن ملجم وكنانه بن بشر واخذ يطعن معهم على الخليفة وولاته[2].

وبعد ذلك دعا عثمان الى اجتماع آخر لولاته سنة ٣٥هـ حضره ابن عامر وابن أبي السرح ومعاويه وسعيد بن العاص وأدخل معهم عمرو بن العاص أما والي الكوفة الجديد فلم يحضر الاجتماع، ولا تعطي الروايات التاريخية سبباً ذلك، ولكن ربما ان الخليفة قد اقتنع بأن الكوفه قد اصبحت هادئة فلا حاجة لحضور واليها الاجتماع.

---

(١) ابن اعثم، الفتوح ٢/١٨٧.

(٢) الطبري، تاريخ ٤/٣٤١.

وكما حدث في الاجتماع الأول حدث في الثاني فلم يهتدوا الى سبب النقمة الا أن سعيد بن العاص ذكر ان ما يجري في الامصار هو من صنع أيدي تخطط في السر وطالب بقتل اصحاب هذا المخطط[1].

أما عمرو بن العاص فقد أشار على الخليفة أن يشتد في موضع الشدة، وان يلين في مواضع اللين، أما معاويه فقد اصر على موقفه الأول بأن كل وال أعلم الناس بحقيقة ما يجري في ولايته. وعاد هؤلاء الولاة الى أمصارهم دون ان يتخذوا خطوة فعاله في مواجهة الموقف.

وما ان جاء ذي العقده حتى كان أهل مصر على أبواب المدينة فاستقبلهم عثمان فطلبوا منه أن يدعُ بالمصحف فدعا به وأمروه ان يقرأ سورة يونس السابعه فقرأ حتى الآية: قل أألله اذن لكم ام على الله تفترون[2] فقالوا له: قف، أرايت ما حميت من الحمى؟ أألله اذن لك أم على الله تفتري. فقال امضه نزلت في كذا وكذا فأما الحمى فان عمر حماه قبلي لأبل الصدقه فلما وليت زادت أبل الصدقه فزدت في الحمى لما زاد من أبل الصدقه. ثم اخذوا يناظرونه في الآيات الكريمة حتى تمكن من إقناعهم فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطا وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم ثم رجعوا راضين[3].

لقد شكا أهل مصر من ابن أبي السرح بأنه يتحامل على المسلمين وأهل الذمة ويستأثر بالغنائم[4]. ومن هنا عزله وولى محمد بن أبي بكر عليهم وبناء على رغبتهم[5].

غير أن المصريين عادوا بعد مدة وهم يقولون أنهم وجدوا كتابا من الخليفة مرسل الى والي مصر يأمر بأن يصلب أو يقتل أو يقطع أيدي وأرجل الخارجين[6]. وقد نفى عثمان هذا الكتاب ومن ثم اتهم الثوار بأنه من تدبير مروان بن الحكم.

---

(١) المصدر السابق ٣٤٢/٤.
(٢) يونس آية ٥٩.
(٣) ابن خياط، تاريخ ١٤٦/١.
(٤) الطبري تاريخ، ٣٧٤/٤.
(٥) البلاذري، انساب الاشراف ٦٧/٥.
(٦) ابن خياط، تاريخ ١٤٦/١.

وإذا نظرنا الى أمر هذا الكتاب وجدنا أن المواقع والحوادث تكذبه، وذلك ان ابن أبي السرح قد خرج من مصر في رجب سنة ٣٥هـ يطلب الثوار ومنها لم يعد الى مصر حيث تمكن محمد بن أبي حذيفه ان يستولي عليها[1]. وما دام ابن أبي السرح قد منع من دخول مصر فمن هو الوالي الذي سيكتب اليه الخليفه حتى يقتص من القادمين.

والناحية الثانية ان الثوار أنفسهم قد رفضوا ان يبرزوا الكتاب للصحابة في المدينة ومما تقدم نرى ان الكتاب كان ملفقا وهو حسب ما يسميه ابن خلدون " مدلس "[2] وما كانت عودة الثوار الا نتيجة أمرين:

الأول: ان الثوار قد خرجوا وفي نيتهم قتل الخلفية فلما سمعوا منه وسمع منهم أيقن البعض أن الخليفة مكذوب عليه واستطاع ممن اقتنع ان يقنع الآخرين ممن لم يقتنعوا ومن هنا فكروا في العـودة، لكن المخططين وقـد أيقنوا بفشلهم استـحـدثوا هذا الكتاب.

الثاني: ان قدوم أهل البصرة والكوفه هو الذي شجع المخططين، ففكروا في أمر يقلب أفكار من اقتنع بعدالة الخليفة حتى يعودوا جميعا الى المدينة ومن هنا عاد المصريون الى المدينة.

وقبل عـودة الثوار للحصار لا بد وأنهم قد اتخذوا خطوات موحده ومطالب واحده وهي أن يعزل الخليفة عماله ويعين بدلا منهم أهل السابقه[3]. وأن يقسم فيئهم بينهم وأن رفض الخليفة ذلك فليعتزل وان رفض فليقتل.

وأقبل الثوار الى عثمان وحاصروه في بادئ الأمر حصاراً ضعيفاً ثم شددوا الحصار عليه وطالبوه بعزل ولاته وأعطوه مهلة ثلاثة أيام الا أن مطالب الثوار لم تتحقق ومن هنا صمموا على قتله. وخاصة بعد أن وقف مروان بن الحكم وقال: جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنا والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا الى منازلكم فانا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا[4].

---

(١) الكندي، الولاه ١٧.

(٢) ابن خلدون، مقدمه ٢١٦.

(٣) الطبري، تاريخ ٣٥٨/٤.

(٤) الطبري تاريخ ٣٦٢/٤، ابن الأثير الكامل ٦٨/٣ بولاق

ثم إنهم خافوا من قدوم النجدات من الأمصار التي طلبها عثمان من معاويه وعبد الله بن عامر وإعلامهم بحقيقة الأمر[1].

كاد الاتفاق ان يحصل بين الثوار والخليفة على أن المحروم يعطي ويوفر الفيء ويعدل في القسم ويستعمل ذوي الأمانة والقوة، الا أن هذا الاتفاق لم يظهر له أثر. وتقدم الثوار يطالبونه بالعزل. فقال عثمان: والله لئن تضرب عنقي أحب الي من أن أخلع أمة محمد بعضها على بعض[2]. ويذكر ان ابن عمر هو الذي نهاه عن ذلك حتى لا تصبح عادة كلما سخط قوم من أميرهم خلعوه أو قتلوه[3]. وفي الحصار كتب عثمان الى علي يطلب منه النصرة وقال له: ان لي حق الاسلام وحق الاخاء والقرابة والصهر ولو لم يكن من ذلك في شيء وكنا في الجاهلية لكان عار على عبد مناف أن ينزع أخو بني تيم (طلحه) أمرهم. فبعث اليه علي سيأتيك الخبر[4].

وهذا الكتاب من عثمان يدل على أن لطلحة ضلعا في الأمر، فهل أيد طلحة محمد بن أبي بكر في نقمته على عثمان، أم أنه كان من وحي المخططين الذين أرادوا الفرقة بين الأمة. إن الروايات التاريخية تشير الى أن طلحة كان من أشد الناس على عثمان[5]، وانه بعث ابنه على كره منه لمساعدة عثمان[6]. فان كانت هذه الروايات صحيحة فما حرك طلحه الا الغضب على الخليفة لأنه قرب اليه بني اميه، بل وهناك من يذكر ان طلحه قد اشترك في الحصار ومعه بنو تيم[7]. وأنا استبعد ذلك فلا يعقل ان يشترك طلحه في حصار عثمان ويشترك ابنه في حمايته.

ومضى الثوار في حصارهم وعثمان يحث الناس على عدم القتال وحاول عدة مرات ان يقنع الثوار بالكف عن الحصار الا أنهم رفضوا، كما ذكرهم بما قدمه في الاسلام الا أن ذلك لم يجد اذنا صاغية عند الثوار.

---

(١) البلاذري أنساب الاشراف ٥/٧١– ٧٢.
(٢) ابن خياط، تاريخ ١/١٤٧.
(٣) المصدر السابق ٨٧/١٤٨.
(٤) ابن الاثير، الكامل ٧١٣ بولاق.
(٥) البلاذري انساب الاشراف ٥/٨١.
(٦) المصدر السابق ٥/٦٩.
(٧) ابن الاعثم الفتوح ٢/٢٢٧.

ولما أيقن الثوار أن الخليفة ماض في رفض عزل عماله، ورفض عزل نفسه صمموا على قتله. ويذكر ابن خياط ان عثمان قد قتل لما قام عبد الله بن عمر ومعه رجال من بني عدي ليجيروا عثمان وهناك دخل عليه الثوار وقتلوه[1].

أما موقف أهل المدينة من الحصار فقد اختلفت فيه المصادر التاريخية فبالنسبة لقريش رأينا انها لم تكن راضية عن سياسة عثمان، ثم ان بعض البطون قد غضبت على عثمان كبني مخزوم وبني زهره. ومن هنا لم نجد من ساعد عثمان الا أبناء الصحابة وهؤلاء طلب منهم عثمان الا يقاتلوا الناس. ولم يظهر موقف كبار الصحابة الا بمفاوضة الثوار ومن المرجح أن هؤلاء لم يعتقدوا أن الأمر سيتطور الى قتل الخليفة وكل ما تصوروه ان مطالب الثوار عادله وعلى الخليفة تنفيذها.

أما بالنسبة للانصار فقد قام منهم زيد بن ثابت يدعو لنصرة الخليفة، ودعوته هذه جوبهت برفض من أنصار أخرين. وهذا كله بسبب سياسة عثمان التي أقام اركانها على بني أميه أولا وقريش ثانيا وهذا ما أثار حفيظة بعض الانصار. ثم علينا ان لا ننسى أن الحصار قد كان في موسم الحج وهذا أدى الى خلو المدينة من بعض رجالها.

من هم القائمون بالثورة:

قبل الحديث عن الذين قاموا بتنفيذ الثورة لا بد من ذكر المخططين لها فمطالب الثوار التي جاؤا بها هي مطالب عادية تطلب في كل وقت وكل حين، وما كانت هذه المطالب تستدعي قتل الخليفة. ثم رأينا ان الخليفة وافق أهل الكوفه على طلبهم كما وافق أهل مصر أيضاً، وهذا يدل على أن الخليفة لم يكن ممانعا من تحقيق رغبات الأمصار، ومن هنا أرى أن هذه المطالب ما كانت الا واجهة تقدم بها الثوار للخليفة حتى يصلوا الى مآربهم الحقيقية.. والاهداف الحقيقة دعا اليها رجل يهودي تقنع برداء الاسلام وهو عبد الله بن سبأ اخذ يتنقل بين الامصار ويحرض الناس على الثورة على عثمان وقد وجدت دعوته هذه أذناً صاغية عند الاعراب ففتحت عيونهم على قريش وكيف انها تستأثر بالحكم والثروة دون القبائل. وقد وجد هذا المخطط مرتعا له في الكوفه حيث التركيب السكاني كان يسمح بذلك:

فالكوفه سكانها خليط من المسلمين الأوائل ومن الاعراب ومن المسلمين من

(1) ابن خياط، تاريخ ١/١٥١.

الموالي ومن النصارى واليهود، هذه الفئات لا بد وأنها كانت تحمل معها ذكرياتها القديمه وأمجادها الغابره وكيف أن الاسلام قد حقق انتصاراته على هذه الامجاد ومن هنا بدأ يبثون دعاياتهم الهدامه بأن الخليفة لا يعدل بالسوية والعطاء يذهب للصحابة دون غيرهم من الناس، والخليفة لا يعين الا من قريش فصادفت هذه الاقوال هوى عندهم، ومن هنا قاموا بالثورة على عثمان. وندرك مدى قوة غير المسلين في الكوفه اذا علمنا أن اكثر من نصف اليهود المهاجرين من الجزيرة العربية والبالغ عددهم أربعون الفا قد سكنوا العراق[1] فهؤلاء لهم أساليبهم وخططهم وفنونهم في التنظيمات السرية ومن هنا قامت حركة ابن سبأ.

ولكن المرء يقف حائرا أمام سكوت الدولة عن ابن سبأ الذي كان يثير الشغب في الامصار فأين ذهبت سطوة معاويه وحزم ابن أبي السرح عنه، وهذه الحيرة تزول أمام عدم ثبوت مآربه وانما كانت اذاعة لا يحل الأخذ بها[2]. فالحدود تقام بالشهادة وهي تدرأ أيضا بالشبهات فما دامت البينة لم تقم على ابن سبأ بأنه يحرض الناس على الخليفة فلا يجوز اذا ايقاع العقوبة عليه. وبعد أن نجح المخطط في زرع بذور الحقد تولى عملية التنفيذ أعراب الكوفه فقد اجتمع كعب بن عبدة النهدي من الكوفه والمثنى بن مخرمة العبدي من البصره وكنانه بن بشر وتذاكروا من مصر في مكه سنة ٣٤هـ واسيرة عثمان وقارنوها بما نقلها اليهم المخططون السريون فاقتنعوا بالأمر واتفقوا ان يوافوا عثمان في العام المقبل في داره[3].

لقد كان المخططون بارعين فخوفا من أن ينقلب الأمر ضدهم أوعزوا لكل مصر أن يدعو لمرشح، فالكوفه نادت بالزبير والبصرة بطلحة ومصر بعلي[4]. ولو أن الثوار صادقين في طلبهم لرشح أهل الكوفه سعداً اللهين اللين الذي عزله عثمان عنهم ولما طالبوا بالزبير، صحيح ان للزبير وطلحة مصالح اقتصادية في الكوفة والبصره، الا أن أهل الكوفه قد جربوا ولاية سعد وهم أعرف الناس به فلماذا لم يقع عليه الاختيار ليكون مرشحا لأهل الكوفه؟ ان المخططين رأوا أن ابرز الصحابة هم الزبير وطلحة

---

(١) التنبيه على ما وجب من اخراج اليهود من جزيرة العرب ٥.
(٢) الطبري، تاريخ ٣٤٢/٤.
(٣) أنساب الاشراف ٥٩/٥.
(٤) الطبري، تاريخ ٤٤٩/٣.

وعلي فأرادوا الايقاع بينهم حتى تبقى الأمة في اختلاف.

ويظهر اثر التخطيط في أمر الكتاب الذي أدعى أهل مصر أنهم وجدوه مع مبعوث عثمان الى والى مصر، وقد تعجب علي كيف علم أهل البصرة به. وبين أن أمر هذا الكتاب قد أبرم في المدينة ليس الا. وهنا قالوا الثوار صفوه على ما شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا[1]. وهذا الطلب يبين ان الثوار جاؤا لأمر يتعدى المطالب التي تقدموا بها.

واذا كان المخططون هم عناصر غير اسلاميه فقد كان المتفذون من الاعراب وهذه الناحية ذكرها عدد من المورخين القدامى فالبلاذري يذكر بأنهم حثالة الناس[2]. وانهم لم يأتوا غضباً ولا محاباة عن الدين[3]. وابن سعد يذكر ان سعد بن أبي وقاص قال ان أمراً هؤلاء رؤساؤه لأمر سوء[4]. وسعد من أعلم الناس برجال الكوفه لا سيما وأنه خبر اهلها وعرف طباعهم وصفاتهم.

والطبري يذكر بأنهم ذؤبان العرب، وهمهم الفتنة وأموال أهل الذمه[5]. أما ابن خلدون فوصفهم بأنهم غوغاء الناس ونزاع القبائل[6]. والذهبي يقول كانوا رؤوس أهل شر وجفاء[7].

ومن المحدثين سيد أمير علي الذي قال: إن القبائل العربية والتي من طبيعتها الملل والخضوع للقانون والنزوع الى الحرية والتي خضعت الى شخصية النبي وأسلمت القياد لحزم أبي بكر وصرامة عمر بدأت الآن في أيام سيطرة قريش تعود سيرتها الأولى وتنقل معها بذور التمرد في البلاد البعيدة التي هاجرت اليها، كما بدأ ليزرع من جديد ذلك التنافس القبلي القديم الذي كان قد أخمد أواره في عهد الرسول ﷺ وعاد الآن يجر في أذياله أسوأ النتائج وأشدها هولا على المسلمين[8].

---

(١) الطبري، تاريخ ٣٥١/٤.

(٢) البلاذري أنساب الاشراف ٩٨/٥.

(٣) المصدر السابق ١٢/٥.

(٤) ابن سعد، الطبقات ١٧٢/٣.

(٥) الطبري، تاريخ ٣٢١/٤، ٣٨٦، ٣٥٢.

(٦) ابن خلدون، العبر جـ٢ قسم ١/٢ (بولاق).

(٧) الذهبي، دول الاسلام ١٢.

(٨) سيد أمير، تاريخ العرب ٤٢.

توماس أرنولد: لم يكن العربي يحمل لهذا الوطن الجديد شيئا من الحب والتقديس وكل الذي فهمه أن قريشا قد فرضت سيادتها على بقية القبائل العربية مضافا الى ذلك أن أثر الوازع الديني كان ضئيلا عندهم[1].

هاملتون جب: عادت التجمعات القبلية والنزعات السياسية القديمة الى الظهور وربما لم يكن هناك شك في أن الحافز الداخلي الذي أثار الفتنة الأولى هو محاولة القبائل أن تعود الى الاستقلال الذاتي[2].

وقد كانت أعرابية الثوار هي التي أدت الى قيام الصحابة وتابعيهم في محاولة منهم لمساعدة عثمان في الحصار فقد قام بالكوفه عقبة بن عمرو، وعبد الله بن أبي أوفى، وحنظله بن الربيع التميمي، وقام امثالهم من التابعين أيضا ففي البصرة قام عمران بن حصين، وأنس بن مالك، وهشام بن عامر، ومعهم بعض التابعين أيضا وفي الشام قام بعض الصحابة أمثال عباده بن الصامت، وأبو الدرداء وغيرهم كما قام في مصر الصحابة وتابعيهم[3]. وهكذا نجد أن الصراع هو في أساسه صراع التيار القبلي ضد التيار الاسلامي، فالمسلمون الأوائل اعتبروا حركة الاعراب هي حركة فيها خروج على سلطان الخليفة ويجب قتالهم، بينما رأى الأعراب أن ثورتهم قامت لأن الخليفة استأثر فأساء الاثره.

لقد قام هؤلاء الاعراب تدفعهم نزعاتهم القبلية للثورة على سلطان قريش وعلى أهل السابقة من الاسلام، وقد وافتهم الظروف في عهد عثمان رضى الله عنه.

فأبو بكر رفض أن يستعمل المرتدين ومات دون أن يشركهم في الفتوحات بالرغم من حاجته اليهم، ولما جاء عمر أراد أن يشغل هؤلاء الاعراب بالفتوحات فرفع الحظر عنهم للحاجة إليهم، الا أن عمر كان ملهما وعبقريا ففطن الى هؤلاء الاعراب ومن هنا أمر أن لا يؤمر أحد منهم على اكثر من مائة ولأنهم أهل عنجهية وحديثو عهد بالجاهلية.

أما عثمان فقد فتح الهجرة على مصراعيها، واقطع الاعراب أراضي حتى يستصلحوها وعين بعضهم قادة وزاد من عطائهم ففتح بذلك أعين الاعراب على أخرى

---

(١) أرنولد، الخلافة ١٠.

(٢) جب، دراسات في حضارة الاسلام ٥٢،٥٢.

(٣) الطبري تاريخ، ٣٥٢/٤.

في الدولة، وزاد من نقدهم ان هناك عناصر غير اسلاميه كانت تدفعهم للمزيد من المطالب.

لقد بقي الاعراب على عنجهيتهم بالرغم من مضي وقت على انتقالهم الى المدن فعندما دخل عبد الله بن عامر وعليه جبة خز دكناء صار أعراب البصرة يقولون على الأمير جلددب[1] وعندما سئل اعرابي كيف يصنع لو كان خليفة فقال استكفى كل شريف قوم ناحيته[2].

ومما شجع الأعراب على الثورة أن زعماء القبائل في الكوفه والبصرة الذين عينهم ولاة عثمان لم تأت سنة ٣٤هـ الا وخلت المدينتان منهم[3]. وربما حاول الولاة أن يخمدوا جذوة النقد بتعيين هؤلاء، الا أنهم نسوا ان النقد آت من المهاجرين الجدد، أن تعيين هؤلاء لم يرض النفوس وخاصة بعد أن ظهرت منهم طبقة جديدة تسلمت زعامة القبائل.

لقد جاء هؤلاء الاعراب تدفعهم ظلمة البدعة والحمية الناشئة عن محض العصبية فجعلتهم يحيدون عن رؤية الحق[4] ومن هنا قاموا بالثورة على عثمان.

واذا قام تيار قبلي يناهض التيار الاسلامي فما هي القبائل التي اشتركت في هذه الفتنة.

لا تعطينا المصادر التاريخية تفصيلات عن القبائل التي اشتركت في الفتنة، البلاذري فقط يورد أن القبائل الحجازية التي شاركت في الحصار هي من أعراب خزاعه وسعد بن بكر وهذيل وطوائف من جهينه ومزينه[5]، أما القبائل التي جاءت من الأمصار فلم تبينها هذه المصادر، ولكن من خلال رؤية قواد الثورة يمكن الحكم بأنهم من القبائل اليمانية وشاركهم في ذلك قبائل ربيعه وتميم فالعصبية ضد قريش هي التي جمعتهم.

(١) البلاذري، فتوح البلدان ٤٢٦.
(٢) أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسه ٣/٣٥.
(٣) الطبري، تاريخ ٣٣٠/٤-٣٣٠، ابن الاثير، الكامل ٧٣/٣ بولاق.
(٤) الديار بكري، الخميس ٢٠٤/٢.
(٥) البلاذري، انساب الاشراف ٩٩/٥.

ففي مصر نرى أن قادة الثورة هم من خزاعة وكان منهم عمرو بن الحمق الذي كان قائدا لفرقة تتكون من مائة رجل[١]. وعك وكان منها عبد الرحمن الغافقي الذي كان زعيما لثوار مصر ثم هو القائد العام للثورة وحاكم المدينة بعد مصرع الخليفة عثمان[٢]. ومن تجيبب كنانه بن بشر الذي اختلف في أمر الزعامة بينه وبين الغافقي، ويذكر ابن دقماق ان هذه القبيلة قد تعاقدت في مسجدها على قتل عثمان بن عفان[٣]. ومن مصر أيضا قبيلة بلي والذي ظهر منها عبد الرحمن بن عديس البلوي[٤].

وهذه القبائل اجتمعت معا واتخذت صورة من صور العصبية[٥] الجماعية ضد العصبية القرشية تحت قيادة رجلين من قريش أعمتهما المطامع الشخصية وهما محمد بن أبي حذيفه ومحمد بن أبي بكر فحرضوا أهل مصر وافتعلوا الأمور حتى حدث ما حدث.

ومن الكوفه نجد أن ثلاثة من الرؤساء هم من اليمن ومعهم رجل من ربيعة وزعيم هؤلاء الاشتر النخعي وهو يماني أيضا[٦]. أما البصرة فمعظم الرفاق من ربيعة واليمن ومعهم حرقوص بن زهير السعدي من تميم والقيادة العليا الى حكيم بن جبله العبدي. وبذلك يمكن ترتيب القبائل التي قامت بالثورة حسب عدد رؤسائها على النحو التالي: اليمن- ربيعة- تميم وقد جمعت هؤلاء العصبية ضد قريش. ونلمس ذلك من أن القبائل القيسية في البصرة هي التي قامت فقط لتساعد الخليفة المحصور، فعندما بعث عثمان الى عبد الله بن عامر يطلب بنجدته قام مجاشع بن مسعود السلمي ومعه زفر بن الحارث الكلابي[٧] ومعهما ستمائة رجل لمساعدة عثمان.

مما تقدم يمكن القول أن الثورة على عثمان قد سارت في نهجها كما حصل في حروب الرده، فقد قامت تميم وربيعة واليمن للثورة على سلطان أبي بكر وسلطان

---

(١) الكندي، الولاة ١٧.

(٢) الطبري تاريخ ٣٤٨/٤-٣٤٩.

(٣) ابن دقماق الانتصار ١٧/٤.

(٤) الكندي، الولاة ١٧-١٨.

(٥) البري، القبائل العربية في مصر ٢٣٧.

(٦) البلاذري أنساب الاشراف ٥٩/٥.

(٧) البلاذري، أنساب الاشراف ٧٢/٥.

قريش الا أن قوة أبي بكر أعادتهم الى حظيرة الدولة أما في عهد عثمان فقد تمكن هؤلاء من غزو المدينة وقتل الخليفة الا أنهم لم يحققوا ما قاموا من أجله وعادوا من جديد تحت سلطة قريش.

وقد أشار أبو جعفر المنصور إلى دور القبائل اليمانية فقال. وقام عثمان فقدمكم (مضر) وآثركم ياستكراهه أهل اليمن؟ فرحلوا اليه وأطافوا بداره فما غضبتم له ولا نصرتموه حتى حكموا فيه ما أرادوا ونالوا منه ما قد علمتم[1].

وابن خياط[2] أورد أن أول من دخل عليه رجل من سدوس يقال له الموت الأسود ثم دخل كنانه بن بشر التجيبي فضربه بالمشقص، واشترك معه رومان اليماني.

ومن القتلة أيضا عمرو بن الحمق الخزاعي، وسوادن بن حمران المرادي ومعهم عمير بن ضابيء البرجمي من تميم[3].

ويعلق محب الدين الخطيب محقق العواصم من القواصم على ذلك بقوله: ان الذين شاركوا في الجناية على الاسلام يوم الدار طوائف على مراتب فهم الذين غلب عليهم الغلو في الدين فأكبروا الهنات وارتكبوا في انكارها الموبقات، وفيها الذين ينزعون الى عصبية يمنيه على شيوخ الصحابة من قريش ولم تكن لهم في الاسلام سابقه فحسدوا أهل السابقة على ما أصابوا من مغانم شرعية[4].

كما أن هناك اعترافاً من بعض الانصار بخذلانهم الخليفة، وهو ما عبر به حسان بن ثابت بقوله[5]:

وكانت ثقاته الأنصار	خذلته الأنصار ان حضر الموت
فدته النفوس والأنصار	أين الوفاء اذ منع الماء

(١) الأزدي، تاريخ الموصل ٢٢٠.
(٢) ابن خياط، تاريخ ١/١٥٢-١٥٣.
(٣) البلاذري، أنساب الاشراف ٨٣/٥.
(٤) حاشية العواصم من القواصم: ٨٥.
(٥) ابن اعثم، الفتوح ٢٣٩/٢.

ومن الذين اشتركوا من الانصار في الثورة رفاعه بن رافع الأنصاري، والحجاج بن عمرو بن عزيه الأنصاري[1].

وعندما أراد أبو جهم أن يصلي على عثمان منعه بعض الأنصار وقالوا: كلا والله لا ندعكم تصلون عليه حتى يبايع الناس رجلا نرتضيه. وعندما رجع أبو جهم لقيه حسان بن ثابت وقال له قد منعنا ان نصلي عليه فقال حسان عن قريب ترى غب هذا يا أبا جهم، فانصرف الى منزلك ولا تعرض نفسك لهؤلاء الغاغة فإنه من يقدر على عثمان فيقتله يهون عليه غيره من الناس[2].

نتائج الثورة:

ان ابرز ما تمخضت عنه الثورة أن سخط القبائل انتقل من السخط على الولاة الى السخط على الخليفة، فقد كانت النظرة الشائعة ان والى الاقليم نائب الخليفة واذا لم يرض عنه المحكمون طلبوا الى الخليفة عزله، أما الآن فقد تطور الأمر حتى شمل مركز الخليفة نفسه[3].

وبقتل الخليفة اصبح للأمصار دور كبير في تقرير شكل الخلافة، واصبحت قوة الدوله في الامصار وليس في الحجاز، فأهل الامصار يقولون" خلافتنا وأمرنا" بينما كان ذلك لقريش. وبعد أن كان اصحاب الأمر هم أهل المدينة أصبح الأمر بيد الامصار، بل إن هذه الامصار بدأت تهدد الخلفاء اذا خرجوا عن خط معتقداتهم وافكارهم فهذا سودان بن حمران يقول لعلي: اننا قد بايعناك على إن عملت فينا كما فعل عثمان قتلناك[4]. وفي هذا دلالة كافية على أن الأمصار تريد ان يكون لها شأن في أمر الخلافة والدولة.

ومن النتائج التي خلفتها الثورة ان الحجاز فقد مكانه كمركز رئيسي للدولة وما إن خرج علي الى العراق حتى خرجت الخلافة من الحجاز، وقد حاول أهل الحجاز عدة

(١) المصدر السابق ٢/٢٣٣-٢٣٤.
(٢) ابن اعثم ٢/٢٣٩-٢٤٠.
(٣) محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية ٤٦.
(٤) ابن اعثم، الفتوح ٢/٢٤٦.

مرات إعادة مركز الدولة إليه الا أنه فشل في تحقيق ذلك.

كما أبرزت الثورة الانقسامات بين بطون قريش وعمقتها، فبنو أميه اتهموا عليا بتأليب الناس على عثمان ولم يقدم إليه المساعدة وهو في الحصار، كما أن عليا اتهم طلحه بأنه الب الناس على عثمان[1]. وطلحه يتهم عليا بذلك. وقد تطورت هذه الاتهامات الى النزاع المسلح في معركتي الجمل وصفين. ومع الانقسامات بين بطون قريش ظهرت العصبيات الاقليمية فالشام حمل أهل المدينة وأهل العراق مسؤولية قتل عثمان، وسوف نرى أن الصراع بين هذه الامصار يشكل حلقة متواصلة طيلة حكم بني أميه.

ومع أن الثورة قد قامت على قريش بالمرتبة الأولى الا أن قريشا قد خرجت من هذه المحنة بفرض سيطرتها من جديد على القبائل الاخرى، كما حدث في حروب الردة.

والواقع ان قريشا قد اثبتت وجودها منذ اللحظات الأولى للفتنة، فقد أراد الثوار ان يمنعوا دفن عثمان في مدافن المسلمين ورأوا دفنه بدير سلع مقبرة اليهود الا أن حكيم بن حزام رفض ذلك بشدة وقال والله لا يكون هذا أبدا وأحد من ولد قصي[2] حي.

ومما تقدم أرى أن تصادم العصبيات الصغرى والكبرى كانت من أهم الأسباب التي أدت الى قيام الفتنة الأولى في الاسلام، ومقتل الخليفة عثمان.

(١) الأصفهاني، الاغاني، ١٢/٥٤ (الهيئة المصرية).
(٢) الطبري، تاريخ ٤/٤١٣.

الفصل الخامس
العصبية القبلية والفتنة الأولى

التيارات المؤثرة في انتخاب علي بن ابي طالب

علي والولاة

معركة الجمل

دور القبائل في النزاع بين علي ومعاوية



التيارات المؤثرة في انتخاب علي:

لقد ترك مقتل الخليفة عثمان ارتباكا سياسيا سواء بين الثوار أنفسهم أو بين المهاجرين والأنصار من سكان المدينة . فالثوار كانوا متفقين على قتل الخليفة الا أنهم كانوا مختلفين فيمن سيولونه هذا الأمر . وازاء ذلك بقيت المدينة عدة أيام بدون خليفة .

لقد كان المصريون يأتون الى علي فيابعدهم ويأتي أهل الكوفة الزبير فلا يجدونه ، أما المصريون فقد كان هواهم في طلحة الا أنه لم يقبل منهم[1] .

ولما وجد الثوار رفض هؤلاء لمنصب الخلافة اتجهوا الى سعد بن أبي وقاص لأنه من رجال الشورى، فرفض طلبهم ثم ذهبوا الى عبد الله بن عمر فرفض أيضا وهنا اصبح الثوار حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم[2] .

وبعد أن فشلت جهودهم في انتخاب خليفة فوضوا الأمر الى أهل المدينة لاعتبارهم أهل الحل والعقد وأمرهم عابر على الأمة[3] . والظاهر أن جمهور المدينة لم يستطع أن يتوصل الى أمر . وهنا عاد الأمر الى الثوار وأعطوا أهل المدينة مهلة يومين وهددوا بقتل علي وطلحة والزبير وهنا غشي الناس عليا وطلبوه للبيعة فأعرض بادئ الأمر ثم قبل بعد ذلك بالخلافة[4] .

وبعد قبول علي جاء أهل البصرة بطلحة وجاء أهل الكوفة بالزبير فبايعوا لعلي[5] .

وفي بيعة علي هذه لعبت عدة تيارات منها تيار قوة الأمصار ، فالقوة كما رأينا أصبحت في يد الثوار ، كما أصبحوا أهل الحل والعقد في تعيين الخليفة ولم يعد الأمر كما كان في السابق بيد أهل المدينة . وقد عبر الثوار عن ذلك صراحة عندما قال النخعي: "إنا وإن لم نكن من المهاجرين، فإنا من التابعين بأحسان وان القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا اليه فليسوا بأولى مما شركناهم فيه ، وهذه بيعة عامة الخارج منها طاعن

(١) الطبري تاريخ ٤/٤٣٢.
(٢) المصدر السابق ٤/٤٣٢.
(٣) المصدر السابق ٤/٤٣٣.
(٤) المصدر السابق ٤/٤٣٤.
(٥) المصدر السابق، ٤/٤٣٥.

مستعتب فغض هؤلاء الذين يريدون التخلف عنك باللسان فأن أبو فأدبهم بالحبس. فقال علي بل أدعهم ورأيهم الذي هم عليه[1].

وفي هذا القول نجد أن التابعين يروا لأنفسهم حق المشاركة في تقرير أمر الخلافة ولهم ما للسابقين من الصحابة. وفي هذا التيار مظهر قبلي من جهة واستمرار لحركة الثورة من جهة أخرى.

واذا كان التيار القبلي ساعد في انتخاب علي فقد كان للتيار الاسلامي المكانة الأولى فعلي هو من السابقين، وهو ابن عم الرسول "ص" وزوج ابنته، وبما أن القبائل قد اعتادت أن ترى الخليفة من قريش، ولا يوجد فيها من يتمتع بفضائله وحسن بلائه في الاسلام، فلا بد وأن تتجه اليه الأبصار لبيعته خليفة للمسلمين.

وقد جعلت نكبة الامويين في الفتنة الأولى الكلمة في المدينة للأنصار والهاشمين ولرجال القبائل الذين ما زالوا في المدينة وهؤلاء هم الذين أيدوا عليا في خلافته قبل الناس[2].

ومع أن هناك نفرا من الأنصار لم يبايع لعلي كحسان بن ثابت ومسلم بن مخلد وغيرهم الا أن الغالبية منهم قد رحبت بهذا الاختيار فخطيب الأنصار ثابت بن قيس قال: والله يا أمير المؤمنين لئن تقدموك في الولاية فما تقدموك في الدين". وخزيمة ابن ثابت قال: ما احببنا لأمرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب إلا إليك[3].

أما قريش فالظاهر أن معظمها لم يكن راضيا لهذه البيعة وسنرى كيف أنها انقلبت الى حرب علي[4] سواء في العراق أو في الشام.

ولما كان القائمون بالثورة على عثمان هم يمانيون، فقد سارعت القبائل اليمانية تعلن بيعتها لعلي ومن هذه القبائل همدان، جهينة، النخع، الأزد، كنده، العتك ومراد، وقد كان من ضمن رؤساء الوفود الذين قدموا لهذه البيعة عبد الرحمن بن ملجم المرادي الذي قال لعلي: يا أمير المؤمنين أرم بنا حيث شئت[5].

(١) الأخبار الطوال ١٤٥، ابن أعثم: الفتوح ٢/٢٥٦.
(٢) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ٥٨.
(٣) اليعقوبي، تاريخ ٢/١٦٨.
(٤) ابن قتيبه، الامامة والسياسة ١/٥٤.
(٥) ابن أعثم، الفتوح ٢/٢٥٥-٢٥٦.

كما قدمت عليه ربيعة وتكلم عنده صعصعة بن صوحان وقال: والله يا أمير المؤمنين قد زينت الخلافة وما زانتك، ورفعتها وما رفعتك، ولهي اليك أحوج منك اليها[1].

وهكذا نرى أن قبائل اليمن وربيعة كانت أسبق الناس الى بيعة علي.

وبعد أن تسلم علي الخلافة التفت الى اولئك النفر الذين لم يبايعوه، فأشير عليه أن يأخذهم، الا أنه لم ير ذلك الرأي سواء من كان منهم من الأنصار أو من المهاجرين، أما بنو أميه فقد بعث الى رجالهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة يسألهم عن سبب تخلفهم عن البيعة، فقال الوليد: إنك قد وترتنا بأجمعنا أما انا فقتلت أبي صبرا يوم مكة، وخذلت أخي عثمان فلم تنصروه وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر وكان سيد بني أمية. ويذكر ابن أعثم أنهم بايعوا صاغرين[2] ولكن الأرجح أنهم خرجوا الى مكة ولم يبايعوا لعلي.

علي والولاة:

حاول علي منذ البداية أن يجتث الداء الذي كان يشتكي منه أهل الأمصار وهم الولاة، فعزل جميع ولاة عثمان، وعين بدلا منهم ولاة جدد. والخطأ الذي وقع فيه أن معظمهم من الأنصار وكأنه أراد ارضاءهم فقيس بن سعد عين على مصر، وعثمان بن حنيف على البصرة، وسهل بن حنيف على الشام، وأرسل الى الكوفة عمارة بن شهاب والى اليمن عبيد الله بن العباس، والى مكة رجلا من بني مخزوم هو خالد بن العاص بن هشام. الا أن أهل مكة رفضوا بيعة علي، ويقال أن فتى من فتيانهم أخذ صحيفة علي فمضغها ثم رمى بها فسقطت في سقاية زمزم[3].

وقبل عزل الولاة حاول المغيرة بن شعبه أن يقنع علي بعدم عزلهم، واذا كان لا بد من العزل فليبق على معاوية[4]. لكن عليا وهو الخليفة الراشدي بكل ما فيه هذه الكلمة

---

(١) اليعقوبي، تاريخ ١٦٨/٢.
(٢) ابن أعثم، الفتوح ٢٥٩/٢.
(٣) طه حسين، الفتنة الكبرى ٢٢/٢.
(٤) المصدر السابق ٤٣٨/٤.

من معنى رفض ذلك رفضا قاطعا، وقال والله لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري[1].

وإذا نظرنا الى أمر علي هذا نجده تصرف في هذا المجال تصرف الرجل الحكيم الذي كان يدرك أسباب الثورة، فالولاة هم مثار الشكوى، فهل يبقيهم الخليفة في ولاياتهم حتى تهب الفتنة من جديد أم يقضي على دابر الشكوى؟ لقد فكر بقطع دابر الشكوى قبل أية مصلحة أخرى.

لقد رأى الخليفة أن تهدأة خواطر الثوار لا تقف الا بعزل الولاة، كما أن الأوضاع السياسية تتطلب ما عمله علي وتقاليد الخلافة تؤيد ذلك[2]. والواقع لو كان عمر في مكان علي، ورأى أن هؤلاء الولاة هم الذين اساءوا الى سمعة عثمان وأن الشكاية كانت بسببهم لما رضي بالإبقاء عليهم. والراشدي لا يداهن في دينه وينظر الى الحق والعدل قبل كل أمر.

الا أن ولاة علي استقبلوا في الأمصار استقبالا سيئا فسهل بن حنيف لم يمكنه أهل الشام من الدخول، وقالوا إن بعثك عثمان فحيهلا بك، وان بعثك غيره فارجع. وعمارة بن شهاب وكانت له صحبة، لم يمكنه طليحة الأسدي من دخولها، أما عثمان بن حنيف فقد دخل البصرة الا أنه وجد أهلها ثلاث فرق، فرقة بايعت لعلي وثانية لم يعجبها ما حدث، والثالثة تنتظر ما يصنع أهل المدينة. أما في مصر فقد دخلها قيس بن سعد ووجد أهلها ثلاثة أقسام، فرقة بايعت مع الجماعة، وثانية اصبحت عثمانية أما الثالثة فقد لزمت (خربتا) تنتظر الموقف. أما ابن عباس فقد دخل اليمن دون متاعب[3]. وفي ظل هذه الأمر أضطر علي أن يبقي على أبي موسى الأشعري في الكوفة وبتوصية من الأشتر النخعي عليها[4].

ولما رأى علي ذلك جمع كبار الصحابة وقال لهم إن الذي كنت أحذركم قد وقع[5]. وقد حاول علي أن يسوي الأمر مع الشام فبعث الى معاوية يطلب بيعته. إلا

---

(١) الطبري، تاريخ ٤٤٠/٤.

(٢) .الدوري، مقدمة في تاريخ صدر اللاسلام ٥٨ .

(٣) الدينوري، الاخبار الطوال ١٤٢، الطبري، تاريخ ٤٤٢/٤.

(٤) اليعقوبي، تاريخ ١٦٨/٧.

(٥) الطبري تاريخ ٤٤٣/٤-٤٤٤.

أن معاوية لم يرد على جوابه الا بعد ثلاثة أشهر حيث بعث مع رجل من بني عبس كتابا لا يحوي شيئا، ولما سئل علي العبسي ما الأمر أجابه إن أهل الشام لا يرضون الا بالقود منه. وهنا حاول الثوار قتله ولم تنقذه الا العصبية القبلية حيث استنجد بمضر فمنعته منهم[1].

معركة الجمل:

لم يقتصر الأمر في انقسام قريش على خروج بني أمية على علي فقد خرج معهم طلحة والزبير الى مكة، ومن هناك اتجهوا الى البصرة، وهذا مما جعل علي يغير من خططه فبدلا من أن يذهب الى الشام قرر الاتجاه الى العراق حيث الرجال والمال[2].

ويذكر الطبري أن عائشة قامت ودافعت عن أعمال عثمان واستجاب لها عامل مكة عبد الله بن عامر الحضرمي، ثم رفعت بنو أمية رؤوسها وقام سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، وسائر بني أمية ومعهم عبد الله بن عامر الذي قدم من البصرة ويعلى بن منية الذي قدم من اليمن ومعهم طلحة والزبير وصمموا على النهوض الى الغوغاء[3].

ولكن السؤال الآن هو ما هي أسباب تغير موقف طلحة والزبير على علي؟ لا تعطينا المصادر التاريخية توضيحا لذلك إلا من ناحية واحدة أن طلحة والزبير قد طالبوا باقامة الحدود على القتلة، فقال لهم علي إن القوم يملكونا ولا نملكهم ها هم قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت اليهم أعرابكم وهم خلافكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا لا، قال: والله لا أرى الا رأيا ترونه ان شاء الله ان هذا الأمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة، ثم وعد الصحابة بأن يقتص من الثوار عندما تهدأ الأمور[4].

وتأخير العقوبة على القتلة عائد لأمرين: الأول أن عليا لم يستطع في هذا الجو

---

(١) المصدر السابق ٤/٤٤٣-٤٤٤.
(٢) ابن قتيبه الامامة والسياسة ٢/٥١.
(٣) الطبري، تاريخ ٤/٤٥٠.
(٤) الطبري، تاريخ ٤/٤٤٠.

الصاحب أن يوقع العقوبة العاجلة على القتلة بل هو أراد أن يترك ذلك للزمن، ولا أبالغ اذا قلت أنه لو لجأ الى العقاب الفوري لكان جزاؤه كجزاء عثمان.

ويؤيد ذلك أن عليا لم يستطع أن يخرج الاعراب من المدينة، وعندما رفض هؤلاء جاء الى طلحة والزبير وقال لهما دونكم ثأركم فاقتلوه[1].

والثاني لو أن عليا طبق العقوبة الفورية على القتلة لأغضب قبائلهم وانحازوا الى جانب معاوية الذي كان يتربص الفرص في الشام.

ومما تقدم يظهر عذر علي في عدم ايقاع العقوبة ويبرر طلحة والزبير خروجهما لكونهما بايعا مكرهين، فالواقع أن اكراههما كان للاصلاح وليس للفرقة، هذا مع العلم أن عليا نفسه قد أجبر على الخلافة وأنه كان ينادي بأن أمر الخلافة هو لأهل بدر[2] من دون الناس، فكما اجبروا على البيعة فقد اجبر هو نفسه على الخلافة.

لقد جاء خروج طلحة والزبير على علي للإصلاح حسب رأيهما. وقد ظهر ذلك منذ بداية خروجهما الى البصرة فقد رأى نفر من بني أمية أن يكون أمر الخلافة لولد عثمان بن عفان لأن الناس خرجوا للطلب بدم عثمان. فقال لهم طلحة والزبير ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام. فقال سعيد بن العاص: أفتراني أسعى الا لاخراجهما من بني عبد مناف. فرجع معه عبد الله بن خالد أسيد كما عاد معهم المغيرة بن شعبة الثقفي في قسم من ثقيف[3].

لقد كان خروج طلحة والزبير مشجعا لعائشة وبني أمية حتى يرفعوا رؤوسهم للمطالبة بدم عثمان اتجهوا نحو البصرة[4]. وقد اختلف الخارجون في بادئ الأمر على الجهة التي سيتوجهون اليها، فقد اقترح الزبير الذهاب الى الشام حيث الرجال والاموال، ومعاوية وهو خصم لعلي. إلا أن الوليد بن عقبة وكأنه اشفق على ملك معاوية أقنع الزبير أن يطلب مصرا غير الشام[5]، واتفقوا في النهاية على التوجه الى

---

(1) الطبري، تاريخ ٤٣٨/٤.

(2) أنساب الاشراف ٧٠/٥.

(3) ابن الأثير، الكامل ١٠٧/٣.

(4) ابن اعثم، الفتوح ٢٧٦/٢.

(5) .ابن اعثم، الفتوح ٢٧٩/٢- ٢٨٠.

البصرة حيث صنائع ابن عامر، ثم إن غالبية أهلها من المضرية، فأملوا من هؤلاء المساعدة. وهكذا خرج طلحة والزبير وعائشة وبنو أمية يطلبون بدم عثمان من بطانة علي ورؤساء أصحابه[١]. وقبل خروجهم أرادوا أن يكسبوا الى جانبهم بعض الصحابة فبعثوا الى عبد الله بن عمر وبينوا له أنهم لا يريدون الا علاج الأمة[٢]، غير أن ابن عمر قال: أني امرؤ من أهل المدينة فان يجتمعوا على النهوض أنهض، وان يجتمعوا على القعود أقعد[٣]. وكتبت عائشة الى أم سلمه تزين لها الخروج فكتبت أم سلمة لها: يا بنت أبي بكر أبدم عثمان؟ وعثمان رجل من بني عبد مناف وأنت إمرأة من تيمّ بن مره، ويحك يا عائشة أعلى علي وابن عم رسول الله تحرضين وقد بايعه المهاجرون والانصار[٤].

وبعثت عائشة الى حفصه، فأرادت الخروج الا أن عبد الله بن عمر حال بينها وبين الخروج[٥].

ورغم عدم استجابة ابن عمر وبعض أزواج النبي لطلحة والزبير وعائشة الا أنهم صمموا على الخروج لاعزاز الاسلام وقتال المحليين والطلب بثأر عثمان[٦]. وما كان خروجهم هذا الا المسمار الأخير الذي دق في نعش الخلافة الراشدية، وفي التآخي والتآلف بين المسلمين. ولا غرابة في أن يطلق على يوم خروجهم اسم يوم "النحيب" وان يتبع امهات المؤمنين، عائشة الى ذات عرق حتى أنه لم ير يوم كان أكثر باكيا على الاسلام أو باكيا له من ذلك اليوم[٧].

وكان عليهم استمالة قبائل البصرة، فكتبت عائشة الى زعماء القبلية في البصرة وهم الأحنف بن قيس زعيم مضر، وصبرة بن شيمان الأزدي زعيم اليمانية والمنذر بن ربيعه زعيم قبائل ربيعه[٨].

(١) الدينوري، الاخبار الطوال ١٤٥.
(٢) ابن أعثم، الفتوح ٢/٢٧٨.
(٣) الطبري، تاريخ ٤/٤٦٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق ٤/٤٧١.
(٦) الطبري، تاريخ ٤/٤٥١، ابن خلدون، العبر حـ٢ قسم ٢/١٥٥، الذهبي، تاريخ الاسلام ٢/١٣٩.
(٧) الطبري، تاريخ ٤/٤٥١.
(٨) الدينوري، االاخبار الطوال ١٤٦، الطبري، تاريخ، ٤/٤٦١.

كما كتبوا الى كعب بن سور الأزدي وطلبوا منه أن يؤازرهم فهو قاضي عمر وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن، والى الاحنف بأنه وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق، والى المنذر بن ربيعه بأن أباه رئيساً في الجاهلية وسيدا في الاسلام وقد غضب لعثمان من هو خير منه[1].

ولما كانت البصرة ثلاث فئات، فئة بايعت لعلي، وفئة عثمانية، وفئة محايدة فلم يكن من السهل استمالة أهلها جميعاً.

وقامت عائشة بالكتابة إلى أهل البصرة فقام البعض وقال: ومالنا ولهذا الحي من قريش؟ يريدون أن يخرجونا من الاسلام بعد أن دخلنا فيه؟ ويدخلونا في الشرك بعدما خرجنا منه؟ قتلوا عثمان وبايعوا عليا لهم مالهم وعليهم وما عليهم[2].

ولما دخلوا البصرة قام رجل من عبد القيس وبين أن قريشا كانت تعين الخلفاء دون استشارة القبائل، ثم تساءل عن أسباب النقمة على علي هل لا ستأثاره بالفيء أو أنه عمل بغير الحق، أو عمل شيئا أنكره الناس حتى يكون معهم؟ وكأن ما ذكره هذا لم يعجب بعض أهل البصرة فهموا به لولا تدخل عبد القيس لمساعدته[3]. ولم يقف الأمر عند المعارضة الفردية، بل ما إن سمع أهل البصرة بقدومهم حتى خرجت الوفود تسألهم عن سبب هذا الخروج فذكروا أن الغوغائية ونزاع القبائل قتلوا عثمان وهم يريدون الأخذ بثأره حتى لا يذهب دمه هدرا[4].

وكأن هذه الحجة لم تقنع بعض أهل البصرة فقام جماعة منهم ورموا الناس بالحجارة ولم يسمعوا لخطبة عائشة[5].

لقد أدى مجيء طلحة والزبير وعائشة الى البصرة الى انقسام أهلها، فربيعه وقفت الى جانب عثمان بن حنيف، بينما وقف الأزد الى جانب طلحة ومعهم قسم من تميم.

---

(١) ابن قتيبه، الامامة والسياسة ٥٨/٢.
(٢) المصدر السابق ٥٨/٢.
(٣) الطبري، تاريخ ٤٧٠/٤.
(٤) المصدر السابق ٤٦١/٤.
(٥) العواصم من القواصم ١٥٤-١٥٦.

ويذكر الطبري[1] أن حكيم بن جبله هو الذي أنشب القتال بين عثمان بن حنيف وبين القادمين كانت نتيجة هذا القتال أن طلب عثمان الصلح ليبعثوا رسولا الى المدينة للتحقق من بيعة طلحة والزبير هل كانت عن رضا أم عن اكراه، فذهب كعب بن سور ولم يستطع أن يأخذ جوابا بهذه القضية الا من اسامة بن زيد الذي قال: اللهما إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان. فقام عليه بعض الأنصار، ولم ينقذ اسامة إلا بعض الصحابة.

ولما بلغ علي الخبر كتب الى عثمان بن حنيف يعجزه ويقول: والله ما أكرها إلا كرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل، فان كان يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا[2].

ولما وصل كتاب علي لابن حنيف غير من موقفه السابق وأخذ يستعد للمواجهة. فجمع طلحة والزبير رجاله وسارا في ليلة مظلمة باردة وقصدا المسجد فقدما- عبد الرحمن بن عتاب فشهر الزط والسيابجه السلاح فقتلوا أربعين منهم ثم ساروا الى عثمان فأخذوه وما أبقوا في وجهه شعرة[3].

وقد هموا بقتل عثمان لولا أن قال لهم: إن أخي سهيلا واليا على المدينة، ولو قتلتموني لا نتصر من ذريتكم فخلوا سبيله[4]. وبعد هذه الجولة تحركت قبائل ربيعه ومعها بعض قبائل تميم حتى تثأر لعثمان بن حنيف. وتزعم هذه الدعوة حكيم بن جبله والدافع لذلك هو:

أن لعثمان بن حنيف الولاية والجوار[5]، والتقاليد لا تبيح ان يخترف هذا القانون ومن هنا دعا حكيم الى نصرته. ثم رغبة ربيعة بالاستيلاء على دار الرزق[6].

وربما أن السبب الحقيقي لذلك أن حكيم وهو من المحرضين على عثمان رأى أن قوة طلحة والزبير أخذت تزداد فخشي على نفسه منهم فأراد أن يعاجلهم قبل أن يعاجلوه ومن هنا جمع حوله سبعماية من عبد القيس وبكر بن وائل ومعه بعض من

(١) الطبري، تاريخ ٤٦٨/٤-٤٦٩.
(٢) المصدر السابق، تاريخ ٤٧٠/٤.
(٣) المصدر السابق، تاريخ ٤٦٨/٤-٤٦٩.
(٤) ابو هلال العسكري، الأوائل، طبعة دار أمل طنجة: ١٦٥، ٢٢٢.
(٥) ابن قتيبه، الامامة والسياسة ٦٥/١.
(٦) الطبري، تاريخ ٤٧٥/٤.

خرج على عثمان كحرقوص بن زهير السعدي، وخرج لقتال طلحة والزبير فكانت الدائرة على حكيم.

لقد كانت نتيجة هذه الجولة عظيمة على أهل البصرة حتى أن القبائل أخذت تسلم من وقف إلى جانب عثمان الى طلحة والزبير حتى يقتل[1]. وهذا يدل على قوة طلحة والزبير.

ومع انتصار طلحة والزبير إلا أن هذه الجولة قد عادت عليهما بنتائج عكسية فربيعة غضبت لحكيم بن جبلة وستنحاز الى علي عند قدومه الى البصرة، وبنو سعد وهم عثمانية انقلبوا على طلحة والزبير عصبية لحرقوص عندما أراد طلحة والزبير أخذه[2].

ومما زاد في حقد هذه القبائل أن طلحة والزبير فضلا أهل السمع والطاعة بالأعطيات والأرزاق[3]، وبما أن اكثر من قاتل معهما هم من قبائل قيس واليمن فلا بد لربيعة أن تتجه الى الخصم ولا بد لمضر أن تتخذ موقفا مناسبا لها.

أما علي فبعد أن سمع بخروج طلحة والزبير قرر أن يذهب الى العراق حيث الرجال والمال[4]، والحقيقة أنه لم يكن أمامه من بلد يخرج اليها غير الكوفة، فالشام تحت سلطة معاوية والبصرة خرج اليها طلحة والزبير، ومكة لاغناء عند أهلها، فان بقي في المدينة فربما يأتي اليه معاوية من الشام وطلحة والزبير من العراق، ومن هنا خرج الى الكوفة. وقيل خروجه حاول استمالة بعض المعتزلين امثال سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمه وأسامه بن زيد، فلم يجد عندهم استجابة، فسعد قال: أعطني سيفا يعرف المسلم من الكافر حتى أقاتل به معك، وابن عمر قال: أنشدك الله أن تحملني على ما لا أعرف، ومحمد بن مسلمة قال: أمرني الله أن اقاتل بسيفي ما قوتل به المشركون فاذا قوتل أهل الصلاة ضربت صخر أحد حتى ينكسر، وقد كسرته بالامس -. واسامه بن زيد قال: إني عاهدت الله أن لا أقاتل من يشهد أن لا اله الا الله[5].

---

(١) المصدر السابق ٤٧٢/٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل ٩٣/٣ بولاق.

(٣) الطبري، تاريخ ٤٧٢/٤.

(٤) ابن قتيبه الامامة والسياسة ٥١/٢.

(٥) الدينوري، الاخبار الطوال ١٤٤/١٤٥.

وأظهر أهل المدينة تثاقلا عن الخروج حتى أن الأشتر النخعي أشار بحبس المتخلفين[1]. وزياد بن حنظلة التميمي قال: من تثاقل عنك فانا نخف معك ونقاتل دونك[2]. أما الانصار فقد قام بعضهم يطلب من على عدم الخروج ومن أمثال هؤلاء عقبة بن عامر، وعبد الله بن سلام، الا أن عليا قال إن الأموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبه أحب أن أكون قريبا منها[3].

وكان خروج علي من المدينة تخليا منه عن عاصمة الدولة، حيث أن هذا الاتجاه يقضي البقاء في المدينة معقل التيار الاسلامي والتمسك بتقاليدها. لكن عليا معذور في ذلك فقوة المدينة مضعضعة ونفوذ التيار القبلي امتد اليها مؤقتا بوجود رجال الأمصار فيها[4].

وبعد خروج علي كانت قبيلة طيء، وبمساعدة عدي بن حاتم أول القبائل التي انضمت إليه، ولما رأت أسد ما فعلت طيء قام زفر بن زيد بن حذيفة الأسدي وقال..: أنشدكم الله لا يقول الناس غداً نصرت طيء، وخذلت بنو أسد وإن الجار يأس بالجار، إلا أن أسداً لم تستجب جميعها لهذه الدعوة[5]، وربما يكون ذلك لأن زعيماً من زعمائها كان عثمانياً وهو طليحة الأسدي.

واتجه علي إلى الكوفة حيث فيها رجال العرب وبيوتاتهم[6]، وكتب إليهم إني قد اخترتكم على الأمصار وإني بالأثره[7]. وكأن علياً لم يجد استجابة من أهل الكوفة فأرسل إليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلا أنه لم يفلح في استمالتها، لا سيما وأن أبا موسى كان يثبط الناس ويقول: إن لم يكن بد من قتال لا نقاتل حتي يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا[8]. وأرسل بعده عمار بن ياسر، وابنه الحسن وكادت أن تقع فتنة

---

(1) ابن اعثم، الفتوح ٢/٢٥٦.
(2) الطبري، تاريخ ٤/٤٤٨.
(3) الدينوري، الاخبار الطوال ١٤٥.
(4) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ٥٨.
(5) ابن قتيبه الإمامة والسياسة ٢/٥٦.
(6) الطبري تاريخ، ٤/٤٥٩.
(7) المصدر السابق، تاريخ ٤/٤٧٧.
(8) المصدر السابق، تاريخ ٤/٤٨٢.

بين ربيعة وتميم، فربيعة وقفت إلى جانب دعوة علي بينما عارضت تميم فكرة الخروج إلى القتال، إلا أن أبا موسى استطاع أن يهدأ الموقف[1].

وكاد الموقف أن ينفجر في الكوفة عندما بعثت عائشة كتاباً إلى زيد بن صوحان تطلب منه أن يقوم ليأخذ بثأر عثمان فقال زيد: أمرت بأمر وأمرنا بأمر، أمرت أن تقر في بيتها، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة، فأمرتنا بما أمرت به، وركبت ما أمرنا به. فقام إليه شبث بن ربعي التميمي فقال: يا عماني، سرقت بجلولاء فقطعك الله، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله، ما أمرت إلا بما أمر الله -عز وجل- به الاصلاح بين الناس. فقام أبو موسى الأشعري وأخذ يهدأ من روع الناس ويحذرهم الفتنة[2].

لقد استطاع علي أن يكسب أهل الكوفة إلى جانبه بعد ارساله الوفود إليها، إلا أن القبائل التي كانت متحمسة للخروج معه هي اليمانية والربعية وقلة من القبائل القيسية، أما تميم فلم يكن لها وجود في رايات جيشه[3].

وفي ذي قار نظم علي جيشه حسب أسباع الكوفة فكان على رايات حمير وهمذان سعيد بن قيس الهمذاني وعلى مذحج والأشعر بين زياد بن النضر الحارثي، وعلي طيء عدي بن حاتم، وعلي قيس وعبس وذبيان سعد بن مسعود الثقفي، وعلى كنده وحضرموت وقضاعه ومهره حجر بن عدي الكندي، وعلى الأزد وبجيله وخثعم وخزاعه مخنف بن سليم الأزدي، وعلى ربيعة محدوج الذهلي، وعلى سائر قريش والأنصار وأهل الحجاز عبدالله بن عباس[4]. وجعل علي على كل قبيلة من القبائل المنضمة معه سيداً من ساداتها يرجعون إليه في أمورهم[5]، وبهذا التصرف جعل القبائل تخضع خضوعاً مباشراً لسيدها وليس للخليفة.

أما قبائل البصرة الغاضبة من طلحة والزبير وهي من تميم وبكر وعبد القيس فقد خرجت إليه قبل أن يدخل البصرة، ولما التقت قبائل البصرة والكوفة أخذت كل قبيلة تسأل أختها عن سبب الخروج فعبد القيس البصرة تسأل عبدالقيس الكوفة، وبكر

(1) المصدر السابق، تاريخ ٤/٤٨٢-٤٨٣.
(2) الطبري، تاريخ ٤/٤٨٣-٤٨٤.
(3) انظر الأخبار الطوال ١٤٧-١٤٨.
(4) المصدر السابق، الدينوري، ١٤٧-١٤٨.
(5) ابن أعثم، الفتوح ٢/٢٠٨.

البصرة تستفسر من بكر الكوفة[1].

وقبل أن يدخل على البصرة أرسل القعقاع بن عمرو ليدعو طلحة والزبير إلى الألفة والجماعة. فجاء إليهما القعقاع وبين لهما أن ما عملاه بالبصرة قد أفسد الناس ولم يصلحهما، فإن قتلوا من البصرة ستمائة رجل فقد غضب لهم ستة آلاف، وقال: أنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم نصرة لهؤلاء[2].

قبل طلحة والزبير ما عرضه القعقاع وعاد إلى علي وأخبره بما تم فقال علي: ألا وأني راحل غداً، فارتحلوا، ألا ولا يرتحلن غدا أحداً أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني انفسهم[3]. وهكذا بدت تباشير الصلح بين الطرفين.

أما موقف قبائل البصرة من الانضمام إلى أحد الفريقين فقد كانت متباينة فربيعة اتجهت إلى علي ليس رغبة فيه، وإنما أرادت أن تثأر لقتلاها وعلى رأسهم حكيم بن جبلة. أما تميم فقد جاء الأحنف إلى علي وقال له: اختر مني واحدة من اثنتين إما أن أكون معك على مائتي رجل من قومي، وإما أن أرد عنك أربعة آلاف سيف. فقال علي: لا بل ردهم عني فقال الأحنف أفعل[4].

وعدم اشتراك تميم البصرة إلى جانب علي راجع إلى أمرين: الأول أن بني سعد قد منعوا حرقوص بن زهير، وزهير بن المحرضين على عثمان فخشوا أن ظهر علي أن يقتل قتلة عثمان كما فعل طلحة والزبير.

والثاني وهو الأهم: أن الأحنف أراد أن يترك قريشاً يقتل بعضها البعض، ثم هو بعد ذلك يعلن انضمامه إلى الفرقة المنتصرة وهذا ما حدث بالفعل. ومما يؤكد ذلك أن الأحنف وقف يقول: اعتزلوا هذا الأمر، وولوا هذين الفريقين كيسه وعجزه، ألا أن هذه الدعوة لم تقبلها جميع بطون تميم فوقفت زيد مناة وحنظلة إلى جانب طلحة والزبير، واعتزل الاحنف مع قومه من بني سعد القتال[5].

---

(1) الطبري، تاريخ /٤٩٣.

(2) المصدر السابق، تاريخ ٤٨٩/٤.

(3) المصدر السابق، تاريخ ٤٩٣/٤.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٣٨/٧-٢٣٩.

(5) الطبري، تاريخ ٥٠٤/٤، ابو هلال العسكري، الأوائل ١١٤.

أما الأزد فقد ظهرت فيها بعض الأصوات التي نادت بالتريث وعدم الانضمام إلى أحد الطرفين، وقال بهذا الرأي كعب بن سور الأزدي هادفاً من وراء ذلك أن ترك ربيعة ومضر يتنازعان حتى يكون الرأي بعد ذلك للأزد، إلا أن صبرة بن شيمان الأزدي ومعه غالبية اليمن اطبقوا على الحضور إلى جانب طلحة والزبير[1].

وهكذا كانت الأرومات في البصرة منقسمة إلى ثلاثة أقسام: ربيعة وقفت الى جانب علي حتى تأخذ بثأرها، والأزد إلى جانب طلحة والزبير لأنها رأت أن النزارية قد وقفت إلى جانب علي، أما تميم فقد انقسمت إلى قسمين، قسم اعتزل القتال، والثاني وقف إلى جانب طلحة والزبير ومعها بعض القيسية.

ولما اقترب علي من البصرة وأسفرت محادثات القعقاع عن أمور ايجابية بين الطرفين وأخذ أفراد القبائل يتداخلون بين المعسكرين، فالربعي من البصرة يأتي إلى ربعي الكوفة، ويمني البصرة يأتي يمانية الكوفة، ويأتي المضري قومه المضريين، والحديث بينهم هو في أمر الصلح وإيثار العافية، إلا أنه حدث ما أثار الحرب بين الطرفين.

وفي سبب إثارة الحرب أرى أمرين:

الأول: ما ذكره الطبري من أن رؤساء الثوار على عثمان قد اجتمعوا ورأوا أن الصلح لا يكون إلا على دمائهم. ومن هنا أخذوا يفكرون في طريقة يخرجون بها من المأزق فالبعض أشار بقتل طلحة والزبير، والبعض أشار إلى اعتزال هذا الأمر وترك طلحة والزبير وعلي يتصارعون، إلا أن هذه الآراء لم تعجب عبدالله بن سبأ، واستقر الرأي على انشاب القتال بين الفريقين[2].

الثاني: خوف الثوار على أنفسهم لا سيما بعد أن سمعوا من طلحة والزبير طلبهم من القبائل تسليمهم الذين ساعدوا على مقتل عثمان، فخشيوا أن يكون مصيرهم مثل ذلك مع علي، فأنشبوا القتال.

لقد دارت رحى معركة الجمل وقاتل المضري المضري والربعي الربعي واليماني اليماني، وأخذ كل من الفريقين يحمل الآخر مسؤولية بدء القتال، ولم تستجب القبائل

(١) ابن الأثير، الكامل ١٢٣/٣.

(٢) الطبري، تاريخ ٤٩٤/٤، ابن كثير، البداية والنهاية ٢٣٩/٧.

التي أشرعت السيوف لنداء علي للكف عن القتال[١]. وذلك في ١٥ جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ.

وفي معركة الجمل ظهرت العصبية القبلية في أساليب القتال وفي الشعارات في أوضح صورها.

فمن حيث أساليب القتال انقسمت القبائل إلى ثلاث كتل قبلية ضخمة هي مضر وربيعة واليمن، ولما كانت القبائل تأنف قتال غير الكفء لها، كانت المضرية تقاتل المضرية والربعية تقاتل الربعية واليمانية تقاتل اليمانية. بل إن عبيد البصرة وقفوا أمام عبيد الكوفة[٢].

أما من حيث الشعارات فقد عادت القبائل تنادي بشعارات الجاهلية فهذا رجل من بني ضبه يقول لقومه: وطنوا أنفسكم على الصبر فإنما يلقاكم جماهير أهل الحجاز وأفاعي أهل الكوفة، فانظروا أن تفضحوا قبائل مضر. فقال له الزبير بئس ما قلت يا أخا بني ضبه[٣].

والواقع أن وقعة الجمل كانت حرباً بين القبائل أكثر منها حرباً بين الحزبين المتصارعين ونلمس ذلك من سير المعركة، فأبوا الهيثم بن التيهان الأنصاري، اعتبر وقعة الجمل موازية لوقعت بدر ويقول:

نحن الذين رأت قريش فعلنا ... يوم القليب وقد هول الكفار[٤]

وزيد بن صوحان حاول أن يقدم المساعدة لمضر الكوفة التي تراجعت أمام مضر البصرة إلا أن رجلاً من قومه قال له: تنح إلى قومك، مالك ولهذا الموقف، ألست تعلم أن مضر حيالك، وأن الجمل بين يديك، وأن الموت دونه[٥].

ومع أن وقعة الجمل قد حققت انتصار علي من الناحية العسكرية إلا أنها عادت بنتائج سلبية على تاريخ الدولة الاسلامية، ومنها: إن معركة الجمل فتحت باباً جديداً

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٣/١٠١ بولاق.

(٢) ابن أعثم، الفتوح ٢/٣٠٥.

(٣) ابن أعثم، الفتوح ٢/٢٩٢ وانظر أيضاً في الطبري، ٤/ ٥١٤ – ٥١٨.

(٤) ابن أعثم، الفتوح ٢/٣٠٦.

(٥) الطبري، تاريخ ٤/٥١٤.

من أبواب العصبية القبلية وهي العصبيات المركبة أو الجامعة . كما أن معالم الرابطة العدنانية والقحطانية قد تحددت في هذه المعركة واصبحنا نسمع بالتجمعات القبلية الكبيرة .

إن معركة الجمل لم تقض على السبب الذي خرجت من أجله القبائل على عثمان، وهو الخلاص من سيطرة قريش، بل على العكس وجدت القبائل نفسها مشدودة بالإنضمام إلى أحد الأطراف المتنازعة من قريش، صحيح ظهرت بعض الأصوات المنادية بالحياد إلا أن هذه الأصوات كانت ضعيفة . بل وشعرت القبائل بأنها قد أصبحت رهينة الأطماع القرشية من جديد . فرجل من مضر ينادي يا آل مضر علام يقتل بعضكم بعضاً[1] .

وهذا عمير بن الأهلب الضبي يقول :

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا	فلم ننصرف إلا ونحن رواء
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمة	وشيعتها مندوحة وغناء
أطعنا بني تميم بن مرة شقوة	وهل تيم ألا أعبد وإماء

وقال آخر :

أطعنا قريشاً ضلة من حلومنا	ونصرتنا أهل الحجاز عناء[2]

وفي الجمل أيضاً نلمس الفارق بين التيار الاسلامي والتيار القبلي، فعلي يقول لعمرو بن جرموز قاتل الزبير : سمعت رسول الله (ص) يقول بشر قاتل ابن صفية بالنار، فوثب ابن جرموز قائلاً : والله ما ندري أنقاتل معكم أم عليكم[3] .

وقال قاتل محمد بن طلحة :

يذكرني حم والرمح شاجر	فهلا تلا حم قبل التقدم

---

(1) المصدر السابق، تاريخ ٤/٥٢٨.

(2) المصدر السابق ٤/٥٢٤، المسعودي، مروج الذهب، ٢/٣٧٣، ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/٧٠-٦٩.

(3) ابن أعثم، الفتوح ٢/٣١٣-٣١٤.

وكان محمد بن طلحة لا يحمل على أحد ألا وقال: حم لا ينصرون[1].

وكما غضبت بعض قبائل البصرة على طلحة والزبير بسبب من قتل منهم، فقد عادت القبائل لتغضب على علي لكثرة من سقط منها في وقعة الجمل.

لقد تركت هذه الوقعة أثراً عميقاً في النفوس، فقد قيل لأحد من أهل البصرة أتحب علياً قال: كيف أحب رجلاً قتل من قومي حين كانت الشمس من ها هنا إلى ها هنا الفين وخمسمائة[2]. بل واستقبلت النساء علياً بقولهن: يا قاتل الأحبة[3].

وسخطت على علي القبائل التي كانت معه، عندما رفض أن يفسح لها المجال في السلب والنهب أوالاجهاز على الجرحاء، وعندما سأله بعض الصحابة كي يقسم أموال أصحاب طلحة والزبير عليهم ورفض علي ذلك قالوا: كيف يحل لنا دماؤهم ولا يحل لنا أموالهم فأجابهم: أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه. فسكت القوم[4].

ومن الأمور الهامة التي جاءت بها وقعة الجمل أن الأمر لم يعد بيد الخليفة بل أصبح بيد رؤساء القبائل الذين أخذوا يتدخلون في أدق الأمور، فعندما عين علي عبدالله بن العباس على البصرة جاءه الأشتر النخعي وقال: وليت بني عمك، فلم قتلنا الشيخ (عثمان) إنما قتلناه حين أمّر أهل بيته بالولاية[5].

كما أن هذه الواقعة أثارت العصبية الاقليمية بين سكان البصرة وسكان الكوفة، فكانت أول وقعة تقابلا بها بالسيف.

لقد انتهت وقعة الجمل بمأساة عظيمة لم يرض علي عنها، فبعد انتصاره أخذ يطوف على القتلى، ولما مر بطلحة لم يتمالك نفسه عن البكاء وقال: يعز علي والله يا أبا محمد أن تكون قريش تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية[6]. لقد جزع علي على قريش جزعاً شديداً حتى أن الأشتر قال له ما أشد جزعك عليهم وقد أرادوا بك ما نزل

---

(١) الطبري، تاريخ ٥٢٦/٤.
(٢) ابن خياط، تاريخ ١٦٧/١.
(٣) المسعودي مروج الذهب، ٣٧٨/٢.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٢٤٥/٧.
(٥) ابن حبيب، أسماء المغتالين ٣٩.
(٦) الغلابي، وقعة الجملة ٤٧.

بهم[1].

وفي معركة الجمل كانت الروابط القبلية أقوى من الأهواء الحزبية والسياسية فعندما فقدت ضبة مئات القتلى أمام جمل عائشة تقدم بحير بن ولجة فعقر الجمل لإنقاذ قومه من الفناء، وكان بحير هذا في صفوف عائشة[2].

وإذا أبرزت الجمل انتصار علي، ألا أنه لم يعد بإمكانه معاقبة قتلة عثمان، والسبب في ذلك أنه خاف أن يفسد عليه جنده، فيفارقوه ويتجهوا إلى معاوية[3]. وقد رأى ذلك بأم عينيه ما حدث لطلحة والزبير عندما طالبا بقتل قتلة عثمان بالبصرة.

لقد كان من الطبيعي أن يبدأ تمرد القبائل على علي، وليس أدل على ذلك عندما قام العراقيون بشتم طلحة والزبير فلم يجد أمامه الا السكوت[4].

لقد اختلف مجتمع البصرة عن مجتمع المسلمين الأوائل، وهذا ما أدركه علي رضي الله عنه. فعندما سأله رجل ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر، أجابه لأن أبا بكر وعمر كانا والين على مثلي، وأنا اليوم والي على مثلك يشير بذلك إلى الوازع الديني[5].

لقد خذلت بعض قبائل البصرة طلحة والزبير عصبية لمن قتل منها، وها هي تعود الان إلى حظيرة علي غير أنها لا تنسى من قتل من أفرادها في وقعة الجمل، وسنرى أن البصرة ستكون أول الأمصار التي تخذل علياً في صراعه مع معاوية.

لقد كان علي في موضع حرج، فإسلامه كان يملي عليه أن يحق الحق وأن يسير بالعدل وهذا مما لا ترضاه القبائل التي لا تسير إلا حسب ما يوافق مصالحها الذاتية ومطامعها الشخصية، فعندما عزل الأشعث بن قيس الكندي وكان من ولاة عثمان، جمع الأشعث أصحابه وقال لهم: أخاف أن سرت إليه يطالبني بالأموال وإن سرت إلى معاوية لم يطالبني بشيء واللحاق عندي بمعاوية أصلح، فهاتوا ما عندكم من الرأي،

---

(١) المسعودي مروج الذهب، ٢/٣٨١.

(٢) الطبري، تاريخ ٤/٥٢٧-٥٣١.

(٣) التمهيد والبيان ١٨٢.

(٤) الأصفهاني الأغاني، ١٨/٣٢٣، الهيئة المصرية.

(٥) ابن خلدون، المقدمة ٢١١.

فقال له قومه وعشيرته الموت خير لك من ذلك افتترك قومك ومصرك وعشيرتك وتكون ذنباً لأهل الشام[1].

دور القبائل في النزاع بين علي ومعاوية:

١- في صفين:

قام معاوية بطلب دم عثمان استجابة لداعي التقاليد القبلية التي كانت تفرض على القبيلة أن تأخذ بثأر قتلاها وإلا تعرضت القبيلة لسب القبائل الأخرى.

لقد اتخذ معاوية من الرسالة التي بعثتها زوجة عثمان (نائلة الكلبية) سنداً وحجة للمطالبة بثأر عثمان. وقد كان لهذه الرسالة أثر في تحريك مشاعر أهل الشام الذين حلفوا الإيمان الغلاظ أن لا يمسوا غسلاً حتى يقتلوا علياً أو تفنى أرواحهم، ومن هنا بايعوا لمعاوية على الطلب بدم عثمان[2]

وقد شجع معاوية على ذلك أن أهل الشام قوم فيهم غفلة وقلة فطنة، إما أعرابي جاف وإما مدني مغفل، وازداد جرأة لما علم بخروج عائشة وطلحة والزبير[3].

أما الرسالة فأرى أن الشك يحوم حولها للأمور التالية[4].

جاء في الرسالة "ونصركم على العدو" فمن هو العدو المقصود بالرسالة هل هو علي؟ فإن كان كذلك فإننا لا نجد نصراً لبني أمية إلا بعد اغتيال علي.

ثم هي تستشهد بالآية الكريمة: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾[5] فأين هما الطائفتان؟ فنحن لا نرى إلا ثواراً وهم قتلة عثمان، وهي تستشهد بالصلح ومقاتلة الفئة الباغية،

---

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ٣١.

(٢) المصدر السابق، وقعة صفين، ٣٢.

(٣) مطهر بن مطهر القدسي، البدء والتاريخ ٥/٢١٠، طبعة باريس ١٩١٦.

(٤) انظر نص الرسالة، العقد الفريد ٥/٤٨-٤٩.

(٥) سورة الحجرات، الآية ٩.

فأين الصلح؟ وأين الفئة الباغية؟ هذا مع العلم أن معاوية لم يتحرك للطلب بدم عثمان عندما كتب إليه طلحة والزبير بعد انتصارهم على حكيم بن جبلة ليقوم بقتل قتلة عثمان[1].

وفي الرسالة تتجه نائلة إلى معاوية حتى ينهض بأخذ ثأر عثمان، فلماذا لم تتوجه إلى الخليفة المنتخب حتى يقتص من القتلة، ولماذا اختارت معاوية بالذات ولم تختار طلحة والزبير وعائشة وهم قد خرجوا من المدينة لكي يطلبوا بثأره، ثم كيف يسمح معاوية لنفسه حتى يعاقب القتلة والخليفة موجود، والخليفة لم يعلن بأنه لا يريد الاقتصاص من القتلة، بل ترك ذلك للزمن وبعد أن يتمكن من إحكام سيطرته على الثوار. وهذا ابن العربين يقول: إنه لا يصلح للطالب بالدم أن يحكم، وتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج بطلب الحق عنه[2].

تذكر الرسالة أن علياً ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير أمروا الثوار بقتل عثمان وفي نص آخر تقول: إن ابن الزبير أخذ على القوم ميثاقاً في صحيفة وبعث بها إلى عثمان وفيها أن لا يقربوه بسوء حتى يكلموه ويخرجوا. وفي هذا القول تناقض فكيف يأمر ابن الزبير بالقتل؟ وكيف يأتي ليمنع الثوار من الاعتداء على حياة عثمان.

أما تقرير نائلة بتصوير عملية القتل، وبأن عثمان قد ضرب ثلاث ضربات على رأسه وطعنوه في صدره ثلاث طعنات، وضربوه على مقدم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم وهذا الوصف هو تقرير الطب الشرعي[3]، فهل وقفت نائلة تشاهد هذه الأمور كلها؟

وتذكر الرسالة أيضاً أن الثوار قد حاولوا قطع رأس عثمان إلا أن نائلة وابنة شيبه بن ربيعة حالتا دون ذلك. فكيف استطاعتا منع الثوار خاصة وأن نائلة قد اصيبت وقطعت بعض أصابع يدها؟ ثم أن عادة قطع الرؤوس لم تكن مألوفة عند العرب بعد.

ومما يزيد الشك في الرسالة أن معاوية لم يكن مخلصاً في الطلب بثأر عثمان بعد

---

(1) الطبري، تاريخ ٤/٤٧٢.
(2) العواصم من القواصم ١٦٤.
(3) بدير حميد، من أدب الحركات الاسلامية ٢٣.

أن صار الأمر إليه، فهو لم يقتل من قتلة عثمان أحداً إلا بحكم من قتل في حرب أودس عليه بأمر وقد بقي من قتلة عثمان إلى زمن الحجاج وهم يقتلون بالتهمة لا بالحقيقة[1].

مما تقدم أرى أن معاوية قد اتخذ من هذه الرسالة ذريعة للمطالبة بدم عثمان. وبعد أن قام معاوية بهذا الطلب أراد أن يكسب إلى جانبه كبار رجالات قريش، فعندما خرج طلحة والزبير إلى البصرة بعث إليهما معاوية بأنه على استعداد لبيعة الزبير أولاً ثم من بعده طلحة وحثهما على الذهاب إلى العراق[2].

وبعث إلى عبدالله بن عمر قائلاً: لست أريد الإمارة عليك ولكن أريدها لك[3]، وأن أبيت فشورى بين المسلمين[4]. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص بمثل ذلك[5] ولم يستطع معاوية أن يكسب إلى جانبه من كبار رجال قريش إلا عمرو بن العاص الذي ابتعد عن علي لأنه يدلي بسابقته وهو لا يشركه في شيء من أمره[6].

وكتب معاوية إلى أهل الحجاز يذكرهم بأمر عثمان وقال: أما بعد فإنه مهما غاب عنا من الأمور فلن يغب عنا أن علياً قتل عثمان، والدليل على ذلك مكان قتلته منه، وإنما نطلب بدمه حتى يدفعوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله، فإن دفعهم علي إلينا كففنا عنه، وأما الخلافة فلسنا نطلبها، فأعينونا على أمرنا هذا وانهضوا من ناحيتكم، فإن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد هاب على ما هو فيه[7].

وقد حاول معاوية، أن يكسب حركته ثوباً شرعياً وأن يأخذ اعترافاً من علي بأن عثمان قتل مظلوماً، إلا أن علياً قال: لا أقول قتل مظلوماً ولا أنه قتل ظالماً[8].

أما حجة علي على معاوية، أنه من السابقين، وقد بايعه أهل بدر ومعاوية لا سابقة له، وهو طليق ابن طليق، لم يدخل في الدين إلا رهبة فلا ينبغي لمن ليست له مثل

(1) العواصم من القواصم، ١٦٥.
(2) المقدسي البدء والتاريخ ٥/٢٢١.
(3) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ٧١-٧٢.
(4) ابن أعثم، الفتوح ٢/٤١٨.
(5) المصدر السابق ٢/٤١٨.
(6) الطبري، تاريخ ٤/٥٦٠.
(7) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ٦٢-٦٣.
(8) الطبري، تاريخ ٥/٨.

سوابقهم في الدين ولا فضائلهم في الاسلام أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولى به[1].

لقد بدأ موقف علي بالتحسن بعد الجمل، وما أن عاد علي الى الكوفة حتى جاءه الأحنف بن قيس وقال: إن تك سعداً لم تنصرك يوم الجمل فإنها تنصرك اليوم. وذلك أنهم شكوا في طلحة والزبير ولم يشكوا في معاوية، واستأذنه أن يكتب إلى تميم البصرة[2]. وقام حارثة بن بدر التميمي وقال: إن لنا في قومنا عدداً لا نلقى بهم عدواً أعدى من معاوية ولا نسد بهم ثغراً أشد من الشام[3]. ولم يكن انضمام تميم إلي علي نابعاً من شعور حقيقي بحقه، إنما كان سببه التنافس القبلي، فقد رأت تميم أن ربيعة وقفت إلى جانب علي فأرادت أن يكون لها شأن في النزاع بين علي ومعاوية. ونلمح ذلك من الرسالة التي بعثها الأحنف إلى قبائل تميم البصرة وفيها: إنه لم يبق أحد من تميم الكوفة إلا وقد أخذ برأي سيدهم غيركم. وبين أيضاً أن تميم الكوفة قد سبقوا تميم البصرة بانضمامهم إلى علي وعليهم أن يهبوا لنصرة أمير المؤمنين الذي يعتزم السير إلى الشام[4]. وعند ورود كتاب الأحنف سارعت تميم البصرة بالتوجه إلى الكوفة للالتحاق بجيش علي[5].

وبعد معركة الجمل بدأت المفاوضات بين علي ومعاوية فأرسل علي جرير بن عبدالله البجلي إلى الشام، وقد وقع عليه الاختيار لأن أكثر قبائل الشام هم من قومه وعشيرته وأهل بلاده[6] إلا أن جريراً اتهم من بعض العراقيين بأنه قد مال إلى أهل الشام فاعتزل الأمر ولحق به ناس من قومه ولم يشهد صفين منهم غير تسعة عشر رجلاً[7].

أما معاوية فبعد أن جاءه جرير لم يعطه جواباً وأبطأ عليه عدة أيام، وكأنه أراد أن

---

(1) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١٥١.
(2) ابن اعثم، الفتوح ٣٧٢/٢.
(3) نصر بن مزاح، وقعة صفين ٢٥.
(4) ابن اعثم، الفتوح ٣٧٢/٢.
(5) ابن اعثم، الفتوح ٣٧٢/٢.
(6) ابن اعثم، الفتوح ١٢٣/٢.
(7) نصر ابن مزاحم، وقعة صفين ٦٠.

يختبر أهل الشام هل سيقفون إلى جانبه أم لا، ومن هنا قال لجرير وما أبطأني عليك إلا انتظاري لرجل من أهل الشام، لأنه سيد من ساداتهم وهو لا يريد أن يقطع الأمر دونه وهذا السيد هو شرحبيل بن السمط الكندي[1].

وقد ذكر معاوية اسم شرحبيل أمام جرير لأنه سيد من سادات قومه، وهو عدو لجرير، وحتى يمضي معاوية في إثبات حجته بأن علياً قتل عثمان طلب من مجلسه الاستشاره إذا قدم شرحبيل أن يشهدوا أمامه بذلك.

وعندما قدم شرحبيل إلى دمشق قال له: لسنا نشك في علي إنه خير فضال لولا أنه قتل عثمان، وقد حبست نفسي عليك لأنك رجل من سادات كندة، وأنا واحد منكم أرضى بما ترضون وأكره أن تكرهون فهات ما عندك، فطلب شرحبيل اثنين من الشهود حتى يشهدوا بأن علياً قتل عثمان وحسب الخطة المرسومة شهد الشهود، واقتنع شرحبيل بالأمر وجاء إلى معاوية فقال له: والله لئن بايعته لنخرجنك من الشام فاردد الرجل إلى صاحبه[2].

ولم يكن تكريم معاوية لشرحبيل هو من باب التنافس الرئاسي مع جرير فحسب، بل رمى من وراء ذلك استمالة أهل حمص حيث غالبيتهم من القبائل اليمانية. من كنده وطيء وحمير وهمدان بالاضافة إلى كلب. وقدتم لمعاوية ما أراد فقد قام شرحبيل ينادي في مدائن الشام بأن علياً قتل عثمان، وعلى المسلمين الطلب بدمه[3] وفهم المغزى الشاعر النجاشي فقال:

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا ولكن لبغض المالكي جرير[4]

ولم يتقصر معاوية في محاولاته على استمالة رؤساء الشام، بل امتدت أنظاره إلى رؤساء العراق، فعندما اعتزل جرير بن عبدالله صفوف علي، بعث إليه معاوية يستميله إلى جانبه إلا أن جريراً لم يقبل ذلك[5].

(١) ابن اعثم، الفتوح ٢/٣٩٤-٣٩٥.
(٢) ابن اعثم، الفتوح ٢/٤٠١.
(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٥٠.
(٤) ابن حجر العسقلاني، الاصابة ٢/١٤٤.
(٥) الطبري، تاريخ ٤/٥٦٢.

وحاول معاوية أن يستميل ربيعة فبعث إلى زياد بن خصفة قائلاً:

يا أخا ربيعة أن علياً قطع أرحامنا، وآوى قتلة صاحبنا، وإني أسألك النصر عليه بأسرتك وعشيرتك. ووعده أن يوليه أحد المصريين إذا ظهر[1]، ولما رفضت ربيعة طلبه حلف بأن يسبيهم ويبيع ذراريهم[2].

لقد أخذ علي ومعاوية يتسابقان في استمالة القبائل، وأن وجدا رفضا منها يهددانها فمعاوية تذمر من قبيلة خزاعة وقال: لو قدرت نساء خزاعة ان تقاتلني لفعلت[3].

وعلي قال لباهله: أشهد الله أنكم تبغضوني وأبغضكم، فخذوا عطاءكم واخرجوا إلى الديلم بعد أن كرهوا الخروج إلى صفين[4]. وعندما آثرت تغلب معاوية على علي حلف علي كما حلف معاوية في ربيعة[5]. ورافق التنافس القبلي عصبية للأمصار فعندما انحاز مصقلة بن هبيره إلى جانب معاوية كتبت إليه بكر بن وائل: لعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق، ولا السكاسك بربيعة، ولامعاوية بعلي، ولا أصبت دنيا تهنأ بها، ولا حظاً تحسد عليه، وان أقرب ما تكون مع الله أبعد ما تكون مع معاوية، فارجع إلى مصرك[6].

وكتب سعيد بن قيس الهمداني إلى شرحبيل بن السمط يقول له: أن أهلك من أرض اليمن، غير أنك هاجرت إلى الكوفة، وانتقلت إلى الشام، فكنت بها ما شاء الله حتى إذا قتل عثمان وبايع الناس علياً عبى لك معاوية رجالاً لا يعرفون الحلال ولاينكرون الحرام فاختدعوك وشهدوا عنك أن علياً قتل عثمان.

فرد عليه شرحبيل: إني هاجرت إلى الكوفة وانتقلت إلى الشام ولعمري ما العراق لي بدار ولا الشام لي بعار، وإنما أنا رجل من اليمن[7]. وبهذا نرى أن عصبية

(١) ابن الأثير، الكامل ٣/١٤٨.
(٢) ابن حجر العسقلاني الاصابة ١/٤٦٠.
(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب ٢/٢١٩ بهامش الإصابة.
(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١١٦.
(٥) المصدر السابق ١٠٥.
(٦) ابن أعثم، الفتوح ٢/٤١٠.
(٧) الدينوري الأخبار الطوال ١٦٠، نهج البلاغة ١/١٣٧.

شرحبيل لليمن كانت أقوى من عصبيته للشام وعصبيته للشام جعلته يقاتل أهل العراق وهذا يدل على اختلاط العصبيات.

وبعد أن أمن معاوية جبهة الشام استعد لاتخاذ خطوة فعّالة في مهاجمة علي إلا أنه خشي أمرين.

الأول تهديد الروم: استطاع معاوية أن يوادع الروم ويبعث لقيصرهم بالهدايا[1].
الثاني مصر: لقد استطاع قيس بن سعد أن يثبت أقدامه في مصر وخدمته العصبية القبلية في ذلك، فعندما استعد مسلمة بن مخلد الأنصاري لمحاربة قيس بعث إليه قيس: ويحك أعلي تثب، فوالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وإني قتلتك. فبعث إليه مسلمه إني كاف عنك ما دمت أنت والي مصر[2].

وبعد أن أمن قيس جانب مسلمه عين على شرطته رجلاً من بني كنانه هوالسائب بن هشام لأن رئيس الفئة المحايدة في مصر كان من بني كنانة وهو يزيد بن الحارث، ومن هنا بعث يزيد إلى قيس: أنا لا نقاتلك فابعث عمالك فالأرض أرضك ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس. فبعث إليهم قيس أعطياتهم وأحسن اليهم[3].

وهذا الهدوء في مصر أقلق بال معاوية فأخذ يبحث عن السبل التي يتمكن بها من إثارة القلاقل هناك، خوفاً من أن يقبل قيس في أهل مصر، وعلي في أهل العراق. فحاول معاوية أولاً استمالة قيس ممنياً ومرغباً له بالوعود والاغراءات، ومنها وعده بسلطان العراقين ولمن أحب من أهل بيته سلطان الحجاز[4]. إلا أن قيساً لم يجب معاوية بشيء، فأثار ذلك شكوك معاوية، فلجأ إلى المكايدة، أشاع أن قيساً أصبح من شيعة معاوية. فبعث عيون علي إليه بذلك.

ولما وصلت الأنباء إلى علي كتب إلى قيس يأمره بقتال أهل خربتا وكان بها عشرة آلاف فارس، غير أن قيساً لم يفعل لأن وجوه مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ قد رضوا منه وقال لعلي: قد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون من الذي

---

(١) الدينوري الأخبار الطوال ١٦٠، نهج البلاغة ١٣٧/١.
(٢) الطبري، تاريخ ٥٥٠/٥.
(٣) الكندي، الولاه ٢٠.
(٤) الطبري، تاريخ ٥٧٠/٥.

أفعل بهم وهم اسود العرب منهم بسر بن أبي ارطاه، ومسلمه بن مخلد، ومعاوية بن حديج. فأبى عليه علي الا قتالهم، فبعث قيس إليه إن كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري[1].

ولما رأى رؤساء العراق ذلك أخذوا يقولون "بدل قيس وغير" وعبثاً حاول علي إقناعهم فأجبروه على عزله وكتب إليه: إني قد احتجت إلى قربك فاستخلف على عملك واقدم. فلما قرأ قيس الكتاب قال: هذا مكر معاوية، ولولا الكذب لكدت بمعاوية مكراً يدخل عليه بيته[2].

لقد ظن أهل العراق أن قيساً لم يحارب أهل خربتا عصبية لمسلمة بن مخلد، فكان عزله سبباً لضياع مصر فيما بعد.

وعندما عزل قيس تنفس معاوية الصعداء، وتم تعيين محمد بن أبي بكر وكان شاباً حدث السن لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، لم تحكنه الأيام فأخذ المصريون يستخفون به، ثم هو من المتهمين بقتل عثمان. كما أنه لم يتقيد برأي قيس له: إن أردت أن تبقى مصر فاعمل فيها عملي. فقام على الفور بمقارعة أهل مصر فاجتمع عليه اثنا عشر الفا[3].

ولما أمن معاوية جانب مصر عزم على التوجه إلى العراق لمواجهة علي هناك، وبعث إلى علي: إن أهل الشام أبو إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن دفعتهم كانت شورى بين المسلمين[4]. ولم يقف معاوية عند هذا الحد، بل تجاوز مبدأ قرره المهاجرون وأهل السابقة وهو أن اختيار الخليفة مقصور على السابقين في الاسلام، وقال: لقد كان أهل الحجاز هم الحكام على الناس حين صار الحق فيهم فلما تركوه صار أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز وغيرهم من الناس. ولعمري ما حجتك علي كحجتك على طلحة والزبير، ولاحتجك على أهل الشام كحجتك علي أهل البصرة ولأن طلحة والزبير قد كان بايعاك ولم أبعايك، وبايعك أهل البصرة، ولم يبايعك أهل الشام. وأما فضلك في الاسلام وقرابتك من الرسول وموضعك من بني هاشم فلست أدفعه.

---

(١) الكندي، الولاة ٢١.

(٢) المصدر السابق ٢٢.

(٣) ابو هلال العكسري، الأوائل ٢٣٣.

(٤) ابن قتيبه الامامة والسياسة ٩١/١.

ورد عليه علي: أما ما زعمت أن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز، فهات رجلين من قريش الشام يقبل في الشورى أو تحل لهما الخلافة فإن زعمت كذبك المهاجرون والأنصار وإلا فأنا آتيك بهم من قريش الحجاز[1].

لقد تحرك معاوية بعد أن جمع كافة قبائل الشام إلى جانبه، فهو رجل من الشام يحارب إذا حاربوا ويصادق إذا صادقوا، معتمداً على جبهة اعلنت أنها ستقاتل بين يديه وتموت تحت ركابه[2].

واستغل معاوية عصبية الشام كما استغل القبائل فعندما استعد للقتال خطب في أهل الشام وقال: لقد خرج علي بجيشه قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم يا أهل الشام، الله الله في عثمان، فأنا ولي عثمان وأحق بدمه[3].

هذا القول حرك مشاعر أهل الشام فقام شرحبيل بن السمط الكندي خطيباً وقال: اعلموا أن علياً قتل عثمان وفرق الجماعة وأوقع بأهل البصرة وقعة لها ما بعدها، وقد هزم الجميع، وغلب على الأرض حتى لم يبق له إلا الشام، وقد وضع سيفه على عاتقه وعزم على أن يخوض إليكم غمار الموت حتى يأتيكم فينزل بكم ما أنزل بغيركم[4].

ووقف مالك بن هبيرة الكندي وقال: لقد علمت العرب أنا حي فعال، ولسنا بحي مقال، وإنا نأتي بعظيم فعالنا على قليل مقالنا فابسط يديك أبايعك على ما أحببنا وكرهنا[5].

وقال حوشب ذو ظليم: الأمر لك ولمن شئت بعدك[6]. وعندما غضب من معاوية قال: والله ما إياك ننصر ولا لك نغضب، ولا عنك نحامي، ما ننصر إلا الله ولا نغضب إلا للخليفة، ولا نحامي إلا عن الشام[7].

---

(١) ابن اعثم، الفتوح ٢/٤٣٧.
(٢) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٤٧، ابن أعثم الفتوح، ٢/٤٧٠.
(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ١٢٧.
(٤) ابن أعثم، الفتوح ٢/٤٠٧.
(٥) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ٩٠.
(٦) ابن اعثم، الفتوح، ٢/٤٢٧.
(٧) ابن قتيبه، الإمامة والسياسية ٩٢.

وهكذا أخذت القبائل تتسابق في إعلان ولائها لمعاوية. وزاد من هذا الولاء أن معاوية صور حربه مع علي هي حرب الشام ضد العراق. ومن هنا أخذ يحث رجالات الشام على قتال العراق وقال: يا أهل الشام، إنكم قد صرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق، ولعمري ما للشام رجال العراق وأموالها، ولا لأهل العراق بصر أهل الشام ولا بصائرها، مع أن القوم بعدهم غيرهم مثلهم، وليس بعدكم غيركم، فإن غلبتموهم فلم تغلبوا إلا من قد أتاكم، وإن غلبوكم عاقبوا من بعدكم، والقوم لاقوكم ببصائر أهل الحجاز، ورقة أهل اليمن، وقسوة أهل مصر، وكيد أهل العراق، وإنما يبصر غداً من أبصر اليوم، فاستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين[1].

وبهذه الرسائل استطاع معاوية أن يجمع جيشاً مؤتلفاً يأتمر بأمره، أما علي فقد كان مركزه حرجاً في العراق، فالتقاليد القبلية كانت في عنفها، إضافة إلى ما صاحبها من اتجاهات وحزازات قوية، فالكوفة قبلية في كل شيء فكرة الدولة والتقاليد الحضرية[2]. وهناك أهل البصرة الموتورون من معركة الجمل، أما قريش فهي على خلافه وجمهور الخلق مع بني أمية[3].

لقد أقدمت بعض قبائل العراق على القتال وهي كارهة فالأشعث بن قيس الكندي يقول: والله إني كنت لكارها قتال أهل الصلاة ولكن معي من هو أقدم مني في الاسلام وأعلم بكتاب الله والسنة[4].

ولما كانت القبائل لا تأتمر إلا بأمر سادتها، قرر علي أن يجمع هؤلاء الرؤساء والتباحث معهم بأمر معاوية، فأشاروا عليه أن يبعث إليه رجلاً يدعوه للبيعة[5]. فأرسل جريراً كما رأينا، ولما فشل جرير في مسعاه انقسمت قبائل العراق بين مرحب وكاره، وكانت القبائل المتحمسة هي تميم وكأنها أرادت أن تعوض عما فاتها في معركة الجمل فقام الأحنف وقال: والله لنخرجن معك على العسر واليسر والعناء والكره[6].

---

(١) المصدر السابق، ٩٣.

(٢) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ٥٩.

(٣) نهج البلاغة، ٤٨٦/١.

(٤) نهج البلاغة ٤٢٥/١.

(٥) المسعودي مروج الذهب ٣٨/٣.

(٦) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١١٦.

ومن ربيعة قام خالد بن المعمر السدوسي وقال: سمعنا وأطعنا فمتى استنفرتنا نفرنا ومتى دعوتنا أجبنا، وقال عمرو بن مرحوم العبدي من عبد القيس: متى أردتنا صحبك خيلنا ورجالنا[1].

أما الأصوات الكاره فمنها ما قاله رجل من فزاره يسمى أربد: أتريد أن تسير بنا إلى اخواننا من أهل الشام فنقتلهم كما سرت بنا إلى اخواننا من أهل البصرة فقتلناهم كلاها الله إذا لا نفعل[2]. وكان مصير أربد القتل تحت أرجل القبائل اليمانية.

وأصبح الاعتقاد أن كل خارج على جيش العراق سيكون مصيره مصير أربد فهذا شاعر من تميم يقول:

أعـوذ بربي أن تكون منيتي كما مات في سوق البرازين أربد

تعاوره همدان خصف نعالهم إذا رفعت عنه يد وقعت يد[3]

وقام رجل من عبس أيضاً ينصح علياً بعدم قتال أهل الشام لأنه لا يدري لمن ستكون الغلبة عند اللقاء[4].

وانقسمت قبيلة طيء بين مؤيد ومعارض فعدي بن حاتم حث قومه على الخروج أما زيد بن حصين الطائي فقال: لا يصلح لنا النية في قتالهم حتى تستدعيهم وتستأنيهم. فرد عليه رجل من طيء يا زيد ألكلام سيدنا عدي تهجن[5].

وكما استغل معاوية العصبية الاقليمية فقد استغلها علي أيضاً فعندما عبأ الناس قال لهم: إن معاوية بايعه أهل الشام وليس له غيرهم ولي ولا نصير، وإنكم أهل الحجاز وأهل العراق، وأهل اليمن، وأهل مصر . . . وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر ولعمري لأنتم أولى بذلك منهم، لأنكم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان وإنما الصبر اليوم والنصر غداً[6].

---

(١) المصدر السابق، ١١٨، ١١٨.

(٢) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ٩٤.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال ١٦٦.

(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ٩٥-٩٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٩٨-١٠٠.

(٦) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة ٩٣.

وقال في موضع آخر يحرض أهل العراق: أن غلبوكم فلاحجاز ولا عراق[1].

وبعد الاستعدادات خرج علي في مائة الف وقيل في تسعين ألف ومعاوية في سبعين ألف والتقوا في صفين في صفر سنة ٣٧هـ[2] ٦٥٧م.

لقد اعتمد علي في تشكيلته الحربية على أخماس البصرة، وأسباع الكوفة فضمت أخماس البصرة قبائل بكر وعبدالقيس والأزد وتميم ومعها ضبه والرباب وأهل العالية وهم من قبائل الحجاز التي سكنت البصرة.

أما أسباع الكوفة فقد ضمت قيس وعبد القيس، وقريش وكنانة وتميم وضبة والرباب والأزد وبجيله وخثعم والأنصار وخزاعة وكنده، وحضرموت وقضاعة ومهره، ومذحج وبجيله والأشعريين، وهمدان وحمير وطيء[3].

أما معاوية فقد نظم جيشه حسب الأجناد وجعل على أهل كل مدينة رجلاً فكانت الميمنة مكونة من أهل حمص وقنسرين (يمانية وقيسية) والميسرة أهل الأردن وفلسطين (خليط من القيسية واليمانية).

وكانت أهم القبائل معه قيس دمشق وقضاعة مصر وكنده دمشق وحمص وقضاعة الأردن وكنانة فلسطين ومذحج الأردن وجذام فلسطين ولخمها وهمدان الأردن وخثعمها وغسان الأردن[4].

وبعد أن وصل معاوية إلى صفين استولى جيشه على شريعة الماء وهنا ظهرت الحمية القبلية، فتنافست كندة والنخع أيهما سيجلى أهل الشام عن الشريعة، فقام الأشعث وقال: لصاحبه رايته: والله ما النخع بخير من كنده ولا الاشتر بخير مني. وكان هذا التنافس سبباً في نصرة أهل العراق حتى أن علياً قال هذا يوم نصرنا فيه بالحمية[5].

ومع أن القبائل العراقية اندفعت تقاتل بحماس، إلا أن الانقاسامات ظهرت حتى

(١) ابن اعثم، الفتوح ٢/٤٢٢.
(٢) ابن خياط، تاريخ ١/١٧٥-١٧٦.
(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١١٧-١١٨.
(٤) ابن خياط، تاريخ ١/١٧٦-١٧٧.
(٥) ابن أعثم، الفتوح ٣/٨-٩.

بين القبيلة الواحدة، وسبب ذلك التنافس بين البطون على الرئاسة والزعامة.

فشقيق بن مجزأه بن ثور تنازع مع خالد بن المعمر على رئاسة سدوس فاضطر علي أن يصيرها إلى الحصين بن المنذر فرضي كل واحد منهما بذلك خوفاً أن يصيرها علي إلى خصمه فسكنت بكر بن وائل[1].

وتنافس عائذ بن قيس الطائي وعدي بن حاتم على زعامة طيء. فقال علي: عدي أحقكم بالراية. فضجت بنو الحرمز رهط عائذ فقال علي: إني أراه رأسكم قبل اليوم، ولا أرى قومه كلهم إلا مسلمين له غيركم فاتبع في ذلك الكثرة[2].

إلا أن أشد الانقسامات بسبب الرئاسة برزت عندما عزل علي الأشعث بن قيس الكندي عن راية كنده وربيعة وصيرها إلى حسان بن مخدوج فقام اناس من اليمن منهم الاشتر النخعي وعدي بن حاتم وهانئ بن عروة وقالوا لعلي: إن رياسة الأشعث لا تصلح إلا لمثله، وما حسان بن مخدوج مثل الأشعث. فغضبت ربيعة فقام حريث بن جابر وقال: يا هؤلاء رجل برجل وليس بصاحبنا عجز في شرفه ونجدته وبأسه ولسنا ندفع فضل صاحبكم وشرفه[3]. وجاءت اليمانية بعد ذلك إلى سعيد بن قيس الهمداني ليتوسط لدى علي لإعادة الأشعث، الا أن سعيداً لم يجبهم إلى ذلك وقال: ما رأيت قوماً أبعد رأياً منكم، أرأيتم إن عصيتم علي هل لكم إلى عدوه وسيله؟ وهل في معاوية عوض منه؟ أو هل لكم بالشام من بدله بالعراق؟ أو تجد ربيعة ناصراً من مضر؟ القول ما قال والرأي ما صنع.

ورد عليهم حريث أيضاً وقال: يا هؤلاء لا تجزعوا فإنه إن كان الأشعث ملكاً في الجاهلية وسيداً في الإسلام، فإن صاحبنا أهل هذه الرئاسة، وما هو أفضل منها.

ولما رأى حسان ذلك أخذ راية ربيعة وكندة وقدمها للأشعث، فقال الأشعث معاذ الله لا يكون هذا أبداً ما كان لك فهو لي وما كان لي فهو لك[4].

ولما سمع معاوية بذلك دعا الشاعر كعب بن جميل وطلب منه أن يبعث شعراً إلى

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ١٠٨/٣.

(٢) الطبري، تاريخ ٩/٥.

(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١٣٧، ابن اعثم، الفتوح ١٠٥/٣.

(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١٣٨-١٣٩.

الأشعث يُهجه على علي لعله يفارقه ويقدم عليه، وشارك كعب في حبك القصيدة المرسلة مالك بن هبيرة الكندي ومنها[١]:

من يصبح اليوم مثلوجاً بأسرته	فالله يعلم أني غير مثلوج
أن ترضى كندة حسان بصاحبها	واستجمع الأمر لحسان بن مخدوج
يا للرجال لعار ليس يغسله	ماء الفرات وكرب غير مفروج
ان ترضى كندة حسان بصاحبها	ترضى الدناءة وقحطان بالهوج

وقد كان لهذا الشعر وقع كبير على مشاعر اليمانية. فقام شريح بن هانئ المذحجي وقال: يا معشر اليمن إن معاوية يريد أن يفرق بينكم وبين أخوانكم من ربيعة وهم لم يزالوا حلفاؤكم في الجاهلية واخوانكم في الاسلام فلا تلتفتوا إلى تحريض معاوية[٢].

ولما سمع حسان بن مخدوج هذا الشعر جاء برايته مرة ثانية، وركزها بدار الأشعث، إلا أن الأشعث قال: أن هذه الراية عظمت على علي، وهو والله أخف علي من زف النعام ومعاذ الله ان يغيرني ذلك لكم. وقال أيضاً: أن يكن أولها شرف فإنه ليس آخرها بعار. ولم يرض الأشعث إلا بعد أن عينه علي على ميمنته[٣].

وهكذا نجد أن جيش العراق وإن كان يظهر موحداً إلا أن الانقسامات كانت تمزقه بعكس جيش الشام الذي نظم حسب أوامر قائدة معاوية.

وقبل نشوب القتال رتب الفريقان جيوشهما احدى عشر صفا كل صف يناظر الصف الذي أمامه[٤]. ثم قام علي وعبأ قبائله على النحو التالي: أزد العراق لأزد الشام وخثعم العراق لخثعم الشام وربيعة لحمير حيث لا ربيعة في الشام وكندة العراق – للسكون والسكاسك، ومذحج لعك، وهمدان– للأزد وبجيلة وتميم لهوازن وغطفان وسليم وبجيلة للخم[٥].

---

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١٣٩، ابن اعثم، الفتوح ١٠٦/٣.

(٢) ابن أعثم، الفتوح ١٠٦/٣.

(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١٣٩–١٤٠.

(٤) المصدرالسابق ٢١٤.

(٥) المصدر السابق، ٢٢٩.

وهكذا كان التخطيط الحربي أن تقاتل كل قبيلة اختها من أهل الشام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فتصرف إلى قبيلة أخرى تكون بالشام وليس منها بالعراق كربيعة التي صرفت لحمير[1].

وهذا التنظيم يقضي بأن تقف القبيلة قابل أختها فمضر لا يكافئها إلا مضر، والأزد لا تقاتل إلا الأزد، وهي ظاهرة تدعو للدهشة وتبدو للوهلة الأولى وكأنها مناقضة للعصبية القبلية، على أنها في واقع الأمر من التدابير التي لجأ إليها القوم للحيلولة دون تأثر المقاتلين بنوازع العصبية والرحم، فالقبيلة تكره أن ترى اخوتها يقتلون بأيد غريبة فكانت تؤثر أن تتولى هي قتالهم[2].

ومما يؤيد ذلك أن قبيلة حمير لما وقفت بإزاء ربيعة أظهر ذو الكلاع استياءه لأنه لم ير ربيعة كفؤاً لقومه[3].

وبالرغم من قتال إخوة الدم، إلا أن معركة صفين، اثبتت أن الروابط القبلية كانت أقوى من الأهواء السياسية والنوازع الحزبية. فزياد بن النضر الربعي بارز أخا لأمه من عقيل فلما تعارفا انصرف كل واحد منهما عن صاحبه وتراجع الناس[4].

ولما قتل نعيم بن صهيب البجلي وكان على راية بجيلة جاء ابن عمه نعيم بن الحارث إلى معاوية وطلب أن يدفنه. فرفض معاوية في بادئ الأمر فقال البجلي لتأذنن في دفنه أولأ لحقن بهم ولأدعنك فوافق معاوية بعد ذلك[5].

كما ظهر تذمر القبائل من القتال وقد جاء ذلك على لسان عدة رؤساء فهذا مخنف بن سليم الأزدي يقول عندما ندبت الأزد للأزد: إن من الخطأ الجليل والبلاء العظيم، أنا صرفنا إلى قومنا وصرفوا إلينا، والله ما هي إلا أيدينا نقطعها بأيدينا وما هي إلا أجنحتنا نحدها بأسيافنا[6].

---

(1) الطبري، تاريخ ١٤/٥.
(2) احسان النص، العصبية القبلية ١٩٣.
(3) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٢٥٥.
(4) الطبري، تاريخ ١٢/٥.
(5) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٢٩٥،الطبري، تاريخ ٢٦/٥.
(6) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٢٦٢.

وعندما خرج عبدالله بن الحصين الأزدي مع عمار بن ياسر في القراء قال مخنف: نحن أحوج إليك من عمار[1].

وكتب عبدالله بن حنش الخثعمي رأس خثعم إلى خثعم العراق: أن لو شئتم لتوافقنا فلم نقتتل فإن ظهر صاحبكم كنا معكم، وأن ظهر صاحبنا كنتم معنا ولم يقتل بعضنا بعضاً. لكن خثعم العراق رفضت هذا العرض. ولما التقوا في القتال قال رأس الشام لقومه قد عرضنا على قومنا من أهل العراق الموادعة صلة لأرحامهم وحفظاً لحقهم فأبوا إلا قتالنا، فقد بدأونا بالقطيعة، فكفوا أيديكم عنهم حفظاً لحقهم أبداً ما كفوا عنكم فإذا قاتلوكم فقاتلوهم[2].

ولما نشب القتال كان رأس العراق يقول لاتباعه جذموا[3]، ورأس الشام يقول الكل قومك فانصف، وعندما قتل رأس خثعم العراق قام قاتله يبكي ويقول: رحمك الله يا أبا كعب لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمس بي رحماً منهم، وأحب إلي نفساً منهم، ولكن والله ما أدري ما أقول ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ولا أرى قريشاً ألا قد لعبت بنا[4].

وأواصر القربى لم تظهر في خثعم وحدها، بل امتدت إلى قريش فعندما سأل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عن جند معاوية قيل له من أهل المدينة وقريش فقال قومي لا حاجة لي في قتالهم[5].

ولشدة هول المعركة وكثرة القتلى ظهرت الأصوات تنادي بترك قريش تصفي حسابها مع نفسها، فالصباح بن ابرهة الحميري قال: ويحكم يا معاشر أهل اليمن، والله إني لا أظن أن الله عز وجل قد همّ بفنائكم، ويحكم خلوا بين هذين الرجلين، فأيهما قتل صاحبه ملنا معه جميعاً. وكان الصباح مع معاوية[6]. وقال رجل من ربيعة

---

(١) المصدر لاسابق ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق، ٢٥٧.

(٣) جذموا: اضربوا موضع الخدمة وهي الخلخال.

(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٢٥٧، وانظر ٢٦٨، ٢٧٠ الأخبار الطوال ١٨٢، مروج الذهب ٢/ ٣٩٥.

(٥) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٢٧٢.

(٦) مجهول، تاريخ الخلفاء، ٨٢.

لخالد بن المعمر السدوسي: ضاع والله أمر ربيعة حين جعلت إليك أمورها، تأمرنا إلا نزول ولا نحول حتى نقتل أنفسنا وتسفك دماءنا ألا ترى الناس فقد انصرف جلهم[1].

ولم تظهر القبائل العربية التذمر فحسب، بل امتد ذلك إلى قريش فعبد الرحمن بن خالد بن الوليد يقول: ما لنا ولعثمان بن عفان لا يزال دمه يغلي حتى لا يبقى منا أحد[2]. غير أن موجة التذمر هذه ما كانت لتوقف معاوية عن محاولاته لكسب الخصوم وتمزيق جيش علي، فقد بعث إلى الحسن كي يخلع أباه ويتولى الأمر بعده[3].
ولما أعجزته هذه الحيله بعث إلى عبدالله بن عباس يقول له: ابقوا على قريش واتقوا الله ربكم فإنما بقي من قريش ستة رجال اثنان بالشام أنا وعمرو بن العاص واثنان بالعراق علي وابن عباس واثنان بالحجاز سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر، ومن هؤلاء الستة رجلان ناصبان لك ولابن عمك، ورجلان واقفان عليكم سعد وابن عمر، وأنت رأس هذا الجمع بعد ابن عمك ولو بايع الناس لك بعد عثمان لكنا إلى طاعتك أسرع منا إلى علي[4].

وحاول معاوية أن يستميل قبيلة ربيعة إلى جانبه فبعث إليهم عمرو بن العاص[5].

وبعث أيضاً إلى أبي الأيوب الأنصاري، إلا أن معاوية فشل في مسعاه[6].

لقد أعادت معركة صفين شعارات الجاهلية من جديد. فالأشعث يحث قومه وينادي يا معشر كندة انظروا أن لا تفضحوني اليوم ولا تخزونني فإني أقارع بكم أهل الشام[7].

كما برز القتال على الأحساب في معركة صفين كما كان في العصر الجاهلي، فأفضل أيام القتال عند الوليد بن عتبة حين قاتلت الرجال على الأحساب[8].

(1) الطبري، تاريخ ٣٥/٥.
(2) ابن أعثم، الفتوح٣/١٦٤.
(3) االمصدر السابق ٣/٥٦-٥٧.
(4) المصدر السابق، ٣/٢٥٥.
(5) المصدر السابق، ٣/٢٣٠.
(6) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٣٦٦.
(7) ابن أعثم، الفتوح ٣/١٧.
(8) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٣٧٨.

ولما شارفت تميم على الهزيمة ناداها مالك النهشلي: أفراراً واعتذارا، ثم نادى بالأحساب فجعل يكررها حتى قالت له تميم أتنادي بنداء الجاهلية، وأن ذا لا يحل، فأجابهم الفرار ويلكم أقبح إن لم تقاتلوا على الدين واليقين فقاتلوا على الاحساب[1].

ونادى حمزة بن مالك الهمداني على طيء: يا معشر طيء فدى لكم طارفي وتالدي؟ قاتلوا على الأحساب[2].

ورافق القتال على الأحساب تشجيع وتحريض الرؤساء خوفاً من عار القبائل الأخرى فخالد السدوسي يقول لربيعة: إياكم أن يتشاءم بكم العرب والمسلمون اليوم[3].

مقتل صاحب الشأن يستدعي الأخذ بثأره فعندما قتل عبيدالله بن عمر جاءت قبائل الشام أمام معاوية بثمانين علماً وكل علم في يد رئيس حتى يأخذوا بثأر عبيد الله[4].

هذا إلى أن القبائل كانت تقاتل متساندة، فللقبيلة رايتها، ولها قائدها وهي تقاتل منفردة فكندة في يوم وهمدان في آخر[5]. وهذا التساند كان يعمق جذور العصبية لاسيما إذا رأينا أن الأمر في الحرب كان بيد رؤساء القبائل حتى أنهم كانوا يقولون لسادتهم: أن رضيتم شيئاً رضيناه، وإن كرهتم شيئاً كرهناه[6].

وقد كادت العصبية القبلية أن تمزق الجيشين إلا أنها في الشام كانت أخف منها في العراق.

ظهر احتجاج يمانية الشام على معاوية بأنه يخص قريشاً وحدها بالرايات، فقام رجل منهم بين يدي معاوية وقال:

---

(١) المصدر السابق، ٢٦٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطبري، تاريخ ٣٥/٥.
(٤) ابن اعثم، الفتوح ٢١٤/٢، ٢١٧.
(٥) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١٩٥-١٩٦.
(٦) ابن سعد، الطبقات ٢٨/١.

معاوي أحييت فينا الأحن ... وما أحدثت في الشام ما لم يكن
عقدت لعمرو وأشباهه ... وما الناس حولك إلا اليمن
فلا تخلطن بنا غيرنا ... كما شيب بالماء محض اللبن

ولما سمع معاوية ذلك قال لأهل اليمن: ما خلطت بكم إلا ثقاتي، والذي لكم فهو لي. ثم نظر إلى وجوه اليمن وقال لهم: أعن رضاكم هذا ما قال: فقالوا لا مرحبا بما قال، الأمر إليك فاصنع بما شئت[1].

وإن حاول الرؤساء أن يخفوا تذمرهم من الحرب، إلا أن كثرة القتل بين صفوفهم دعتهم المجيء إلى معاوية ويبينوا له أن السبب في ذلك لأنه يولى عليهم رجالاً من قريش، وهؤلاء لا يقاتلون إلا ساعة ثم يرجعون[2]. وهنا أيقن معاوية أن سكوته عن هذا الأمر سيمزق جيشه، فدعا كل قرشي في معسكره في جوف الليل وقال لهم: العجب منكم يا معشر قريش، إنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب مقال يقول به لسانه غداً على الناس فيقول فعلت يوم صفين كذا وكذا. فقال الوليد بن عقبة ولا أنا يا معاوية، فقال: ولا أنت والله يا وليد ولا غيرك من قريش الشام، وما رأيت أحداً منكم خرج إلى حرب القوم إلا رجع مفضوحاً مشوهاً لي، ويلكم أبهذا يؤخذ الأمر من مثل علي وأصحابه، والله لقد وقوا علياً بأنفسهم ووقاهم علي بنفسه[3].

وبعد ذلك أمر معاوية بتعبئة رجالات قريش لقتال أهل العراق، وقصد معاوية من ذلك أن يظهر للقبائل اليمانية أن قريشاً لا تقل عنهم شجاعة، ولكن ما عقده معاويه عليهم كان مخيباً للآمال فقد فشلوا جميعاً أمام جيش العراق، وهذا مما أدى إلى شماتة اليمانية بهم غير أن معاوية وقف يبرر موقف قومه وقال: يا معشر قريش والله لقد قربكم لقاء القوم من الفتح ولكن لا مرد لأمر الله وم تستحيون، إنما لقيتم كباش أهل العراق، وقتلتم وقتل منكم ومالكم علي من حجه، لقد عبأت نفسي لسيدهم سعيد بن قيس الهمداني[4]، وكما افتخرت اليمانية بحسن بلائها على قريش، فقد افتخروا على

---

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ٤٢٤-٤٢٥، ابن أعثم، الفتوح، ٣/١٤٥-١٤٧.
(٢) ابن أعثم، الفتوح ٣/٢١٩.
(٣) المصدر السابق ٣/١٧٥-١٧٦.
(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٤٢٦-٤٢٧.

القبائل المضرية جميعها ووصفوا أنفسهم بأنهم القوم الذي لا يتطرق اليهم الضعف ولا الخور[١].

ومع أن طاعة أهل الشام كانت أفضل من أهل العراق، إلا أن بعض القبائل أرادت من القتال في صفين أن تحقق مكاسب شخصية فعك والاشعريون طلبوا الضياع والقرى من معاوية فاضطر معاوية أن يقطعهم في حوران والبثنية[٢].

ومع هذه الاقطاعات اتبع معاوية سياسة التهديد والترغيب، افتقد يوماً راية قضاعة فطلب سيدها وهدده بأخذ الراية منه فغضب سيد قضاعة، وعندما تقدم للقتال قال لقومه: إننا سنقاتل عن الغوطة وعنبها وزيتونها إذ قد حرمنا الجنة ونعيمها وحور عينها[٣].

واستدعى معاوية النعمان بن بشير الأنصاري ومسلمة بن مخلد وأبدى أسفه لوقوف الأنصار مع علي، توعد الأنصار فقال النعمان: لا تلومن الأنصار على إسراعهم إلى الحروب فإنهم كانوا كذلك في الجاهلية، ذكر مواقفهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم وقتالهم لقريش، فاضطر معاوية بعد ذلك أن يرضيهما[٤].

ولما سمع قيس بن سعد ذلك حاول استدراجهما إلى جانبه فكتب إلى النعمان: انظر هل مع معاوية إلا طليقاً أو يمانياً أو مستدرجاً بغرور؟ انظر اين المهاجرون، والأنصار والتابعون بإحسان؟ ثم انظر هل مع معاوية غيرك وصويحبك ولستما ببدريين ولا عقبيين ولاأحديين ولا لكما سابقة في الإسلام ولا آية في القرآن ولعمري لئن شغبت علينا لقد شغب علينا أبوك من قبل[٥].

أما جيش العراق فقد كانت العصبية القبلية فيه أقوى من جيش الشام، ناهيك من أن عليا قد أصبح أسيراً لمن معه من القبائل، ولم يعد بإمكانه أن يتخذ بحق أي فرد من جيشه عقوبة معينة، لقد علم أن خالد بن المعمر السدوسي يكاتب معاوية، فلم يجد

---

(١) انظر وقعة صفين ٣٣، ٧٣، ٧٤، ٢٩٩، ٤٧، ٤٣٢، ومروج الذهب ٢/٢٩٣.

(٢) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٣٠٢، الأخبار الطوال ١٨٩، ابن أعثم، الفتوح ٣/٢٢١.

(٣) ابن أعثم، الفتوح ٣/١٠٧-١١٠، مروج الذهب، ٢/٣٩٤-٣٩٥.

(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٤٤٦-٤٤٧، ابن أعثم، الفتوح، ٣/١٨٠-١٨١.

(٥) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٤٤٩.

أمامه وخوفاً من إثارة ربيعة عليه، إلا أن يجمع قبيلته ويبين لهم ما سمعه عن خالد وخير سيدهم أن كان ما بلغه حقاً فليذهب إلى أي مصر شاء باستثناء الشام[1]. لقد ظهرت سلطة القبائل على علي منذ بداية القتال، فالقبائل أجبرته على الانتقال من مواقعه بعد أن جاء سهم يحذر أهل العراق من تفجير الفرات عليهم، وما أن رحل على من المعسكر حتى نزله معاوية فتحقق علي من الخدعة فقال للاشتر والاشعث: لقد غلبتماني على رأيي[2].

أما القيادة فقد أصبحت بيد روساء القبائل، وهم الذين يعينون مساعديهم فهذا عياش بن شريك يوصي بالقيادة لثلاثة من أتباعه بالتتالي وعياش هذا غطفاني وبنفس هذه الطريقة حدث الأمر في قبيلة نهد[3].

وإذا ثارت العصبية بين القبائل اليمانية وقريش في صفوف معاوية، فقد احتجت القبائل المضرية في العراق على تقديم همدان وربيعة عليها، وزاد من غضبهم أن ربيعة كانت تفتخر بما فعلته لأمير المؤمنين في البصرة وصفين، وتتحدى القبائل المضرية أن تفعل مثلها.

ومن هنا تقدم وجوه تميم وأسد وهوازن وكنانه وقالوا: إن هذا الحي من ربيعة قد ظنوا أنهم أولى بك منا، وإنك لهم دوننا فاعفهم من القتال أياماً، واجعل لكل امرئ منا يوماً نقاتل فيه، فإننا إذا اجتمعنا في الحرب أشبه عليك بلاؤنا في القتال. فاضطر علي أن يوافقهم على ذلك[4].

ورافق ظهور العصبيات القبلية النظريات الاستعلائية عند بعض القبائل. فعندما قتل عبد الرحمن الكندي رجلاً من الشام، وتبين له بأنه عبد ندم على خروجه إليه[5]. ومعاوية بن أبي سفيان لا يقتل عمار بن ياسر إلا بنائل مولي عثمان[6]، وعبيدالله بن

(١) المصدر السابق ٢٨٧-٢٨٨.
(٢) المصدر السابق، ١٩٠-١٩٣.
(٣) المصدر السابق ٢٦٠-٢٦١.
(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٣٠٩-٣١٢، ابن اعثم، الفتوح ٣٣/١٦٤-١٨٦.
(٥) ابن اعثم، الفتوح ٥١/٣.
(٦) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ١٩٨-١٩٩.

عمر قال لعلي: الحمدلله الذي جعلك تطلبني بدم الهرمزان، واطلبك بدم عثمان[1].

وظهر في صفين ايضاً الصراع بين التيار الاسلامي والتيار القبلي. ونلمح ذلك من قول عبدالرحمن بن غنم الاشعري فقيه حمص لأبي هريره وأبي الدرداء:

إنما صـــرتـمــا رســـولين لرجلين من الطلقـــاء الذين لا يحل لهم الخـــلافـــة ولا الشورى[2].

وقال عمار بن ياسر: أيها الناس إن هذه الرايات التي ترونها مع معاوية قد قاتلناها ثلاث مرات وهذه الرابعة والله ما هي بأبرهن ولا أتقاهن[3].

وفي صفين تداخلت العصبية القبلية والعصبية الاقليمية فزاد من شدة القتال في صفين أن العرب لم يخرجوا عن عروبيتهم فهم عرب يعرفون بعضهم بعضاً في الجاهلية، إنهم لحديثي عهد بها، فالتقوا في الاسلام وفيهم بقايا تلك الحمية، وعند بعضهم بصيرة الدين والاسلام فتضاربوا واستحيوا من الفرار حتى كادت الحرب أن تبيدهم. وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء عسكر هؤلاء فيستخرجون قتلاهم ويدفنوهم[4].

وقد اعترف رؤساء القبائل بأن القتال كان بحمية الجاهلية[5]، وبأن بعضها كانت أحن وضغائن انتقلت من الجاهلية إلى الاسلام[6]. لقد التقى الطرفان ومعهم الأعراب والأحزاب فزينت لهم الضلالة وزرع في قلوبهم حب الفتنة[7].

٢- القبائل والتحكيم:

لقد عمق القتال في صفين حقد القبائل على بعضها البعض، كما زاد من حقد

---

(١) المصدر السابق، ١٨٦.
(٢) ابن أعثم، الفتوح ١٩٨/٣.
(٣) المصدر السابق ١٩٨/٣.
(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٢٣٢-٢٣٣.
(٥) ابن أعثم، الفتوح ٢٨٦/٣.
(٦) ابن أعثم، الفتوح ٢٩٤/٣.
(٧) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٢٣٤.

العراق على الشام، والشام على العراق. وقد ظهر ذلك عند طلب أهل الشام أن يخرج علي من صفوفه قتلة عثمان، فخرج من أهل العراق زهاء عشرين ألف وصاحوا صيحة واحدة نحن قتلة عثمان[1].

وعندما لاحت تباشير النصر لجانب علي رفع أهل الشام المصاحف، وما أن رفعت حتى انقسم جيش علي إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ينادي بإجابة القوم إلى كتاب الله وعلى رأس هؤلاء الأشعث بن قيس الكندي. ويذكر أن الأشعث هو الذي أوحى بهذه الفكرة إلى معاوية عندما قال: قد رأيتم ما كان في اليوم الماضي من الحرب المبيرة وإنا والله إذا التقينا غداً إنه لبوار العرب وضيعة الحرمات. فعلم معاوية بالأمر وقال صدق الأشعث، لئن التقينا غدا ليميلن الروم على ذراري أهل الشام، وليميلن دهاقين فارس على ذراري أهل العراق، وما يبصر هذا الأمر إلا ذوو الأحلام اربطوا المصاحف على أطراف القنا[2].

وأيد الأشعث في دعوته هذه فئة القراء وعلى رأسهم مسعد بن فدكي التميمي، وزبيد بن حصين الطائي وقالوا: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان، إنه عرض علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه، والله لتفعلن أو لنفعلن بك[3].

أما الفريق الثاني: فقد أشار بمواصلة القتال وعلى رأسهم علي بن أبي طالب الذي قال: يا أهل العراق امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال[4]. وأيد علي في ذلك الأشتر النخعي، وأصر على مواصلة القتال إلا أن علياً خشي الفتنة فأرسل إليه أن يكف عن القتال، وأصرت قبيلة ربيعة أيضاً على مواصلة القتال وقام كردوس بن هانئ

(١) الدينوري، الأخبار الطوال ١٧٢-١٧٣.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ١٩١، مروج الذهب، ٢/ ٤٧٠.

(٣) الطبري، تاريخ ٥/ ٤٩.

(٤) الطبري، تاريخ ٥/ ٤٨-٤٩.

البكري وقال: يا أهل العراق لايهدؤكم ما ترون من رفع المصاحف فإنها مكيدة[1].

والفريق الثالث: كان متردداً بين مواصلة القتال أو وقفه مثل قبيلة همدان ربيعة.

وبرفع المصاحف تحقق حلم معاوية بانقسام القبائل على علي. وقد ظهر ذلك في اللحظات الأولى لرفعها. فالنخع وخزاعة رأت مواصلة القتال، وربيعة بين راغب ومتردد، والقبائل اليمانية مصرة على وقف القتال فالناس احبوا البقاء وكرهوا القتال[2].

ويمكن ارجاع تغير موقف القبائل اليمانية إلى سببين:

الأول: أن القبائل اليمانية في العراق قاتلت إخوتها يمانية الشام، أما ربيعة العراق فلم تقاتل اختها لأنه لا ربيعة مع معاوية. إضافة إلى أنها تقاتل قبائل حميرية وهي يمانية أيضاً، ناهيك عما أوقعته قبائل ربيعة بيمانية البصرة.

الثاني: أن الأشعث لا زال يحقد على علي منذ عزله عن أذربيجان، زاد الأمر عندما عزله عن راية ربيعة وكندة، فأراد أن ينتقم من علي ولايستبعد أن يكون معاوية قدا اتصل به.

هذه العوامل هي التي دفعت الأشعث أن يهدد علياً إذا لم يوقف القتال بعدم محاربة اليمانية معه وقال: أجب القوم إلى كتاب الله، والا والله لم يرم معك يماني بسهم[3]. وازداد الأشعث تصلباً عندما قابل معاوية وسأله عن الغاية من رفع المصاحب فقال له: الاتفاق.

وأحس علي بحرج موقفه فقال لعدي بن حاتم: أن عامة من معي يعصينني وأن معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه[4] وقال أيضاً: إلا إني كنت أمس أمير المؤمنين وأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهياً، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون[5].

(1) الدينوري، الأخبار الطوال ١٩٢.
(2) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٤٨٢.
(3) ابن اعثم، الفتوح ٣/٢٠٨، مروج الذهب، ٢/ ٤٠١.
(4) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٣٧٤.
(5) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٣٨٤.

لم يقتصر تدخل القبائل على وقف القتال، بل تدخلت أيضاً في اختيار ممثل علي في التحكيم وانقسمت القبائل إلى قسمين المضرية واليمانية وكل منها طرحت مرشحاً عنها، فالقبائل اليمانية وبعد أن علمت بأن مرشح معاوية هو عمرو بن العاص اجتمع رؤساؤها وقالوا: رضينا نحن بأبي موسى الأشعري[1].

وحجتهم في ذلك أنه كان يحذر الناس الفتنة، كما أرادوا أن يكون الحكم محايداً، لا ينتمي إلى فئة معينة. وقالوا لعلي عندما رشح ابن عباس: كأنك تريد أن تكون الحاكم[2].

وربما أن القبائل اليمانية اختارت أبا موسى على اعتباره كونه قاضياً عارفاً بالخصومات، وهو ممن مارس الحكم فترة طويلة غير أن هذه الأسباب تخفي وراءها أموراً أخرى، فإن كانت اليمانية العراقية قد اشترطت هذه الأسباب في مرشحها فلماذا لم يشترطوها في مرشح معاوية، ومن هنا لا أجد غير تفسير واحد لهذا الاختيار وهو العصبية القبلية.

لقد شعرت القبائل اليمانية بأنها تفني أرواحها من أجل رجلين من قريش، فهل سيتركون أمر التحكيم لقريش، أم أنهم يرغبون في أن يكون لهم نصيب في الأمر؟ إن الرغبة في أن يكون لهم نصيب في ذلك كانت الدافع الأول، وقد عبرت اليمانية عن ذلك بصراحة فقال الأشعث: لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة[3].

وعندما قال علي لأهل اليمن: إني أخاف أن يخدع يمنيكم، فإن عمرا ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى. أجابه الأشعث: والله لئن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من اليمن أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان[4].

أما القبائل المضرية فقد وافقت على ترشيح عبدالله بن العباس وحجة علي في ذلك أن القرشي لا يصلح له إلا قرشياً مثله، فعمرو لا يعقد عقدة إلا حلها ابن عباس

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ٢/٤٠١.

(٢) الدينوري الأخبار الطوال ١٩٥.

(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٥٠٠، مروج الذهب ٢/٤٠٢.

(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٥٠٠، اليعقوبي، تاريخ ٢/١٧٨، نهج البلاغة ١/٢٢٨.

ولا يحل عقدة إلا عقدها ولا يبرم أمراً إلا نقضه، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه[١].

وعندما أصرت القبائل اليمانية على موقفها جاء الأحنف إلى علي وحذره من الموافقة على أبي موسى وقال له: إنه رجل يماني، وقومه مع معاوية، إنه رجل قد حلبت أشطره فوجدته قريب القعر كليل المدية[٢]. وطلب من علي أن يبعثه معه إذا أصرت اليمانية على إرساله وقال: فوالله لا يحل لك عقدة، إلا عقدت لك أشد منها، فإن قلت إني لست من أصحاب رسول الله فابعث ابن عباس وابعثني معه[٣].

واستجابه لرغبة اليمانية قدم علي مرشحاً يمانياً هو الاشتر النخعي، غير أن الأشعث لم يقبله وقال: وهل سعر الأرض غير الأشتر، وهل نحن إلا في حكم الأشتر[٤].

وأما هذا الوضع اضطر علي بقبول أبي موسى الأشعري حكماً له.

وإذا نظرنا إلى رفض علي لأبي موسى وجدناه محقاً في ذلك فأبو موسى لم يقبل بخلافة علي إلا بعد تردد، ولم ينضم إليه إلا بعد لأي، أضف إلى ذلك عدم دخوله القتال إلى جانب علي، ثم أنه كان يثبط الناس عنه، فلا يمكن والحالة هذه أن يمثل صاحبه في الحكومة، لأن الحكم يجب أن يمثل المحكم عنه وأن يكون فاهماً بحجته عارفاً بها[٥].

وكادت الفتنة أن تقع بين يمانية العراق ومضريتها عند كتابة كتاب التحكيم فعمرو بن العاص رفض أن يكتب أمير المؤمنين بإيعاز من معاوية الذي قال بئس الرجل أنا إذا أقررت بأنه أمير المؤمنين ثم أقاتله[٦].

فاحتجت مضر على ذلك وقالت لعلي لا تمح اسم "إمارة المؤمنين" فإنا نتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً لا تمحها وأن قتل الناس بعضهم بعضاً، غير أن القبائل

---

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٥٠٠، مروج الذهب، ٢/٤٠٢.

(٢) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٥٠١.

(٣) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة ١/١١٤.

(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٤٩٩، الطبري، تاريخ ٥/٥١.

(٥) يوسف العش، مذكرات ٣٩-٤٠.

(٦) الدينوري، الأخبارالطوال ١٩٦.

اليمانية طالبت بمحوها وقال الأشعث هذا الاسم برحه الله[1]. وخضع علي لليمانية مرة ثانية وحذف الاسم، وكأن الذكريات قد عادت به إلى صلح الحديبية فوافق علي بمحي اسم الإمارة اسوة بما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنه قد تناسى فارقاً مهماً بين النبوة والخلافة، ثم إن قريشاً لم تكن تطالب بحق من رسول الله وإنما كانت تحاربه من أجل مبدأ، فقريش تريد المحافظة على أوثانها أما الرسول فقد اعتبره خطوة نحو القضاء على مقاومة قريش.

أما معاوية فهو يحارب من أجل ثأر، وعلي يعرف أنه خليفة منتخب، أجمعت عليه الأقطار الإسلامية باستثناء أهل الشام، فكيف يمحو هذا اللقب عن نفسه، ولا أبالغ إذا قلت أن علياً قد خلع نفسه من الخلافة عن غير قصد، فقد رضي لنفسه أن يكون مساوياً لمعاوية.

غير أن عليا يعذر من هذه الناحية فهو لا يريد الفتنة، ثم أنه وهو الخليفة الراشدي اعتبر أن خلافته أمراً مفروغاً منها فسواء كتب اللقب أم لم يكتب، فهو خليفة اعترفت به غالبية االأمة، لكن الحقيقة غير ذلك فخصمة لم يعترف بخلافته ومن هنا كان هدفه أن ينفي الخلافة عن علي وأن يأخذ تقريراً بأن عثمان قد قتل مظلوماً.

ولم تقف الفتنة عند هذا الحد، بل كادت أن تقع بين مضر واليمانية عندما أخذ الأشعث يطوف بالكتاب على القبائل فأقبل عروة بن أدية وقال: أين قتلانا يا أشعث وحمل عليه ليضربه لكنه أخطأه فرجع الأشعث واجتمعت إليه القبائل اليمانية، إلا أن رجالات تميم استطاعوا أن يصلحوا ما أفسده عروة[2].

واختلف أهل الشام والعراق أيضاً على من سيبدأ باسمه، فأهل الشام أرادوا أن يكون اسم معاوية قبل علي، لكن أهل العراق وهي المرة الوحيدة التي اتفقوا عليها قد أصروا على أن يبدأ باسم علي قبل معاوية.

ومما تقدم نرى أن اليمانية قد أجبرت عليا في ثلاثة أمور: الأول وقف القتال في صفين، والثاني فرض ابي موسى عليه، والثالث محو اسم الإمارة عن نفسه.

أما عن التحكيم فقد اتفق الفريقان على الاجتماع بأذرح وقبل أن يغادر أبو موسى

---

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٥٠٨، الطبري، تاريخ ٥٢/٥.

(٢) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٥١٣، الطبري، تاريخ ٥٥/٥.

العراق جاءه رجالها وحذروه من ضياع العراق وقالوا:

شريح بن هانئ: أنك قد نصبت لأمر عظيم، لا يجبر صدعه، ولا تستقال فلتته ومهما تقل من شيء لك أو عليك يثبت حقه ويزيل باطله، أنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكها معاوية ولا بأس بأهل الشام إن ملكها علي فانظر في ذلك من يعرف هذا الأمر حقاً[1].

الاحنف بن قيس: إن ضيعت العراق فلا عراق لك، وإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي فخيره أن يختار أهل العراق من قريش أهل الشام ما شاءوا فإنهم إن يولوا الخيار يختاروا من يريدون، فإن أبى فليختر أهل الشام من قريش أهل العراق من شاءوا فإن فعلوا كان الأمر فينا[2].

وبهذا نرى أن هدف أهل العراق الأول أن يحافظوا على عراقهم ولا يهمهم اسم الخليفة بقدر ما يهمهم ان يبقى العراق مركز الصدارة.

أما أهل الشام فقد قال معاوية: إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على ابي موسى وإن أهل الشام راضون بك، وأرجو في دفع هذه الحرب خصالاً: قوة لأهل الشام وفرقة لأهل العراق، وامداداً لأهل اليمن . . . وأضاف، إن خوفك بالعراق فخوفة بالشام، وإن خوفك بمضر فخوفة باليمن.

وقال شرحبيل بن السمط الكندي إنك رجل من قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا لثقته بك وأعلم أنك لا تؤتى من عجز وقد علمت إن وطأة هذا الأمر لصاحبك فكن عند ظننا بك[3].

وبذلك جمع أهل الشام بين العصبية لمصرهم وعصبية لمعاوية بعكس أهل العراق الذين اهتموا بالعراق وحده.

واجتمع الحكمان في أذرح سنة ٣٨هـ/ ٦٥٨م دون أن يتفقا على شيء على حد قول بعض الروايات وعاد الناس كل إلى مصره[4].

(١) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة ١١٥/١.

(٢) المصدر السابق، ١١٦/١.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١١٦/١.

(٤) ابن خياط، تاريخ ١٧٤/١.

وقد كان لقبول علي للتحكيم ضربة قاضية لموقفه في العراق وقد قال بنفسه عن ذلك: إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها، فأبيتم إلا عصياناً فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي؟ والله إني لأعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائه (يريد بذلك الأشعث) وتمثل: بقول دريد بن الصمة:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد[1]

والظاهر أن الأشعث قد أدرك خطأ موقفه وعرف أن القول موجه إليه فلم يتكلم بشيء. وإن صح أن أبا موسى قد خلع علي من الخلافة ليكون الأمر شورى بين المسلمين فحجة علي لرفض التحكيم صحيحة لأنه هو صاحب الحق في الخلافة، بايعه المسلمون ولا يوجد نص في القرآن والسنة ما يلغي خلافته، بل والحكمان أنفسهما لم يتعرضا لأي نص يبين عدم أهلية علي للخلافة. ومن هنا قال علي: إن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله، وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حق معروف فأماتا ما أحيا القرآن وأحيا ما أماته[2].

وكتب إلى الخوارج أيضاً أن هذين الرجلين لم يعملا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكماً فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون[3].

وهذه النصوص لا توضح لنا كيف خالف الحكمان كتاب الله إلا بعزل علي الذي اعتبر نفسه خليفة شرعياً وأن الحكمين اتفقا على أن عثمان قتل مظلوماً وليس لهذه علاقة بتنحية علي عن الخلافة لأنه لم يقتله ولم يشترك في القتل، والأولى أن يردوا إليه الأمر فيفعل فيه حسب ما يقتضيه الشرع لا أن يعزل.

ثم لعل علياً قد استند إلى شيء آخر وهو أن الحكمين أرادا أن يحدثا الشورى فيتفق المسلمون على رجل ينتخبونه، لكن المسلمين لم يقبلوا بذلك، فالذين كانوا مع الحكمين من أصحاب علي وأصحاب معاوية لم ينتهوا في ذلك إلى شيء، ولم يثبت رأى الحكمين في كتاب الله ولم تؤخذ عليه الشهادة فكأنه لم يكن، وبقي الأمر معلقاً

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٢/٤١٢-٤١٣.

(٢) المصدر السابق ٢/٤١٣.

(٣) الطبري، تاريخ ٥/٧٧.

وكأن الطرفين في حل مما رآه الحكمان[1].

الحالة بعد التحكيم:

بعد رجوع الحكمين أخذ كل فريق يستعد للقيام بعملية جديدة ضد الآخر إلا أن علياً اصطدم بظهور حركة الخوارج. وهذه الحركة تمثل العصبية القبلية بأجلى مظاهرها، لقد نبتت جذور هذه الحركة منذ خلافة عثمان، عندما أخذت القبائل تحتج على تسلط قريش عليها. ثم تبلورت في معركة الجمل ونضجت في معركة صفين.

لقد كان خروج هذه القبائل ثورة علي سلطان قريش، فقريش استأثرت بالخلافة ثم هي الآن تقوم بحرب إفناء للقبائل الأخرى لا من أجل شيء سوى الوصول إلى الخلافة.

والمطلع على عناصر الخوارج الذين خرجوا على علي يجد أنهم من قبائل عربية شتى يوحد بينهم هدف واحد وهو مناهضة قريش في بادئ الأمر. ومعظم هؤلاء من فئة الأعراب الذين جاءوا مع الفتوح واستقروا في الأمصار الجديدة.

وخروج الخوارج لم يكن من أجل التحكيم، وإذا كان من أجله فكيف استطاعوا أن يقرروا أن نتيجة التحكيم ستكون لغير صالح علي، وإن اعتقدوا بادى الأمر في ذلك فما الداعي لعودتهم مرة ثانية إلى صفوف علي ثم الخروج عنه بعد فشل التحكيم. إن أسباب خروجهم وعودتهم وخروجهم ما هي إلا مظاهر خارجية اخفوا وراءها نواياهم الحقيقية للخروج وهي كما قلت الثورة على سلطان قريش.

إن الخوارج الأوائل لم يكونوا من القراء كما يظن البعض، بل إن هؤلاء القراء ربما قد انضموا فيما بعد، فالطبري يذكر بأنهم: أعاريب بكر وتميم[2]. والمستورد بن علفه يقول عنهم: ما رأيت قوماً كانوا أظهر ضلالة ولا أبين شؤماً من هؤلاء الذين ترون (الخوارج)[3] وذكر أبو مخنف ونصر بن مزاحم على أنهم كانوا من قبائل بكر وتميم وهمذان ومن عنزه وراسب ويظهر أن بعضهم قد اشترك في الثورة على عثمان، أو أن

(1) يوسف العش، مذكرات ٤١.
(2) الطبري، تاريخ ٥/٦٦.
(3) المصدر السابق ٥/١٩٢.

بعضهم هدد علياً حين تلكأ في قبول التحكيم وقالوا له: أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت وإلا قتلناك كما قتلنا عثمان[1].

ولذا فإنه لا يستبعد أن يكون خروج بعضهم فراراً من العقوبة أو خشية الصلح بين علي ومعاوية وعندها ستدور الدائرة عليهم.

لقد جاءت دعوة الخوارج في بادئ الأمر تدعو إلى الشورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذه الحجة لم يبين الخوارج أنفسهم ما المقصود منها، وهي في ذاتها غامضة، ولا يستنتج منها إلا أنهم أرادوا أن يكملوا الدور الذي خرجوا من أجله منذ الثورة على عثمان وهو محاربة سلطان قريش[2].

ويظهر منطق الخوارج الضعيف من الحوار الذي دار بين ابن عباس وبين الخوارج فقد قال لهم ابن عباس: هاتوا ما نقمتم على صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار وعليهم نزل القرآن وليس فيهم أحد منكم[3]. ولما رد ابن عباس على اعتراضاتهم قال بعضهم لبعض: لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم: بل هم قوم خصمون[4].

وأمام هذا المنطق الضعيف حاول علي عبثاً أن يقنعهم بأنهم كانوا السبب في حكومته ولما أصروا على موقفهم كان لا بد من قتالهم. فحول وجهة استعداده من الشام إليهم. وقبل القتال بعث إليهم قيس بن سعد، وأبا أيوب الأنصاري إلا أن الخوارج لم يرضوا عن القتال بديلاً وكانت وقعة النهروان سنة ٣٨هـ حيث قتل معظمهم وأسر الباقون ودفعوا إلى عشائرهم[5].

وعلى الرغم من انتصار علي على الخوارج إلا أن موقفه بالعراق أخذ يسوء أكثر فأكثر ففروة بن نوفل الأشجعي ذهب إلى حلوان وصار يجبي خراجها. وانتقض عليه أهل الأهواز وطمع أهل الخراج في كسره، وأخرج سهل بن حنيف من فارس وامتنع

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ٥٦٠، نهج البلاغة ٥٨٦/١، الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ٥٩.

(٢) بيليايف، العرب والاسلام والخلاف العربية ٢٠١.

(٣) ابن الجوزي، تلبيس ابليس، النهضة المصرية ١٩٢٨: ٩١-٩٣.

(٤) المبرد، الكامل في اللغة طبعة رايت ٥٨٣، الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ٦٠.

(٥) الدينوري، الأخبار الطوال ٢١٣، الطبري، تاريخ ٨٨/٥.

عرب البحرين عن دفع الخراج وارتد بعضهم إلى النصرانية[1].

على أن الضربة القاصمة لعلي جاءت عندما خرجت مصر من بين يديه فقد رأينا أن علياً قد أجبر على عزل قيس بن سعد عن مصر، وأن قيساً عين محمد بن أبي بكر نائباً عنه وتوجه إلى المدينة.

وبعد أن تسلم محمد الأمر لم يسمع لنصيحة قيس بالإبقاء على حياد من تجمع في خربتا، بل طلب بيعتهم مما جعل اثني عشر الفا يتظاهرون عليه، ولما ازداد موقف محمد بن أبي بكر في مصر سوءاً فكر علي في بعث رجل يضبط له أحوال مصر، فوقع اختياره على الأشتر النخعي لسببين:

الأول: أن قبائل مصر هي قبائل يمانية، والأشتر يماني مثلهم، فربما ستكون عصبيتهم له سبباً للالتفاف حوله كما فعل قيس بن سعد من قبل[2].

الثاني: إن قوة الأشتر أخذت تزداد بين صفوف جيش علي، فأراد علي أن يتخلص منه وقد جاء ذلك على لسان عبدالله بن جعفر حيث قال: ابعث الاشتر فإن ظفرت فهو الذي تحب وإلا استرحت منه[3]. ومن هنا أرسله علي إلى مصر غير أن جنود معاوية وهم هذه المرة من العسل قد صادته عند بحر القلزم فمات مسموماً ولم يدخل مصر على حد قوله بعض الروايات[4].

لقد انتفضت القبائل اليمانية على محمد بن أبي بكر وخاصة أن زعماء العثمانية كانوا منهم فكان ذلك مشجعاً لمعاوية ليتقدم للسيطرة على مصر. ثم أن محمداً أخذ بذم اليمانية وهدم دور بعضهم وسجن البعض الآخر، فاتفقوا على قتاله.

وبهذا الاجراء أثبت محمد بن أبي بكر فشلاً ذريعاً فهو لم يستطع أن يحافظ على التوازن القبلي الذي حققه قيس بن سعد.

ولما ساءت حالة مصر تقدم عمرو بن العاص إليها واستطاع هزيمة محمد في

---

(1) الطبري، تاريخ ١٢٦٥/٥.

(2) ابن حبيب، أسماء المغتالين من الأشراف ٣٩.

(3) الكندي، الولاة ٢٣.

(4) الكندي، الولاة ٢٤.

المسناة، ووصفها عمرو بن العاص بأنها كانت من أشد أيامه حرباً[1]. وبعدها دخل عمرو الفسطاط، ولم يجد محمد إلا قبيلة غافق ليلتجئ إليها. وقد حاول عمرو بن العاص أن يتجنب سفك دمه إلا أن اليمانية وعلى رأسهم معاوية بن حديج أصروا على قتله ثأراً لمن قتل من قبيلته[2].

ويسقوط مصر فقد علي قاعدة من أكبر القواعد التي كانت تابعة إليه، وقد خسرها بسبب قبائل الكوفة التي أجبرته على عزل قيس بن سعد.

وعندما وصلته أنباء الوضع في مصر حاول أن يستنهض أهل العراق وقال: إن مصراً أعظم من الشام، وأكثر خيراً وأكثر أهلاً، فلا تغلبوا على مصر، فإن بقاء مصر في أيديكم عزلكم وكبت لعدوكم[3]. إلا أن أهل العراق لم يستجيبوا لذلك، وعندما سقطت قال:

أقوم فيكم بالرأي المصيب فاستصرخكم علنا، وأناديكم نداء المستغيث معرباً فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءه فأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر[4].

وازداد موقف علي حرجاً خاصة عندما رأى تثاقل أهل العراق في خروجهم لحرب أهل الشام، فالبصرة عثمانية ناقمة، ومصر خسرها، والكوفة مترددة في ولائها، ومع ذلك أصر على غزو الشام، فأرسل إلى عبدالله بن عباس واليه على البصرة حتى يجمع له أهل البصرة ويخرج بهم إلى أهل الشام وكانت الصدمة عندما لم ينهض معه إلا الأحنف بن قيس في ألف وخمسمائة رجل ومقاتلة البصرة يوم ذاك ستون الف عدا العبيد والموالي[5].

أما الكوفة فقد قالت اليمانية فيها: إن نبالنا قد نفذت، وأن سيوفنا قد كلت وأن رماحنا قد نصلت فارجع بنا إلى مصرنا لنستعد بأحسن عدتنا. فرجع علي بالناس حتى نزل النخيله فعكسر بها فأقاموا أياماً إلا أن غالبية أهل الكوفة قد بدأوا يتسللون إلى

(١) المصدر السابق ٢٧.
(٢) الطبري، تاريخ ١٠١/٥.
(٣) المصدر السابق ١٠٧/٥.
(٤) المصدر السابق ١٠٨/٥
(٥) الطبري، تاريخ ٧٨/٥-٧٩.

مـدينتهم، حتى أنه لم يبق معه إلا زهاء ألف رجل من الوجوه، فلما رأى ذلك عاد أدراجه إلى الكوفة[1].

وجاء خروج ابن عباس من البصرة وأخذه مالها ليزيد من متاعب علي، لقد أخذ ابن عباس مالاً كثيراً من بيت مال المسلمين، فقال له أبو الأسود الدؤلي: لو بعثت به إلى علي لاستعان به على أمور المسلمين فأغلظ ابن عباس له، فكتب أبو الأسود إلى علي بذلك فأمر علي ابن عباس بحمل الأموال مع مولاه. إلا أن ابن عباس شتم مولى علي، واستقر رأيه بعد ذلك على الخروج من البصرة. فأخذ المال وخرج معه مائتي رجل من قيس[2] ولولاهم لفتكت به تميم والأزد.

ولما علم علي بذلك كتب إليه: إني أشركتك في أمانتي، ولم يكن أحد من أهل بيتي أوثق عندي ولا أرجى لمواساتي منك، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب والعدو قد حرب، والأمة فتنت قلبت ظهر المجن وخذلتني فلا إمامك آسيت، ولا للأمانة أديت، كأنك لم ترد بعملك الله، وكأنك كنت تكيد الأمة عن دنياها فلما أمكنتك الفرصة عاجلتهم الشدة، فاختطفت ما قدرت عليه غير متحرج عن أخذها . . .

وذكر له أن المال الذي استولى عليه ليشتري به مولدات من الطائف هو مال الأيتام والأرامل والمساكين. وبين أيضاً لو إن الحسين والحسن فعلا ما فعل فلا أخذته بهما شفقة ولا هواده. وكان جواب ابن عباس أن حقه أكثر مما أخذ[3].

وخروج ابن عباس شجع والي البحرين عبدالله بن سوار بن همام العبدي أن يفعل فعله ويهرب[4].

وهكذا انتفضت البلاد على علي من جميع الجهات، إلا أنه لم ييأس.

أما معاوية فقد أخذت قوته تتعاظم، فما أن عرف ما فعله ابن عباس في البصرة حتى حاول أن يمد أصابعه إليها، فأرسل في سنة ٣٨هـ عبدالله بن الحضرمي وأوصاه أن ينزل في مضر وأن يحذر ربيعة ويتودد إلى الأزد. ولما جاء ابن الحضرمي إلى البصرة أرسل زياد بن أبيه -وكان ابن عباس قد استخلفه عليها- إلى الحضين بن المنذر ومالك

(١) المصدر السابق ٥/٨٩.

(٢) أبو هلال العسكري، الأوائل، ٢٣٠-٢٣١.

(٣) المصدر السابق، الأوائل ٢٣١.

(٤) المصدر السابق، الأوائل ٢٣١.

بن مسمع يطلب إجارته غير أن مالك بن مسمع- وكان هواه في بني أميه لم يعط جوابا قاطعاً. ولما رأى زياد تثاقل ربيعة عن نصرته وإجارته توجه نحو الأزد.

ولما قبلت الأزد إجارته نقل بيت المال إلى دار صبرة بن شيمان الأزدي، وحول المنبر إلى مسجد الحدان (من الأزد)(١).

وبعد هذه الاستجاره حاول زياد أن يكشف النوايا الحقيقية للأزد، هل سيقاتلون معه إذا جاءتهم تميم أم يسلمونه فقال لهم: يا معشر الأزد أن تميماً تزعم أنهم هم الناس، وأنهم أصبر منكم عند اللقاء، وقد بلغني أنهم يريدون أن يسيرو إليكم وقد أجرتموني وبيت مال المسلمين. فقال صبرة بن شيمان وكان مفحماً أن جا أحنف جيت، وإن جاحتات جيت، وإن جاشبان ففينا شبان(٢). ولما أيقن زياد من نصرة الأزد له كتب إلى علي يخبره بواقع الحال فأرسل علي إليه أعين بن ضبيعة المجاشعي في جمع من قومه إلا أن مصيره كان القتل.

ولما رأى زياد ذلك أراد قتال تميم، إلا أن تميماً جاءت إلى الأزد وقالوا: إنا لم نعرض لجاركم ولا لأحد من أصحابه فما تريدون إلى جارنا وحربنا، فكرهت الأزد القتال وقالوا: إن عرضوا لجارنا منعناه وإن هموا فما كففنا عن جارهم(٣)

وبعد ذلك أرسل علي قائداً تميمياً وهو جارية بن قدامه فجاء إلى قومه وحذرهم الغدر فأجابه أكثر تميم، ومن هناك سار إلى ابن الحضرمي فأحرق عليه دار ابن سبيل ومن معه وكانوا ما بين ٤٠-٧٠ رجلاً(٤).

وهكذا تخلت تميم عن جارها أمام عصبيتها، فقد رأت أنه ليس من الحكمة أن تقتل تميم الكوفة تميم البصرة من أجل ابن الحضرمي ومن أجل معاوية فسلمت جارها لقمة سائغة إلى أحد ابنائها.

أما تحول تميم عن علي فربما يرجع إلى أن معاوية استطاع الاتصال مع الأحنف بن قيس، ويؤيد ذلك أنه لم يظهر له أثر في فتنة ابن الحضرمي(٥).

---

(١) البياسي، الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام، ٥٩/٢.

(٢) المصدر السابق ٥٩/٢.

(٣) المصدر السابق، ١٥/٢.

(٤) الطبري، تاريخ ١١٢/٥، البياسي، الاعلام بالحروب ١٦/٢.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٨٧/٣.

غير أن فشل معاوية في البصرة لم يقعده عن إرسال الغارات على أطراف العراق والجزيرة حتى وصل بعضها إلى عين التمر وهيت والأنبار والمدائن وتيماء كما وصلت قواته إلى الحجاز واليمن.

وفي إحدى الغزوات لعبت العصبية القبلية دورها في نجاح جيش معاوية فعندما وجه عبدالله بن مسعدة الفزاري في الف سبعمائة رجل إلى تيماء أرسل إليه علي حملة بقيادة فزاري هو المسيب بن نجبه الفزاري، فسار المسيب حتى لحق ابن مسعده في تيماء، فحمل المسيب على ابن مسعده فضربه ثلاث ضربات كل ذلك وهو لايريد قتله، ويقول له النجاء، النجاء.

وبعد أن تمكن المسيب من حصارهم في داخل حصن كذب على جنده وقال: قد جاءتني عيون فأخبروني أن جنداً قد أقبل من الشام فطلب من جنده أن يجتمعوا في مكان معين مما يسهل الأمر أمام خروج ابن مسعدة من الحصار، ولما اكتشف اصحابه حقيقة الأمر طلبوا منه أن يسيروا في طلبهم إلا أنه رفض ذلك[1].

وأمام تطور الأحداث أراد علي أن يضع حداً لهذه الغارات فجمع جيشاً قوامه أربعون ألف ليتوجه به إلى الشام إلا أن اغتياله على يد رجل يماني هو عبدالرحمن بن ملجم المرادي قد أفسد كل شيء. وذلك في ٢٣ رمضان سنة ٤٠هـ. وبعد موت علي بويع لابنه الحسن، غير أن الحسن يأس من أهل العراق فبعث إلى معاوية بطلب الصلح.

وقد كان الحسن مصيباً في تنازله عن الخلافة للأسباب التالية:

- لأنه كره قتال المسلمين وبهذا يقول: لست بمذل المؤمنين ولكن كرهت أن أقتلكم على الملك[2].
- تفرق أهل العراق عنه لاسيما وأنه أصبح محاصراً في المدائن من قبل عبدالله بن عامر بن كريز[3].
- كتب رؤساء العراق إلى معاوية بالطاعة سراً ووعدوه بتسليم الحسن، وما أن علم الحسن بذلك حتى أسرع بطلب الصلح إلى معاوية[4].

(١) الطبري، تاريخ ١٣٩/٥.
(٢) الدينوري، الأخبار الطوال ٢٢٢.
(٣) الذهبي، دول الاسلام ١٠٩.
(٤) الدينوري، الأخبار الطوال ٢١٩.

ويؤيد ذلك أن معاوية بعث إليه: وقد جاءتني كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم[1]. وقوله أيضاً له: احذر أن تكون منيتك على أيدي رعاع من الناس[2].

- على أن السبب المباشر هو أن الحسن لم يختر عناصر جيشه بنفسه فقد كانوا أخلاطاً من الناس من شيعته وشيعة أبيه وبعضهم من المحكمة الذين يودون قتال معاوية، وبعضهم كان يطمع في الغنائم والبعض الآخر من أصحاب العصبية[3] أما جيش معاوية فقد طهر من آثار العصبية القبلية.

مما تقدم نرى أن قبائل العراق خذلت علياً وقبائل الشام نصرت معاوية، فقد كان لمعركة الجمل والنهروان وعنجهية القبائل العراقية أثرها في إضعاف مركز علي، وكان لتماسك قبائل الشام أثره في تقوية مركز معاوية.

وبمقتل علي انتهى الصراع الطويل بين الأمويين والهاشميين ولكن إلى حين، لقد انتهى الصراع بانتصار الأمويين وبانتصار السياسة الشامية وخذلان العراق والسياسة العراقية.

لقد قام نزع طويل، غير أن هذا النزاع لم يكن نزاعاً بين الأسس الدينية والأسس الدنيوية وإنما هو نزاع بين القوى القبلية وبين التيار الاسلامي الذي آمن به علي بن أبي طالب وهو في أبسط صورة يقوم على احترام الأسس الدينية التي تقوم عليها الجماعة[4].

كان علي راشدياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وراشديته هذه لم تمكنه من التوفيق بين البيئة القبلية التي أخذت تزداد وضوحاً بين أهل العراق وبين الاتجاهات الاسلامية الصحيحة.

لقد أراد علي أن يسير وسط التيارات القبلية حسب قواعد النهج الراشدي غير أن القبائل ذات النزعة الاعرابية لم يعجبها ذلك فمنذ معركة الجمل أظهرت استياءها لأن علياً منعها الغنائم.

---

(١) ابن الصباغ، الفصول المهمة، الخربوطلي الدولة العربية الإسلامية ١٦٠.

(٢) الأصبهاني، مقاتل الطالبين ٦٠.

(٣) ابن الصباغ، الفصول المهمة ١٤٢ الخربوطلي،العراق في العهد الأموي ٧٣.

(٤) جب، دراسات في حضارة الاسلام، ١٠.

أما معاوية فقد قام دعوته على أساس قبلي، بطلب الثأر لعثمان وصور للقبائل الشامية علياً قد مالأ على قتل عثمان. فقام طالباً بدمه داعياً للثأر[1].

وعندما جاء الحسن أوضح عبدالله بن العباس الطريقة التي تصلح مع أهل العراق فبعث إليه: . . . اشتر من الظنين دينه بما لا يثلم دينك، وول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم[2]. لكن هذه السياسة لم يكن علي ليسمح لنفسه أن يسير عليها وقد رأينا ماذا كتب لابن عباس عندما أخذ بيت مال البصرة معه، فعلي لا تؤخذه في الحق لومة لائم حتى ولو كان المخطيء الحسن أو الحسين.

لقد اتبع معاوية سياسة المنح والمنع في الأموال حتى أن الرجل كان يقول لابنه هلم إلى الشام والأموال الكثيرة مع معاوية[3].

وكان لا يبخل إذا رأى أن المصلحة تتطلب ذلك فعندما احجمت قبيلة عك عن القتال حتى يفرض لها وافق في الحال. وقد عادت هذه على معاوية بأمرين: إن هذه القبائل أظهرت بلاء حسناً حتى لا تشمت بها مضر، ثم أنها زعزعت نفوس أهل العراق حتى أنه لم يبق خلق من أهل العراق من كان في قلبه مرض أوشك إلا وطمع في معاوية وشخص بصره نحوه أو همّ أن يصير إليه[4].

أما سياسة علي المالية فقد قامت على عدم المفاضلة بين الأشراف والموالي، ولما ضج الناس لإعطائه الموالي كالصلبية: قال قرأت ما بين الدفتين فلم أجد لولد اسماعيل على ولد اسحاق فضل[5].

وعندما قيل له فضل الاشراف من العرب وقريش على الموالي قال: أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الاسلام[6].

ومن الطبيعي أن ذلك لا يعجب رؤساء العراق فكان ممن يقعد عن نصرته أكثر ممن

---

(١) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ٦٠.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٩/١.
(٣) ابن أعثم، الفتوح ١٣٦/٣.
(٤) المصدر السابق ٢٢٢/٣.
(٥) اليعقوبي، تاريخ ١٧٣/٣.
(٦) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١٣٢/١.

ينصره، بل وبعضهم هرب إلى معاوية كمصقلة بن هبيرة وبعضهم فكر في ذلك كالأشعث بن قيس[1].

لقد منعت راشدية علي أن يجاري رؤساء العراق، فبعد انتصاره في معركة الجمل بادر إلى عزل الرؤساء عن الولايات التي كانوا عليها في زمن عثمان كجرير بن عبدالله البجلي والأشعث بن قيس، وهذا مما كان له أثر فيما بعد في موقف هذين الزعيمين.

لم يكن اخفاق علي لضعف في رأي أو معرفة، إنما مرجع ذلك إلى أنه آمن بالسياسة الراشدية، وطبقها أفضل تطبيق في عصر مضطرب وقد أدرك علي ذلك فعندما سأله رجل لماذا اختلف عليك المسلمون، ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر قال له: لأنهم كانوا والين علي مثلي وأنا اليوم والي على مثلك يشير بذلك إلى وازع الدين[2]. لقد كان الصراع بين علي ومعاوية ليس صراعاً حق وعدل، بل صراع عصرين، العصر الإسلامي، والعصر القبلي.

وقد رافق ذلك تغيرات في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فالراشدون زهاد ومتقشفون أما عصر علي فقد كان عصر ثورة عمت الناس وغيرت ظروف حياتهم[3].

وربما أن هناك من يسأل أين تقف راشدية علي من قتله عثمان؟ والجواب على ذلك أن علياً قد بين للصحابة الصعوبات التي كانت تعترض تطبيق العقوبة الفورية، وبين أنه سيقتص منهم بعد أن تثبت وتهدأ الحال، لكنه بعد معركة الجمل أدرك أن الزمن قد فاته إضافة إلى أن سفك دم كثير من قتله عثمان قد أثار النعرات القبلية عند قبائل القتلة. فكان لا بد من إيقاظ فتنة عظيمة إذا نفذت العقوبة في الباقين من القتلة وبهذا يقول الغزالي: على أن تسليم قتلة عثمان على كثرة عشائرهم واختلافهم يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب[4].

لقد أصبح معاوية بعد مقتل علي رجل ذلك العصر ومن هنا نجح من حيث أخفق غيره، لقد استغل معاوية المال واستغل العصبيات القبلية حتى توصل إلى غايته.

---

(١) الطبري، تاريخ ١٢٩/٥.
(٢) ابن خلدون، مقدمة ٢١١.
(٣) يوسف العش، مذكرات ٤٦.
(٤) الغزالي، احياء علوم الدين، ١٠٢/١.

لقد أدرك علي في النهاية أثر العصبية القبيلة فقال: عشيرة الرجل خير للرجل من الرجل للعشيرة إن كف عنهم يدا واحداً كفوا عنه أيدي كثيرة مع مودتهم وحفاظهم ونصرتهم. واضاف أن الله ما بعث نبياً بعد لوط إلا في منعة من قومه ومنعة من عشيرته فشعيب كان ضعيفاً ولم تمنعه إلا عشيرته ورهطه[1].

لقد التفت علي حوله في النهاية فرأى أن ابن عمه قد خذله، وقريش قد باعدته والبصرة متذمرة منه والكوفة غير صادقة في ولائها ومن هنا تذكر أمر العشيرة وفوائدها.

وهكذا فقد أسفرت الفترة التاريخية من ٣٥هـ- ٤٠هـ عن حادث جديد وهو انتصار الأمويين ووصولهم إلى دفة الحكم.

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٨٣/٢.

الفصل السادس
العصبية والتيارات القبلية في العهد السفياني

معاوية والعصبيات القبلية
معاوية والأسرة الأموية
معاوية وقبيلة قريش
معاوية ورؤساء القبائل العربية
معاوية والأمصار
معاوية وولاية العهد
يزيد بن معاوية والتيارات الحزبية والقبلية
الأحداث في عهد يزيد
وقعة كربلاء
وقعة الحره (الصراع بين الشام والحجاز)
الفتن القبلية بعد وفاة يزيد في
العراق
خراسان
مصر
الشام

معاوية والعصبيات القبلية:

إن من أهم النتائج التي تمخضت عنها الفتنة الأولى في الإسلام هي وقف حركة الفتوحات الاسلامية في شرق الدولة الاسلامية وغربها، وانقسام الأمة إلى شيع وأحزاب متناحرة متطاحنة وانتصار التيار القبلي على التيار الاسلامي ومبايعة معاوية بن أبي سفيان الذي نهض يطالب بثأر عثمان بالخلافة وذلك في شهر ربيع الآخر أو في جمادى الأولى سنة ٤١هـ[١] ٦٦١م. وسمي العام الذي بويع بعام بالخلافة بعام الجماعة.

وهناك من اعتبر ذلك العام عام فرقة وقهر وجبرية وغلبه، وفيه تحولت الإمامة ملكاً كسروياً والخلافة عضداً قيصرياً[٢].

ومع التسليم بهذا القول، وأن معاوية انتزى على الأمة وأخذ الخلافة بالسيف دون مشورة[٣]، إلا أنه لم يعد باستطاعة السابقين في الاسلام والذين تتجه إليهم الأنظار أن ينهضوا في خضم هذه الفتن، فسعد بن أبي وقاص اعتزل الفتنة، وابن عمر زاهد في الخلافة إلا إذا جاءت إليه، وسعيد بن زيد لم يرشحه عمر أصلاً للخلافة. وأمر الخلافة لم يعد بيد أهل المدينة، بل أصبح في مركز الأمصار وبما أن الشام قد أصبح أقوى هذه المراكز فلا عجب من أن يكون معاوية الخليفة.

لقد أصبح معاوية مدعوماً بأكبر قوة عسكرية مطيعة له، حاول أن يجنبها إلى حد ما من آثار العصبية القبلية، هذه القوة كانت أكبر عون له لتحقيق مآربه، وأهمها طلب الخلافة. إضافة إلى أن الروم قد اعترفوا بمعاوية كمسؤول في الدولة الاسلامية وتفاوضوا معه في شأن وقف الاغارات على حدود الدولة الاسلامية مع دفع الأتاوة لهم.

ومع القوة العسكرية واعتراف الروم به أصبح معاوية زعيم بني أمية وزعيم قريش دون منازع، ويظهر ذلك من أن ثلاثة عشر راية من راياتها كانت تقاتل إلى جانبه، وبما أنه قد أصبح زعيم قريش فلا بد والحالة هذه أن يكون خليفة للمسلمين.

---

(١) ابن خياط، تاريخ ١/١٨٧.
(٢) الجاحظ، رسالة في معاوية ١٤.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١/١٤١.

وبعد صلح معاوية مع الحسن وجد معاوية أمامه ثلاث مسائل، فكان عليه أن ينتهي منها بالحال وهذه المسائل هي: موقف قيس بن سعد، والخوارج، وزياد بن أبيه.

أما بالنسبة لموقف قيس، فقد استطاع معاوية أن يكسبه إلى جانبه وتأمين أصحابه، وبالنسبة للخوارج اتبع معاوية سياسة "المنح والمنع" مع أهل الكوفة، وقال لهم لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج يقاتلونهم، وعندما قال الخوارج: ويحكم أليس عدونا وعدوكم أجابوهم أنه يهددنا بمنع العطاء. وظهر أثر القبلية في أمر الخوارج، بأن القبيلة أصبحت تأتي إلى أفرادها وتأخذهم من صفوف الخوارج كما فعلت قبيلة أشجع التي أخذت فروة بن نوفل وأدخلته الكوفة قهراً[1].

والمسألة الثالثة، استطاع معاوية أن يكسب زياد بن أبيه إلى جانبه بعد أن تدخل في عملية اقناعه المغيره بن شعبه الثقفي، وكان الحاح معاوية على أخذ بيعته بسرعة خوفاً من أن يقوم زياد ويدعو لرجل من آل البيت.

انتهى معاوية من المسائل التي واجهته عند بداية خلافته، فكان عليه أن يعيد تنظيم الدولة الاسلامية التي مزقتها الحروب والفتن، غير أن أمامه تيارات تتصارع وقبائل تتنافر، وبطون تتنافس، فإن لم يحسن السياسة معها ستنقلب عليه وخاصة ما كان من أمر العراق حيث هناك الأحزاب المتعددة والاتجاهات المتباعدة.

والحجاز الذي ينظر إلى معاوية نظرة من تعدى طوره، وتسلم قيادة الأمة وهناك من هو أحق منه بهذا الأمر. وحتى في الشام ذات القبائل المتعددة -وإن كانت أمراض العصبية القبلية لم تنتشر بها كانتشارها في المناطق الأخرى كان عليه أن يحسن معاملة هذه القبائل. لقد أدرك معاوية واستوعب هذه التيارات والاتجاهات فكان دوماً سيد المواقف جميعها دون منازع.

إن طبع معاوية وصفاته النفسية وعقليته كانت في المستوى الذي يؤهله أن يقوم بأعباء الدولة الإسلامية لا سيما وأنه أمضى وقتاً طويلاً في الشؤون الإدارية فاكتسب صفات ومؤهلات لم تتوفر لغيره.

كان أهم ما يميز معاوية أنه حليماً ذا هيبة، يقهر حلمه غضبه ويغلب جوده منعه

(١) ابن الأثير، الكامل ٤٠٩/٣ (دار صادر، بيروت).

يتغاضى عن كل شيء إلا أمر الخلافة[1].

اتخذ معاوية سياسة تجمع وتنسق بين مصالح القبائل ومصالحه الخاصة ناستأنف سياسة الحرب وتوزيع الغنائم وصانع رؤوس العرب وقروم مضر بالأغضاء والاحتمال، والصبر على الأذى والمكروه[2].

كان معاوية بعيد الغور هادئ الأعصاب، مثال السياسي الطويل النفس لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ولا يضع سوطه حيث يكفيه لسانه، ولو أن بينه وبين الناس شعرة ما انقطعت إذا شدوها أرخاها، وإن أرخوها شدها[3].

كل ذنب موضوع ما خلا القدح بالملك، وعندما أغلظ له رجل قال: إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا[4].

لذا لا عجب أن يقال عنه أنه سائس الناس ومدبر أمورهم لأن السياسة تحتاج إلى سعة الصدر واستشعار الصبر واحتمال سوء أدب العامة وافهام الجاهل[5].

كان معاوية عارفاً لنفسيات شعبه وأحوالهم، يتلون لهم حسب اللون الذي يرتدونه، فأقبل الناس عليه مختارين فكان أن اطلق عليه رجل التأنى ورجل الصبر.

نظم معاوية علاقته بأسرته أولاً وبقريش ثانياً وبرؤساء القبائل ثالثاً، ثم أحسن اختيار ولاته رابعاً ومع هذه الأطراف تعامل معاوية بمنتهى الدقة والحذر. وبحذره وحسن سياسته أثبت أنه رجل عصره.

كان معاوية يتصرف مع هؤلاء كسيد عربي مع سؤدد وعظمة وهيبة وفصاحة في اللسان، لا يدع إنساناً يسبقه في بلاغته إلا متغاضياً عنه أو متساهلاً أو متواضعاً. لقد كانت سياسته سياسة عملية يعرف من أين تؤخذ الغنيمة، وكل شيء عنده يلبس لباس السياسة على أنه لباس زاه جميل[6].

---

(1) يوسف العشي، مذكرات ٥٠.

(2) ابن خلدون، العبر، ٣/ ٤، بولاق.

(3) انظر البلاذري: انساب الأشراف، جـ٤، قسم ١/ ١٧، عيون الأخبار ١/ ٩.

(4) انظر البلاذري: انساب الأشراف، جـ٤، قسم ١/ ٣٩، ٧٥، النويري، نهاية الأرب ٦/ ٤٣.

(5) ابن قتيبه عيون الأخبار ١/ ٢٨.

(6) يوسف العش، مذكرات ٥٠٠.

معاوية وأسرته:

نظر معاوية إلى الأسباب التي أدت إلى الثورة على عثمان فرأى أن تولية عثمان لأقاربه كانت في مقدمة هذه الأسباب، حيث رأت القبائل أنها قد أصبحت تحت قبضة رجال من بني أمية، كما علم أيضاً أن احتجاج القبائل على التعصب للأقرباء قد وجه إلى علي أيضاً، فلا بد والحالة هذه أن يتعامل مع القبائل ومع أقربائه بحساسية تامة، فهو لا يرغب في إثارة العداء القبلي عليه، ثم هو لا يريد أن يكون أسيراً لقبيلته ولأسرته.

اعتز معاوية ببني أمية كثيراً فسعيد بن العاص عنده سيد قريش دون منازع، ومروان بن الحكم رجلها، وعبدالله بن عامر بن كريز فتاها مالا وتوسعاً[1]. غير أن هذا الاعتزاز لم يتبعه تولية بني أمية ولايات يخشى معاوية خطرها، لقد اقتصر دور بني أمية في شؤون الدولة الاسلامية على أمرين: الحج فلم يول عليه طيلة حكه غير أموي[2]. وولاية الحجاز، فقد تعاقب على هذه الولاية رجالات بني أمية أمثال عتبة بن أبي سفيان وخالد بن العاص، وعبدالله بن خالد بن أسيد، ومروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان[3] ونظرة على حكم هؤلاء الولاة نرى أن معاوية كان يعاقب بين رجالات بني أمية في ولاية الحجاز وأهمهم سعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، فمروان يتسلمها سنة وفيه شدة وغلظه وسعيد سنة أخرى وفيه لين وعريكه وحلم وصفح[4].

ومع ترك ولاية الحجاز لبني أمية، إلا أنه لم يترك لهم مجالاً للاجتماع عليه. لقد كان يغري بين رجالات بني أمية فمرة يطلب من مروان أن يقبض أموال سعيد بن العاص، وتارة أخرى يطلب من سعيد أن يهدم دار مروان. كل ذلك حتى يبقى معاوية فوق آل أبي العاص.

لقد خشي معاوية بني العاص كثيراً فكان لا يولي الحجاز أحداً منهم إلا إذا لم يجد من هو كفؤاً من بني حرب، وكان معاوية يعين رجالات بني حرب على الطائف فإن

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ٢٣/١.
(٢) اليعقوبي، تاريخ ٢٢٧/٢.
(٣) انظر: زامباور، معجم الأنساب ٢٧، ٣٥.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣١/٧، ابن حجر، الإصابة ٤٩/٢.

أثبت كفاءة ولاه مكه فإن أحسن الولاية جمع له المدينة[1].

ظهر تطلع آل أبي العاص إلى الخلافة عندما عزل معاوية مروان بن الحكم سنة ٤٩هـ، فجاء إلى معاوية وقال له: والله ما أنصفتنا ولا جزيتنا جزاءنا، فقد كانت السابقة من بني عبد شمس لآل أبي العاص، والصهر برسول الله لهم والخلافة منهم، فوصلوكم يا بني حرب وشرفوكم، وولوكم فما عزلوكم، ولا آثروا عليكم حتى إذا وليتم وأفضى الأمر إليكم أبيتم إلا أثرة وسوء صنيعة وقبح قطيعة، فرويداً رويداً قد بلغ بنو الحكم وبنو بنيه نيفاً وعشرين إنما هي أيام قلائل حتى يكملوا الأربعين ويعلم امرؤ أين يكون منهم حينئذ ثم هم للجزاء بالحسنى ولك بالمرصاد[2].

ولم يقف مروان عند هذا الحد، بل كان يحرض أبناء عثمان بن عفان على معاوية ويذكرهم بأن بني حرب لم يأخذوا الخلافة إلا باسم أبيهم، لا سيما وأن بني العاص أكثر رجال من بني حرب[3]

وازدادت نقمة آل أبي العاص عندما أعلن معاوية ترشيح ابنه لولاية العهد فجاء سعيد بن عثمان بن عفان إلى معاوية وبين عدم رضاه عن هذه البيعة، فرد عليه معاوية «... لقد قمت بثأركم، وقتلت قتلة أبيكم وجعلت الأمر فيكم، وأغنيت فقيركم ورفعت الوضيع منكم»[4]. وازاء تطلعات آل أبي العاص نحو الخلافة كان معاوية يعمل جاهداً على الإيقاع بينهم حتى لا تتحد كلمتهم ضده.

لم يكن معاوية يسمح لبني أمية التدخل في شؤون دولته، فعندما ألحق زياد بن أبيه بنسب أبي سفيان دخلت عليه بنو أميه فقال عبدالرحمن بن الحكم: يا معاوية لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم، أعلينا قلة وذلة، فقال معاوية لمروان: اخرج عنا هذا الخليع[5].

كما منع معاوية شاعر بني أمية: عبدالرحمن بن الحكم من التشبيب بالنساء أو

---

(١) الطبري، تاريخ ٢٩٦/٥.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ٢٦١/١٣ (دار الكتب).
(٣) مصعب الزبيري، نسب قريش ١٠٩-١١٠.
(٤) الأصفهاني الأغاني، ٥٥/١٧ (ساسي).
(٥) البلاذري أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١٨/١-١٩.

هجاء الكرماء واستثارة اللؤماء وحثه على ذكر مفاخر قومه والتحدث عن الأمثال السائرة التي تزين النفس، وتدل على صحة العقل[1].

وبهذه السياسة استطاع معاوية أن يخفف من حقد القبائل على بني أمية، كما أنه استطاع أن يخضعهم جميعاً لسياسته فلم يصبح يوماً أسيراً لهم.

معاوية وقريش:

كما نظم معاوية علاقته بأسرته، فقد أحسن سياسته مع قريش. وفي سياسته هذه كان يداري ويصانع ويمنع ويمنح حتى استكانت له قريش جميعها.

بدأ معاوية ببني هاشم، فأخذ يتقرب إليهم بشتى الأساليب، فحاول أن يصهر إليهم[2]، ولما أعجزه الأمر أغدق عليهم الأموال، وتودد إليهم كثيراً.

كتب إلى عقيل بن أبي طالب: يا بني عبدالمطلب أنتم والله فروع قصي، ولباب عبد مناة، وصفوة بني هاشم[3]. والحسن أكرم قريشاً أما وأبا وجداً وجدة وعما وعمة وخالا[4].

ومن ناحية المال، فقد أكثر معاوية من الأعطيات لهم، ففي يوم واحد أطلق للحسن والحسين مائتي ألف درهم، ووصل الحسن بعد الصلح بأربعين ألفاً وقيل أربعمائة ألف، وزاد الحسن والحسين من خمسة آلاف إلى مليون درهم، ومثلها إلى ابن عباس وابن جعفر[5].

وبحسن السياسة واغداق الأموال استطاع معاوية أن يبعد الهاشميين عن الأضواء والحركات السياسية وخاصة ما كان منها في العراق.

غير أن ما كان يزعج معاوية من بني هاشم هو تطلعهم إلى الخلافة، وإن ما

(١) الطبري، تاريخ ٣٣٦/٥.

(٢) البلاذري أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١٣١/١.

(٣) الأبشيهي، المستطرف ١٨٩/١.

(٤) البلاذري أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ٣٣/١.

(٥) انظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٠٤/٥، الذهبي، دول الاسلام ٢١.

يعطيهم إياه هو بعرفهم حقاً من حقوقهم، ونرى ذلك في المناظرة التي حدثت بين ابن عباس ومعاوية. قال معاوية: يا بني هاشم إن خيري لكم لممنوح وان بابي لمفتوح، فلا يقطع خيري عنكم ولا يرد بابي دونكم . . . إنكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب، والمسلوب لاحمد له، هذا مع إنصاف قائلكم، وإسعاف نائلكم، وإعطائي سائلكم.

فأجابه ابن عباس: والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله واسع منك، ولئن أغلقت دوننا باباً لنكفن أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجال من المسلمين، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك زائر[1].

وبالنسبة لباقي قريش، فقد اعتمد عليهم معاوية في صراعه مع علي، فكان أغلب قواده منهم، ونصف مجلسه الاستشاري مكون من عمرو بن العاص، وحبيب بن مسلمة الفهري، وبسر بن أرطاه، والضحاك بن قيس الفهري وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد[2].

وبعد أن تسلم معاوية الخلافة، فطن إلى أمر هام وهو أن قريشاً التي أيدته في نزاعه مع علي رأت أن مطالبة معاوية بدم عثمان لم تكن لذاتها، وإنها تطورت في النهاية حتى تسلم الخلافة.

وقبل التحدث عن سياسته مع قريش لا بد من القول أن معاوية كان كثير الاعتزاز بقرشيته، فامرأة من قريش خير من امرأة من كلب[3]. وعاتب الأحنف بن قيس، قال له: أرضيت أن تذبح قريش بالبصرة ذبح الحيوان[4].

وافتخر معاوية بأن الله حبا قريش بثلاث[5] فقال لبنيه: «وانذر عشيرتك

---

(١) الأبشيهي، المستطرف ٥٨/١.
(٢) الطبري، تاريخ ٩٧/٥-٩٨ (ابن كثير، البداية والنهاية ١٧/٨).
(٣) ابن أعثم، الفتوح ٢٥٣/٣.
(٤) أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١٦/١.
(٥) الأبشيهي، المستطرف ٥٨/١.

الاقربين﴾[1] وقريش عشيرته، وقال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾[2] وقريش قومه، وقال تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم﴾[3] ولغة قريش عند معاوية أفصح اللغات العربية، لأنها خلت من عيوب اللهجات العربية الأخرى[4].

غير أن العرب ما كانت تفوت هذا الفخر لمعاوية فعندما ذكر ما حبا الله به قريشاً من القرآن وقف له رجل من الأنصار وقال له[5]: على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول: وكذب به قومك وهو الحق﴾[6] وأنتم قومه، وقال تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذ قومك منه يصدون﴾[7] وأنتم قومه وقال تعالى: ﴿قال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾[8] وأنتم قومه.

كان يدرك معاوية تطلعات أبناء كبار الصحابة القرشيين للخلافة، وهناك الكثيرين ممن تشرأب نفوسهم إليها، وإزاء ذلك تعامل معهم معاملة تحقق مصالح الخلافة أولاً، ومصالح بني أمية ثانياً.

فبالنسبة للدولة لم يعتمد معاوية على رجالات قريش وخاصة في ولاية الكوفة، ففي البداية سلمها لرجل من ثقيف هو المغيره بن شعبه، وسلم البصرة لعبدالله بن عامر وبعد عزله سلمها لثقفي آخر هو زياد بن أبيه ثم جمعت له العراق كلها.

أبعد معاوية رجالات قريش لأمرين: حتى لا يتطلعوا إلى الخلافة. وقد قال بهذا الشأن لعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب: لقد هممت أن أوليك الكوفة غير مرة، فما معني من ذلك إلا أنني قلت أوليه فيقول أنا ابن زيد بن الخطاب أحد أبناء المهاجرين البدريين وعمي الفاروق وأنا أحق بالأمر من معاوية[9].

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.
(٢) سورة الزخرف، الآية ٤٤.
(٣) سورة قريش الآية ١-٢.
(٤) الجاحظ، البيان والتبين ٢٠٥/٣.
(٥) الأبشيهي، المستطرف ٥٨/١.
(٦) سورة الانعام، الآية ٦٦.
(٧) سورة الزخرف الآية ٥٧.
(٨) سورة الفرقان الآية ٣٠.
(٩) البلاذري أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ٢٧/١.

ولما فكر في تولية عبدالله بن عمرو بن العاص على الكوفة عدل عن مشروعه عندما قال له المغيرة استعملته على الكوفة، واستعملت عمراً على مصر فتكون أنت بين لحيي الأسد[1].

والأمر الثاني كان معاوية إذا أحس بخطر من قرشي تخلص منه بشتى الأساليب، فعندما استشار الناس من يستخلف بعده، رشح البعض عبدالرحمن بن خالد - وكان عظيم القدر عند أهل الشام[2] - عزله معاوية عن حمص فوراً وبعد مجيء عبدالرحمن إليه وقوله له: أتعزلني بعد أن وليتني بغير حدث أحدثه والله لو إنا بمكة على السواء لانتصفت منك، فرد عليه معاوية: ولو كنا بمكة لكنت معاوية بن أبي سفيان منزلي بالأبطح ينشق عنه الوادي، وأنت عبدالرحمن بن خالد منزلك بأجياد مكة[3]، وتخلص منه بالسم على حد زعم بعض الروايات[4]. كما يذكر المسعودي أنه تخلص من الحسن بهذه الوسيلة عن طريق جعده بنت الأشعث مقابل مائة ألف درهم وزواجها من ابنه يزيد[5].

ومع أن الأمر مستبعد هذا مستبعد من معاوية، إلا أنه يشير إلى مدى حساسية الحكم من تطلع البعض إلى منصب الخلافة ومع هذه السياسة مع قريش، فقد كان لا يرد لهم طلباً، لقد جاء إليه عبدالله بن صفوان الجمحي وطلب أن يفرض لقريش ولحلفائها فوافق معاوية على ذلك دون تردد[6].

واتبع مع بعضهم أيضاً سياسة المنح، فلما عزل عقبه بن نافع الفهري عن أفريقيا وولاها لأبي المهاجر مولى مسلمه بن مخلد الأنصاري قال له معاوية: ما وليته إلا لمكان مسلمه بن مخلد من عثمان فأعطاه بعض المال ووعده برده إلى عمله بعد حين[7].

كان معاوية دائم التتبع لأخبار قريش الحجاز، يسأل عن أحوالهم، ويكرم زائرهم، يهمه دوماً أن تكون قريش مشغولة عنه.

---

(1) الطبري، تاريخ ١٦٦/٥.

(2) ابن حجر، الإصابة ٦٨/٣.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١١٥/٤.

(4) العقد الفريد ١١٥/٤، الأغاني ١٢٧/١٥، بيروت، الإصابة ٦٨/٣.

(5) امسعودي مروج الذهب، ٥/٣.

(6) مصعب الزبيري، نسب قريش ٣٨٩.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب ٢٢/١.

ألزمنا تأديبكم كما ألزمنا رعايتكم، وإنا لم نأذن له قبلك ونحن نريد أن يكون مجلسه دونك[1].

ولما قدم عليه الأحنف بن قيس وجاريه بن قدامه والجون بن قتاده والحتات بن يزيد أعطى كلا منهما حسب قدره فاحتج الحتات على ذلك فاضطر معاوية أن يزيد جائزته[2].

وأغدق معاوية على رؤساء القبائل من المال كثيراً، ويستدل على ذلك من كتابه إلى عمرو بن العاص: إن سؤال أهل الحجاز وزوار أهل العراق قد كثروا علي، وليس عندي فضل من أعطيات الجند فأعني بخراج مصر هذه السنة[3].

عرف معاوية خطر قبائل العراق، فكان لا يترك مناسبة إلا وحاول التقرب إليهم كان يتحمل منهم كل شيء ويقابل صيحاتهم بضحكات تأسر قلوبهم وبالدراهم لإسكات أفواههم، عرف أن غضب رئيس القبيلة سيثير غضب مئات من اتباعهم لا يدرون على ماذا غضب سيدهم[4]. كان رؤوساء العراق يرون أنهم بايعوا له طائعين وليسوا كارهين وهو لم يخضعهم بقتال، من هنا كانوا يهددون معاوية دوماً. فجاريه بن قدامه قال له: إنك لم تفتحنا قسرا ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً وأعطيناك سمعاً وطاعة، فإن وفيت لنا وفينا لك، وإن فزعت إلى غير ذلك فإنا تركنا رجالاً شداداً وألسنة حداداً[5].

وهدده بربيعة وقال له: إن من ورائي ربيعة ركناً شديداً لم تصدأ أدرعهم مذجلوها ولا كلت سيوفهم مذ شحذوها[6]. وهدده أيضاً ابن صعصعه العبدي بغزوه ومعه مائة ألف من قومه[7].

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال ٩٠/١.

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب ٣٩٧/١ بهامش الإصابة، ابن الأثير، الكامل ٢٤٣/٣.

(٣) الدينوري، الأخبارالطوال ٢٢٤.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٩٨/٤، اخبار الوافدين ٧أ- مخطوط.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٩٨/٤.

(٦) البلاذري، أنساب الأشراف جـ٤ قسم ٨٩/١.

(٧) أخبار الوافدين ٦أ- ٧ب وانظر أيضاً أخبار الوافدين مخطوط مصور بجامعة الدول العربية تحت رقم ٧٦ت.

غير أن معاوية كان يقابل طعن ونقد هؤلاء الزعماء بالحلم والمال وبهما استطاع أن يكسب ود جميع القبائل ولو ظاهرياً.

غض معاوية الطرف عن كل شيء باستثناء ما يمس الخلافة وشرفها. ففي مصر أعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان أعطياتهم وأرزاقهم وبعث بالفائض إلى الشام، فاعترض القافلة برح بن حسكل، فرد القافلة وقال للناس: هل أخذتم عطاءكم وأرزاقكم وأعطياتكم ونوائبكم قالوا نعم قال: لا بارك الله فيهم[1].

ونفس المشهد تكرر في المدينة عندما رفض عاصم بن هاشم بن عتبة أن يسلم عطاء القبائل إلى العرفاء. وطلب أن يأتيه أهل العطاء حتى يدفع لهم ما يخصهم، لأن العرفاء كان لا يغيبون غائباً ولا يميتون ميتاً، فكره الناس ذلك لما يصيبوا من حظ الموتى والغيب، وامتنعوا عن إتيانه فأقام على ذلك أياماً ثم دخل المسجد فمر بحلقة فيها الحسين وابن الزبير وعمرو بن عثمان فوقف عليهم، فقال له بعض أهل الحلقة: ما يمنعك أن تدفع هذا المال إلى أهله. فذكر لهم الأسباب الدافعة لذلك، وأن هذه أوامر الخليفة معاوية. فقالوا له فكيف تصنع بالنساء أتعطيهن في أيديهن -يريدون بذلك الحجة عليه- قال والنساء أيضاً. فغضب الناس من كلمته فحصبوه وقام كبار أبناء الصحابة وقسموا الأموال على الناس فبلغت معاوية الحادثة إلا أنه أعرض عنها.

وفي البصرة قامت تميم والأزد وربيعة وجاءت إلى مالك بن مسمع سيد البصرة وقالوا له: يحمل المال ونبقى بلا عطاء. فركب مالك في ربيعة واجتمع الناس إليه فلحق بالمال ورده. و ضرب فسطاطاً بالمربد وفرّق المال في الناس حتى وافاهم، وأعطاهم، ثم قال إن شئتم الآن أن تحملوا فاحملوا فما راجعه زياد بن أبيه بحرف[2].

وكما كان معاوية يضرب قريش بعضها ببعض فقد كان يضرب القبائل أيضاً، فبعد أن تسلم الخلافة فرض لأهل اليمن وترك قيساً طبقاً لسياسة المنح والمنع، إلا أنه رأى أن هذه السياسة ستعود عليه بفتن قبلية هو في غنى عنها فتراجع عن ذلك.

وسبب تراجع معاوية أنه سمع رجلاً من اليمن يقول: هممت أن لا أدع بالشام أحداً من مضر، بل هممت أن لا أحل حبوتي حتى أخرج كل نزاري بالشام فسارع

---

(١) ابن عبدالحكم، فتوح مصر ١٠٢

(٢) الأصفهاني، الأغاني ٣٨/٧ (بيروت).

معاوية إلى فرض لأربعة آلاف من قيس سوى خندف[1].

وهدف معاوية من وراء ذلك تحقيق سياسة التوازن بين القبائل ويري اليمانية أنه بإمكان أن يكسر شوكتهم إذا ما حدثتهم أنفسهم بالخروج عليه.

واتبع معاوية سياسة المدح والقدح بين القبائل. فقال عن تميم: لو أن النجوم تساقطت لسقط حجرها في حجر بني يربوع[2]، وعن الأزد طويلة عريض كثير عددها لا تمنع من دخلها ولاتبالي من خرج منها[3]. وإذا ما أحس بغضب رؤساء هذه القبائل فإنه كان يتراجع عن ذلك، بل ويبعث إليهم ويترضاهم[4].

كان معاوية يسأل عن كل قبيلة ويحاول التعرف على خصائصها ومزاياها حتى: يعرف أفضل وسائل التعامل معها[5].

كتب إلى زياد واليه على العراق: أن ينظر أهل اليمن فيكرمهم في العلانية ويهينهم في السر، ربيعة فليكرم أشرافهم وليهن سفلتهم، فإن السفلة تبع للأشراف، أما مضر ففيهم فضاضة وغلظة وطلب منه أن يحمل بعضهم على رقاب بعض ولا يرضى بالظن دون اليقين، وبالقول دون الفعل وأن يترك الأمور بينه وبين الناس على أشدها[6]. وبعث إلى مسلمة بن مخلد واليه على مصر: أن لا يولي عمله إلا أزديا أو حضرميا فإنهم أهل أمانة[7].

غير أن سياسة معاوية هذه لم تخمد العصبية القبلية، ففي عهده بدأت عصبية الأمصار خاصة وأن معاوية كان يشجع عليها فيقول عن أهل الشام: أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء[8]. وظهرت العصبية القبلية بين القيسية واليمانية في الشام، فقد احتجت القبائل اليمانية لأن معاوية يغزو بها في البحر، والقبائل القيسية تحارب في

(1) المصدر السابق ١٨/١٦٣ (بيروت).
(2) البلاذري، انساب الأشراف جـ٤، قسم ٢٣/١.
(3) الأصفهاني، الاغاني ٢٧٩/١٤ (بيروت).
(4) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ٤٢/١-٤٤، العقد الفريد ١٠٣/٤.
(5) المسعودي، مروج الذهب، ٥٠/٣-٥١.
(6) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ، قسم ١٨٦/١.
(7) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ١٢٢، طبعة ليدن.
(8) ابن قتيبه، عيون الأخبار ١٠/١.

البر، وحاول معاوية أن يبرر عمله للتيمن بهم، وأن في قيس نكداً وأخلاقاً لا يحتملها الثغر، إلا أن ذلك لم يجد، ولم تتوقف اليمانية حتى أشرك معهم القبائل القيسية[1].

معاوية والأمصار:

لقد شدد معاوية قبضته على الأمصار بواسطة ولاة يشهد لهم بالكفاءة الإدارية. وقد درس هؤلاء وضع القبائل في أمصارهم أفضل دراسة، عرفوا كيف يسلكوا مع هذه القبائل. إضافة إلى ذلك أن معاوية قد فوّض لهم الأمر، ومنحهم ثقته التامة فهو يقول للمغيرة أردت إيصاءك بأشياء كثيرة، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضيني ويسعد سلطاني ويصلح به رعيتي[2]. ولم يكن معاوية يولي أحداً إلا إذا وثق به واطمأن إليه، أما من يخشاهم ويحذرهم فلم يولهم شيئاً. وسياسة معاوية في الرعية يجب أن لا تساس بسياسة واحدة، فإذا اشتد الوالي لان الخليفة، وإن اشتد الخليفة لان الوالي، وبمعنى آخر يكون أحدهما للغلظة والشدة والآخر للين والرفق[3].

غير أن مقدرة ولاته وحسن إدارته لم تخمد جذوة العصبية القبلية، فكان أن قامت في الكوفة تحت شعار الأحزاب السياسية.

كان المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، والمغيرة يعتبر من دهاة العرب، وهناك استطاع أن يعرف كيف يسوس أهل الكوفة. فالكوفة تسكنها جماعات متعددة المذاهب والمعتقدات، فيها من عرف الحكم المركزي منذ زمن بعيد، وفيها الأعراب الذين اعتادوا على حياة الفوضى والتنقل.

والمدينة سلسلة القيادة إن عرف الوالي قيادتها على الرغم من التشيع البارز بها، وهذا التشيع كان في غالب الأحيان ذا غايات نفعية ولم يكن إيماناً بمعتقدات.

والكوفة أيضاً لا تقبل بالوالي، بل وتثور عليه إن لمست فيه ضعفاً، وإن لمست فيه قوة مالأه أهلها وهابوه، إنهم يجمعون بين التشيع الشديد والخنوع للحاكم القوي[4].

(١) الأصفهاني، الأغاني ١٨/١٦٣-١٦٤ بيروت.
(٢) الطبري، تاريخ ٥/٢٥٣.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤ قسم ١/٦٨-٦٩.
(٤) يوسف العش، مذكرات ٥٤.

والمغيرة عرف ذلك عن أهل الكوفة، فأقام سياسته على هذا الأمر فأطلق عاطفة التشيع عند أهلها، وأثبت ذلك بالفعل لا بالقول. فعندما صعد منبر الكوفة أول مرة حصبته الشيعة وعلى رأسها حجر بن عدي، فنزل عن المنبر مسرعاً ودخل دار الإمارة وبعث لحجر خمسة آلاف درهم مكافئة على فعله هذا معتبراً عمله هذا أنه قتل معارضة الشيعة[1].

وعلى أية حال استطاع المغيرة أن يسكت الشيعة، ومع ذلك لم ينس خطرهم، وجاءت الفرصة عندما خرج عليه المستورد بن علفه التميمي، وحيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جون الطائي، فأراد ضرب الأحزاب السياسية بعضها البعض.

اعتمد المغيرة في قتاله الخوارج في بادئ الأمر على رؤساء القبائل وقال لهم: ليكفني كل رجل منكم قومه، والا فوالله لأتحولن عما تعرفون إلى ما تنكرون وعما تحبون إلى ما تكرهون[2].

وهنا قام رؤساء القبائل واستعدوا لأخذ أفرادهم من بين صفوف الخوارج[3]، إلا ما كان من صعصعة بن صوحان العبدي، فقد كره في بادئ الأمر أن تؤخذ عشيرته أو أن يساء إليهم بعد أن علم بعض الخوارج قد لجأوا إلى سليم بن محدوج العبدي، لكن صعصعة غير موقفه عندما رأى تسابق الرؤساء لنجدة الوالي، فجاء إلى قومه وقال: إنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من هذا الحي وأنا باحث عن ذلك وسائل، فإن كان ما حكي لي ذلك حقاً تقربت إلى الله تعالى بدمائهم، ... يا معشر عبدالقيس إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً. والحسن حظ عبدالقيس أن الخوارج خرجوا من عند سليم بن محدوج لخوفهم من قبائلهم[4].

وبعد أن حذر المغيرة الرؤساء اعتمد على طريقة جديدة وهي ضرب الأحزاب السياسية بعضها بعضاً كما قلت، لقد كان أصحابه معقل بن قيس الرياحي من رؤوس

---

(1) الدينوري، الأخبار الطوال ٢٢٤.
(2) ابن الأثير، الكامل ٣/٤٣٦ (بيروت).
(3) الطبري، تاريخ ٥/١٨٤.
(4) المصدر السابق، ٥/١٨٥.

الشيعة، فترك له المغيرة حرية اختيار جنده لقتال الخوارج[1]. ولما علم عبدالله بن عامر والي البصرة بذلك أمر شويك بن الأعور الحارثي، وكان يرى رأي الشيعة وانتخب معه ثلاثة آلاف رجل معظمهم من ربيعة لقتال الخوارج[2].

وفي القتال مع الخوارج ظهرت العصبية الاقليمية. فبعد هزيمة الخوارج في المذار سنة ٤٣هـ رأت البصرة أن مهمتها قد انتهت، فهم خرجوا كي يحموا أرضهم ويمنعوا الخوارج من دخولها وأما بعد هزيمتهم. فهم غير مكلفين بالدفاع عن أهل الكوفة[3]. ولا يستبعد أيضاً أن يكون رجوع أهل البصرة كان استجابة لداعي العصبية القبلية، فالمتحمس بالرجوع منهم كان خالد بن معدان الطائي، وغالبية الخوارج كانوا من طيء وربيعة، إضافة إلى أن معظم جيش البصرة كان من ربيعة فعدم رغبة الربعيين والطائيين في مقاتلة إخوانهم كانت سبباً لرجوعهم.

واستمر المغيرة في ولاية الكوفة حتى وفاته ما بين سنة ٥٠-٥١هـ ويذكر أن معاوية قد هم بعزله قبل وفاته إلا أنه خشي المغيره، وخاصة عندما استأذن معاوية أن يذهب إلى قرقيسياء[4]، أو إلى الحجاز[5] فخاف معاوية أن يؤلب الناس عليه فأبقاه في ولايته.

والوالي الثاني الذي اعتمد عليه معاويه هو زياد بن أبيه. بدأ زياد حياته الإدارية منذ عهد عمر بن الخطاب، ولما جاء معاوية عينه على البصرة بعد أن عزل عنها عبدالله بن عامر.

كان الوضع في البصرة يختلف عنه في الكوفة، إن معظم القبائل التي نزحت إليها، أو سكنت في أطرافها كانت من القبائل البدوية العنيفة وكانت على نمطين: قسم منها كان لا يفهم النظام ولا الحرية ويعيش ببداوة على طراز الجاهلية من ثأر ونهب وغزو، وقسم آخر اشتد في اسلامه وتعصب لبعض المبادئ الاسلامية يفهمها من الظاهر دون معرفتها على حقيقة أمرها وروحها، وهذا القسم يتألف من الخوارج الذين كفروا غيرهم، إلا إذا اعترف الغير بأنه كافر وتاب عن كفره، وهذا ما جعل الأمر في

(١) المصدر السابق، ١٨٨/٥.
(٢) المصدر السابق، ١٩٤/٥.
(٣) المصدر السابق، ٢٠١/٥.
(٤) ابن الأثير، الكامل ٤٢٢/٣.
(٥) البلاذري، أنساب الاشراف، جـ٤ قسم ٣٤/١.

البصرة في اضطراب وشغب مستمر والحالة كانت تنذر بأسوأ مما هي عليه[1].

ناهيك عن عدد الموالي الذين كثروا هناك وتحالفوا مع بعض القبائل العربية وقد تنبه معاوية إلى خطر هؤلاء، واستشار رجال البصرة في شأنهم وعلى رأس هؤلاء الأحنف بن قيس، وسمرة بن جندب حيث قال لهما معاوية: . . . وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فرأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون؟ فقال الأحنف: أرى أن نفسي لا تطيب أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب. أما سمره فقد أشار بقتلهم وقدم نفسه لتنفيذ العملية.

وبعد ذلك خطر لمعاوية أمر جديد وهو ترحيلهم من البصرة، فنقل قسم منهم إلى بعلبك وحمص وانطاكية ورتب جماعة من الصناع والتجار في سواحل الأردن بعكا[2].

مما تقدم نرى أن العصبية العربية ضد الموالي قد أخذت تظهر للوجود، لا سيما إذا رأينا أن عصابة من الموالي يتزعمها شخص يدعى "أبو علي" وهو مولى لبني الحارث بن كعب قد خرجت على عهد المغيرة بن شعبة. وبعث إليهم المغيرة رجل من بجيله فناداهم يا معشر الأعاجم هذه العرب تقاتلنا على الدين فما بالكم؟ فرد عليه أحدهم «إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً[3]» وإن الله بعث نبينا للناس كافة ولم يزوه عن أحد[4].

إن معارضة الأحنف لقتلهم كانت نابعة من الحلف الذي ربط تميم بالموالي الذين كانوا يعرفون في البصرة باسم "الأساورة والزط والسيايجة" فرأى في قتلهم خسارة لبني تميم، التي تقف أمام حلف ربيعة واليمن.

وأمام هذا التركيب السكاني لأهل البصرة كان لا بد لها من وال حازم يجري النظام ويخيف القبائل، وقد أراد معاوية أن يعهد بولايته إلى أخيه عتبة بن أبي سفيان

---

(١) يوسف العش، مذكرات ٥٦.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ١٣٩-١٤٠.

(٣) سورة الجن، الآية ١-٢.

(٤) اليعقوبي، تاريخ ٢/٢١٠.

منذ البداية غير أن عبدالله بن عامر ذكر أن له بها أموالاً وودائع وخشي إن لم يذهب إلى البصرة سيفقدها فولاه عليها[1].

وعلى الرغم من الكفاءة التي تمتع بها ابن عامر، إلا أن حلمه وكرمه جعل السفهاء يتمادون في ارتكاب الجرائم حتى فسدت البصرة، فتذمر أهلها وارسلوا وفداً إلى معاوية وأخبروه بأن عاملهم ضعيف وقد غلب السفهاء على المدينة.

وبدلاً من أن يتجه ابن عامر إلى الضرب على أيدي العابثين لجأ إلى إثارة النعرات بين أهل البصرة. كان عبدالله بن أبي أوفى اليشكري " من ضمن الوفد الذي ذهب إلى معاوية، فبحث ابن عامر عن خصمه وهو طفيل بن عوف اليشكري " وولاه على خراسان، فعرف عبدالله قصد ابن عامر فقال: ان ابن دجاجه (ابن عامر) لقليل العلم في، أظن أن ولاية طفيل خراسان تسؤني، لوددت أنه لم يبق في الأرض يشكري إلا عاداني وأنه ولاهم[2]. ولما ازدادت الفوضى في البصرة وساءت حالتها عزل معاوية عبدالله، وعين عليها الحارث بن عبدالله الأزدي، فأقام أربعة أشهر. والظاهر أنه لم يستطع أن يستأصل جذوة الشر فيها فعهد إلى زياد بن أبيه والياً عليها.

والواقع أن زياداً كان من عباقرة العرب، ودهاتهم، عمل فترة محاسباً للخراج لعمر بن الخطاب على البصرة وهو لا يزال في الرابعة عشر من عمره، واستمر كذلك في عهد عثمان، ولما حدثت الفتنة الأولى التحق بصفوف علي، وبعد موته اعتصم باصطخر حتى تدخل المغيرة بن شعبة وأقنعه بالبيعة لمعاوية. جاء زياد إلى البصرة والفوضى ضاربة أطنابها فيها، ونلمس ذلك من خطبة زياد، فالقتل والغدر عام فيها، يقتل الإنسان فيذهب دمه هدراً إلا إذا كانت له عصبية قبلية شديدة تأخذ بثأره[3]. وأما ضعفاء الناس فلا يجدون من يسأل عنهم. كما انتشرت السرقة والفجور، وكثر التنقيب على المنازل وهذا يدل على أن الوالي كان غائباً عن الوضع في المدينة.

جاء زياد إلى البصرة واتخذ تدابير استثنائية، الهدف منها إعادة الأمن إلى المدينة وهذه التدابير هي[4]:

(١) يوسف العش، مذكرات ٥٦.

(٢) الطبري، تاريخ ٥/٢١٢-٢١٣، نص الخطبة في العقد الفريد ٤/١٧٢-١٧٣، يوسف العش، مذكرات ٥٦.

(٣) يوسف العش، مذكرات ٥٦.

(٤) انظر نص الخطبة في العقد الفريد ٤/١٧٢-١٧٣، يوسف العشي، مذكرات ٥٦.

- أنه يتخذ مبدأ القسوة الشديدة التي تخرج عن الحدود، فعقوبة شديدة حسب رأيه تغني عن عقوبات بسيطة متكررة.

- لا يُسأل المسؤول عن الجرم وحده، بل يسأل من له علاقة به فيأخذ الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والإنسان ليس مسؤولاً عن نفسه فحسب، بل مسؤول أيضاً عمن يلوذ به.

- العقوبة الفورية لمن يخالف هذه التدابير، أو يظهر بمظهر المخالف.

- توجيه الناس نحو الفتوحات مع عدم تجمير الجيوش.

- حذر الناس من العصبية القبلية وقال: إن أهل البصرة قد قربوا القرابة وباعدوا الدين، فحذرهم من دلج الليل ومن دعوى الجاهلية وقال: إني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه.

لقد نفذ زياد خطته هذه تنفيذاً تاماً ولم يتوان في ذلك لحظة، وبدأ بتحسين حال الشرطة وجعلها تأتمر بأمره غير أنه أوجد مسؤولاً جديداً، يتابع أمر الفساق وهو ما يشبه اليوم اسم "شرطة الآداب". واستعان أيضاً بعدد من صحابة رسول الله منهم عمران بن الحصن الخزاعي وجعله على قضاء البصرة، والحكم بن عمر الغفاري وولاه خراسان، وقرب إليه أيضاً سمره بن جندب، وأنس بن مالك، وعبدالرحمن بن سمره[1]. وما مضى زمن غير طويل حتى استكانت البصرة وعاد الأمن فيها إلى نصابه، بل طأطأ الخوارج رؤوسهم أمامه عندما رأوا العنف الذي أظهره زياد إزاء كل خارج عليه.

لقد اختفت الجرائم من البصرة، وصار الشيء يسقط من الرجل فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة لا يغلق عليها بابها، فلا يعرض لها أحد[2].

وما مات المغيرة إلا وكانت البصرة في أحسن حال بفضل زياد، ففكر معاوية بالأمر فرأى أنه من الخير أن يضم إليه الكوفة. فأصبح زياد بذلك والياً على المنطقة الشرقية بكاملها.

(1) الطبري، تاريخ ٥/٢٢٢-٢٢٤.

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١٨٧-١٨٨، وانظر ١٣٨.

يبدو من خلال أعمال زياد أنه صاحب فكر منظم وخطه محكمة فليس هو بالرجل الذي يعالج الأمور ليومه، بل كان ينظر إلى الأفق البعيد يحاول أن يضع حلولاً للمشاكل قبل أن تقع.

لقد كان أمام زياد في العراق أربعة قضايا هي:

الأولى: قضية الشيعة، فهؤلاء ما زالوا على حبهم لأهل البيت، وما زالوا مستعدين للقيام ضد الدولة الأموية في كل لحظة وحين.

الثانية: مشكلة العصبية القبليه.

الثالثة: مشكلة الأفراد المشاغبين المحبين للقتل وسفك الدماء، والذين هم من أرذال الناس والكثير منهم من الأعراب.

الرابعة: قضية الخوارج.

لنبدأ بالشيعة: لقد أطلق المغيرة للشيعة العنان في الكوفة وجعلهم يعبرون عن عاطفتهم بالقول، دون التعرض لسلامة الدولة. لقد احتجوا على ذم أمير المؤمنين علي، وطالبوا بتوزيع الأرزاق والعطايا التي حبست عنهم، وقد حاول عبدالله بن أبي عقيل الثقفي أن يقنع المغيرة بالضرب على أيدي هؤلاء الشيعة. إلا أن المغيرة أحب العافية وقال: «إنه قد اقترب أجلي وضعف عملي، ولا أحب أن ابتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم، وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز في الدنيا معاوية، ويذل يوم القيامة المغيرة، ولكني قابل من محسنهم، وعاف عن مسيئهم، وحامد حليمهم، وواعظ سفيههم، حتى يفرق بيني وبينهم الموت. وسيذكرونني لو قد جربوا العمال بعدي». هذه السياسة جعلت أكثر من ثلثي سكان الكوفة[1] يتجهون نحو التشيع إما إيماناً وإما مصلحة ومعاداة لبني أمية.

ولما تسلم زياد الكوفة، أحس بخطر الشيعة هناك، فأرسل إلى حجر بن عدي وحذره مما كان يفعله أيام المغيرة وقال: إني لا أحب التنكيل قبل التقدمه، ولا آخذ بغير حجه، فرد عليه حجر لن ير الأمير مني إلا ما يحب، وقد نصح وأنا قابل نصيحته[2].

---

(١) الطبري، تاريخ ٥/٣٥٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني ١٧/١٣٤، الهيئة المصرية.

غير أن حجر لم يلتزم بوعده، وأخذت قوة الشيعة تزداد يوماً بعد يوم، وأصبح ثلث المسجد أو نصفه لجماعته، وهناك أظهروا لعن معاوية والبراءة منه، وتمادوا في ذلك وحصبوا عمرو بن الحريث المخزومي نائب زياد على الكوفة[1]. وهنا وجد زياد الفرصة سانحة للقضاء على الفتنة في مهدها، فتحرك من البصرة مسرعاً، ومن على منبر الكوفة حذر الناس من شر الفتنة، وبعدها أرسل أمير شرطته إلى حجر حتى يأتي به، غير أن أصحاب حجر رفضوا الإذعان لصاحب شرطة الأمير، وهنا أصبح زياد في خطر.

ولم يجد زياد أمامه سوى رؤساء الكوفه فجمعهم وقال لهم: يا أشراف أهل الكوفه أتشجون بيد وتأسون بأخرى، أبدانكم معي وقلوبكم مع الهجهاجه المذبوب، أنتم معي وإخوانكم وأبناؤكم وعشيرتكم مع حجر. فأجابه رؤساء الكوفة: معاذ الله أن نكون إلا على طاعتك وخلاف حجر[2].

وبعد أن اطمأن زياد من موقف الرؤساء قال لهم: ليقم كل امرئ منكم إلى هذه الجماعة التي حول حجر، فليدع الرجل أخاه أو ابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته حتى تقيموا عنه كل من استطعتم. واستطاع بذلك زياد أن يفرق معظم الناس عن حجر[3]. وهكذا أعان أهل الكوفة ممثل الدولة رغم عدم حبهم له على إخوانهم في المذهب[4].

ومع استجابة الرؤساء إلا أن العصبية القبلية قد ظهرت عند قبيلة كنده، فكانت هي القبيلة الوحيدة التي لم تستجب إلى نداء زياد[5]. ولم يقف أفرادها عند هذا الحد، بل قام قيس بن فهدان الكندي وطاف على مجالس كنده، يدعوهم إلى نصرة حجر، إلا أنه لم ينهض منهم الإ عدد قليل. ولما رأت القبائل اليمانية ذلك تحركت عندهم أواصر الرحم، وأخذ الرؤساء يتداولون الأمر فيما بينهم، هل يحاربون حجر وكنده، وهم

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ٢٢٥، الطبري، تاريخ ٥/٢٥٦، الأغاني، ١٧/١٣٥، الهيئة المصرية.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١/٢١٤-٢١٥، الطبري، تاريخ ٥/٢٥٧، ٢٥٨، الأغاني، ١٧/١٣٦، الهيئة المصرية.

(٣) الأصفهاني، الأغاني ١٧/١٣٦ (الهيئة المصرية).

(٤) فلهوزن: الدولة العربية وسقوطها ١١٩.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١/٢١٧.

إخوتهم في الدم، أم هل سيقفون إلى جانب الوالي، ثم ما هي أفضل السبل التي يرونها مناسبة في هذا الأمر؟

الواقع أن رهبة الوالي وقوة بطشه دفعت القبائل اليمانية أن تتخلى عن نصرة حجر، وكل ما فعلوه وبإشارة من عبدالرحمن بن مخنف الأزدي، أن يتمهلوا في الأمر، ولا يقاتلوا إخوتهم، وأن وتتولى همدان ومذحج الأمر وعندها سيخرجون من اللائمة[1].

وأحسن زياد بموقف اليمانية، لا سيما بعد أن علم أن نفراً منهم كانوا يأتون دور كنده ويعتذرون عن عدم تمكنهم من نجدتهم، فغير من خطته إزاء مقاومة حجر.

في بداية التخطيط أمر زياد همدان وتميم وهوازن وأبناء أعصر ومذحج وأسد وغطفان أن يتوجهوا إلى جبانه كنده، إلا أنه عدل عن هذه الخطة لخوفه من أن يقع الشغب بين مضر واليمن، وهناك ينقلب اليمانية ضد زياد، فأمر القبائل المضرية وهي هوازن وتميم وأبناء أعصر وأسد وغطفان أن تذهب إلى حجر، وأن تمضي مذحج وهمدان إلى جبانه كنده، أما باقي القبائل اليمانية فأمرها زياد أن تذهب إلى جبانه الصائدين ويأتوا بأصحاب حجر، فخرجت الأزد وبجيله وخثعم والأنصار وخزاعة وقضاعة. ولم يخرج أهل حضرموت عصبية لكنده، فهم يمانية أولاً ودعوتهم في الديوان مشتركة ثانياً، فكرهوا الخروج لطلب حجر.

وقد أثمرت خطة زياد هذه، فجاءت مذحج وهمدان بكل من وجدوه هناك من كنده، فامتدحهم زياد، وذم باقي القبائل اليمانية. ولما علم حجر بذلك بعث لأصحابه أن ينصرفوا لعدم قدرتهم على قتال أهل الكوفة الذين انحازوا إلى زياد[2].

أما كنده فقد حارب بعضها إلى جانب حجر، كما أنها استقبلت ابنها في دار سليمان بن يزيد الكندي، إلا أن حجر انتقل إلى دار عبدالله بن الحارث النخعي أخو الأشتر، ثم إلى إحدى دور الأزد، وخشي زياد من تنقله بين بيوت اليمانية، فطلب رئيس كنده، وهو محمد بن الأشعث بن قيس، وطلب منه أن يأتي بحجر وإلا هدم داره وقطع نخله، وإن استمر في الرفض فسوف يقتله[3].

(١) الطبري، تاريخ ٢٦١/٥، الأغاني، ١٣٩/١٧ (الهيئة المصرية).

(٢) الطبري، تاريخ ٢٦٠/٥-٢٦١، البياسي، الاعلام بالحروب ٦٨ مخطوط.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ٢٢٥، البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ٢١٨/١.

وهنا تدخلت رؤساء اليمن، فطلبوا من زياد أن يخلي سبيله حتى يتمكن من طلب حجر والإتيان به، غير أن حجراً لما علم بسجن رئيس قبيلته بعث يقول: أنه قد بلغني ما استقبلك به هذا الجبار العنيد فلا يهولنك شيء من أمره، فإني خارج إليك. فاجمع نفراً من قومك وادخل عليه وأسأله أن يؤمنني حتى يبعثني إلى معاوية. فجاء محمد بن الأشعث، وجرير بن عبدالله البجلي وعبدالله بن الحارث النخعي فأخذوا الأمان له من زياد[1].

واتبع زياد مع باقي أصحاب حجر نفس الأسلوب، فقد حبس عدي بن حاتم الطائي بعبد الله بن خليفة الطائي، وقد تدخلت القيسية واليمانية لدى زياد للافراج عنه إلا أنه رفض في بادئ الأمر، وبعد جهد وافق زياد وأمام إصرار عدي على عدم تسليم عبدالله تم الاتفاق على ان ينفى عبدالله من الكوفة ويخرج عدي من السجن[2].

وبعد أن قبض زياد على أصحاب حجر جمع رؤوس أرباع الكوفة وهم عمرو بن الحريث المخزومي الذي كان على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطه وكان على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد بن عبد شمس الذي كان على ربع ربيعة وكنده، وأبو برده بن أبي موسى الذي كان على مذحج وأسد فشهدوا أن حجراً قد جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حربة، وزعم أن الأمر لا يصلح إلا في آل علي بن أبي طالب[3]. وفي أمر الشهادة هذه غضبت ربيعة على رئيس ربعها لأن كندة من حلفائها[4].

وبعد ذلك أرسلهم زياد إلى معاوية وطلب منه أن يتشدد في أمرهم، لأنهم إن تركوا سيفتقون عليه فتقاً لا يرتق[5]. وأشار أنه في حالة عدم قتلهم، أن لا يردهم إلى الكوفة. ولما وصلوا معاوية، تردد كثيراً في شأنهم، واستشار بعض المقربين عليه فأشار عليه رجل يماني وهو يزيد بن أسد البجلي أن يفرقهم في نواحي الشام[6]، إلا أن معاوية، وقد عاد به ما حدث في عهد عثمان، وما ترتب على النفي من نتائج، فقرر

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ٢١٨/١.

(٢) البياسي، الاعلام بالحروب، ٧٠ ب مخطوطة.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ٢٢٢/١، الطبري، تاريخ ٢٦٨/٥.

(٤) الطبري، تاريخ ٢٧٠/٥.

(٥) ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣٥٧/١ بهامش الإصابة.

(٦) الطبري، تاريخ ٢٧٢/٥.

الخلاص منهم. وهنا أخذت العصبيات تتدخل، فاستوهب يزيد بن أسد البجلي رجلين من بجيلة فأجابه معاوية. واستوهب أبو الأعور السليمي رجلاً من هوازن، ووائل بن حجر الكندي استوهب رجلاً من كنده، وحمزه بن مالك الهمداني رجلاً من قبيلته، وحبيب بن مسلمه الفهري استوهب رجلاً من تميم[1]. ولما رأى مالك بن هبيرة السكوني ذلك جاء إلى معاوية وطلب أن يستوهب حجراً، غير أن معاوية قال: هذا رأس القوم وهو الذي أشعل المصر وأفسده، فإن وهبته لك اليوم ستقاتله غداً: فلم يقنع مالك بهذا الكلام وقال: والله يا معاوية ما أنصفتني، قاتلت معك ابن عمك حتى ظفرت ثم سألتك ابن عمي فسطرت على من القول مالا أنتفع به. وانصرف إلى بيته وهناك أخذ يجمع الجموع لأنقاذ حجر، فاجتمع إليه قومه من السكون وكنده وطائفة من أهل اليمن وقال: والله لنحن أغنى عن معاوية من معاوية عنا، وإنا لنجد في قومه منه بدلاً، ولا يجد منا في الناس خلفا، سيروا إلى هذا الرجل فلنحله من أيديهم، فاتجه مالك ومعه بعض اليمانية إلى حجر وأصحابه إلا أن نجدتهم جاءت متأخرة، فقتل حجر وجماعته، ولما علم مالك الأمر أرسل الخيل في طلب من نفذ الحكم فلم يجد أحداً منهم[2].

ولما علم معاوية بالأمر قال: إنما هي حرارة يجدها في نفسه وكأنها طفئت. والظاهر أن حركة مالك لم تكن ذا شأن، ومع هذا فقد بعث إليه معاوية يقول: أن أمير المؤمنين لم يمنعه أن يشفعك في ابن عمك ألا شفقة عليك وعلى أصحابك أن يعيدوا لكم حرباً أخرى، وإن حجر بن عدي لو بقي خشيت أن يكلفك وأصحابك الشخوص إليه، وأن يكون ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر وبعث إليه مع هذا الكتاب مائة ألف فأخذها وطابت نفسه[3].

وبقتل حجر وأصحابه ساد جو من الإرهاب في الكوفة، وتوقفت الشيعة عن السباب إلا أن موجة الاستنكار ظهرت في مختلف المناطق.

ففي الكوفة استفظع أهلها ما جرى استفظاعاً شديداً[4]. أما أهل الحجاز فقد

(١) ابن الأثير، الكامل ٣/٤٨٤-٤٨٥ (بيروت).

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١/٢٢٦-٢٢٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل ٣/٤٨٦-٤٨٧ (بيروت).

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال ٢٧٦.

بعثت عائشة إلى معاوية تقول: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟[1] وفي رواية ثانية إنها قالت أما والله لو علم أن عند أهل الكوفة منعة ما اجترأ على أن يأخذ حجراً وأصحابه من مدينتهم حتى يقتلهم في الشام[2].

وفي خراسان قال الربيع بن زياد الحارثي وهو من ربيعة: لا تزال العرب تقتل صبرا بعده، ولو نفرت الكوفة عند قتله لم يقتل رجل منهم صبرا، ولكنها أقرت فذلت[3].

إن هذه الأقوال والاحتجاجات تظهر أن حجر وجماعته ما كانوا يستحقون ذلك من معاوية، والواقع أن قتلهم قد عاد بالضرر على الأمويين أكثر من النفع لا سيما وأننا لم نر أن حجرا قد خلع طاعة معاوية، وهذا جاء بكتاب زياد نفسه الذي وجهه إلى معاوية. ولا أبالغ إذا قلت أن الاتجاه الشيعي قد زاد في الكوفة عما كان عليه من قبل ولكن بشكل سري.

والمشكلة الثانية التي واجهت زيادا في العراق هي العصبية القبلية وهي داء كان مستعصياً حتى ذلك الحين لا سيما في العراق نفسه.

لقد نظر زياد إلى هذا الداء المستشري فحاول إصلاحه، وإصلاحه هذا لم يكن بإخراج المرء من قبيلته، أو أن يغير من ديوان القبائل، وإنما لجأ إلى إعادة تنظيم البصرة والكوفة، ومحاربة من يدعو بدعوى الجاهلية.

ففي البصرة جعل القبائل أخماساً وعين على كل خمس رئيساً ووضع العرفاء وجعل خروج القبائل على الرايات وفي هذا التنظيم لا نجد فارقاً عما كان عليه في السابق، إلا أنه أراد أن يحدث تعديلاً ليجعل عدد القبائل متوازية في كل خمس وكان ترتيبه على النحو التالي[4]:

الخمس الأول: ويضم القبائل المضرية ومعها حلفاؤها من الأساورة والسيابجه والزط.

الخمس الثاني: قبائل عبد القيس.

(١) الطبري، تاريخ ٢٧٩/٥.
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب ٣٥٨ بهامش الإصابة.
(٣) الطبري، تاريخ ٢٩١/٥.
(٤) صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ٥٤.

الخمس الثالث: قبائل بكر بن وائل.

الخمس الرابع: قبائل الأزد.

الخمس الخامس: قبائل أهل العالية وهم قريش وكنانه وقيس وعيلان والأنصار وطوائف من قبائل أخرى، وهذه القبائل تجمعها رابطة المكان الجغرافي وهو الحجاز.

أما الكوفة فقد جعلها زياد أرباعاً بعد أن كانت اسباعا وهذه الأرباع هي:[1]

ربع أهل المدينة ويضم: قريشاً وكنانه والأزد وبجيله وخثعم وقيس عيلان ومزينه.

ربع: كنده.

ربع: تميم وهمدان.

ربع: مذحج وأسد.

وفي هذا التنظيم اختفت بعض القبائل التي كانت تسكن الكوفة مثل حمير وطيء والأشعريين وغيرهما، وهذا ينبيء أن زياداً ألحق القبائل القليلة العدد بالكوفة بالقبائل الكبيرة التي تتصل بها في النسب، كما رد طائفة أخرى من القبائل إلى أصولها، فوحد دعوتها، فألحق مثلاً قبائل قضاعة ومهره وحضرموت بكنده، وألحق حمير بهمدان والأشعر وطيء بمذحج[2].

ورافق هذا التنظيم أن اختيار رؤساء الأخماس والأرباع أصبح بأمر الوالي، وفي هذا التعيين إذلال للشعور القبلي، بحيث أصبح المسؤول عن القبيلة من خارج أبنائها، كما أن هذا التنظيم قد امتد إلى الجيش، فبدلاً من أن يخرج الجيش على شكل قبائل لكل قبيلة سراياها ورئيسها، أصبح يخرج على شكل مجموعات حسب الأرباع والأخماس.

غير أن هذا التقسيم وإن خفف من حدة العصبية في عهد زياد، إلا أنه عمق الشعور القبلي من جهة أخرى، وشجع على قيام تكوينات قبلية، بحيث أصبحت القبائل الصغيرة العدد تنضوي تحت رايات القبائل الكبرى والتي يجمعها نسب واحد.

(١) الطبري، تاريخ: ٥/٢٦٨.

(٢) احسان النص، العصبية القبلية ٢٢٤.

وتتبع زياد الشعراء الذين اتجهوا إلى الهجاء، وخاصة الفرزدق، فعندما هجا بني نهشل من تميم، جاءوا إلى زياد واشتكوا إليه، فأرسل زياد إلى عامله بالكوفة أن يأخذه، إلا أن الفرزق هرب والتجأ إلى سعيد بن العاص حيث استجار به وبقي هناك حتى وفاة زياد[1].

وحارب زياد المفاخرات والمنافرات، والبذخ في غير معنى، كما عاقب من يقتدون بأهل الجاهلية ويبيحون الناس أموالهم بقصد التفاخر والمباهاة، لقد غضب على الفرزدق لأنه نثر مالاً في المربد[2]، كما سجن مرة بن محكان السعدي لأنه أنهب الناس أمواله تحدياً لجماعة من قومه ينافسونه في الشرف[3]. وقمع أيضاً حوادث الثأر الفردي وأخذ على يد مرتكبيها[4].

غير أن هذه الأعمال لم تخمد نار العصبية القبلية، فالتيار القبلي كان أقوى من تنظيمات زياد بن أبيه، خاصة إذا كان نفسه لا زال يؤمن بالعصبية القبلية. لقد أنف زياد أن يقتل عربي بنبطي مسلم، وأمر العربي أن يعطي أولياء المقتول الدية فلم يقبلوها، وقالوا كنا نخبر أن دماء المسلمين تتكافأ وأن لافضل لعربي على غيره[5].

كما زرع زياد أيضاً العصبية القبلية المصبوغة بالصبغة الحزبية، حيث بنى لشيعة بني أمية من يبغض علياً مسجداً خاصاً بهم. كما أنه شجع القبائل على بناء مساجد خاصة بها. ومن المساجد التي أقيمت في عهده مسجد لبني مجاشع، ومسجد للحداث وهم من الأزد، ومسجد للأساورة[6]. لقد كان اعتزاز الفرد بقبيلته لا حد له ونرى ذلك أن عبدالله بن خليفة الطائي لم يتقدم إلى الوالي حتى يعيده إلى الكوفة، بل يستنجد بقبيلته طيء[7].

---

(١) الطبري، تاريخ ٥/٢٤٩.

(٢) المبرد، الكامل ١/٢٩١، الطبري، تاريخ ٥/٢٤٢، النقائض ١/٦٠٧وإحسان النص العصبية القبلية ٢٤٠.

(٣) الأصفهاني، الأغاني ٢٠/٩ (ساسي) احسان النص، العصبية القبلية ٢٤٠.

(٤) النقائض ١/٧٨، احسان النص، العصبية ٢٤٠.

(٥) البلاذري أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١/ ٢٢٠.

(٦) المصدر السابق، جـ٤، قسم ١/ ٢٢٠.

(٧) الطبري، تايرخ ٥/٢٨١-٢٨٤.

وظهرت العصبية أيضاً عند أنس بن اناس الكناني[1]. ضد حنيفة عندما عزله زياد عن خراسان وولاها إلى خليد بن عبدالله الحنفي[2].

والمشكلة الثالثة: هي مشكلة المشاغبون من الأفراد والجماعات فهؤلاء كان لا بد من عمل حازم معهم، ولا يذكر المؤرخون ما قام به زياد، غير أنني أستشف من خلال أعماله فكرة واضحة وهي إبعادهم عن مركز الشغب. واتبع في ذلك وسيلتين:

الأولى: إرسالهم إلى الجهاد.

الثانية: نقلهم من مكان إلى آخر، وظهر ذلك في نقل بعض الخوارج إلى مصر وبعض الموالي إلى ساحل بلاد الشام، كما أرسل مع الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥١هـ خمسة وعشرين ألفاً من كل مصر من أمصار العراق معظمهم من ربيعة وتميم إلى خراسان وهناك قسم هؤلاء أرباعاً حسب تنظيمات الكوفة[3].

وبهذه التدابير أبعد زياد عن العراق عناصر الشغب، واستتب له الأمر فيه، لكنه بفعله هذا خلق بذلك مشكلة جديدة لم تظهر آثارها سريعاً بل بعد ستين أو سبعين سنة، فقد كان هؤلاء المشاغبون هم سبب من أسباب سقوط الدولة الأموية فكأن زياداً نقل الشر من مكان إلى مكان.

والقضية الرابعة: هي مشكلة الخوارج، و في محاربتهم أتبع زياد نفس خطة المغيرة من قبل وهي إلزام القبائل مسؤولية تصرف ابنائها و قال بهذا الشأن: إني أعطي الله عهداً لا يخرج على خارج بعدها، فأدع من حيه وقبيلته أحداً، فاكفوني بوائقكم[4].

وحتى يذل زياد القبائل، كان يأتي بالخارجي فيقتله ويلقيه في قبيلته فلا تحرك ساكناً[5] وبالإضافة إلى إلزام القبائل بعدم خروج أفرادها، كان يهدد هذه القبائل أيضاً

---

(١) في جمهرة ابن حزم انس بن أناس ١٨٤.
(٢) الطبري، تاريخ ٥/٢٨٥-٢٨٦.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان ٥٠٦.
(٤) اليعقوبي، تاريخ ٢/٢٢٠.
(٥) الطبري، تاريخ ٥/٢٢٨.

بوقف العطاء[1] وبفعل هذه السياسة، كانت القبائل إذا أحست بخارجي أوثقوه وأتوابه زياداً، فمنهم من يحبسه ومنهم[2] من يقتله.

وتنبه زياد إلى عادة جاهلية أحياها الخوارج وهي إخراج النساء إلى ساحات القتال. فجاء بأمرأة منهم فقتلها وعراها، فلم تخرج النساء إلا بعد زياد، وكن إذا أرغمن على الخروج قلن لولا التعرية لسارعنا[3].

ومع عنف زياد إلا أن أهل العراق لم يخفوا إعجابهم بإدارته، فالمدائني يقول عنه: أي سائس كان زياد لولا أسرافه على نفسه في العقوبات وسفك الدماء، كان إذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتله فملأوا بيوتهم من كل حلو وحامض، ويستقبلون رمضان بذلك، وإذا كان ذو الحجة أخرج أعطية الذرية[4].

وبعد موت زياد سنة ٥٣هـ فصل معاوية بين المصريين ولم يجمعا إلا في عهد خلفه يزيد لعبيد الله من زياد.

ونتيجة هدوء الحال في العراق تفرغ والي الشرق للفتوحات في منطقته[5].

أما في مصر فقد اعتمد معاوية على عمرو بن العاص الذي كان الأمر فيها أمره[6]، وبقي فيها حتى وفاته سنة ٤٣هـ. ويذكر أن معاوية قد هم بعزله إلا أن خشيه فأبقاه في مصر وبعد عمرو بن العاص تعاقب على مصر عدد من الولاة. وكانت الحالة هادئة بالرغم من أن أهلها لم يقبلوا عبدالرحمن بن أم الحكم والياً عليهم[7].

كما اعتمد معاوية هناك على رجالات القبائل، وأهمهم معاوية بن حديج، وكان هذا إذا قدم على معاوية زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيماً لشأنه[8]. كما يستدل

---

(١) الطبري، تاريخ ٥/٢٣٨.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/١٥١.
(٣) المصدر السابق، ١/١٥١.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١/١٩٤.
(٥) انظر اليعقوبي ٢/٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٧.
(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١/١٨.
(٧) ابن تغريبي بردي، النجوم الزاهرة، ١/١٤٣.
(٨) المصدر السابق، ١/١٥٢.

على عظم شأنه من الحوار الذي دار بينه وبين أم الحكم أخت معاوية حيث قال لها . . أردت أن يلي ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة، ما كان الله ليريه ذلك، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يطأطئ منه، وإن كره ذلك الجالس (معاويه)[1].

وكما كانت المظاهر القبلية تتعمق في العراق، فقد كانت كذلك في مصر، فالقبائل على عهد عمرو بن العاص كانت تخرج إلى المرتبع، وكل قبيلة تتخذ مكاناً خاصاً بها، كما أننا نلاحظ أن مسلمة بن مخلد يأمر كل قبيلة أن تبني منارة مسجدها ثم نراه يوحد وقت الآذان[2]. كما كان لكل قبيلة عريف يطوف كل يوم عليها حتى يسجل الولادات الجديدة أو الهجرات القادمة في سجل الديوان[3].

وفي الشام فقد تمكن معاوية من إقامة نوع من التحالف السياسي بين القبائل[4] كما تقرب إلى القبائل القضاعية عندما أصهر إلى قبيلة كلب. ومع وجود التحالف هذا إلا أن العصبية قد امتدت إلى الشام وسيكون لها أثر على الدولة أكثر مما كان في العراق.

وفي الحجاز، كانت الحالة هادئة، حيث رضوا بالهزيمة كما رضيها العراق غير أن هدوءهم مؤقتاً، وسينهض كل منهما لاستعادة ما فقد منه.

لقد استطاع معاوية بسياسته أن يخمد نار العصبية القبلية، وأن يتجه إلى الفتوحات، فكان هناك ثلاث جبهات.

الغربية: وكان القائد فيها عقبه بن نافع الذي استطاع أن يخضع عدداً من القبائل البربرية، وخير ما قام به تأسيس مدينة القيروان لتكون قاعدة للجيوش الفاتحة.

الشرقية: وكان البطل فيها المهلب بن أبي صفرة الذي حقق انتصارات عديدة على الترك.

جبهة الروم: اهتم معاوية بها كثيراً فأحدث نظام الصوافي والشواتي، كما جهز حملة لفتح القسطنطينية سنة ٤٨هـ إلا أن هذه الحملة قد فشلت بسبب النار الاغريقية.

(١) الطبري، تاريخ ٣١٢/٥.
(٢) الكندي، الولاة ٣٧-٣٩.
(٣) ابن عبدالحكم، فتوح مصر ١٠٢.
(٤) فلهوزن، الدولة العربية وسقوطها ١٢٧.

غير أن هذه الحال سوف لا تدوم طويلاً، وستعود الفتن إلى جسم الدولة الاسلامية لاسيما وأن هدوءالامصار زمن معاوية لم يكن هدوء المؤمن الصادق، بل كان ولاء الخائف الراهب، فتميم وبكر وباهله بقيت على ولائها لعلي[1] والعراق لا زال يهدد، وطبق ذلك بالفعل عندما طرد عبدالرحمن بن أم الحكم[2] والحجاز يتربص الفرص.

معاوية وولاية العهد:

اعتقد معاويه أن في طلب ولاية العهد لابنه سيخفف من ويلات الفتن التي أصبحت تظهر عند وفاة كل خليفة، غير أن اعتقاده لم يكن في محله فعاد عمله هذا بنتائج سلبية على الدولة الاسلامية.

لقد تعددت الروايات في أمر المشير على معاوية، بالبيعة لابنه، فرأي يقول المغيرة بن شعبه[3]، و ثاني أن عمرو بن سعيد بن العاص قال لمعاوية لقد أصبحت عينك غائرة ولونك كاسفاً وأنفك ذابلاً فاعهد أيها الرجل ولا تنخدع[4]، و ثالث أن يزيد نفسه قد طلب الخلافة من أبيه[5]، وخلاصة الأراء أن معاوية نفسه[6] كان يرى أن يبايع لابنه حتى يحافظ على الخلافة في بني أمية وفي ذلك يقاول معاوية لأخبرنكم عني يا بني أمية: لن يبرح هذا الأمر فيكم ما عظمتم ملوككم فإذا تمناها امرؤ منكم لنفسه وثب بنو عبدالمطلب في أقطارها[7].

لقد دفعت عاطفة معاوية نحو ابنه لأخذ البيعة له، وذلك تقليد استنه معاوية لمنع الخلاف وحقن الدماء -حسب رأيه- إلا أنه تقليد يمنع الأصلح ويقرب غير المناسب لأمر الخلافة.

---

(1) الخربوطلي، العراق في العهد الأموي ٧٨.

(2) الطبري، تاريخ ٣١٤/٥.

(3) ابن الأثير، الكامل ٥٠٤/٣ بيروت.

(4) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١٣١/١.

(5) قيد الشريد في أخبار يزيد ٢ب مخطوط.

(6) انظر نسب قريش ١٢٧.

(7) أبو هلال العسكري، الأوائل ١٩١.

لقد قام معاوية بطلب البيعة لابنه بعد وفاة الحسن، فأرسل إلى زياد يستشيره في هذا الشأن، فكان جواب زياد أن يتريث معاوية بالأمر، ولما مات زياد عاد إلى فكرته وأرسل إلى أهل المدينة يستشير كبار أهلها في شأن البيعة بولاية العهد، فاستحسنوا هذه الفكرة في بادئ الأمر، ثم لما علموا أن المرشح هو يزيد بن معاوية أظهروا معارضة في ذلك[1].

ولما أحس معاوية بمعارضة أهل الحجاز، اتجهت أنظاره إلى أمصار الدولة الأخرى، فطلب وفداً من العراق ومصر وبالطبع حضر الاجتماع وفد من أهل الشام وقد رحب أهل الشام ومصر بفكرة معاوية، إلا أن أهل العراق لم يعطوا جواباً قاطعاً، بل تركوا الأمر لمعاوية كي يقرر بنفسه إذا كان يزيد يصلح للخلافة أم لا[2].

وفي هذا الاجتماع لم يمثل الحجاز به، ولا تعطينا الروايات التاريخية سبب ذلك إلا أنه يمكن الاستنتاج بأن معاوية قدعلم برأي الحجازيين في ابنه فأراد أن يجتمع بهم على انفراد، كما أن عبدالله بن الزبير ما إن علم بأن البيعة ليزيد حتى أشار على معاوية بأن يفكر ملياً قبل أن يقدم على هذا الأمر[3].

وبعد أن أمن معاوية العراق والشام ومصر، اتجه نحو الحجاز، ولما وصل المدينة خرج منها عبدالله بن عمر وابن الزبير وعبدالرحمن بن أبي بكر واتجهوا إلى مكة، فلحقهم معاوية وهناك استدعى كلاً منهما على انفراد.

فكان أول من دخل عليه ابن عمر، فحذره معاوية من شق عصا الطاعة، والفساد بين المسلمين، وطلب أن يبايع ليزيد فقال ابن عمر: .. لقد كانت قبلك خلفاء لهم أبناء وليس ابنك بخير من أبنائهم فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار، وانك تحذرني أن أشق عصا المسلمين، وأن أسع في فساد ذات بينهم، ولم أكن لأفعل. إنما أنا رجل من المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم، فقال معاوية يرحمك الله.

أما عبدالرحمن فقال: إنك والله لوددت إنا وكلناك في أمر ابنك إلى الله وإنا

---

(١) المصدر السابق الأوائل ١٨٩.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/١١١-١١٢.

(٣) المصدر السابق، ٥/١١١ت.

والله لانفعل، والله لتردّن هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لنعيدنها عليك جذعه.
فقال معاوية: . . . على رسلك أيها الرجل لا تشرفن بأهل الشام فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك حتى أخبر العشية أنك قد بايعت ثم كن بعد على ما بدالك من أمرك.

وقال معاوية لابن الزبير عندما دخل عليه: إنما أنت ثعلب مراوغ كلما خرج من جحر دخل آخر، إنك عمدت إلى هذين الرجلين فنفخت في مناخرهما وحملتهما على غير رأيهما. فقال ابن الزبير: إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها وهلم ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع لأيكما نطيع؟ لا تجمع البيعة لكما والله أبداً.

وبعد هذه المقابلة صعد معاوية المنبر وقال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذوات عوار، زعموا أن ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر لم يبايعوا يزيد، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له.

فأراد أهل الشام أن يبايعوا على رؤوس الناس وإلا ضربت أعناقهم فقال معاوية. . . سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم. ثم نزل فقال الناس بايعوا ليزيد وهم يقولون لا والله ما بايعنا[1].

وفي هذه الرواية نرى أن الحسين لم يكن مع هؤلاء، ولا يذكر ابن خياط أين كان، وفي رواية ثانية ذكرها أن الأربعة قد قابلوا معاوية فرحب بهم أجمل ترحيب وذلك في مكة، فعرف هؤلاء ما يريده معاويه منهم ففوضوا الأمر إلى ابن الزبير حتى يتكلم باسمهم، فوافق ابن الزبير على ذلك بعد أن أخذ العهود والمواثيق ألا يخالفوه. فلما تكلم معاوية وطلب البيعة ليزيد وقف ابن الزبير وقال: . . . نخيرك من ثلاث خصال أيها ما أخذت فهو لك رغبة . . . إن شئت صنعت ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فلم يعهد عهداً ولم يستخلف أحداً فارتضى المسلمون أبا بكر. وإن شئت صنعت ما صنع أبو بكر فهو خير هذه الأمة بعد رسول الله، عمد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه ولا من رهطه الأدنين فاستخلفه، فإن شئت أن تنظر أي رجل من قريش شئت ليس من بني عبد شمس فنرضى به.

وإن شئت صنعت ما صنع عمر فهو خير هذه الأمة بعد أبي بكر، جعل هذا الأمر شورى في ستة نفر من قريش ليس فيهم أحد من ولده، ولا من بني أبيه ولا من رهطه،

(1) ابن خياط، تاريخ ١/٢٠٢.

فقال معاوية: . . . أنه قد أعذر من أنذر وأنه قد كان يقوم منكم القائم إلي فيكذبني على رؤوس الناس، فاحتمل ذلك وأصفح عنه، وإني قائم بمقالة أن صدقت فعلي صدقي وإن كذبت فعلي كذبي، وإني أقسم لكم بالله لئن رد علي منكم إنسان كلمة في مقالي هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يسبق إلى رأسه، فلا يرعين رجل إلا على نفسه. ثم دعا صاحب حرسه فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين من حرسك، وأوصاه بقتل كل من يعارض. فصعد معاوية المنبر وأعلن أن هؤلاء النفر قد بايعوا ليزيد فقال لهم الناس زعمتم وزعمتم فلما أرضيتم وحبيتم فعلتم، فقالوا: إنا والله ما فعلنا[1].

والحق أن هؤلاء لم يبايعوا يزيد ويظهر ذلك في وصية معاوية لابنه حين وفاته إذ جاء فيها: . . . وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، عبدالله بن عمر، عبدالله بن الزبير، عبدالرحمن بن أبي بكر[2]. وهكذا نرى أن معاوية لم يكن موفقاً بصيانة وحدة المسلمين، فقد أخذت الانقسامات تظهر بين قريش، وحتى في البيت الأموي نفسه، فما أن علم مروان بأن معاوية يطلب البيعة لابنه حتى جاء إليه وقال: أقم الأمور يا معاوية وأعدل عن تأمير الصبيان[3].

وقبل وفاة معاوية أوصى يزيد بقوله: - انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب. وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من تشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم[4].

مات معاوية سنة ٦٠هـ ويزيد خارج دمشق، فقام الضحاك بن قيس الفهري فنعى موته إلى الناس وطلب أن لا يحمل نعشه إلا قرشياً، فحملته قريش ساعة، ثم احتج أهل الشام على ذلك فسمح لهم الضحاك بحمله[5].

(١) ابن خياط، تاريخ ٢٠٢/١-٢٠٣.
(٢) الطبري، تاريخ ٣٢٣/٥.
(٣) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة ١٥٢/١، المسعودي، مروج الذهب، ٣٨/٣.
(٤) الطبري، تاريخ ٣٢٣/٥، وانظر قيد الشريد ٣أ.
(٥) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة ١٧٤/١.

رحل معاوية بعد أن أعتقد أن الأمور ستسير حسب ما اعتقده، إلا أن ذلك لم يتحقق، فما إن مات حتى انقسمت قريش على نفسها، وانقسم معها العرب. ففي البداية قام الحسين ضد يزيد ثم تبعه ابن الزبير ولم تلتئم وحدة المسلمين إلا بعد سنوات عدة.

يزيد بن معاوية والتيارات الحزبية والقبلية:

لقد شجع معاوية على الاهتمام بعلم الأنساب، وفي عهده أخذ الطعن بالأنساب والوضع فيها يأخذ أبعاداً كثيرة، حتى أن بعض الأنساب قد أخذت تخضع للأهواء السياسية، وبالإضافة إلى الاهتمام بالأنساب فقد أخذت بعض المظاهر القبلية تعود إلى ما كانت عليه في العصر الجاهلي. وظهر ذلك في أمرين: الأحلاف، والمهاترات الشعرية.

أما بالنسبة للأحلاف فقد ظهرت في العراق وفي الشام وحتى في مصر، ففي العراق جدد حلف ربيعة وكنده، والظاهر أن سبب ذلك أن مضر كانت أكثر عدداً من ربيعة في البصرة، وزاد من كثرتها أنها حالفت الأساورة والزط والسيابجة فلما هاجرت الأزد جاءت تميم الى الاحنف وطلبت ان يطلب حلف الأزد قبل ان تسبقهم اليه ربيعه، غير أن الاحنف اعتبر ذلك إذلالا لتميم، وقال: ان أتوكم فاقبلوهم ولا تأتوهم فإنكم إن أتيتموهم صرتم لهم اتباعا. واستغل مالك بن مسمع هذه الفرصة وطلب من رئيس الأزد مسعود بن عمر تجديد حلف ربيعة وكنده الذي كان في الجاهلية فوافقت الأزد على أن تكون الرئاسة فيهم.

ولما سمع الأحنف بذلك قال لمالك بن مسمع أحلف في الاسلام؟ فأجابه مالك: حالفت على الزط والسيابجه. فقال معاذ الله، فقال مالك: يا أبا بحر كانت نعمة سبقناك إليها. فقال الأحنف: والله ما أردتها ولتحلبنها دما عبيطا، لقد حالفت قوما إن اتبعتهم استذلوك وأن خالفتهم غروك وقهروك[1]. وقيل في هذا الحلف غير ذلك، وحسب ما يذكر الطبري ان عبيد الله من زياد قد بذل أموالا طائله في سبيل إقامة هذا

---

(1) البلاذري، أنساب الاشراف حـ٤ قسم ٢/١٠٦.

الحلف وذلك بعد وفاة يزيد بن معاويه[1]. وكان الهدف منه حماية ابن زياد من المضرية ورده الى دار الاماره[2].

وقد امتد هذا الحلف الى الكوفه وخراسان[3]، فأصبحت القبائل اليمانية الربعيه في جهة، والقبائل المضرية في جهة أخرى[4]،

ومن الأحلاف التي ظهرت أيضا حلف الأساوره والأزد في البصرة، غير أن هذا الحلف لم يدم طويلا، لأن الأساوره انتقلوا الى تميم لأنهم أقرب الاحياء الى الرسول " صلى الله عليه وسلم "[5]. واعتقد ان هذا ليس سببا كافيا للانتقال، بل إن الأساوره اتجهوا الى الاقوى، ولما كانت المضرية هم أكثر الناس هناك أقاموا حلفهم معهم.

أما في مصر فقد تحالفت قبيلة مدلج مع حمير واقامتا بخربتا[6].

وفي الشام يذكر ابن عبد البر أن قضاعة لم تزل في نسبتها في معد في الجاهلية وأول الاسلام الى احدث حلفا بينها وبين أهل اليمن أيام ابن الزبير وبني مروان أثناء غارات عمير بن أبي الحباب السلمي على كلب، وغارات حميد بن حريث الكلبي على فزاره. وقد جاء التأكيد على الحلف من عمرو بن مرة الجهني الذي قال: إن قضاعه بن مالك بن حمير وماأهم على هذه النسبة خالد بن يزيد بن معاويه وقال: أطيعوني وحالفوا اليمن وانتسبوا إليها فانكم تدلون بذلك بني مروان، ومن انحط في أهوائهم من قيس وغيرهم. فأجابه بعضهم وعصاه الآخرون- وكان بعضهم يقول حالفنا اليمن والبعض الآخر يقول بل نحن منهم[7].

وفي الحجاز هدد الحسين بأحياء حلف الفضول، وذلك عندما تنازع مع أمير المدينة الوليد بن عتبه بن أبي سفيان على حق له. فتحامل الوليد على الحسين فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي، اولآخذن سيفي، ثم لأقومن في مسجد

(1) الطبري، تاريخ ٥/٥١٦-٥١٧.
(2) ابن الاثير، الكامل ٣/٣٢٥.
(3) مجهول، الفاصل بين الحق والباطل ١/١٨٦.
(4) البلاذري، فتوح البلدان ٣٦٦.
(5) مجهول، الفاصل بين الحق والباطل ١/١٨٦.
(6) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ١٤٢.
(7) ابن عبد البر، الانباه على قبائل الرواة ٦١.

رسول الله ثم لأدعون بحلف الفضول. فقال عبد الله بن الزبير: وأنا أحلف بالله لئن دعابه لآخذن سيفي ثم لأقومن معه، حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا. وبلغت المسور بن مخرمه بن نوفل الزهري وعبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي مقالة الحسين فقالا مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبه أنصف الحسين من حقه[1].

وتظهر العودة الى الاحلاف أيضا من كتاب معاويه الى مروان بن الحكم عندما ضرب عبد الرحمن بن سيحان: "لو كان حليفا للحكم ما ضربته" وكان عبد الرحمن هذا حليفا لأبي سفيان[2].

وبالنسبة للمهاترات الشعرية فقد عادت الى ما كانت عليه أيام الجاهلية، وهذا اللون الشعري لم يأت من الشعراء فحسب، بل إن الخلفاء والولاة قد شجعوا عليه. فهذا يزيد بن معاويه يبعث الى الفرزدق حتى يهجو له الأنصار، فبعث اليه الفرزدق أرادي أنت الى الشرك بعد الاسلام، لا أهجو قوما نصروا رسول الله، ولكن أدلك على غلام نصراني كأن لسانه لسان ثور- يعني بذلك الأخطل. فطلبه يزيد وطلب منه هجاء الأنصار، فلم يخيب الأخطل ظنه وقال:

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

فلما علمت الأنصار طالبت بقطع لسان الأخطل، فوافق معاويه على ذلك الا أن يزيد تدخل في الأمر واعتذر الى النعمان بن بشير الانصاري فأسقط الأنصار حقهم[3].

ولم يقتصر تشجيع الشعراء على الخلفاء والولاة فحسب، بل اخذت القبائل تتسابق في اعلان حمايتها للشعراء، فعندما هجا ابن مفرغ بني زياد بن أبيه وتم سجنه، تسابقت اليمانية وقريش من أجل اخراجه من السجن. اليمانية لأنها اعتبرته منها، وقريش لأنه كان حليفا لبني أميه. كما ان يزيد نفسه لم يوافق على قتله وبعث الى عبيد الله بن زياد: إن له عشيرة هي جنده وبطانته ولا ترضى بقتله مني، ولا تقنع الا بالقود منك فاحذر ذلك[4]. ومما زاد من حدة هذه المهاترات أن الشعراء قد دخلوا ضمن

(١) ابن هشام، السيرة ١/١٥٥ (بحاشية الروض الأنف طبعة ١٩٧١).

(٢) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ٣٠٥.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين ١/١٩٧-١٩٨.

(٤) الأصفهاني، الاغاني ١٨/٢٦٢،٢٦٣،٢٧٠ (الهيئة المصرية).

الأحزاب السياسية، فالأخطل يدافع عن تغلب وبني أميه، وجرير يعتز بمضر ويدافع عنها، وسوف تزداد حدة هذه المناقضات في عهد عبد الملك وخاصة أيام غارات قيس وكلب وقيس وتغلب.

الاحداث في عهد يزيد:

أراد معاويه من نظام ولاية العهد حقن دماء المسلمين ومنع الاختلاف، غير أن هذه البدعة لم تحل دون نزف الدماء، فأدت الى انقسام قريش من جديد، ونشوء صراع عنيف بين رجالاتها.

ويخبرنا الجاحظ أن أهل الشام قد تباطؤا عند تجديد البيعة ليزيد حتى قام روح بن زنباع الجذامي وقال: إنا لا ندعوكم الى لخم وجذام وكلب ولكنا ندعوكم الى قريش ومن جعل الله له هذا الأمر واختصه به وهو يزيد بن معاوية، ونحن أبناء الطعن والطاعون وفضالات الموت وعندنا إن أحببتم وأطعتم من المعونة والعائدة ما شئتم فبايع الناس[1].

وما أن تسلم يزيد الخلافة حتى وجد أمامه عدة اتجاهات مختلفة:

الأولى: أهل العراق وفيها نزعتان مختلفتان الأولى اعرابية السياسة.

والثانية: اتجاه عاطفي شيعي وقد مثل هذه السياسة الحسين بن علي.

أما الحجاز فقد اصبح يمثل السياسة الاسلامية ذات الاتجاه الراشدي، ومثلها عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وابن عباس، وهؤلاء جميعا تتجه الأنظار إليهم في شأن الخلافة، غير أنهم يمثلون نزعة مخالفة لنزعة معاوية في السياسة العملية. وكان على يزيد ان يستعد لمواجهة هذين التيارين.

بعد أن أخذ يزيد بيعة أهل الشام، أرسل الى واليه على المدينة الوليد بن عتبه أن يأخذ البيعة له من الحسين وابن الزبير وابن عمر ويقول في كتابه: خذهم أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا[2].

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ١/٤٠٢.

(٢) الطبري، تاريخ ٥/٣٣٨.

ولما وصلت الرسالة الى الوليد احضر الثلاثة وطلب بيعتهم الا أن الحسين وابن الزبير استمهلا الوليد فأمهلهما بالرغم من نصيحة مروان بعدم الامهال، فخرج كل منهما من المدينة واتجها الى مكه. وهناك أخذت كتب العراق تتوالى عليه[1]. فعقد العزم على الخروج اليهم.

والواقع ان العاطفة الشيعية قد أزدادت عند أهل العراق بعد مقتل حجربن عدي، فجاء نفر منهم الى الحسين في المدينة، فكتب مروان الى معاوية بذلك فكتب اليه أن لا يعرض للحسين في شيء لأنه قد بايع وليس بناقض بيعته، ولا مخفر ذمته. وبعث الى الحسين يقول له: لقد انتهت إلي أمور عنك لست بها حريا، لأن من أعطى صفقة يمينه جدير بالوفاء، فاعلم رحمك الله أني متى أنكرك تستنكرني ومتى تكدني أكدك فلا يستفزنك السفهاء الذين يحبون الفتنة. فرد عليه الحسين ما أريد حربك ولا الخلافة عليك[2].

وبعد موت معاوية اصبح الحسين في حل من وعده السابق، ثم هو لم يبايع للخليفة الجديد، فخرج الى العراق. وتظهر أسباب خروجه من خطابه الذي ألقاه في كربلاء حيث جاء فيه: " أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله مخالفا لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله وأنا أحق من غيري "[3].

وأراد الحسين ان يعرف حقيقة الأمر في العراق فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفه، ليرى هل ما كتبوه حقا، وهل هم جادون في الأمر؟ فاذا كان ذلك صحيحا خرج إليهم بنفسه. ولما قدم مسلم الكوفه اجتمع اليه عدد كبير وبلغ من بايعه ما بين

---

(1) مصعب الزبيري، نسب قريش ٢٣٩، الدينوري، الاخبار الطوال ٢٣١، ابن الأثير الكامل ٣/٢٦٨، بيروت.

(2) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٢٦.

(3) الطبري، تاريخ ٥/٤٠٣.

١٢-٣٠الفا[1] ومن هناك كتب مسلم الى الحسين يخبره بالأمر فعقد العزم على الخروج.

وقد نصح الحسين بعدم الخروج عدد كبير من أهل المدينة ومكه، فعبد الله بن مطيع حذره من الخروج وقال له: إن الكوفة بلد مشئؤومه[2]. وأبو بكر بن الحارث بن هشام قال: يا ابن عم أن الرحم يظائرني عليك ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك وكان أبوك أقدم سابقة وأحسن في الاسلام أثرا وأشد بأسا والناس له أرجى .... لكنهم خالفوه[3] وحذره عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن العباس ومحمد بن الحنيفة، حتى ابن الزبير جاء اليه وقال: أتخرج الى قوم قتلوا أباك وأخرجوا أخاك[4]!! وعرض عليه ان يبقى في الحجاز وسوف يساعده ويؤازره ويبايعه بالخلافة[5].

وقال أبو سعيد الخدري: لقد غلبني الحسين على الخروج، وقد قلت له اتق الله والزم بيتك ولا تخرج على إمامك[6].

كما أن عمرو بن سعيد بن العاص بعث اليه مع عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد يقول له: إنك قد توجهت الى العراق، وأني أعيذك بالله من الشقاق، فأني أخاف عليك فيه الهلاك.. فأقبل إلي فإن لك عندي الأمان والصلة والبر وحسن الجوار[7].

وبعد خروجه لقيه الفرزدق فصور له وضع أهل العراق أحسن تصوير عندما قال له: إن قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أميه[8].

أما يزيد فما أن علم بما تم في الكوفه حتى سارع الى عزل النعمان بن بشير الانصاري عنها، وضمها الى عبيد الله بن زياد، وفي الحال توجه عبيد الله الى الكوفه

(١) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٣٤، الطبري، تاريخ ٣٥٨/٥.
(٢) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٣٠.
(٣) المسعودي، مروج الذهب ٦٦/٣.
(٤) مصعب الزبيري، نسب قريش ٢٣٩.
(٥) الطبري، تاريخ ٣٨٤/٥ وانظر الروايات التي تظهر رغبة ابن الزبير في خروج الحسين: ابن خياط، تاريخ ٢٢٣/١-٢٢٤، الطبري تاريخ ٣٨٤/٥ تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول ١٦٢.
(٦) الذهبي، تاريخ الاسلام ٣٤٢/٤.
(٧) الطبري، تاريخ ٣٨٨/٥.
(٨) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٤٥، الطبري، تاريخ ٣٨٦/٥.

بعد أن استخلف على البصرة عثمان بن زياد، مهدداً إياهم بقوله . . . . لئن بلغني عن رجل منكم خالف أو أرجف لأقتلنه ووليه وعريفه ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا إلي ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق. ووضع عيونا له على الطرق، واتجه الى الكوفه، معه بعض اشراف البصره أمثال شريك بن الأعور السلمي، والمنذر بن الجارود العبدي، ومسلم بن عمرو الباهلي[1]. والظاهر أن لبعض هؤلاء كانت ميول شيعية أمثال شريك فخشي ابن زياد من بقائهم في البصره.

دخل ابن زياد الكوفه ملثما فكان لا يمر بجماعة إلا ظنوه الحسين حتى وصل الى قصر الامارة، وهناك اتخذ عدة تدابير وقائية ضد الفتنة. استدعى ابن زياد العرفاء وطلب منهم ان يكتبوا اسماء الغرباء ومن يطلبه الخليفة، واسماء أهل الريب والحرورية وهدد العريف الذي يقدم بيانات كاذبه أو يخفي أموراً عن الوالي بالقتل، ومنع العطاء والنفي عن العراق[2]. وعندما علم مسلم بقدوم زياد التجأ الى دار هانيء بن عروه المذحجي، فاجتمعت الشيعة اليه، وهناك وضع مخططا للايقاع بابن زياد، الا أن هذا المخطط فشل لضعف ارادة مسلم بن عقيل[3]. وبعد أن هدد ابن زياد العرفاء، اتجه الى الرؤساء، فأعظم رشوتهم حتى استطاع ان يؤلبهم على مسلم[4]. كما طلب منهم أن يخذلوا الناس عن مسلم بن عقيل[5].

وبعد ذلك استطاع بالحيلة ان يتوصل الى موضع مسلم فأرسل الى هانيء بن عروة وطلب إليه تسليم مسلم، غير أن هانئا قال: لا أدفع جاري وضيفي وأناحي صحيح اسمع وأرى. فهدده ابن زياد بالقتل وقال له: اذا تكثر البارقة حول دارك، فقال هانيء أبا البارقة تخونني، وهو يظن أن عشيرته ستمنعه[6].

وأمام رفض هانيء تسليم مسلم بن عقيل انهال عليه ابن زياد بالضرب فكسر أنفه فأشيع أن هانئا قد قتل، فجاءت مذحج وحاصرت القصر، فاستنجد ابن زياد بشريح

---

(١) المصدر السابق، ٢٣٤، الطبري، تاريخ ٥/٣٥٨.
(٢) الطبري، تاريخ ٥/٣٥٩.
(٣) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٣٥-٢٣٦.
(٤) ابن الاثير، الكامل ٤/٤٩ (بيروت).
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/١٥٤-١٥٥.
(٦) الطبري، تاريخ ٥/٣٦٦-٣٦٧.

القاضي وأمره ان يخرج الى الناس ويخبرهم أن هانئا لا زال على قيد الحياه. ولما رأى مسلم ما حدث لهانيء خرج الى قتال ابن زياد، وهنا ظهر خذلان الكوفة إليه فلم يخرج معه سوى أربعة آلاف، غير أنهم استطاعوا محاصرة القصر، فاستنجد ابن زياد برؤوس القبائل وقال لهم: ليشرف كل رجل منكم في ناحية من السور وخذلوا القوم[1].

لقد قام رؤساء الكوفة يهددون العراق بأهل الشام، وبأن الخليفة سيقطع العطاء ويفرق المقاتله في مغازي الشام[2]. وهكذا نرى أن المصالح الشخصية لهؤلاء الرؤساء قد غلبت على كل شيء.

سمع الناس ذلك فتفرقوا عن مسلم، حتى أن المرأة كانت تأتي ابنها وأخاها فتقول: انصرف الناس. ويجيء الرجل الى ابنه وأخيه فيقول: غدا يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر[3]. فما زالوا يتفرقون عنه حتى لم يبق معه سوى ثلاثين رجلا. فاتجه بهم نحو كنده فلم ير أحدا بجانبه، بل إن بعض أهل الكوفه أخذوا يرمونه بالحجاره، فدخل دار امرأة من كنده، وما أن علم محمد بن الأشعث وجوده عند قبيلته حتى أخبر زيادا بذلك، متناسياً حرمة الإجاره فبعث اليه ابن زياد مائة رجل من قريش فجاءوا به، وقد كره أن يبعث اليه من غيرهم حتى لا تقع العصبية[4].

ولما مثل مسلم أمام ابن زياد قتله، أما هانيء فقد اخرجه الى سوق بيع الغنم وهو مكتوف الأيدي حيث قتله هناك ولم ينفعه قول "وامذحجاه". وهكذا خذلت قبائل الكوفه مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة، لقد كان يتبع هانيء أربعة الاف دراع وثمانية آلاف راجل، وإذا أجابتها أحلافها من كندة وغيرها تصبح في ثلاثين الف دارع[5]. غير أن للذهب رنين تخرس بجانبه أصوات المعترضين، فسكت الرؤساء فلم ينصروا لا هانئا ولا مسلما بل على العكس برر محمد بن الأشعث الكندي قتل هانئ بقوله: قد رضينا انما الأمير مؤدب[6].

(١) الدينوري، الأخبار الطوال ٢٣٩.
(٢) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين٧٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٤١.
(٥) مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء ١٧٣.
(٦) الطبري، تاريخ ٥/٣٦٧.

أما الحسين فقد خرج قبل أن يعلم ما حدث لمسلم وعندما أخبر في الطريق ما حدث له هم بالرجوع، غير أن اخوة مسلم صمموا على الأخذ بالثأر أو يقتلون، وهنا أخذته العاطفة وقال: لا خير في الحياة بعدكم[1].

أما ابن زياد فقد بعث رأس مسلم الى يزيد، فوافق يزيد على ما فعل غير أنه كتب اليه: "بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق فضع المناظر والمسالح[2]، واحترس على الظن وخذ على التهمه، غير الا تقتل الا من قاتلك، واكتب الي في كل ما يحدث من الخبر والسلام عليك ورحمة الله"[3].

وهذا القول واضح في أن لا يقاتل ابن زياد الحسين وأصحابه إلا إذا قاتلوه، وكأن يزيد قد التزم بوصية والده التي تقول: ..... وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وأن له رحما ماسة، وحقا عظيما، وقرابة من محمد "صلى الله عيه وسلم" ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فان قدرت عليه فاصفح عنه[4].

نفذ ابن زياد طلب يزيد وأرسل جيشا قوامه أربعة الآف مقاتل تحت قيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، وإذا نظرنا الى القبائل التي اشتركت في هذا الجيش نجد معظمها من القبائل المضرية، من هوازن، وتميم، وثقيف، وأسد[5] وكأن ابن زياد قد خشي القبائل اليمانية من أن تظهر تحيزا الى جانب الحسين.

ولما التقى الحسين بعمر بن سعد في كربلاء على بعد عدة أميال من جنوب بغداد، عرض الحسين عليه بعد مفاوضات مطوله أن يختار واحدة من ثلاثة: الانصراف بالرجوع، أو الذهاب الى يزيد، أو الالتحاق بالثغور. فرحب ابن سعد بذلك، وبعث بهذه الشروط الى ابن زياد، وكاد عبيد الله أن يقبل بها لولا أن شمر بن ذي الجوشن العامري قال: لئن رحل من بلدك ولم يقع في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فأنت ولي العقوبة، وإن غفرت كان ذلك". حركت

(١) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٤٦، الطبري، تاريخ ٢٨٩/٥.
(٢) المناظر والمسالح: وضع الجند لمراقبة الطرق.
(٣) الطبري، تاريخ ٢٨١/٥.
(٤) المصدر السابق ٣٢٢/٥.
(٥) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٥٦.

هذه الكلمات عبيد الله فوافق على كلام شمر. وزاد من مخاوفه عندما علم أن حسينا وعمر بن سعد يجلسان بين العسكريين فيتحدثا عامة الليل[1].

فأرسل شمر ومعه كتاب الى عمر مضمونه اذا لم يستسلم الحسين ويأت الى عبيد الله فليقتل، واذا لم يرد عمر أن يقاتله فليسلم إمرة الجيش الى شمر، ويتنح عن الأماره وأوصى شمر أن يقتل عمر اذا رفض ذلك[2].

ولما قدم شمر على عمر بن سعد وأفهمه مضمون رسالة ابن زياد خاف على نفسه، ورفض أن يتنحى عن القيادة، فطلب من الحسين تسليم نفسه، غير أن الحسين رفض ذلك، فنشب القتال، ويجب أن نلاحظ ان الحسين لم يبدأ بالقتال بل أن موقفه كان عدم الاستسلام فقط- فوقع القتال وانتهت بمأساة كان لها أثرها الكبير على مجرى الدولة الاموية، ولا أبالغ اذا قلت بأنها كانت المسمار الأول الذي دق في نعش البيت السفياني أولا، والدولة الاموية ثانيا.

وفي كربلاء ظهرت النوازع الانسانية والقبلية، فيذكر ابن قتيبة: كان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلا من قريش انحازوا الى جانب الحسين، كما ظهرت هذه النوازع عند عمر نفسه، عندما قالت زينب أخت الحسين يا عمر بن سعد أيقتل عبد الله وأنت تنظر اليه[3]. فلم يتمالك نفسه عن البكاء. ولما رجع الى الكوفة قال: ما رجع غائب الى منزله بشر مما رجعت به قطعت القرابة القريبة وارتكبت الأمر العظيم[4].

ولما أرسل الرأس الى يزيد دمعت عيناه وقال: قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سميه، أما والله لو أني صاحبه (يقصد الحسين) لعفوت عنه فرحم الله الحسين[5].

ومما تقدم يبدو من الوقائع التي مرت أن يزيدا لم يرغب بقتل الحسين، وأنه أسف لقتله كثيرا وبكى عليه، واسترحم على الحسين ولعن ابن زياد واتهمه، واحسن وفادة أهل الحسين، غير أن امره وقف عند هذا الحد فلم يعمل شيئا لتنحية عبيد الله الذي

(١) الطبري، تاريخ ٥/٤١٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن الاثير، الكامل، ٣/٢٩٥ (بيروت).
(٤) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٥٧.
(٥) الطبري، تاريخ ٥/٤٦٠.

خرج على أمره، ولم يؤنبه برسالة، بل استبقاه على الكوفه فدل بذلك على أنه وإن كان قد استاء لمقتل الحسين فقد وجد الراحة في ذلك حيث تخلص من عدو شديد لخلافته وهذا يدل على خفته وعدم تعمقه في دراسة المسائل[1].

لقد نتج عن كربلاء بأن زاد البغض لبني أميه ويزيد، واعترف بهذه الحقيقة الخليفة نفسه فهو يقول: لعن الله ابن مرجانه، لقد بغضني بقتله (الحسين) الى المسلمين وزرع في قلوبهم العداوة، فبغضني البر والفاجر بما استعظم الناس من قتلي حسيناً[2].

كما أن الناس قد حقدوا على ابن زياد، فالنعمان بن بشير الأنصاري يقول لو كان بينه (الحسين) وبين ابن مرجانه نسب ما قتله[3]، كما زادت هذه الواقعة من حركة التشيع، فما ان سمع عبد الله بن عفيف الازدي ابن زياد يقول عن الحسين الكذاب ابن الكذاب، حتى رد عليه: أنت الكذاب وأبوك الذي ولاك يابن مرجانه، أتقتلون أبناء النبيين وتكلمون بكلام الصديقيين، فقام ابن زياد وقتله بالرغم من قيام سبعمائة من الأزد ليمنعوه[4].

أما أهل الحجاز فقد أعظموا قتل الحسين وعابوا أهل الكوفة لخذلانه، ووصفهم ابن الزبير بأنهم أهل غدر وفجر الا قليلا وأن أهل الكوفة شرار أهل العراق[5].

وما وقعة الحره وعصيان أهل المدينة إلا احدى النتائج التي خلفتها مأساة كربلاء. فكان للآلام التي آثارتها هذه المذبحه أثر في نشوب الثورة في الحجاز.

وقعة الحره (الصراع بين الشام والحجاز)

أصبح عبد الله بن الزبير بعد مقتل الحسين، رجل الحجاز الأول، فأقبل الناس عليه يطلبون إظهار بيعته، فبايعه أهل الحجاز بأستثناء ابن عباس ومحمد ابن

---

(١) يوسف العش، مذكرات ٦٨.
(٢) الطبري، تاريخ ٥٠٦/٥.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٢٤/٥.
(٤) الطبري، تاريخ ٦٤٥/٥، ابن الاثير، الكامل ٨٣/٤ (بيروت).
(٥) الطبري، تاريخ ٤٧٤/٥، ابن الاثير، الكامل ٩٨/٤ (بيروت).

الحنفيه[1]. غير أن الزبير لم يدع لنفسه بالخلافة الا في رجب لسبع خلون منه سنة ٦٤هـ وبعد موت يزيد[2].

ولما أخذ الناس يبايعون ابن الزبير لاذ بالكعبة، فبلغ خبره يزيد فأقسم أن يأتيه موثقا بجامعة – سلسلة– ثم عدل عن ذلك، وأرسل سلسلة من فضه يضعها ابن الزبير تحت ثيابه ليبر بقسمه، إلا أن الزبير رفض ذلك.

كان والي مكه عمرو بن سعيد، وكان هذا يشتد ويدارى ابن الزبير، غير أن موقفه لم يعجب يزيد فعزله وعين بدلا منه الوليد بن عتبه، وربما جاء هذا العزل من أن يزيداً قد خشي انضمام عمرو الى جانب ابن الزبير، غير ان الواقع كان يخالف ذلك فأهل مكه والمدينة قد مالوا الى ابن الزبير وأعطوه الرضا، ودعا بعضهم بعضا سرا وعلانية لبيعة ابن الزبير، وبذلك لم يبق مع عمرو جندا حتى يقاتل بهم ابن الزبير[3].

ولما تشدد الوليد بن عتبه مع ابن الزبير، وجد ابن الزبير مجالا للتخلص منه بأن كتب الى يزيد ليرسل رجلا ألين من هذا للاتفاق، فعزله يزيد وولى مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان وكان هذا حدث السن لم تجربه الأمور، فازداد أمر ابن الزبير اشتعالا. وأراد عثمان أن يثبت كفاءته عند يزيد فأرسل وفدا من أهل المدينة الى الشام، وكان في الوفد عبد الله بن حنظله الأنصاري والمنذر بن الزبير، فاستقبلهم يزيد خير استقبال، وقيل أنه أعطى المنذر مائة الف درهم، غير أن هذا الوفد عاد ليقول: إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، ويطرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب . . . وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه[4].

وبلغ يزيد الخبر خاصة ما جاء على لسان المنذر فقال: اللهم إني آثرته وأكرمته، ففعل ما قد رأيت، فاذكره بالكذب والقطيعة[5].

ولم يتسرع يزيد في الرد على المدينة، بل أرسل النعمان بن بشير الأنصاري إليهم

---

(١) الدينوري الاخبار الطوال ٢٦٠.
(٢) ابن خياط، تاريخ ٢٥٢/١.
(٣) الطبري، تاريخ ٤٧٩/٥.
(٤) الطبري، تاريخ ٤٨٠/٥.
(٥) المصدر السابق ٤٨١/٥.

حتى يأتي قومه ويحذرهم من الخروج، فجاء النعمان اليهم وعبثا حاول اقناعهم، فانتقل الى تهديدهم بأهل الشام. كما حاول ان يثير النعرة بين الأنصار والمهاجرين حيث قال لعبد الله بن مطيع: . . . كأني بك على بغلتك تضرب جنبها ثم تلحق بمكه وتترك هؤلاء المساكين من الأنصار يقتلون في سككهم ومساجدهم[١].

وأرسل يزيد أيضا النعمان بن بشير وهشام بن قبيصه النمري الى ابن الزبير يدعوانه للبيعة على أن يجعل له ولاية الحجاز ما شاء وما أحب لأهل بيته من الولاية، فرفض ابن الزبير وقال أتأمروني ببيعة رجل يشرب الخمر ويدع الصلاة ويتبع الصيد[٢].

أما والي المدينة، فبعد أن رأى سوء الحالة هناك أمر بحبس بعض رجالات قريش أمثال عبد الله بن مطيع العدوي ومصعب بن عوف الزهري، الا أن بني عدي اجتمعوا الى عبد الله بن عمر، فجاء عبد الله الى عثمان وذكره بأنه قد سجن ابن مطيع على الظن والتهمه، وقال لا نرض ان ندع صاحبنا مظلوما ظليما. والظاهر ان الوالي لم يستجب للأفراج عنه، مما دفع بني عدي إلى اقتحام السجن وإخراج صاحبيهم[٣]. أما مصعب فقد كان على شرطة عمرو بن سعيد، وبعد خروج الحسين وابن الزبير الى مكه أمره عمرو ان يهدم دورو بني هاشم وبني أسد ومن كان في حيزهم، غير أن مصعبا قال لست فاعلا لأنه لا ذنب لهؤلاء، فقال عمرو: انتفخ سحرك يا ابن أم حريث (سبيه من بهراء) إلي بسيفنا فرماه مصعب[٤]. وكان ذلك سبب انحرافه عن بني أميه وانضمامه الى صفوف ابن مطيع، والظاهر أنه لم يدم في السجن طويلا.

وبعد ذلك تطورت الاحداث في المدينة، فقام الناس وبايعوا عبد الله بن حنظله على خلع يزيد وحاصروا عامل المدينة وبني أميه ومن عرف بالميل اليهم من قريش، وكانوا زهاء ألف في دار مروان بن الحكم وحاصروهم حصارا ضعيفا[٥]. فكتب بنو أميه الى يزيد أما بعد فقد حصرنا في دار مروان بن الحكم، ومنعنا العذب ورمينا بالجبوب فياغوثاه ياغوثاه[٦].

---

(١) البلاذري، أنساب الاشراف حـ٤ قسم ٣٤/١.
(٢) ابن خياط، تاريخ ٢٤٧/١.
(٣) البلاذري، أنساب الاشراف حـ٤ قسم ١٤/١، المنمق ٣٩٠.
(٤) مصعب الزبيري، نسب قريش ٦٢.
(٥) البلاذري، أنساب الاشراف حـ٤ قسم ٣٢/٢.
(٦) الطبري، تاريخ ٤٨٢/٥.

وما أن قرأ يزيد الكتاب حتى ثارت ثائرته وأخذته الحمية، والمصادر التاريخية لا تذكر ما فكر به إلا أنه لا بد وأن تذكر ما حدث لعثمان بن عفان وكيف حصر في داره ثم قتل. ولا بد أيضاً أنه اعتقد أن أهل المدينة يستهينون بقوته وخلافته فقال: "لا خير في العيش بعدهم" وهكذا أنسته العاطفة والعصبية لبني أميه منصبه كخليفة لجميع المسلمين. ففكر في ارسال جيش حتى ينقذ بني قومه[1].

لقد دعا يزيد، عمرو بن سعيد وطلب اليه أن يقود الحمله الى الحجاز، الا أن عمرا اعتذر عن ذلك وقال: قد كنت ضبطت لك البلاد واحتلمت الامور، فأما الآن إذا صارت إنما هي دماء قريش تهراق بالصعيد فلا أحب أن أكون أول من أتولى ذلك، يتولاهم من هو أبعد منهم مني[2].

وبعد رفض عمرو اتجه يزيد الى مسلمه بن عقبة المرى، فعهد اليه بالقيادة، واستطاع بالمال أن يجمع جيشا قوامه اثنى عشر الفا[3] أكثره من القبائل اليمانية.

وقد تدخلت رجالات قريش والأنصار حتى يثنوا يزيد عن عزمه لقتال المدينة الا أنه قال: أقتل وأشفي نفسي[4].

ويذكر الذهبي أن يزيدا أوصى مسلم بن عقبة ان يستخلف بعده الحصين بن نمير إن حدث له حادث وقال له أيضا: امضى الى الملحد ابن الزبير، وان صدوك عن المدينة فادعهم ثلاثة أيام، فان لم يجيبوا فاستعن بالله، وقاتلهم فستجدهم أول النهار مرضى وآخره صبرا، وسيوفهم أبطحيه، فاذا أظهرت عليهم، فان كانوا بنوا أميه قد قتل منهم أحد فجرد السيف واقتل المقبل والمدبر واجهز على الجريح وانهبها ثلاثا واستوصى بعلي بن الحسين[5].

وهكذا نرى أن يزيدا هدف من الحمله أن يشفي نفسه، وأن يثأر لبني أميه وهذه وصية تأباها السياسية الحكيمة.

---

(١) يوسف العش، مذكرات ٦٩.

(٢) البلاذري، أنساب الاشراف حـ٤ قسم ٢/٣٣، الطبري، تاريخ ٥/٤٨٣.

(٣) البلاذري، أنساب الاشراف حـ٤ قسم ٢/٣٣، الطبري، تاريخ ٥/٤٨٣.

(٤) البلاذري، أنساب الاشراف ٥/١١٢، ابن قتيبه، الامامه والسياسة ١/١٧٧.

(٥) الذهبي، تاريخ الاسلام ٢/٣٥٥.

توجه مسلم الى المدينة، والتقى في طريقه ببني أميه لم يقتل منهم أحدا، ولم يصابوا بأذى وعن طريقهم تمكن من معرفة الأوضاع في المدينة.

أما أهل المدينة فقد حفروا حولهم خندقا، وقد ظهرت الانقسامات بينهم منذ البداية حتى في حفر الخندق، فقد كان لكل فئة قسم معين، كما أن الرئاسة لم تكن موحده فعبد الله بن حنظله كان على الانصار، وعبد الله بن مطيع كان على قريش وكان على المولى يزيد بن هرمز[1]. ولما وصل مسلم المدينة بعث الى أهلها يقول: ان يزيداً يقول إنكم الأصل وهو يكره اراقة دمائكم، وذكرهم بأنه لا يريد حربهم إنما يريد أن يمضي الى ابن الزبير، وقد أجلهم لذلك ثلاثة أيام. الا أن المدينة لم تستجب لهذا النداء[2].

وبعد انتهاء المهلة المضروبه تقدم مسلم لقتال أهل المدينة وكان قتالا مريرا دافع فيه أهل المدينة بشجاعة فائقة الا أن خيانة بني فزاره قلبت نصر المدينة الي هزيمه. فدفعت الانصار وقريش (٣٠٦) قتيلا[3].

وإذا صحت خيانة بني فزاره، فانما كانت هذه عصبية لمسلم بن عقبه المرى قائد الحملة نظراً للحلف الذي كان يربط مرة بفزاره. وبعد انتصار مسلم استباح المدينة ثلاثة أيام، وطلب من أهلها ان يبايعوا على أنهم خول ليزيد ليحكم في أهلهم ودمائهم وأموالهم ما شاء[4].

ورغم فداحة القتال في الحره الا أن الناس لم ينسوا رابطة القربى، فعندما حصر بنو أميه لم يجد مروان بن الحكم الا عليا بن الحسين فطلب منه أن يأخذ أهله ويخرج بهم الى ينبع[5].

ولما مر مروان بن الحكم بعبد الرحمن بن عوف الزهري لم يتمالك ابن عوفنفسه حتى قال له: هلم ألي يا أبا عبد الملك فلا يصل اليك مكروه ما بقى رجل من بني زهرة،

---

(١) البلاذري، أنساب الاشراف حـ٤ قسم ٢/٣٤-٣٥.

(٢) الطبري، تاريخ ٥/٤٨٦-٤٨٧.

(٣) على حد بعض الروايات.

(٤) الذهبي، تاريخ الاسلام ٢/٣٥٨.

(٥) الطبري، تاريخ ٥/٤٨٥.

لكن مروان رفض وقال: إن الاخوة والعشيرة في الشام[1]. وقال ابن عمر أيضا والله لو وجدت سبيلا الى نصر هؤلاء لفعلت[2].

وبعد استباحة المدينة قال مروان بن الحكم لمسلم: سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا بأمان، وكان مسلم قد قتل يزيد بن عبد الله بن زمعة الأسود الذي رفض أن يبايع على أنه عبد ليزيد[3]، ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفه[4]. واذا ظهرت العصبية عند قريش فقد ظهرت عنه المهاجمين، فقبيلة كلب منعت أهل الشام من نهب دار اسامه بن زيد، وحمير منعت نهب دار امرأة منهم، والحصين بن نمير أجار علي بن عبد الله بن العباس لأنه امه كندية وسانده أهل حمص جميعهم[5].

وفي وقعة الحره تصور أهل الشام أنهم كانوا يقاتلون على حق حيث جاء على لسان مسلمه: اللهم إني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله أحب الى من قتلى أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخره[6]. وقال أيضا: يا أهل الشام إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ولا أكثرهم عددا ولا أوسطها بلدا، ولم يخصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم، الا بطاعتكم واستقامتكم، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فغير الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والفلج[7].

أما أهل الحجاز فقد تصوروها حرب الشام ضد الحجاز، فأبو حرة مولى خزاعة يقول[8]:

يا رب ان جنود الشام قد كثروا وهتكوا حجاب البيت أستارا

---

(1) الأصفهاني الاغاني ١/٢٢-٢٤ (بيروت).
(2) المصدر السابق ١/٢٦-٢٧ (الهيئة المصرية).
(3) مصعب الزبيري، نسب قريش ٤٧٤.
(4) ابن الأثير، الكامل ٣/٣١٤.
(5) البلاذري، أنساب الاشراف جـ٤ قسم ٢/٣٧،٤٠.
(6) الطبري، تاريخ ٥/٤٩٧.
(7) المصدر السابق ٥/٤٨٩.
(8) البلاذري، أنساب الاشراف جـ٤ قسم ٢/٥٣.

وبعد الحرة توجه مسلم الى مكه وفي الطريق عاجله الموت، بعد أن أوصى خليفته بقوله: وإن هذا الحي من قريش قوم لم يمكنهم قط رجل من أذنيه إلا غلبوه على رأيه، فسر بهذا الجيش فاذا لقيت القوم فلا يكونن إلا الوقاف ثم الثقاف ثم الانصراف[1].

وبعد ذلك توجه الحصين الى مكه، فضرب عليها الحصار، ورماها بالمنجنيق وانتهى الامر بحرق الكعبة. وبقى الحصار حتى وفاة يزيد بن معاويه سنة ٦٤هـ.

ولما سمع جيش الشام بذلك قام قائد الحمله واتصل بابن الزبير، وعرض عليه ان يخرج الى الشام ليبايعه الناس هناك لأنه لا يحب أن تكون الخلافة في الحجاز[2]. غير أن ابن الزبير لم يرض بالحجاز بديلا[3].

ودعوة الحصين لابن الزبير ربما يكون الدافع اليها هو حرج الموقف الذي أصبح به الجيش الشامي في الحجاز، فالطبري يذكر أن أهل الحجاز قد اجترأوا على أهل الشام حتى ذلوا، وكان لا ينفرد منهم رجل الا أخذ بلجام دابته ثم نكس عنها، فكانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يفترقون[4].

فلما رأى أهل الشام ذلك أخذوا يتوددون الى الحجازيين، فالحصين بن نمير يقول: يا معشر قريش أنتم ولاة الأمر، وإنما قاتلناكم في طاعة رجل منكم قد هلك فأذنوا لنا في الطواف[5].

والموقف نفسه حدث في المدينة ونلمس ذلك من خطبة روح بن زنباع خليفة مسلم بن عقبه عليها حيث يقول: يا أهل المدينة ما هذا الايعاد الذي توعدوننا، أنا والله ما دعوناكم الى كلب لمبايعة رجل منهم، ولا الى رجل من بلقين، ولا الى رجل من لخم وجذام ولا غيرهم من العرب والموالى، ولكن دعوناكم الى هذا الحي من قريش (بني أميه ثم الطاعة الى يزيد، وعلى طاعته قاتلناكم، أما والله إنا أبناء الطعن والطاعون

---

(١) ابن خياط، تاريخ ٢٥٠/١، البلاذري، أنساب الاشراف جـ٤ قسم ٤٥/٢.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٣٣/٥.
(٣) الطبري، تاريخ ٢٠٥/٥.
(٤) المصدر السابق ٥٠٠/٥.
(٥) البلاذري، أنساب الاشراف جـ٤ قسم ١٥/٢.

وفضلات الموت والمنون ، فما شئتم ، ثم مضى القوم الى الشام)[1] .

واذا حاول أهل الحجاز الثأر من أهل الشام فقد حاولوا مثل ذلك مع بني أميه ، فعندما رأى أبو الجهم ابنه قتيلا قال : ما وترت قط إلا الليله إنكم يا بني أميه تظنون دمى في بنى مره لا والله ما دمى هناك ، ولا أجد لي ولكم مثلا إلا ما قال الشاعر :

ونحن الأفراس أبوهن واحد ... عتاق جياد ليس فيهن محمر

وما لكم فضل علينا نعده ... سوى إنكم قلتم لنا نحن أكثر

ولستم بأثرى في العديد لأننا ... صغار وقد يربوا الصغير ويكبر[2]

والواقع ان احساس بني أميه كان صحيحا ، فعندما خرج جيش الشام قالت بنو أميه : لا تبرحوا حتى تحملونا معكم الى الشام[3] . وبعد خروجهم جمع حميد بن أبي جهم رجالا من قريش حتى يأخذ ثأره منهم ، بعد أن أوصاه والده : أصبح غدا أكرم قريش ، واستسمن ولا تقتلن بأخيك الا رجلا سمينا[4] . فأغار حميد على دار عبد الله بن عامر فنهبها ، وأراد أن يتتبع آثار بني أميه غير أن ابن الزبير نهاه عن ذلك عندما علم أن رجلين من بني أميه انضما إليه وهما عمرا وعمرا ابني عثمان بن عفان[5] .

الفتن القبلية بعد وفاة يزيد :

لما مات يزيد استخلف ابنه معاويه الثاني ، وكان هذا صغير السن ، ولم يدم حكمه طويلا ، والأرجح أنه مات بالطاعون لما ذكره المسعودي من أن الوليد بن عتبه لما كبر عليه الثانية سقط ميتا بالطاعون[6] . ولم يعين معاويه الثاني خلفا له .

وبموت الوليد بن عتبه ومعاويه الثاني فقد البيت السفياني القدرة على تقديم

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ٣/٩١-٩٢ .
(٢) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش ٣٩١-٣٩٢.
(٣) الطبري، تاريخ ٥/٥٠٣.
(٤) ابن حبيب، المنمق في اخبار قريش ٣٩٣.
(٥) المصدر السابق ٣٩٤.
(٦) المسعودي، مروج الذهب ٣/٨٢.

شخص للخلافة، كما فقد القاعدة الشعبية لحكمه. فبموت الوليد لم يعد هناك من يصلح للخلافة، أما القاعدة الشعبية ففقدها هذا البيت لما حدث في كربلاء والحره، ومكه.

لقد أدى خلو منصب الخلافة الى إحداث فتن في مختلف انحاء الدولة الاسلامية، وأصبح البيت الاموي في موقف لا يحسد عليه، فالمؤيدون اصبحوا يتناقصون، ويتجهون الى ابن الزبيروقد أدى ذلك إلى اضطراب الأحوال في مصر.

وقبل التعرض للفتن القبلية في الامصار لا بد من القول أن السمة الغالبه على العصبية القبلية بعد موت يزيد هي اتساعها، فما عادت العصبية للرهط أو البطن بل حلت العصبية القبلية أو الجذم مكانها، ولا غرابة اذا قيل أن عصر بني أميه هو عصر التكتلات القبلية[١].

ورافق اتساع العصبيات القبلية اشتداد العصبية الاقليمية بين الامصار، فالحجاز يكره أهل الشام وأهل العراق ناقمون على الشام، والشام يبغض أهل العراق.

العراق:

كان العراق من أكثر أمصار الدولة الاسلامية فتنا قبلية، بل إن هذه الفتن كانت سببا مهما في الأطاحة بالبيت الاموى فيما بعد، لأن هذه الفتن وان قامت سيوفها في خراسان الا أن منابتها وأصولها كانت في الكوفه والبصرة.

لقد بدأت الفتن في البصره، فعندما مات يزيد، فزع عبيد الله بن زياد فصعد المنبر وقال: إنسبوني فوالله لتجدن مهاجر والدي ومولدي فيكم وداري.

وأعلن أنه قد أخرج جميع المسجونين الذي لم تثبت عليهم الجرائم، وبين فضله على البصرة حيث جاءهم وعددهم سبعون الفا، وهم اليوم ثمانون الفا، كما زاد ديوانهم من (٩٠) الفا الى (١٤٠) ألفاً.

وفي نهاية خطبته أعلن أن أهل الشام قد اختلفوا على اختيار خليفة، فطلب أن يختاروا منهم رجلا يرضونه لدينهم وجماعتهم، فان بايع أهل الشام فالحل والعقد بيد أهل البصرة إما الرضابه أو عدمه[٢].

---

(١) احسان النص، العصبية القبلية ٢٧٢.

(٢) انظر الخطبة في: الطبري، تاريخ ٥/٥٠٤، المسعودي، مروج الذهب ٣/٩٣.

عند ذلك قام أشراف الكوفه ومعظمهم من ربيعة وقالوا نبايع الأمير. وبما أن الاتجاهات السياسية للقبائل كانت تتبع الظروف فاننا نجد أن بيعة هذه القبائل ما هي إلا مظاهر زائفة فكانوا ما إن خرجوا من عنده حتى مسحوا أيديهم بالحيطان وقالوا: لا يظن ابن مرجانه أنا نستقاد له في الجماعة والفرقة، كذب والله[1].

ومن هنا بدأ سلطان ابن زياد يضعف في البصره، فكان يأمر بالأمر فلا يقضى ويرى الرأى فيرد عليه، ويحبس المخطىء فيحال بين اعوانه وبينه[2]، ولم يفده زيادة العطاء لأهل البصرة[3].

لقد بدأت الفتنة في البصرة عندما قام رجل من مضر وهو سلمه بن ذؤيب التميمي بالدعوة لابن الزبير، وقد حاول ابن زياد أن يقاتله غير أن إخوته حذروه من ذلك وقالوا له: والله ما من خليفة نقاتل عنه. وهدده اخوه عبد الله بقتل نفسه إن قاتل أهل البصرة[4].

ولما رأى ابن زياد هذا الموقف فكر في الاستجارة بأحدى قبائل البصرة، فبعث الى سعد بن الأطول القضاعي، لكنه اعتذر لعدم قدرة عشيرته على الدفاع عنه، لأن معظمها بالشام وليس بالبصرة[5].

وبعد ذلك اتجه عبيد الله إلى الازد بناء على نصيحة مولاه مهران بذلك[6]. والواقع أن عبيد الله قد خشي على نفسه كثيرا، فهو قاتل الحسين، ثم إنه كان أول من جفا القبائل، واستعمل بدلا منهم الدهاقين لجباية الخراج حتى لا يكسروه ولا يوغر صدور العشائر اذا ما طالب أفرادها بدفع الخراج[7].

بالاضافة الى ذلك أن أهل البصره قد غضبوا عليه لاتخاذه المحاربه لقتل أهل المعصية من العشائر[8].

(١) الطبري، تاريخ ٥/٥٠٥.
(٢) المصدر السابق ٥/٥٠٧-٥٠٨.
(٣) ابن خياط، تاريخ ١/٢٥٣.
(٤) الطبري، تاريخ ٥/٥٠٩.
(٥) ابن سعد، الطبقات ٧/٥٧.
(٦) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٧٦.
(٧) البلاذري، أنساب الاشراف جـ٤ قسم ١٠٩/٢.
(٨) ابن قتيبه، الامامه والسياسة ١٩/٢.

اتجه ابن زياد الى حارث بن قيس الأزدي وقال له: إن أبي كان أوصاني أن احتجت الى الهرب يوما أن اختاركم، وأن نفسي تأبى غيركم. غير أن الحارث لم يرحب بهذا العرض، لأنهم قد أجاروا والده من قبل فلم يجد عنده مكافأة، غير أن التقاليد القبلية، تحث على الاجاره اذا كانت القبيله قادرة عليها، وهنا قال الحارث: " مالك مرد اذا اخترتنا "[1].

وبعد موافقة الأزد على الاجاره كانت الصعوبه في نقل ابن زياد الى رئيس الأزد وهو مسعود بن عمرو لفرض القبائل الحراسه على سككها ودروبها، ، بل تحارسوا حتى في المجالس[2]. واستطاع الحارث بعد جهد ان يوصله الى رئيس الأزد، بعد أن تجنبوا خطط مضر والمرور على خطط قيس[3].

وكما أذعن الحارث للتقاليد القبلية، فقد رضى بها مسعود علما أن في هذه الاجاره هلاك قومه، وحرب أهل البصره. لقد صعد مسعود سطح منزله وأشعل النار فأقبلت الأزد حتى ملئوا السكك فأخبرهم بالأمر[4]. وقد حاولت ربيعة ان تخرج ابن زياد من عند الأزد، الا أن عبيد الله بن زياد قال: والله لا نخرج عنكم، قد أجرتمونا، وعقدتم لنا ذمتكم فلا نخرج حتى نقتل بين أظهركم، فيكون عارا عليكم الى يوم القيامة[5].

وهنا أنفق ابن زياد أموالا طائله لأعادة الحلف بين ربيعة واليمن[6]، وخاصة بعد أن رأت ربيعة أن الاحنف جاء الى دار ابن زياد (البيضاء) ومنع الناس من دخولها[7]. يضاف الى ذلك أن الجو كان متوتراً بين ربيعة ومضر بسبب ضرب رجل من بكر بن وائل لرجل من قريش، فتهايج الناس من مضر وربيعة، واستطاع مالك بن مسمع أن ينهي النزاع بين القبيلتين. غير أن هذا النزاع تجدد مرة ثانية عندما تذاكر يوما رجل من بني

---

(١) الطبري، تاريخ ٥/٥٠٩.
(٢) ابن قتيبه، الامامه والسياسة ٢/٢١٧، الطبري، تاريخ ٥/١١٥.
(٣) المصدر السابق، ٢/١١٧.
(٤) المصدر السابق، ٢/١١٧.
(٥) الطبري، تاريخ ٥/٢١٥.
(٦) البلاذري، أنساب الاشراف حـ٤ قسم ٢/١٠٦، الطبري، تاريخ ٥/٦٤.
(٧) ابن خياط، تاريخ ١/٢٥٣.

يشكر مع رجل من بني ضبّة ما حدث للقرشي، ففخر اليشكري لضربه القرشي، وكيف ان الحادثة ذهبت ظلفا (هدرا). فاحفظ ذلك الضبّي فقتل اليشكري. وهنا ثارت بكر بن وائل واتجهت الى رئيسها المعين من قبل يزيد بن معاويه- سابقا- وهو أشيم بن شفيق فطلبوا منه أن يسير بهم الى مضر، فلم يقبل أشيم بذلك، بل رأى أن يرسل اليهم رجلا فان رفضوا حقهم ساروا اليهم، فلم تعجب هذه الخطة قبيلة بكر، فاتجهوا الى مالك بن مسمع الذي قام على الفور بحرق دور بني تميم في سكة بني العدوية ثأرا لليشكري الذي قتله الضبي[1]. وهنا اتجهت الى الأزد تطلب الحلف معهم ضد مضر، فاشترطت الأزد ان تكون لها الرئاسة فوافقت ربيعة على ذلك.

وبعد حلف ربيعة والأزد أصبحوا قوة لها وزنها في البصرة، فأرادوا اعادة ابن زياد الى دار الأماره، فسار مسعود وأصحابه يريدون الدار، فدخلوا المسجد وقتلوا قصارا كان هناك، ولما بلغ ذلك الأحنف بعث الى تميم فتجمعوا حوله، واتجه نحو الازد وربيعة، ونشب القتال بين الأساورة والأزد، ونتج عن ذلك قتل مسعود زعيم الأزد. فهرب مالك بن مسمع، ولم تكتف مضر بذلك بل حرقوا داره بعد أن حاصروه بها[2].

وبعد مقتل مسعود ولت الأزد عليها زياد بن عمرو العتكي، فخرجت ومعها حليفتها ربيعة يطلبون من أصيب منهم، وتهيأت جميع قبائل ربيعة من عبد القيس ومن لفّ لفيفها من أهل هجر وعنزه والنمر، وذلك عصبية لبكر بن وائل والحلف الجامع بينهما[3].

ولما رأت مضر ذلك اتحدت كلمتها تحت لواء الأحنف بن قيس، واشترك معهم الزط والسيابجه والأساوره، وهناك اشتعلت الفتنة بين الطرفين المتنازعين، وأخذ كل رئيس يشجع قبائله على مواصلة القتال، إلا أن كفة القتال رجحت إلى جانب اليمن وربيعة فقام الأحنف يقول: الله الله يا معشر الأزد في دمائنا ودمائكم، بيننا وبينكم القرآن، ومن شئتم من أهل الاسلام[4].

واتفق الطرفان على قبول تحكيم قريش، حيث كانت محايدة، ولم تدخل في

---

(١) البلاذري، أنساب الاشراف جـ٤ قسم ١٠٥/٢-١٠٦، الطبري ٥١٥/٥.
(٢) ابن خياط، تاريخ ٢٥٤/١، ابن الاثير الكامل ١٣٩/٤ (بيروت).
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ١١٢/٢، ابن الأثير، الكامل ١٤٣/٤ (بيروت).
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤ قسم ١١٣/٢،

نزاع مع الطرفين . . . وبعد ذلك سارت قريش، في الصلح بينهما، إلا أن الأزد وربيعة تشددوا في مطالبهم وهي: دفع عشر ديات لمسعود العتكي[1]، وإخراج مضر من البصرة، وهدر دمائهم ولا دية لهم. فلما علم الأحنف بهذه المطالب، اعتبرها مطالب الصقور من الحمائم وقالوا سمتمونا خطة الذليل، والله لا نزيد على دية رجل من المسلمين بالنسبة لمسعود، وأما الخروج من البصرة فإنا لا ندع مهاجرنا ومركزنا وفيء الله علينا، وأما الحرب فلست بأجزع فيها منكم، وأما فدية قتلاكم ونلغي قتلانا فليس ذلك في صلاحنا.

وباستمرار وساطة قريش استطاعت إجراء الصلح بينهما بعد أن دفعت تميم عشر ديات لمسعود بن عمرو العتكي[2].

وبعد الصلح وقف الأحنف وقال: يا معشر الأزد وربيعة إنكم إخواننا في الإسلام وشركاؤنا في الصهر، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو، ولأزد البصرة أحب إلى من تميم الشام فإذا استشرت شأفتكم، وحميت جمرتكم، وأبت حسائك صدوركم أن تلين ففي أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم. أرضيتم بحمل هذه الديات من أعطياتنا في بيت المال قالوا رضينا. فضمنها إياس بن قتاده بن أوفى[3].

أما ابن زياد فقد خرج الى الشام، واتفقت البصره على تعيين عبد الله بن الحارث بن نوفل الملقب "ببّه" غير أن هذا اعتزل الأمر أمام الفوضى التي عمت البصره، فبقيت المدينة بغير وال، فاشتدت حالت المدينة سوءاً، وأكل الناس بعضهم بعضا حتى أن المرأة تؤخذ من الطريق فتفضح فما يمنعها أحد. كما أن الخوارج أخذوا يغيرون على المدينة ويقتلون كل من يجدوه في طريقهم.

ولم يجد أهل البصره أمامهم من سبيل الا أن يتجهوا الى ابن الزبير، فعين عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر، والظاهر أن هذا لم يستطع ان يعيد الأمن إلى البصره فعزله وعين بدلا منه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي[4].

(1) دية الملوك كانت في الجاهلية عشر ديات.

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، قسم ٢/١١٣، توسط في الصلح عمر بن عبدالرحمن المخزومي وعمر بن عبيد الله التيمي.

(3) المصدر السابق جـ٤ قسم ٢/١١٤.

(4) البلاذري، أنساب الاشراف جـ٤ قسم ٢/١٢٣.

وهكذا نجد أن خطر الخوارج والفوضى القبلية كانت السبب في بيعة أهل البصرة لابن الزبير.

الكوفه

أما الكوفه . فبعد أن أخذ ابن زياد بيعة أهل البصره أرسل وفدا اليها ليعلم الناس بما حدث في البصرة، ويطلب البيعة حتى تبقى كلمة أهل العراق مجتمعه . وقد عبر عن ذلك عمرو بن مسمع أحد أعضاء الوفد بقوله : قد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم فيكون أميرنا وأميركم واحد، فإنما الكوفة من البصرة، والبصرة من الكوفه . غير أن هذه الدعوة وجدت نفورا من أهل الكوفه، وهذا أمر متوقع منها فمعظم سكانها من الشيعة الحاقدين على ابن زياد، إضافة إلى أن الكوفه لا تنقاد الى البصرة.

لقد قام يزيد بن الحارث الشيباني وقال : الحمد لله الذي أراحنا من ابن سميه لا ولا كرامة، لا حاجة لنا في بني أميه . وعندما أخذ عمرو بن الحريث نائب ابن زياد على الكوفه، حالت قبيلته بكر بينه وبين السجن . وزاد من حرج الموقف ان قبيلة كنده قد انضمت الى ربيعة[1] للحلف الذي عقد في البصرة.

وفي موقف الكوفه نلمح مدى التقلبات القبلية والتي خضعت دوما للمصالح الشخصية أكثر من غيرها، فمحمد بن الاشعث قبل فترة وجيزة يعتبر الامير مؤدب، وسلم مسلم بن عقيل الى ابن زياد، لكنه بعد أن لاحظ أفول نجم الأمويين في العراق نهض وحصب نائب ابن زياد على الكوفة.

ولما قامت الفتنة في الكوفة، لم تجد القبائل غير قريش حتى تسلم قيادة الأمر إليها وكأن هذه القبائل قد اعتبرت رئاسة قريش امرا مسلما به لا تجوز مخالفته.

والغريب في الأمر أن القبائل قد انقسمت في تأييدها للمرشحين، فكنده قدمت عمر بن سعد غير أن نساء اليمن وربيعة حالت دون ذلك بسبب اشتراكه في قتل الحسين. وسبب ترشيح عمر من قبل كندة لأنهم أخواله . وأخيرا اجتمعت الكوفة على عامر بن مسعود. ولما بايعوا لابن الزبير أقر هذا التعيين الا أنه عزله بعد ثلاثة أشهر وعين بدلا منه عبد الله بن يزيد الأنصاري على الصلاة، وابراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج[2].

---

(١) الطبري، تاريخ ٥/٥٢٣-٥٢٤، المسعودي، مروج الذهب ٣/٩٣.

(٢) الطبري، تاريخ ٥/٥٢٤-٥٢٩.

خراسان:

كانت خراسان تحت امرة سلم بن زياد بن أبيه، فلما مات يزيد بن معاويه قام وأخذ البيعة لنفسه، غير أن الناس عادوا واختلفوا عليه فاضطر الى الخروج من خراسان.

وعندما خرج عين المهلب بن أبي صفرة نائبا له، فلقيه سليمان بن مرثد من ربيعة فقال له: ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلا من اليمن، ولما ولى سلم، سليمان على مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان، وولى رجلا آخر من ربيعة هو أوس بن ثعلبه على هراة. لقيه عبد الله بن خازم فقال له: أما وجدت في مضر رجلا تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكربن وائل ومزون عمان، وطلب منه أن يكتب له عهدا على خراسان، فكتب سلم له بولاية خراسان، وأعانه بمائة الف درهم. ولما علم المهلب بالأمر استخلف على خراسان رجلا من تميم وخرج منها[1]. ويرجع خروج المهلب وعدم قتاله لابن خازم إلى قلة القبائل اليمانية هناك حتى ذلك الحين.

ولما دخل ابن خازم خراسان بدأ بقتال سليمان مرثد، وتمكن من الاستيلاء على الطالقان، وقتل سليمان، فاتجهت بكر بن وائل الى أوس بن ثعلبه وبايعته على أن يسير الى ابن خازم حتى يخرجه وليخرج مضر من خراسان، فقبل أوس ذلك تحت ضغط قبيلته، ونشب القتال بين ربيعة ومضر سنة كامله، ولم يتوقف الا بعد أن توسط هلال الضبي الذهلي الذي جاء الي ابن خازم وقال له: إنما نقاتل إخوتك وبني أبيك، فان نلت منهم الذي تريد فما في العيش خير بعدهم، وهدده بأن لم يكف عن قتال ربيعة سوف لا يقاتل معه ومن يطيعه من عشيرته، عندها أضطر ابن خازم أن يرسل الى أوس بن ثعلبه يناشده بحق القرابة في النزارية، غير أن موالى بني جحدم وهم بنو صهيب رفضوا ذلك، وأصروا على إخراج مضر أو تسليم كل ما يملكون من سلاح وفضة وذهب، فعاد وقد ابن خازم دون نتيجة فقال لهلال الضبي وكان احد أعضاء الوفد: قد أخبرتك أن ربيعة لم تزل غضابا على ربها منذ بعث الله النبي من مضر. وعاد القتال بينهم فدفعت ربيعة ثمانية آلاف قتيل[2].

---

(1) الطبري، تاريخ ٥/٥٤٥، ابن الأثير- الكامل ١٥٥/٤ (بيروت).

(2) الطبري، تاريخ ٥/٥٤٦-٥٤٩، ٥٥١، ابن الاثير، الكامل ١٥٦/٤-١٥٧- بيروت.

وفي الصراع بين ربيعة ومضر نلمح عنصراً جديدا دخل حلبة الصراع ألا وهم الموالى، فقد أجبروا أوس بن ثعلبه على قتال ابن خازم، كما رفضوا صلح ربيعة ومضر، وهنا نرى ان الفتن القبلية، والعصبية القبلية هي التي فسحت المجال للموالى حتى يفرضوا أنفسهم على الأحداث القبلية في خراسان.

مصر:

بدأت حركة التذمر في مصر عندما أرسل يزيد بن معاوية اليهم، سعيد بن يزيد الانصاري من فلسطين، فقال عمرو بن مخزوم الخولاني: يغفر الله لأمير المؤمنين أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولى علينا أحدهم. وبقي المصريون يعرضون عنه حتى وفاة يزيد، عندها قامت الخوارج الذين أبعدهم زياد بن أبيه، وأظهروا الدعوة لابن الزبير، والظاهر أنهم تمكنوا من السيطرة على أهل مصر ونلمس ذلك من قول كريب بن أبرهة الصباح وغيره من أشراف مصر. ماذا نرى من العجب إن هذه الطائفة مكتتمه، تأمر فينا وتنهى ونحن لا نستطيع ان نرد أمرهم. وآزر الخوارج نفر من قريش ومن قبائل عذره واليمن ولما تكاملت قوتهم قام عبد الرحمن بن جحدم القرشي وأخرج سعيد بن يزيد من مصر وبايع لابن الزبير، ثم بايع له الناس على غل في قلوب ناس من شيعة بني اميه[1].

الشام:

بعد موت يزيد، بعث الضحاك بن قيس الفهري الى الهيثم بن قيس: إن يزيد بن معاويه قد مات، وأنتم إخواننا، فلا تسبقونا بشيء حتى نختار لأنفسنا[2]. وهذا يدل على أن البيت السفياني لم يعد باستطاعته تقديم رجل الى الخلافة، وجاء موت معاويه الثاني حتى يزيد الأمر صعوبة مما أدى الى انقسام الجبهة الشامية التي كانت متحدة حتى ذلك الحين.

لقد قامت الدولة الأموية على أكتاف الجند الشامي، وهؤلاء معظمهم من القبائل اليمانية التي كانت تسكن في سوريا، وقد أثبتت هذه القبائل فاعليتها القتالية، ضد الحجاز والعراق. وبعد موت معاويه الثاني لعبت القبائل اليمانية وفي مقدمتها كلب

(1) الكندي، الولاة ٣٩-٤١.
(2) الطبري، تاريخ ٥/٥٠٤.

وجذام دورا بارزا في تثبيت دعائم البيت الأموي.

غير أن القبائل اليمانية وان كانت متحدة في بقاء مركز الحكم في الشام، الا أنها كانت مختلفة في أمر المرشحين الى منصب الخلافة. وهذا الاختلاف دفع الحصين بن نمير ان يحذر أهل الشام ويقول: نراكم في اختلاف فأقيموا أمركم، قبل أن يدخل عليكم شأمكم (ابن الزبير) فتكون فتنة عمياء صماء[1].

لقد طرح أهل الشام ثلاثة مرشحين، ولكل منهم جماعة تؤيده هم: خالد بن يزيد: وكان يرشحه حسان بن مالك بن بحدل وروح بن زنباع الجذامي، ومالك بن هبيره السكوني وهدف هؤلاء أن يحملهم خالد على رقاب العرب، وعارضوا في ترشيح مروان.

مروان بن الحكم: رشحه زمل بن عمرو العذري وعبد الله بن عضاة الأشعري والحصين بن نمير السكوني وأهل الأردن.

وحجتهم في ذلك أن خالد بن يزيد لا يوازي ابن الزبير[2]، والعرب ترشح شيخا (ابن الزبير)، وهؤلاء يرشحون صبيا (خالداً)[3].

عمرو بن سعيد: والظاهر أنه لم يكن له اتباع كثر، ولذا لم يذكر اسمه الا على ولاية العهد، وأمرة دمشق، وربما يرجع ذلك الى موقفه من عدم قتال أهل الحجاز.

وقد استطاع حزب مروان ان يتغلب على الحزبين الآخرين وهنا جاء حسان بن مالك البحدلي وقال لخالد بن يزيد: يا ابن أختي، هواي فيك، وأكره ان تخرج الخلافة من هذا النسب، لكن الناس قد أبوك لحداثة سنك، ثم إن مروان أحب اليهم منك ومن ابن الزبير[4].

وهكذا نرى أن القائمين على طلب الخلافة للأمويين هم من القبائل اليمانية وهذا مما أدى الى معارضة القبائل القيسية لهذا الأمر، فكان أن وقعت معركة مرج راهط وهذا ما سنراه في الفصل القادم.

---

(١) المصدر السابق ٥/٥٣٠.

(٢) الطبري، تاريخ ٥/٥٣٤.

(٣) المصدر السابق ٥/٥٣٦.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/١٤١.

الفصل السابع

العصبية القبلية في العهد المرواني حتى وفاة عمر بن عبد العزيز

الصراع بين القيسية واليمانية وتسلم مروان
بن الحكم الخلافة
سياسة عبد الملك تجاه الأمصار
الشام
العراق
الحجاز
خراسان
موقف عبد الملك من العصبية القبلية
تجدد الصراع بين الشام والعراق
الحالة القبلية في عهد الوليد بن عبد الملك
القيسية واليمانية في عهد سليمان
موقف عمر بن عبد العزيز من العصبية القبلية

الصراع بين القيسية واليمانية وتسلم مروان بن الحكم الخلافة:

نتج عن وفاة معاوية الثانية، ومن غير عهد بالخلافة لأحد صراع كبير بين القبائل وخاصة في الشام. حيث احتدم الصراع بين القيسية واليمانية. والصراع بين هذه القبائل ليس مجرد حرب ثأرية فحسب، بل كان صراعا يقوم على الاختلاف في التفكير السياسي[1]، هذا التفكير هو الذي أدى الى انقسام القبائل في الشام الى حزبين كبيرين اليمانية تؤيد البيت الأموي والقيسية تؤيد عبد الله بن الزبير. وبهذا التقسيم نرى أن الخصام القبلي قد امتزج بالسياسة العليا، فكانت مجموعة القبائل المرتبطة برابطة النسب هي بالاجمال الاحزاب السياسية التي كانت في أصلها مستقلة عن القبائل[2].

والسؤال الآن لماذا انقسم أهل الشام الى القيسية واليمانية؟

ترجع أسباب هذا الانقسام الى ما يلي:

العداوة التقليدية التي كانت بين القيسية واليمانية والتي امتدت آثارها من العصر الجاهلي[3]. صحيح ان القبائل القيسية واليمانية كانت تعيش في أماكن متقاربة في العصر الجاهلي كربيعة وكنده وطيء وأسد، الا أن الخصومات القبلية والانقسامات بين الجذمين الاصليين كانت تظهر بين هذه القبائل.

تقرب معاوية وابنه للقبائل الكلبية: فلما أصهر معاوية إلى كلب شعرت القيسية بأن حقوقها قد هضمت من قبل بني أميه، وخاصة عندما كان معاوية لا يفرض لهم في العطاء. صحيح أن سياسة معاوية كانت تقوم على أساس التوازن بين القبائل، وان المناصب في عهد معاويه وابنه كانت تقوم على اكتاف القيسية سواء في الشام أو العراق أو الحجاز، الا أن يزيداً لم يسر حسب سياسة والده في الموازنه بين القبائل، بل قرب إليه حسان بن مالك بن بحدل وصار الغالب عليه[4]. فلا بد أن يثير هذا زعيم القيسية وهو الضحاك بن قيس- وخاصة عندما سمع وصية معاوية بن يزيد وهي: يا حسان بن

---

(١) بلياييف، العرب والخلافة ٢١٣.

(٢) فلهوزن، الدولة العربية ١٧٧.

(٣) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي، عصر الخلفاء الأمويين ٩٢-٩٤.

(٤) اليعقوبي، تاريخ ٢٣٩/٢.

مالك أضبط ما قبلك وصلى بالناس الى أن يرضى المسلمون بامام يجتمعون عليه[1].

ومما زاد من حدة الخلافة بين الجذمين هو أصل موطنهما، فالكلبيون يعدون أنفسهم اصحاب البلاد الأصليين فهجرتهم الى الشام سبقت القبائل القيسية منذ عهد بعيد. أما القيسية فقد جاءت مع الفتوح، وسكنت في الجهات الشمالية بالجزيرة الفراتيه وليسوا سكان البلاد الأصليين، بل معظمهم من القبائل الحجازية[2]. وقد استطاعت القيسية ان تتلاءم مع حكم بني سفيان، وحاربوا أهل العراق مع معاوية، غير أنهم لم يقبلوا بمحاربة أهل الحجاز، وقد ظهرت فكرة الرفض عند أحد أفراد البيت الاموي وهو عمرو بن سعيد، فكان الجيش الذي سار الى الحجاز معظمه من القبائل اليمانية، وان كان قائد الجيش من القيسية.

إن القبائل القيسية، رفضت أن تحارب إخوانها من أهل الحجاز في بلاد الشام ولم يشتركوا في الفتنة، ونتيجة صلتهم بالموطن الأصلي، تطلعت أنظارهم الى ابن الزبير لاسيما وأنهم لا يرون بقاء الخلافة في الشام.

وظهرت هذه الافكار من موقف مسلم بن عقبة المري تولية رجل يماني لقيادة الجيش وهو الحصين بن نمير السكوني.

أما القبائل اليمانية فموقفها مختلف كل الاختلاف، إنهم لا يريدون نقل مركز الخلافة الى الحجاز بل يريدون إبقائها في الشام، وأيدهم في ذلك رؤوس قريش الشام[3].

فالخلاف في حقيقته اذن خلاف سياسي مرده الى اختلاف وجهات النظر الى مكانة بلاد الشام في شأن الخلافة، غير أن الحوادث وسعت من شقة الاختلاف فأعطته صورة جديدة جعلته خلافا قبليا ذا نزعة قبلية مريره[4].

لقد قامت القبائل اليمانية تطلب الخلافة لبني أميه، أما القبائل القيسية فقد دعت الى ابن الزبير.

---

(1) البلاذري، انساب الاشراف حـ٤ قسم ٦٥/٢.

(2) يوسف العش، مذكرات ٧٦.

(3) الامامه والسياسة ١٢/٢، الطبري، تاريخ ٢٠٥/٥، العقد الفريد ١٣٣/٥.

(4) يوسف العش، مذكرات ٧٦.

ولما كان الضحاك بن قيس الفهري والي دمشق، فلا بد أن تتجه الأنظار اليه لقيادة القيسية، غير أن الضحاك لم يظهر عدواته مباشرة، بل كان في بداية النزاع يقدم رجلا ويؤخر أخرى، وبتعبير آخر كان اذا جاءته اليمانية أخبرهم أنه معهم، وإن جاءت القيسية كان منهم[1].

والظاهر أن اليمانية قد عرفوا هذا الموقف المتأرجح من الضحاك، فأراد حسان بن مالك البحدلي أن يتحقق من موقف الضحاك- فأرسل اليه كتابا يعظم فيه حق بني أميه في الخلافة ويبين حسن بلاء القبائل اليمانية عنده وصنيعهم اليه، وفي نهاية الكتاب دعاه لطاعة بني أميه[2].

وكان حسان في منتهى الحنكه السياسية، عندما أعطى رسوله نسختين من الكتاب، فإذا لم يقرأ الضحاك كتابه علنا على الناس، قام الرسول وقرأ الكتاب. وحدث ما توقعه حسان فلم يقرأ الضحاك الكتاب، وهنا قام حامل الكتاب وقرأه على الناس فقامت بنو أميه ومعهم اليمانية فصدقوا ما جاء بالكتاب، وشتموا ابن الزبير فردت عليهم القيسيه وشتمت ابن بحدل. ورغم هذا لم يستطع ابن بحدل ان يكتشف هوية الضحاك السياسيه لاسيما وأنه سجن كل من قام بالشغب.

غير أن سلطة الضحاك لم تكن قوية، فقد قامت القبائل الكلبية وأخرجت أفرادها من السجن. وقد عرف هذا اليوم بيوم جيرون[3].

وفي حمص قام النعمان بن بشير الأنصاري ودعا لابن الزبير، وقام زفر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا، وناتل بن قيس الجذامي في فلسطين يدعوان لابن الزبير ولم يبق على ولاء البيت الاموي الا أهل الأردن[4]. ومع ذلك فقد أراد الضحاك أن يتجه الى الجابية لبحث أمور الخلافة مع بني أميه واليمانية الا أن ثور بن معبد السلمي قال له: دعوتنا لبيعة ابن الزبير وهو رجل هذه الأمه، فلما بايعناك خرجت لهذا الاعرابي من كلب تبايع لابن أخته وتصير تابعا له[5]. فغير رأيه واتجه الى مرج راهط.

(1) الاصفهاني،الاغاني ١٩/١٩٦، الهيئة المصرية.

(2) الطبري، تاريخ ٥/٥٣٢.

(3) الطبري ٥/٥٣٢-٥٣٣، البلاذري، أنساب الاشراف ٥/١٣٣، ابن الأثير، الكامل ٣/٢٤٧، الذهبي تاريخ الاسلام ٣/٢٢.

(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/١٣٥.

(5) الاصفهاني،الاغاني ١٧/٢٢٢-٢٢٣ (بيروت).

وهكذا نجد أن الكتلة الشاميه قد انقسمت الى قسمين، الأول يضم قبائل القيسية من سليم وذبيان وعبس وهذه تدعو لابن الزبير الذي يمثل سياسة الحجاز وأهله وأيده في ذلك أهل حمص وقنسرين وفلسطين.

والثاني القبائل اليمانية التي تضم كلب والسكاسك والسكون وغسان وجذام وغيرها وهذه تمثل السياسة الشامية، ولم يؤيدها من أهل الشام إلا أهل الأردن.

وما أن خرج الضحاك بن قيس الى مرج راهط حتى قامت القبائل اليمانية بزعامة يزيد بن أبي النمس الغساني بالاستيلاء على دمشق، وإخراج عامل الضحاك منها وحازوا على الأموال وبايعوا لمروان بن الحكم وأمدوه بالمال والرجال والسلاح وكان ذلك أول فتح على الأمويين[1].

ويرجع السبب في الاستيلاء على دمشق بهذه السهولة، الى أن القبائل القيسية قد خرجت مع الضحاك الى مرج راهط، كما أن غالبية سكان دمشق هم من القبائل اليمانية، لذا لم يجد يزيد بن أبي النمس صعوبة في السيطر عليها. وفي راهط استمر القتال مدة تزيد على عشرين يوما، وبالرغم من الفارق العددي بين الجيشين، حيث كان جيش الضحاك ما يقارب الستين الفا، وجيش مروان ثلاثة عشر الفا، الا أن الهزيمة حاقت بالضحاك. وترجع أسباب هزيمته الى ما يلي:

- ان عبيد الله بن زياد ذكر لمروان بأنه لم ينال من قيس الا بمكيده، فتقدم مروان وطلب من الضحاك أن يكف عن قتاله، فقبل الضحاك بذلك، الا أن مروان غدر به وأنقض على جيشه مما أدى الى قتل الضحاك، ومعه ثمانون رجلا من كبار رجال قيس كلهم يأخذ القطيفة[2].
- يذكر المدائني في كتابه المكايد أن القيسية اختلفت على الضحاك لأنه اخذ يدعو لنفسه، وبنصيحة من ابن زياد الذي قال له: أنت رجل من قريش ومعك الخيل وأكثر قيس، فادع لنفسك فأنت أسن منه وأولى فـفعل. وهنا اختلف عليه جنده[3].

---

(1) الطبري، تاريخ ٥/٥٣٧.

(2) ابن خياط، تاريخ ٢٥٥، القطيفة: عطاء مقداره (٢٠٠٠) درهم.

(3) ابن عبد البر، الاستيعاب ٢/٢٠٦.

وفي مناقشة هذين السببين أرى أن الأول ممكن الحدوث، أما الثاني فقد وردت روايات تخالف ذلك، فالضحاك لم يدع لنفسه كخليفه، والسبب في ذلك ما بعث به مروان الى الضحاك: مالك ولهذا الأمر وأنت رجل من محارب بن فهر وانما هذا الأمر في بني عبد مناف وأنت وإن أظهرت الدعاء لابن الزبير فإنه رجل من بني أسد بن عبد العزى[1].

ومما تقدم أرى أن هذه ليست أسباباً كافية لهزيمة الضحاك، وإنما السبب المباشر هو أن جيش الضحاك كان يضم قبائل قيسية ويمانية، الا أن الغالبية كانت لقيس[2]، فلما احتدم القتال لم تخلص القبائل اليمانية النية في قتال اليمانية التي كانت مع مروان مما ضعضع من موقف الضحاك وأدى الى هزيمته.

لقد كان وقع الهزيمة على القيسية عظيما، حتى أن الروايات بالغت في وصفها وقالت إن رجال قيس لم يضحكوا حتى ماتوا[3].

أما نتائجها من الناحية السياسية، فإنها قد أرست قواعد البيت الأموي وأعادت الحياة اليهم، ثم إن الأمصار وخاصة ذات الغالبيه اليمانية بدأت تتحول الى جانب الامويين، فقد قام أهل حمص وقتلوا النعمان بن بشير الأنصاري الذي دعا الى ابن الزبير. ولم يبق من بلاد الشام بعد راهط على ولائه لابن الزبير الا زفر بن الحارث الذي اعتصم بقرقيسياء.

وهذه المعركه وان حققت نجاح السياسية الشامية، الا أنها أثارت حفيظة القبائل القيسية، مما أدى الى حدوث فتن قبلية، وكأن الجاهلية قد عادت مرة أخرى، حيث احتدم النزاع بين قيس وكلب أولاً، ثم بين قيس وتغلب[4].

ومع أن القبائل اليمانية وقفت إلى جانب الأمويين، الا أن ذلك لم يكن نابعاً من ولاء حقيقي. ويظهر ذلك مما ذكره المسعودي من أن مالك بن هبيره قال لمروان: إنه ليست لك في أعناقنا بيعة، وليس نقاتل إلا عن عرض دنيا فان يكن لنا على ما كان لنا

(١) البلاذري،أنساب الاشراف ٥/١٧٧.
(٢) المصدر السابق، ٥/٢٠١.
(٣) ابن عبد ربه العقد الفريد ٥/١٣٧، ابن عبد البر، الاستيعاب ٢/٢٠٦.
(٤) الطبري، تاريخ ٥/٥٣٩.

معاويه ويزيد نصرناك، وإن تكن الأخرى فوالله ما قريش عندنا الا سواء. فأجابه مروان الى ما سأل[1]. كما أن حسان بن مالك بن بحدل سيد يمانية الشام اشترط على مروان أن يفرض لألفي رجل من قومه الفين الفين، وان مات أحدهم قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وأن يكون لهم الأمر والنهى وصدر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأى منهم ومشورة فرضي مروان بذلك[2]. واشترط الحصين بن نمير ان ينزل قومهالبلقاء، وأن يجعلها مأكله لكنده[3].

ومن الناحية الاجتماعية فقد اسفرت هذه المعركة عما كان للوجه القبلي من أثر على النواحي السياسية، قسمت الشام الى قسمين: القيسية حزينه كثيبة لما حل بها واليمانية مستبشرة لأنها أعادت الحكم الى الامويين[4].

لقد عاد الامويون وانتخب مروان بن الحكم. والواقع ان اختياره قد خضع لتقاليد قبلية فهو كبير قريش وشيخها، وابن عم الخليفة المظلوم والطالب بدمه قبل الناس أجمعين[5].

وتذكر بعض الروايات أن مروان بن الحكم قد دفع الى الخلافة دفعا، وانه لم يكن راغباً بها. ومن الذين دفعوه اليها: عبيد الله بن زياد الذي قال له لما هم أن يبايع لابن الزبير: "انت سيد قومك وأحق الناس بالخلافة" فبايعه عبيد الله وبني أميه وقريش الشام[6].

والحصين بن نمير السكوني أصر على بيعة مروان لأنه شيخ كبير السن. وقد حاول مالك بن هبيره ان يبين له ان اليمن سوف لا يكون لها مكانة مرموقة عند مروان عندما قال: والله لئن استخلف مروان وآل مروان ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها. إلا أن الحصين قد أصر على موقفه وبايع لمروان بالخلافة[7].

(1) المسعودي، مروج الذهب ٩٥/٣.
(2) المصدر السابق، ٩٥/٣.
(3) الطبري، تاريخ ٥٤٤/٥.
(4) البلاذري،أنساب الاشراف ١٣٥/٥.
(5) المصدر السابق، ١٢٩/٥.
(6) الدينوري، الاخبار الطوال ٢٢٩، الذهبي، تاريخ الاسلام ٢٣/٣.
(7) الطبري، تاريخ ٥٣٦/٥.

ومع أني لا أنكر حماسة ابن زياد واليمانية في البيعة للأمويين، إلا أنه لا بد من القول أن مروان قد تطلع الى الخلافة قبل ذلك بوقت طويل. فعندما طلب معاوية البيعة لابنه يزيد جاء مروان اليه وقال: أقم الامور يا ابن أبي سفيان وأعدل عن تأميرك الصبيان وأعلم ان لك قوما نظراء[1]. وحرّض أبناء عثمان بن عفان على آل حرب بن أميه، وبأنهم لم يأخذوا الخلافة الا باسم ابيهم[2].

غير أن مروان لم يظهر في البداية أنه يريد الأمر لنفسه، وذلك حتى يتثبت من وجود الاعوان، فلما أيدته اليمانية وبني أميه وقريش مضى في طلبه. ويستدل على ذلك من أن مروان هو الذي قدم ببني أميه على حسان بن بحدل بالجابية فلما رآه حسان قال له: أتيتني بنفسك اذ أبيت أن آتيك، والله لأجادلن عنك في قبائل اليمن أو أسلمها اليك[3]. وتطلع مروان للخلافة هو الذي دفعه لأن يطرح ابن عمر بديلا لابن الزبير، غير أن أهل الشام قالوا عنه: رجل ضعيف[4].

وهكذا فقد تريث مروان حتى وجد الأنصار، ثم جاءت التقاليد القبلية فرشحته للخلافة بتأييد من القبائل اليمانية.

وبعد الانتصار في مرج راهط اتجهت انظار مروان الى مصر، وكان الموقف هناك يميل الى صالح الأمويين. صحيح أن الوالي كان قيسيا وبايع لابن الزبير ألا أن أهل مصر كانو مع ابن الزبير في الظاهر، ومع بني أميه في الباطن[5]. ويرجع ذلك الى أن أكثرية أهل مصر هم من القبائل اليمانية، كما أن الخوارج فرضوا سيطرتهم على السكان هناك، فتذمروا منهم فكانت عواطفهم مع بني اميه.

توجه مروان الى مصر ومعه رؤساء القبائل اليمانية الشامية، فتمكن من هزيمة طلائع جيش عبد الرحمن بن عتبه بن جحدم والي مصر. ثم التقى به في عين شمس فهزمه ولم تقاتل معه الا قبيلة المعافر.

---

(١) اليعقوبي تاريخ ٣٠٣/٢،المسعودي، مروج الذهب ٣٨/٣.
(٢) الاصفهاني،الاغاني ٧١/١٨ (بولاق).
(٣) الذهبي، تاريخ الاسلام ٤٧/٣.
(٤) ابن الأثير، أسد الغابة ٢٢٩/٣ (طبعة مصر).
(٥) الكندي، الولاة ٤٣.

وكادت القبائل اليمانية ان تنقلب على مروان عندما قتل الاكدر بن حمام سيد لخم فما ان سمعوا بقتله حتى لبسوا سلاحهم وحاصروا مروان، الا أن يمانيا آخر وهو كريب بن ابرهة الاصبحي زعيم اليمانية استطاع ان ينقذ مروان ويعيد الهدوء الى مصر[1].

وبعد فتح مصر خرج مروان منها إلى الشام، بعد أن عين ابنه عبد العزيز عليها، ويظهر لنا من وصيته مدى ازدياد سيطرة القبائل على الحكم حيث أوصاه: ..... أوقع الى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن عينا لك على غيره، وينقاد قومه إليك. وحتى يضمن ولاء القبائل اليمانية جعل موسى بن نصير وزيرا ومشيراً له[2].

وفي رمضان من سنة ٦٥هـ مات مروان بن الحكم بعد أن اخذ البيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز، وقد تخلى عن شروط الجابية، وربما كان الدافع لهذا التغيير هو استمالة حسان بن مالك، الذي كان من أشد المتحمسين لبيعة عبد الملك حتى أنه قال للناس: قوموا فبايعوا لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده[3]. ولم يذكر خالد بن يزيد في هذا الشأن من قريب أو بعيد.

عبد الملك والأمصار:

الشام:

تسلم عبد الملك الخلافة، ولم يكن في قبضة الامويين الا مصر والشام، وحتى الشام لم تكن خالصة له، أما باقي الأمصار فقد كانت تابعة لابن الزبير، وهنا كان على عبد الملك أن يحدد موقفه مع جميع الاتجاهات المختلفة التي أخذت تتصارع هنا هناك. وأول هذه الصراعات الفتن القبلية في الشام.

الفتن القبلية في الشام والجزيرة

برز إثر معركة مرج راهط حدث جديد له أهميته في التيارات المختلفة، فقيس هزمت امام اليمن، وهذا النصر لم يكن هينا على قيس، اذا أثار عند القيسيين فكرة

---

(١) الكندي، الولاة ٤٦.
(٢) المصدر السابق، ٤٧.
(٣) الطبري، تاريخ ٥/٥٣٧.

الثأر، وهنا عادت العصبية الجاهلية القديمة، عادت من تلك الحادثة في أشد مظاهرها تغلي كالمرجل.

وشكلها الظاهري يشبه ما كان في العهد الجاهلي من حيث الأشعار والاغتيالات والغزو والنهب[1].

لقد أمرت القبائل القيسية عليها زفر بن الحارث الكلابي القيسي بعد قتل الضحاك[2]، فنصب زفر من نفسه طالبا للثأر من القبائل اليمانية، وساعده في ذلك زعيم قيسي آخر هو عمير بن الحباب السلمي الذي فقدت قبيلته في مرج راهط سبعماية قتيل[3].

بدأت الفتن القبلية بين قيس وكلب، حيث قامت القيسية بالاغارة على بعض الأحياء الكلبية التي كانت تسكن بادية السماوه وتدمر. وهنا قامت القبائل الكلبية وبَرّها ومَدَرها وأمرت عليها حميد بن حريث الكلبي، فقام حميد وأغار على بني نمير بن عامر بعد أن أرسل اليهم يخبرهم بنقض الحلف الذي كان بينهما، وتمكنت كلب من أخذ ثأرها من القيسية[4].

وحتى تستطيع كلب ان تقهر القيسية، وتذلها سعت الى إقامة حلف مع تغلب، الا أن هجمات القيسية لم تفسح المجال عن عقد مثل هذا الحلف. وهنا صمم حميد ان ينتقم بنفسه من القيسية فأغار على بني زهير بن جناب فقتلهم ولم ينج منهم الا رجل عريان فجاء الى عمير بن حباب فقال عمير: ما زلت اسمع بالنذير العريان حتى رأيت. وفي هذه الوقعة نلمح شدة الحقد الذي أخذ يظهر بين القبائل، لقد قطع حميد آذ ان القيسية ونظمها في خيط وسار بها الى الشام[5].

وكانت أخبار هذه الاغارات تأتي الى عبد الملك فلم يحرك ساكنا، والظاهر انه كان راضيا في البداية عن هذه الهجمات، لأن فيها إضعاف للقوة القيسية التي لا زالت

---

(١) يوسف العش، مذكرات ٧٩.

(٢) البلاذري،أنساب الاشراف ٥/١٤١.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/١٣٧.

(٤) الاصفهاني،الاغاني ١٩/١٩٩ (الهيئة المصرية).

(٥) البلاذري،أنساب الأشراف ٥/٣٠٩، الاغاني ١٩/٢٠٠ (الهيئة المصرية).

معتصمة في قرقيسياء . ويستدل على ذلك من أن عبد الملك سمع عن غارات حميد على قبائل سليم وعامر وأخلاط قيس، وكان عنده حسان بن مالك بن بحدل وعبد الله بن مسعده الفزاري فأتى عبد الملك بالغداء فقال عبد الملك لابن مسعده : أدن فكل . فقال له : لقد أوقع عمير بسليم وعامر وأخلاط الناس وقعة لا ينفعني معها غداء ، ولا يسرني بعدها شراب حتى يكون لها غير . فقال حسان : يا ابن مسعده غضبت لقيس إن قتلت وأنسيت دخولهم قرقيسياء يغيرون على أهل البادية منا قوم ضعفاء لا ذنب لهم[1] .

ولما سمع حميد قول ابن مسعده قال : والله لأشغلنه بمن هو أقرب اليه من سليم وعامر، فاتجه نحو فزاره ومعه كتاب مفتعل على لسان عبد الملك بتوليته صدقات بني فزاره . ولما وصلهم قال : بعثني عبد الملك بن مروان مصدقا، فابعثوا الي كل من يطيق أن يلقانا ففعلوا ، فلما اجتمعت اليه وجوه بني فزاره، أخذ يدعو الرجل منهم فيدخل الفسطاط ثم يقتله ، وفي هذه العملية استطاع قتل خمسين رجلا وأخذ أموالهم وعاد أدراجه الى بلاد الشام[2] .

ولما رأت فزارة ذلك جاء اسماء بن خارجه ومعه قومه الى عبد الملك وطلبوا القود من كلب، الا أن عبد الملك قال لهم : كنتم في فتنة، والفتنة كالجاهلية ولا قود فيها ، ولكني صانع بكم مالا أصنعه بغيركم، أدي كل قتيل منكم بدية من أعطية حمير وقضاعة . ولما قبض بنو فزاره الديات وقد بلغت الف الف ومائتي الف درهم ذهبوا الى اليمن فاشتروا الخيل والسلاح وأغاروا على أحياء من كلب وهم على ماء يقال له بنات قين فقتلوا منهم ما بين ١٥٠-١٨٠ رجلا .

وأمام هذا الصراع القبلي كان على عبد الملك وبعد أن قويت أوتاده واشتد ساعده ان يقطع دابر هذه الفتن . فبعث الى كلب يحذرهم من أخذ الثأر وقال : أقسم بالله لئن قتلتم رجلا من بني فزاره لأقيدنكم به ، فكفوا عن ذلك . وكتب الى عامله الحجاج بن يوسف وكان على الحجاز يأمره أن يحمل اليه زعماء فزاره الذين تسببوا في قتل الكلبيين وهما سعيد بن عيينه وطلحة بن قيس ، فحبسهما عبد الملك .

أما كلب فقد رفضت الديات ، وأصروا على القود فقال عبد الملك : إنما قتل منكم

---

(١) البلاذري،أنساب الأشراف ٣٠٩/٥.

(٢) البلاذري،أنساب الأشراف ٣٠٩/٥-٣١٠، الاصفهاني، الاغاني ٢٠٢/١٩ (الهيئة المصرية).

الشيخ الكبير والصبي الصغير فرد عليه أحد رجال كلب وقال: قتل منا من لو كان أخاك لاختير عليك. فغضب عبد الملك من ذلك وأراد ضرب عنق الكلبي، الا أن قبيلته ادعت بأنه شيخ كبير خرف فتركه عبد الملك[١].

وفي مصير القيسيين لعبت الخؤولة دورها في هذه القضيه، فأبناء الكلبيات من الأمويين وعلى رأسهم خالد بن يزيد طالبوا بالقود من القيسية، اما أبناء القيسيات وعلى رأسهم الوليد وسليمان بن عبد الملك وإبان بن مروان فقد طالبوا بأخذ الديات من القيسية فقط. وكاد الشر ان يقع بينهم، فلما رأى عبد الملك ذلك أخرج سعيد بن عيينه وطلحه ودفعهما الى كلب لقتلهما[٢]. فاعتبرت القيسية هذا العمل هزيمة ثانية لها أمام القبائل اليمانية[٣]، وازداد حقدهم على خالد بن يزيد حتى أن احد القيسية قال:

أأنت تأمر كلبا أن تقتلنا جهلا وتمنعهم منا اذا قتلوا[٤]

وامتدت الفتن القبلية الى قيس وتغلب. لقد اشتركت تغلب في بادىء الأمر مع القيسية في قتالها لكلب بسبب الرابطة النزارية بينهما. الا أن العلاقات ساءت بين الطرفين بسبب مجاورة قيس لتغلب، وما حدث فيهما من اساءة لبني تغلب. حيث أصبح رجال قيس يسخرون من مشايخ تغلب النصاري فهاج ذلك بينهم شرا الا أنه لم يبلغ الحرب. وجاء اعتداء أحد القيسين على امرأة من ربيعة وأخذه عنزاً كانت لها سببا في اثارة القتال بين القبيلتين.

لقد قامت تغلب وأغارت على بني الحريش من القيسية فقتلوا منهم عددا وأسروا آخرين من بينهم امرأة ولم تستطع القيسية تخليصها[٥].

وهنا أخذ الطرفان يغيرون على بعضهما البعض، ومما زاد في حدة الصراع ظهور شاعرين جعلا من شعرهما رمزا للولاء القبلي، وهما الأخطل النصراني الذي تعصب لتغلب أولا ولبني أمية ثانيا، وجرير الذي تعصب لمضر وقيس. وأشهر الوقائع بين قيس

(١) البلاذري،أنساب الأشراف ٥/ ٣١٠-٣١١، الاصفهاني، الاغاني ٢٠٣/١٩ (الهيئة المصرية).

(٢) البلاذري،أنساب الأشراف ٣١١/٥، ابن حبيب، أسماء المغتالين من الاشراف ٥٢، البكري معجم ما استعجم ٢٧٩-٢٨٠.

(٣) البلاذري،أنساب الأشراف ٣١٢/٥.

(٤) مصعب الزبيري، نسب قريش ١٢٩.

(٥) البلاذري،أنساب الأشراف ٥/ ٣١٢-٣١٥.

وتغلب هي[1] :

يوم ماكسين[2] :

قام عمير بن الحباب للأخذ بثأر القيسية فأغار على تغلب فقتل منهم خمسمائة رجل من بينهم رئيس تغلب شعبث بن مليل. وكان المحرض على ذلك هو زفر بن الحارث الذي قال لما سمع بهجمات تغلب : شغلت قيس بغزل نسائها عن هؤلاء النصارى.

يوم الثرثار الأول[3] :

كان هذا اليوم ثأرا لتغلب من قيس التي أغارت عليهم في ماكسين. لقد جمعت قبائلها في الجزيره، ولم يكتفوا بذلك بل بعثوا الى مالك بن مسمع في البصرة يطلبون نجدتهم فأخذت العصبية مالك وقال : ما أحسبكم الا من نبيط تكريت، ولو كنتم من بني تغلب لدافعتم عن أنفسكم وحرمكم. فقالوا له : إنا حي فينا ما قد علمت من النصرانية ومضر مضر وأي السلطانين غلب فهو مع قيس. فقال مالك : اذهبوا فان أمدهم السلطان بفارس فلكم علي فارسان، وان أمدكم برجل فلكم رجلان، إن السلطان لفي شغل عنكم وعنهم فانطلقوا.

أما القيسية، فقد توجهت الى تميم وأسد تطلب نجدتهم، غير أنهم لم يفلحوا في مسعاهم فقال شعراؤهم شعرا يشكون من مضر لعدم نصرتهم وخذلانهم. وفي هذا اليوم تمكنت تغلب من هزيمة قيس، وبقرت بطون ثلاثين امرأة من سليم. وكانت هذه الواقعة مثار افتخار ليلى التغلبية والأخطل بقوة تغلب، فتصدى لهما جرير وبين انتصارات المضرية والقيسية على القبائل الأخرى.

يوم الثرثار الثاني:

فنتيجة هول الصدمة في الثرثاء الأول قامت القيسية وجمعت قواها تحت قيادة عمير بن الحباب السلمي وهزمت تغلب في الثرثار الثاني.

---

(١) انظر هذه الايام في أنساب الأشراف ٥/٣١٢- ٣٣٠، ابن الأثير، الكامل ٤/٣١٠-٣٢٤.

(٢) ماكسين: قريه من قرى الخابور.

(٣) الثرثار: نهر يتفرع من هرماس نصيبين ويصب في دجله بين الكحيل ورأس الايل.

وقد حاول زعيم القيسية زفر بن الحارث أن يذكر القيسية وربيعة بأواصر القرابة والرابطة النزاريه، لمواجهة العدو الأول قبيلة كلب[1].

يوم الحشاك[2]:

يعتبر هذا اليوم من أشهر الوقائع بين الحيين، فقد أرادت تغلب أن تضع حدا لهجمات عمير بن حباب، فجمعت حاضرتها وباديتها واجتمعوا بالحشاك. وجاءت القيسية وعليها زفر بن الحارث ومعه ابن الهذيل وعمير بن الحباب واستمر القتال بينهما ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث تعاقدت تغلب على عدم الفرار، خاصة بعد أن فقدت سيدها ابن هوبر، وعبأوا أنفسهم حسب البطون، وجعلوا النساء خلفهم، وأحس عمير بن الحباب بخطورة الموقف فطلب من قيس أن تخلى عن تغلب، فجوبه بمعارضة قوية من باهله وفزاره وقالوا: قتلت فرسان قيس ثم ملىء سحرك وجبنت. فغضب عمير من ذلك، وأخذ يقاتل راجلا حتى قتل. ولما رأى ذلك زفر عاد الى قرقيسياء محتجا بأن عبد الملك قادم اليه. وهذا مما جعل قيس تهزم هزيمة منكرة فصارت تغلب تقول: أما تعلمون أن تغلب تغلب.

وحملوا رأس عمير وقدموه وثيقة ولاء لعبد الملك، فأعطى عبد الملك الوفد وكساهم.

يوم الكحيل[3]:

بعد هزيمة القيسية وقتل عمير بن الحباب، قدم تميم بن حباب الى زفر بن الحارث وطلب مساعدته للأخذ بثأر قيس، ولم يقبل زفر الا بعد أن قال له ابنه الهذيل:

" والله لئن ظفر بهم ان ذلك لعار عليك، وإن ظفروا وقد خذلتهم إن ذلك لأشد فثارت حمية زفر، وعزم على الأغارة على تغلب. وقسم القيسية الى عدة أقسام، قسم أغار على بني فدوكس، وقسم على بني كعب بن زهر، وقسم على رهط آخر من تغلب. ولما علم زفر بتجمع تغلب بالعقيق من أرض الموصل اتجه اليهم، فارتحلت تغلب تريد عبور دجله، غير أن سيوف القيسية كانت أسبق إليهم، فاضطرت تغلب أن

(١) البلاذري،انساب الأشراف ٥/ ٣٢٠.
(٢) الحشاك: نهر يأخذ من الهرماس.
(٣) الكحيل من أرض الموصل.

تقاتل بالكحيل . وفي هذا اليوم استطاعت القيسية ان تهزم تغلبا هزيمة منكره ، فقتل عدد منهم ، وغرق عدد آخر في نهر دجله .

ولما استقر الأمر لعبد الملك تدخل بين الحيين ، فأوقف الاغارات الا أن الأخطل أثار بشعره الجحاف بن حكيم بن عاصم السلمي عند قوله :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر   بقتلى أصيبت من سليم وعامر

فغضب الجحاف وصمم على الانتقام من تغلب ، فاستعمل نفس الخطة التي استعملها حميد بن حريث الكلبي بأن أخذ عهدا مفتعلا على صدقات بني تغلب وبكر في الجزيرة فسار اليهم ومعه عدد من القيسية ، فلما وصل الرقبه أخبرهم بما ينوي عمله وقال : من أحب أن يدحض عني العار وعن نفسه فيصحبني فأني آليت ألا أغسل رأسا أو أوقع بيني تغلب ، فرجع بعضهم وبقي معه ثلاثمائة من قومه . ولما وصل الى ماء الرحوب وهو ماء لبني جشم بن بكر قوم الأخطل أعمل السيف بهم ، وقتل منهم خلقا كثيرا .

ولما علم عبد الملك طلب الجحاف ، إلا إنه هرب ودخل بلاد الروم وبقي عندهم حتى أخذ له الأمان من عبد الملك بواسطة رجال القيسية ، الا أن عبد الملك اشترط عليه أن يدفع ديات تغلب فوافق الجحاف ، وذهب الى الحجاج يسأله المساعدة في شأن هذه الديات ، إلا أن الحجاج لم يسمح له بالدخول عليه الا بعد توسط زفر بن الحارث . ولما دخل الجحاف قال للحجاج : إني أعلمت المطي إليك من الشام لأنه ليس أمامك مذهب ، ولا وراءك مطلب وليست يد دون الله تحجزك ، وأنت أمير العراق ، وسيد قيس ففك رهني وتلاف أمري فأمر له الحجاج بمائة الف درهم .

ويعلق فلهوزن[1] على هذه الوقائع بقوله : "يرى الانسان ان العرب في أرض الشام والجزيرة لم يتغيروا في ظروفهم الجديدة عما كانوا عليه فلا الاسلام ولا النصرانية استطاعا أن يحولا بينهم وبين وضع القبيلة ، والثأر فوق كل شيء ، فكانوا يؤثرون الثأر على العار ، وكانوا لا يندمون إلا حين لا ينفع الندم ، بل هم صاروا في ظروفهم الجديدة أشد قسوة مما كانوا عليه في الجاهلية في وطنهم القديم فصاروا يقتلون بعضهم بعضا على نحو واسع النطاق ، وأقل مبالاة فكانوا يبقرون بطون من يأسرونه من النساء وهذه عادة

(١) فلهوزن، الدولة العربية وسقوطها ٢٠٢.

لم تكن موجودة في جزيرة العرب بمعناها الحقيقي.

عبدالملك بن مروان وقيسية الشام والجزيرة

بعد هزيمة القيسية في مرج راهط، لجأ زفر بن الحارث إلى قرقيسياء واعتصم بها ومن هناك نصب نفسه طالباً لثأر القيسية ومعه عمير بن الحباب السلمي.

وقبل أن يتجه عبدالملك إلى العراق كان عليه أن يؤمن جهة الشام كلها، فأرسل أبان بن عقبه بن أبي معيط لقتال زفر، إلا أن زفر تمكن من الإيقاع بطلائع جيش أبان، وفقد ابنه وكيعاً في المعركة.

حاول زفر أن يتحد مع التوابين الذين قدموا بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي بعد أن تدخل أحد رجالات القيسية وهو المسيب بن نجبة الفزري وفتح المدينة أمامهم، إلا أن التوابين لم يستجيبوا لهذه الدعوة[1].

وهكذا نرى أن القيسية قد حاولت الالتحام مع الشيعة انتقاماً من الأمويين ومن القبائل اليمانية في الشام.

لقد أصبح زفر بعد مقتل عمير زعيم القيسية في مختلف أنحاء الدولة الاسلامية دون منازع، فعندما سمع بأن ابن الحر عبيد الله المذحجي يهجو قيسا بعث إلى مصعب بن الزبير وقال له: لقد كفيتك قتال ابن الزرقاء وابن الحر يهجو قيساً.

ولما توقف مصعب عن أخذه أرسل إليه رجال من سليم فتمكنوا من أسر ابن الحر[2].

أما عبد الملك فبعد هزيمة أبان بن عقبه صمم على الخروج اليه بنفسه، وهناك أطبق الحصار على قرقيسياء. وقد حاول بنو أميه أثناء الحصار التشكيك بنسب زفر فأرسل بشر بن مروان الى أخواله القيسية: أتقتلون أنفسكم مع رجل ليس منكم، انما هو من كندة. وهذا التشكيك استمر حتى بعد صلح زفر مع عبد الملك، عندما قال عبد الملك له: بلغني أنك من كندة[3]. واستمرار عملية التشكيك أن يبعد القيسية عنه فلا تحدثه

(١) الطبري، تاريخ ٥/٥٩٣-٥٩٤.
(٢) المصدر السابق، ١٣٧/٦.
(٣) البلاذري،أنساب الاشراف ٣٠٣/٥، ابن الاثير- الكامل ٣٤٠/٤.

نفسه بالخروج عليه مرة ثانية.

ولما أعجزت عبد الملك هذه الحيله شدد الحصار عليه، الا أن العصبية قد ظهرت بين صفوفه جيشه. فاليمانية التي ذاقت نشوة النصر على القيسية في مرج راهط، طلبت من عبد الملك ان لا يضم اليهم القيسية لأنها تنهزم من القتال فخضع عبد الملك لطلبهم. ولما رأت القيسية ذلك كتبت على نبلها: انه ليس يقاتلكم غدا مضري ورمت بها على القيسية المحاصرين[1].

ومن خلال شعر الصقعب المري نلمس تذمر بعض القيسية من قتال بعضها بعضا حيث يقول:

كيف ترى قيسا ترامي قيسا — حمقا ترى ذاك بها أم كيسا

تدوسهم بالمنجنيق دوسا[2]

واستمر الحصار أربعين يوما. ورميت المدينة بالمنجنيق حتى ثلمت عامة بروجها، ففرح أبناء الكلبيات من قريش واليمانية وقالوا هدمت المدينة وغدا نناهضهم بقضاعه، غير أن توقعاتهم لم يكتب لها النجاح أمام مقاومة القيسية، ففكر عبد الملك بالصلح مع زفر، فأرسل اليه يعطيه الامان لنفسه ولمن معه، الا أن عبد الملك غير من رأيه عندما أخبره رجل من كلب أن أربعة أبراج قد هدمت، فتخلى عبد الملك عن شروطه السابقة[3].

لقد كان غرض القبائل الكلبية ان لا يحدث صلحا مع زفر حتى تفتح مدينتهم عنوة وينتقموا من القيسية.

غير أن مقاومة القيسية الشديدة جعلت عبد الملك يعود الى خطته السابقة فوافق زفر بعد أن أخذ الأمان لنفسه وجماعته ووضع الدماء والأموال وأن لا يبايع لعبد الملك حتى يموت ابن الزبير، وأن يعطي أموالا يقسمها بين أصحابه[4].

---

(١) البلاذري،أنساب الاشراف ٥/٣٠٣، ابن الاثير- الكامل ٣٣٨/٤.
(٢) البلاذري،أنساب الاشراف ٥/٣٠٣، ابن الاثير- الكامل ٣٣٨/٤.
(٣) البلاذري،أنساب الاشراف ٥/٣٠٣.
(٤) ابن الأثير، الكامل ٤/ ٣٤٠ (بيروت).

ويظهر مدى حقد الكلبية على القيسية عندما رأوا زفر يجلس مع عبد الملك على سريره فقال ابن عضاة الأشعري: أنا كنت أحق بهذا المجلس منه[1]. ويكى ذو الكلاع وقال: كيف لا أبكي وسيفي هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك (عبد الملك) وخلافه عليك[2].

غير أن عبد الملك لم يستمع الى هذه الأقوال، بل أخذ يتقرب الى قيس أكثر فأكثر وذلك عندما زوج ابنه مسلمه من الرباب ابنة زفر، فأصبح آل زفر أول من يدخل على عبد الملك، الا أن هذه المعاملة من عبد الملك لم تكن لتمنع الهذيل بن زفر من أن ينحاز الى جانب الأشتر في الخازر طلبا للثأر من اليمانية[3].

انقسام البيت الأموي:

بعد أن أمن عبد الملك جانب القبائل القيسية والروم خرج بنفسه الى ابن الزبير غير ان خروج عمرو بن سعيد الملقب بالأشدق عليه جعله يعود مسرعا الى دمشق. فقد رأينا أن أهل الشام في الجابية بايعوا لمروان على أن يكون خالد بن يزيد وليا لعهده، ومن بعده عمرو بن سعيد، الا أن مروان نقض ذلك فولى من بعده عبد الملك ثم عبد العزيز، فأسر عمرو ذلك في نفسه وأخذ يتحين الفرص حتى ينتقم من عبد الملك. فلما خرج عبد الملك للعراق أنسل عمرو من جيشه، وعاد الى دمشق فاحتلها بمساعدة بعض رجالات كلب ومنهم حميد بن حريث الكلبي وزهير بن الأبرد. ويرجع تغير كلب على عبد الملك من موقفه من القبائل القيسية، فحميد كان من أشد أعداء القيسية، وعبد الملك اخذ يقرب القيسية اليه، ومن هنا أرادوا الانتقام من عبد الملك بمساعدة عمرو بن سعيد.

ولما علم عبد الملك بذلك عاد مسرعاً الى دمشق فحاصره واستمر الأشدق في المقاومة، الا أن قبيلة كلب عادت وضمت صفوفها وذلك عندما جاءت نساء كلب وصبيانها الى سفيان بن الأبرد وحسان بن مالك فقالوا: علام تقتلون أنفسكم لسلطان قريش. فلما سمعوا ذلك تراجعوا وكفوا عن القتال[4]. وهنا ضعف موقف الابن الأشدق، فاحتال عليه عبد الملك فأرسل اليه يطلب عودته الى الجماعة، ويذكره بوضع

(١) المصدر السابق، ٣٤٠/٤ (بيروت).

(٢) الاصفهاني،الاغاني ٧/ ٣٧٩ (بيروت).

(٣) ابن الأثير، الكامل ٤/ ٣٤٠ (بيروت).

(٤) ابن سعد، الطبقات ٢٩/٥ (ليدن) وانظر الطبري، تاريخ ١١١/٦.

بني اميه ومصلحتهم في عدم الفرقة، ويمنيه بالوعود ويؤمنه على نفسه. جاء الأشدق اليه وليس معه احد غير مواليه، وهناك قتله عبد الملك دون حدوث جلبة أو صياح ورمى رأسه ومعه خمسمائة صرة في كل واحدة الف درهم، فتركوا الرأس واتجهوا نحو المال[1]. وبعد مقتل الأشدق أراد عبد الملك ان ينكل بآل سعيد بن العاص، الا أن عبد العزيز قال له: أتراك قاتلاً بني اميه في يوم واحد، اذكرك الله في استئصال بني أميه وهلاكها. عند ذلك عدل عبد الملك عن قتلهم فأمر بحبسهما ثم اخرجهما الى العراق عند مصعب[2]. وتدخل عبد العزيز أيضا في انقاذ رجل من كلب لأنه من اخواله[3]. وأصبح الاشدق درسا لكل انسان تحدثه نفسه بالخروج على عبد الملك، فقال لأهل العراق: ان الجامعة التي وضعت في عنق عمرو بن سعيد عندي والله لا أضعها في عنق رجل فأنتزعها الا صعدا لا أفكها عنه فكا فلا يبقين امروء الا على نفسه ولا يولغن دمه[4].

الصراع في العراق:

انضوى أهل العراق الى ابن الزبير يمنيه وقيسيه الا أن هذا الأنضواء كان يعكره وجود الاتجاهات المختلفة هناك من شيعة وخوارج وزبيريين وموالي من جهة، ومعظمهم لم يكونوا صادقي النية تجاهه.

وقد لعبت هذه الفئات دورا بارزا في الحركات التي ظهرت في العراق. وأول هذه الفئات هي الشيعة:

بعد مقتل الحسين اخذ أهل الكوفة يتراشقون التهم في عدم نصرتهم للحسين وعدم القيام بالطلب بدمه، فظهرت حركة جديدة أطلق عليها اسم "التوابين" هي أول حركة نبعث من داخل العراق. وتزعم هذه الحركة سليمان صرد الخزاعي فالتف حوله رجال من معظم القبائل من قيس والأزد وتميم وبجيله، وتهدف هذه الحركة الى الطلب بالثأر لآل البيت، واخراج ابن الزبير من العراق، وخلع عبد الملك، ورد الأمر الى أهل بيت النبي. وقد حاول والي الكوفه عبد الله بن يزيد ان يقنع التوابين بتوحيد جهودهم

(١) البلاذري،أنساب الاشراف حـ٤ قسم ٢٣٨/٢، الدينوري، الاخبار الطوال ٢٨٠-٢٨١.
(٢) ابن الأثير، الكامل ٣٠١/٤-٣٠٢.
(٣) المصدر السابق، ٣٢٩/٤.
(٤) المصدر السابق، ٣٢٩/٤.

لقتال أهل الشام[1]، الا أن التوابين لم يسمعوا منه فساقتهم العاطفة لمواجهة أهل الشام وحدهم، ولما اقتربوا من قرقيسياء عرض عليهم زفر ان يقاتل معهم الا أنهم رفضوا ذلك فكان أن قتل معظمهم في عين الورده سنة ٦٧هـ.

ومع أن التوابين كانوا يقاتلون على أنهم حزب من قبائل شتى، الا أن بعضهم لم يتخل عن عصبيته، فعندما اصطحب رجل من كندة العراق ابنه الى القتال وكان صغيرا، لم يرض تسليمه الا لرجل من كنده الشام[2]، وبكى أزدي على زميل له من فقال فيقول له أزدي آخر أتبكي على رجل من مضر قتل على ضلاله[3].

لقد عادت فلول التوابين الى الكوفه، الا أن هذا لم يزدهم الا عداوة وحقدا على أهل الشام والأمويين، فاستغل المختار بن أبي عبيد الثقفي ذلك وتزعم حركة الشيعة من جديد.

المختار بن أبي عبي الثقفي: أظهر المختار ميوله الشيعية منذ أن قدم مسلم بن عقيل الى الكوفه، غير أنه لم يستطع ان يفعل شيئا بعد مقتل مسلم، فاكتشف أمره فسجنه ابن زياد ولم يخرج الا بعد أن توسط له عبد الله بن عمر. وبعد خروجه من السجن اتجه الى ابن الزبير في الحجاز فبايع له على كتاب الله وسنة رسوله، وأقام عنده خمسة أشهر الا أنه لم يجد عنده ما يتمناه فتركه واتجه نحو العراق فوصلها وكانت الحركة التوابين على أشدها، فقام يخذل الناس عن سليمان بن صرد ليدخلهم في طاعته غير أنهم أبوا عليه. وبعد هزيمة التوابين وقتل سليمان برز المختار بأسلوب جديد، نظر نظرة عميقة فوجد حماسة فلول التوابين وأتباعهم واستقتالهم في سبيل الحسين، فدعا الناس الى الطلب بثارات آل البيت، وأخبر الناس أن محمد بن الحنفية بعثه أمينا ووزيرا وأمره بقتال الملحدين والطلب بدم أهل البيت والدفع عن الضعفاء[4]. وهنا أخذ أمره يزداد شأنا في الكوفة، فعزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد الخطمي وابراهيم بن محمد بن طلحه وعين بدلا منهما عبد الله بن مطيع، وقوبل الوالي الجديد بنقد لاذع من أهل الكوفة عندما قال: سأسير بكم بسيرة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان. فردوا عليه أنهم لا

(١) الطبري، تاريخ ٥٩٢/٥، ابن الاثير، الكامل ١٧٨/٤ (بيروت).
(٢) المصدر السابق، ٦٠٣/٥.
(٣) المصدر السابق، ٦٠٧/٥.
(٤) ابن الأثير، الكامل ١٧٤/٤، بيروت.

يرضون أن يسار بهم بغير سيرة علي ولا حاجة لهم في سيرة عثمان لأنه كان فيها إثره وهوى، ولا بسيرة عمر بن الخطاب في فيئهم[1]. وهكذا عادت الكوفة شيعية مرة أخرى.

وكان مخطط المختار يقوم على جمع جميع الفئات حوله، فاتجه الى العرب فأكرم اشرافهم[2] واستعمال القائد الحربي ابراهيم بن الاشتر النخعي[3]. ثم فرق رجالات الكوفة ولاة على أرمينيا وأذربيجان والمدائن والموصل ولم يكن في هؤلاء الولاة أي مولى باستثناء قدامه بن أبي عبس بن زمعه حليف ثقيف[4]. وتقرب الى الموالي بعد أن وعدهم بالمساواة بينهم وبين العرب، فأقبلوا عليه والتفوا حوله حتى كثروا على العرب الذين كانوا معه.

لعبت العصبية القبلية سببا في عدم القضاء على حركة المختار في مهدها عندما جاء ابن مطيع الى الكوفه، وأرسل إلى المختار بعث زائده بن قدامه الثقفي حتى يأتي اليه في قصر الأماره، وقد هم المختار بالذهاب الى ابن مطيع الا أن زائدة قرأ قوله تعالى: "واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين[5]" فتنبه المختار لذلك فاعتذر عن الذهاب الى الوالي.

وهنا أخذ يستعد لاخراج بن مطيع من الكوفه فتمكن من ذلك عندما كسب ابراهيم بن الأشتر، وحاول ابن مطيع ان يستنجد برؤساء القبائل لتفريق أتباعهم عن المختار الا أنه فشل في ذلك. فخرج منها تاركا الأمر للمختار الذي أخذ بيعة أشرافها على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلهم وسلم من سالمهم[6].

وحتى لا يثير المختار عليه العرب، أمر جنده بعدم تتبع ابن مطيع وعدم أخذ الغنائم وقال: علم الله الى ما ندعو وما نطلب[7].

(1) الطبري، تاريخ ١١/٦، ابن الاثير، الكامل ٢١٣/٤.
(2) البلاذري، انساب الاشراف ٢٢٨/٥-٢٢٩.
(3) الطبري، تاريخ ١١/٦.
(4) ابن الاثير، الكامل ٢٢٧/٤ (بيروت).
(5) سورة الأنفال الآية ٣٠.
(6) ابن الاثير، الكامل ٢٢٦/٤.
(7) الطبري، تاريخ ٢٢/٦.

والظاهر أن عدد الموالي في صفوف المختار أخذ يفوق العرب مما أدى الى تغير نفوسهم عليه، فالاشراف لم يروا من قبل أن يكونوا متساويين مع مواليهم وعبيدهم وتظهر كثرتهم من قول ابن مطيع لأهل الكوفه: أيها الناس إن من أعجب العجب عجزكم عن عصبة منكم قليل عددها خبيث دينها، ضالة مضلة، أخرجوا اليهم فامنعوا منهم فيئكم، والا والله ليشاركنكم في فيئكم من لاحق له فيه، والله لقد بلغني ان فيهم خمسمائة رجل من محرريكم، عليهم أمير منهم وإنما ذهاب عزكم وسلطانكم وتغير دينكم حين يكثرون[1].

وازداد حقد القبائل على المختار عندما أخذ يهون من شأن بيوتات أهل الكوفة التي وقفت الى جانب المختار[2]. فأدرك العرب أن المختار قد أخذ يرفع من مكانة الموالي ويقلل من شأنهم، كما أن العرب أنفسهم تنبهوا الى هذا الخطر، وجاء ذلك على لسان شبث بن ربعي التميمي حين قال: ترون الديلم نزلت بساحتكم وانتم تقولون لو قرأت سورة البقرة وآل عمران، وقال لجنده أيضا أمن عبيدكم تفرون!! وكان من شدة حقده عليهم يقتل الموالى ويترك العرب[3].

وهكذا نشأت عصبية جديدة في حركة المختار وهي العصبية العربية ضد الموالى فاجتمع رؤساء تميم وكنده وهمدان وطلبوا من عبد الرحمن بن مخنف الأزدي ان ينضم اليهم لمقاتلة المختار فوافق على ذلك بعد أن حذرهم من الفرقة والتخاذل عند مواجهة أتباع المختار الذين يقاتلون بشجاعة العرب وعدواة العجم[4].

ولما خرج ابراهيم بن الاشتر الى الموصل. استغل أهل الكوفه هذه المناسبة فثاروا على المختار، وكانت هذه الثورة عامة شارك فيها جميع قبائل الكوفة من مضر وربيعة واليمن وفي ثورتهم على المختار نلمح العصبية ضد الموالي فقد قالت القبائل . . . لقد أدنى موالينا وحملهم على رقابنا وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ولقد عصتنا عبيدنا[5].

ولما رأى المختار ذلك أرسل إلى إبراهيم ليعود إلى الكوفة في الحال، وظهرت

---

(١) المصدر السابق ٢٨/٦.
(٢) المصدر السابق ٣٠/٦.
(٣) المصدر السابق، ٢٥/٦.
(٤) الطبري، تاريخ ٢٥/٦.
(٥) مجهول، تاريخ الخلفاء ٢٣١.

العصبية بين صفوف أهل الكوفة، فاليمانية وقفت في مكانها رافضة أن تأتي لمضر كما اختلفت فيمن تكون له الرئاسة فلما رأى عبدالرحمن بن مخنف الأزدي ذلك قال: هذا أول الاختلاف فاتفقوا على رفاعه بن شداد البجلي حتى يصلي بالناس[1]. وهذا يدل على أن بعض الشيعة قد انقلبت على المختار.

ولما أحس المختار بخطر هذه الحركة أرسل إلى أشراف العراق يعدهم برد العبيد والموالي عليهم شرط أن يعطوه عهدا لقتال ابن الزبير والأمويين، غير أن أشراف الكوفة أصروا على قتاله[2]. وربما يكون ذلك عدم ثقة أهل الكوفة بوعود المختار.

ولما أصر أهل الكوفة على القتال أخذ المختار يفكر في القضاء على حركتهم، فما أن علم أن اليمن ومضر لا تقاتل مجتمعه، حتى وضع مخططه على ضوء ذلك فدعا قائده الأشتر وسيره إلى مضر، أما هو فقد سار إلى القبائل اليمانية أي أنه خالف في العصبيات وهنا تمكن من هزيمة أهل الكوفة[3].

وقد كان تنبه المختار للعصبية في محله، فهذا عبدالله اليشكري يقف عند مسجد عبد القيس ومعه مائة من قومه ويقول: والله إني لأحب أن يظهر المختار ووالله إني لكاره أن يهلك أشراف عشيرتي اليوم، ووالله لئن أموت أحب إلي من أن يحل بهم الهلاك على يدي. وأمر قومه أن يتوقفوا عن القتال لأنه علم أن شبام وهي حي من همدان ستهاجم اليمن من الخلف، وحتى شبام هذه فقد أدركتها العصبية، وقال بعضهم لبعض لو جعلتم حدكم على مضر وربيعة لكان أصوب، وطلبوا من رئيسهم أن يسير بهم إليهم[4].

والواقع أن أهل الكوفة لم يخرجوا للقتال إلا عصبية، وجاء ذلك على لسان بعض الرؤساء فشرحبيل بن ذي بقلان من همدان لم يخرج إلا مواسيا لقومه مخافة أن يضطهدوا[5]. وعبدالرحمن بن سعيد الهمداني يقول: يحاربني بقومي من لا قوم له. وزاد من تفكك الكوفة أن البعض كان ينادي "يالثارات عثمان" فلما سمع ذلك رفاعه

---

(١) الطبري، تاريخ ٤٦/٦-٤٧.

(٢) المصدر السابق، ٤٤/٦.

(٣) المصدر السابق، ٤٧/٦.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف ٢٣١/٥.

(٥) الطبري، تاريخ ٥٦/٦.

بن شداد البجلي أراد أن يترك القتال[1].

أما المختار فقد كان جيشه متحداً سواء ما كان بين الموالي والعرب أو العرب أنفسهم. وبعد انتصاره أعمل السيف في رقاب العرب فقد أسر من همدان وحدها خمسمائة رجل فقتل منهم كل من شهد مقتل الحسين[2]، وزاد من بطشه بهم عندما أخبره أحد الموالي أن عبدالله بن شريك النهدي لا يخلو بعربي إلا خلى سبيله، وهنا قام المختار وبحجة الاقتصاص من قتلة الحسين بقتل عدد من القبائل دون هواده[3]. عمر بن سعد وأمر بإحراقه بعد أن أمنه، كما قتل ابنه حفص بعلي بن الحسين وقال: والله لو قتلت ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله (الحسين)[4].

كما أخذ المختار بقتل كل من يخالفه ويقاومه حتى ولو كان من ثقيف[5]. وهكذا جاءت هزيمة الكوفة لتزيد من ثقة المختار بالموالي، وتزيد من حقده على القبائل العربية. فلما رأى ذلك وجوه الكوفة تسللوا نحو البصرة. أما المختار فبعد نجاحه في الكوفة حاول أن يمد سيطرته إلى البصرة، فاستمال المثنى بن مخرمة العبدي فأخذ هذا يدعوا إلى المختار، وكاد ظهوره في البصرة أن يثير فتنة بين ربيعة ومعها اليمن ومضر.

لقد أرسل القباع (الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة) الأحنف بن قيس على خيل مضر ورجالها حتى يحارب المثنى فتدخلت الأزد وقالت: لتردن خيلك على إخواننا أو لنقاتلنكم، فعاد الأحنف دون أن يفعل شيئاً[6].

وهنا لجأ القباع إلى حل الأمر بالوسائل السلمية فأرسل عبدالله بن مطيع وعبدالرحمن المخزومي فأتيا ربيعة والأزد وقالا لهما: الستم على بيعة ابن الزبير فقالوا: نعم، ولكن لا نسلم أخواننا فاتفقوا أخيراً على إخراج شيعة المختار من البصرة. فجاء مالك بن مسمع وزياد بن عمرو العتكي وقالا للمثنى وشيعته: إنا والله ما نحن على رأيكم ولكنا كرهنا أن تضاموا، فالحقوا بصاحبكم فإن من أجابكم إلى

(1) المصدر السابق، ٥٠/٦.
(2) البلاذري،أنساب الأشراف ٢٣٤/٥.
(3) الطبري، تاريخ ٥١/٦.
(4) البلاذري،أنساب الأشراف ٢٣٧/٥-٢٤١، الطبري، تاريخ ٦١/٦، ابن الأثير، الكامل ٢٣٤/٤.
(5) الطبري، تاريخ، ٦٦/٦.
(6) البلاذري،أنساب الأشراف ٢٤٤/٥.

رأيكم قليل[1]. ويرجع عدم التفاف ربيعة حول المثنى إلى حنقها على المختار الذي قتل اياس بن مضارب وابنه راشد في الكوفة[2].

وبعد أن فشل المختار في البصرة حاول أن يجرب حظه في الحجاز، فأرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة. وكانت خطته تقوم على الاستيلاء على المدينة أولاً ثم التوجه إلى مكة لمحاصرة ابن الزبير، إلا أن خطته هذه لم يكتب لها النجاح حيث هزمه ابن الزبير وعادت فلوله إلى الكوفة[3].

غير أن أعظم نصر حازه هو ما كان في يوم خازر عندما التقى ابراهيم بن الأشتر بجيش عبدالملك بن مروان تحت قيادة عبيدالله بن زياد، وفي هذا اليوم لعبت العصبية دوراً بارزاً في هزيمة جيش الشام وذلك عندما انحاز عمير بن الحباب السلمي إلى جانب المختار، ونادى يالثارات المرج، يالمضر، يالنزار، فتزاحمت نزار من مضر وربيعة على من كان معهم في جيش أهل الشام من القحطانيين مما أدى إلى هزيمة أهل الشام وقتل عبيد الله بن زياد[4].

زادة هذه الوقعة من شأن المختار في العراق، فأرسل عبدالله بن الزبير أخاه مصعباً إلى البصرة حتى يناجز المختار فسار إليها وكان عامل ابن الزبير في البصرة مشغولاً في قتال الخوارج، فاستدعى مصعب المهلب بن أبي صفرة وأرسله إلى المختار، وكادت العصبية أن تمزق جيش مصعب، ففي بداية القتال رفض محمد بن الأشعث السير إلى الكوفة حتى يقدم المهلب، وعند مواجهة المختار قال المهلب: ما كنت لأجزر الأزد وتميماً خشبة أهل الكوفة حتى أرى فرصتي، ولم يتحرك ابن المهلب حتى انكشفت عالية البصرة أمام الكوفة[5]. فتقدم المهلب وتمكن من هزيمة جيش المختار وقتله سنة ٦٧هـ.

لعبت العصبية العربية دوراً بارزاً في هزيمة المختار، ففي بداية حركته حاول أن يعتمد على جميع فئات الكوفة فقرب إليه اشراف العرب، إلا أن هؤلاء تغيروا عليه بعد أن قرّب إليه مواليهم وعبيدهم، وهذا شيء لم يعتاده أهل الكوفة فانقلبوا عليه.

(١) الطبري، تاريخ ٦/٦٨.
(٢) البلاذري،أنساب الأشراف ٥/٢٦٧.
(٣) ابن الأثير، الكامل ٤/٢٤٨.
(٤) المسعودي، مروج الذهب، ٣/١٠٢.
(٥) البلاذري،أنساب الأشراف ٥/٢٥٩.

لقد حاول المختار أن يتجنب إثارة العصبيات في بداية حركته خوفاً من أن تنفض القبائل من حوله، فلم يستطع أن يفعل شيئاً مع أسماء بن خارجه الفزاري وقد علم أنه يميل لبني أمية، لكنه بعد أن هرب إلى الشام أمر بهدم داره، وحدث ما توقعه من إثارة العصبيات، فقد امتنعت مضر عن هدمها فتولت ربيعة واليمن ذلك[1].

غير أن المختار وبعد ثورة أهل الكوفة وانتصاره عليهم لم يعد يحسب حساباً لخطر القبائل عليه. فقد نكل بهم أشد التنكيل وبعث إلى قبائل البصرة كتباً يهددهم فيها حتى وصل به الأمر أنه يود اتخاذ خدمه من تميم[2].

وظهرت العصبية ضد الموالي بين صفوف المختار نفسه فقد جاء عبدالله بن وهب الجشمي -وكان من المقربين إلى المختار- وقال له: أن الموالي والعبيد آل خور عند المصدوقة. وأن معهم رجالاً كثيراً على الخيل، وأنت تمشي فمرهم فلينزلوا معك، فإن لك بهم أسوة، فإني اتخوفوا إن طوردوا ساعة وطوعنوا وضوربوا أن يطيروا على متونها ويسلموك، وانك إن أرجلتهم لم يجدوا من الصبر بد «وكانت ههذ النصيحة غش منه للموالي والعبيد. فقد أراد أن تكون الدبرة عليهم لما لقي منهم أهل الكوفة[3].

واستغل المهلب العصبية ضد الموالي فقال يوم المذار: علام تقتلون أنفسكم مع هذه العبدان، أضل الله سعيكم. ثم نظر إلى أصحابه وقال: والله ما أرى استحرار القتل اليوم إلا في قومي[4]. لقد صممت جميع القبائل العربية وخاصة ربيعة على كسر شوكة المختار لاعتماده على الموالي دون العرب[5]. إضافة إلى غموض المبادئ التي قامت عليها حركته، لقد انكشف امام الناس وعرفوا أن لا يريد إلا: الوصول إلى الرياسة[6]. والواقع أن المختار نفسه قد عبر عن ذلك في آخر لحظاته وقال: إنما أنا رجل من العرب لما رأيت ابن الزبير غلب على الحجاز، ورأيت نجدة، بن عويمر غلب على اليمامة، ورأيت مروان على الشام لم أكن دون أحد من هؤلاء فأخذت هذه البلاد

---

(١) الاصفهاني،الأغاني ٦٧/١٣-٦٩ (بيروت).
(٢) البلاذري،أنساب الأشراف ٢٣٦/٥.
(٣) الطبري، تاريخ ٩٦/٦.
(٤) المصدر السابق، ٩٧/٦.
(٥) الدينوري، الأخبار الطوال ٢٩٢.
(٦) أبو هلال العسكري الأوائل ١٧٤أ مخطوط.

وكنت كأحد منهم[1].

ومما تقدم أرى أن العصبية ضد الموالي أحد الأسباب الهامة التي أدت إلى هزيمة المختار أمام جيش ابن الزبير.

وبمقتل المختار صارت المواجهة بين عبدالملك وعبدالله بن الزبير في مرحلتها الأخيرة، فمصعب في العراق وابن مروان في الشام لكن لكلا الرجلين متاعب في بلده، فمصعب يحارب الخوارج وجيشه يحوي العديد من الشيعة الذين أعمل القتل فيهم بعد هزيمة المختار. مما سبب في حقد أهل الكوفة عليه. أما عبدالملك فقد أضاع قسماً من جيشه في يوم خازر، وهو يواجه الروم الذين استفادوا من الوضع في الدولة الاسلامية فقوي شأنهم وأخذوا يقومون بهجمات على المسلمين. غير أن جند الشام أفضل في الطاعة والنظام من جند العراق، إضافة إلى اشتعال حركة العصبية في العراق واختلاف مصالح القبائل، وهذا مما أدى في النهاية إلى انتصار عبدالملك على مصعب بن الزبير، لقد تمكن مصعب من القضاء على حركة المختار، إلا أنه أصبح أسيراً للقبائل العراقية، فعند بداية القتال مع الخصوم اضطر محمد بن الأشعث ثم أن يستدعي المهلب من قتال الخوارج ويتجه إلى قتال المختار، وبعد انتصاره على المختار أراد مصعب أن يعفو عن الأسرى حتى يكسب بذلك عشائرهم إلا أن اليمانية عارضوا ذلك بشدة وخيروه بين وقوفهم إلى جانبهم أو العفو عن الأسرى، بل قال محمد بن عبدالرحمن بن قيس الهمداني: قتل أبي وخمسمائة من همدان وأشراف العشيرة ثم تخلى سبيلهما ودماؤنا ترقرق في أجوافهم[2]. فانصاع مصعب لمطلبهم وأمر بقتل الأسرى، وبذلك ارتكب انتحاراً سياسياً وعسكرياً في العراق، مكرراً الخطأ الذي ارتكبه المختار من قبل. لقد قتل مصعب ستة آلاف من أهل العراق فغضبت عشائرهم لهم وبدأت أنظارهم تتجه إلى خصمه الرابض بالشام. وقد تنبه لهذه الخطة عبيد الله بن الحر فاقترح أن يدفع الأسرى إلى عشائرهم فيمتن بهم عليهم، وأن يدفع العبيد إلى مواليهم غير أن مصعباً وبغضط من اليمانية أمر بقتلهم.

وزاد من حدة نقمة القبائل عليه عندما أمر بقتل عمره بنت النعمان بن بشير

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ٥/٢٦١، مجهول، تاريخ الخلفاء ٢٥٠.

(٢) مجهول، تاريخ الخلفاء ٢٥٣.

الأنصاري زوجة المختار لأنها رفضت أن تطعن في زوجها[1].

لقد نسي مصعب أن أي مساس بشعور القبائل سيغير من مواقفها، وخاصة لدى قبائل العراق. التي كانت سرعان ما تلتف وراء كل حركة تريد إظهار الاستقلال السياسي لموطنها.

إن القسوة التي واجهها شيعة المختار كانت تدفع بعضهم في التفكير للهرب إلى صفوف عبدالملك، فهذا ابراهيم بن الاشتر ينوي الذهاب إلى الشام، غير أنه تذكر ما فعله بعين الورده بأهل الشام فعدل عن ذلك وقال: أني لا أختار على أهل مصري وعشيرتي غيرهم[2].

ولما علم عبدالملك بحال العراق أخذ يفكر في إيقاع الخلاف بين مصعب وقواده فلم يجد غير الدهاء والمال والإمارة، فأرسل خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد إلى البصرة ومعه رسائل إلى وجوهها، فاستجار خالد بقبيلة باهله إلا أنها اعتذرت عن عدم حمايتها له، إلى ربيعة فاستجار بهم وساندته قبائل بكر بن وائل والأزد وبعض تميم، وقدم من الشام عبيد الله بن زياد بن ظبيان حتى يأخذ بثأر أخيه الذي قتله مصعب.

ولما رأى والي البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر ذلك خرج لقتال جماعة خالد الذين اجتمعوا بالجفرة، وأقبل مصعب من الكوفة وانشغل عبدالملك بعمرو بن الأشدق فلم يعد باستطاعته مساعدته فوهن أمر خالد فطلب الأمان لنفسه من والي البصرة[3].

وبدلاً من أن يتودد مصعب إلى أهل البصرة نجده يكيل الشتائم إليهم فقال لعبيد الله بن أبي بكره: إنما أنت ابن كلبه تعاورها الكلاب، فجاءت بأحمر وأسود وأصفر من كل كلب بما يشبهه. وقال للحكم بن المنذر بن الجارود: إنك علج من فارس. وقال لأبي حاضر الأسدي: وما أنت والأشراف، إنما أنت من أهل قطر دعي في بني أسد، وقال لزيد بن عمرو العتكي: يا بن الكرماني. إنما أنت علج من أهل كرمان قطعت إلى فارس فصرت ملاحاً مالك وللحرب. كما شتم عبدالله بن فضاله الزهراني وعبدالله

---

(1) الطبري، تاريخ ٦/١١٢-١١٣.

(2) ابن الأثير، الكامل ٤/٢٧٥.

(3) البلاذري،أنساب الأشراف جـ ٤، قسم ٢/١٥٧.

بن عثمان بن أبي العاص وعلي بن أصمع وعبدالعزيز بن بشر بن خياط[1].

ولم يكتف بذلك بل هدم دار مالك بن مسمع الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف لا يسألونه عما غضب[2]. ونتيجة هذه المعاملة لربيعة سيكون لها دور كبير في خذلان مصعب في دير الجاثليق.

وبعد أن قضى عبدالملك على الأشدق والقيسية، أخذ يكتب إلى وجهاء العراق يمنيهم بالوعود والأماني. وأتت الكتب إلى هؤلاء الرؤساء فسكتوا عنها أمام مصعب وانتظروا حتى يبلغوا مأربهم، إلا ابراهيم بن الأشتر ذهب إلى مصعب وأطلعه على الكتاب، وأفهمه أن غيره قد وصلهم مثل هذا من عبدالملك. ونصحه أن يأخذ هؤلاء القواد لاخفائهم كتب عبدالملك وأن يقتلهم ليكونوا عبرة لغيرهم غير أن مصعباً لم يقبل بهذه النصيحة وقال: أن قتلتهم لا تناصحني عشائرهم[3].

لقد كان مصعب في صعوبة من أمره، فالخوارج خرجوا عليه، فأرسل إليهم أحسن جنده مع المهلب بن أبي صفره، كما أنه لاحظ ما حدث في البصرة من تحول الرؤساء عنه واتجاههم نحو الشام فترك هؤلاء الرؤساء دون أن يتخذ بحقهم أي شيء.

لقد كانت معاملة مصعب لرؤساء البصرة، ثم تقديمه أهل الكوفة عليهم[4] سبباً في نجاح دعوة عبدالملك بين قبائل البصرة. لقد غضبت على مصعب جميع الفئات من عرب وموالي وشيعة وخوارج، وهنا أخذ عبدالملك يتقرب إلى القبائل أكثر فأرسل إلى جميع وجوه البصرة باستثناء الأزد[5]. ولما أمن جانبهم خرج لقتال مصعب بنفسه فالقرشي حسب رأيه - لا يصلح له إلا قرشياً مثله[6].

ولما سمع مصعب بخروج عبدالملك أخذ يحث القبائل بالخروج معه، غير أنه لم يجد حماساً إلا في القيسية وكأن هؤلاء قد أرادوا أن يثأروا لمرج راهط. ويظهر تخاذل أهل العراق من قول قيس بن الهيثم السلمي لأهل العراق. ويحكم لا تدخلوا أهل

(1) الطبري، تاريخ ٦/١٥٤-١٥٥.
(2) ابن قتيبة، المعارف ٤١٩، الإمامة والسياسة ٢/٢٣، العقد الفريد، ٩٦/١.
(3) الدينوري، الأخبار الطوال ٣٠٢، الذهبي، تاريخ الاسلام ١٠٨/٣.
(4) البلاذري، أنساب الأشراف ٢٨٦/٥.
(5) المصدر السابق، جـ ٤، قسم ١٥٧/٢.
(6) الطبري، تاريخ ١٥٧/٦.

الشام عليكم، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليصفين عليكم منازلكم، والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح أن أرسله في حاجة، ولقد رأيتنا في الصوائف وأحدنا على ألف بعير، وأن الرجل من وجوههم ليغزوا على فرسه وزاده خلفه[1].

وأمام استمالة عبدالملك لرؤساء القبائل صعب عليه أن يقتل مصعباً في دير الجاثليق فبذل جهده حتى يستسلم ويؤمنه. غير أن مصعباً أخذته الأنفة وأصر على القتال بالرغم من تمرد القبائل عليه، لقد رفضت تميم التقدم إلى ساحة القتال، كما رفضت معها همدان. أما قطين بن عبدالله الحارثي كره أن يقتل مذحج في غير شيء[2].

وجاءت الضربة القاصمة من قبيلة ربيعة التي لم يحسن مصعب التصرف معها بعد يوم الجفرة فانحازت إلى صفوف عبدالملك ثم تخلت مضر واليمن عنه فوقف وحيداً يصارع قدره المحتوم حتى لا تتحدث قريش بأنه فر من المعركة نتيجة غدر ربيعة به[3].

ومع أن دير الجاثليق كانت صراعاً بين سياسيتين مختلفتين إلا أن عوامل الثأر قد ظهرت فيها، فقيس بن الهيثم السلمي حرّض أهل العراق على القتال أهل الشام، وزائده بن قدامة الثقفي نادى "يالثارات المختار" وكان زائدة هذا من جيش الشام، وعبيد الله بن زياد بن ظبيان رفض ألف دينار قدمها له عبدالملك عندما جاء برأس مصعب وقال: لم أقتله على طاعتك وإنما قتلته بأخي الطائي بن زياد[4].

لقد هزم مصعب بعد أن فشل في تكوين جبهة عراقية موحدة. والسبب في ذلك أنه لم يحسن التصرف مع القبائل، أما عبدالملك فقد عرف نفسيات هذه القبائل فمناهم ووعدهم وكتب إليهم وكاتبوه إلى أن تحقق له النصر فدخل العراق وتوالت القبائل بالدخول عليه تعلن الطاعة غير أنه لم ينفذ وعداً واحداً مما قطعه على نفسه، بل طالب أهل العراق بملاحقة الفساق الذين أفسدوا العراق، فقالوا له قد أجارهم رؤساء عشائرهم فقال وهل يجير علي أحد، إلا أنه في النهاية أمنهم[5].

---

(١) المصدر السابق، ١٥٧/٦.

(٢) مجهول، تاريخ الخلفاء ٢٦١-٢٦٢.

(٣) الطبري، تاريخ ١٥٨/٦، المسعودي، مروج الذهب ١١٤/٣، الذهبي، تاريخ الاسلام ١١١/٣-١١٠.

(٤) الطبري، تاريخ ١٥٩/٦، ابن الأثير، الكامل ١٢/٤.

(٥) المصدر السابق، ١٦٤/٦.

عبدالملك والحجاز

بعد أن تمكن عبدالملك من السيطرة على العراق توجهت انظاره إلى الحجاز حيث عبدالله بن الزبير هناك. فوجه اليه جيشاً بقيادة رجل ظهر حزمه في حرب العراق وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد رأى منه حين حارب مصعب رجلاً يسير الرجال فيطيعونه ويخشونه، فوجهه إلى ابن الزبير وأمره أن يحاصره وأن يقطع عليه سبل تموينه وأن لا يضرب الكعبة حتى يستسلم ابن الزبير وحمله كتاب الأمان أن قبل بالطاعة.

جاء الحجاج إلى الحجاز فلم يعرض للمدينة وسلك طريق العراق وعسكر في الطائف وكان يبعث خيله فتقاتل ابن الزبير وتعود إلى الطائف[1]. وتمكن الحجاج من حصار ابن الزبير حصاراً شديداً وقطع عنه الامدادات فأصبح أهل الحجاز في ضنك شديد، غير أن ابن الزبير لم يستسلم ولاذ بالكعبة. وهنا كتب الحجاج إلى عبدالملك بالأذن له في ضرب ابن الزبير وهو متحصن بالكعبة، فأذن له بذلك فتقدم بجنده وحاصر مكة حصاراً شديداً وجعل لأهل حمص الباب المواجه للكعبة، ولجنود دمشق باب بني شيبة، ولجند الأردن باب الصفا، أما أهل فلسطين فكانوا على باب بني جمح، وأهل قنسرين على باب بني سهم[2]. وهكذا نرى أن عبدالملك لم يشرك أهل العراق بهذه الحملة والسبب في ذلك عدم ثقته بهم، فاعتمد على أهل الشام وحدهم.

لقد أصبح ابن الزبير في موضع حرج فالمواد التموينية أخذت تنقص، والأسعار ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً، ثم نظر حوله فلم يجد إلا قريشاً، فجمع وجوههم واستشارهم بالأمر، فأشاروا عليه أن يخرج إلى الحجاج، ويأخذ الأمان من عبدالملك، غير أن عبدالله لم يقبل بهذه النصيحة وأصر على القتال. وعند إصراره رأت قريش أن لا فائدة من القتال معه فخرجت بنو سهم، ثم تبعهم عشرة آلاف وطلبوا الأمان من الحجاج فأمنهم. ورغم ذلك أصر على موقفه فجاء إلى أمه يستشيرها بالأمر فأشارت عليه أن لا يمكن غلمان بني أمية من رقبته يتلعبون بها[3]. فخرج من عندها واستمر يقاتل حتى قتل.

وبمقتله انتهت السياسة الراشدية، وانتهى دور الحجاز إلى الأبد.

---

(١) المصدر السابق، ١٧٤/٦.

(٢) المصدر السابق، ١٩٠/٦ ابن الأثير، الكامل ١٢٤/٤.

(٣) اليعقوبي، تاريخ ١٢/٣ أبو هلال العسكري، الأوائل ١٢٠، ابن الأثير، الكامل ٢٣/٤.

أسباب فشل ابن الزبير:

كان ابن الزبير أحد فضلاء الناس عقلاً وحزماً وشجاعة إلا أنه لم يكتب له النجاح في صراعه مع عبدالملك. ويرجع السبب في ذلك هوالاختلاف في نظام الحكم، فابن الزبير راشدي يقوم حكمه على أساس العدل الذي يساوي بين الناس فهو لا يتلون بتلون الظروف والوقائع. أما عبدالملك فقد اسطتاع أن يوجه جيشاً منظماً، مع سياسته التي كان يداري ويرغب ويعد ويمني بها، وهذا هو السبب الذي أدى نجاحه. كان ابن الزبير راشدياً، متمسكاً بالشورى حيث كان لا يقطع أمراً دون المسور بن مخرم ومصعب بن عبدالرحمن وجبير بن شيبة وعبدالله بن صفوان بن أمية يشاورهم في الأمور ولا يستبد بشيء[1].

لم يخفق ابن الزبير بشخصه فقد كان رجل دولة قديراً عارفاً لكن الذي أخفق هو السياسة التي تمسك بها، سياسة أهل الحجاز وسياسة الحكم الراشدي، ولو كان الناس قادرين على فهم تلك السياسة وقبولها لانتصر ابن الزبير على خصومه. غير أن هذه السياسة قد رفضت من قبل فأهل العراق خذلوا علياً، وأهل الشام لم يقروا هذه السياسة إلا في بداية الدولة الإسلامية حين كانوا مرغمين، أما أهل الحجاز فقد قبلوها وتفهموها لكن الأمر خرج من أيديهم بعد أن امتدت الفتوحات. لقد اتهم ابن الزبير بأنه يحب جمع المال، وأنه بخيل فكان هذا من أسباب فشله والواقع أن ابن الزبير قد سار بالناس سيرة تقتضيها مصلحة الحصار، لكن الناس لا يدركون هذه السياسية على حقيقتها وكل ما يهمهم أن تملأ جيوبهم.

لقد أخذ عليه كيف يعزل واليه عن اليمن لأنه وصل قريشاً[2]. وأنه لم يعط اشراف العراق عندما وفدوا عليه مع مصعب سنة ٧١ هـ وقال له: جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال الله لا أفعل[3].

أن هذه الأمور ليست بخلاً من ابن الزبير بل كانت السياسة الراشدية تقتضي ذلك فلا يجوز له أن يتلاعب بأموال المسلمين حسبما يشاء. كان يحاسب نفسه ويحاسب الناس كل المحاسبة في شؤون بيت مال المسلمين فلا يوزع إلا بالاستحقاق وليست

(١) الذهبي، تاريخ الاسلام، ٣/١٧١.
(٢) يوسف العش، مذكرات ٨٦-٨٧.
(٣) الاصفهاني،الأغاني، ٦/٣٤٧، بيروت.

السياسة عنده هي التي تملي عليه التصرف في بيت المال خلافاً للأمويين[١].

لقد تذمر ابن الزبير من أهل العراق لأنهم كانوا يتلونون بتلون الحاكم، فقد كانوا مع علي وعليه، ونقموا على الأمويين ثم هم الآن يكاتبونهم، ووقفوا مع المختار ثم انقضوا عليه، ولذلك كان ابن الزبير محقاً عندما قال لهم: يا أهل الكوفة وددت والله أن لي بكم من أهل الشام صرف الدينار والدرهم بكل عشرة رجلاً[٢].

لقد كان موقف ابن الزبير حرجاً فالأعراب لاتريد القتال إلا بعد أن يعطيهم الأموال، وعندما قال لأحدهم: اذهب فقاتل فإن أغنيت أعطيناك. رد عليه الأعرابي أراك تجعل روحي نقداً ودراهمك نسيئة[٣].

ويقابل هذه السياسة المالية الراشدية السياسة القائمة على المنح والأغداق والتي تبناها عبدالملك وأينعت ثمارها مع القبائل. فعبد الملك أعطى أشراف العراق ومنّاهم فانقلب هؤلاء على ابن الزبير.

لقد أعطى عبدالملك حامل رأس مصعب ألف دينار بينما قال ابن الزبير لحامل رأس المختار وكان قد طلب مكافأة -احمل الرأس الذي أتيت به[٤].

وقد استغل الحجاج سياسة ابن الزبير المالية عند حصاره لابن الزبير، فقد كان الجراح بن الحصين الجعفي والياً على وادي القرى، وبها تمر كثير من تمر الصدقة فانهب الخراج الناس، وعندما قدم على ابن الزبير ضربه وقال له: أكلت تمري وعصيت أمري- . فجاء الحجاج بالحصين ليحدث أهل الشام عما فعله به ابن الزبير وبعد أن استمعوا إليه قال لهم: انظروا هذا هل يرجى لخير[٥].

وهذا ما دفع البلاذري إلى القول من أن ابن الزبير كان ممسكاً جداً وأنه أصابت الناس مجاعات شديدة حتى أكلوا لحوم البراذين، وأنه لم يعط الناس بالرغم من أن

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ٣/ ٢٢٠.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٣١٦.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٧/ ١٦٩.

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال ٢٩٩.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف ١١/ ٣٦ أ مخطوط.

بيوته كانت مملوءة بالقمح والشعير والذرة وأن أهل الشام قد طمعوا فيها[1]. وأشار إلى أنه وجد في بيت المال ابن الزبير عشرة آلاف درهم[2] فهل هذا المبلغ الزهيد لا يدل على أنه كان بخيلاً وحريصاً على جمع الأموال.

مما تقدم يمكن القول أن ابن الزبير لم يفشل لبخله وحبه للرئاسة، وإنما فشل لأنه اتبع سياسة لم تفهمها الرعية.

أما ابن خلدون فيرجع فشله إلى العصبية القبلية ويقول: وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه ما رآه الحسين وظن كما ظن، وغلطه في أمر الشوكة أعظم لأن بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا اسلام[3].

صحيح أن الرئاسة كانت في الجاهلية لعبد مناف، وفي بداية الدعوة الإسلامية كانت لبني أمية غير أن مكانة بني أمية لم تكن هي السبب في خذلانه وذلك أن معظم أمصار الدولة الاسلامية قد بايعت لابن الزبير، غير أنه لم يستطع أن يحافظ على هذه الأمصار لبعد الحجاز عن هذه الأمصار وخاصة مصر، ثم لعدم وجود جيش منظم بين يديه إضافة إلى ذلك أنه لم يكن لسياسة الحجاز قواعد راسخة في الحكم، إنما كانت وسائل الحكم سنة وتقليدا سار عليها الخلفاء الأولون فمشى عليها ابن الزبير. لقد انهزم الحجاز أمام الشام مما أدى إلى شطره شطرين، شطر اتجه نحو العلم والتقى والعبادة وترك الدنيا فكونت مدرسة في الفقه والحديث في المدينة خاصة وفي الحجاز عامة.

وشطر آخر انطلق إلى الدنيا واستفاد من الأموال التي كان يبذلها بنو أمية لاسكات الحجاز فتسربت إليها حياة اللهو والاستهتار. وهكذا تميز الحجاز في عصر المروانيين بأنه مركز لأمرين متناقضين: العلم واللهو[4].

لقد انتهى الصراع بين الحكم الراشدي والأموي الذي بدأ منذ قتل عثمان وانتصار التيار القبلي مرة ثانية.

لقد قسمت الفتن الأمة شيعاً وأحزاباً حتى في أمور العبادة، ففي الحج وقفت

---

(١) المصدر السابق.
(٢) البلاذري، انساب الأشراف ١١/١٤٠ مخطوط.
(٣) ابن خلدون، المقدمة ٢١٧-٢١٨.
(٤) يوسف العش، مذكرات ٨٧.

أربعة ألوية بعرفات: لمحمد بن الحنفية وابن الزبير والخوارج وبني أمية مما دفع المساور بن هند بن قيس قال:

تشعبوا شعباً فلكل قبيلة فيها أمير المؤمنين[1].

وفي العلاقات الخارجية تعرضت الدولة الاسلامية لخطر الهجمات البيزنطية والواقع أن معاوية قد نبه لهذا الخطر[2]، غير أن الفتن التي ظهرت بعد خلافة يزيد جعلت المسلمين يغضون الطرف عن الروم، فأغار هؤلاء على شمال سوريا ومرعش حتى أن عبدالملك اضطر لمصالحتهم ودفعه أموالاً كثيرة[3]، وانتفضت أرمينيا ولم تعد إلى حظيرة الدولة الاسلامية إلا بعد أن انتهت الفتن على يد محمد بن مروان[4].

ولم يكتف الروم بذلك بل أخذوا يتطلعون لإثارة الفتن في داخل الدولة الاسلامية فقد كانوا يحرضون الجراجمه المتمردين في لبنان على مهاجمة الشام، وأمدوهم بالمال والسلاح وحتى بالتدريب العسكري فدفع هذا عبدالملك أن يصالح الروم حتى يكفوا عن تقديم المساعدة لهؤلاء الجراجمة[5].

عبدالملك وخراسان:

خدمت العصبية القبلية عبد الملك بن مروان في السيطره على خراسان. لقد كان على خراسان عبد الله بن خازم القيسي والذي وصل الى حكمها بفضل قبيلة تميم، الا أن ابن خازم لم يكافأ تميما كما يجب فتحولت عنه، وزاد من العدواة أن ابن خازم قتل رجلاً منهم، فأخذت تميم ثأرها من ابنه محمد، ولم يشفع لهذا عصبية الخؤوله. وهنا استمر النزاع بينهما سنة كامله حيث تمكن ابن خازم من حصر ثمانين رجلا من تميم فقتلهم تحت ضغط ابنه موسى الذي أراد أن يثأر لأخيه. وزاد هذا من حقد تميم على ابن خازم ووصل هذا الحقد الى الاحنف في البصره حيث قال: قبح الله ابن خازم، قتل

---

(١) اليعقوبي، تاريخ ٣/١٠.

(٢) ابن خياط، تاريخ ١/٢٢٠.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان ١٩٢، اليعقوبي، ٣/١٦.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان ٢٠٧.

(٥) بلاييف، العرب والخلافة العربية ٢٢٧-٢٢٨.

رجالا من بني تميم بابنه صبي وغد أحمق لا يساوي علقا، ولو قتل منهم رجلا به لكان أوفى[1].

ولما رأى عبد الملك ذلك بعث الى ابن خازم يدعوه لبيعته ويطمعه خراسان سبع سنين الا أن ابن خازم قال لحامل الكتاب: انما بعثك ابو الذباب[2] لأنك من غني وقد علم اني لا أقتل رجلا من قيس ولكن كل كتابه[3].

ولما فشل عبد الملك في استمالة ابن خازم اتجه الى قبيلة تميم، والى بكير بن وشاح خليفة ابن خازم على مرو ووعده بولاية خراسان، فاستجاب لهذه الدعوة وخلع ابن الزبير ودعا الى عبد الملك فالتفت تميم حوله وتقدمت لقتال ابن خازم وهي تنادي بالثارات دويله. وكم كان ألم ابن خازم عندما رأى ان وكيعا بن عميره القرشي يقتله بدويله أخيه لأمه، فتنخم في وجهه وقال لعنك الله، تقتل كبش مضر بأخيك علج لا يساوي كفا من نوى أو تراب[4].

وبعد انتصار بكير، أخذت بطون تميم تتنافس على الرئاسة فخاف أهل خراسان من عودة الحرب فكتبوا إلى عبد الملك يخبرونه أن خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا لرجل من قريش لا يحسدونه ولا يبغضونه، فولى عليهم أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد الأموي[5].

وكان تعيين هذا القرشي سبباً في محاولة تجميع تميم لبطونها، فقد أسرع بكير بن وشاح وأخرج منافسة بجير بن ورقاء من السجن وأعطاه أربعين ألفاً وأخذ عليه عهدا ألا يقاتله[6].

ولما قدم أمية إلى خراسان حاول أن يستميل بكير إلى جانبه وأن يعينه على شرطته غير أنه رفض ذلك لاسيما وأنه كان والياً على خراسان. فاتجه أمية إلى خصمه بجير

---

(١) الطبري، تاريخ ٦/ ٨٠.
(٢) لقب لعبد الملك.
(٣) ابن الأثير، الكامل ٤/ ٢٠-٢١ (المنيريه).
(٤) البلاذري، فتوح البلدان ٤٠٥، ابن الأثير، الكامل ٤/ ١٢١.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان ٤٠٦، الطبري، تاريخ ٦/ ٢٠٠.
(٦) الطبري، تاريخ ٦/ ١٩٩.

فقبل هذا العرض فلامه قومه على ذلك لوماً شديداً[1] إلا أنه لم يستمع إلى لومهم هذا.

ولم تدم حالة الهدوء في خراسان طويلاً، حيث جاءت بداية الفتن من قبيلة تميم وذلك عندما قال "عقاب اللقوة" لبكير بن وشاح: إنا قتلنا أنفسنا وعشائرنا على ضبطنا خراسان، ثم طلبنا أميراً من قريش يجمع أمرنا فجاءنا أمير يلعب بنا يحولنا من سجن إلى سجن[2]. فاتفقت تميم على خلع أمية، واستغلت خروج أمية لغزو بخارى فخرج عليه بكير بن وشاح وأحرق السفن ورجع إلى مرو فأخذ ابن لأمية ودعا إلى خلع والده.

ولما رأى أمية ذلك أخذ يتودد إلى بطون تميم التي بقيت على ولائها له وقال لهم: الا تعجبون من بكير، إني قدمت خراسان فحذرته، ورفع عليه وشكى منه وذكروا أموالاً أصابها فأعرضت عن ذلك كله، ثم لم أفتشه عن شيء، ولا أحد من عماله ثم عرضت عليه شرطي فأبى فأعفيته ثم وليته فحذرته فأمرته بالمقام وما كان ذلك إلا نظرا له، ثم رددته إلى مرو ووليته الأمر فكفر ذلك كله وكافأني بما ترون[3]. فأخذ هؤلاء يلقون باللوم على عقاب اللقوة الذي حرض بكيراً على الخروج.

وها انقسمت تميم إلى قسمين: قسم يؤيد الوالي وقسم خارج عليه. ونشب القتال بينهم حيث سار شماس بن دثار لحرب بكير فلما رآه بكير قال له: أما كان في تميم أحد يحاربني غيرك ولامه على ذلك. وتمكن بكير من خدع شماس ومهاجمته على حين غفله إلا أن أواصر القرابة ظهرت عند بكير حيث أمر جماعته بعدم قتل أحد من تميم وأن يكتفوا بأخذ الأسلحة والأموال[4].

وبعد ذلك عقد صلح بين بكير وأمية مقابل أربعمائة ألف درهم وأن يتولى أي كورة في خراسان. فاستدرجه أمية حتى قبض عليه فأرسل إلى رأس أهل العالية وهو زياد بن عقبه حتى يقتل بكير إلا أنه رفض ذلك كما رفض رؤساء تميم ورئيس هذيل، وهنا تقدم عدوه بجير ونفذ فيه حكم الإعدام[5].

(1) المصدر السابق، ٦/٢٠١.
(2) المصدر السابق، ٦/٣١٢.
(3) المصدر السابق، ٦/٣١٣.
(4) المصدر السابق، ٦/٣١٤.
(5) المصدر السابق، ٦/٢١٧، ٣٢٣ وما بعدها.

ولما علم عبدالملك بذلك عزل أمية وجعل خراسان تابعة للحجاج، فأدرك الحجاج خطر القبائل المضرية هناك فأرسل والياً يمنياً حتى يضع حداً لقوة تميم التي أخذت تتزايد بخراسان. فعيّن المهلب وكان ذلك بداية لهجرة الأزد إلى خراسان التي ازدادت بعد أن تسلم بعض أبناء المهلب ولاية خراسان.

واستطاع المهلب أن يصلح بين بطون تميم، فهدأت الحالة هناك ولم تحدث فتن قبلية بالرغم من ظهور حركة ابن الأشعث وذلك لأن المهلب رفض الانضمام إليه.

لقد بقي الوضع في خراسان هادئاً حتى عزل المهلب سنة ٨٥ هـ ولم تكن هناك أسباب مؤدية لهذا العزل، إلا أن الحجاج خشي من تعاظم قوة المهلب، وبالتالي خروجه عليه كما خرج ابن الأشعث، وقد كان عبدالملك متردداً حول هذا العزل إلا أنه عاد ووافق على ذلك فبعث الحجاج رجلاً قيسياً وهو قتيبة بن مسلم الباهلي.

سياسة عبدالملك والعصبيات القبلية:

لقد استمال عبدالملك القبائل في صراعه مع ابن الزبير احسن استمالة وهذه الاستمالة كانت مبنية في إطارها العام على الوعود والأماني التي لم يتحقق منها شيئاً. كان عبدالملك لا يجد حرجاً من استمالة أشداء الأعداء تطرفاً فقد بعث إلى نجده بن عامر الخارجي يدعوه إلى طاعته ويوليه اليمامة ويهدر له ما أصاب من الأموال[1].

وبعد أن أحكم قبضته على الأمصار الإسلامية اتبع سياسة الموازنة بين القبائل فأخذ يقرب القيسية إليه حتى يكونوا منافسين لليمانية. ومع تقريبه لهم إلا أنه لم ينس مقاومتهم له وخاصة قيسية العراق. فعندما وفد عليه بعضهم حبسهم على بابه طويلاً ولما أدخلهم قال لهم: إنكم سعيتم مع الشيطان فكتتم حزبه فلما نكص نكصتم ولم يبق أحد ممن شب نار الفتنة، وسعى في الفرقة، وشتت الألفة إلا قد أحدب من جرمه ثوبه، وظهرت منه أنابه . . . فما ترضون؟ أن تكونوا أسوة من أبصر بعد العمى، وعرف بعد الجهل واستحق بالإنابة العفو.

فرد عليه قيس بن الهيثم السلمي وقال: إنا لسنا بالحلو المأكول، ولا بالمر الملفوظ،

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٣٥٤/٤.

ولا عفوك بمنكر ، ولا عقابك بحتم . . .[1] فلما سمع ذلك عبدالملك أسنى جوائزهم وردهم إلى العراق .

هذه الموازنة هي التي أدت إلى إخماد الفتن القبلية ، إلا أنها لم تخمد نار العصبية القبلية حتى في مجلس عبدالملك ، ولا غرابة في عدم إخفائها لأن عبدالملك نفسه كان يشجع المنافرات بين القبائل فهو يقول عن ربيعة : بأنهم أشد الناس وأسخاهم وأخطبهم طوعاً في قومهم ، وأعظمهم خطراً ، وأحكمهم وأحضرهم جواباً ، وأسرعهم انتصافاً[2] . ومدح عبدالملك لربيعة نابع من موقفها في دير الجاثليق عندما تركت مصعباً وانحازت إليه .

وضم مجلسه يوماً الزبرقان بن بدر ، وروح بن زنباع وأبو الزعيزعه مولى بني مروان فقال عبدالملك : يا عياش ما ترى هذا اليماني (روح) يفخر بملوك اليمن . فقال عياش : يا أمير المؤمنين نحن بنو اسماعيل بن ابراهيم فملك أخونا بني اسحق بن ابراهيم أعظم من ملكهم ، وملك سليمان بن داود مع النبوة . ونحن بنو اسماعيل ففينا النبوة والملك فملكنا وملك أخوتنا أعظم من ملكهم . والله يا أمير المؤمنين لو مت ولم أدع وارثاً لكان أبو الزعيزعه أولى بي من روح . فقام أبو الزعيزعه فقبل رأس عياش وألقى عليه مطرفه فأسكت روح[3] .

وزاد من حدة العصبية أن عهد عبدالملك كان عهد ازدهار الحركة الشعرية وكأن الحالة القبليه قد عادت إلى ما كانت عليه في العصر الجاهلي من حيث التغني بأمجاد القبيلة وبيان مفاخرها . وساعد على ازدهار هذه الحركة الخليفة وولاته .

لم يقتصر الشعراء على التغني بأمجاد قبائلهم القريبة ، بل وسعوا شعرهم مع اتساع حدود العصبيات القبلية فأصبحنا نسمع شاعر تميم ومضر وشاعر تغلب وربيعة وشاعر اليمن[4] ، ثم شاعر العراق ، وشاعر الحجاز وشاعر الشام . وقد نال العراق حظاً وافراً من هؤلاء الشعراء وخاصة في قبائل بكر وتميم[5] .

---

(١) البلاذري،أنساب الأشراف، ١١/١١٦أ – ب مخطوط.

(٢) أبو هلال العسكري، الأوائل ١٠٩أ – ب (مخطوط).

(٣) البلاذري،أنساب الأشراف ١١/١٣٣ب – ١٣٤أ (مخطوط).

(٤) المسعودي، مروج الذهب ٣/١٦٠.

(٥) احسان النص، العصبية القبلية ٣٦٨-٣٦٩.

لقد كان لعودة الشعراء للدفاع عن القبائل والاعتزاز بالأنساب وتسجيل جميع الأحداث القبلية يد في إثارة كثير من الفتن القبلية، وتأريثهم للأحقاد والضغائن بين القبائل. لقد نصب الشعراء أنفسهم مدافعين عن قبائلهم. وفي هذا المعنى يقول الفرزدق: أنا الضامن الراعي عليهم وإنما يدافع عن أحسابهم أنا ومثلي[1].

لقد اتخذ عبدالملك من الشاعر النصراني الأخطل شاعراً لبني أمية، وأدى احتضانه له إلى غضب شعراء مضر لأن عبدالملك لم يكن يسمح لهم بالدخول عليه، وهذا مما دفع بعضهم إلى القول: يا عجباً للأخطل نصراني كافر يهجو المسلمين[2].

وقد احتدمت المعركة الشعرية بين الأخطل التغلبي، وجرير المضري ودخل معهم في حلبة الصراع الفرزدق وسمي شعر هؤلاء بشعر النقائض.

ووجد إلى جانب شعراء القبائل، شعراءالأحزاب السياسية فابن قيس الرقيات كان زبيرياً يتعصب للعراق ضد أهل الشام[3]. والأعشى شاعر اليمن، وشاعر الكوفة[4]، والكميت يتعصب لمضر، ويتشيع لبني هاشم[5].

ونتيجة للدور الذي كان يقوم به الشاعر نرى أن اليمانية ترى في قتل الفرزدق غنيمة كبرى لأنه شاعر مضر ولسانها. وتميم ترشو الأخطل بألف درهم وبكسوة حتى لا يتعرض لهجاء الفرزدق وقومه[6].

وتدخل الشعراء في النواحي السياسية وخاصة في ولاية العهد والخلافة، فابن قيس الرقيات يعتبر قريشاً حامية لذمار المسلمين فإن ذهبت ذهبوا[7].

وعمران بن عاصم يشير على عبدالملك أن يولي ابنه الوليد الخلافة بدل أخيه عبدالعزيز، وجرير يشير إلى عبد العزيز بن الوليد بأن خليفة والده، وامتد هذا التدخل

---

(١) النقائض ١/١٢٨، العصبية القبلية ٣٧١.
(٢) الاصفهاني،الاغاني ٧/٣٦٢ (بيروت).
(٣) المنمق ٤٧٢، الأغاني ٥/١٤٥ (بيروت).
(٤) الاصفهاني،الأغاني ٥/٢٩٣ (بيروت).
(٥) المصدر السابق، ١/١٧ الهيئة المصرية.
(٦) المصدر السابق، ١٩/٤٧ (بيروت).
(٧) أن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحي بقاء

إلى عهد سليمان، حيث قال جرير إن الخلافة بعد سليمان لابنه أيوب[1]. وكما شجع الخليفة وولاته الشعراء، كان أشراف القبائل يتسابقون في كسب رضا هؤلاء الشعراء، فالحجاج منع شاعر ربيعة، العديل بن الفرج من الدخول عليه، فاتجه إلى يزيد بن المهلب فأمر له بخمسين ألف درهم ووعده بالحماية من الحجاج[2].

وهكذا نجد أن العصبيات القبلية وإن كانت شراً مستطيراً على الحكومة الأموية إلا أنها كانت خيراً عميماً على التاريخ الأدبي والاجتماعي وخاصة ما سمي بشعر النقائض[3]. لقد أدت هذه الأشعار إلى احتدام العصبية بين تميم وتغلب يقف فيها الفرزدق مع الأخطل لهجاء قيس عيلان وكليب بن يربوع وافتخر بتميم ودارم، وتغلب، ، وقف فيها جرير فهجا دارماً وتغلباً، والأخطل والفرزدق ويفخر ببني يربوع وقيس عيلان وتميم[4].

ومع ازدياد الحركة الشعرية هذه وإثارتها للعصبيات القبلية إلا أن قوة عبدالملك وبعد أن قضى على حركة ابن الزبير حالت دون اشتعالها. لقد كان عبدالملك يهدد كل من تحدثه نفسه بالخروج عليه وفي هذا الشأن قال: من قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا، الا فليبلغ الشاهد الغايب أنه ليست من لعبة إلا ونحن نحتملها ما لم تبلغ أن تكون صعود منبر أو بعث رايه، إلا وإن جامعة عمرو بن سعيد التي جعلناها في عنقه عندنا. وإني أعطي الله عهداً أن لا أجعلها في عنق أحد فأخرجها منه إلا صعدا. وعن المدائني أنه قال: إن الخلفاء قبلي كانوا يداونكم بأداويكم فيأكلون ويوكلون وإني والله لا أداويكم إلا بالسيف[5].

وقال أيضاً «لست بالخليفة المستضعف (عثمان) ولا بالخليفة المداهن (معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يزيد)»[6].

والواقع أن شدته وشدة ولاته لم تحل دون الفتن وخاصة في العرق. إلا أن سياسة

---

(١) الطبري، تاريخ ٤١٣/٦، ٦٠٥، العقد الفريد ١٦٢/٥، ١٥٦.
(٢) الاصفهاني،الأغاني ٢٩/٢٠ (بيروت).
(٣) أحمد الشايب، الشعر السياسي ٢٥٨.
(٤) أحمد الشايب، تاريخ النقائض ٢٠٠.
(٥) البلاذري،أنساب الأشراف ١٩٤/١١ مخطوط.
(٦) ابن خياط، تاريخ ٢٧٠/١.

الموازنة التي اتبعها قد حالت دون ظهور الفتن في الشام فمع تقريبه للقيسيه إلا أنه لم ينس القبائل اليمانية . فعندما مرض حسان بن مالك بن بحدل ومنظور بن زيد عادهما عبدالملك وقال :

فـمالي بدمشق ولا قراها	إن عرضت ولا مـقيل
ومالي بعد حسان سمير	ولا لي بعد منظور خليل[1]

أما بالنسبة لعلاقة عبدالملك مع قريش، فقد حاول عبدالملك أن يتقرب إليهم ويعمل على إرضائهم . ويظهر لنا ذلك من أن وفداً من قريش مكة قد رافق الحجاج في زيارته لدمشق فطلب عيسى بن طلحة من عبدالملك، أن يخلي المجلس حتى يتحدث إليه فقال له عبدالملك : ليس دون الحجاج سر . فقال عيسى : والله لئن لم تخلني لا قبلت صلتك ولأرجعن ساخطاً قد قطعت رحمي. فأخلى المجلس. فقال عيسى : يا أمير المؤمنين سلطت علينا هذا الغلام من ثقيف لا يعرف لقومك حقاً - فقال عبدالملك : إنكم ما تعرفون منه شيئاً إلا وأنا عارف به، وأنا عازله عنكم عزلاً جميلاً فلا يسمعن هذا منك أحد[2]. ولم يمض وقت طويل حتى عزل الحجاج وعين على العراق. ومع استجابته لمطالب قريش إلا أنه كان يحاول أن يضرب بعضها بعضاً كما كان يفعل معاوية من قبل[3] .

تجدد الصراع بين الشام والعراق :

بعد ان انتصر عبدالملك على مصعب ابن الزبير عين على حرب الخوارج المهلب بن أبي صفرة، وخالد بن أسيد على البصرة، وبشر بن مروان على الكوفة . إلا أن خالداً عزل المهلب عن حرب الخوارج وحاربهم بنفسه وقواده إلا أنه مني بهزيمة منكرة أمامهم فأستبدله عبد الملك بأخيه بشر، وأمر بشر أن يولي المهلب حرب الخوارج إلا أن حسد هذا دعاه لأرسال أحد قواده وأمره بعدم طاعته . فأدى ذلك إلى حرج المهلب أمام الخوارج، ففكر عبدالملك بوالي للعراق فلم يجد غير الحجاج الذي استاء منه أهل

---

(١) البلاذري،أنساب الاشراف ١١/٩٧ ب، مخطوط.

(٢) المصدر السابق، ١١/١٨٧ ، مخطوط.

(٣) مصعب الزبيري، نسب قريش ٤٧ .

الحجاز، فعينه على العراق فجاء الحجاج إلى الكوفة فدعاهم إلى حرب الخوارج وأمهلهم ثلاثة أيام ومن لم يخرج تعرض للموت. فعاد جيش العراق إلى حرب الخوارج بقيادة المهلب يشد الحجاج من أزره ويعاضده.

وقد تمكن المهلب من القضاء على الأزارقة إلا أن ظهور خوارج جدد تحت قيادة رجل من شيبان اسمه شبيب بن يزيد وعدم قدرة الحجاج في البداية عليه اضطره أن يستنجد بجيش من الشام تعداده أربعة آلاف رجل، بعد أن غرق قائدهم في نهر دجيل سنة ٧٧هـ.

ومع أن خطر الخوارج كان يهدد أهل العراق إلا أن شدة الحجاج وقسوته دفعت قبائل العراق للثورة عليه، وقد بدأت هذه الفتن في البصرة سنة ٧٥هـ.

وقبل التحدث عن هذه الفتنة لا بد من الإشارة إلى موقف الحجاج من العصبية القبلية، الواقع أن الحجاج قد تعصب لثقيف أولاً ولقيس ثانياً. أما عصبيته القبلية فقد كان يعتز دوماً بأنه من ثقيف، وهو لا يرضى أن يكون من أبناء آل العاص بل إلى الأشياخ من ثقيف[1].

ولم تسلم ولاية العراق استعمل ثلاثة من الثقفيين: هم عروة بن المغيرة بن شعبه (على البصرة) ومطرف بن المغيرة (على المدائن) وحمزه بن المغيرة (على همدان)[2]. ولم يكن في هؤلاء أية ميزة إلا أنهم من ثقيف.

وحبه لقبيلته وولائه لعبدالملك دفعه أن يطعن في نسب مطرف بن المغيرة عندما خرج على عبدالملك وانضم إلى صفوف الخوارج، وقال عنه: إنه ولد مصقله بن سبرة الشيباني، غير أنه ألحق بالمغيرة. وهذا الطعن حتى يثبت الحجاج أن ثقيفاً لا تلحق بالخوارج وإنما الذي يلحق بهم هم قبائل ربيعة[3].

وكانت عصبيته لثقيف تدعوه كي يتألم لضياع شعر أمية بن أبي الصلت شاعر قبيلته. أما عصبيته لقيس فقد رأينا كيف أن الجحاف بن حكيم السلمي قد وصفه بأنه سيد قيس، فأعطاه الحجاج مائة ألف درهم. وربما كانت عصبيته هذه هي السبب في

---

(١) البلاذري،أنساب الأشراف ١١/١٠٠، العقد الفريد ١١٣/٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل ١٢/٤ (بيروت).

(٣) المصدر السابق، ٦٣/٤.

عدم توجه الأخطل للعراق بالرغم من حث عبدالملك له على زيارته[١].

غير أن الحجاج لم يكن يظهر هذه العصبية، بل كان همه خدمة بني أمية ومن أجل ذلك، كان يستعمل جميع السبل التي توصله إلى غاياته. فعندما رأى أن الأزد وربيعة قد كثرت بالبصرة كتب إلى عبدالملك يطلب نقل قسم منهم إلى الموصل فوافق على ذلك[٢]. ولما رأى أن قوة تميم أخذت تتعاظم في خراسان أرسل إليهم المهلب بن أبي صفرة.

إن الثورة على الحجاج قد جاءت نتيجة المعاملة التي عامل بها رؤساء العراق فمنذ أن دخل الكوفة أخذ يتعرف على وجوه ورجالات العراق[٣]. وبعد ذلك قال لصاحب شرطته يزيد بن علاقة السكسكي أن يجعل سيفه سوطاً[٤].

ومع هذه الشدة حاول أن يتقرب إلى قبائل العراق وذلك عن طريق المصاهرة فقد أصهر إلى الأزد وفزاره وبجيله، كما زوج ابنه محمد من ميمونة بنت محمد بن الأشعث الكندي رغبة منه في كسب ولاء هذه القبائل وحتى يكونوا له عوناً على من يناوأه[٥].

لكن قسوته ومصاهرته للقبائل لم تكن لتخمد التيارات والمصالح القبلية. فالحجاج اعتمد على نفسه أولاً وعلى جيش الشام ثانياً، فأهمل بذلك رؤساء العراق، بل كان يتصرف معهم تصرف القائد مع الجندي، فلا فرق عنده بين رئيس ومرؤوس، لقد دخل عليه الهذيل بن عمران البرجمي - وكان من سادات العراق وأشراف البصرة يجرثوبه فقال له الحجاج: ارفع ثوبك فقال الهذيل: إن مثلي أيها الأمير لا يقال له هذا القول. فقال الحجاج بلى والله وتضرب عنقه. فخرج الهذيل وهو يقول قاتله الله ما أتيهه في نفسه[٦].

لقد كانت معاملته للرؤساء والسادة هي السبب في اجتماع مضر وربيعة واليمن

(١) الاصفهاني،الأغاني ٣٥٣/٧ (بيروت).
(٢) اليعقوبي، تاريخ ١٨/٣ .
(٣) البلاذري،أنساب الأشراف ١٠٦/١١أ.
(٤) البلاذري،أنساب الأشراف، ١٤١/١١ب.
(٥) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة ٢٩/٢، العقد الفريد ٩٨/٧.
(٦) البلاذري،أنساب الأشراف، ١٤٦/١١أ

تحت قيادة ابن الجارود لمناهضة الحجاج وإخراجه من العراق[1].

لقد بدأت فتنة البصرة عندما أراد الحجاج أن يلغي الزيادة التي فرضها ابن الزبير في العطاء، فوقف ابن الجارود وقال: إن هذه الزيادة هي زيادة عبدالملك، وليست زيادة ابن الزبير، ولما خرج من عنده ذهب ابن الجارود إلى وجوه البصرة وأخبرهم بما حدث فكلهم صوب رأيه[2].

ولما خرج الحجاج لقتال الخوارج جاء بعض وجوه البصرة فبايعوا ابن الجارود على إخراج الحجاج من العراق، والكتابة إلى عبدالملك كي يولي عليهم غيره، فإن رفض عبدالملك طلبهم خلعوه[3].

ولما أحسّ الحجاج بهذه الفتنة قام على الفور ففرق بين أهل الكوفة وأهل البصرة وجعل بينهم طرقاً وصير فيها حرساً. ولما رأت ربيعة ذلك خرجت على الحجاج فلحقتها القبائل الأخرى حتى أنه لم يبق مع الحجاج إلا خاصته وأهل بيته[4].

حاول الحجاج أن يستدعي رأس الحركة ابن الجارود غير أن هذا رد عليه: ولا نعمة عين لابن أبي رغال، ولكن ليخرج مذموماً مدحوراً وإلا قاتلناه[5]. ولما اجتمع الناس على ابن الجارود أقبل بهم زحفاً نحو الحجاج وكان رأيهم أن يخرجوه عنهم ولا يقاتلوه، فلما صاروا إليه انتهبوا ما في فسطاطه، وأخذوا ما قدروا على حمله من متاعه، وجاء أهل اليمن واحتملوا امرأته ابنة النعمان بن بشير الأنصاري، وجاءت مضر واحتملت امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبدالرحمن بن سهل بن عمرو. وبعد ذلك انصرف ابن الجارود عنه فصار قوم من أهل المصرين يأتون إلى الحجاج فقال الغضبان بن القبعثري الشيباني لابن الجارود: تعش بالجدي قبل أن يتغذى بك أما ترى من قد أتاه منكم، ولئن أصبح ليكثرن ناصره وليضعفن مثليهم فقال قد قرب المساء ولكنا نعاجله بالغداة[6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل ٣٦/٤.

(2) ابن حبيب، المحبر ٢٥٥.

(3) البلاذري، انساب الأشراف ١١/١٤٧أ – ب.

(4) المصدر السابق، ١١/١٤٧ب.

(5) المصدر السابق، ١١/١٤٨أ.

(6) المصدر السابق، ١١/١٤٩ب.

وكان مع الحجاج عثمان بن قطن الحارثي، وزياد بن عمرو العتكي الأزدي، وكان زياد هذا على شرطته في البصرة فقال لهما ما تريان. فقال زياد أرى أن آخذ لك من القوم أمانا وتخرج حتى تلحق بأمير المؤمنين، فقد أرفض جمهور الناس عنك، ولا أرى لك أن تقاتل بمن معك، ولا أحب لك أن تضع نفسك وتهلكها. أما عثمان فقد أشار عليه أن يقاتل أهل البصرة فأخذ الحجاج بقول عثمان ولم يأخذ بنصيحة زياد[1].

وبعد ذلك بعث الحجاج إلى وجوه البصرة فلم يسمع منه أحد.

ولحسن حظ الحجاج أن عباد بن الحصين الحبطي مر بابن الجارود والهذيل بن عمران وعبدالله بن حكيم وهم يتناجون فقال لهم أشركونا في نجواكم فقالوا هيهات أن يدخل في نجوانا أحد من بني الحبط فغضب عباد وانحاز في مائة من قومه إلى الحجاج[2].

ثم تحركت العصبية القيسية فأقبل قتيبة بن مسلم في أعصر، وقال والله لا أدع قيسياً على الحجاج يقتل وينهب ماله وأظاهر ابن الجارود عليه فأقبل في نحو من ثلاثين رجلاً على الحجاج وسلم عليه بالأمره. وهنا عادت الحياة إلى الحجاج واطمأن بوجودهم ثم أتاه قيسية آخرون هم سبرة بن علي الكلابي، وسعيد بن زرعة الكلابي. كما جاءه بعض الأزد يقودهم جعفر بن عبدالرحمن الأزدي[3].

وزاد من تمزق أهل البصرة لما أرسل مالك بن مسمع إلى الحجاج يخيره بين المجيء إليه أو تخذيل الناس عنه، فبعث إليه أن أقم وثبط الناس. فلما رأى الحجاج أنه قد اجتمع إليه عدد غير قليل خرج إليهم وعبأهم فلما رأى الناس ذلك أخذوا يقبلون على الحجاج حتى بلغوا أكثر من ١٦٠٠ رجل. فقال ابن الجارود لعبيد الله بن زياد بن ظبيان ما الرأي فقال له: تركت الرأي أمس عندما قال لك الغضبان تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك وقد ذهب الرأي، وبقي الصبر. فتقدم أهل البصرة لقتال الحجاج إلا أنهم منوا بهزيمة منكرة وقتل عبدالله بن الجارود وعندها أخذ رجالات الكوفة يبحثون عمن سيأخذ لهم الأمان من الحجاج[4].

---

(١) المصدر السابق، ١١/١٥٠أ-ب.

(٢) المصدر السابق، ١١/١٥٠ب.

(٣) المصدر السابق، ١١/١٥١أ-ب.

(٤) المصدر السابق، ١١/١٥١ب - ١٥٣ب.

وبعد انتصار الحجاج كتب إلى عبدالملك يقول: إني لما نزلت منزلي من رستقباذ وثب علي أهل العراق فخالفوني ونابذوني ودخلوا فسطاطي، وانتهبت أموالي وقالوا أخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا ففارقني البعيد وأسلمني القريب، ويئس مني الشقيق فشددت عليهم بسيفي، ولقيتهم بشيعتي وقلت الموت قبل البراح[1]. فبارك عبدالملك عمله وكتب إليه: إن رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم ترعب منك أقصاهم[2].

ومما تقدم نرى أن العصبية المضرية والقيسية هي التي أدت إلى تثبيت الحجاج في العراق، فقبل قدوم عباد بن الحصين الحبطي وهو من تميم، وقتيبة بن مسلم الباهلي وهو من قيس كان الحجاج يفكر باللحاق بعبد الملك[3]. إلا أن وجودهم شد من أزره وجعل الناس يتتابعون في القدم على الحجاج إلى أن أصبحت لديه قوة تمكن بها من القضاء على ابن الجارود. وقد زادت هذه الوقعة من غضب أهل العراق على الحجاج، وأجج من نار هذا الحقد عندما استبقى جيش الشام في العراق وسير، العراقيين للجهاد فصار أهل العراق يتحينون الفرص لإظهار عداوتهم التخلص من حكم الشام، والحجاج. وجاءت تلك الفرصة فأقبل عليها أهل العراق إقبالاً منقطع النظير وذلك أنه كان في جهات سجستان ملك تركي يقال له أرتبيل، تمكن هذا من هزيمة الجيش الذي بعثه الحجاج تحت قيادة عبيد الله بن أبي بكرة وكاد أن يقضي عليه قضاء مبرماً. فأراد الحجاج أن ينتقم من أرتبيل فجمع جيشاً كبيراً ونظمه أحسن تنظيم وأمّر عليه عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي. فسار ابن الأشعث إلى ارتبيل. وكان حذراً في تقدمه خوف أن يغدر به ارتبيل فإذا دخل منطقة ترك فيها قسماً من جيشه ثم ينتقل إلى أخرى. غير أن هذه الخطة لم تعجب الحجاج فأرسل إليه يؤنبه على ذلك ويحثه على السير بسرعة أو يترك القيادة لأخيه. وهنا وجد عبدالرحمن مجالاً لطموحه. فهو يعرف أهل العراق ويعرف كرههم للحجاج وأهل الشام. فأشاع أن الحجاج يريد أن يسيرهم إلى حرب فإن قتلوا فقد تخلص منهم، وان انتصروا فيها نسب النصر لنفسه، ثم جمع أهل العراق وقال: إن أردتم السير سرنا وإن أردتم العودة عدنا، فما أن سمع أهل العراق بذلك حتى تنادى الجند بخلع الحجاج ولم يتعرضوا لعبد الملك[4].

---

(١) المصدر السابق، ١١/١٥٥ب.
(٢) المصدر السابق، ١١/١٥٦أ.
(٣) المصدر السابق، ١١/١٥١أ.
(٤) ابن الأثير، الكامل ٤/٧٨.

ويذكر المسعودي أن عبدالرحمن تسمى باسم ناصر الدين وذكر أنه القحطاني المنتظر وأنه سيعيد الملك لليمانية[1]. فلا عجب إذا أن يكون أكثر الناس حماساً لحركته هم يمن الكوفة لأن ابن الأشعث منهم.

لقد تغنت اليمانية بثورة ابن الأشعث، وجاء ذلك على لسان الشاعر اليماني الأعشى، واستخدم ابن الأشعث رجلاً من همدان هو ذر ابو عمر بن ذر حتى يقوم بالطعن على الحجاج وأن ينال منه[2].

ولما بلغ ابن الأشعث فارس وبايعه سكانها خلع عبدالملك، ولما علم الحجاج وبذلك أدرك أن لهذه الحركة أبعاداً خطيرة على البيت الأموي لكثرة من كان مع الأشعث، فلم يجد غير الشام ليبعث إليهم حتى يمدوه بالنجدات. وقبل أن يصل ابن الأشعث البصرة استدعى الحجاج المهلب بن أبي صفره واستشاره بالأمر، فنصحه أن يتريث في قتال أهل العراق لأن لهم شدة في أول خروجهم لكنهم عندما يرون أبناءهم ونساءهم سينفضون عن ابن الأشعث، غير أن الحجاج لم يثق بنصيحته واعتبرها عصبية لقومه وخدعة له وقال: ما إلي نظر وإنما نظر لابن عمه (يعني عبدالرحمن)[3].

تقدم الحجاج للقاء ابن الأشعث خارج البصرة فهزم الحجاج يوم النحر سنة ٨١ هـ في تستر، مما اضطره أن يعود إلى الزاوية. أما ابن الأشعث فقد اتجه إلى البصرة وهناك التف حوله القراء والكهول والموالي وهؤلاء نقموا على الحجاج لأنه كان يكرههم على العودة إلى قراهم[4]. كما انضم إليه بعض القرشيين وكانوا أكثر من خمسة عشر رجلاً[5].

وفي البصرة استشار ابن الأشعث عباد بن الحصين في قتال الحجاج فنصحه بأن يخندق على المربد وما يليه ثم يدع الحجاج حتى يخرج من معسكره بالزاوية فيأتوه وهم متعبون أما هو فيخرج بجيشه وهو بحالة نشاط كبير. غير أن هذه الفكرة اصطدمت بحاجز العصبية القبلية، حيث جاءت ربيعة والأزد وقالوا أتخندق على تميم وتترك

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف ٣١٤.

(٢) ابن خياط، تاريخ ٢٧٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ٤/٧٩.

(٤) ابن قتيبة، المعارف ٤٤٧، أبو هلال العسكري، الأوائل ١٧٨–١٧٩أ–ب.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف ١١/١١٨٠.

دورنا فاضطر عبدالرحمن أن يخندق حول المدينة جميعها فخرج الخندق هزيلاً[1].

وتقدم الحجاج بمن معه من أهل الشام إلى ابن الأشعث في البصرة. وقبل بداية القتال وقف يحثهم على قتال أهل العراق وقال: أنتم البطانة والعشيرة والله لريحكم أطيب من ريح المسك. وفي بداية القتال هزمت عامة قريش وثقيف ودخل العراقيون معسكره حتى بلغوا بيت ماله[2]. إلا أن ثبات الحجاج أعاد الأمل لأهل الشام فعادوا يقاتلون حتى تم الانتصار للحجاج. ولما رأى ابن الأشعث ذلك ترك البصرة وتوجه إلى الكوفة مدفوعاً بعاملين:

الأول: أن الكوفة معظمها من القبائل اليمانية، ثم هي موطن رأسه، فأراد التوجه إليها حتى يجمع بقية اليمانية حوله ومن هنا يستعد لمعركة جديدة مع أهل الشام.

الثاني: لما سمع ابن الأشعث أن مطر بن ناجيه التميمي قد وثب على الكوفة، غاظه ذلك وقال: غاظني أن أكون فتحت باباً دخل مطرفيه، وإنه إنما قدر على الوثوب بي فيكون له صوت معي، فأريد أن ألحقه فأحول بينه وبين إرادته[3].

وبهذه الخطوة غير الموفقة تصدعت الجبهة العراقية، وصار الحجاج ينادي على من بقي من أهل البصرة قائلاً: علام تقاتلون وقد ترك صاحبكم القتال فترك الناس القتال وطلبوا الأمان لأنفسهم[4].

أما ابن الأشعث فما وصل الكوفة إلا وكان أمر مطر بن ناجية قد استحكم، وخاصة بعد أن أخبر أهل الكوفة أن مصير ابن الأشعث لم يعد معروفاً بعد يوم الزاوية. فأقبل أهلها يبايعونه لكن ما أن ظهر ابن الأشعث على مشارف الكوفة حتى أقبل الناس عليه وتركوا مطراً. وكان أشد القبائل حماساً في استقبال وبيعة ابن الأشعث هي قبيلة همدان نظراً لأنهم أخواله. ولما رأت تميم ذلك حاولت أن تقاتل عن مطر، إلا أنها وجدت أن لا طاقة لها بقتال اليمانية، فأمسكوا عن القتال مما مكن ابن الأشعث من أن يأخذ مطراً ويسجنه.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ١١/١٨١أ-ب.

(٢) الطبري، تاريخ ٦/٣٤٢.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف ١١/١٨٣.

(٤) المصدر السابق، ١١/١٨٣أ.

ويستدل على أن ثورة ابن الأشعث هي ثورة يمانية من قول الأقيشر الأسدي الذي تعجب من ثورة مطر وطلبه للرئاسة لأن تميماً - بعرفه - ليست من أصحاب المنابر إنما المنابر لأهل اليمن[1].

وفي الكوفة استطاع ابن الأشعث أن يجمع جيشاً قوامه مائة ألف ممن كان يأخذ العطاء ومثلهم من الموالي وسار إلى دير الجماجم حتى يلتقي بالحجاج هناك.

وأمام تعاظم قوة ابن الأشعث، تدارس عبدالملك الأمر مع رؤوس قريش وأهل الشام فاتفقوا إن كانت الثورة ضد الحجاج فليعزل لأن عزله أيسر من حرب أهل العراق. فأرسل عبدالملك ابنه عبدالله وبعث إلى أخيه محمد بن مروان أن يوافي ابنه في العراق. ويعرضروا على ابن الأشعث عزل الحجاج ومساواتهم مع أهل الشام بالأعطيات وأن يمنح الأمان، والولاية له ما دام عبدالملك والياً. فإن قبل أهل العراق ذلك عزل الحجاج وإن رفضوا فليكونوا تحت إمرة الحجاج.

وقد كانت هذه العروض صدمة للحجاج، فبعث إلى عبدالملك يقول: والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك. ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان فلما سألهم ما يريدون. قالوا: نزع سعيد بن العاص فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه، إن الحديد بالحديد يفلح خار الله لك فيما ارتأيت[2].

وكاد ابن الأشعث أن يقبل بهذه الشروط إلا أن أهل العراق رفضوا ذلك اعتقاداً منهم أن المؤن ستنقطع عن أهل الشام فيغلبوهم، وقالوا بأنهم ذوي العدد الكثير والسعر الرفيع، والمادة القريبة لا والله لا نقبل[3]. وزاد من إصرارهم أن أهل الشام أصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة فعادوا وخلعوا عبدالملك مرة ثانية[4].

ولما خلعوا عبدالملك ورفضوا عروضه أصبح لا بد من القتال فخاضوا إحدى وثمانين وقعة كان الفوز فيها لابن الأشعث إلا في آخر وقعة كانت عليه فانهزم إلى

---

(1) البلاذري، أنساب الأشراف ١١/١٨٧ب - ١٨٨أ.

(2) الطبري، تاريخ ٦/٣١٨.

(3) السعر الرفيع: السهل.

(4) الطبري، تاريخ ٦/٣٩٤.

مسكن فلحقته قوات الحجاج إلا أنه تمكن من الهرب إلى ارتبيل حتى جاءت نهايته سنة ٨٣هـ.

وترجع أسباب هزيمة ابن الأشعث إلى ما يلي:

عصبية تميم ضد اليمانية:

كانت تميم في ميسرة ابن الأشعث وعليها الأبرد بن قرة التميمي، وكان هذا شجاعاً مقداماً لا يعرف الهزيمة[١]، إلا أنه في آخر لقاء مع الحجاج تداعت قوته وانهزم، فلما انهزم تقوضت صفوف ابن الأشعث وركب الناس بعضهم بعضاً، وإن صح أن الأبرد لم ينهزم بل تظاهر بالهزيمة فإن ذلك كان ثأراً لقبيلته ولمطر بن ناجية الذي سجنه ابن الأشعث، واستهزاء اليمانية بتميم حيث أن المنابر لا تصلح لهم. وزاد من غضب المضرية أن ابن الأشعث كان يعتز بحسبه ونسبه، فعودته وخروجه على الحجاج تظهر أسبابها من قوله في دير الجماجم: إلا أن بني مروان يعيرون بالزرقاء، والله ما لهم نسب أصح منه إلا أن بني أبي العاص أعلاج من أهل صفورية، فإن يكن هذا الأمر في قريش فعني فقئت بيضة قريش، وإن يك في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس - ومد بها صوته حتى يسمعه الناس[٢].

ثم وجود الجيش المنظم المدرب عند أهل الشام والفوضى عند أهل العراق وطبيعتهم حيث يصابون بحماس شديد عند بداية القتال ثم يستكينوا بعد ذلك. وقد وصفهم الحجاج أحسن وصف عندما قال: يا أهل العراق هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استفزكم عاص، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع الا اتبعتموه وآويتموه ونصرتموه فكذبتموه. يا أهل العراق كلما شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر كاذب إلا كنتم اتباعه وأنصاره[٣].

ومعركة دير الجماجم تصور الصراع بين الشام والعراق أكثر منه صراعاً بين القبائل فالحجاج يقول: «اللهم سلط عليهم (العراق) سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك»[٤].

(١) الذهبي، تاريخ الاسلام ٣/٢١٩.
(٢) الطبري، تاريخ ٦/٣٤٩.
(٣) النويري، نهاية الأرب ٧/٢١٦.
(٤) الطبري، تاريخ ٦/٣٣٩.

وبسطام بن مصقله بن هبيرة الشيباني قدم من الري وتوجه إلى قتيبة بن مسلم حتى يستميله إلى جانب الحجاج وأهل الشام فرفض ذلك وقال لئن أموت مع أهل العراق أحب إلي من أن أعيش مع أهل الشام[1].

ومع هذا الصراع برزت بين القبائل. فهذا الحجاج بن جارية الخثعمي يقتل رجلاً من خثعم العراق وعندما يعرفه يقول: أما أني لم أعرفه حتى وقع ولو عرفته ما بارزته، ما أحب أن يصاب من قومه مثله.

وعبدالله بن رزام الحارثي يخرج إليه رجل من قومه فيقول له: لا أحب أن أقتل من قومي مثلك ولكن انهزم لك فترجع إلى الحجاج وقد أحسنت عنده وحمدك، وأما أنا فإني أحتمل مقالة الناس، وكان هذا شجاعاً لا ينهزم[2].

وبانتهاء ثورة ابن الأشعث زال أمل العراق في استعادة الخلافة وظهر له أيضاً بأنه غير قادر على جند أهل الشام وليس أمامه إلا الخضوع، لاسيما وأن هناك قوة شامية رابضة في مدينة واسط، حيث أدرك الأمويون أنه ليس باستطاعتهم كبح جماح العراق إلا بوجود قوة شامية كبيرة إلى جانب وال يتمتع بالصلاحيات الكافية. وجعلت مدينة واسط بسبب موقعها المتوسط وخصوبة أرضها مركزاً لهذه القوة.

على أن الصراع الطويل بين الشام والعراق لم يذهب دون أن يترك أثره، فأهل العراق أصبحوا أعداء الشام وهذه العداوة كانت تتفاوت قوة خلال الزمن لكنها كانت عميقة في النفوس.

لقد حذر الحجاج العراقيين عندما قال لهم: يا أهل العراق والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم أولاً بعثن إلى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على اللأواء والغيظ منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم[3]. لقد أصبحت القوة الشامية اليوم تقاتل أهل العراق وتأكل فيئهم. ومع أن هذه القوة أعادت العراق إلى حظيرة الدولة إلا أنها آثارها السلبية لم تظهر إلا في أواخر الدولة الأموية، وستكون أحد الأسباب التي دفعت أهل العراق للثورة على أهل الشام.

---

(١) المصدر السابق، ٦/٣٥٩.

(٢) المصدر السابق، ٦/٣٦١.

(٣) المصدر السابق، ، ٦/٢٥٨ وانظر ٢٥٩، ٢٦٦.

وإذا جاءت دير الجماجم بالعصبية الاقليمية، فإن العصبية القبلية قد ظهرت بين المضرية واليمانية، وهذه العصبية أثرت على مستقبل العلاقات بين القبائل والموالي وخاصة آل المهلب. لقد بعث يزيد بن المهلب العصبية القبلية في قضية الأسرى الذين وقعوا تحت قبضة المهلب في خراسان.

فقد رفض المهلب في بداية حركة ابن الأشعث أن ينضم إلى صفوفه، ولما قبض ابنه يزيد على الأسرى أراد إرسالهم جميعاً إلى الحجاج. غير أن أخاه حبيب بن المهلب ذكره بالأسرى اليمانيين وقال له: بأي وجه تنظر إلى اليمانية وقد بعثت عبدالرحمن بن طلحه. فقال يزيد إنه الحجاج ولا يتعرض له. فقال حبيب وطن نفسك على العزل ولا ترسل به[1]. وهنا صمم يزيد على إرسال الأسرى المضرية واطلاق سراح اليمانية[2]. وبينما كان الحجاج يقتل الأسرى المضرية قال له الهلقام بن نعيم: لعنك الله يا حجاج إن فاتك هذا المزني وفي قول آخر: جزى الله ابن المهلب بما صنع. فقال الحجاج ما صنع فقال:

لأنه كاس في اطلاق أسرته وقاد نحوك في أغلالها مضر

وقى بقومك ورد الموت أسرته وكأن قومك أدنى عنده خطر[3]

فأطرق الحجاج ووقرت في قلبه غير أنه لم يظهر ذلك وقال للهلقام: وما أنت وذاك فقتله. فلم تزل الكلمة في نفس الحجاج حتى عزل يزيد عن خراسان، وولاها قتيبة بن مسلم[4].

لقد صب الحجاج جام غضبه على رجالات مضر والموالي الذين انضموا إلى حركة ابن الأشعث. فعندما أحضر محمد بن سعد بن أبي وقاص قال له: يا ظل الشيطان أعظم الناس تيها وكبرا تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبه بالحسين وبابن عمر ثم صرت مؤذناً لابن كنارا عبد من بني نصر (يعني عمر بن أبي الصلت). وقال لعمر بن موسى الزهري: يا عبد المرأة يقوم بالعمود على رأسك ابن الحائك وتشرب معه في الحمام[5].

(١) ابن الأثير، الكامل ٤/٨٩.
(٢) ابن خياط، تاريخ ٢٨٤.
(٣) ابن خياط، تاريخ ٢٨٤، الطبري، تاريخ ٦/٣٩٥، ابن الأثير، الكامل ٤/٩٠.
(٤) الطبري، تاريخ ٦/٣٩٥.
(٥) ابن الأثير، الكامل ٤/٨٩.

وقال للهلقام التميمي: اجعل ابن الأشعث طلب ما طلب، ما الذي أملت أنت معه؟ فقال له: أملت أن يملك فيوليني كما ولاك. فأمر الحجاج بضرب عنقه[1].

وبالنسبة للموالي أحضر له سعيد بن جبير فقال له: قدمت الكوفة وما يؤم بها إلا عربي فجعلتك إماماً، ووليتك القضاء فضج الناس وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي فاستقضيت أبا برده بن أبي موسى وأمرته ألا يقطع أمراً دونك وجعلتك في سماري وكلهم من رؤوس العرب وأعطيتك مائة ألف درهم تفرقها في أهل الحاجة[2].

أما فيروز بن الحصين فقال له: ما أخرجك علينا مع هؤلاء فوالله ما لحمك من لحمهم ولا دمك من دمهم[3].

ونقمة الحجاج على هؤلاء المضرية والموالي لأنهم شاركوا ابن الأشعث في ثورته.

وفي هذا العهد امتدت العصبية إلى الخوارج فشبيب بن يزيد الشيباني أبى أن يقاتل محمد بن موسى بن طلحة لا لشيء إلا لأنه جاره. وعندما أصرّ محمد على قتاله نزل إليه شبيب فقتله فكفنه وأخذ ما غنم من معسكره بعث به إلى أهله وأتى أصحابه وأعتذر لهم وقال: هو جاري بالكوفة، ولي أن أهب ما غنمت لأهل الردة[4]. ولما رأى شبيب رايات ربيعة مع ابن الأشعث ابتهج وقال: رايات طالما نصرت الحق وطالما نصرت الباطل. واعتز أيضاً بشجاعة قبيصة بن وائق التغلبي[5].

وامتدت العصبية إلى داخل حرب الخوارج فقد أغار شبيب على بني تيم بن شيبان فقتل عدداً منهم، فقام خارجي يدعى "مقاتل" فأغار على بني مره بن همام رهط شبيب فأصاب منهم رجالاً. فقال له شبيب: ما حملك على قتلهم بغير أمري فأجابه أصلحك الله: قتلت كفار قومي وقتلت كفار قومك[6].

وازداد عصبية الخوارج شدة على قريش في عهد عبدالملك، فلما خرج مطرف بن

---

(١) الطبري، تاريخ ٦/ ٣٨٠.

(٢) ابن قتيبة، المعارف ٤٤٦، الأوائل ١٧٨-١٧٩.

(٣) مجهول، تاريخ الخلفاء ٢٩٣.

(٤) الطبري، تاريخ ٦/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٥) المصدر السابق، ٦/ ٢٦٤.

(٦) المصدر السابق، ٦/ ٢٨١.

المغيرة يدعو للرضا من قريش وأن يكون الأمر شورى، حاول أن يقنع الخوارج بهذه الأفكار حتى تتبعهم العرب فقالوا له: إن أهل الحق لا ينقصهم عند الله أن يقلوا، ولا يزيد الظالمين خيراً أن يكثروا، وإن تركنا الحق الذي خرجنا له ودخولنا فيما دعوتنا إليه من الشورى خطيئة وعجز ورخصة إلى نصر الظالمين ووهن، لأنا لا نرى أن قريشاً أحق بهذا الأمر من غيرها من العرب[1].

وعندما وقعت امرأة مقاتل بن مسمع – ابنة المنذر بن الجارود – في أسر الخوارج، أقامها الخوارج تحت المزاد العلني فتقدم رجل من ربيعة وكان من رؤوس الخوارج فقتلها وقال: ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم وهرب من الخوارج ولحق البصرة. فلما رآه آل المنذر قالوا: والله ما ندري أنحمدك أم نذمك. فكان يقول ما فعلته إلا غيرة وحمية[2].

وبعد أن هدأت الحال في العراق التفت الحجاج إلى إعادة الفتوحات، فكان له في ذلك أثر كبير، فقد أحسن اختيار القادة الذين تولوا هذه الفتوحات وهم محمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي. فالأول فتح السند وامتدت اصابعه إلى داخل الهند والثاني كاد أن يصل إلى الصين. وكان الحجاج يشرف على الفتوحات بنفسه فيضع خططها ويتتبع أخبارها.

لقد أخضع الحجاج العراق لبني أمية إلا أن سياسته عادت على الأمويين في نهاية المطاف بالضرر وخاصة معاملته للموالي الذين تأجج نار الحقد عندهم على بني أمية وبدلاً من أن يعربهم أصبحوا مميزين عن العرب عندما أخذ يختم على أذرعهم ويفرض عليهم الجزية، فجعلهم بعيدين عن العرب كل البعد، بل أصبحوا أعداء للبيت الأموي يحاربون مع كل خارج عليهم.

الحالة القبلية في عهد الوليد بن عبدالملك:

كانت سنة ٨٣هـ نهاية الصراع في الأمصار الاسلامية، وما أن تسلم الوليد الخلافة سنة ٨٦هـ حتى كانت الدولة الاسلامية تتمتع بالهدوء التام، العراق سكن وخضع

(١) المصدر السابق، ٢٨٨/٦، وانظر مروج الذهب ٢٠٣/٣.
(٢) المصدر السابق، ١٦٩/٦.

فأشغله الحجاج بالفتوحات واصلاح الأراضي، فلم يعد باستطاعته أن ينهض بعد أن جرب حظه مرتين مع الحجاج ففشل، إضافة إلى قوة الشام المرابط في مدينة واسط وهي مستعدة للضرب من حديد على كل خارج على الأمويين.

وفي عهد الوليد أصبحت الدولة قيسية لحماً ودماً، فالحجاج على الشرق بكامله يساعده اثنين من القادة محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي.

والحجاز عين عليها عمر بن عبدالعزيز بعد أن عزل هشام المخزومي لأنه أساء السيرة، وجارفي الأحكام وتحامل على آل الرسول. ويستدل أن عزله كان لعدم رضا قريش به، فما أن سمعوا بإقالته حتى تعرض له رجل وشتمه. فجاء هشام إلى عمر وقال له: أمرك أمير المسلمين أن تهدر لسفهاء قريش عرضي؟ فقال عمر لاها والله ولكن أوصاني بك خيراً. وهذا ابن عمك فإن شئت فاستقد وإن شئت فاعف. فقال هشام أما والله ما أنا من الداورج[1] المترحلة، ولا من الروادف المستلحقة، ولا من الأكناف الملصقة وإن امرءاً يتعرض لي من قريش وقد نقطت لي مثالبها صغيراً لأحمق[2].

وبقي عمر في الحجاز حتى اشتكى عليه الحجاج بأنه يأوي الهاربين من العراق فعزله الوليد وعين بدلاً منه عثمان بن حيان[3].

أما مصر فقد كان عليها قبل وفاة عبدالملك ابنه عبدالله، ولما تسلم الوليد عزله وعين عليها رجلاً من أخواله هو قرة بن شريك العبسي فتذمرت قريش من هذا العزل وكتبوا إلى الوليد:

عجباً ما عجبت حين أتانا ... أن قد أمّرت قرة بن شريك

وعزلت الفتى المبارك عنا ... ثم فيلت فيه رأي أبيك[4]

والظاهر أن قرة كان يتعصب للقيسية كثيراً حتى أنه طلا رؤوس الأعمدة التي

(١) القبيلة الدارجة: التي انقرضت ولم يبق لها عقب.

(٢) الزبيري، نسب قريش ٣٤٩.

(٣) الطبري، تاريخ ٤٨٢/٦.

(٤) الكندي، الولاة ٦٣.

القيسية واليمانية في عهد سليمان بن عبدالملك:

درج بعض الباحثين على تقسيم خلفاء بني أمية بالنسبة للعصبيه إلى: قيسيه ويمانية حسب خؤولة كل منهم. فإن كانت أم أحدهم من القيسية تعصب لهم وإن كانت من اليمانية تعصب إلى هؤلاء.

فالوليد اتهم بميوله للقيسية لأن أمه منهم، وهذا التقسيم أوقع بعض الباحثين في خطأ فقالوا أن سليمان تعصب لليمانية لأن أمهم منهم[1] والواقع أن سليمان هو شقيق للوليد وأم الأثنين هي ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي[2]. وكما تربى الوليد عند أخواله فقد تربى سليمان كذلك فعصبية سليمان لليمانية لم تكن إذاً بسبب الخؤولة وإنما كانت نابعة من أسباب شخصية.

لقد صب سليمان سخطه على ولاة الوليد وولاة الحجاج لأن الوليد ومعه الحجاج كانوا يسعون لعزله عن الخلافة وتسليمها لعبد العزيز بن الوليد ومن هنا ظهرت النقمة على هؤلاء الولاة.

لقد بحث سليمان عن أعداء الحجاج فلم يجد أفضل من آل المهلب، فأصدر أمره بعزل يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج عن العراق وعين بدلاً منه يزيد بن المهلب وقال له: إني قد سلطتك على آل الحجاج[3].

وهذه الوصية فتح جديد في سياسة الخلفاء تجاه الولاة، وقد غاب عن ذهن سليمان أن سياسته هذه سوف تعمق العصبية القبلية بين القيسية واليمانية، وذلك أن أي اهانة تلحق بزعيم قيس لا بد وأن تثير جميع القبائل القيسية. والأمر تماماً إذا حدث بالنسبة لليمانية. لقد أوغر سليمان صدور القيسية عندما سلّط عليهم آل المهلب. وزاد من حنق القيسية أن سليمان عزل القائد المشهور محمد بن القاسم الثقفي صاحب الفتوحات في الهند والسند وسلمها إلى صالح بن عبدالرحمن حتى يأخذ بثأره منه ومن رجال آل عقيل الذين قتلوا أخاه آدم لأنه كان يرى رأي الخوارج[4].

---

(1) انظر: علي ابراهيم حسن: التاريخ الاسلامي العام ٣٠٩.

(2) انظر: الطبري، تاريخ ٥٤٨/٦، العقد الفريد، ١٦١/٥، ابن حزم، جمهرة - ٩١.

(3) مجهول، تاريخ الخلفاء ٤٢٨.

(4) البلاذري، فتوح البلدان، ٣٣٩، الطبري، تاريخ ٥٠٦/٦.

ولم يبق بعد عزل مولى الحجاج وقتل محمد بن القاسم في شرق الدولة الاسلامية إلا قتيبة بن مسلم. ويذكر الطبري أن قتيبة هو الذي بادئ سليمان في العداء عندما بعث إليه ثلاثة كتب في الأول هنأه بالخلافة وعزاه بالوليد، وأنه على الطاعة. والثاني بيّن فيه موقفه من العجم وفتوحاته في شرق الدولة الاسلامية. الثالث أعلن فيه خلع سليمان بن عبدالملك. وأمر حامل كتبه أن يعطيه الرسالة الأولى فإن عرضها سليمان على يزيد بن المهلب أن يعطيه الثانية فالثالثة. فلما عاد الرسول إلى قتيبة وأخبره ما فعله سليمان أعلن أنه قد خلع سليمان كما يخلع النعل[1].

وأنا أشك بصحة هذه الرواية، فكيف يبني قتيبة عزله على إعطاء سليمان كتبه ليزيد؟ وهو قد رأى بعينه أن سليمان قد عزل محمد بن القاسم الثقفي ويزيد بن أبي مسلم دون سابق إنذار.

ومما يضعف هذه الرواية ما يذكره الطبري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى من أن سليمان لما عين يزيد بن المهلب على حرب العراق أمره إن أقامت قيس بالبينة أن قتيبة لم يخلع، فينزع يدا من طاعة أن يقيد وكيعاً به[2]، غير أن يزيد لم يحقق ذلك[3]. ولو كان قتيبة خلع سليمان بكتابه لما احتاج سليمان أن يأمر ابن المهلب للتحقيق في هذه المهمة.

ومما تقدم يمكن القول أن أهل خراسان قد ثاروا على قتيبة، وأن سليمان بارك هذه الثورة، ورأى فيها خلاصاً من أحد أتباع الحجاج.

لقد أحسن قتيبة السياسة مع أهل خراسان فقسم الفيء وأعطى العطاء في وقته غير أن العصبية ضده كانت أقوى من جميع إصلاحاته وفتوحاته.

لقد استغلت قبائل خراسان عزل سليمان لولاة الحجاج عن العراق فأرادت أن يكون لها شأن في عزل قتيبة. فجاءت هذه القبائل الى الحصين بن المنذر وعرضوا عليه قيادتهم لمقارعة قتيبة إلا أنه لم يقبل بذلك، وأحالهم على وكيع بن حسان التميمي لأنه أعرابي جلف تطيعه عشيرته من تميم، إضافة إلى أن وكيعاً غاضب على قتيبة لأنه عزله

---

(١) الطبري، تاريخ ٥٠٧/٦.

(٢) وكيع بن حسان التميمي.

(٣) الطبري، تاريخ ٥٢٧/٦.

عن رئاسة تميم وعين بدلاً منه رجلاً من بني ضبه[١]. ثم أن تميماً تطلب قتيبة بدم بني الأهتم الذين قتلهم[٢].

والناظر في هذا التآمر القبلي يرى أن اليمانية هي التي سعت في هذه الفتنة، ومع أن المصادر لا تذكر القبائل التي جاءت إلى الحصين، إلا أنه من خلال تحليلات الوقائع يستنتج بأنهم من الأزد. فالأزد عددها قليل حتى ذلك التاريخ في خراسان وهي لا تستطيع مقارعة المضرية والقيسية، فجاءت إلى حليفتها ربيعة تستنجد بها فأحالهم الحصين إلى تميم حتى يكونوا جبهة موحده ضد الوالي القيسي.

لقد كانت خطة الحصين في منتهى البراعة، ففيها تجنب وقوف مضر إلى جانب قيس، ثم إن مضراً لا ترضى أن تكون تحت قيادة ربيعة وهي تشكل ثلاثة أخماس أهل خراسان[٣].

وبدلاً من أن يتودد قتيبة إلى القبائل، نجده يعنفهم بخطبته، فقد وصف تميماً بأنهم أهل جور وغدر، وسماهم بني "ذميم" وسمى أهل العالية "بالسافلة"، وبكر بن وائل أهل نفخ وكذب واخوة مسيلمة، وعبدالقيس فساة وأصحاب سجاح. أما الأزد فقد بدلوا السفن بأعنة الخيل. وقال في آخر خطبته: «وأما الأعراب فلعنة الله على الأعراب، يا كناسة المصرين (الكوفة والبصرة) جمعتكم من منابت الشيح والقيصوم تركبون البقر والحمر، حتى إذا جمعتكم كما يجمع قرع الخريف قلتم كيت وكيت. انسبوني تجدوني عراقي الأب والأم، عراقي المولد والهوى والرأي والدين» وحاول أن يثير العصبية الاقليمية بين خراسان وأهل الشام فقال: إن الشام أب مبرور وأن العراق أب مكفور، حتى متى يتبطح أهل الشام بأفيئتكم وظلال دياركم[٤].

وهكذا جاءت هذه الخطبة لتزيد من حقد القبائل عليه، وقد انتقده على هذه الخطبة أقرب الناس إليه وهم أهل بيته فقالوا: ما رأينا كاليوم قط، والله ما اقتصرت على أهل العالية وهم شعارك ودثارك، حتى تناولت بكراً وهم أنصارك، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت تميماً وهم أخوتك ثم لم ترض بذلك حتى تناولت الأزد وهم يدك.

(١) البلاذري، فتوح البلدان ٥٢٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ٥٢١.

(٣) الطبري، تاريخ ١١٥/٦.

(٤) انظر نص الخطبة: الطبري، تاريخ ٥٠٩/٦-٥١٠، الجاحظ، البيان والتبيين، ٢٦٥/٢.

فقال: لما تكلمت فلم يجبني أحد غضبت[1].

وهكذا انفضت جميع القبائل العربية عن قتيبة، ولم يبق معه إلا بعض الموالي تحت إمرة حسان النبطي. غير أن هذا عاد وتآمر مع الثائرين بعد أن وعدوه بخراج نهر بلخ. ولما نشب القتال بين الطرفين مال حسان ومن معه من العجم إلى القبائل، فبقي قتيبة وحيداً مما أدى إلى قتله. وهنا تنافست القبائل على حمل رأسه لتقديمه وثيقة ولاء لسليمان بن عبدالملك. وكاد هذا التنافس أن يثير النزاع بين الأزد وتميم. فالرأس كان عند الأزد، ولما رأى وكيع ذلك أخذته الحمية وجاء إليهم وقال: والله لا أخرج حتى أوتى برأسي أويذهب برأس مع قتيبة، فرفضت الأزد تسليم الرأس إلا بعد أن جاءهم الحصين بن المنذر وقال لهم: أحمقى أنتم بايعناه وأعطيناه المقادة وعرض نفسه ثم تأخذون الرأس، أخرجوه لعنه الله من رأس[2].

وبعد ذلك أراد سليمان أن يعين وكيعاً على خراسان إلا أنه عدل عن ذلك بعد أن حُذّر من ثورته عليه، فعين يزيد بن المهلب الذي أخذ أصحاب قتيبة وأقرباءه فأذاقهم سوء العذاب بعد أن طالبهم بأموال طائلة[3].

وامتد حقد سليمان على موسى بن نصير فتذكر بعض الروايات أنه قدم على الوليد وهو على فراش المرض، فبعث إليه سليمان أن لا يستعجل في القدوم، إلا أن موسى اعتبر ذلك خيانة للوليد، فجاء على الوليد قبل موته فنقم عليه سليمان فعذبه حتى مات[4].

أما صاحب أخبار مجموعة[5] فيذكر أن طارق بن زياد ومغيث شكوا موسى إلى سليمان، لاختزانه للأموال، فلما قدم على سليمان أنبه بفعله بطارق ومغيث فاعتذر موسى عما بدر منه، إلا أن سليمان عزله عن عمله وغرمه أموالاً طائلة حتى أن الخماً حملت عنه سبعين ألفاً، ولم يشفع له إلا يزيد بن المهلب الذي أنقذه من سجن سليمان[6].

---

(١) الطبري، تاريخ ٥١١/٦.

(٢) المصدر السابق، ٥١٨/٦.

(٣) اليعقوبي، تاريخ ٤١/٣.

(٤) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة ٦٩/٢-٧٠.

(٥) مجهول، اخبار مجموعة ٢٩-٣٠.

(٦) ابن عبدالحكم، فتوح مصر ٢١٣، محمد عبدالله عنان، دولة السلام في الأندلس ٥٨/١.

وبهذه الأعمال قضى سليمان على أكبر القادة العسكريين في دولته، فأهل السند بكوا على محمد بن القاسم، ورجع بعضهم عن الإسلام. فلم يعودوا إليه إلا بعد أن سمعوا بسيرة عمر بن عبدالعزيز[1]، وقتيبة الذي ليس يعرف في الإسلام أحد أعظم غناء ولا أكثر فتوحاً منه، فكان قتله أضعافاً لجبهة خراسان، ناهيك عن غضب القيسية، حيث أنها لم تجتمع إلا عليه وعلى زفر بن الحارث الكلابي[2].

لقد انتقم سليمان من الولاة تحت ستار اصلاح ما أفسده الحجاج من القتل والظلم والعسف وسجن الناس[3]، إلا أن هذا الاصلاح ما كان يستدعي أن يلاقي هؤلاء القادة مثل هذه المعاملة، لاسيما وأن الروايات التاريخية لا تحدثنا عن ذنب أو ظلم ارتكبه هؤلاء القادة.

لقد أفسد سليمان بسياسته هذه أمر التوازن بين القبائل، وسوف تكون هذه السياسه أسلوباً لكل من سيأتي بعده من الخلفاء باستثناء عمر بن عبدالعزيز.

إن السياسة التي اختطها معاوية ومن بعده عبدالملك تجاه القبائل، ذهبت إلى غير رجعة على يد سليمان وحل محلها سياسة الأحلاف القبلية، وتزعم الخلفاء هذه الأحلاف والكتل.

ومع تقريب سليمان لليمانية إلا أنه لم ينس قرشيته، فقد عزل خالد القسري عن مكة لأنه جلد رجلاً من قريش كان سليمان قد آمنه، ولم يكتف بعزله بل أودعه بالسجن لولا أن تشفع له الفضل بن المهلب. فقال له سليمان: لا طت بك الرحم أبا عثمان؟ أن خالد جرعني غيظاً. فأطلق سراحه على أن يأتي إلى الشام ماشياً على رجليه[4].

ولما حج سنة ٩٧هـ فرض لقريش أربعة آلاف فريضه، ولم يدخل فيها حلفاء وموالي قريش، فأجمع رأي مشيخة قريش أن يجعلوها لحلفائهم ومواليهم، فلما رأى سليمان ذلك فرض لأربعة آلاف جدد[5]. ومع اعتزازه بقرشيته إلا أنه عندما أحس بأن

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان ٤٢٨-٤٢٩.

(٢) مجهول، تاريخ الخلفاء ٣٣٩.

(٣) مجهول العيون والحدائق ١٧.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/١٦٤-١٦٦.

(٥) اليعقوبي، تاريخ ٣/٤٣.

خطرا يتهدده من أبي هاشم عبدالله بن محمد بن علي أرسل إلى قوم من لخم وجذام فوضعوا له لبنا مسموماً فمات[1]. كما أنه رفض تحويل الخلافة إلى أحد بطون قريش من تيّم وعدي وهاشم[2]، وولى عمر بن عبدالعزيز، وجعل يزيد بن عبدالملك ولياً للعهد، خوفاً من ثورة ابناء عبدالملك على عمر[3].

موقف عمر بن عبدالعزيز من العصبية القبلية:

كاد اختيار سليمان لعمر خليفة للمسلمين أن يحدث انقساماً في البيت الأموي فهشام لما علم ببيعة عمر قال والله لا أبايع، كما أن عبدالعزيز بن الوليد أخذ البيعة لنفسه. إلا أن حزم رجاء بن حيوة الكندي الذي هدد هشاماً بالقتل، وسمعة عمر بن عبدالعزيز جعلت هؤلاء يتراجعون ويبايعون لعمر[4].

لما تسلم عمر الخلافة، رأى أن الدولة قد ابتعدت عن النهج الراشدي، ونتج عن ذلك صراعات داخلية مزقت الأمة شيعاً وأحزاباً، وهذه الشيع أخذت تتصارع فيما بينها ردحاً طويلاً. فأراد عمر أن يبني سياسته على مبادئ الحق والعدل والمساواة، حتى يجمع حوله جميع فئات وأحزاب الأمة. وقد تم له ما أراد فاعتبر عهده عهد مصالحه وتقريب بين جميع الفئات، لقد قامت سياسة عمر على أربعة أركان: الخليفة والوالي والقاضي وصاحب بيت المال[5].

أما بالنسبة للخليفة، فقد طبق على نفسه سياسة التقشف والزهد، فقبل خلافته كان منعماً مرفهاً، ولما ولي الخلافة عزف عن كل ذلك. والابتداء بالنفس من صفات القائد الناجح حتى لا يجعل لمتكلم أو معترض أن يتكلم أو يعترض.

وبعد نفسه التفت إلى بني أمية، فأنكر أعمالهم وسماها "المظالم"، ونتيجة ذلك ثارت ثائرتهم، إلا أن حزم الخليفة جعلهم يستكينون. لقد كتب إلى أحد أبناء الوليد بن

(1) المصدر السابق، ٤٢/٣.
(2) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ٩٣/٢.
(3) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك ٦٩.
(4) اليعقوبي، تاريخ ٤٦/٣، المسعودي، مروج الذهب، ١٩٣/٣، الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك ١٩.
(5) الطبري، تاريخ ٥٦٨/٦.

عبدالملك: ويلك وويل أبيك ما أكثر طلابكما وخصمائكم يوم القيامة رويدك فإنه لو طالت بي حياة، ورد الله الحق إلى أهله لفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمتكم على الحجة البيضاء فطالما تركتم الحق وراءكم. ومما وراء هذا ما أرجو أن يكون خير رأي رأيته، بيع رقبتك فإن لكل مسلم منك سهماً في كتاب الله»[1].

وبعث إليهم أيضاً: وأما هذا المال -مال الدولة- فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد، فلا يمنعه من أخذه إلا بعد مكانه. والله إنني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله. . «والسبب في ذلك أن الأموال التي كانت بين أيدي بني أمية أكثر من نصف أموال الدولة[2]».

وبعد أن أخمد من شوكة بني أمية التفت إلى مختلف فئات الأمة. فبالنسبة للخوارج تمكن عمر مهادنتهم فكفوا عن الإغارة على مخالفيهم مما أفسح المجال لعمر أن يلتفت إلى الاصلاحات الداخلية وأن تخف الأعباء المالية التي كانت تنفق في سبيل قتال الخوارج، فعلى سبيل المثال كان الحجاج يخصص في بيت ماله ستمائة درع لقتال منافقي العراق[3].

وهادن الشيعة أيضاً عندما أبطل سب علي، ولم يكتف بذلك بل رد خمس فدك إليهم بعد أن أقطعها معاوية لمروان. وناظر أبو جعفر محمد بن علي وتمكن إلى حد ما أن يقنعه حتى أن أبا جعفر لما سئل عنه قال: هو خير ممن كان قبله وفلان خير منه[4].

أما الموالي فقد وضع الجزية عمن أسلم منهم فسارعوا في الدخول إلى الاسلام، ولما رأى والي خراسان الجراح بن عبدالله الحكمي كثرة الداخلين في الاسلام بعث إلى عمر حتى يختبرهم بالختان. فكتب إليه عمر: أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثه خاتناً[5].

وأراد أن يمضي في مساواة الموالي بالعرب بعيداً، فاستدعى مكحولاً وولاه على

---

(1) ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، بيروت ١٩٦٧/١٤٧.
(2) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبدالعزيز مطبعة المؤيد القاهرة: ١١٥.
(3) الذخائر والتحف ٢٨٠.
(4) الأزدي، تاريخ الموصل ٥.
(5) ابن الأثير، الكامل ١٥٨/٤.

القضاء إلا أن هذا رفض وقال: لا يقضي بين الناس إلا ذو شرف وأنا مولى[1].

ولحسن معاملته مع الموالي عاد عدد كبير من الذين ارتدوا عن الاسلام من أهل السند بعد مقتل محمد بن القاسم الثقفي إلى الاسلام.

واهتم عمر بأهل الذمة، فاستمع إلى شكواهم ووزع عليهم الأموال الفائضة وأسلف بعضهم حتى يتمكنوا من القيام بالأعمال الزراعية. وخير مثال على حسن هذه المعاملة كتابه إلى عامله عدي بن أرطاه: انظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه، كما لو كان لك عبد فكبرت سنه، لم يكن لك بد من أن تنفق عليه حتى يموت[2].

وبالنسبة للوالي والقاضي وصاحب بيت المال، كان عمر لا يعين الا صاحب دين وأمانه، فقد عزل جميع الولاة المتشبعين بروح الحجاج، ومع حرصه على اختيار الأفضل، الا أنه لم يترك لهؤلاء الموظفين الحبل على الغارب بل كانوا مسؤولين أمامه مباشرة بصفته الركن الأول في الدوله. لقد منع الولاة أن يمارسوا أي عمل في ولايتهم[3] حتى لا يستغلوا الناس، وينصرفوا عن الاهتمام بشؤون الولايه الى شؤونهم الخاصة.

ونبه عمر الى دور العرفاء في الأمصار، فاشترط على ولاته ان يختاروهم من أهل الامانة والورع فقد كتب الى واليه على العراق: إن العرفاء من عشائرهم بمكان فانظر عرفاء الجند فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فاثبته ومن لم ترضه فاستبدله بمن هو خير منه وأبلغ في الأمانه والورع»[4].

أراد عمر من ولاته ان يكونوا رحماء بالناس فيضعوا السوط مكان السيف، وحتى هذا السوط يجب الا يستعمل الا في إقامة الحدود. ولما سمع ان الجراح بن عبد الله الحكمي قد عين رجلا اشتهر بالبطش على أحدى كور خراسان بعث اليه: «لا

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/١٦.
(٢) ابن عبدالحكم، سيرة عمر ٦٨، تريتون، أهل الذمة في الإسلام ٢٦٧.
(٣) ابن عبد الحكم، سيرة عمر ٩٩.
(٤) ابن سعد، الطبقات ٥/٣٩٦، ابن الأثير، الكامل ٥/٥٥ (بيروت).

حاجة لي برجل قد صبغ يده بدماء المسلمين، اعزله»[1].

وهذه السياسه اثبتت نجاحها التام وباعتراف يحي الغساني عامل عمر على الموصل: لقد جاء الى الموصل، والسرقة متفشية فيها فكتب الى عمر هل يأخذ الناس بالظنه ويضربهم على التهمه، أم يأخذهم بالبينه وما جرت عليه السنه؟ فأجابه عمر لا بل بالبينه وما جرت عليه السنه، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله: ففعل يحي ذلك فما خرج من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقة ونقبا[2].

ولم يهمل عمر بن عبد العزيز في اصلاحته للدولة شأن العصبية القبلية– ذلك الداء الذي استشبرى في جسم الدوله فحاربها بالوسائل التالية:

- عزل الولاة المتعصبين: فقد جاء رجل من الموالي وقال لعمر ان الجراح بن عبد الله الحكمي يقول: والله لرجل من قومي أحب الي من مائة من غيرهم. فبعث بكتاب عزله لأنه اظهر العصبية[3].

- وحتى يخفف من حدة النزاع بين القيسية واليمانية في الشام، حاول ان يجمع قبائل قضاعة والقيسية فقال لجماعة من كلب: إن علي منكم لغضاضة غضتكم حرب قوم فابتغيتم عن أبيكم وأنتميتم الى غيره، وكنتم أخوة قوم لأمهم فصيرتهم أنفسكم إخوتهم لأبيهم وأمهم[4]. غير ان قضاعة لم تقنع بذلك، وظلت مع اليمانية.

- رأى عمر أن إغداق الاموال على الشعراء يثير كوامن الحقد والبغضاء والعصبية القبلية بين القبائل فأراد ان يؤدب هؤلاء الشعراء، فلم يسمح لهم بالدخول عليه. ولما ألح جرير في الدخول عليه ومدحه أعطاه عمر أربعة دنانير من ماله الخاص، فخرج جرير يقول لمن سأله من الشعراء:

جئتكم من عند الخليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وأنا عنه راضي[5].

---

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز ٨٦.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء ٢٣٧–٢٣٨ (طبعة المدني).

(٣) البلاذري، فتوح البلدان ٥٢٤، الطبري، تاريخ ٥٥٩/٤.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف ١١٦/١.

(٥) ابن قتيبة، الامامه والسياسة ٩٨/٢.

وحتى يشجع الشعراء على ترك هجاء الناس والقدح بأعراضهم كان يعطي بعض الشعراء ومنهم نصيب عندما ترك التشبيب بالنساء[1].

- ويظهر موقف عمر من العصبية القبلية من تلك الرسالة[2] التي وجهها الى أحد عماله عندما جاءته أخبار فتن قبلية في ولايته: .... فانظروا ما زجركم الله عنه في كتابه فازدجروا عنه. إن ما هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية، ورجال أمروا حديثا، ظاهر جفاؤهم، قليل علمهم بأمر الله.... وذكر لي رجالا من أولئك يتحاربون الى أن حصروا في اليمن، يزعمون أنهم ولاية على من سواهم.... قاتلهم الله أي منزلة نزلوا، ومن أي مكان خرجوا وبأي أمر الصقوا. ولكن قد عرفت ان الشقي بنيته يشقى، وان النار لم تخلق باطلا. أو لم يسمعوا قول الله في كتابه "انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون"[3].... وقد ذكر لي مع ذلك إن رجالا يتداعون الى الحلف. وقد نهى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" عن الحلف فقال": لا حلف في الاسلام" وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الاسلام الاشدة "فكان يرجو أحد الفريقين حفظ حلفه الفاجر الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله وقد ترك الاسلام حين انخلع منه.

وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا، ومن بلغه أن يتخذ غير الاسلام حصنا. أو دون الله ودون رسوله المؤمنين وليجة تحذيرا بعد تحذير، وأذكرهم تذكيرا بعد تذكير، وأشهد عليهم الذي هو آخذ بناصية كل دابه. والذي هو أقرب الى كل عبد من حبل الوريد. وإني لم آلكم بالذي كتبت به إليكم نصحا مع أني لو أعلم أحدا من الناس يحرك شيئا ليؤخذ له به أو ليدفع عنه، احرص- والله المستعان- على ذلته كائنا من كان: رجلا أو عشيرة أو قبيلة أو اكثر من ذلك، فادع الى نصيحتي وما تقدمت اليكم به، فانه هو الرشد ليس له خفاء ثم ليكن أهل البر وأهل الايمان عونا بألسنتهم، وان كثيراً من الناس لا يعلمون....".

---

(1) الاصفهاني، الاغاني ١/٣٥٨ (الهيئة المصرية).

(2) انظر نص الرسالة: ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ١٠٣-١٠٦ عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب في خلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠٠.

(3) الحجرات الآية ١٠.



موقف يزيد بن عبد الملك من العصبية القبلية:

انتهت سياسة المصالحة والتقريب بين القبائل والاحزاب بموت عمر بن عبد العزيز وظهرت بدلا منها سياسة التحزب والعصبية القبلية وبأشد مما كانت عليه. وزاد من فداحة الأمر أن رجال الدولة منذ عهد يزيد قد انهبطوا من مكانهم السامي وأصبحوا كأنهم رؤساء احزاب بدل أن يكونوا رؤساء دول[1]. لقد اقحم الخلفاء أنفسهم في خضم النزاع القبلي، فمعاوية وعبد الملك من بعده كانوا يقفون من القبائل موقف الحياد، ووضعوا أنفسهم فوق الخصومات القبلية، فان رأوا خطرا من جانب قربوا الجانب الآخر، وبهذه السياسة حافظوا على الموازنة بين القبائل.

لكن الخلفاء الجدد لم يسيروا على هذه السياسة، بل اتخذ كل منهم جانبا معينا، واندفع معهم ولاتهم يحملون هذه العصبية، وأصبحت الأمصار جميعا متحزبة الى قيسيه ويمانية، فاذا جاء وال قيسي رفعت القيسية رأسها، وان جاء يمانيا خمدت شوكتهم وارتفعت شوكة اليمانية.

جاء يزيد بن عبد الملك، وسار على سياسة سليمان تجاه الولاة وتعصب للقيسية، فكانت عصبيته هذه المسمار الذي دق في نعش الخلافة الأموية لاسيما وانها جاءت بعد فترة هدأت فيها جميع فئات الدولة، فكانت العودة الى ما قبل عمر بن عبد العزيز مشجعا لجميع الفئات ان تتذمر وتشكو وتقاوم الدولة الأموية.

لقد أقحم يزيد نفسه في خضم الصراع القبلي. فبدأ حكمه بأن الغى كل ما صنعه عمر في الشؤون الادارية. لقد عزل جميع الولاة ولاحقهم وطالبهم بالأموال الطائلة وعين بدلا منهم ولاة أغلبهم من القبائل القيسية.

وكانت الأنصار أول من احتج على قريش بذلك فعندما عزل أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم عن المدينة وعيّن بدلا منه عبد الرحمن بن الضحاك الفهري قال الأنصار: هذا شي لا تملكه قريش للانصار[2]. ولم يكتف يزيد بعزله فحسب بل أمر واليه الجديد أن يضرب الأنصاري، فما بقي شاعر منهم الا وهجاء عبد الرحمن بن الضحاك[3].

(١) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ٦٥.

(٢) الأزدي، تاريخ الموصل ٦.

(٣) الطبري، تاريخ ٦/٦٠٤-٦٠٥، ابن الاثير، الكامل ٥/٨٩.

وفي خراسان قام سعيد بن عبد العزيز الأموي الملقب "بخذينه" فأخذ عمال عمر وحبسهم، ودفع رجالا من اليمانية ودفعهم إلى الزبير بن نشيط مولى باهله حتى يعذبهم في سجنه كما غرب (نفى) قسما آخر منهم[1].

أما في مصر، فقد شجع الخليفة أمر العصبية القبلية عندما وافق على اقتراح بشر بن صفوان بأن يجمع قضاعة التي تفرقت بين القبائل في دعوة منفردة. لقد قام بشر فأخرج مهرة من كنده وتنوخا من الأزد وآل كعب بن عدي من قريش وجهينه من أهل الراية فجعلهم من سائر قضاعة دعوة منفرده[2].

واستعمل يزيد على افريقيا يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج الذي عزله سليمان من قبل عن العراق. وأراد هذا ان يسير بالبربر سيرة الحجاج في المشرق ففرض على من أسلم وردهم إلى قراهم فثاروا عليه وقتلوه، وولوا عليهم محمد بن يزيد مولى الأنصار ثم أرسل فيما بعد بشر بن صفوان الكلبي عليهم[3].

لقد أجج الخليفة يزيد من نار العصبية القبلية بين اليمانية والقيسية فجعلها تنخر في عظام الدولة الأموية حتى قضت عليها. كان يزيد متزوجا من بنت أخي الحجاج[4] ونتيجة ذلك أعلن انضمامه إلى القيسية وجعلها تستأثر بالخلافة على حساب أهل اليمن[5]. وزاد من سخط اليمن ما لحق بيزيد بن المهلب وآله على أيدي يزيد الخليفه. لقد كانت فتنة ابن المهلب من اكثر الحركات القبلية أثرا على تاريخ بني أميه. صحيح انه ظهر قبلها حركات مثل حركة ابن الاشعث الا أنها لم تترك جرحا عند اليمانية كما تركته هذه الحركة. ولا أبالغ اذا قالت ان ماتلا هذه الفتنة من فتن ما هو الا امتداد للآثار السيئة التي خلفتها هذه الحادثة.

كانت أسباب حركة ابن المهلب أسباب شخصية تطورت أبعادها فيما بعد فتحولت الى عصبية قبلية بين القيسية واليمانية. لقد اودع ابن المهلب السجن زمن عمر بن عبدالعزيز الذي طالبه بالأموال التي صرح بها لسليمان بن عبدالملك، إلا أن هذا

(١) البلاذري أنساب الأشراف ١٦٢/٥، ابن الاثير الكامل ٩٠/٥. خذينه: رجل لين سهل متنعم.
(٢) الكندي- الولاة ٧٠-٧١.
(٣) اليعقوبي- تاريخ ٥٧/٣.
(٤) ابن الأثير- الكامل ١٦٦/٤.
(٥) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي ٢٧٢/٢.

رفض ذلك. وقد أراد عمر أن ينفيه إلى جزيرة دهلك[1] إلا أنه خشي من تخليص القبائل اليمانية له، فاكتفى بسجنه في دمشق[2].

ولما أحس يزيد بن المهلب بمرض عمر هرب من السجن خوفاً على نفسه من الخليفة يزيد لأنه رفض شفاعته في آل أبي عقيل أصهار يزيد. ووعيد يزيد له في ذلك الوقت حيث قال: أما والله لئن وليت من الأمر شيئاً لأقطعن منك عضواً، فرد عليه ابن المهلب وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف[3].

هرب يزيد من سجنه واتجه إلى العراق حيث هو منهم[4]، إضافة إلى كسب ربيعة حليفة اليمن إلى جانبه. وما أن علمت القيسية بخروجه حتى أخذت تطارده، فالهذيل بن زفر الكلابي حاول أن يقطع الطريق عليه، إلا أن التقاليد القبلية جعلته يتخلى عن ذلك، عندما دخل ابن المهلب منزل الهذيل، وشرب من لبنه فتركه الهذيل بل وعرض عليه خيله[5].

وصل ابن المهلب إلى البصرة بالرغم من الاحتياطات التي اتخذها عدي بن أرطاه وعبدالحميد بن عبدالرحمن بن الخطاب والبي البصرة والكوفة. لقد قوبل ابن المهلب بترحيب القبائل اليمانية هناك[6].

أما والي البصرة "عدي بن أرطاة" فقد سجن بعض آل المهلب، فأرسل إليه يزيد أن يفرج عنهم وأن يكتب إلى يزيد بن عبد الملك بطلب الأمان. إلا أن عدياً رفض ذلك. وهنا اتخذ ابن المهلب الخطوات العملية لمجابهة عدي فبعث إلى الأزد فجاءته مسرعة إلا أن حليفتهم ربيعة أبطأت عليه فبعث إليهم ابن المهلب: لو كنا ندعوكم إلى معصية لكان يجب عليكم أن تجيئونا وأنتم أخواننا فكيف وأنما ندعوكم إلى حق يحبس هذا الرجل إخوتي بغير جرم[7]. ولما سمعت ربيعة ذلك أخذتها حمية الأحلاف

(١) دهلك: جزيرة في بحر اليمن ضيقة حارة/معجم البلدان، مادة دهلك.
(٢) الطبري، تاريخ ٦/٥٥٧-٥٥٨، ابن الأثير، الكامل ١٥٧/٤ بيروت.
(٣) ابن الأثير، الكامل ١٦١/٤ (بيروت).
(٤) المصدر السابق ٢٣/٤ (بيروت).
(٥) الأصفهاني، الأغاني ١٠٩/١٣.
(٦) ابن الأثير، الكامل ١٦٦/٤.
(٧) مجهول، العيون والحدائق ٥٣.

وعصبيتها فاتجهت إليه مما أدى إلى عظم أمره واشتداد شوكته[1]. وزاد من قوته أن بعض المضرية ويمانية أهل الشام المرابطين في العراق قد انضموا إليه[2]. وقد عرف ابن المهلب كيف يستغل رجالات البصرة، فأغدق عليهم الأموال وأمر العرفاء أن يفرضوا فروضاً جديدة، كما أعطاهم قطع الفضة. وقابل اغداق ابن المهلب للأموال بخل من عدي بن ارطاة الذي لم يكن يعطي غير درهمين لأنه لا يحل له الانفاق من بيت المال إلا بإذن من يزيد حسب رأيه[3].

واستفاد ابن المهلب من الأزد كثيراً وذلك لأن الأسواق وحرفها كانت لهم فاشترى الأسلحة ووزعها على أصحابه[4].

التقى ابن المهلب بعدي بن أرطاه في جبانة بني يشكر، ومعه الأزد وربيعة وعدي معه مضر وأهل الشام. وفي هذا اللقاء هزم عدي عندما انسحبت ربيعة من صفوفه وانظمت إلى ابن المهلب[5]. إضافة إلى ذلك أن يمن الشام ربما لم تخلص في قتالها، لاسيما وأننا رأينا أن بعضها قد انضم إلى ابن المهلب قبل بداية القتال.

وقد جذبت العصبية القبلية يمانية الكوفة فابتهجوا بهذا الانتصار، وبعث محمد بن الأشعث رسالة شكر إلى بشكر بن حاتم بن سويد الذي انضم إلى ابن المهلب في قتاله لعدي بن أرطاة[6].

ودفعت العصبية القبلية أشد الأحزاب الاسلامية تطرفاً وهم الخوارج في الانضمام إلى ابن المهلب. لقد وقفت خوارج عُمان إلى جانبه عندما انضم السميدع الكندي إلى صفوفه. فكافأه باستعماله على الأبلة[7].

ولما انتصر ابن المهلب على عدي خطب في أهل البصرة وقال: أيها الناس إنا غضبنا لكم فانظروا لأنفسكم رجلاً يحكم فيكم بالسوية ويقيم فيكم بالكتاب والسنة

---

(1) المسعودي، مروج الذهب ٢١٠/٣.
(2) الطبري، تاريخ ٥٨٠/٦.
(3) ابن الأثير، الكامل ١٦٨/٤ بيروت.
(4) مجهول، العيون والحدائق ٥٣.
(5) المصدر السابق ٥٥.
(6) المصدر السابق ٥٦.
(7) الطبري، تاريخ ٥٨٣/٦.

ويسير بكم بسيرة الخلفاء الراشدين[1].

ولكن وقوف بعض الفقهاء ضد ابن المهلب أضعف من موقفه، فلما علم ابن سيرين أن بكر بن وائل قد أعانت الأزد قال: إذا كانت الأنصار بكر بن وائل فذلك دين ناقص غير زائد[2].

والحسن البصري قال: يدعونا إلى سنة العمرين وكان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم. فلما غضب نصب قصباً ثم وضع عليها خرقاً ثم قال إني قد خالفتهم فخالفوني فقال هؤلاء نعم[3].

ولما قام يثبط الناس عن ابن المهلب جاء بعضهم وقال له: كأنك راض عن أهل الشام فقال الحسن: قبح الله أهل الشام ويرحمهم، أليسوا الذين أحلوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام وأباحوه أنباطهم وأقباطهم لا يتناهون عن سيئة ولا انتهاك حرمة ثم نصبوا المنجانيق يرمون البيت[4].

وعندما أصر الحسن على موقفه حاول أحد أتباع ابن المهلب قتله إلا أن يزيد منعه وقال: والله لو فعلت لانقلب من معنا علينا[5].

ولما استتب الأمن في البصرة بعث ابن المهلب أسرته ولاة على بعض أجزاء شرق الدولة الاسلامية، فمحمد بن المهلب على فارس، وزياد بن المهلب على عُمان، ومدرك بن المهلب إلى خراسان وقال: لما صار ابن أبي ذباب (يزيد) أحق بها مناه[6].

غير أن ابن المهلب لم يثبت أقدامه في خراسان بسبب مقاومة قبيلة تميم، لقد منعت هذه دخول مدرك خراسان. وقد حاولت الأزد مساعدته إلا أنها رأت أن لا قوة لها بتميم فقالوا لمدرك/ أنك أحب إلينا وقد خرج أخوك، فإن يظهر فإنما ذلك لنا ونحن

---

(1) العيون والحدائق ٥٩.
(2) المصدر السابق ٥٦.
(3) ابن الأثير، الكامل ١٧٠/٤.
(4) مجهول العيون والحدائق ٥٩.
(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٤٠٨/٢.
(6) مجهول العيون والحدائق ٦٥، أبو الذباب، لقب لعبد الملك بن مروان.

أسرع الناس إليكم وأحقه بذلك وأن تكن الأخرى فما لك في أن تغشينا البلاد راحة[1].

وكما استغل ابن المهلب العصبية اليمانية فقد استغل العصبية الاقليمية فأخذ يحرض أهل العراق ضد أهل الشام وأفتى لهم بأن جهاد الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم[2]. ومن هنا أخذ بيعتهم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى ألا تطأ الجنود بلادهم[3]. وبهذا تطور النزاع إلى نزاع أهل العراق ضد أهل ال شام بعد أن كان بين اليمانية والقيسية.

لقد خُدع ابن المهلب بقوته واعتقد أن يمانية الشام ستنضم إليه وفي هذا الصدد قال: أن سبعة من سيوف أهل الشام لي وسيفين علي[4]. ومن هنا رفض اقتراح أخيه حبيب بأن يخرج إلى فارس ويعتصم بالشعاب والقفار، أو إلى الجزيرة الفراتية حتى يأتيه أزد الموصل وأهل الثغور والعراق[5]. كما رفض التحصن في واسط حتى تأتيه الامدادات من عُمان والبحرين[6].

لقد أصر ابن المهلب على مواجهة أهل الشام، وأمام تزايد قوته أرسل يزيد الخليفة، مسلمة بن عبدالملك والياً على العراق، وبعث إلى الكوفة يشكر أهلها ويمنيهم ويعدهم الزيادة في العطاء[7] حتى لا ينضموا إلى أهل البصرة.

التقى ابن المهلب بجيش مسلمة بن عبدالملك عند العقر[8] سنة ١٠٢ هـ وهنا شعر ابن المهلب بالخذلان، فقال: لوددت أن لي بهم من بخراسان بقومي[9]. وأدرك أن سيوف الشام جميعها ضده فقال والأ لم يعتصر قلبه: أو يقاتلني بقومي من لا قوم له[10]. وأزاء ذلك لحقت به الهزيمة ودفع حياته ثمناً لخروجه على سلطان الخليفة.

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٧٥/٥.

(٢) الأزدي، تاريخ الموصل ٩، ابن الأثير، الكامل ٧٥/٥.

(٣) الطبري، تاريخ ٥٩٢/٦.

(٤) المصدر السابق ٥٩٥/٦.

(٥) الأزدي، تاريخ الموصل ٩-١٠، مجهول العيون والحدائق ٦٩.

(٦) الطبري، تاريخ ٥٩٦/٦.

(٧) ابن الأثير، الكامل ١٧٢/٤.

(٨) العقر. قرب بابل من الكوفة.

(٩) ابن الأثير، الكامل ١٧٢/٤.

(١٠) العيون والحدائق ٧٣.

لعبت العصبية المضرية دورها في هزيمته ، فقد كانت تميم أول القبائل التي ولت منهزمة من بين صفوفه ، ويظهر ذلك من أن الأسرى من هذه القبيلة عندما عرفوا أنهم مقتولون لا محالة قالوا أبدأوا بنا نحن انهزمنا بالناس[1] . ويرجع عدم اخلاص تميم لما حدث لعدي بن ارطاة على يد ابن المهلب ، لقد هرب وجهاء إلى الكوفة نتيجة ما لحق بهم . إضافة إلى ذلك أن ربيعة لم تكن متحمسة للقتال منذ خروج ابن المهلب فكانت خيلها أول من انكشف في ساحة القتال ولم ينفع ابن المهلب ما كان ينادي به على ربيعة : يا معشر ربيعة الكرة الكرة والله ما كنتم بكشف ولا لئام ، ولا هذه لكم بعادة فلا يؤتين أهل العراق اليوم من قبلكم . أي ربيعة فدتكم نفسي اصبروا ساعة من نهار[2] .

ومما تقدم يمكن القول أن النزارية كانت عاملاً مباشراً في هزيمة ابن المهلب بالرغم من أن اليمانية يدعون بأنهم لم ينهزموا إلا من قبل إخوانهم في الدم[3] .

وظهرت العصبية عند آل المهلب لما أحسوا بالهزيمة فقد أسرع معاوية بن يزيد بن المهلب فضرب أعناق الأسرى الذين كانوا بحوزته من مضر وربيعة وترك اليمانية منهم . فاعتقد البعض أنه نسيهم فذكروه بأحدهم فقال معاوية : ما نسيته ، ولكن لم أكن أقتله وهو شيخ من قومي له شرف ومعروف وبيت عظيم ولست أتهمه في ود ولا أخاف عنته[4] .

على الرغم انتصار مسلمة على ابن المهلب إلا أنه لم يحسن التصرف معهم بل أمر ببيع ذريتهم فاشتراهم الجراح بن عبدالحكمي بمائة ألف حتى يبر بيمين مسلمة وأعتقهم . وهذه هي أول مرة تباع فيها ذراري المخالفين . ولما مثل بعض الأسرى أما يزيد أمر بقتلهم ، ورفض توسلات اليمانية في إطلاق سراحهم ، وقال : من كان له قبل آل المهلب دم فليقم[5] ، فأسرعت قيس لأخذ بثأرها منهم لقتلهم عدي بن أرطاة . وبهذا العمل نقل الخليفة الموقف من أمر سياسي إلى وقعة ثأرية بين القيسية واليمانية وأزاء هذا التصرف قام شعراء اليمانية يذكرون أمجاد آل المهلب وتضحياتهم وعلى رأس هؤلاء

---

(١) الطبري، تاريخ ٥٩٨/٦.
(٢) المصدر السابق ٥٩٨/٦.
(٣) المصدر السابق ٦٠١/٦.
(٤) الأزدي، تاريخ الموصل ١٢.
(٥) ابن خياط، تاريخ ٣٢٤.

كثير عزه. ومن كثرة مدح هذا قال له يزيد حركتك الرحم يا أبا صخر[1]

لقد كان لقتل آل المهلب وقع كبير على اليمانية فهذا كثير الخزاعي يقول: فتك والله بالكرم يوم فتك بآل المهلب. فتيان العرب وحرارة الأنساب[2]. ونلمس شدة وقع معركة العقر أنها ربطت بوقعة كربلاء حتى قالوا: لقد ضحى بنوا أمية بالدين يوم كربلاء وبالمروءة يوم العقر[3].

ومما يؤيد ذلك أن الوالي القيسي عمر بن هبيرة كتب إلى يزيد بشأن الأسرى الذين بحوزته من آل المهلب وقال: ما هم لي بعشيرة وما أردت إلا النظر لأمير المؤمنين في تألف عشائرهم لئلا تفسد قلوبهم وطاعتهم[4].

ومع أن الوالي الجديد أراد أن يتقرب إلى اليمانية بإطلاق سراح الأسرى اليمانية إلا أنه كان قيسياً لحماً ودماً، كما أظهر الاعتزاز بزعيم قيس: الكوثر بن زفر الذي لو برق بليل لأتاه عشرون ألفاً لا يقولون لما دعوتنا ولا يسألونه. كما أعتز أيضاً بأن يكون هو نفسه خير قيس لقيس. وكف العذاب عن فارس قيس سعيد الحرشي لا لشيء إلا لأنه من قيس[5].

كان قتل آل المهلب وتولية وال قيس سبباً في ازدياد نقمة اليمانية على الدوله واعتبروا أن ما حدث ما هو إلا بمثابة حرب عليهم وأن دولة بني أمية انقلبت حزباً يحكم باسم قيس[6].

وكما تعصب يزيد للقيسية، فقد تعصب لعبد مناف، فعندما وصلته الأنباء أن عبدالرحمن بن الضحاك الفهري قد هدد فاطمة بنت الحسين على الزواج منه قال: من يسمعني صوته في العذاب وأنا على فراشي فتطوع للأمر عبدالواحد بن عبدالله النضري[7].

(١) المسعودي مروج الذهب، ٣/٢١١.
(٢) الأزدي، تاريخ الموصل، ١٦،
(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار ٢/٢٧٣.
(٤) اليعقوبي، تاريخ ٣/٥٥.
(٥) الطبري، تاريخ ٧/١٦.
(٦) فلهوزن، الدولة العربية ٣١٢.
(٧) الأزدي، تاريخ الموصل ١٧.

والواقع أن الغموض والتقلب في شخصية يزيد هو الذي أدى إلى تصرفاته هذه فقد أراد سليمان أن يحجر عليه عندما اشترى سلامة بأربعة آلاف دينار، ولما جاء عمر بن عبدالعزيز أصبح يزيد من المقربين إليه، حتى أن قريشاً عادت تعتقد أنه سيسير على نهج عمر من ناحية التقوى. غير أنه بعد أن تسلم الخلافة غلب عليه حبه للمغنيات فقام نفر من بني أمية يساعدهم بعض رجالات قريش لخلعه من الخلافة إلا أنه كان أقوى منهم[1].

ونتيجة فتنة ابن المهلب وانشغال الخليفة بلذاته، وإهاجة العصبية القبلية تعرضت الدولة لهجمات الروم الذين ظهروا على الساحل المصري[2]، وفي الأندلس قتل السمح بن مالك الخولاني في مدينة تولوشه (تولوز) سنة ١٠٢هـ، ٧٢١م[3]. وفي الشرق قام الترك بهجمات في بلاد ما وراء النهر، وتحالفوا ضد الدولة الاسلامية كما حاولت الشعوب القوقازية الانتفاض على الدولة أيضاً[4].

وفي الداخل اشتدت حركة الخوارج، إلا أن القبائل كانت تتدخل لمنع أفرادها من متابعتهم مما خفف من هجماتهم على الدولة.

لقد انتهت حياة هذا الخليفة بحوران بقرية اربد سنة ١٠٥هـ بعد أن ترك جرحاً عميقاً في سياسته الداخلية عندما تزعم القيسية في صراعها ضد اليمانية.

العصبية القبلية في عهد هشام بن عبدالملك:

تولى هشام الخلافة واليمانية تعتقد أن إهانة عميقة قد لحقتها من بني أمية ومن القبائل القيسية. فيمانية العراق اعتبرت هزيمة ابن المهلب انتصاراً للقيسية ولأهل الشام عليها، وزاد من استيائهم ما كان يظهره ابن هبيرة الفزاري من عصبية لقيس فلما تسلم هشام الخلافة كان عليه أن يعالج هذا الموقف وأن يعيد التوازن القبلي.

عزل هشام ابن هبيرة عن العراق وحاول البحث عن وال يخلو من العصبية وغير

(١) ابن قتيبه الإمامة والسياسة ١٠٣/٢-١٠٤.
(٢) المقريزي، الخطط ٨٦/٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ابن عذارى البيان والمغرب ١٠٣/٢-١٠٤.

فدعني أقتلك أنا ولا يقتلك هذه اليمانية فتغظينا بقتلك[1].

ولسوء حظ الأمويين ان يزيد مات بعد ستة أشهر من خلافته وذلك سنة ١٢٦هـ فزادت الفتن في الدولة بعد بيعة ابراهيم بن الوليد فتحرك مروان من الجزيرة وسارعت وجوه القيسية بالانضمام اليه، وكأن هذه القبائل قد شعرت بالندامه عندما تركت الوليد بن يزيد يذهب ضحية القبائل اليمانية.

وما أن خرج مروان حتى أخذت القيسية بشراً ومسروراً ابني الوليد بن عبد الملك وكانوا على قنسرين فسلموهم الى مروان الذي أمر بحبسهما[2].

اتجه مروان ومعه القيسية الى مدينة حمص وكان عبد العزيز بن الحجاج يحاصرها لامتناعها عن بيعة ابراهيم بن الوليد، فهرب عبد العزيز، وخرج أهلها يبايعون لابني الوليد.

ولما رأى ابراهيم ذلك جمع جيشا تحت قيادة سليمان بن هشام والتقى بمروان في عين الجر قرب حمص. وقد رفض سليمان الامان من مروان والبيعة لابني الوليد وأصر على القتال.

وفي عين الجر أخذت القبائل تفنى بعضها البعض وكأن يمانية حمص ارادات ان تثأر من يمانية دمشق. أما القبائل القيسية فقد وقفت تتفرج على ما يجري بينهما فدفعت هذه القبائل سبعة عشر الف قتيل[3]. وهزمت يمانية دمشق هزيمة منكره[4]. وبعد هزيمة سليمان في عين الجر حاول ابراهيم ان يجمع جيشا آخر الا أن ما أصاب اليمانية هناك دفعهم الى التخاذل عن الخروج[5]، مما مهد السبيل أمام مروان كي يدخل دمشق في نزهة عسكرية.

ولما أحست اليمانية بأنتصار مروان أرسلوا الى ابني الوليد ويوسف بن عمر فقتلوهم في السجن وردت القيسية على ذلك بأن قتلوا عبد العزيز بن الحجاج وقدموه

---

(١) الطبري، تاريخ ١٧٤/٧.

(٢) ابن خياط، تاريخ ٢٩١ الطبري تاريخ ٣٠٠/٧.

(٣) مجهول، العيون والحدائق ١٥٦.

(٤) الأزدي، تاريخ الموصل ٦١.

(٥) ابن خياط تاريخ ٢٩٢.

هدية لأبي محمد السفياني الذي خرج من السجن لاستقبال مروان. فسلم عليه بالخلافة وعزاه بابني الوليد[1].

وبهذا النصر السريع شعر مروان وكأن عهد الصراع قد انتهى، فأرسل عماله الى الامصار وكان معظمهم من اليمانية لأنه أراد بذلك أن يكسب ودهم ثم اتجه الى حران وهناك جاءه ابراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فبايعاه.

واعتقد مروان ان الدنيا قد فتحت أمامه فأقام حفلا دعا إليه الامويين وقريش ورؤوس العرب تم فيه البيعة لابنيه عبيد الله وعبد الله وزواجهما من ابنتي هشام تأكيداً لوحدة البيت الأموي. وتفرغ بعد ذلك الى كلب تدمر التي بقيت معلنة العصيان، الا أن الابرش الكلبي تمكن من اقناع قبيلته بفتح أبوابها أمام الخليفة فبايعوا لمروان بعد أن هدم سورها[2]. لكن الفتن اشتعلت في جميع الأمصار وكان عليه ان يهيأ نفسه لهذا الصراع الطويل. لقد شبت الفتن في خراسان والعراق والشام والجزيرة العربية والاندلس. وكان ما إن انتهى من أمر الا وظهر أمر آخر حتى كان سقوط الدولة الأموية.



الفتن في خراسان:

لما قتل الوليد بن يزيد أخذ نصر بن سيار يقرب اليه اليمانية والربعية وبعث الى منصور بن جمهور: انه أعد قيساً لربيعة، وتميما للأزد وبقيت كنانه ليس لها من يكافؤها[3].

وبعد أن عزل منصور وجاء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليا على العراق أبقى على والي خراسان.

وفي هذا الوقت أصبحت خراسان أشبه شيء بجزيرة عرب ثانيه، مع فارق هو أن جزيرة العرب الجديدة كانت في أرض الأعداء[4]. وكانت الثورة في الشام هي التي

(١) الأزدي، تاريخ الموصل ٦٣.
(٢) ابن الأثير، الكامل ٥/١٣٣ (بولاق).
(٣) الطبري، تاريخ ٧/٢٧٨.
(٤) فلهاوزن، الدولة العربية ٣٩٤.

أججت الثورة في خراسان وكأنها رد فعل من جانب اليمانية على طغيان قيس في أيام الوليد بن يزيد[1].

قام أهل خراسان بعد ثورة دمشق يطالبون بأعطياتهم فسكت نصر عنهم في بادئ الأمر ولما تمادوا بذلك هددهم بالحرمان فاستغل جديع بن علي الكرماني هذا التهديد وقال لليمانية: الناس في فتنه فان رأيتم فانظروا لأنفسكم رجلا. فقالوا له أنت لنا[2]، فتسلم الكرماني زعامة القبائل اليمانية.

لقد كان الكرماني من أشد الحاقدين على نصر لأنه من قيس اولا ثم لعزله اياه عن رئاسة الأزد ثانيا ومن هنا خرج عليه كي يطلب بثأر آل المهلب[3]. ولما رأت المضرية ذلك جاءت الى نصر ونصحته ان يقتله أو يحبسه فقام بحبسه، الا أن الازد تمكنت من اخراجه من السجن وهرب الى القناطر الخمس بباب مرو الروذ. فخرج اليه نصر وهناك خطب في جيشه وأخذ يذم اليمانية منهم ولولا اعتذاره لهم لربما حدث ما لم يكن في الحسبان. ولم يحدث قتال بين الطرفين بل أمنه نصر على أن يضمن قومه عدم مخالفته وان تفرض عليه الاقامة الجبرية. غير أن هذه الاتفاقية لم تدم طويلا، فقد خرج الكرماني احتجاجا على نصر الذي طعن بمنصور بن جمهور، والتف حوله الف وخمسمائة من الأزد. ولما عادت المفاوضات بين الطرفين أرسل نصر الى الكرماني قديد بن منيع فقال له: يا أبا علي لقد أججت وأخاف أن يتفاقم الأمر فنهلك جميعا وتشمت بنا هذه الأعاجم[4]. وقال عقيل بن معقل الليثي لنصر بن سيار: ان هذه العصبية قد تمادت بيننا وبين هؤلاء القوم وقد شغلتك عن جميع أعمالك وضبط سلطانك، وطلب منه ان يقارب الكرماني فبعثه نصر اليه وفوضه باعطائه ما يطلب. فلما جاء عقيل الى الكرماني قال له: انك شيخ العرب وسيدها بهذه الأرض فابق عليها. وقد تمادت هذه العصبية بيننا وبينكم وقد قتل منا ومنكم مالا يحصيه أحد، وقد أرسلني نصر اليك وجعل لك حكم الصبي على أبويه على أن ترجع الى طاعته لتتآزر على اطفاء هذه النار المضطربة في خراسان.

---

(1) المصدر السابق ٤٥٧.

(2) مجهول: تاريخ الخلفاء ٤٦٣-٤٦٤.

(3) الطبري، تاريخ ٧/٢٨٧.

(4) الطبري، تاريخ ٧/٢٩٢-٢٩٣.

كان جواب الكرماني ان يعتزل نصر الولاية، ويتولاها رجل من ربيعة. فقال عقيل هذا ما لا يرضى به الامام مروان بن محمد. ولكن الأمير نصر يجعل لك تولي من شئت وتعزل من شئت، وتدبر في هؤلاء المسوده ما شئت، ويتزوج اليك وتتزوج اليه. قال الكرماني كيف يتزوج الى وليس لي بكفؤ. فقال عقيل أتقول هذا لرجل له بيت كنانه قال الكرماني: لو كان من مصاصة كنانه ما فعلت[1].

وأمام اصرار الكرماني على القتال أخذ نصر يتقرب الى الحارث بن سريج حتى لا يقع بين نارين. وقد تمكن من كسبه فكان يجري عليه نصر خمسون درهما في اليوم وأطلق من كان في سجنه من أهله[2].

الا أن الحارث عاد وخرج على نصر لاسيما بعد أن تمكن من جمع ثلاثة آلاف رجل[3]. فبعث اليه نصر بأن يوليه ما وراء النهر وأن يعطيه ثلاثمائة الف، الا أن الحارث لم يقبل بهذا وطالب ان يكون الأمر شورى، فلما رأى نصر ذلك أشار عليه ان يبدأ بالكرماني فان قتله فهو في طاعته واذا لم يرغب في ذلك فليترك الأمر اليه فان ظفر به رأى رأيه[4].

وبعد أن فشل نصر في كسب الحارث استعد لقتاله، وتمكن من هزيمته فأعمل سلم بن احوز التميمي السيف في قبيلته. فقال لأحدهم: .... والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك، والله لا يقوم علينا مع اليمانية اكثر مما قمت به، وقال لآخرين: لا أبقى الله من استبقاكما وان كنتما من تميم[5].

وبعد هزيمة الحارث كتب الى الكرماني حتى يوحدا من موقفهما ضد نصر بن سيار فوافق الكرماني وهنا تغيرت الاحداث في خراسان.

أما الكرماني فقد أراد أن يؤكد على الحلف الجاهلي بين ربيعة واليمن فأرسل الى عمر بن ابراهيم من ولد أبرهة بن الصباح ملك حمير ليبعث اليه بنسخة من هذا الحلف،

---

(١) مجهول الاخبار الطوال ٢٣٩.
(٢) الطبري، تاريخ ٣٠٩/٧.
(٣) المصدر السابق ٣١٠/٧.
(٤) المصدر السابق ٣٣١/٧.
(٥) الطبري، تاريخ ٣٣٥/٧.

فبعث اليه عمر ذلك وهناك قرأه على ربيعة واليمن[1].

وتقابل الحلفاء الجدد مع نصر ودام القتال بينهم ثلاثة أيام فهزمت المضرية عندما نادى رجل من أصحاب الكرماني بأن نصرا قد قتل، وان الحارث بن سريج دخل سوق مرو ففت ذلك من عضد المضرية فولوا الأدبار. وقد قتل في هذه المعركة تميم بن نصر بن سيار[2].

وكان لانهزام المضرية تأثير كبير على وضع الحارث بن سريج فقد أرسل الحارث الى نصر يخبره أن اليمانية اخذت تعيره بهزيمة المضرية كما أن بشر بن جرموز الضبي اعتزل عن الحارث في خمسة آلاف عندما رأى أن الكرماني يهدم دور المضرية وينهب أموالهم. فتوجه الكرماني ومعه الحارث لقتال ابن جرموز، الا أن الحارث ندم على حلفه مع الكرماني فنصح له أن لا يتعجل الأمر في قتاله وأنه خارج ليردهم عنه. ولم يخلص الحارث في نصيحته بل جذبته العصبية وخرج في عدة من فوارس تميم الى بشر حتى يقاتل معه ولما عرفت المضرية ذلك خرجت من صفوف الكرماني ولم يبق معه الا اثنين من قيس رفضا أن يغدرا بالكرماني[3]. وفي هذا اللقاء قتل الحارث بعد أن فرق كلمة تميم وكان لاتحاد كلمتها في ذلك الوقت شأن في المحافظة على السيادة العربية[4].

وقد ابتهج نصر بقتله وقال[5]:

يا مدخل الذل على قومه ... بعدا وسحقا لك من هالك
شؤمك أردى مضر كلها ... وغض من قومك بالحارك
ما كان الأزد وأشياعها ... تطمع في عمرو ولا مالك
ولا بني سعد اذا ألجموا ... كل طمرّ لونه حالك[6]

وهكذا تمكنت اليمانية من احراز النصر على مضر واخراجها من مدينة مرو. وقد

---

(1) الدينوري، الاخبار الطوال ٣٣٦.
(2) ابن الاثير، الكامل ٥/١٣٩ (بولاق).
(3) المصدر السابق ٥/١٣٩ بولاق.
(٤) فلهاوزن، الدولة العربية ٤٦٢-٤٦٣.
(٥) ابن الأثير، الكامل ٤/٢٤٤- المنيرية.
(٦) عمرو مالك وسعد بطون من تميم.

حاول نصر بن سيار ان يسترد المدينة عدة مرات، وبعد أن تمكن من دخولها حصره الكرماني بداخلها وقد استمر القتال بينهما اكثر من عشرين شهرا مما أفسح المجال لأبي مسلم الخراساني أن يبث دعوته ويجمع حوله الاتباع الى أن اصبح يشكل قوة ثالثة في خراسان، وظهر في ذلك قوة رابعة هي قوة الخوارج بقيادة شيبان الصغير الخارجي.

استغل ابو مسلم العصبية القبلية بين الطرفين المتنازعين أحسن استغلال فقد كان يأمر حامل كتبه أن يجعل طريقه على مضر فيكتب في الكتاب: اني رأيت أهل اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم فلا تثقن بهم ولا تطمئن اليهم فاني أرجو ان يريك الله ما تحب ولئن لا أدع لهم شعرا ولا ظفرا.

وعندما يمر رسوله على اليمن يكتب له مثل ذلك بحق المضرية وبهذه الوسيلة استطاع ان يكسب هوى الفريقين[1]. وانتقل بعد ذلك الى الكتابة الى زعيم مضر نصر بن سيار وزعيم اليمانية الكرماني ويقول لهما: إن الأمام أوصاني بكم ولست أعدو رأيه فيكم. وفي النهاية وقف أبو مسلم الى جانب اليمانية فاشتد ذلك على المضرية[2].

وبعد اتفاق ابي مسلم والكرماني بعث نصر الى الكرماني يقول: ويحك لا تغتر فوالله إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه فادخل مرو نكتب كتابا بيننا بالصلح. فمال الكرماني الى الصلح وقدم على نصر حتى يكتبوا بينهم وثيقة الصلح هذه الا أن نصرا وجه اليه ابن الحارث بن سريج في نحو من ثلاثمائة فارس فطعنه فمات ثأراً لابنه الذي قتله الكرماني. ويذكر الطبري ان نصرا صلبه ومعه سمكة وذلك احتقاراً للازد الذين كانوا يشتغلون بالملاحة[3].

وهكذا فشل اللقاء بين اليمانية والمضرية، بل اتجه على ابن الكرماني إلى ابي مسلم صراحة.

أما نصر فبعد أن فشل مع اليمانية اتجه إلى شيبان بن سلمى الخارجي وطلب وقوفه إلى جانبه لقتال أبي مسلم ثم يعودان إلى سابق عهدهم. وهم شيبان أن يفعل، ألا أن أبا مسلم بعث إلى علي بن الكرماني يقول: إنك موتور وقد قتل أبوك ونحن

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٣٠٣/٤ (المنيرية).

(٢) المصدر السابق ١٤٧/٥ (بولاق).

(٣) الطبري، تاريخ ٣٧١/٧.

نعلم أنك لست على رأي شيبان وإنما تقاتل لثأرك، فدخل ابن الكرماني على شيبان وثناه عن رأيه فأرسل نصر إلى شيبان يقول له: إنك لمغرور، والله ليتفاقمن هذا الأمر حتى يستصغر في جنبه كل كبيرة وقال يخاطب ربيعة:

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن ... إن اغضبوا قبل أن لاينفع الغضب

ما بالكم تنشبون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب

وتتركون عدوا قد أحاط بكم ... ممن تأشب لا دين ولاحسب[1]

بعد أن استولى أبو مسلم على هراة أيقن عرب خراسان فداحة الخطورة فجاء محمد بن نعيم الشيباني إلى ابن الكرماني وشيبان الصغير وقال لهما: اختاروا إما أنكم تهلكون أنتم قبل مضر أو مضر قبلكم. قالوا وكيف ذلك؟ قال أن هذا الرجل إنما أظهر أمره منذ شهر وقد صار في عسكره مثل عسكركم قالوا فما الرأي.

قال صالحوا نصرا وانكم إن صالحتموه قاتلوا مضرا وتركوكم لأن الأمر في مضر وإن لم تصالحوا نصر صالحوه وقاتلوكم فقدموا مضر قبلكم ولو ساعة من نهار فتقر أعينكم بقتلهم.

وهنا مال القوم إلى الموادعة فوادع نصر، الشيباني، ولما علم أبو مسلم بذلك بعث إلى شيبان يقول له: إنا نوادعك أشهرا فوادعنا ثلاث أشهر، وبعث ابن الكرماني إلى أبي مسلم يقول: إني ما صالحت نصراً انما صالحه الشيباني، وأنا لذلك كاره وأنا موتور بقتله ابي ولا أدع قتاله، فعاود القتال وطلب نجدة شيبان إلا أن هذا أبى أن يغدر بنصر، فبعث ابن الكرماني إلى ابي مسلم فأقبل أبو مسلم نحو مرو إلا أنه لم يقم سوى يومين ثم رجع إلى مركزه في الماخوان، وربما أن عودة أبي مسلم كانت بسبب خوفه من اجتماع المضرية واليمانية عليه، ولما رأى ابن الكرماني أنه أصبح وحيداً وافق على الموادعة مع نصر، فلما علم أبو مسلم بذلك عظم عليه الأمر[2].

وإذا نظرنا بدقة إلى ما حدث بين القبائل في خراسان نرى أنه لم يكن هناك موادعة حقيقية بل هدنة مؤقتة بين هذه القوى المتصارعة، وحتى هذه الهدنة كانت ظاهرية ذلك لأن العداوة كانت دفينه بين نصر والكرماني. ولكن الجو السياسي تطلب ذلك،

(١) ابن الأثير، الكامل ١٤٨/٥ (بولاق).
(٢) ابن الأثير، الكامل ١٤٨/٥ (بولاق).

وظهرت آثاره على أبي مسلم الذي أطلق العنان للسانه مهاجماً نصراً وشيبان الصغير مهدداً بقتلهما. ولشدة هول الصدمة انتقد كبير الدعاة سليمان بن كثير الخزاعي تصرفات أبي مسلم التي أفسحت المجال للتقارب بين شيبان ونصر[1].

لقد كانت دوافع ربيعة أن تضع مضر في فوهة المدفع أمام أبي مسلم، فكان القضاء على نصر هو هدفهم الأول. أما نصر فكان هدفه تجميع القوى ضد أبي مسلم. وبما أن عدم الثقة لم تكن متوفرة لدى الأطراف المتنازعة، فلا يتوقع من هذه الهدنة أن تدوم طويلاً. فاستغل أبو مسلم هذا التوتر احسن استغلال استطاع أن يفرق القبائل في خراسان عن بعضها البعض.

لقد أمر سليمان الخزاعي أبا مسلم أن يكتب إلى ابن الكرماني يذكره بعدوه اللدود نصر بن سيار وجاء في الرسالة ما يلي:

«إنك قد أعطيتني من نفسك ما تعلم، وقد أمرنا بالجهاد وأنت وقومك أنصار الحق قديماً. فأنتم أوتيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرتموه وقد أمرني صاحبي (ابراهيم الإمام) بأن استظهر بكم والقي أمري إليكم. وقد نصب لي نصر فان أجبتني وعاقدتني على القيام بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرتك أميراً علي وعلى من أجابني وطلعت أمرك وقتلت عدوك وصار لك سناد هذا الأمر وشرفه»[2].

وما أن سمع ابن الكرماني بالإمارة حتى سال لعابه واستسلم لأبي مسلم فبعث إليه يقول: «قد أجبتك حيث عرضت علي أمرك وهذه يدي عن نفسي وعن قومي جميعاً، ومرسل إليك أخي ووجوه أصحابي وكاشف لك أمري في ذلك. ولا بد لنا من الترفق بشيبان حتى نجمع لنا أمرنا ما نريد منه»[3].

وقد بالغ الدعاة في احترام ابن الكرماني حين قدم عليهم. وهكذا نجح أبو مسلم في إشباع رغبة ابن الكرماني المتعطشة للسلطة والإمارة فلم يكن الوقت وقت منافسة على السلطة بل كان الهدف هو ضمان كسب اتباع ابن الكرماني إلى جانب الثورة العباسية حيث لم يكن اتباع أبي مسلم يزيدون على أكثر من سبعة آلاف شخص سجلوا

---

(١) فاروق عمر، طبيعة الدولة العباسية ١٨٣.

(٢) مجهول، أخبار العباس ١٤٨أ، مخطوط، فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسي ١٨٤.

(٣) مجهولاً، أخبار العباس ١٤٨ب، طبيعة الدعوة العباسية ١٨٤-١٨٥.

نسبة إلى قراهم لا إلى قبائلهم، وقد كانت هذه خطوة بارعة من أبي مسلم لضمان وحدة الجند الخرسانية في كتلة واحدة بغض النظر عن كونهم يمانية أو ربعية أو مضرية أو عجمية[1].

ولما رأى نصر ذلك حاول أن يتقرب إلى أبي مسلم ليقف إلى جانب المضرية إلا أن أبا مسلم وحتى يعمق من العصبية القبلية طلب أن يحضر إليه وفداً من المضرية ووفداً من اليمانية حتى يستمع إلى وجهة نظريهما، وطلب من اتباعه أن ينحازوا إلى جانب اليمانية وربيعة لأن السلطان في مضر، وهم عمال مروان، وقتلة يحيى بن زيد.

قدم الوفدان فقام سليمان بن كثير فاختار علي بن الكرماني فأيدته باقي الشيعة، فنهضت مضر وعليها الذل والكآبة بينما عاد وفد ابن الكرماني مسرورين منصورين[2]. وبهذه الخطة عزل اليمانية عن المضرية وبقي عليه شيبان الصغير، فأعطاه حق استيفاء الضرائب ما بين نيسابور إلى هراة. وازدادت قوة أبي مسلم عندما انسحب شيبان إلى سرخس وذلك لأن شيبان كان يمثل عنصراً قلقاً في المسرح السياسي وربما ساعد نصر في نزاعه مع أبي مسلم[3].

وبعد أن زرع أبو مسلم الفرقة بين قوى خراسان أراد أن يصفي حسابه مع هذه الفرق، ورأى أن تكون الخطوة الأولى من القبائل نفسها، أي أن تصفي اليمانية المضرية ويبقى هو يراقب الوضع حتى يرى الوقت المناسب فيدخل ليفرض نفسه عليهما. لقد دس أبو مسلم إلى ابن الكرماني حتى ينشب الحرب مع نصر، فبدأ القتال بينهما. وبقي أبو مسلم يراقب الوضع بالرغم من أن ابن الكرماني طلب منه مؤازرته في قتال نصر وقد قال أبو مسلم لابن الكرماني صراحة: اني لست آمن اجتماعكما علي[4].

وحاول نصر أن يكسب أبا مسلم فبعث إليه يقول: إني معك وأنا أحق بك من ابن الكرماني وأنا أبايعك. لكن أبا مسلم وهو رجل الفرص لم يتدخل إلا بعد أن انهكت هذه القوى بعضها بعضا. وكيف يشترك في القتال وهو يقول: اللهم افرغ عليهما الصبر وانزع عنهما النصر[5].

(1) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ١٨٥-١٨٦.
(2) الطبري، تاريخ ٣٧٧-٣٧٨.
(3) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية ١٨٥.
(4) مجهول، تاريخ الخلفاء ٥٤٥.
(5) اليعقوبي، تاريخ ٨١/٣.

لقد جاء أبو مسلم إلى مرو بعد أن أيقن من النصر ومعه عشرة آلاف فضرب وجوه الأزد وتميم[1]. ودخل مرو دون أن يفقد رجلاً واحداً، وبعث إلى نصر حتى يأتيه إلا أن لاهز بن قريط أحد أعضاء الوفد قرأ أمام نصر ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك[2]. ففطن نصر إلى الأمر واحتال على الوفد وهرب إلى سرخس[3]. وبعد أن صفى أبو مسلم قوة نصر بن سيار اتجه إلى شيبان الصغير فبعث اليه يدعوه إلى طاعته غير أن هذا أعرض عن ذلك بل طلب بيعة أبي مسلم له فأرسل أبو مسلم إليه: إن لم تدخل في أمرنا فارتحل عن منزلك، فلما رأى شيبان ذلك بعث إلى ابن الكرماني حتى ينجده، إلا أن هذا أعرض عنه فانتقل شيبان إلى سرخس وهناك اجتمعت عليه بكر بن وائل فأرسل إليهم أبو مسلم وفداً من الأزد حتى يبايع إلى أبي مسلم فلم يقبل شيبان وسجن أعضاء الوفد[4].

وهنا رأى أبو مسلم لا بد من قتاله فأرسل خازم التميمي وبسام بن ابراهيم مولى بني ليث فاحتالا على شيبان متظاهرين بأنهما قدما من سرخس مجتازين إلى هراه ولا يريدان قتاله فلما وصلا سرخس هاجما على شيبان فقتل شيبان وعامة أصحابه[5]، فأرسل بسام رأس شيبان إلى أبي مسلم، إلا أن بساماً أقصى عن القيادة بسبب كثرة القتلى الذين سقطوا من بكر بن وائل لأسباب قبلية. ولما علم نصر بسقوط سرخس جزع أشد الجزع وقال: اليوم استحكم الشر على مروان. وذلك لأن أهل سرخس كانوا يداً واحدة على الهاشمية[6].

وبعد نهاية شيبان التفت أبو مسلم إلى ابن الكرماني، فقد خشي من ثورة اليمانية عليه وخاصة بعد أن تمكن زياد بن عبدالرحمن القشيري في بلخ من تجميع مضر واليمن وربيعة ومن معهم من الأعاجم حوله. إلا أن هذا فشل في حركته بسبب العصبية فقد ولوا عليهم مقاتل بن حيان النبطي كراهة أن يكون القائد من الفرق الثلاثة[7].

---

(١) ابن خياط، تاريخ ٤١٢.
(٢) سورة القصص، الآية ٢٠.
(٣) الطبري، تاريخ ٣٨٢/٧.
(٤) المصدر السابق ٧/٣٨٥–٣٨٦.
(٥) ابن خياط، تاريخ ٤١٢، مجهول، اخبار العباس ١٣٠أ، طبيعة الدعوة العباسية ١٩٨.
(٦) البلاذري، أنساب الأشراف ٧٩٢ب طبيعة الدعوة العباسية ١٩٨.
(٧) الطبري، تايخ ٣٨٧/٧.

إضافة إلى ذلك أن أبا مسلم قطع على نفسه وعداً لابن الكرماني بأمرة خراسان وهذا الوعد يشكل عقبة في طريق العباسيين خاصة وأن المهمّة التي جند إليها قد انتهت فبدأ أبو مسلم يتخذ الخطوات للخلاص منه.

بدأ عمله بتفريق أبناء الكرماني علي وعثمان فأرسل عثمان إلى بلخ وجاءت هزيمته من قبل المضرية في ترمذ لينهي الدعاة حياته فاغتالوه في هراة، واغتيل علي وهو في طريقه إلى نيسابور.

وهكذا تخلص أبو مسلم من ابن الكرماني الذي كان لانضمامه إلى كفة الدعاة أثر كبير في تغيير موازين القوى في خراسان.

مما تقدم نرى أن أبا مسلم قد استند في حركته بخراسان على العصبية القبلية وهذا يتنافى مع ما يذكره ابن قتيبة[1] والطبري[2] من أن ابراهيم الإمام قال لأبي مسلم عندما بعثه إلى خراسان: انظر إلى هذا الحي من اليمن فالزمهم وأسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر بهم إلا واتهم ربيعة في أمرهم. وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه. وإن استطعت ألا تبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل. وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله. ولا تخالف هذا الشيخ (سليمان بن كثير الخزاعي) ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني.

والشك يحوم حول هذه الرواية فالدينوري[3] وكتاب العيون والحدائق[4] لا تذكر النص الذي يأمر بقتل العرب دون تمييز ولكن الوارد أن الأمر كان بقتل العرب الذين يرفضون إطاعة ابي مسلم أو المشكوك في ولائهم. ويؤيد ذلك ما جاء في أخبار العباس على لسان أبي مسلم: أمرني الامام إن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا أدع نصيبي من صالحي مضر واحذر اكثرهم من اتباع بني أمية وأجمع إلى العجم[5].

وقال أبو مسلم في مناسبة ثانية: لقد أمرنا الإمام باختصاص اليمن[6].

(١) ابن قتيبه، الإمامة والسياسة ١١٤/٢.
(٢) الطبري، تاريخ ٣٤٤/٧.
(٣) الدينوري، الأخبار الطوال ٣٢٣-٣٢٤.
(٤) مجهول، العيون والحدائق، ١٨٤.
(٥) مجهول، أخبار العباس ١٣٨ب، طبيعة الدعوة العباسية ١٦٩-١٧٠.
(٦) مجهول، أخبار العباس ١٣٩.

نهاية نصر بن سيار وتصفية السلطة الأموية في خراسان:

لقد أخذ نصر يستنجد بالخلافة منذ أن خرج الكرماني عليه وبين كيف أنه شغل بهذه عن الدعاة العباسيين حتى تعاظم أمرهم ويايعهم مائتا ألف رجل من خراسان، وطلب من مروان أن يتدارك الأمر ويبعث إليه جنوداً حتى يتمكن من مجابهة أبي مسلم وضمن كتابه قصيدة شعرية مطلعها:

أرى تحت الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام[1]

ولما وصل الكتاب إلى مروان لم يحرك ساكناً، والواقع أن مروان معذور من هذه الناحية فقد كانت العراق في قبضة الخوارج وعبدالله بن معاوية، والطريق مقطوعة بين نصر وبين مقر الحكومة الأموية في الشام ولم يتغير الحال إلا في سنة ١٢٩هـ وبعد أن خضعت العراق لمروان[2].

وبعد أن خرج نصر من مرو أرسل إلى مروان يقول له: كتبت إلى أمير المؤمنين ولم يبق مني شيء على عدو أمير المؤمنين لا في رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي ولو كنت أمددتني بألف فارس من الشام لاكتفيت بهم ولقطعت دابر القوم الظالمين. إني حين كتبت إلى أمير المؤمنين قد أخرجت من جميع سلطاني فأنا واقف على باب داري وإن لم تأتني مواد أمير المؤمنين ووكلنا إلى ابن هبيرة طردت من باب داري ثم لا رجوع إليها إلى ملتقى الحشر[3].

ولما وصل كتابه إلى مروان بعث هذا إلى ابن هبيرة كي ينتخب اثني عشر ألفاً وأن يولي عليهم رجلاً حازماً ويبعث بهم إلى نصر، فرد عليه ابن هبيرة بأن ما معه من الجنود لا يفون بهذا العدد وإن فرض الشام أفضل من فرض العراق. لأن عرب العراق ليست لهم نصيحة للخلفاء من بني أمية وفي قلوبهم أحن[4]. ولما تأخرت النجدات أراد نصر أن يسوي الأمر بنفسه، إلا أن الانقسامات بين صفوف اتباعه جعلته لا يرى رأياً إلا تقدم

---

(١) الدينوري الأخبار الطوال ٣٣٩-٣٤٠.

(٢) فلهوزن، الدولة العربية ٤٦٣.

(٣) مجهول،أخبار العباس ١٥٢ب.

(٤) الدينوري الأخبار الطوال ٣٤٠.

وطلب برسالة جديدة الاسراع في النجدات[1].

ويادر مروان على الفور بأمر ابن هبيرة لإرسال النجدات، فأرسل نباته بن حنظله الكلابي. وللتنافس بين ابن هبيرة ونصر بن سيار جعله يضع نصراً تابعاً لنباته وهنا غضبت قيسية خراسان، وأجبرت نصر التوجه إلى جرجان وعدم الدخول في طاعة نباته مما أدى إلى هزيمة جيش الشام، إلا أن قحطبه الطائي قائد جيش الدعاة واجه مقاومة من فرس جرجان فاضطر إلى إعادة الهجوم، وبعد أن احتل المدينة قتل منهم ثلاثين الف رجل وذلك في ٣ ذي الحجة سنة ١٣٠هـ[2].

أما نصر فقد لقي حتفه في قرية ساوه يوم ١٢ ربيع الأول سنة ١٣١هـ. وفي نفس الوقت أعلن الدعاة الأمان لكل الذين عاونوا نصرا، وكانت هذه حركة بارعة من قبل الدعاة العباسيين فرفعت من سمعتهم وشأنهم تجاه دعاميات نصر بن سيار[3].

وبعد مقتل نباته جهز ابن هبيرة جيشاً بلغ تعداده خمسون ألفاً من أهل العراق وخراسان تحت قيادة عامر بن ضباره والتقى بجيش الدعاة في جابلق قرب اصفهان وفي هذه المعركة كان الطرفان يعلقان عليها أمالاً كبيرة وقال أهل العراق: أن ظفر ابن ضباره ثبت الملك وإن ظفر قحطبه تم الأمر لبني هاشم[4].

واستطاع قحطبه أن يقتل ابن ضباره ويهزم الأمويين فاعتصم هؤلاء بالمدينة إلا أن قحطبه تمكن من احتلال المدينة بعد أن مال إليه الجند الفلسطينيون فأمن أهل الشام وقتل ثلاثة آلاف من أهل خراسان عقاباً على تحديهم الدعوة العباسية[5].

وبعد هذه المعركة أصبحت قوات الدعاة على أبواب العراق ولا بد لمروان من اتخاذ التدابير لمقاومة هذا الجيش القادم من الشرق.

لقد انتهى الوجود الأموى من خراسان ووقعت جميعها تحت قبضة أبي مسلم الذي حقق انتصارات على القبائل العربية مستغلاً ما كان بينها من عصبية، ذلك الداء الذي نخر في عظام العرب ولم يفارقهم لحظة من حياتهم.

(١) مجهول،اخبار العباس ١٥٣أ-ب.
(٢) مجهول،العيون والحدائق ١٩٣.
(٣) فاروق عمر،طبيعة الدعوة العباسية ١٩٩.
(٤) مجهول، اخبار العباس ١٧٢أ.
(٥) فاروق عمر،طبيعة الدعوة العباسية ٢٠٢.

لقد لعبت العصبية القبلية دوراً بارزاً في نجاح أبي مسلم وتفتيت كلمة العرب فالأزد وقفت موقف المناوئ للحكم الأموي منذ قتل ابن المهلب[1]. ولما حدثت الفتن في الشام استغلت الفرصة ونهضت تطالب بثأره فتزعم هذه الحركة جديع بن علي الكرماني فوقف موقف المعارض من نصر بن سيار الذي لم يسلم من العصبية أيضاً.

وهكذا تكاتفت العصبية اليمانية والقيسية عن غير قصد في خدمة الحركة الجديدة في خراسان وهي الدعوة العباسية ومما زاد من سوء الموقف ان المضرية قد انقسمت على نفسها عندما انشق عليها الحارث بن سريج، وعبثا حاول نصر ان يستميله إلى جانبه فاتحد مع الكرماني ضد الباغي[2] في خراسان، ولم يفطن هذا إلى عصبيته إلا بعد فوات الأوان فقتل على يد حليفه الكرماني.

ومما ساعد الدعاة العباسيين في نجاحهم انهم استغلوا رجلا ضعيف السياسة والتدبير لا يبصر ما بين قدميه وهو علي الكرماني الذي أخذ يلهث وراء المطامع الشخصية إلى ان دارت عليه الدوائر.

الفتن في العراق:

لم تدم سلطة منصور بن جمهور في العراق طويلا، فقد عزله يزيد بن عبدالملك وعين بدلا منه عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز وفي عهده كادت ان تحدث فتنة بين جند الشام وجند العراق. والسبب في ذلك ان ابن عمر قسم أعطيات على أهل الشام فقال أهل العراق: أتقسم عليهم فيئنا وهم عدونا فقال لهم: اني أردت ان أرد عليكم فيئكم وعلمت إنكم أحق به فنازعني هؤلاء فأنكروا علي. فخرج أهل الكوفة وتجمعوا فجاء إليهم رؤساء الشام يعتذرون وينكرون ما نسب إليهم، وقام غوغاء الناس يطالبون بإخراج عبيدالله بن العباس الكندي نائب ابن عمر على الكوفة، إلا ان عمر بن الغضبان القبعثري تمكن من حل النزاع بينهم.[3]

وبعد موت يزيد ووقوع الفتن في الشام افتعل إسماعيل القسري كتابا على لسان

(1) فلهاوزن، الدولة العربية ٤٨٨.

(2) ابن خياط – تاريخ ٤٠٤.

(3) الطبري – تاريخ ٢٨٤/٧.

إبراهيم بن الوليد بولاية الكوفة، والتف حوله اليمانية إلا انه خشي ان يفتضح أمره لاسيما بعد ان رفض عبدالله بن عمر ان يسلمه مقاليد ولايته فتخلى عن كتابه وقال إني اكره سفك الدماء.[1] .

أما ابن عمر فقد أثار عليه ربيعة عندما أعطى المضرية وترك بعض رجالاتها فغضبت عليه واجتمعت لمناهضته. ولم يرجعوا إلا بعد ان جاء عاصم بن عمر وقال لهم هذه يدي لكم فاحكموا. فاستحيوا ورجعوا فكافأ ابن عمر رؤسائهم[2] .

ولما رأت الشيعة ضعف ابن عمر جاءت إلى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر وطلبوه للدعوة إلى نفسه لأن بني هاشم أولي بالأمر من بني مروان. فاستهوت هذه الدعوة ابن معاوية وأخذ يدعو إلى نفسه فلقيت دعوته قبولا عند اليمانية الهاربين من الشام. ولما أنس قوة في نفسه خرج على ابن عمر فطرد عاصم بن عمر نائبه على الكوفة وانتقل إلى الحيرة لمواجهته هناك.

ولما التقى ابن عمرو ابن معاوية قام رجل من أهل الشام وطلب رجلا من العراق فخرج إليه رجل من بكر بن وائل فقال له الشامي: والله ما أريد قتلك ولكن أحببت ان القي إليك حديثا أخبرك انه ليس معكم رجل من أهل اليمن إلا وقد كاتب ابن عمر وكاتبته مضر وما أرى لكم يا ربيعة كتابا ولا رسولا وأنا رجل من قيس فان أردتم الكتاب أبلغته ونحن غدا بازائكم فانهم اليوم لا يقاتلونكم. ولما عاد البكري إلى ابن معاوية وأخبره بالأمر نصحه ان يتأكد من ذلك، إلا ان هذا لم يستجب له، وفي بداية القتال تركته اليمانية وانضمت إلى ابن عمر ولم يبق معه إلا مضر وربيعة. ولما رأت مضر ضعف موقفه تركته وبقيت ربيعة وحدها حتى تمكنت من اخذ الأمان له[3]

ولما تولى مروان الخلافة أرسل إلى العراق النضر بن سعيد الحرشي إلا ان ابن معاوية رفض ان يسلم الأمر إليه، فانقسمت قبائل العراق على نفسها، القيسية وقفت مع النضر، واليمانية مع ابن عمر وبقوا مدة طويلة وهم يقتتلون، ولما أقبل الضحاك بن قيس الشيباني سنة ١٢٧ هـ أرسل ابن عمر إلى النضر ليوحدا من جهودهما فوافق النضر على ذلك، إلا ان الانقسام كان ظاهرا بين الطرفين، فالنضر يصلي بأصحابه وابن عمر

(١) ابن الأثير - الكامل ١٣٠/٥ (بولاق).
(٢) الطبري - تاريخ ٣٠٥/٧ ابن الأثير - الكامل ١٣١/٥ بولاق.
(٣) ابن الأثير - الكامل ١٣١/٥ بولاق.

كذلك، وهذا مما سبب في هزيمتهم أمام الخوارج في النخيلة فهربا إلى واسط وهناك عاد القتال بينهما. فتوجه إليهما الضحاك وحاصرهم مدة شهرين فقال منصور بن جمهور لابن عمر/ ما رأيت مثل هؤلاء فلم تحاربهم وتشغلهم عن مروان؟ وأعطهم الرضا واجعلهم بينك وبينه فانهم يرجعون عنا إليه ويوسعونه شراًفان ظفروا به كان ما أردت وكنت عندهم آمنا وان ظفر بهم وأردت خلافه وقتاله قاتلته وأنت تستريح. فقال ابن عمر لا تعجل حتى ننظر ولم يتريث منصور بل لحق بهم وهذا مما جعل ابن عمر يصالحهم أيضا. وهكذا كانت المطامع الشخصية سببا في ميل ابن عمر نحو الخوارج وخروجه على مروان بن محمد.

ولأول مرة في تاريخ الخوارج لا يعملون السيف في خصومهم فقد أمر الضحاك جنده بالا يتبعوا موليا ولا يجرحوا أحدا وأجل أهل الشام ثلاثة أيام، فمن دخل فيما دخلوا فيه فله مالهم، ومن أحب ان يتوجه حيث شاء من الأرض فليتوجه آمنا ومن أتاهم ألحقوه بهم ومن شخص لم يعرضوا له.[1].

وبعد صلح ابن عمر مع الخوارج عينه الضحاك الشيباني على كسكر وميسان وكور دجله والأهواز وفارس وأخذ منه الكوفة. وقد كان لهذا الصلح رنة كبيرة بين القبائل العربية لاسيما وان ابن عمر قد صلى خلف الضحاك. ولما كانت الصلاة مقدمة على السياسة فقد اعتبرت بكر بن وائل هذه الحادثة نصرا كبيرا على قريش وعبر عن ذلك شاعرهم بقوله:[2].

ألم تر أن الله أظهـــــر دينـــه   فصلت قريش خلف بكر بن وائل

أما النضر بن سعيد ومعه القيسية فقد تسللوا من واسط قبل صلح ابن عمر واتجهوا إلى مروان في القادسية وفي طريقه تمكن من القضاء على ابن ملجان خليفة الضحاك بن قيس الشيباني على الكوفة.[3].

وفي سنة ١٢٨ هـ وجه مروان يزيد بن عمر بن هبيرة واليا على العراق فسار هذا حتى نزل هيت وبلغ خبر وصوله المثنى بن عمران العائذي القرشي نائب الضحاك فوجه

(١) ابن خياط – تاريخ ٣٩٧.
(٢) ابن خياط – تاريخ ٣٩٠ الازدي – تاريخ الموصل.
(٣) ابن الأثير – الكامل ١٣٤/٥ (بولاق).

إليه منصور بن جمهور فسلك منصور طريق الانبار. أما ابن هبيرة فقد أخذ طريق عين التمر فرجع منصور والتقوا بغمر فاقتتلوا فهزم منصور وأصحابه وعادت فلولهم إلى الكوفة، وهنا خرج المثنى والتقى بابن هبيرة بالروحاء وتمكن ابن هبيرة من هزيمتهم كما هزم أيضا عبيده بن سوار التغلبي [١] مما مكن ابن هبيرة ان يدخل الكوفة ومنها توجه إلى واسط فساعده أهلها على فتح أبوابها فأخذ ابن عمر وأرسل إلى حران حيث سجن مع إبراهيم بن محمد بن علي[٢].

وبعد سقوط واسط اتجه الضحاك إلى واسط وهذا ما كان يخشاه مروان لأن الجزيرة هي مركز حكمه وقاعدة القبائل القيسية. فكتب مروان إلى ابنه عبدالله وكان على الجزيرة يأمره ان ينزل نصيبين. وهناك تمكن الضحاك من ضرب الحصار عليه ووصلت خيله إلى الرقة وأخذت قوته تتعاظم بما انضم إليه من الهاربين من مروان فرأى مروان أن لا بد من السير إليه وخاصة بعد ان فرغ من أمر حمص، والتقى به عند النصيبين.

وفي اليوم الأول من القتال سقط الضحاك قتيلا فخلفه الخيبري وتمكن هذا من الوصول إلى خيمة مروان وان يجلس على سريره إلا ان عبيد مروان تمكنوا من قتله.[٣]. وبعد ذلك هزم مروان قائد الخوارج الجديد شيبان بن عبدالعزيز اليشكري فاتجه إلى عمان وهناك قتله جلندي بن مسعود الأزدي فيما بعد[٤].

وبذلك انتهت فتنة الضحاك التي آزره بها قبائل ربيعة كما آزرت اليمانية من قبل ابن الأشعث الكندي[٥].

ومع هذا النصر الذي حققه مروان وقائده ابن هبيرة إلا ان أجزاء عديدة ن شرق الدولة الإسلامية لا زالت خارجة عن سلطانه فكان عليه ان يصفي جميع هذه الجيوب وقد تمكن ابن هبيرة من ذلك فقضى على ابن معاوية باصطخر وعلى سليمان بن حبيب بالأهواز وشيبان الجون الشيباني في شهرزور، وبدأ يستعد لمواجهة الخطر القادم من الشرق.

---

(١) ابن خياط - تاريخ ٤٠٣-٤٠٤.

(٢) المصدر السابق، ٤٠٥.

(٣) المصدر السابق، ٤٠٥

(٤) الطبري- تاريخ ٣٥٣/٧.

(٥) الذهبي - دول الإسلام ٦٢/١.

الفتن القبلية في الجزيرة العربية:

قامت الفتن القبلية في اليمامة بعد خروج يوسف بن عمر إلى العراق. فقد ثار المهير بن سلمى بن هلال الدؤلي على والي اليمامة علي بن المهاجر وقال له: اترك لنا بلادنا. وقدتم له ما أراد. واصبح المهير اميرا على اليمامة فاستخلف عند موته عبدالله بن النعمان أحد بني قيس بن ثعلبة فاستعمل هذا المندلث بن إدريس الحنفي على الفلج وهي قرية من قرى عامر بن صعصعة، وقيل لبني تميم. فاقتتلت بنو عامر مع المندلث فقتل المندلث وسمي هذا يوم الفلج الأول. ولما علم عبدالله بن النعمان بما حدث جمع ألفا من بني حنيفة وغزا الفلج فانهزمت القيسية وسمي هذا يوم الفلج الثاني. ولما رأت قيس ذلك تجمعت بطون بني عقيل وقشير وجعدة، وتمير وأغارت على بني حنيفة فقتلوا كل من صادفوه منهم فسمي هذا يوم النشاش[1].

واستمرت العصبية حتى سقوط الدولة الأموية وخاصة في عهد المثنى بن يزيد بن هبيرة الذي أرسله مروان على اليمامة وتعصبه لقيس وعزمه على الاقتصاص من بني حنيفة[2].

على أن اكبر فتنة حدثت في الجزيرة العربية هي فتنة الأزد. فقد قام هؤلاء باسم الخوارج واخرجوا إبراهيم بن جبلة الكندي وولوا عبدالله بن يحي الكندي الملقب بطالب الحق وذلك سنة ١٢٩هـ[3]. وهناك اجتمع إليه الاباضية وخلق من أهل البصرة وبايعه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي[4].

وبعد ان استولى طالب الحق على حضرموت اتجه إلى صنعاء واخرج منها القاسم بن عمر الثقفي ثم وجه جيشان إلى مكة أحدهما بقيادة بلج بن المثنى الأزدي، والثاني بقيادة المختار. وصادف وصول الخوارج في موسم الحج فاجتمع الناس إلى عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك لكنه كره القتال فأرسل عبدالله بن حسن بن حسين إلى الخوارج بعدم القتال حتى ينتهي المرسم.[5].

(١) ١- ابن الأثير- الكامل ٥/٢٩٨-٣٠٠ (بيروت).
(٢) المصدر السابق، ٥/٣٠٠.
(٣) المصدر السابق ٥/٣٠١.
(٤) ابن خياط - تاريخ ٤٠٦.
(٥) الأزدي- تاريخ الموصل ١٧٧.

ولذا فان ما نتج عن العصبية ليس فقط هو إسقاط الدولة الأموية فحسب بل ستكون سببا مهما في إضعاف الأمة الإسلامية فيما بعد وتغلب الأعاجم عليها .

وفي الختام

أسأل الله ان يلهمنا التوفيق لما فيه خير امتنا انه سميع مجيب .

﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ .

صدق الله العظيم

المصادر والمراجع

أ- القرآن الكريم

ب- المخطوطات:

١- ابن أحمد، صارم الدين إبراهيم بن عبدالقادر: التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب. مكتبة الاورزيانا - إيطاليا.

٢- البياسي، جمال الدين أبو الحاج يونس محمد بن إبراهيم الإنصاري:
الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، مخطوطة مصورة/ جامعة الدول العربية رقم ٦٥٤ ت.

٣- البلاذري، أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ- ٨٩٢م).
أ- أنساب الأشراف الجزء الثالث -مخطوطة مصورة - معهد الدراسات الإسلامية العليا - بغداد عن مخطوطة المغرب رقم ٦٨.
ب- أنساب الأشراف الجزء الحادي عشر -مخطوطة مصورة: جامعة الدول العربية رقم ٩١٧ت.

٤- ابن بهرام، أبو القاسم حسين بن علي بن محمد بن يوسف بحر (ت ٤١٨- أو ٤٢٨هـ): الايناس بعلم الأنساب، مخطوطة مصورة/ جامعة الدول العربية، رقم ٧٧ت.

٥- البغدادي، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام. مخطوطه مصورة - جامعة الدول العربية رقم ٣٥ت (مطبوع).

٦- التاذفي، رضى الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف (٨٧٧-٩٧١هـ). الآثار الرفيعة في مآثر ربيعة -مخطوطة مصورة- جامعة الدول العربية رقم ٢ت.

٧- الضبي أبو الوليد العباس بن بكار: أخبار الوافدين والوافدات على معاوية. مخطوطة مصورة / جامعة الدول العربية رقم ٨٧٦، ٨٨٧ز

٨- ابن طباطبا، محمد بن علي (٦٠٠-٧٠٩هـ) الأصيلي في الأنساب مخطوطه مصورة جامعة الدول العربية رقم ٤٢ ت.

٩- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت٩٥٣هـ) قيد الشريد في أخبار يزيد مخطوطة مصورة جامعة الدول العربية، رقم ٧٥٨ت.

١٠- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت٣٩٥هـ) الأوائل، مخطوطة مصورة، جامعة الدول العربية رقم ٣ت (مطبوع).

١١- المشاري، محمد بن علي بن الفتح (ت ٤٤١هـ) فضائل أبي بكر الصديق مخطوطة مصورة/ جامعة الدول العربية رقم ٣٦٢ت.

١٢- الكلبي. أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ).

أ- جمهرة النسب أو النسب الكبير - مخطوطة مصورة/ جامعة الدول العربية رقم ١٩٩، ٢٠٤، ٤٠٨ت.

ب- المثالب: مخطوطة مصورة: جامعة الدول العربية رقم ٤٠٤ت.

١٣- مؤلف مجهول: الفاصل بين الحق والباطل في مفاخر قحطان، مخطوطة مصورة جامعة الدول العربية رقم ٣٥٤ت.

١٤- مؤلف مجهول: أخبار العباس وولده - مخطوطة مصورة بمعهد الدراسات الإسلامية العليا - بغداد (مطبوع).

١٥- الهاروني: أبو الحسن احمد بن الحسين (ت٤٢١هـ) نصرة المذاهب الزيدية مخطوطة مصورة/ جامعة الدول العربية رق ١٩٧ ملل.

جـ- المصادر والمراجع العربية والأجنبية المطبوعة والمترجمة:

١- إبراهيم، محمد أبو الفضل وزميله: أيام العرب في الجاهلية والإسلام. دار إحياء الكتاب العربي، ١٩٥٠م.

٢- ابن أبي حديد، عز الدين أبو حامد عبدالحميد بن هبة الله (ت ٦٥٥هـ-١٢٥٧م) شرح نهج البلاغة، بيروت.

٣- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد: "المستطرف في كل فن مستظرف" وبهامشه ثمرات الأوراق في المحاضرات لتقي الدين الحموي ويليه ذيلان لابن حجة الحموي ولمحمد بن إبراهيم الأحدب- القاهرة، ١٩٣٣م.

٤- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ-١٢٣٢م).

أ- الكامل في التاريخ: المطبعة المنيرية ١٩٤٩، بيروت، ١٩٦٥، بولاق.

ب- اللباب في تهذيب الأنساب. القاهرة ١٣٥٧هـز

جـ- أسد الغابة في معرفة الصحابة. القاهرة.

٥- الأربلي، عبدالرحمن سنبط قنيتو (ت٧١٧هـ). خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك. تحقيق مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى بغداد.

٦- ارفنج، واشنجتون: حياة محمد - تعريب على حسني الخربوطلي دار المعارف القاهرة، ١٩٦٠م.

٧- ارنولد، السير توماس.

أ- الخلافة . تعريب جميل معلى. اليقظة العربية للتأليف والنشر.

ب- الدعوة إلى الإسلام: تعريب حسن إبراهيم حسن وزميله. النهضة ١٩٧١م.

٨- الأزدي، محمد بن عبدالله، فتوح الشام، تحقيق عبدالمنعم عامر القاهرة، سجل العرب ١٩٧٠م.

٩- الأزدي، سليمان بن الأشعث بن قيس. مصنف سنن أبي داود. تعليق الشيخ أحمد سعد علي، البابي الحلبي (١٣٧١هـ-١٩٥٢م).

١٠- الأزدي، الشيخ أبي زكريا يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم (٣٣٤هـ- ٩٤٥م) تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبه، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

١١- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن احمد (٢٠٤هـ-٨١٩م) أخبار مكة، المطبعة الماجدية، مكة المكرمة ١٣٥٢هـ.

١٢- الأسد، ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦م.

١٣- ابن الأصبغ، عرام السلمي: اسماء جبال تهامة وسكانها. تحقيق عبدالسلام هارون القاهرة، ١٣٧٣هـ.

١٤- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن احمد (ت٣٥٦هـ).

أ- الأغاني- طبعات : دار الكتب بولاق -ساس- بيروت- الهيئة المصرية.

ب- مقاتل الطالبيين - النجف- الحيدرية ١٣٥٣ .

١٥- الأصفهاني، أبو نعيم احمد بن عبدالله (ت٤٣٠هـ) دلائل النبوة، حيدر آباد/ الركن ١٣٦٩هـ.

١٦- الأصفهاني، حمزة بن الحسن (ت ٣٦٠هـ) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء، مكتبة الحياة بيروت.

١٧- الأصمعي، عبدالملك بن قريب (ت-٢١٧هـ) تاريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين -المعارف- بغداد ١٣٥٩هـ- ١٩٥٩م).

١٨- ابن اعثم الكوفي أبو محمد أحمد (ت ٣١٤هـ- ٩٢٦م) كتاب الفتوح حيدر آباد الدكن ١٩٦٨- ١٩٧٠م).

١٩- الافغـاني، سعيـد/ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام. دار الفكر، دمشق، ١٩٦٠م.
٢٠- الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. دار الكتاب العربي المصري، ١٣٤٢هـ.
٢١- الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحي (ت ٣٧٠هـ): المؤتلف والمختلف. تحقيق عبدالستار احمد الفراج، القاهرة، ١٣٨١هـ ١٩٦١م.
٢٢- أمين، احمد: أ- ضحى الإسلام، دار الكاتب العربي بيروت، ١٩٦٩.
ب- فجر لا إسلام. دار الكاتب العربي بيروت ١٩٦٩م.
٢٣- الأندلسي، محمد بن يحيى بن أبي بكر (ت ٧٤١هـ)، التمهيد والبيان في فضل الشهيد عثمان. تح محمود يوسف زايد، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٤.
٢٤- الأوبني، أبي عبيدالبكري: سمط اللآلىء، تحقيق عبدالعزيز الميني لجنة التأليف والنشر (١٣٢٤هـ- ١٩٥٦م).
٢٥- بارتولد. ف: تاريخ الحضارة الإسلامية، تعريب حمزة طاهر، دار المعارف، مصر.
٢٦- بامات، حيدر: مجالي الإسلام تعريب: عادل زعتير القاهرة، ١٩٥٦م.
٢٧- البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد / الحماسة، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٦٧م.
٢٨- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت٢٥٦هـ)
أ- صحيح البخاري- دار الشعب مصر.
ب- التاريخ الكبير، حيدر أباد- الدكن ١٣٦١هـ.
٢٩- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس وزميله، دار العلم، بيروت، ١٩٦٥م.
٣٠- البري، عبدالله خورشيد (دكتور): القبائل العربية في مصر في القرون الثلاث الأولى للهجرة، دار الكاتب العربي ١٩٦٧م.
٣١- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك (٤٦٤-٥٧٨هـ). الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم. القاهرة.
٣٢- البشاري، شمس الدين محمد بن احمد البشاري ويعرف بالمقدسي (ت-٣٧٥هـ): أحسن التقاسيم ف معرفة الاقاليم. ليدن ١٩٦٧م.
٣٣- البغدادي، أبو جعفر محمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ- ٨٥٩م):
أ- المنمق في أخبار قريش: تحقيق خورشيد احمد فاق. حيدر أباد الدكن ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

ب- المحبر- تصحيح ايلزه شيختن. المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت.
جـ- مختلف القبائل ومؤتلفها، نشرة فردنانه فستنفلد، غوتا ١٨٥٠م. واعادت طبعة بالأوفست مكتبة المثنى بغداد.
٣٤- البغدادي، عبدالقادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ) خزانة الأدب، بولاق ١٩٣٦م.
٣٥- ابن بكار، الزبير: (١٧٢-٢٧٦هـ) جمهرة نسب قريش- تحقيق محمود محمد شاكر مكتبة دار العروبة مصر.
٣٦- البكري أبو عبدالله عبدالله بن عبدالعزيز: معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥م.
٣٧- البلاذري، أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩هـ- ٨٩٢م).
أ- فتوح البلدان. مراجعة رضوان محمد رضوان. المكتبة التجارية مصر ١٩٥٩م. ومطبعة النهضة المصرية، مراجعة صلاح الدين المنجد ١٩٥٦م.
ب- أنساب الأشراف.
الجزء الأول: تحقيق محمد حميد الله - دار المعارف مصرى ١٩٥٩م.
الجزء الرابع: القسم الأول والثاني- القدس ١٩٣٨ وأعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى بغداد.
الجزء الخامس: القدس ١٩٣٨ وأعادت طبعه بالاوفست - مكتبة المثنى بغداد.
٣٨- بلاشير ويجيش: تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي- تعريب إبراهيم الكيلاني- دار المعارف مصر.
٣٩- بلتاجي، محمد. منهج عمر بن الخطاب في التشييع، دار الفكر العربي ١٩٧٠م.
٤٠- بليايف. ي. أ: العرب والإسلام والخلافة العربية، تعريب أنيس فريحة الدار المتحدة للنشر - بيروت، ١٩٧٣م.
٤١- تريتون م. س: أهل الذمة في الإسلام تعريب حسن حبشي. دار المعارف مصر ١٩٦٧م.
٤٢- ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية، ١٢٤٨هـ ١٩٢٩م).
٤٣- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: ديوان الحماسة، مختصر من شرح التبريزي، علق عليه محمد عبدالمنعم خفاجي، القاهرة ١٩٥٩م.
٤٤- التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤنسه، صححه احمد أمين وأحمد الزين. دار الحياة بيروت.

٤٥- الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد: فقه اللغة وسر العربية. المطبعة التجارية القاهرة.
٤٦- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (١٥٠-٢٧٥هـ).
أ- العثمانية، تحقيق عبدالسلام هارون، الخانجي، مصر ١٣٧٤هـ-١٩٥٥.
ب- البلدان. نشره مع مقدمه صالح احمد علي (دكتور). في مجلة كلية الآداب، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٢م.
جـ- رسالة في معاوية والأمويين. نشرها عزت العطار الحسيني. مكتب نشر الثقافة الإسلامية (١٣٦٥هـ-١٩٤٦م).
د- فضائل الترك - المطبعة العمومية مصر ١٨٩٨.
هـ- البيان والتبيين، الاستقامة، القاهرة ١٣٧٥هـ- ١٩٥٦.
و- التاج في أخلاق الملوك. تحقيق احمد زكي، القاهرة، ١٣٢٢هـ-١٩١٤م.
٤٧- الجاسر، حمد: أ- في سراة غامد وزهران. دار اليمامة، الرياض. ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
ب- في شمال غرب الجزيرة. دار اليمامة، الرياض ١٣٩٠- ١٩٧٠.
٤٨- جب، هاملتون، دراسات في حضارة الإسلام، تعريب إسلام عباس وزملائه دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤م.
٤٩- الجبوري، يحي (دكتور): الجاهلية، المعارف، بغداد، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
٥٠- جروونبنام، جوستاف. أ. فون، حضارة الإسلام، تعريب عبدالعزيز جاويد، مكتبة مصر.
٥١- الجزري، (مبارك محمد بن الاثير). (ت-٦٠٦هـ):
جامع الاصول في أحاديث الرسول تحقيق محمد حامد الفقي، الاهقرة، (١٩٤٩-١٩٥٥).
٥٢- جلوب، جون باجوت: أ- امبراطورية العرب تعريب خيري حماد بيروت ١٩٦٦م.
ب- الفتوحات العربية الكبرى تعريب خيري حماد، بيروت ١٩٦٦م.
٥٣- الجهشياري، أبو عبيدالله بن عبدوس (ت ٣٣١هـ):
الوزراء والكتاب- الحلبي القاهرة ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م.
٥٤- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ).
أ- سيرة عمر بن الخطاب، عنى بضبطه طاهر النعمان وزميله، المطبعة المصرية، الأزهر ١٩٣١م.

ب- سيرة عمر بن عبدالعزيز: تحقيق محب الدين الخطيب. المؤيد القاهرة، ١٣٣١هـ.
٥٥- ابن الجوزية، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن بكر الزرعي المعروف بابن الجوزية (ت-٧٥١هـ) زاد المعاد في هدى خير العباد، مصر.
٥٦- جوزي، بندلي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، القدس ١٩٢٨م.
٥٧- جولدتسهير، اجناس: العقيدة والشريعة في الإسلام. تعريب حسن عبدالقادر وزملائه، دار الكاتب المصري- القاهرة، ١٩٤٦م.
٥٨- حتى، فيليب: أ- موجز تاريخ العرب، دار العلم بيروت، ١٩٥٤.
ب- تاريخ العرب المطول، دار الكشاف للنشر والطباعة ١٩٦١م.
٥٩- ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد (ت- ٤٥٦هـ).
أ- جمرة أنساب العرب تحقيق عبد السلام هارون، المعارف مصر ١٩٦٢.
ب- حجة الوداع، دار اليقظة بيروت ١٩٦٦.
ج- جوامع السير، دار المعارف مصر.
د- المحلّى، المنيرية، مصر ١٣٥١.
٦٠- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (٨٥٢هـ): الاصابة في تمييز الصحابة، نسخة مصورة بالأوفست عن الطبعة المصرية الأولى ١٣٢٨ هـ وبهامشه الاستيعاب لابن عبدالبر.
٦١- حسن إبراهيم حسن: أ- تاريخ الإسلام السياسي النهضة المصرية، ١٩٦٤.
٦٢- حسن علي حسن، التاريخ الاسلامي العام، النهضة المصرية ١٩٦٣.
ب- النظم الإسلامية، ١٩٧٠.
٦٣- حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاؤون في صدر الاسلام، المطبعة النموذجيه، القاهره.
٦٤- حسين، طه، الفتنة الكبرى، دار المعارف مصر.
٦٥- حسين، مولوي، س. أ. ق: الإدارة العربية، تعريب إبراهيم العدوي القاهرة ١٣٧٨هـ- ١٩٥٨م.
٦٦- الحصري، ساطع: أ- دراسات عن مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.

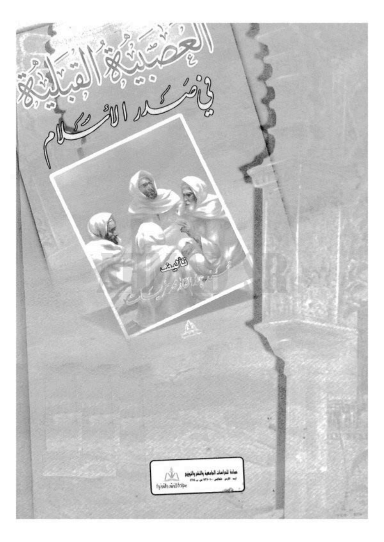
ب- آراء وأحاديث في القومية العربية، الاعتماد مصر، ١٩٥١ .
٦٧- الحلبي، علي بن برهان الدين: (١٠٤٤هـ- ١٦٣٤م): انسان العيون في سيرة الأمين المأمون الشهيرة، بالسيرة الحلبية، مطبعة الحلب، القاهرة، ١٩٦٤م.
٦٨- حمزة، فؤاد: قلب الجزيرة العربية المكتبة السلفية ١٩٣٣م.
٦٩- حمودة، عبدالوهاب: نظرية الانساب في الميزان، مجلة كلية الآداب، ١٤ أيار ١٩٥٢، القاهرة.
٧٠- الحوفي، احمد محمد (دكتور):
أ- أدب السياسة في العصر الاموي، القاهرة ١٩٦٥ .
ب- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، نهضة مصر ١٩٦٢ .
٧١- الخربوطلي، علي حسني: (دكتور).
أ- العلاقات السياسية بين العرب واليهود في العصور القديمة. معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩ .
ب- العرب والحضارة، الانجلو المصرية، ١٩٦٦ .
جـ- العراق في ظل الحكم الاموي. دار المعارف، مصر، ١٩٥٩ .
د- الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٠م.
٧٢- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبيد الله (ت حوالي ٣٠٠ هـ - ٩١٢): المسالك والممالك، ليدن ١٩٦٧ .
٧٣- خليف، يوسف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، المعارف مصر، ١٩٦٦ .
٧٤- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس احمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ).
وفيات الاعيان، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، النهضة المصرية ١٣١٠هـ- ١٩٤٨م).
٧٥- ابن خلدون، عبدالرحمن (٨٠٨هـ- ١٤٠٥ أو ١٤٠٦).
أ- العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة دار البيان وطبعة بولاق.
ب- المقدمة. دار احياء التراث العربي، بيروت.
٧٦- خليفة، حاجي: كشف الظنون، استانبول ١٩٤٤ .
٧٧- الخضري، محمد: تاريخ الامم الإسلامية، المطبعة التجارية الكبرى، ١٣٨٢هـ.

٧٨- الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد: الديوان، دار الأندلس بيروت.
٧٩- ابن خياط، أبو عمر خليفة (ت ٢٤٠هـ).
أ- تاريخ: تحقيق اكرم العمري. النجف ١٣٨٦هـ- ١٩٦٧.
ب- الطبقات: تحقيق اكرم العمري. العاني بغداد ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.
٨٠- خودا بخش، صلاح الدين: حضارة الإسلام، تعريب علي حسني الخربوطلي، دار الثقافة بيروت ١٩٧١م.
٨١- الدباغ، مصطفى مراد. الجزيرة العربية، دار الطليعة بيروت ١٩٦٣.
٨٢- دروزة، محمد عزة:
أ- تاريخ الجنس العربي - المكتبة المصرية بيروت ١٩٥٩- ١٩٦٢.
ب- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، بيروت ١٣٨٤- ١٩٦٥.
جـ- عصر النبي وبيئته قبل البعثة، اليقظة العربية بيروت ١٩٦٤.
٨٣- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن ايدمر: الانتصار، المطبعة الأميرية، بولاق ١٣٠٩هـ.
٨٤- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: الاشتقاق، تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٨هـ- ١٩٥٨م.
٨٥- الدوري، عبدالعزيز: (دكتور).
أ- مقدمة في تاريخ صدر الإسلام. الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٠.
ب- علم التاريخ عند العرب، الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٠م.
جـ- مقدمة في تاريخ الاقتصاد العربي، دار الطليعة بيروت، ١٩٦٩م.
٨٦- الدولابي، أبو بشر محمد بن احمد بن حماد (ت-٣١٠هـ) الكنى والأسماء: حيدر آباد الدكن ١٣٢٢هـ.
٨٧- الدينوري، أبو حنيفة احمد بن داود (ت٢١٨هـ): الأخبار الطوال، السعادة، مصر ١٠٩٢م.
٨٨- ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني (١١١٠هـ-١٦٩٨م) المؤنس في أخبار افريقية وتوس، تونس ١٣٨٦هـ.
٨٩- الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، طبعة مصر ١٩٠٢.





AHMAD SR


العصبية القبلية
في صدر الإسلام
تأليف
عمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع